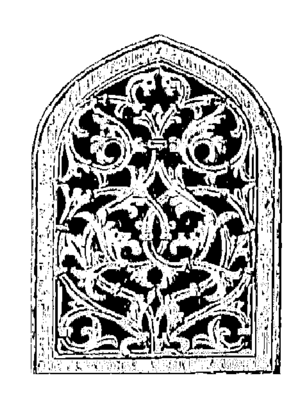
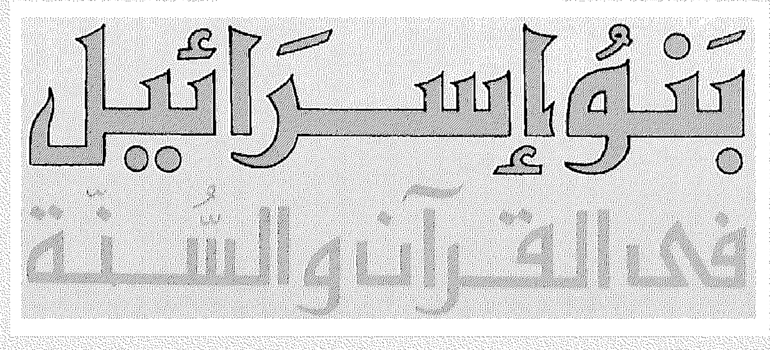
فضيلة الإمام الأكبر
د. محمد سيد طنطاوى
شيخ الجامع الأزهر





بنو إسرائيل

في القرآن والسنة

طبعة دار الشروق الأولى
نوفمبر ١٩٩٧ م

الطبعة الثانية
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

بنو إسرائيل

فى القرآن والسُّنّة

لفضيلة الإمام الأكبر
الدكتور محمد سيّد طنطاوى
شيخ الأزهر

دار الشروق

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

« مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين »

الفصل الرابع

« تأديب اليهود »

الفصل الخامس

« نعم الله على بنى إسرائيل وموقفهم الجحودى منها »

الفصل السادس

« رذائل اليهود كما يصورها القرآن الكريم »

الفصل السابع

« دعاوى اليهود الباطلة وكيف رد القرآن الكريم عليها »

الفصل الثامن

« وعيد الله وعقوباته لبنى إسرائيل »

خاتمة

« فلسطين ومراحل الغزو الصهيونى لها »

بسم الله الرحمن الرحيم

* * *

قال الله تعالى :

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه وبعد :
فإن القارئ للقرآن الكريم يجده قد فصل الحديث عن بنى إسرائيل تفصيلا وافيا، ووصف أحوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وصفاً صادقاً مستفيضاً .

ففى الآيات والسور المكية تحدث القرآن الكريم عن قصصهم ، وعن تعذيب فرعون لهم وعن أحوالهم المختلفة فى العهود التى سبقت بعثة النبى ﷺ .

أما فى الآيات والسور المدنية فقد تحدث عن موقفهم من الدعوة الإسلامية ، وعما أسبغه الله عليهم من نعم ، وما أنزله بهم من نقم ، جزاء فسقهم عن أمر ربهم ، كما تحدث بالتفصيل عن أخلاقهم ورذائلهم ودعاواهم الباطلة وعن مسالكهم المتنوعة لكيد الإسلام والمسلمين .

والقرآن الكريم فى حديثه عن بنى إسرائيل ، يربط ربطا محكما بين طباع وأخلاق المعاصرين منهم للنبى ﷺ وطباع وأخلاق آبائهم الأولين الذين عاصروا موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وذلك ليبين أن ما عليه الأبناء من فسوق وعصيان ومحاربة لدعوة الإسلام ، إنما هو ميراث من الخلق السيئ توارثه الخلف عن السلف وأخذه الأبناء عن الآباء .

ومن الأدلة على صدق القرآن الكريم أن ما وصفهم به من صفات نراها فى كل زمان ومكان منطبقة عليهم ، ولم تزدهم الأيام إلا رسوخا فيها .

فمثلا صفة الحرص على الحياة نراها متمثلة فيهم فى كل الأوقات والعصور .

ونحن المسلمين قد نالنا من اليهود أذى كثير .. فهم الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بكل سلاح . . . وهم الذين اغتصبوا - بمعاونة دول الكفر - بقعة من أرضنا المقدسة - وهى فلسطين - وأقاموا عليها دولة لهم فى عام ١٩٤٨م .

وقد كتب الكاتبون - خصوصا بعد هذا التاريخ - مئات الكتب والبحوث والمقالات عن اليهود وعن فلسطين ، إلا أن معظم ما كتبوه ينصب على الجوانب

السياسية والتاريخية، والاقتصادية والعسكرية .. أما الجانب الدينى فما زال في حاجة إلى الكتابة العلمية الرصينة التى تستمد حديثها عن اليهود من كتاب الله تعالى ،ومن سنة رسوله ﷺ .

ولقد كان مقصدى الأول عندما اخترت موضوع رسالتى (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة) أن أكشف للشباب المسلم بصفة خاصة ، وللعقلاء والمنصفين بصفة عامة عن أحوال بنى إسرائيل ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وأكاذيبهم ، وقبائحهم .. معتمداً فى بيان ذلك كله على ما جاء عنهم فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، وفى التاريخ الصحيح .

وقد تضمنت هذه الرسالة ثمانية فصول وخاتمة .

أما الفصل الأول فقد تحدثت فيه عن تاريخ اليهود وأحوالهم منذ هجرتهم إلى مصر بقيادة يعقوب ـ عليه السلام ـ فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريبا ، إلى التدمير الثانى لأورشليم على يد الرومان سنة ٧٠م ، ثم ختمته بالحديث عن تاريخ يهود جزيره العرب وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن منهاج القرآن الكريم فى دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ، وبينت بعض مظاهر إنصافه لهم وإحسانه إليهم .

وفى الفصل الثالث فصلت الحديث عن مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين، وقد سقت عشر وسائل من وسائلهم الخبيثة التى اتبعوها لكيد الإسلام والمسلمين ،ثم ختمت هذا الفصل ببيان موقف الرسول ﷺ منهم .

أما فى الفصل الرابع فقد تحدثت عن لقاء السيف بين المسلمين واليهود، وشرحت بالتفصيل والتحليل ما حصل فى غزوات : بنى قينقاع والنضير وقريظة وخيبر ، كما تكلمت عن مقتل بعض زعماء اليهود ككعب بن الأشرف وغيره .

وأما فى الفصل الخامس فقد فصلت الحديث عن نعم الله على بنى إسرائيل، وعن موقفهم من هذه النعم، وبينت كيف أدت بهم مواقفهم الجحودية إلى سوء العقبى فى الدنيا والآخرة.

وفى الفصل السادس تحدثت حديثا طويلا عن رذائل اليهود كما صورها القرآن الكريم ،وفصلت القول وحققته فى كثير من المسائل التى اختلف فيها المفسرون.

وفى الفصل السابع تكلمت عن دعاواهم الباطلة كما حكاها القرآن الكريم عنهم ، وكيف رد القرآن عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضح أكاذيبهم.

وفى الفصل الثامن ذكرت طائفة من العقوبات التى عاقب الله بها بنى إسرائيل جزاء ظلمهم وبغيهم على وفق ما ذكرته آيات القرآن الكريم .

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن فلسطين والغزو الصهيونى لها فى مراحله المختلفة، وبينت فى نهايتها أهم الأسباب التى أدت إلى كارثة فلسطين، وأهم الوسائل التى متى اتبعناها ـ نحن المسلمين ـ عادت إلينا فلسطين .

هذه هى فصول الرسالة ، وقد راعيت عند كتابتها أمورا من أهمها :

(١) العناية بجمع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم عن بنى إسرائيل ووضعها فى المواضع التى تناسبها ، ثم تفسيرها تفسيرا علمياً محققاً .

(٢) ذكر الأحاديث النبوية الشريفة التى تناسب تلك الآيات .

(٣) الاستشهاد بحقائق التاريخ وبالأحداث الجارية عند تفسير الآيات الكريمة، كما يرى ذلك بوضوح عند تفسيرى لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ فقد ذكرت نماذج كثيرة للعقوبات التى حلت باليهود فى الأزمان المختلفة .. ثم بينت السبب فى إنزال هذه العقوبات بهم.

(٤) عند تفسيرى للآيات تعرضت لآراء المفسرين ، واخترت أمثلها فى نظرى مع بيان السبب فى ذلك الاختيار ، وانظر ـ مثلا ـ تفسيرنا لقوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

(٥) اهتممنا بالناحيتين: التاريخية والسياسية لفلسطين اهتماما ملحوظا ، كما يرى ذلك بوضوح فى الفصل الأول والخاتمة .. وأثبتنا بإيمان وإخلاص جملة وسائل نراها كفيلة بإعادة فلسطين إلينا .

ونسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٢ من المحرم سنة ١٤١٨ هـ
٢٩ من مايو سنة ١٩٩٧ م

شيخ الأزهر
أ.د محمد سيد طنطاوى

الفصل الأول
تاريخ بني إسرائيل وأحوالهم في جزيرة العرب

* * *

كلامنا في هذا الفصل يتناول المباحث الرئيسية الآتية :

أولا : لم سُمِّى اليهود بالعبريين . أو الإسرائيليين أو يهود ؟.

ثانياً : نظرة مجملة في تاريخهم منذ نزوحهم إلى مصر بقيادة يعقوب ـ عليه السلام ـ حوالى سنة ١٩٠٠ ق م إلى خراب (أورشليم) الثاني على يد (تيطس) الروماني سنة ٧٠م.

ثالثاً : هجرتهم إلى جزيرة العرب ، وبيان أحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها .

المبحث الأول

من أشهر أسماء بني إسرائيل: العبريون ، والإسرائيليون ، ويهود أو اليهود ، وقد اختلفت الآراء في سبب تسميتهم بالعبريين أو العبرانيين:

١ ـ فقيل : إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى إبراهيم نفسه ، فقد ذكر في سفر التكوين باسم (إبراهيم العبراني) لأنه عبر نهر الفرات وأنهارا أخرى .

٢ ـ وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى (عِبْر) وهو الجد الخامس لإبراهيم ـ عليه السلام.

٣ ـ وقد خالف الدكتور إسرائيل ولفنسون الرأيين السابقين، وأبدى رأيا ثالثاً في سبب هذه التسمية ، فقال : « إن كلمة عِبْرِى ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل ، وذلك أنهم كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان ، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى،

وكلمة عبرى فى الأصل مشتقة من الفعل الثلاثى عبر بمعنى : قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادى أو النهر من عَبْره إلى عَبْرِه، أو عبر السبيل : شقها ، وكل هذه المعانى موجودة فى هذا الفعل سواء فى العربية أو العبرية ، وهى فى مجملها تدل على التحول والتنقل ،الذى هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء، وأهل البادية، فكلمة عبرى مثل كلمة بدوى أى : ساكن الصحراء أو البادية ، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بنى إسرائيل: بالعبريين؛ لعلاقتهم بالصحراء ، وليميزوهم عن أهل العمران ، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبرى التى كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والخشونة ، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببنى إسرائيل فقط (١) ».

ومن كلام الدكتور ولفنسون نستلخص : أنه يرى أن تسمية بنى إسرائيل بالعبريين ليس سببها حادثة بعينها، أو شخصاً بعينه ، وإنما سببها معيشتهم فى الصحراء ، وعبورهم للرعى ، والبحث عن وسائل العيش من مكان إلى آخر.

هذا وقد نشرت إحدى المجلات بحثاً (٢) للأب (إسحاق ساكا) عنوانه (معنى التسميات للشعوب الساميّة الثلاثة الكبرى ..) رجح فيه الرأى الأول فقال : « وقد رجح العلماء الثقات ـ ومنهم العالمان السريانيان ابن الصليبى المتوفى سنة ١١٧١م، وابن العبرى المتوفى سنة ١٢٨٦م ـ الرأى الأول، وهو: أن التسمية ناتجة عن عبور إبراهيم ـ عليه السلام ـ نهر الفرات ، وأيد ابن العبرى قوله بالترجمة اليونانية (آكوبلا) التى تترجم (العبرانى) بـ(المجتاز) أو العابر، وقد أخذ بهذا الرأى ـ أيضا ـ الدكتور ليفن فقال : «إنه مشتق من فعل معناه عبور النهر» ، وفى هذا إشارة إلى عبور إبراهيم نهر الفرات ، وفى هذه الحالة يمكن أن تترجم الكلمة إلى (مهاجر) وهذه قد تظهر طريقة الكنعانيين فى التحدث عن إبراهيم . ومما يؤكد هذا الرأى ـ أيضا ـ ما جاء فى سفر يشوع :« هكذا قال الرب إله إسرائيل فى عَبْر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر ، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت أباكم إبراهيم من عبر النهر، وسيرته فى جميع أرض كنعان».

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ ، للدكتور إسرائيل ولفنسون ، الذى كان مدرساً للغات السامية بكلية دار العلوم ، ثم هاجر إلى فلسطين ومات بها قبل أن تقوم دولة إسرائيل.

(٢) مجلة العربى الكويتية : العدد ٩١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٦ ص ١٥١ .

ثم تابع الأب (ساكا) كلامه فقال : « وإضافة إلى ذلك نقول : إن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات » هذا فضلا عن أن الأخذ بهذا الرأى اقرب إلى الصحة من الرأيين الآخرين . كيف لا وهو رأى معظم العلماء وفحولهم؟

وأما الرأى الثانى فالأخذ به صعب ، أولا : لأن بين إبراهيم - الذى كان أول من وصف بهذه التسمية - وبين عابر أو عَبْر مدة ستة أجيال متوالية ، فلو شاء إبراهيم أن ينسب إلى أحد أجداده لكان من البدهى أن يعزى إلى سام أشهر أجداده.

ثانيا : لو كانت النسبة إلى عابر فَلِم لم ترد فى الكتاب طيلة ستمائة سنة ؟ ولم لم يُسَمَّ بها إبراهيم قبل عبوره نهر الفرات وهو بعد فى أرضه وعشيرته ؟ وما الحكمة فى نسبته إلى عابر دون غيره ؟ ولم لم ينوه كاتب التوراة بذلك ؟ هذا كله يحملنا على استبعاد هذا الرأى من الأذهان .

أما الرأى الثالث - وهو رأى الدكتور ولفنسون - فلا يُركن إليه ؛ لأنه لو كانت التسمية متأتية من الهجرة والتنقل لكانت معظم الأمم السامية نعتت بها . أليس الدكتور ولفنسون نفسه عند كلامه عن مهد الساميين الأصلى، والحركات عند أغلب الامم السامية، كالبابليين، والآراميين، والإسرائيليين، والعرب يقول :

« يلاحظ فى مظاهر أغلب هذه الامم أنها مظاهر تكاد تكون صحراوية فعواطف هذه الأمم وخيالها واتجاه أفكارها مما يشعرنا بروح الصحراء » فإذا كانت التسمية متأتية من التنقل ،وحياة البداوة كقوله ، فَلِمَ لم تدع بها كلُّ الأمم السامية ؟ ولم خصت بالإسرائيليين وقد كانوا ينفرون منها كما زعم هو نفسه ؟، وإذا صح قول الدكتور إسرائيل ولفنسون : أن العبرانيين كانوا ينفرون من هذه التسمية ، وبعد أن استقروا وتحضروا استبدلوها بالإسرائيلى ، فلماذا لم يستبدلوا أيضاً اسم لغتهم العبرانية بالإسرائيلية ؟ فرأيه إذاً لا يقوم على الدليل المقنع ، وبالتالى يكون الرأى الأول هو المعقول، ويجب الأخذ به » .

هذه بعض الآراء التى تعرضت لسبب تسمية بنى إسرائيل بالعبريين أو العبرانيين، ويبدو لنا أن أرجحها هو الرأى الأول ؛لأنه كما قال الأب إسحاق ساكا - هو رأى معظم العلماء وفحولهم.

ننتقل بعد ذلك إلى بيان سبب تسميتهم بالإسرائيليين، أوبنى إسرائيل فنقول : سموا بذلك نسبة إلى أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم

الصلاة والسلام ـ وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى :عبد أو صفوة ، ومن (إيل) وهو الله ، فيكون معنى الكلمة : عبد الله ، أو صفوة الله.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر ولدا ، وذلك أنّه أعقب من زوجته (ليئة) ستة أولاد وهم : رأوبين ـ شمعون ـ لاوى ـ يهوذا ـ يسّاكر ـ زبولون .

وأعقب من زوجته (راحيل) اثنين هما : يوسف ـ بنيامين .

وأعقب من (زلفا) جارية (ليئة) اثنين هما : جاد ـ أشير .

وأعقب من (بلها) جارية (راحيل)اثنين هما : دان ـ نفتالى .

ومن أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ وذرياتهم من بعدهم تكوّنت أمة بنى إسرائيل ونسبت إليه .

وقد جاء ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن سبب تسميتهم بيهود فنقول.

١ ـ قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا : إنا هدنا إليك ، أى :تبنا ورجعنا.

قال صاحب لسان العرب : (الهَوْد: التوبة ، هاد يهود هودا : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد ، وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى: تبنا ورجعنا إليك . وهو قول مجاهد وسعيد بن جبيرو إبراهيم. ويهود اسم للقبيلة ، وقالوا (اليهود) فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة النسب يريدون اليهوديين ،وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ معناه : دخلوا اليهودية . وهوّد الرجل : حوله إلى اليهودية، وهاد ويهود إذا صار يهوديًا . قال سيبويه : وفى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه» معناه :أنهما يعلمانه دين اليهودية أو النصرانية ويدخلانه فيه »(٢) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٣ .

(٢) لسان العرب لابن منظور حـ ١٥ ص ٤٣٩ : طبعة دار صادر بيروت .

٢ ـ وقيل إنهم سموا بذلك ؛لأنهم يتهوَّدون ، أى : يتحركون عند قراءة التوراة .

٣ ـ وقيل : إنهم سموا يهودا نسبة إلى (يهوذا) الابن الرابع ليعقوب ـ عليه السلام ـ.

وقد رجح بعض العلماء هذا القول واقتصر عليه . قال البيْرونى مؤيدا هذا القول : « وإنما سموا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط ، فإن الملك استقر فى ذريته ،وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة ، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها » (١).

وقد كان (يهوذا) هو الحاكم لسائر أبناء أبيه الأحد عشر بتقديم أبيه له . وظل كذلك حتى مات ، وكان سبطه من بعده هو المقدم على سائر الأسباط الأخرى ، إلى أن انقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ إلى قسمين :

مملكة يهوذا ومقرها (أورشليم) ، وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين، ومملكة إسرائيل ومقرها (السامرة) . وتتكون من بقية الأسباط العشرة .

وبعد سقوط دولة إسرائيل على يد الأشوريين سنة ٧٢١ ق م، دخل من بقى منهم تحت طاعة ملوك يهوذا ، إلى أن سقطت مملكة يهوذا على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق م، وساق الأحياء منهم أسارى إلى بابل ، وعرفوا حينئذ ببنى يهوذا ، وقيل للواحد منهم يهودى ، ثم اتسعت هذه الكلمة فصارت تشمل جميع العبرانيين، وبنى إسرائيل ومن دخل فى اليهودية من الأجناس الأخرى .

يقول الدكتور جواد على : « ولفظة يهود أعم من لفظة عبرانيين وبنى إسرائيل، ذلك أن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل فى دين يهود، وهو ليس منهم ، وقد أطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا لفظة يهود على أنفسهم وعلى كل من دخل فى ديانتهم ؛تمييزا لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين، وهم الغرباء » (٢).

وإلى هنا نكون قد بينا : لم سمى اليهود بالعبرانيين ، أو ببنى إسرائيل ، أو بيهود .

---

(١) تاريخ الملل والنحل للمرحوم الأستاذ أمين الخولى جـ ٢ ص ٤ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على حـ ٦ ص ٩٥، طبعة المجمع العلمى العراقى.

المبحث الثانى

(نظرة مجملة فى تاريخ بنى إسرائيل)

كلامنا فى هذا المبحث يتضمن بيانا إجماليا عن تاريخ بنى إسرائيل وأحوالهم منذ نزوحهم إلى مصر حوالى سنة ١٩٠٠ ق م بقيادة يعقوب ـ عليه السلام إلى خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى سنة ٧٠ م.

وسيكون حديثنا ـ عن تاريخ بنى إسرائيل وأحوالهم فى هذه الفترة التى تبلغ زهاء عشرين قرنا على النحو التالى :

(أ) تاريخهم منذ نزوحهم إلى مصر حتى خروجهم منها خلال القرن الثالث عشر ق م.

(ب) تاريخهم منذ خروجهم من مصر إلى تأسيس مملكتهم على يد طالوت (شاول) حوالى سنة ١٩٠٥ ق م.

(جـ) تاريخهم منذ تأسيس مملكتهم حتى انقسامها إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل حوالى سنة ٩٧٥ ق م.

(د) تاريخهم منذ انقسام المملكتين إلى خراب أورشليم الأول على يد (بختنصر) سنة ٥٨٦ ق م.

(هـ) تاريخهم منذ خراب أورشليم الأول إلى خرابها الثانى على يد (تيطس الرومانى) سنة ٧٠م .

وهاك الكلام مفصلا عن كل فترة من هذه الفترات الخمس :

(أ) يرى بعض المؤرخين أن يعقوب ـ عليه السلام ـ هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد (١) . على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة ، وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف ، وتفصيل ذلك أن أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة وطلب القوت ، فتعرفوا على أخيهم يوسف ـ عليه السلام ـ الذى كان فى ذلك الوقت أمينا على خزائن مصر ـ فأكرمهم ،وطلب منهم أن يحضروا جميعا، ومعهم

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص ٤٠ .

أبوهم يعقوب ـ عليه السلام ـ إلى أرض مصر؛ ليعيشوا فيها، ويهجروا فلسطين . . وقد لبى يعقوب طلب يوسف ـ عليه السلام ـ فحضروا إلى مصر وكان عددهم ستا وستين نفسا سوى نسوة أولاده [١].

وقد أكرم يوسف ـ عليه السلام ـ مثوى أبيه وأخوته . ورقق عليهم قلب ملك مصر في ذلك الوقت . وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم في أرض جاسان [٢]، فاستجاب لهم ،وقال ليوسف : « أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر ، ففي أفضل أرضها أسكن أباك وأخوتك ليكونوا في أرض جاسان . . فأسكن يوسف أباه وإخوته ، وأعطاهم ملكا في أرض مصر في أفضل الأرض ، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد . . » [٣] .

هذا ، وفي سورة يوسف تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث ، وفيها كذلك إشارة إلى هجرة يعقوب ببنيه إلى مصر ، فقد تضمنت في نصفها الأول ما جرى بين يوسف وإخوته ، من حسدهم له على منزلته عند أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ ومن إلقائهم له في الجب، ثم مجيئهم إلى أبيهم عشاء يبكون ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [٤].

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن إنقاذ إحدى القوافل التجارية ليوسف من الجب، وبيعهم إياه لعزيز مصر بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

ثم حكت السورة ما جرى ليوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز ، وكيف أنها هددته بالسجن إذا لم يستجب لرغباتها : فقد حكى القرآن الكريم عنها أنها قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي : فامتنع عن الاستجابة لما أرادته منه ، ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [٥] أي : ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين.

---

(١) سفر التكوين : الإصحاح السادس والأربعون.

(٢) أرض جاسان يقال : إن مكانها الآن (بلدة صفط الحنة) بمحافظة الشرقية بمصر.

(٣) سفر التكوين : الإصحاح ٤٧ .

(٤) الآيتان : ١٧ ، ١٨ .   (٥) الآية ٣١ .

وهنا لجأ يوسف إلى ربه راجيا معونته فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ من السوء والفحشاء ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ بحولك وقوتك وتثبيتك لى على طاعتك ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : أمل إليهن وأوافقهن على أهوائهن ، وأكن من الجهلاء الذين تستخفهم الشهوات ؛ لأنى لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا، إلا بحولك وقوتك ومعونتك.

ثم بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ أجاب له دعاءه فقال : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) وفى هذا إرشاد إلى أنه ـ سبحانه ـ حرسه بعنايته في جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية .

ثم قال ـ تعالى ـ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

قال الامام ابن كثير : « يقول الله ـ تعالى ـ ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أى: إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته ،وظهرت الآيات وهى الأدلة على صدقه فى عفته ونزاهته ، وكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لما شاع الحديث ، إيهاما أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لمّا طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع عن الخروج من السجن حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقى العرض ـ صلوات الله عليه وسلامه »(٢) .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن دخول يوسف السجن ، وعن تعليم الله إياه تعبير الرؤيا ، وعن دعوته لرفيقيه فى السجن إلى التوحيد الخالص ، عن تأويله لرؤيا الملك تأويلا صادقا ترتب عليه أن نجت مصر من مجاعة مهلكة وإن استدعاه الملك وعينه وزيرا له.

وقد ختمت هذه الأحداث التى حكتها الآيات ببيان سنة لا تتخلف من سنن الله، وهى أنه ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر المحسنين ، بل يمكن لهم فى الأرض، ويمنحهم الكثير من فضله ونعمه ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى: يتصرف فيها كيف يشاء ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية : ٣٤ . (٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٧٧ . طبعة عيسى الحلبى.
(٣) الآيتان :٥٦ ، ٥٧ .

هذا ـ بإيجاز ـ عرض سريع لما تضمنته سورة يوسف ـ فى نصفها الأول ـ من أحداث وعبر وتوجيهات ، أما نصفها الأخير فمعظمه يدور الحديث فيه حول قدوم إخوة يوسف إليه ، وتعرفه عليهم ، ومحاوراته معهم فى شأن شقيقه (بنيامين) الذى لم يحضر معهم ، ثم احتجازه (بنيامين) عنده بعد أن أحضروه معهم بحجة أنه سارق .. ثم إخباره إياهم عن نفسه ، ودعوته لهم أن يأتوه إلى مصر بأهلهم أجمعين ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

قال الإمام ابن كثير : « ذكر السدى، ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين، أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر ، أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة ثم تلتها السبع السنين المجدبة ، وعمَّ القحط بلاد مصر بأكملها ، ووصل إلى بلاد كنعان ، وهى التى فيها يعقوب وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف للناس فى غلاتهم ،وجمعها أحسن جمع وورد عليه الناس من سائر الأقاليم ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم فكان لا يعطى الرجل أكثر من بعير، وكان عليه السلام ـ لا يشبع نفسه .. وكان فى جملة من ورد للميرة أخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم فى ذلك ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف،فلما دخلوا على يوسف وهو جالس فى أبهته ورياسته عرفهم حين نظر إليهم ، وهم له منكرون ، أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يعرفوا أين ذهبوا به ؟، ولا كانوا يظنون فى أنفسهم أن يصيره إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم . فذكر السدى وغيره أنه شرع يخاطبهم ،فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله ، قال : وهل له أولاد غيركم ؟ قالوا: نعم

كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه فامر بإنزالهم وإكرامهم (١) .

وبعد أن ذكرت الآيات ما دار بين يوسف وأخوته ، وكيف أنه احتجز منهم أخاه (بنيامين) وأبقاه عنده : بينت أن يعقوب ـ عليه السلام ـ أمر أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ليعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين، فقال تعالى حكاية عنه : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ أى : اذهبوا إلى أرض مصر وتعرفوا أخبار (يوسف وأخيه بنيامين) بحواسكم من سمع وبصر،حتى تكونوا على يقين من أمركم ، ولا تقنطوا من فرج الله إنه لا ييأس من فرج الله وقدرته إلا القوم الكافرون ،بسعة رحمته .

ثم بين القرآن الكريم ما جرى بين يوسف وإخوته فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أى : بعد أن امتثلوا لأمر أبيهم حين قال لهم : اذهبوا فتحسسوا من أمر يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر ـ دخلوا على يوسف فقالوا له : يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف بسبب المجاعة التى نحن فيها .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أى : ببضاعة رديئة كاسدة ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ كما عودتنا من كرمك ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٢) .

ثم حكي القرآن الكريم رد يوسف عليهم فقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٣) أى : فى وقت جهلكم بقبح ما فعلتم .

وعندئذ قالوا له متعجبين ﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ فاجابهم بقوله : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ ـ بنيامين ـ ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فجمع بيننا بعد الفرقة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

فأجابوه بقولهم :﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى : فضلك الله علينا، وآثرك بالعلم والحلم والفضل ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ فى حقك ومسيئين التصرف معك .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٣ . طبعة عيسى الحلبى.
(٢) الآية : ٨٨ .
(٣) الآية :٨٩ .
(٤) الآية : ٩٠ .

فرد عليهم يوسف ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى : لا لوم ولا عتاب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ما فعلتموه ويستره عليكم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : أحْضِروا إلىّ فى مصر جميع أهلكم من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ما دار بين يوسف وأبيه واخوته بعد أن وفدوا عليه بمصر من فلسطين فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أى : اعتنقهما وضمهما ، ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى : أجلسهما على سريره معه ، ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى: سجد له أبواه وإخوته سجود تعظيم لا سجود عبادة ، وكان هذا السجود جائزا فى شريعتهم.

قال الإمام ابن كثير : « وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ فحرم هذا فى هذه الملة الإسلامية وجعل السجود مختصا بالرب ـ سبحانه »[١] أ هـ.

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر : هو المآل والعاقبة والتفسير لرؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى ، كما جاء فى قوله تعالى حكاية عنه ـ عليه السلام ـ ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

عن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان بين فراق يوسف ويعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ، وعاش بعد يوسف ثلاثا وعشرين سنة ، فمات وله عشرون ومائة سنة[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٣ .

عاش بنو إسرائيل بعد ذلك فى مصر ، ودفعهم إلى المكث فيها ما اكتسبوه من خيرات وما نالوه من أمن واستقرار بعد طول ترحال ومجاعات حلت بهم قبل ذلك.

ولكن مَن الذى كان يحكم مصر عندما وصل إليها يعقوب وبنوه ؟

يقول المؤرخون : إن الذى كان يحكم مصر عندما هاجر إليها يعقوب وذريته فى حوالى القرن التاسع عشر ق م ، هم الهكسوس.

والهكسوس جماعات من الرعاة نشأوا فى آسيا ، ثم انحدروا إلى مصر على أثر المجاعات التى حلت ببلادهم ، وانتهزوا فرصة انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية، وكثرة الشقاق والنزاع بين الأمراء ، فاستولوا على السلطة فى مصر وكونوا لهم أربع أسر من الأسر القديمة التى حكمت مصر ، واستمر حكمهم من حوالى سنة ٢٠٩٨ إلى سنة ١٥٨٧ ق م.

وقد نعم بنو إسرائيل بحياة آمنة رخية طوال حكم الهكسوس الغرباء عن أرض مصر.

فلما تمكن (أحمس) من الانتصار على الهكسوس ، وطردهم من مصر وأسس الأسرة الثامنة عشرة ، فى القرن السادس عشر ق.م ، بدأت المخاوف تراود بنى إسرائيل من نظام الحكم الجديد ، ثم لما قامت الأسرة التاسعة عشرة التى من بين ملوكها (رمسيس الثانى) جاهر المصريون بعداوتهم لبنى إسرائيل ، وأخذوا ينزلون بهم أشد الضربات ، وألوان العقوبات ، وذلك لأنهم شاهدوا منهم عزلة وغرورا ، واستلابا لأموالهم بطرق خبيثة ، ورأوا منهم - أيضا - تواطأً مع الهكسوس ضد أبناء الأمة الأصليين ومحاولات لقلب نظام الحكم القائم.

قال صاحب (تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم) : « والراجح أن حالة بنى إسرائيل تبدلت بعد تقويض حكم الهكسوس فى القرن السادس عشر ق.م، وقيام الإمبراطورية المصرية ،ويستدل من أوراق البردى المذكورة ، أن تسخيرهم واضطهادهم قد بلغ الذروة فى عهد رمسيس الثانى أعظم ملوك الأسرة التاسعة التى حكمت حسب تقدير المؤرخ (بريستيد) من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٢٥٠ ق.م. وحسب تقدير المؤرخ (شاروبيم) من سنة ١٤٦٢ إلى سنة ١٢٨٨ ق.م . وهناك قرائن تدل على أنه كان لبنى إسرائيل أثر فى الانقلاب الدينى الذى قام به

(أخناتون) أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٥٨٠ إلى سنة)١٣٥ ق.م ، فقد هدف (أخناتون) فى انقلابه إلى عبادة ما وراء الشمس، وسمي معبوده (آتون) الذى يظن أنه مقتبس من اسم (أدون) أو (أدوناى) العبرانى الذى كان العبرانيون يسمون به الرب [١] أ.هـ.

ويصف الدكتور أحمد بدوى علاقة المصريين ببنى إسرائيل فى تلك الفترة فيقول :

« من الثابت فى تاريخ مصر-بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية ، وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى-أن (العبرانيين) قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل . يجيئونها أول الأمر لاجئين ، يطلبون الرزق فى أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام . ثم يجيئونها أسارى فى ركاب فرعون كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافراً منصوراً . فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء ، ويعبدون أربابهم أحراراً ، لم يكرههم أحد على قبول مذهب ، أو اعتناق دين ، وتطيب لهم الإقامة فى مصر ، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر . ويعملون على إفقارهم ، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب ، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر ، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى ،وأخرى عن طريق الدين والعقيدة»[٢] .

هذا وقد حكى القرآن الكريم فى كثير من آياته نماذج من العذاب الذى أنزله فرعون مصر وجنده ببنى إسرائيل ، من ذلك قوله تعالى فى سُورَة إِبْراهيمْ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [٣] وقوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٤١ للأستاذ محمد عزة دروزة.

(٢) فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٥٨٨ ، ص ٥٨٩ للدكتور أحمد بدوى.

(٣) الآية ٦ .

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١) .وقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وخلال تلك البلايا والمصائب التى كانت تنزل ببنى إسرائيل من فرعون وجنده، أراد الله ـ سبحانه ـ أن يَمُنَّ عليهم ، وأن ينقذهم مما هم فيه من بلاء ، فأرسل لإنقاذهم وهدايتهم رسوله موسى (٣) ـ عليه السلام.

وقد حكى لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من فرعون أن يقلع عن إيذاء بنى إسرائيل ، وأن يترك الكفر والغرور ويعبد الله وحده لا شريك له ، قال تعالى فى سورة الأعراف :﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٤) . أى قال موسى ملزماً فرعون الحجة : إنى رسول من الله الذى هو خالق كل شىء وربه ومليكة ، وإنى جدير بأنى لا أقول على الله سوى القول الحق الذى أمرنى به ، أو حريص على أنى لا أقول على الله إلا القول الحق. ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من أسرك وقهرك واتركهم يعبدون الله ربهم ، وخل سبيلهم ليرجعوا معى إلى بلاد الشام.

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك : أن أشراف قوم فرعون ، طلبوا منه أن يزيد في إيذاء بني إسرائيل ، وأن يحملهم على عبادة آلهته فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (٤) أى : قال الأشراف من قوم فرعون له . أتترك موسى وقومه ليفسدوا رعيتك بأن يحملوهم على عبادة رب موسى ويرغبوهم فى ذلك : وينهوهم عن عبادة آلهتك ؟ فأجابهم فرعون بقوله : سنقتّل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ، أى :غالبون مستعلون . عاملون على قتل ذكورهم وإبقاء نسائهم.

---

(١) الآية : ٤ .　　(٢) الآية :٤٩ .

(٣) هو موسى بن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ـ عليه السلام ـ ويرى بعض المؤرخين ان ولادة موسى ـ عليه السلام ـ كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

(٤) الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥ .　　(٥) سورة الأعراف :الآية: ١٢٧ .

وجمهور المفسرين على أن معنى قوله تعالى :﴿ ويذرك آلهتك ﴾ أن فرعون كان قد صنع لقومه أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها وسمى نفسه الرب الأعلى . كما جاء وصفه بذلك في قوله تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (١).

وقال الحسن : إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للعالم السفلى كله وهو رب النوع الإنسانى كله.

ثم بين القرآن الكريم ما وصى به موسى قومه فقال حكاية عنه : ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) أى : قال موسى لبنى إسرائيل : استعينوا بالله على هذا الطاغية ، واصبروا على إيذائه ، فإن الأرض ليست ملكا لفرعون وإنما هى ملك الله - تعالى - يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة الحسنة أعدها الله - تعالى - للذين يتقونه ويخشونه بأن يقيموا شرعه ويتجنبوا ما نهى عنه.

فماذا كان تأثير هذه الوصية فى بنى إسرائيل ؟ وبماذا أجابوا نبيهم موسى - عليه السلام - ؟ إنهم لم يستفيدوا من هذه الوصية الغالية . بل ردوا على نبيهم بجفاء وغلظة فقالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، يعنون : أنهم لم ينتفعوا من نبوته بشىء ، فقد أصابهم الأذى من فرعون وقومه قبل رسالة موسى - عليه السلام - كما أنه استمر ذلك الأذى والهوان بعد رسالته ، فهم فى كلتا الحالتين فى عذاب وامتهان.

فرد عليهم موسى - عليه السلام - رداً فيه رجاء وتنبيه فقال :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) أتشكرون النعمة أم تكفرونها ؟ وأتفسدون فى الأرض أم تصلحون؟

هذا ويرى بعض المؤرخين أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - فى عهد « منفتاح بن رمسيس الثانى » حوالى سنة ١٢١٣ ق م بعد أن طالبه موسى - عليه السلام - أكثر من مرة بأن يرسل معه بنى إسرائيل ليخرجوا إلى أرض الشام .

---

(١) سورة النازعات : الآية ٢٣ ، ٢٤.
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٢٨.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

وفي سفر العدد الإصحاح الأول : « أن موسى أحصى بنى إسرائيل عند الخروج من مصر فوجد حملة السلاح منهم - أى : الذكور ابتداء من سن العشرين - يبلغون ٦٠٣٥٠٠ نسمة » ومعنى هذا أن تعدادهم العام كان يزيد على المليون .

ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بنى إسرائيل الحلى المصريين عند خروجهم من مصر فيقول : « ويلفت النظر خاصة ما جاء فى التوراة من سلب رجال ونساء بنى إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة ونسبة ذلك إلى الله - تعالى - ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الاسلوب ، يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس بنى إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة ، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس . كما أنه كان ذا أثر شديد - بدون ريب - فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم . ثم مَنْ دخل فى دينهم من غير جنسهم » (١) .

وقد وردت قصة خروج بنى إسرائيل من مصر إلى أرض الشام فى مواضع متعددة من القرآن الكريم . من ذلك قوله تعالى فى سورة طه :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾ .

وقوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ أى : أَوْحَيْنَا إلى موسى أن سر بعبادى بنى إسرائيل ليلا أو فى أول الليل تاركين مصر إلى الشام . لأن فرعون وجنده يتبعونكم ليوقعوا بكم الأذى .

قال الإمام ابن كثير : لما طال مقام موسى - عليه السلام - ببلاد مصر وأقام بها

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة . ص ٤٣ وقد تعرضنا لقصة استعارتهم لحلى نساء مصر فى فصل (رذائل اليهود) مبحث (عبادتهم العجل) .

حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال . فأمر الله موسى - عليه السلام - أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر . وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - عز وجل - وخرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيرا ، وكان خروجه بهم - فيما ذكر غير واحد من المفسرين - وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد أنه كسف القمر فى تلك الليلة . فلما أصبح قوم فرعون وليس فى ناديهم داع ولا مجيب . غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار فأرسل سريعاً فى بلاده من يحشر الجند ويجمعهم للإيقاع ببنى إسرائيل (١) .

وقد بين الله - تعالى - ذلك بقوله : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أى : استصرخ فرعون قومه ،واستغاث بعشيرته، وبعث إلى مدائن ملكه من يحشرون الناسَ ويجمعونهم حوله ، ليكونوا تحت أمره .

ثم بين القرآن ما وصف به فرعونُ قومَ موسى فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ قال فرعونُ لقومه : إن هؤلاء وهم موسى وقومه الذين خرجوا من بلادنا « لشرذمة قليلون » طائفة قليلة من الناس بالنسبة إلى كثرة جيوشنا .

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أى : فى كل وقت يصلنا منهم ما يغيظنا ، ويملأ قلوبنا كراهية لهم . ﴿ وانا لجميع حاذرون ﴾ أى : نحن فى كل وقت نحذر غائلتهم وشرورهم ، ودائماً معدون أنفسنا لتأديبهم والإيقاع بهم واستئصال شأفتهم .

ثم بين الله - تعالى - ما حل بفرعون وجنده من سوء جزاء طغيانهم فقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أى : أخرجنا بقدرتنا فرعون وجنده من هذا النعيم ،الذى كانوا يعيشون فيه إلى الجحيم والعذاب ، بسبب كفرهم وجحودهم . وأورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل .

ثم بين الله - تعالى - ما حصل لقوم موسى عندما أدركهم فرعون بجنده فقال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أى : فلحق فرعون وجنده بموسى وقومه فى وقت

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣ ص ٣٣٥ طبعة عيسى الحلبى.

شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كل من الفريقين صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أى قال أصحاب موسى له بخوف وفزع أن فرعون بجنده يوشك أن يلحق بنا ليسومنا سوء العذاب كعادته فأجابهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أى : لن يدرككم فرعون فإن الله وعدكم بالخلاص منه ، فلا تخافوا فإن معى ربى بالمعونة والتأييد ، وسيرشدنى إلى ما فيه الخير والمنفعة لكم.

وعندئذ أوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه موسى فانفلق البحر فرقين ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أى :كالجبل الثابت الكبير.

قال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً لكل سبط طريق.

ثم بين - سبحانه - ما حل بفرعون وجنده بعد ذلك فقال تعالى : ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أى : قربنا من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه ، حتى دخلوا خلف بنى إسرائيل وساروا فى الطريق الذى ساروا فيه بين فرقي البحر ، فكانت النتيجة كما قال الله - تعالى - بعد ذلك : ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ بأن أطبقنا عليهم البحر بعد عبور بنى إسرائيل.

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان أن فيها عبرة للمعتبرين فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد صورت أكمل تصوير وأبلغه قصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، واتباع فرعون لهم ، وغرقه فى النهاية أمام أعينهم.

والآن - وبعد أن تتبعنا أحوال بنى إسرائيل منذ هجرتهم إلى مصر على يد يعقوب - عليه السلام - إلى خروجهم منها على يد موسى - عليه السلام - فلنبدأ الحديث عن مرحلة أخرى من مراحل تاريخهم وهى :

(ب) تاريخهم منذ خروجهم من مصر إلى تأسيس مملكتهم حوالى سنة ١٠٩٥ ق م.

كان خروج بنى إسرائيل من مصر حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وبعد أن رأوا غرق فرعون بأعينهم سار بهم موسى - عليه السلام - إلى أرض فلسطين بالشام ، مؤملا أن يصبحوا أمة قوية بإيمانها وصالح أعمالها ، فقد ترتب على

خروجهم من مصر وهلاك فرعون أمام أعينهم أن أصبحوا أحرارا في شئونهم وأحوالهم ، بعد أن كانوا يذوقون في مصر سوء العذاب على أيدى فرعون وجنده .

يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين « وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر ، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها ، ولا شارع أو وازع فيها ينظر في أمورها ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة في أرض مصر عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة ، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعباً واحداً وأمة واحدة لها قائدها من بنيها ، وجيش يقوم على حمايتها ، وحاكم يتولى أمورها وشئونها وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة ، فإنها لم تكد تغادر مصر ، حتى بدأ الشارع في سن النواميس والقوانين. والشرائع الدينية والأدبية والمدنية ! كما تكون في الأمة المستقلة القائمة بنفسها ، وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر ، وتاريخهم هذا يستغرق قروناً عديدة ، اتفق لهم في خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط .. [1] .

ولكن بنى إسرائيل لم يقدروا نعمة الحرية ، ولم يشكروا الله على إنجائه لهم من عدوهم ، ولم يطيعوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ الذى جاء لهدايتهم وإصلاحهم والدفاع عنهم ، بل آذوه إيذاء شديداً ؛ وهذه بعض القبائح التى صدرت عنهم وهم فى طريقهم معه إلى أرض الشام.

١ ـ بعد أن سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ في أرض سيناء فترة من الوقت، جاعلاً وجهته أرض فلسطين من بلاد الشام، ثاروا عليه وعلى أخيه هارون ـ عليهما السلام ـ وقالوا لموسى وهارون ـ كما تحكى التوراة عنهم:

« ليتنا متنا فى مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع . . لماذا أصعدتمانا من مصر؟ أمن أجل أن نموت نحن وأولادنا ومواشينا بالعطش[2] . . .؟ » .

وتحكى التوراة أن موسى ـ عليه السلام ـ ضاق بهم ذرعا لكثرة جهالاتهم وسوء أعمالهم ، وأنه تضرع إلى الله قائلا : (رب، لم ابتليت عبدك ووضعت أثقال هذا

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ١٥ (طبعة المقتطف سنة ١٩٠٤) .

(٢) سفر الخروج / الإصحاح السادس عشر .

الشعب عليَّ؟ وهل أنا الذى ولدتهم حتى تقول لى: احملهم فى حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، وإنى لست طائقاً حمله وحدى؛ لأنه ثقيل عليَّ وإلا فاقتلنى ولا أرى بليتى..(١).

٢ ـ بعد أن رأى بنو إسرائيل غرق فرعون بأعينهم، وساروا مع موسى ـ عليه السلام ـ إلى بلاد الشام، شاهدوا قوماً (٢) يعبدون أصناماً لهم، فما لبث بنو إسرائيل بعد مشاهدتهم لهؤلاء الوثنيين إلا أن قالوا لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ اجعل لنا أصناماً نعبدها، كما أن لهؤلاء أصناما يعبدونها وذلك لأن الوثنية التى عاشوا فيها فى مصر كانت مازالت عالقة بنفوسهم الضعيفة، وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذه الرذيلة فقال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٣).

٣ ـ خلال سير موسى ـ بقومه فى صحراء سيناء إلى بلاد الشام، واعدا الله ـ تعالى ـ موسى أن يعطيه التوراة لتكون هدى لبنى إسرائيل، بعد أربعين يوماً يصومها، فلما حل الموعد ترك موسى بنى إسرائيل مستخلفا عليهم أخاه هارون وذهب إلى الطور لتلقى التوراة وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤).

قال الإمام ابن كثير: « يقول ـ تعالى ـ ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ـ عليه السلام ـ وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر ـ تعالى ـ أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى ـ عليه السلام ـ فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله ـ تعالى ـ أن

(١) سفر الخروج الإصحاح الحادى عشر.
(٢) قيل: إن هؤلاء القوم كانوا من الكنعانيين، وقيل كانوا من لخم.
(٣) سورة الأعراف.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

يكمل بعشر أربعين ، وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى ؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة ، قاله مجاهد ومسروق وابن جريح. وروى عن ابن عباس وغيره ،فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى ـ عليه السلام ـ فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد ، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون ـ عليه السلام ـ نبى شريف كريم على الله ، له وجاهة وجلالة ـ صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء(١) .

لكن ماذا حصل من بنى إسرائيل بعد أن تركهم موسى لتلقى التوراة ؟

لقد حصل منهم أنهم انتهزوا لين جانب هارون ـ عليه السلام ـ معهم ، فعبدوا عجلا جسداً له خوار ، صنعه لهم السامرى من حلى نسائهم التى استعاروها من قبط مصر ، وحاول هارون أن يصدهم عما تردوا فيه من ضلال وكفر ، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ـ كما حكى القرآن الكريم عنهم فى سورة طه ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ فلما اشتد عليهم فى النهى عن عبادة العجل ، تطاولوا عليه وكادوا يقتلونه.

وأعلم الله ـ تعالى ـ موسى أن قومه قد فتنهم السامرى بعبادة العجل فعاد إليهم مغضباً حزيناً ، وأخذ يوبخهم بقوارص الكلم ، وينذرهم بسوء المصير فاعتذروا إليه بأن السامرى هو الذى أضلهم.

وظن موسى ـ عليه السلام ـ أن أخاه هرون قد قصر معهم ، فعاتبه ولامه على ذلك ، فأخبره هارون ـ عليه السلام ـ بأنه لم يقصر فى نصيحتهم وزجرهم عن عبادة غير الله ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، بل آذوه وكادوا يقتلونه.

ثم صب موسى ـ عليه السلام ـ جامَّ غضبه على السامرى ـ رأس الفتنة ومدبرها ـ فقال له بعد أن سمع كلامه ودفاعه الواهى عن نفسه ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٣ .

وعلى مشهد من بنى إسرائيل نفذ موسى - عليه السلام - ما توعد به السامرى ، فاحرق العجل ، وألقى ترابه فى البحر ، وأثبت للجميع أن المستحق للعبادة إنما هو الله - تعالى - وأن العجل الذى عبدوه - بجهلهم وغبائهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعا .

وقد قص القرآن الكريم قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل فى آيات طويلة من سورة الأعراف وسورة طه ، وقد فسرناها بإسهاب فى غير هذا الموضع (١) .

ثم أوحى الله - تعالى - إلى موسى بعد ذلك أن توبة عابدى العجل من قومه لن تكون مقبولة منهم ، إلا بقتلهم لأنفسهم ، فلما نفذوا ما كلفوا به قَبِل الله - تعالى - توبتهم ، وعفا عنهم ، لعلهم يشكرونه على نعمه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة إجمالا : واذكروا يا بنى إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيداً عنهم يا قوم أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادتكم غير الله . فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم ، فتوبوا إلى بارئكم وخالقكم توبة صادقة ، واقتلوا أنفسكم تكفيرا عن خطيئتكم ، أو فليقتل من لم يعبد العجل منكم عابديه ، ذلكم - وهو قتلكم لأنفسكم أو لمن عبد العجل منكم - خير لكم عند بارئكم ، ففعلتم ذلك فقبل توبتكم ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

٤ - بعد كل هذه الأحداث والإساءات من بنى إسرائيل « واصل بهم موسى - عليه السلام - سيره إلى أرض الشام ، وقبل أن يصل بهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة - أمرهم أن يعدوا أنفسهم لدخولها » وأن يوطنوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، واختار منهم اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يتقدموه فى دخول الأرض المقدسة ليعرفوا أحوالها وأحوال سكانها ونفذ النقباء ما كلفهم به موسى - عليه السلام - ثم عادوا بعد تعرفهم على أحوالها وأحوال سكانها، ليقولوا له : إن الأرض المقدسة تدر لبنا وعسلا ، إلا أن سكانها من

---

(١) راجع فصل (رذائل بنى إسرائيل) مبحث (عكوفهم على عبادة العجل) .

(٢) فسرنا هذه الآية بالتفصيل فى فصل (نعم الله على بنى إسرائيل وموقفهم منها) . مبحث (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم) .

الجبارين ، وأخذ كل نقيب يخذل جماعته عن دخولها ، إلا رجلين منهم فإنهما أمرا بنى إسرائيل بأن يطيعوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وأن يصمموا على دخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، وبشراهم بالنصر إذا هم اعتمدوا على الله ـ تعالى ـ أخلصوا النية للجهاد ، ولكن بنى إسرائيل عصوا نصيحة الرجلين الناصحين لهم ، كما عصوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فكانت نتيجة جبنهم وعصيانهم ، أن ابتلاهم الله ـ تعالى ـ بالتيه أربعين سنة .

وقد حكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ هذه القصة فى سورة المائدة فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) ﴾ (١) .

هذا وبعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام ـ تولى (٢) (يوشع بن نون) رئاسة بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت قد هلك منهم ذلك الجيل الذى تربى على الذل والعبودية ، والذى قال لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ونشأ منهم جيل آخر تربى خلال مدة التيه على الخشونة وحرية البداوة . فقاده (يوشع بن نون) لدخول الأرض المقدسة .

وتحكى التوراة أن (يوشع) عبر ببنى إسرائيل نهر الأردن إلى الأرض المقدسة وأن أول مدينة استطاع (يوشع) ومن معه أن يدخلوها هى مدينة (أريحا) ثم زحف على مدينة (العى) ـ التى هى بين نابلس والقدس من ناحية الشرق ـ وأن بنى إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانهما ثم صلبوا ملك

---

(١) فسرنا هذه الآيات فى فصل (رذائل الجهود) مبحث (جبنهم عن الجهاد) .

(٢) يوشع بن نون احد اتباع موسى ـ عليه السلام ـ المخلصين ، وكان يوشع احد الرجلين اللذين حرضا بنى إسرائيل على طاعة نبيهم موسى فى دخول الأرض المقدسة .

(العى) على باب المدينة . ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار (يوشع) ومن معه من بنى إسرائيل على الكنعانيين ـ الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت ـ وكيف أن بنى إسرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التى تقع فى أيديهم بأمر الرب .

ففى الإصحاح العاشر من سفر يشوع هذه العبارة « أن يسوع ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأبسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب ، ولم يبق باقية منهم فضربهم من (قادش) إلى (غزة) وانتصر عليهم لأن الرب كان يحارب مع إسرائيل » (١) .

والذى نأخذه من هذه النصوص أن بنى إسرائيل بعد انتصارهم بقيادة (يوشع ابن نون)على الكنعانيين أعملوا فيهم السيف ، وحرقوا بلادهم ،وخربوا ديارهم ، ولم ينج من أيديهم إلا من فر من وجوههم . .

ويصف صاحب (قصة الحضارة) ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول : « كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلا واضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين ، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم ، وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهارا وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى ، وزكاة للرب ، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا وأحرقوها وصلبوا حاكمها .ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به . . وقد أقام يوشع حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول : «إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا » وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة » (٢) .

« وقد قسم يوشع الأرض التى استولى عليها من الكنعانيين بين الأسباط ، واحتوت الاصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر من سفر (يوشع) أسماء المدن والحدود التى كانت من نصيب كل سبط ، على أن الإصحاحات تفيد أن

---

(١) سفر يسوع الإصحاح الأول والسابع والثامن والعاشر.

(٢) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٢٦ .

مناطق ومدنا قد بقيت فى حوزة سكانها ولم يستول عليها بنو إسرائيل إلا بعد موت يوشع ، بل ومنها من لم يستول عليه بنو إسرائيل ، ولم يصبح موطنا لهم قط، كالجزء الجنوبى من فلسطين .

وقد جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر (يوشع) أنه مات بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنين ، ودفن فى أرض ميراثه فى جبل إفرائيم - قرب نابلس اليوم (١).

ويصف الدكتور على عبد الواحد وافى : كيف دخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة (يوشع) وكيف عاشوا فيها فيقول : « وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة (يوشع) خليفة موسى - عليه السلام - بعد وفاته ، على بلاد كنعان - فلسطين وما إليها وهى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها - واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات ، بعد أن أبادوا معظم أهلها ، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم ، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل ، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين . وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم ، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب وهم رهط موسى وهارون » (٢) .

وقصة دخول بنى إسرائيل بقيادة (يوشع) الأرض المقدسة قد أشار إليها القرآن الكريم فى آيات متعددة منها قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٣) .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع

---

(١) عن تاريخ بنى إسرائيل من اسفارهم - بتصرف - ص ٧٧ .

(٢) عن كتاب الأسفار المقدسة ص ٨ للدكتور على عبد الواحد وافى . طبع مكتبة نهضة مصر.

(٣) فسرنا هاتين الآيتين فى فصل (نعم الله على بنى إسرائيل) مبحث نعمة تمكينهم من دخول الأرض المقدسة.

(يوشع بن نون) وفتحها الله عليهم عشية جمعه وقد حسبت لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا باب البلد سجدا ، شكرا لله تعالى على ما أنعم عليهم به من الفتح والنصر ، وإنقاذهم من التيه والضلال »(١).

ولكنهم لم يفعلوا فأنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب فسقهم وظلمهم هذا ، وأعقب موت (يوشع بن نون) عهد عرف بعهد القضاة ، لأن الزعماء والقواد الذين تزعموا ، أو قادوا بني إسرائيل بعد (يوشع) سموا قضاة ، وعهدهم امتد إلى أن قامت مملكة بني إسرائيل على يد (طالوت) المعروف فى التوراة باسم (شاول).

ويبلغ عدد القضاة الذين تولوا حكم بني إسرائيل فى هذه الفترة حوالى خمسة عشر قاضيا ، من بينهم (عثنائيل) و(صموئيل) و (أهود) و (شمجو) و(باراق) و(يفتاح) و (جدعون) و(شمشون الجبار) .... ، إلخ.

يقول صاحب (تاريخ الإسرائيليين) فى وصف عهد القضاة « كانت البلاد فى عهد القضاة أشبه شيء بولايات متحدة فى كل ولاية سبط من الأسباط الإثنى عشر يحكمه كبار العشائر فيه ، وهذه الأسباط جميعاً مرتبطة برباط واحد .. وكانوا يشتركون فى الحفلات الدينية الكبرى ، على أنهم كثيرا ما ارتدوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام وفى التوراة « أن ذلك كان سببا فى تسلط الأجانب عليهم ، فكان لهم من قاضتهم هؤلاء قواد يلمون شعثهم ويجمعون شملهم ، ولم يكن لهؤلاء القضاة شيء من امتيازات الملوك ولا أبهتهم .. ومن القضاة من انحصر عمله فى رد غارة أو دفع عدو ، ومنهم من تولى الحكم طول حياته لحكمته وخبرته »(٢) .

وقد سطر (سفر القضاة) سيرتهم وأحوالهم ، وما أصابهم من نكبات خلال مدة حكمهم التى يقدرها السفر المذكور بأربعمائه سنة ، ويقدرها بعض المؤرخين المحدثين بمائة سنة.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « وحساب سفر القضاة يجعل حقبة القضاة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٨ .   (٢) تاريخ الإسرائيليين ص ١٩ .

نحو أربعمائة سنة مع أنها قد لا تزيد على المائة ، إذا ما لاحظنا أن الملك الرسمى لبنى إسرائيل قام فى أواسط القرن الحادى عشر (حوالى سنة ١٠٣٠ ق م) ، وأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى أواخر القرن الثالث عشر (حوالى ٣٢١٠ ق م) ، وأن زعامة موسى ويشوع من بعده استمرت نحو ثمانين سنة ، وهذا الرقم - وهو الأربعمائة سنة - من مبالغات سفر القضاة ، شأنه شأن الأسفار الأخرى فى الأرقام »(١) .

والذى يقرأ (سفر القضاة) يستخلص منه : أن عهد القضاة من أسوأ عهود بنى إسرائيل ، ففيه انتشرت بينهم شتى الرذائل والمنكرات ، إذ عبدوا الأصنام ، وقتلوا المصلحين ، وفشا فيهم الزنا .. وقد ترتب على ذلك أن تعرضوا خلال عهد حكم القضاة ، لنكبات وغارات عليهم من غيرهم، وكان من بين من غزاهم فى هذه الفترة واستعبدهم (شعنائيم ملك النهرين ، وحجلون ملك مؤاب ، ويابين ملك حاصور) الكنعانى ... وغيرهم.

ويسوق الإصحاح الثانى من سفر القضاة عرضا إجماليا لسيرة بنى إسرائيل فى عهد القضاة فيقول :« ونشأ من بعدهم - أى من بعد يوشع بن نون وأتباعه - جيل آخر لا يعرف الرب ، ولا ما صنع لإسرائيل . ففعل بنو إسرائيل الشر فى أعين الرب، وعبدوا البعليم ، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب التى حولهم وسجدوا لها وأسخطوا الرب .. فغضب الرب على إسرائيل فدفعهم إلى أيدى المنتهبين فانتهبوهم ، وباعهم إلى أيدى أعدائهم الذين حولهم ولم يقدروا بعد أن يثبتوا فى وجوه أعدائهم . فكانوا حيثما خرجوا تكون يد الرب عليهم للشر كما قال الرب وكما أقسم فضاق بهم الأمر.. »(٢) .

وكان آخر قضاة بنى إسرائيل فى هذه الفترة هو (صموئيل) الذى كثرت فى عهده الفوضى والمفاسد ، وذلك أنه بعد أن شاخ كان يوكل أبناءه بدله فى القيام بشئون القضاء ، ولكن أولئك الأبناء كانوا يأخذون الرشوة ، ويجورون فى الحكم. فقام بنو إسرائيل بثورة ضده وضد أبنائه ، انتهت بزوال عهد القضاة ، وحلول عهد الملوك ، وهذه كلمة موجزة عن عهد الملوك.

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٨٢ .

(٢) سفر القضاة : الإصحاح الثانى.

جـ تاريخ بنى إسرائيل منذ تأسيس مملكتهم سنة ١٠٩٥ ق .م إلى انقسامها سنة ٩٧٥ ق . م .

ملوك هذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل هم طالوت ، وداود ، وسليمان عليهم السلام .

وسيرتهم مذكورة فى الإصحاحات الحادى عشر فما بعد من سفر صموئيل الأول ، وفى سفر سموئيل الثانى ، ثم فى الإصحاحات الأول إلى الثانى عشر ، من سفر الملوك الأول ، وفى سفر أخبار الأيام الأول ، والإصحاحات الأولى إلى العاشرة من أخبار الأيام الثانى .

وقد تأسست المملكة اليهودية حوالى سنة ١٠٩٥ ق م ، وكان أول ملك عليهم (طالوت) ويسمى عهده وعهد داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ بعهد الملوك الأول الذى انتهى بوفاة سليمان ـ عليه السلام ـ حوالى سنة ٩٧٥ ق م ، أما ماتلا عهد سليمان ـ عليه السلام ـ إلى زوال مملكة بنى إسرائيل على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق م فيسمى بعهد الملوك الثانى .

وخلال حكم طالوت لبنى إسرائيل قادهم بشجاعة إلى كثير من المعارك التى دارت بينهم وبين الأمم الأخرى ، فقد زحف بهم على الهمونيين الذين كانوا يسكنون فى شرق الأردن وانتصر عليهم .

ومن أشهر المعارك التى خاضها طالوت المعركة التى دارت بين بنى إسرائيل بقيادته وبين الفلسطينيين بقيادة (جليات) الذى يسميه القرآن الكريم (جالوت) وقد اشترك فى هذه المعركة داود ـ عليه السلام ـ وتولى بنفسه قتل جالوت .

وملخص هذه المعركة ـ كما جاءت فى الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول ـ « أن الفلسطينيين تجمعوا للأخذ بثأرهم من بنى إسرائيل : فتصدى لهم طالوت بجنوده ، وبرز من بين الفلسطينيين (جالوت) وتحدى بنى إسرائيل أن ينازله أحد منهم وقال لهم : إن قدر أحد منكم أن يقتلنى يصير الفلسطينيون لكم عبيدا ، وإن أنا قتلته تصيرون أنتم عبيدا لنا وارتاع (شاؤل) وبنو إسرائيل من هذا التحدى وانكمشوا عن الفارس الفلسطينى .. فبرز داود بعصاه ومقلاعه .. ورماه من مقلاعه بحجر فسقط (جالوت) على وجهه فسارع داود إليه وأخذ سيفه

واحتز رأسه به . . . ورأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات ، فهربوا ولحقهم بنو إسرائيل ففتكوا بهم ونهبوا معسكرهم .. » (١) .

هذا ، وفى سورة البقرة آيات كريمة ، أشارت إلى قصة اختيار طالوت ملكا على بنى إسرائيل ، وإلى المعركة التى دارت بينهم وبين جالوت وجنوده وهذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : قد علمت ـ يا محمد ـ علما يقينا خبر أولئك الملأ من بنى إسرائيل ، الذين كان وجودهم بعد زمان موسى ـ عليه السلام ـ فإنهم قد اجتمعوا بعد أن تفككت وحدتهم ، وتفرقت كلمتهم ، وقالوا لنبى لهم ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حتى ترد لنا عزتنا المسلوبة وأرضنا المغصوبة .. ولكن نبيهم الذى جربهم وعرف ضعفهم وخورهم ، خالجه شعور الشك فى صدق قولهم فأجابهم بقوله ـ كما حكى القرآن الكريم عنه : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أى : هل الأمر كما أتوقعه منكم من أنكم تجبنون عن القتال معه ؟ فالاستفهام لتقرير أن المتوقع كائن .

قال صاحب الكشاف : « والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعنى: هل الأمر كما أتوقعه من أنكم لا تقاتلون ، أراد أن يقول عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال فأدخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون ، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن ، وأنه صائب فى توقعه » (٢) .

ثم حكى القرآن الكريم جوابهم على نبيهم فقال : ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

---

(١) سفر صموئيل الأول الإصحاح السابع عشر ، وقد ضربنا صفحا عما ذكرته الأسفار عن هذه المعركة من خيالات.

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٢ . طبعة دار الكتاب العربى - ببيروت.

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم نافين ما توقعه منهم من عدم القتال عند سوجبه : وأى داع لنا إلى ترك القتال والحال أننا قد طردنا من ديارنا ، وحيل بيننا وبين أبنائنا؟ ثم أخبر القرآن الكريم بعد ذلك أن نبيهم كان صادقاً فيما توقعه منهم من جبن وضعف ، وأن الكلام الذى قالوه بألسنتهم لم تطبقه قلوبهم ، لأنهم حين وجب عليهم القتال فروا منه ، ولم يثبت مع قائدهم إلا القليل ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم قصة اخيتار طالوت ملكا عليهم ، واعتراضهم على ذلك فقال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ أى : أن نبيهم أخبرهم بأن العليم الخبير بأحوالهم هو الذى أختار طالوت ليكون ملكا عليهم فماذا كان موقفهم من هذا الاختيار ؟ كان موقفهم كما حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾

أى قال بنو إسرائيل لنبيهم منكرين ومستبعدين اختيار طالوت ملكا عليهم ، كيف يكون ملكا علينا ، والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسباً ، وفضلا عن هذا فهو فقير لا يملك ما نملك من المال فهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم ، ظنوا أن سبب الملك ، النسب وكثرة المال بصرف النظر عن الكفاءة العقلية ، والقوة البدنية.

قال الأمام ابن كثير : «كان طالوت رجلا من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن طالوت من ذلك السبط فلهذا قالوا ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ (١) .

وقد رد عليهم نبيهم ـ كما حكى القرآن عنه ـ رداً قوياً حازماً فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أى . أن الله هو الذى اختاره لكم واختيار الله لا يجوز الإعتراض عليه ، ومع هذا فقد زاد الله ـ تعالى ـ طالوت عليكم سعة فى العلم والجسم ، فهو أعظمكم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٠١ . طبعة عيسى الحلبى.

جميعا من حيث سعة العلم ، وقوة الجسم ، ومن توفر فيه ذلك فهو أولى الناس بأعلى المناصب من صاحب النسب أو المال دون أن يكون عنده سعة في العلم أو قوة في البدن .

ثم ختمت الآية ببيان أن الأمور كلها بيد الله وأن كل شيء في الوجود تحت سلطانه ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم - أن نبيهم أخبرهم بأن طالوت سيأتيهم بعلامة تدل على صلاحيته للملك ، لكي تثبت نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ (١) فِيهِ سَكِينَةٌ (٢) مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾ أي : قال لهم نبيهم - ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك عليهم - أنّ علامة بركة ملك طالوت عليكم ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ أي أن يرد عليكم التابوت - وهو صندوق التوراة الذي كان أخذ منكم ، ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : في إتيانه إليكم ورده عليكم سكون لكم وطمأنينة ورحمة لكم من ربكم ، أو المعنى : في التابوت ذاته وبداخله ما تسكنون إليه وتطمئنون وهو التوراة .

﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ أي : ويأتيكم ببعض الأشياء التي تركها آل موسى وآل هارون .

قال صاحب الكشاف : (وبقية) هي رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة ، وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه ، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت ، وقيل : كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به ، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان في أرض جالوت ، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصاب جالوت وقومه ببلاء حتى هلكت خمس مدائن فقالوا هذا سبب التابوت بين أظهرنا ، فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت .. فإن قلت : مَنْ (آل موسى وآل هارون) ؟ قلت : الأنبياء من بني يعقوب بعدهما لأن عمران - والد

---

(١) التابوت صندوق التوراة ، من التوب وهو الرجوع ، وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كجبروت .

(٢) السكينة : من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك ، أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه النفس .

موسى ـ هو ابن فاهث بن لاوى بن يعقوب . فكان أولاد يعقوب آلهما . ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما (١) .

﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ ﴾ قال ابن جريج ، قال ابن عباس : « جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون (٢) » .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ ، الذي يأتيكم به طالوت ﴿ لَآيَةً ﴾ لدلالة وعلامة على صدقه فيما أخبرتكم به ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بالله واليوم الآخر.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما دار بين طالوت وجنوده بعد أن خرج بهم للقتال فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ (٣) طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ أى : انفصل عن المكان الذى كان يقيم فيه مع بنى إسرائيل ، وخرج بهم من بيت المقدس لقتال جالوت وجنوده . ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ أى : مختبركم وممتحنكم بنهر فى طريقكم لقتال أعدائكم . ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾ أى : من هذا النهر ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أى : ليس من شيعتى ، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى فى خوض هذه المعركة . ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى : ومن لم يذقه أصلا ولم يكرع منه فإنه من شيعتى وحزبى الذين يكونون معى فى قتال جالوت وجنوده . ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ فلا بأس عليه من ذلك فإنه مرخص لكم فى الأخذ باليد دون الكرع.

فماذا كان موقف بنى إسرائيل من هذا الأمر الذى كلفهم به قائدهم ؟ كان موقفهم أن الكثيرين منهم خالفوا أمر قائدهم ، وكرعوا من النهر حتى امتلأت بطونهم وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ لم يشربوا طاعة لقائدهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أصاب الذين كانوا مع طالوت من فزع عندما شاهدوا جالوت وجنوده وما قاله لهم المخلصون منهم فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٣ . طبعة دار الكتاب العربى ببيروت.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٠١ ، طبعة عيسى الحلبى .

(٣) فصل عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه ، وأصله فصل نفسه ثم كثر محذوف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كانفصل أفاده صاحب الكشاف جـ ١ ص ٢٩٤ .

أى : فلما جاوز طالوت ومن معه النهر ، وشاهدوا كثرة جند جالوت ، قال من مع طالوت لبعضهم ، لا قدرة لنا اليوم على قتال جالوت وقومه ، ولكن المؤمنين المخلصين منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه قالوا لهم مشجعين ومثبتين لا تخافوا ولا تجزعوا فكم من جماعة صغيرة غلبت أخرى كبيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين يؤيدهم بنصره ، ويجعل العاقبة لهم رغم كثرة أعدائهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله المؤمنون المخلصون عند لقائهم لأعدائهم فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أى أفض علينا صبراً وأنزله علينا من عندك ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أى : وامنحنا الثبات عند لقاء أعدائنا وأعدائك ، وجنبنا الفرار والعجز وانصرنا على القوم الكافرين.

فماذا كانت ثمرة هذه الدعوات المخلصة ؟ كانت ثمرتها أن نصر الله القلة المؤمنة بقيادة طالوت ، على الكثرة الكافرة بقيادة جالوت ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى فغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أى ، وآتى الله داود مُلك بنى إسرائيل ، وآتاه الحكمة أى النبوة ، وعلمه مما يشاء من أنواع العلوم المختلفة . لأن قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ يشير إلى سعة العلم الذى منحه الله لداود عليه السلام ـ وأنه كثير متشعب لاتحده إلا مشيئه الله وإرادته.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أى : لولا أن الله ـ تعالى ـ يدفع بعض الناس ببعضهم ، وينصر المسلمين على الكفار ، ويكف بهم فسادهم ، لفسدت الأرض ، لأن الأشرار إن تركوا يعيثون فى الأرض فساداً عمّ الشؤم والدمار ، ولذا لم يتركهم يعيثون فى الأرض ، بل أخذهم فى الوقت الذى يشاؤه أخذ عزيز مقتدر.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الهادية لكل متبصر معتبر ، ببيان أنها من عند الله ، وإنه ـ سبحانه ـ أنزلها بالحق الكامل ، على محمد ﷺ رسوله ونبيه ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾أى : هذه آيات الله التى قصصناها عليك ـ يا محمد ـ فى شأن بنى إسرائيل وأحوالهم نتلوها عليك بالحق الذى لا باطل معه ، لكى يفىء الضالون إلى الرشاد والفلاح، فيتبعوك ويصدقوك ، وإنك يامحمد ـ لمن المرسلين ، الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هذه هي قصة تولية طالوت الملك على بني إسرائيل ، وحربهم لجالوت وجنوده، ساقها القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وأن فيها لعبراً كثيرة (فهي تشير إلى الشدة كيف تصهر النفوس فتجعلها تتجه إلى المعالي فتطلبها ، وكيف يكون الدين أساس العزة لمن غلبت عليهم الشقوة، وإنه لا سلطان من غير إمرة يعمل تحت سلطانها البر ويزجر بها الفاجر ، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل ، وقوة الجسم ، وسعة العلم وكمال التجربة ما يقود به الشعب إلى صالح الأمور، وأن أساس الانتصار السيطرة على النفس فلا يغلب خصمه من لا يغلب نفسه ، ولا يقمع عدوه من لا يقمع شهوته ، وأنه بعد أخذ الأهبة يفوض المجاهد أمره إلى الله ـ تعالى ويتوكل عليه) (١) .

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عما حصل بين طالوت وداود ـ عليه السلام ـ بعد تلك المعركة التي قتل فيها داود جالوت فنقول :

تذكر بعض أسفار التوراة أن داود ـ عليه السلام ـ بعد قتله لجالوت ملأ أعين الناس وأذهانهم وقلوبهم ، وأخذوا يتقربون منه ، وأن طالوت زوجه ابنته (ميكال) وجعله قائداً لرجال حربه ، وأن صداقة قوية ربطت بين داود ـ عليه السلام ـ وبين (يوناثان) ابن طالوت . ثم تذكر بعد ذلك أن نزاعاً وقع بين طالوت وداود ، أدى هذا النزاع إلى أن داود ـ عليه السلام ـ ترك طالوت وهاجر إلى أرض الفلسطينيين . . ثم تذكر أن الفلسطينيين انتهزوا فرصة عدم وجود داود بجانب طالوت ، فعاودوا الغارات على بني إسرائيل ، وانتهت هذه الغارات بمقتل طالوت ومقتل بعض أبنائه، وهزيمة الإسرائيليين شر هزيمة (٢) .

وبقي ـ طالوت ـ ملكا إلى يوم قتله ، فحكمه منفردا دام سنتين فقط (٣) .

وبعد موت طالوت تولى ملك بني إسرائيل داود (٤) ـ عليه السلام ـ وقد دام

---

(١) مقتبس من تفسير الآيات الكريمة لفضيلة أستاذنا الشيخ محمد أبي زهرة بمجلة لواء الإسلام العدد الثاني : السنة السابعة .

(٢) سفر صموئيل الأول من الإصحاح الثامن عشر إلى الإصحاح السادس والعشرين ، وقد ذكرت هذه الإصحاحات حكايات عن حقد طالوت على داود ـ عليه السلام ـ ومحاولته قتله أكثر من مرة . . وقد رأينا أن نترك هذه الخيالات لإيماننا بأنها لا تليق أن يتصف بها رجل نعته الله ـ تعالى ـ بأنه اصطفاه على بني إسرائيل وزاده بسطة في العلم والجسم .

(٣) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٣١ طبعة دار المقتطف سنة ١٩٠٤ .

(٤) هو داود بن يسى ولد ببيت لحم حوالي سنة ١٠٨٥ ق م ، وتوفي بأورشليم سنة ١٠١٥ ق م .

ملكه عليهم حوالى أربعين سنة ، فى السبعة الأولى منها كانت عاصمة ملكه (حبرون) [١] ، أما فى المدة الباقية فكانت عاصمة ملكه (أورشليم) [٢] .

وفى عهد داود - عليه السلام - قامت حروب كثيرة بين بنى إسرائيل وغيرهم من الأمم ، ومن بين الأمم التى حاربوها اليبوسيون الذين كانوا يسكنون مدينة القدس (أورشليم) فقد حاربهم داود - عليه السلام - وطردهم منها وجعلها عاصمة ملكه . وتمكن من السيطرة على - حصن صهيون وسماه باسمه ، فأطلق عليه (حصن داود) وكان هذا الحصن عبارة عن قلعة قائمة على تلال أو ربوة عالية وسط أورشليم [٣] .

وفى عهد داود - عليه السلام - عمَّ الرخاء مملكته ، واتسع نشاطها الاقتصادى مع الأمم الأخرى ، وكانت لها الغلبة على ما حولها من الشعوب والممالك فى شرق الأردن وغربه .

ويرى بعض الكاتبين « أن عهد داود - عليه السلام - قد تقلب على حالات متنوعة فكان مضطربا فى أوله ثم استقام ، واستطاع داود - عليه السلام - التغلب على ما حوله من الشعوب .. ، ثم عاد فاضطرب وظل مضطربا إلى آخر أيامه . وقد تمكن الفلسطينيون فى حقبة الوهن والاضطراب من التفلت من سيادة داود - عليه السلام - واستؤنف القتال بينهم وبين بنى إسرائيل وإن لم يصل إلى نتيجة حاسمة » [٤] .

وقد تولى ملك بنى إسرائيل بعد داود ، ابنه سليمان [٥] - عليهما السلام - ودام ملكه زهاء أربعين سنة ، وكان عهده يمتاز بالاستقرار والرخاء .

ويصف صاحب تاريخ الإسرائيليين عهد سليمان - عليه السلام - فيقول :

(وفى عصره اعتز شأن الإسرائيليين .. وهابتهم الأمم المجاورة لهم ، وتزوج

---

(١) حبرون : هى مدينة الخليل الآن .

(٢) أورشليم : هى القدس ومعناها مدينة السلام .

(٣) عن الصهيونية العالمية وارض الميعاد للأستاذ على إمام عطية ص ٦٤ .

(٤) تاريخ بنى إسرائيل من اسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص ١١٢ .

(٥) ولد سليمان فى اورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق م . وتوفى حوالى سنة ٩٧٥ ق م .

سليمان - عليه السلام - ابنة فرعون ، وعقد معاهدة مع حيرام ملك صور ، وبنى هيكله المشهور فاستجلب مشاهير الصناع والبنائين والنحاتين ، وأرسل سفنه فى الآفاق تجوب البحار فبلغت جنوب أسبانيا . وانتشر صيت سليمان فى جميع الممالك والبلدان وسارت بحكمته الركبان .. وجاءته ملكة سبأ من أقاصى اليمن لتختبر حكمته - فرأت منه ما أذهلها .. وكانت مدة حكمه أربعين سنة ، ذاق فيها الإسرائيليون الهناء والرخاء .. ورزقوا السعد ، حتى أن عصره ليحسب العصر الذهبى لأمتهم .. وتقدمت الصناعات تقدما عظيما بما شاد سليمان من المبانى الفاخرة ، كالهيكل والقصر والمدن الكثيرة ، والمعاقل والحصون .. » [١] .

ومع أن صاحب تاريخ الإسرائيليين يصف عهد سليمان - عليه السلام - هذا الوصف ، فإننا نجد أسفار التوراة تلصق بسليمان - عليه السلام - كثيراً من الأعمال التى ننزهه عنها ، فمثلا يذكر الإصحاح الثانى من سفر الملوك الأول « أن سليمان افتتح حكمه بقتل أخيه (أدونيا) بحجة طلبه الزواج من سرية أبيه ، ثم قتل (يؤاب) رئيس جيش أبيه ، وعزل (أبيانار) الكاهن الأكبر لتحزبهما .. » [٢] .

ونجد الأستاذ محمد عزة دروزة يقول : « وإذا أردنا كذلك أن نجمل عهد سليمان - عليه السلام - بكلمة ، فمن الحق أن نقول : إن سلطانه لم يتجاوز أرض كنعان - غرب الأردن - وأن عهده كان أكثر استقراراً وهدوءاً وأقل مشاكل من عهد أبيه ، وإن لم يخل هو الآخر من مشاكل ومزعجات داخلية وخارجية » [٣] .

ونجد صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) يقول : « إن قصة ملك سليمان وحكمته التى أوردها الكتاب المقدس ، تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع . وقد أسهب سفر الملوك الأول فى تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته ، ولكن الحق إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت (تحتمس الثالث) ، أو (رمسيس الثانى) أو (نبوخذ نصر) ، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه والهينات . وكانت مملكة سليمان رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا » [٤] .

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٢٥ .

(٢) سفر الملوك الأول / الإصحاح الثانى .

(٣) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص ١٢٣ .

(٤) كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) للكاتب (ولز) نقلا عن كتاب (اليهودية) للدكتور أحمد شلبى ص ٥٩ .

ونجد (غوستاف لوبون) يقول : « لا ينبغي لنا أن نتحدث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بنى إسرائيل ، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم ، فانظر إلى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذى نشر حوله كثير من الأبحاث المملة ، تجده بناء أقيم على الطراز الآشورى المصرى من قبيل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة ، ولم تكن قصور سليمان غير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الآشورية » (١) .

والذى نراه بعد سردنا لهذه النصوص أن عهد داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ يعتبر العهد الذهبى لبنى إسرائيل ، وأنهم فى عهدهما تمتعوا بالرخاء والاستقرار وعلو الشأن . . وتاريخهم سوى هذا العهد يعتبر سلسلة من المآسى والنكبات والضربات التى نزلت بهم من الأمم الأخرى بسبب إفسادهم فى الأرض ، ونحن ننزه داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ عن كل ما نسبته أسفار التوراة أو كتب التاريخ إليهما من جور أو ظلم .

فهما نبيان كريمان معصومان من ارتكاب ما نهى الله عنه .

هذا ، وقد ورد ذكر داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومعظم هذه الآيات يصور وافر النعم التى أسبغها الله عليهما ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

ومعنى الآيات الكريمة : واذكر ـ يا محمد ـ للناس قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ أى : إذ يحكمان فى الزرع . قيل كان عنبا قد تدلت عناقيده .

---

(١) عن كتاب (اليهود فى الحضارات الأولى) لغوستاف لوبون ص ٤٥ .

﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى تفرقت وانتشرت فيه ليلا بلا راع فرعته وأفسدته، يقال : نفشت الغنم والإبل ، أى رعت ليلا بلا راع .

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ مطلعين على حكمهم ، ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى : ففهمنا سليمان الحكومة .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه :

« إن غنما لبعض الناس رعت زرعا لأناس آخرين فأعطى داود - عليه السلام - رقاب الغنم لأصحاب الزرع ، فخرجوا من عنده ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه بكيفية قضائه بينهم ، فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا ، أو قال غير هذا أرفق بالفريقين فبلغ ذلك داود - عليه السلام - فدعاه وقال له : كيف تقضى ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها وبنسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك » (١) .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ قد يسيء السامع فهمه ويخطيء فيه وجه الصواب ، فيظن أن داود - عليه السلام - لم يكن عنده الاستعداد الكامل للحكم عقبه بقوله : ﴿ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى : كلا من داود وسليمان أعطاه الله - تعالى - مقدرة على الحكم بين الناس ، وعلما يرشده إلى طريقه الصحيح .

ثم قال تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أى : وسخرنا مع داود الجبال والطير يقدسن الله - تعالى - معه ، إما بصوت الحال أو بصوت يتمثل له ، أو يخلق الله - تعالى - فيه الكلام بحيث يفهمه داود وحده :

قال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف : وهو من المعجزات ، كما سبح الحصا فى كف رسول الله ﷺ وسمعه الناس معجزة له وهو كقوله تعالى ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٨٦ طبعة الحلبى .

وقوله تعالى ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ معناه : كنا فاعلين لذلك التسخير ، فليس ببدع ولا عجيب ، وإن كان عجبا عندكم.

ثم بين الله ـ تعالى ـ نعمًا أخرى أفاضها على داود ـ عليه السلام ـ فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾أى : علمناه عمل الدروع وأصل اللبوس كل ما يلبس .

ثم بين ـ سبحانه ـ الغاية من هذا التعليم فقال ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى : لتحفظكم اللبوس من بأسكم إذا وقعتم فى حرب ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ فضل الله عليكم بهذا التعليم ؟ والمراد بالاستفهام هنا الأمر أى اشكروا الله على هذه النعم ، وسيق فى صورة الاستفهام للمبالغة فى الحث على الشكر.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض ما أنعم به على سليمان فقال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى :شديدة الهبوب ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ كما يريد على قوتها وشدتها ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهى أرض الشام.

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ بصحة التدبير فيه ، فنجريه على ما تقضيه حكمتنا وإرادتنا.

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى : ومن الشياطين من يغوصون لسليمان فى البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ويعملون له أعمالا أخرى سوى الغوص فى البحار ، كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ عن أن يزيغوا عن أمره ويخرجوا عن طاعته.

هذه بعض الآيات التى تحدثت عن النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ذكرناها بمناسبة حديثنا عن عهدهما الذى يعتبر العهد الذهبى لبنى إسرائيل ، وفى القرآن الكريم آيات أخرى كثيرة تحدثت عما أفاضه الله من نعم على هذين النبيين الكريمين ، وسنرجئ الكلام عنهما الآن لنواصل حديثنا التاريخى عن أحوال بنى إسرائيل بعد هذا العهد.

(د) تاريخهم منذ وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ إلى خراب أورشليم الأول سنة ٥٨٦ ق م :

كانت وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ حوالى سنة ٩٧٥ ق م [١] ، بعدها يبدأ

(١) وقيل: كانت وفاته سنة ٩٥٣ ق م.

الدور الثانى للملوك الذين حكموا بنى إسرائيل . إذ بدئ الدور الأول لملوك بنى إسرائيل بطالوت وانتهى بوفاة سليمان ـ عليه السلام ـ وقد أعلن (رحبعام) ابن سليمان ـ عليه السلام ـ نفسه ملكا على بنى إسرائيل بعده وفاة أبيه ، وبايعه على الملك سبطا يهوذا وبنيامين اللذين كانا يقيمان فى المنطقة الجنوبية وحول أورشليم، ثم توجه (رحبعام) بعد ذلك إلى مدينة (شكين) (١) . ليأخذ البيعة من بقية الأسباط ، فأجتمع حوله شيوخهم وطلبوا منه ترك الشدة والقسوة ، ولكنه رد عليهم بغلظة ، وهددهم بقوله : (أنى سأؤدبكم بالعقارب) (٢) .

وهنا أعلن الأسباط العشرة إمتناعهم عن مبايعة (رحبعام) ملكا عليهم واختاروا (بربعام) ليكون ملكا عليهم.

وهكذا انقسمت مملكة بنى إسرائيل بعد وفاة سليمان إلى مملكتين :

(١) مملكة يهوذا بالجنوب وعاصمتها أورشليم . وأول ملوكها هو (رحبعام) وقد تعاقب عليها من بعده عشرون ملكا ، واستمرت حتى سنة ٥٨٦ ق م حيث سقطت فى هذه السنة فى يد بختنصر البابلى ، فتكون قد عمرت زهاء أربعة قرون، وهاك ملوكها بالترتيب ، مع بيان مدة حكم كل واحد منهم والسنة التى تولى فيها الملك .

اسم الملك	مدة حكمه	السنة التى تولى فيها الملك
١ ـ رحبعام بن سليمان	١٧ سنة	٩٧٥ ق م
٢ ـ ايعنيام بن رحبعام	٣ سنوات	٩٥٨ ق م
٣ ـ آسا بن رحبعام	٤١ سنة	٩٥٥ ق م
٤ ـ يهو شافاط بن آسا	٣٥ سنة	٩١٤ ق م
٥ ـ يهو رام بن يهو شافاط	٨ سنين	٨٨٨ ق م
٦ ـ أخزيا بن يهورام	سنة واحدة	٨٨٥ ق م
٧ ـ عثلياء بن أخزيا	٦ سنوات	٨٨٤ ق م

(١) شكيم هى نابلس الآن.

(٢) الإصحاح الثانى عشر من سفر الملوك.

اسم الملك	مدة حكمه	السنة التى تولى فيها الملك
٨ - يوآشن بن اخزيا	٤٠ سنة	٨٨٧ ق م
٩ - أمصيا بن يوآشن	٣٩ سنة	٧٣٨ ق م
١٠ - عزيا بن أمصيا	٥٢ سنة	٨٠٩ ق م
١١ - يوثام بن عزيا	١٦ سنة	٧٥٧ ق م
١٢ - أجاز بن يوثام	١٦ سنة	٧٤١ ق م
١٣ - حزقيا بن أحاز	٢٩ سنة	٧٢٦ ق م
١٤- منسى بن حزقيا	٥٥ سنة	٦٩٧ ق م
١٥ - آمون بن منسى	سنتان	٦٤٢ ق م
١٦ - يوشيا بن آمون	٣١ سنة	٦٤٠ ق م
١٧ - يهوذا حاز بن يوشا	٣ أشهر	٦٠٩ ق م
١٨ - يوقيم بن يوشيا	١١ سنة	٦٠٩ ق م
١٩ - يهوا كين بن يواقيم	ثلاثة أشهر	٥٩٨ ق م
٢٠ - صدقيا بن يواقيم	٢١ سنة	٥٨٦ ق م

وكان صدقيا آخر ملك من ملوك دولة يهوذا ، إذ فى عهده تم القضاء عليها على يد بختنصر البابلى .

(٢) مملكة إسرائيل فى الشمال ، وكانت عاصمتها فى معظم أيامها (شكيم) وأول ملوكها هو (بريعام) وقد تعاقب عليها من بعده حوالى تسعة عشر ملكا، وعمرت زهاء مائتين وخمسين سنة ، وكانت نهايتها على يد سرجون ملك آشور سنة ٧٢١ ق م :

وهاك ملوكها بالترتيب ومدة حكم كل واحد منهم:

اسم الملك	مدة حكمه	السنة التى تولى فيها الملك
١ - بريعام بن بناط	٣٢ سنة	٩٧٥ ق م
٢ - ناداب بن بريعام	سنتان	٩٥٣ ق م

اسم الملك	مدة حكمه	السنة التى تولى فيها الملك
٣ ـ بعشا بن أخياس	٢٢ سنة	٩٥٢ ق م
٤ ـ أيله بن بعثا	سنتان	٩٣٠ ق م
٥ ـ زمرى	سبعة أيام	٩٣٠ ق م
٦ ـ عمرى	٧ سنوات	٩٢٩ ق م
٧ ـ أخاب بن عمرى	٣٢ سنة	٩١٨ ق م
٨ ـ اخزيا بن أخاب	سنتان	٨٩٨ ق م
٩ ـ يوارم بن أخاب	١٢ سنة	٨٩٦ ق م
١٠ ـ يا هو بن يهو وشاقاط	٢٨ سنة	٨٨٤ ق م
١١ ـ يهو حاز بن يا هو	١٧ سنة	٨٥٦ ق م
١٢ ـ يهواش ثن يهوا حاز	٤١ سنة	٨٤٠ ق م
١٣ ـ بريعام الثانى	٤١ سنة	٨٠٠ ق م
١٤ ـ زكريا بن بريعام	سنة أشهر	٧٧٠ ق م
١٥ ـ شلوم بن يابينس	شهر واحد	٧٧٠ ق م
١٦ ـ مناحيم بن جاد	١٠ سنوات	٧٦٩ ق م
١٧ ـ فقيحا بن مناحيم	سنتان	٧٦٠ ق م
١٨ ـ فقح بن رمليا	٢٩ سنة	٧٥٨ ق م
١٩ ـ هوشع بن أيله	٨ سنوات	٧٢٩ ق م

وكان هوشع بن أيله هو آخر ملوكها ، إذ فى عهده قضى عليها سرجون الثانى ملك آشور (١).

هذا ، وأسفار الملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الثانى سجلت كثيرا من أخبار

(١) أخذنا أسماء ملوك الدولتين ومدة حكم كل واحد منهم عن كتاب «تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس ص ٢٨، ٢٩ .

دولتي يهوذا وإسرائيل ، فقد تكلمت عن أحوالهما الداخلية والخارجية ، وما ارتكستا فيه من فتن وحروب أهلية، وانحرافات دينية وخلقية ، وما تعرضتا له من ضربات خارجية .

ونحن سنجمل حديثنا عن هاتين المملكتين في أمرين :

أولهما : بيان علاقة كل واحدة منهما بالأخرى ، وأحوالهما الداخلية .

ثانيهما : بيان علاقتها بغيرهما من الدول المجاورة.

أما عن الأمر الأول فنقول : ساءت العلاقات بين الدولتين منذ انقسامهما «ويذكر سفر الملوك الأول، أنه كانت الحروب مستمرة بين رحبعام ويربعام . وقد وصلت القطيعة بين الدولتين ، أن يربعام ملك دولة إسرائيل صنع عجلين من ذهب، وقال لشعبه : هذه آلهتكم التي أصعدتكم من مصر فاذبحوها، وأقيموا أعيادكم عندها، ولا تصعدوا إلى أورشليم فاستجاب له الشعب ، وقد فعل هذا تفاديا من عواقب صعود شعبه إلى أورشليم ، وتأثير دعاية رحبعام فيهم [1] ».

وقد استمرت الحروب والمنازعات بين المملكتين معظم أيام قيامهما، ووصل الحال بهما أن كل واحدة منهما كانت تستعين بدولة ،أو بدول أخرى؛ لتقضي على أختها، فقد استنجد ملك يهوذا (آسابن رجبعان) بملك دمشق؛ لكي يعاونه على قتال (بعشابن أخياس) ملك إسرائيل .. ومثل هذه التصرفات حدثت من ملوك آخرين لكلتا الدولتين.

ويصف صاحب تاريخ الإسرائيليين ما كان بين الدولتين من نزاع وحروب فيقول: « وحدث بين المملكتين حروب ومنازعات كثيرة، أثارها ما بين ملوكها من التنافس، وعدم انتظام الملك في كليهما على اطراد ، لكن أولئك الملوك كانوا في بعض الأحايين، يتعاهدون ويسيرون معاً بجيوشهم إلى الحرب، على أن روح المنافسة لم يزل دأبها بينهم،لأن ملوك إسرائيل كانوا يخشون أن ترتد رعاياهم عنهم إلى ملوك يهوذا،بذهابهم للعبادة في هيكل أورشليم،فاتخذ بعضهم جميع الوسائل لحملهم على اطراح تلك العادة،فكانوا تارة ينصبون لهم الأوثان ليعبدوها،وطورا يمنعونهم عن تأدية فريضة العبادة جبراً،وهكذا تناثرت عرى الاتحاد

---

(١) سفر الملوك الأول ، الإصحاح الثالث عشر نقلا عن (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص ١٢١).

والوئام بين الأسباط ، وازداد الشقاق ، فكانت النتيجة ضعف المملكتين ، وتغلب الأعداء والغزاة عليهما الواحدة بعد الأخرى [1] » .

وقد انتشرت المفاسد فى الدولتين انتشاراً كبيراً ، وعمتهما الفتن الداخلية ، فى كثير من العهود ، إلا أن دولة يهوذا كانت ـ فى الجملة ـ أحسن حالا من دولة إسرائيل ، وفى ذلك يقول الأستاذ محمد عزة دروزة :

« كانت دولة إسرائيل تمثل أكثرية الأسباط ، وكانت أوسع مساحة من دولة يهوذا ، إلا أن أفرادها ـ ملوكا وشعبا ـ انحرفوا عن الطريق المستقيم منذ بداية دولتهم ، وظلوا منحرفين إلى نهايتها ، وقد تعددت الانقلابات فى دولة إسرائيل ، وأدى ذلك إلى سفك الدماء ، وإبادة أسر مالكة برمتها فى سبيل الحكم والسلطان، كما أن عاصمتها قد تغيرت أكثر من مرة بسبب الفتن ، فقد كان شكيم ـ نابلس ـ هى العاصمة أولا ، ثم صارت العاصمة (ترصه) ثم (شامر) القريبة من شكيم، والتى يقوم مكانها اليوم قرية اسمهما (سبسطية) وقد جددت فى عهد الرومان ، وأخذت اسمها منهم ، أما دولة يهوذا ، فكانت أحسن ـ فى الجملة ـ من دولة إسرائيل ، سواء من ناحيه الاستقرار ، أو من ناحية الصلاح ، فقد سجلت الأسفار لبعض ملوكها نشاطاً غير يسير فى مختلف المجالات « ونوهت بما كان لهم من مجدو وغنى وقوة ، غير انها سجلت كذلك على كثير من ملوكها انحرافا وظلماً وتضعضعا شديدا ، وكانت فترات الانحراف أطول من فترات الاستقامة . . وقد استمرت سلسلة ملوك دولة يهوذا فى ذرية سليمان ـ عليه السلام ـ بخلاف دولة (إسرائيل فقد تعاقب عليها ملوك من أسباط مختلفة [2] » .

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الأمر الثانى فنقول :

كانت علاقة الدولتين بغيرهما من الدول ـ فى مجموعها ـ علاقة عداء وحرب .

١ ـ ففى عهد ـ رحبعام ويربعام ـ غزا (شيسنق) فرعون مصر ، فلسطين ، وصعد على أورشليم ونهبها ، وبسط سيطرته على دولة يهوذا ، ثم على دولة إسرائيل ، وامتد سلطانه إلى منطقة الجليل [3] .

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٣٠ .

(٢) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ـ بتصرف وتلخيص ـ ص ١٢٨ وص ١٦٤ و ١٧٧ .

(٣) تاريخ مصر من اقدم العصور . (لبرستيد) ص ٣٥٧.

وفى سنة ٧٤٠ ق م غزا ملك أشور (ثغلت فلاسر) دولة إسرائيل ، فبذل له ملكها (مناحيم بن جاد) ألف وزنة من الفضة؛ ليترك له الملك فى يده ، فقبل (ثغلت) ذلك منه .

٣ ـ وفى سنة ٧٢٧ ق م تولى عرش آشور (شلمناصر الثالث) فتمردت عليه إسرائيل، فزحف عليها فقدّم إليه (هوشع بن أيله) آخر ملوكها هدايا كثيرة قبلها ملك آشور، وتوجه عائدا إلى بلاده ، ولكنه لم يكد يصل إلى (نينوى) حتى عاد الإسرائيليون إلى عصيانهم فزحف عليهم مرة ثانية ، وضرب حصارا شديدا حول السامرة عاصمتهم : ولكنه مات قبل أن يفتحها .

٤ ـ وفى سنة ٧٢١ ق م ، قام خليفته (سرجون الثانى) بغزو دولة إسرائيل فحاصرها حصارا شديدا ، ثم دارت بينه وبينهم معركة انتهت بزوال دولة إسرائيل زوالا تاما ، إذ سبى (سرجون) الأسباط ، وأجلاهم عن أوطانهم إلى ما وراء الفرات ، وأقام على البلاد واليا آشوريا من قبله .

وهكذا قضى على مملكة إسرائيل سنة ٧٣١ ق م ، قضاء تاما لم تقم لها بعده قائمة .

٥ ـ وقد استطاع (أسر حدون) بن سرجون الثانى ، أن يوطد سيطرته بعد أبيه على بلاد الشام ، ومن جملتها دولة يهوذا ، التى ظلت فى نطاق حدودها بعد زوال دولة إسرائيل ، مع بقاء بلاد هذه الدولة الزائلة تحت إدارة الآشوريين ، ومن بين الذين قدروا له الهدايا من ملوك يهوذا ـ كترضية له ـ (منسى بن حزقيا) إلا أن (منسى) هذا حاول التمرد على الآشوريين بعد ذلك ، فانقض عليه (أسر حدون) وأخضع مملكة يهوذا لآشور ، وسيق (منسى) مكبلا بالأغلال إلى بابل ، وهناك تعهد مرة آخرى بالولاء والخضوع فأعيد إلى عرشه، وكان ذلك حوالى سنة ٦٧٧ ق م .

٦ ـ وفى سنة ٦١٠ ق م انتهز (نخو) فرعون مصر فرصة انحطاط مملكة أشور ، فأعد جيشا لغزوها فتصدى له (يوشيا بن أمون) ملك يهوذا ، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بمقتل (يوشيا) ثم واصل (نخو) زحفه نحو الشام ، فاستولى على كثير من مدنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى الفرات ، ثم بلغه أن اليهود عادوا إلى العصيان ، فعاد إليهم وأدبهم، وعزل ملكهم وعين آخر بدله .

٧ ـ وكانت نهاية دولة يهوذا على يد (بختنصر البابلى) ، وذلك أن بختنصر ملك بابل أغار على أورشليم سنة ٦٠٦ ق م ، فنهبها ، وأجلى كثيراً من أهلها وقبض على (يهوا كين بن يواقيم) ملكها فى ذلك الوقت ، ونفاه مع جماعة كبيرة من نسائه وأسرته ، وأقام بدله (صدقيا بن يواقيم) ولكن (صدقيا) ثار عليه بعد ذلك ، فأعاد بختنصر الكرة مرة ثانية على أورشليم سنة ٥٩٩ ق م ، وأجلى من اليهود فى هذه المرة عشرة آلاف من أعيانهم وأشرافهم إلى بابل ، وحمل كنوز الهيكل والبلاط الملكى . . ثم إن (صدقيا) أعلن العصيان للمرة الثانية سنة ٥٩٣ ق م ، فزحف بختنصر على أورشليم للمرة الثالثة سنة ٥٨٦ ق م ، وفى هذه المرة قتل ملكها (صدقيا) شر قتلة ، وقتل معه أبناءه وأسرته ، ودمر مدينة أورشليم وأسوارها وهيكلها، وأحرقها بالنار ، ونهب خزائنها ، واستاق شعب يهوذا أسيراً إلى بابل ، وهناك بقوا فى أسره حوالى خمسين سنة ، ظلت خلالها أورشليم خرابا .

وهكذا قضى على مملكة يهوذا حوالى سنة ٥٨٦ ق م ، كما قضى قبل ذلك على أختها مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق م .

ويصف الأستاذ محمد عزة دروزة علاقة الدولتين بغيرهما من الدول فيقول : « ويبدو أن صلات مملكة يهوذا وإسرائيل بغيرهما من الدول ، كانت على حسب الظروف ،عدائية أو عدوانية ،أو مذبذبة أو غادرة ، أو فى صورة خضوع وذلة ، وأن الشعوب الأخرى عاملتهم بالمثل ، وكالت لهم بمثل كيلهم ، فكانوا فى معظم مدة وجودهم فى عداء ،وحروب مع الغير ، وعرضة للغزوات والغارات والسيطرة والإذلال، ثم انهى الأمر إلى نسف دولتهم وإجلائهم عن بلادهم ، لأن الآشوريين والكلدانيين رأوا ذلك هو العلاج الحاسم ،لما كان منهم من غدر ومراوغات وتذبذب وتناقضات (١) .

ويصف أحد الكتاب الغربيين نهاية الدولتين فيقول :

« لم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمدا وجيزا ، فمات حيرام ، وانقطع عون (صور) الذى كانت تقوى به أورشليم ، ثم قويت شوكة مصر

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ١٥٧ .

ثانية، ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى ، تعركهما على التوالى سورية ثم بابل من الشمال ، ومصر من الجنوب وهى قصة نكبات ، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية ، هى قصة ملوك همج، يحكمون شعبا من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م ، محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م»(١) .

ويصور « ولز » حالة المملكتين الإسرائيليتين فيقول :

« كانت حياة العبرانيين فى فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم ، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار . . ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ فى تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقيا ، ذلك التاريخ الذى هو أكبر وأعظم من تاريخهم » (٢) .

وإلى هنا نكون قد ألممنا بأحوال دولتى : يهوذا وإسرائيل منذ ولادتهما إلى مماتهما ، والآن فلننظر ماذا جرى لبنى إسرائيل بعد ذلك !!

(هـ) تاريخهم منذ خراب أورشليم الأول سنة ٥٨٦ ق م إلى خرابها الثانى سنة ٧٠ م .

توالت دول متعددة على حكم فلسطين منذ خراب أورشليم الأول على يد «بختنصر » إلى خرابها الثانى على يد « الرومان » .

وكان حكم هذه الدول لفلسطين فى تلك الفترة على الترتيب التالى :

١ ـ البابليون من سنة ٥٨٦ ـ سنة ٥٣٨ ق م .

٢ ـ الفرس من سنة ٥٣٨ ـ سنة ٣٣٠ ق م .

٣ ـ اليونان من سنة ٣٣٠ ـ سنة ٣٢٣ ق م .

٤ ـ البطالسة من سنة ٣٢٣ ـ سنة ٢٠٠ ق م .

٥ ـ السلوقيون من سنة ٢٠٠ ـ سنة ١٦٧ ق م .

---

(١) اليهودية للدكتور أحمد شلبى ص ٦٣ .

(٢) موجز التاريخ هـ . ج . ولز : نقلا عن كتاب « بلادنا فلسطين » لمصطفى مراد الدباغ جـ ١ ص ٥٦٤ . دار الطليعة : ببيروت .

٦ ـ السلوقيون والمكابيون من سنة ١٦٧ ـ ٦٣ ق م .

٧ ـ الرومان من سنة ٦٣ ق م ـ ٦١٤ م .

وهاك الكلام بشيء من الإيجاز عن كل فترة من هذه الفترات :

١ ـ خلت فلسطين تقريباً من اليهود بعد سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق م ، في يد (بختنصر) وقد عاشوا أسارى في بابل زهاء خمسين سنة ، قلدوا فيها عادات البابليين وأخذوا عنهم الكثير من شعائرهم وآدابهم ، واشتركوا في وظائف وأعمال الدولة تحت رقابة البابليين .

وخلال هذه الفترة ـ كما تقول الأسفار ـ ظهر في بني إسرائيل بعض الأنبياء وكثير من الوعاظ والمرشدين ، وفي أسفار أرميا ، وعزرا ، ونحميا واستير ، وحزقيال ودانيال ، .. كثير من المواعظ والزواجر التي كان يوجهها المرشدون لبني إسرائيل في هذه الفترة .

٢ ـ وفي سنة ٥٣٨ ق م استولى (قورش) ملك الفرس ، على بلاد بابل ، فعامل اليهود معاملة حسنة ، لأنه تربى في حجر (استير) اليهودية ، التي كانت في حوزة أبيه ، وقد أصدر (قورش) نداء سمح فيه لليهود أن يعودوا إلى أورشليم ، وأن يعيدوا بناء هيكلهم ، وساعدهم على ذلك بالأموال والرجال .

ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة في بابل ، وامتدت بها أعراقهم ، وذاقوا بها خصب العيش ، والتجارة الرابحة ، ومن ثم فقد ترددوا كثيرا في العودة إلى أورشليم ، ومعظم الذين عادوا منهم إلى أورشليم كانوا من سبطي يهوذا وبنيامين .

« وكانت عودة اليهود من المنفى عودة الأمة ، وليست عودة الدولة ، فإن بني إسرائيل عادوا ، ولكن دولتهم لم تعد ، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسي وخاضعة له ، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم من الفرس » (١) .

وقد تعاقب على حكم الفرس في الحقبة التي كانت لهم السيطرة على فلسطين عدد من الملوك من بينهم (قمبيز) و (خوماتا) و (دارياش الأول) و (ودارياش الثاني) و (دارياش الثالث) وكانت منطقة فلسطين عدد خلال حكم الفرس لها

---

(١) اليهودية للدكتور احمد شلبي ص ٦٦ .

تدار من قبل ولاة يرسلهم الملك إليها من الفرس ،وأحياناً كان الملك الفارسى يختار واليا من اليهود؛ ليقوم بالحكم تحت رقابة الفرس ، فقد عين الملك (لوغيامانس) الفارسى (عزرا) اليهودى والياً على أورشليم سنة ٤٤٥ ق م تقريبا.

٣ ـ وفى سنة ٣٣٠ ق م ، قامت حروب بين الاسكندر المقدونى، وبين الفرس بقيادة ملكهم (دارا الثالث) انتهت بانتصار الإسكندر ، وهزيمة الفرس، وطردهم من بلاد الشام جميعا ، وأصبحت بلاد الشام ومن بينها فلسطين خاضعة لحكم الإسكندر المقدونى.

وتحكى الأسفار وبعض كتب التاريخ: أن الاسكندر خلال حكمه عامل اليهود معاملة حسنة ، وأنه زار أورشليم والهيكل .

٤ ـ وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق م ، اقتسم ملكه الكبير قواده ، فكانت فلسطين من نصيب القائد (بطليموس) الأول ملك مصر ، وقد استمر حكم البطالسة على فلسطين حتى سنة ٢٠٠ ق م ، تقريبا.

وقد حكم بطليموس الأول من سنة ٣٢٣ -إلى سنة ٢٨٥ ق م ، وخلال حكمه دارت بينه وبين البلاد المجاورة له حروب ومنازعات ، استطاع فى النهاية أن يتغلب على أعدائه جميعاً ، واستطاع كذلك أن يسيطر على أورشليم بعد أن أعلن اليهود عصيانهم له ، وساق منهم إلى مصر أكثر من مائة ألف أسير .

وتولى الملك بعده بطليموس الثانى من سنة ٢٨٥ ـ سنة ٢٤٧ ق م ، فبقيت فلسطين تحت سلطانه ، وقد عامل اليهود معاملة حسنة ، إذ سمح لمائة وعشرين ألفا من اليهود الذين كانوا يقيمون فى مصر بالعودة إلى اليهودية.

ويقول عنه صاحب تاريخ الإسرائيليين :« وبطليموس الثانى هذا هو مؤسس مكتبة الاسكندرية المشهورة ، التى كان المؤرخون يتهمون العرب بحرقها بعد فتح مصر » (١) .

ويقول عنه الاستاذ محمد عزة دروزة : (أن بطليموس الثانى) طلب من (اليعازار) رئيس كهنة اليهود أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالما من علماء التوراة ـ ستة من كل سبط ـ لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية فنفذ الطلب ، وكان

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٣٦ .

(اليعازار) على رأس العلماء ، وتمت المهمة فى اثنين وسبعين يوما ، فكانت الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية فى اللغة اليونانية للأسفار الخمسة » [1] .

وعقبه بطليموس الثالث فحكم مصر وفلسطين من ٢٤٧ ـ سنة ٣٢٢ ق م ، وقد ذكر المطران الدبس (أن ـ أدينا ـ رئيس أحبار اليهود بأورشليم ، تقاعس عن دفع الجزية بضع سنين فى زمن بطليموس الثالث ، وكان قدر الجزية السنوى عشرين وزنة ، فأرسل بطليموس الثالث عاملا إلى أورشليم ؛لإرغام اليهود على دفع الجزية، وهددهم بالطرد إذا لم يدفعوا ، فعظم القلق فى أورشليم ، ثم أوفد اليهود رجلا ذكيا منهم إلى بطليموس استطاع أن يقنعه بإعفاء اليهود من معظم الديون المتراكمة عليهم » [2] أ. هـ .

وخلال حكم بطليموس الرابع الذى امتد من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٠٢ق.م تقريبا ، جرت حروب فى فلسطين بينه وبين (أنطوخيوس الثالث) السلوقى ملك سورية ، وكان النصر فيها لأنطوخيوس ، الذى جاء إلى أورشليم فأذل اليهود ، وبعد مدة قليلة استطاع بطليموس الرابع أن يأخذ بثأره من أنطوخيوس، وأن يطرده من فلسطين ويعيدها إلى حكمه ، إلا أن السلوقيين استطاعوا أن يعيدوا فلسطين إلى حظيرتهم حوالى سنة ٢٠٠ ق م . وأن ينتصروا على بطليموس الخامس.

٥ ـ ومنذ سنة ٢٠٠ إلى سنة ١٦٧ ق م ، استطاع السلوقيون أن يجعلوا فلسطين خاضعة لسلطانهم ، وقد عاملوا اليهود بالشدة والقسوة ، وجعلوا يبذلون جهودهم فى تحويل اليهود عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية ، وقد نصب الوالى السلوقى (أثنيوس) تمثالا لمعبودهم اليونانى فى هيكل أورشليم، وقرب له القرابين ، وأخذ يدعو اليهود إلى المشاركة فى الطقوس اليونانية، وينزل أشد العقوبات بمن يمتنع عن الاستجابة لتعاليمه ، وقد استجاب له عدد كبير من اليهود، وأخذوا يتركون ديانتهم وتقاليدهم ؛ ليندمجوا فى تقاليد وطقوس اليونانيين.

والخلاصة :أن السلوقيين خلال مدة حكمهم لفلسطين أذلوا اليهود ، وانتقموا منهم شر انتقام .

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٢٣٦ .

(٢) تاريخ سورية المطران الدبس جـ ٢ ص ١٢٣ .

٦ ـ وقد أدت معاملة السلوقيين القاسية لليهود ، إلى انفجار الثورة ضدهم من جماعة، من كهنة اليهود عرفوا فى التاريخ باسم المكابيين [١] وكانت ثورتهم هذه حوالى سنة ١٦٦ ق م .

وكان على رأس تلك الثورة (متاثيا) الكاهن اليهودى مع أولاده الخمسة، وهم (يوحنا) ، و(سمعان) ، و(يهوذا) ، و(العازار) ، و(يوناتان) .

وتحكى لنا أسفار المكابيين أن (متاثيا) هاجر بأولاده إلى مدينة تدعى (مودين)[٢] وكان حزينا لما أصاب أورشليم ، وجاءت رسل الملك السلوقى بعد ذلك لإجبار أهلها على نبذ أحكام التوراة .. وطلبوا من (متاثيا) الطاعة فأبى .. ثم وثب (متاثيا) على واحد من رسل الملك فقتله .. ثم خرج إلى الجبال قائلا : « ليلحقنى كل من يغار على الشريعة » فتبعه كثيرون فكان ذلك إعلانا . للثورة[٣] .

وبعد وفاة (متاثيا) تولى ابنه يهوذا قيادة الثائرين ، والتقى مع (ابلونيوس) قائد السلوقيين فى معركة عنيفه انتهت بانتصار يهوذا وأتباعه .

ثم توالت المعارك بعد ذلك بين يهوذا والسلوقيين، فكانت سجالا بينهم ، إلا أن يهوذا استطاع فى سنة ١٦٥ ق م أن يستولى على أورشليم .

وفى سنة ١٦١ استطاع السلوقيون أن يهزموا يهوذا ومن معه ، وأن يعيدوا أورشليم إلى سلطانهم ، غير أن المكابيين واصلوا ثورتهم ضد السلوقيين.

وفى سنة ١٠٤ ق م استطاع القائد المكابى (ارستبولس) أن يأخذ لقب الملك إلا أن ملكه لم يدم طويلا ، إذ حصل بينه وبين أخيه (انتغنس) منازعات أدت إلى هلاك الإثنين . واستطاع المكابيون بعد ذلك أن يسيطروا لفترة من الزمان على أورشليم ، وأن يتمتعوا بشيء من الكيان المستقل إلا أن استقلالهم فى أكثر عهودهم كان تحت سيادة السلوقيين ، وكان يضيق ويتسع على حسب الظروف .

---

(١) قيل : سموا بذلك نسبة إلى كلمة (مكابا) العبرية التى معناها : المخبا .

(٢) تسمى الآن باسم (المدية) وهى قرية من بلدة اللد .

(٣) اسفار المكابيين الإصحاح الثانى .

ومما ساعد على نجاح المكابيين فى بعض الفترات نشوب النزاع بين السلوقيين والبطالسة أحيانا ، وبين زعماء السلوقيين فيما بينهم أحيانا أخرى.

هذا ، وثورات المكابيين تجلت فيها مواقف تدل على الشجاعة والإقدام إلا أنه يؤخذ عليها أن اليهود جميعا لم يندمجوا فيها بل كان كثير منهم يكيدون لها ولرجالها فى مختلف المناسبات ، وبشتى الوسائل . كما يؤخذ على ثورة المكابيين ذاتها أن رجالها لم يدم التعاون بينهم طويلا ، بل أحيانا كانوا ينقسمون على أنفسهم ويحارب بعضهم بعضا.

ففى سنة ٦٣ ق م نشب نزاع على الحكم بين (هركانس المكابى) وبين أخيه (ارستبولس) فانتهزت الدولة الرومانية فرصة هذا النزاع لبسط سلطتها على فلسطين ، وحضر لهذا الغرض القائد (بمبيوس) الرومانى، فأقام بجيشه فى دمشق يترقب ما ينجلى عنه الموقف بين الأخوين ، ثم وفد عليه بعد ذلك (أرستبولس وهركانس) وقدما له الهدايا النفيسة وطلب كل واحد منهما أن يكون الملك له ، إلا أن (بمبيوس) أمرهما أن يخضعا له . ولكن أرستبولس لم يخضع للأمر وتحصن بأورشليم ، فحاصره (بمبيوس) حتى أجبره على الخضوع والإستسلام له.

وقد أصر الكهنة على مقاومة (بمبيوس) ولاذوا بالهيكل ، وامتنعوا عن التسليم ، فحاصرهم الرومان زهاء ثلاثة أشهر ، ثم تمكنوا فى النهاية من دخول الهيكل ، وأعملوا السيف فى اليهود بلا شفقه أو رحمة.

ومن ذلك التاريخ خضعت فلسطين للحكم الرومانى الذى استمر إلى سنة ٦١٤م.

وهاك كلمة عن اليهود وتاريخهم منذ سيطرة الرومان على فلسطين من سنة ٦٣ق م إلى خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى سنة ٧٠ م.

٧ - كان الرومان خلال هذه الفترة (٦٣ ق م إلى ٧٠ م) من حكمهم لفلسطين، يستعملون عليها أحيانا ولاة يختارونهم من اليهود، وكان هؤلاء الولاة يخضعون فى تصرفاتهم للدولة الرومانية ، إلا أن اليهود كانوا كثيرا ما يشقون عصا الطاعة على الرومان، فيقوم الرومان بتأديبهم بالطريقة التى يرونها مناسبة.

(أ) ففى سنة ٥٧ ق م قام (اسكندر بن أرستبولس اليهودى) بثورة ضد الرومان ، وحارب عمه (هركانس) الوالى على البلاد من قبل الرومان وانتصر

عليه، ودخل أورشليم .. إلا أن انتصار (اسكندر) هذا لم يدم طويلا ، فقد أرسل الرومان لتأديبه قائدا من قوادهم يدعى (غابينوس) فزحف على أورشليم وتمكن من التغلب على (اسكندر) ولما رآى اسكندر أنه لا مفر من التسليم ، طلب من القائد الرومانى الأمان فأجابه إلى طلبه، ثم أعاد (هركانس) إلى ولاية أورشليم.

(ب) وفى نفس السنة تمكن والد اسكندر (ارستبولس) من الفرار من روما ومعه أحد أولاده، فلما وصل إلى أورشليم انضم إليه عدد كبير من اليهود ، وأعلنوا الثورة على الرومان إلا أن القائد الرومانى (غابينوس) استطاع أن يمزق صفوفهم، وأن يقتل معظم من انضم إليه من اليهود ، وأن يقبض على (أرستبولس) ويرسله للمرة الثانية أسيراً إلى روما.

(جـ) وفى سنة ٤٩ ق م عاود (اسكندر بن أرستبولس) الثورة على الرومان ، فقبض عليه والى سورية من قبل الرومان ثم قتله شر قتله فى أنطاكية.

(د) وفى سنة ٣٧ ق م كان (انتغنس بن أرستبولس) قد تمكن من حكم أورشليم بمساعدة بعض الثائرين ، فجهز الرومان جيشا لتأديبه وحاصروا أورشليم مدة ستة أشهر ، ثم تمكنوا من اقتحامها ، وبعد دخولها قتلوا كثيرا من سكانها ، ونهبوا ما فيها من أموال ، وقبضوا على (انتغنس) وساقوه أسيرا إلى القيصر الرومانى ، فقتله.

وبموت (انتغنس) زالت دولة المكابيين زوالا تاما ، لأن انتغنس كان آخر زعيم من زعمائهم .

ولكن هل كف اليهود بعد ذلك عن ثوراتهم ضد الرومان ؟

يقول صاحب (تاريخ الإسرائيليين) (على أن اليهود لم يخلدوا إلى السكينة بعد دخولهم تحت حكم الرومان ، وشق على نفوسهم أن يحتل الرومان عاصمة ملكهم، وبيت مقدسهم ، فكانوا تارة يتهددون الولاة ، وطورا يطردون الجنود الرومانيين من أورشليم ،وآونة يظهرون الرضا بحكم الرومان عليهم .. وقد تعاقب عليهم ولاة رومانيون ساموهم سوء العذاب، فرفعوا أمرهم إلى رومية ، ولما لم يأتهم منها الفرج تظاهروا بالعصيان . وأحدثوا شغبا عظيما ، فأرسلت رومية قائدها المحنك (فاسباسيان) فحاصر أورشليم ، وحارب اليهود ، وظل على قتالهم إلى أن

انتخبه الرومان امبراطورا لهم ، فخلفه ابنه (تيطس) على الحصار، وقتال اليهود وكان (تيطس) هذا قائدا مدربا . وبطلا مجربا ، ذاق منه اليهود الأمرين .. وثابر على منازلتهم بالجنود الرومانية المشهورة ، ومُنى اليهود بالانقسام الداخلى، والفتن والمنازعات بينهم ، حتى ضعف أمرهم، وتقلص ظلهم وتقوى (تيطس) عليهم فمزق شملهم ، ودخل أورشليم فدكها دكا، ودمرها تدميرا ، ومات من اليهود فى ذلك الحصار نحو مليون نسمة ، فسالت الدماء كالأنهار.

ثم يقول : وإلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمّة ،فإنهم بعد خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى : تفرقوا فى جميع بلاد الله ، وتاريخهم فيما بقى من العصور ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها ، أو نزلوا فيها ، وقد قاسوا فى غربتهم صنوف العذاب والبلاء ، فإن الرومان حظروا عليهم دخول أورشليم (١) .

ويصف المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث وهو (يوسيفوس) (٢) اليهودى ما حل بأورشليم على يد تيطس الرومانى فيقول ما ملخصه.

«ولقد طال حصار (تيطس) لأورشليم ، حتى فنى ما فيها من قوت ، واضطر سكنها إلى أكل الجيف ودبيب الأرض. وهلك خلق كثير من الجوع واشتغل الأحياء بأنفسهم وتركوا الموتى بدون دفن . فامتلأت المنازل والشوارع والأزقة بالجثث وتعفنت الموتى .. وصار الناس يخرجون إلى الروم بالألوف دون أن يمنعهم أحد ، وكانوا يبتلعون ما عندهم من ذهب وفضة ، ثم يستخرجونه من البراز بعد وصولهم إلى الروم ، وانتشر خبرهم بين الروم فكانوا يقتلونهم طمعا فيما فى أجوافهم من ذهب وفضة ،وقد تمكن الروم فى النهاية من خرق أسوار أورشليم ، فدخلوا المدينة، وأخذوا يقتلون اليهود ، ويدمرون ما تقع عليه أيديهم .. وهكذا دمرت أورشليم، ودمِّر المعبد للمرة الثانية ، وهلك اليهود فى المدينة قتلا وجوعا بأيدى بعضهم ، وأيدى الرومان معا» (٣) .

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٧١ و ص ٧٧ . طبعة المقتطف سنة ١٩٠٤ .

(٢) يوسيفوس مؤرخ يهودى ولد سنة ٣٧ م وتولى سنة ١٠٣ م تقريبا وكان من المعاصرين لتدمير أورشليم وقد كتب فى ذلك مجلدا ضخما.

(٣) تاريخ يوسيفوس نقلا عن تاريخ بنى إسرائيل من اسفارهم ص ٣٥١.

هذا ، وقد كان تدمير تيطس لأورشليم سنة ٧٠ م ، وبعد هذا التدمير فر من بقى حيا من اليهود إلى الأقطار المجاورة كمصر وقبرص ، وليبيا وجزيرة العرب .

وهؤلاء اليهود الذين فروا من وجه (تيطس) الرومانى إلى جزيرة العرب ، هاك الحديث المفصل عنهم .

المبحث الثالث

ثالثا : يهود جزيرة العرب ، وأحوالهم الدينية والاجتماعية :

نعنى بيهود جزيرة العرب :من سكن منهم المدينة وضواحيها كبنى قينقاع والنضير وقريظة ، ونعنى بهم ـ أيضا ـ من سكن المدينة كيهود خيبر وتيماء ووادى القُرَى .

وكلامنا عن يهود جزيرة العرب يتناول الأمور الآتية :

(أ) آراء المؤرخين فى وقت وصولهم إلى جزيرة العرب .

(ب) جنسيتهم ومساكنهم ، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

(جـ) أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة .

(د) علاقتهم بالأوس والخزرج .

وللكلام عن الأمر الأول نقول :

(أ) هناك خلاف طويل بين المؤرخين فى الوقت الذى هاجر فيه اليهود إلى جزيرة العرب ، فبعضهم يرى أن هجرتهم إليها كانت فى عهد داود ـ عليه السلام ـ وبعضهم يرى أن نزوحهم إليها كان فى عهد الملك (حزقيال) الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين .

والذى ارتضاه بعض المؤرخين ، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى جزيرة العرب كانت فى القرن الأول الميلادى ، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م .

وهذا لا يمنع أنه كان يوجد عدد قليل من اليهود توطنوا الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ .

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون : بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التى

انتهت بخراب بلاد فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، قصدت جموع غفيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى (يوسيفوس) الذى شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها.

ثم يقول : وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم ، ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير : وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، هاربين منهم إلى مَن بالحجاز من بنى إسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام ، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه ، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لانبات فيها ولا ماء ، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا ، وسمى الموضع (تمر الروم) فهو اسمه إلى اليوم (١) .

ويرجع الدكتور جواد على ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول :

« أما ماورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح ، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين . ومن هؤلاء المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة ، وبنو النضير . وبنو بهَدل ، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا فكرهوا الإقامة فيه ، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا ، وأرضا عذبه ، حتى إذا بلغ (العالية) وهى بطحان ومهزور وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون استقر رأيهم على الإقامة فيها ، فنزل بنو النضير، ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور » (٢).

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٩ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على جـ٦ ص ١٠ : طبعة المجمع العلمى العراقى.

وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب ، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلّوا بها فى القرن الأول الميلادى ، أى بعد تدمير أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه ، فرارهم من وجه الرومان حتى ينجو من بطشهم وفتكهم بهم .

وللكلام عن الأمر الثانى نقول : يرى بعض الكاتبين أن يهود الحجاز من قبائل عربية تهودت، وليسوا من بنى إسرائيل . ويستدل على ذلك: بأن معظم أسمائهم، وأسماء قبائلهم عربية مثل: رفاعة ، ووهب ، وكعب وزيد ، وعبد الله.. الخ ،ومثل بنى النضير ، وبنو عوف ، وبنى ثعلبة .. الخ.

ونحن نرد على هذا الرأى: بأن القرآن الكريم قد وجه خطابه إلى اليهود فى كثير من آياته بعبارة (يا بنى إسرائيل) وذكرهم فى مواضع متنوعة بهذه العبارة ،أو بعبارة اليهود أو هادوا ، وربط فى كثير من آياته بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبى ﷺ وبين أخلاق آبائهم من لدن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، وبين ما كان عليه الجميع من كفر وتكذيب ،واعتداء على الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

وقوله تعالى فى سورة النساء ؛ ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

وقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها ، تجعلنا نجزم بأن اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها هم من بنى إسرائيل ، وليس أصلهم من العرب لأن توجيه الخطاب إليهم بهذه الصورة يفيد أنهم منْ نسل أولئك الآباء الذين آذوا موسى وعيسى وغيرهما من الرسل (عليهم الصلاة والسلام) .

وفضلا عن هذا فإن اليهود فى العهد النبوى كانوا يعيشون فى أحياء وقرى خاصة بهم ، وكانت لهم لغتهم العبرية التى يتخاطبون بها فيما بينهم ، كما

كانت لهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم ،التى لا يشاركهم فيها غيرهم بل هم كانوا يعتبرون عقيدتهم اليهودية وقفا عليهم وحدهم .

وقد فصل الأستاذ محمد عزة دروزة الحديث فى هذا الموضوع فقال ما ملخصه: لم يكن فى الحجاز قبائل عربية متهودة ، وإن كان لا يبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب تهودوا ،مع أنه ليس هناك من الأسانيد الوثيقة ما يساعد على الجزم بذلك ، وتسمية بنى النضير أو بنى قريظة ، أو بنى قينقاع ، لا تقوم دليلا ، وكل ما يمكن أن تدل عليه هو اقتباس الإسرائيليين تسميات وصيغاً متناسبة مع البيئة التى طال عهد إقامتهم فيها، وما روى من أسماء عربية كان يتسمى بها بعض اليهود. فإن الروايات وهى تذكر هذه الأسماء لا تلبث أن تذكر آباء أصحابها الإسرائيلية ، مثل عبد الله بن صوريا ثعلبة بن شعيا ، ورفاعة بن يزيد بن التابوت ، ونعمان بن أضا . الخ.

بل إنا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول : إنه لم يكن كذلك فى سائر جزيرة العرب ـ وخاصة اليمن ـ كتل عربية يهودية فى عصر النبى ﷺ وإذا كانت الروايات تذكر أن بعض أحياء اليهود فى الحجاز استطاعوا نشر اليهودية فى اليمن فى عهد التبابعة ، فليس هناك سند وثيق يؤيد ذلك ، ومع هذا فإن كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود فى اليمن فى زمن النبى ﷺ، كما أنها لم تذكر أن عمر ـ رضى الله عنه ـ أجلى يهودا عن اليمن حينما أجلى النصارى العرب عن نجران اليمن تنفيذاً لوصية النبى ﷺ بأن لا يبقى فى جزيرة العرب دينان ، ولقد روى أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ أن آخر كلام قاله رسول الله ﷺ هو وصيته بإخراج يهود الحجاز، ونصارى نجران اليمن من جزيرة العرب ، وهذا يدل على أنه لم يكن فى اليمن فى عهد النبى ﷺ، يهود وإنما كان بقية منهم فى الحجاز (١) .

ومن هذا يتبين لنا أن يهود الجزيرة من أصل يهودى ، وأنهم كانوا جماعات طارئة عندما أجليت عن المدينة وضواحيها ، لم تترك آثاراً تشهد بأصالتها فى سكنى تلك المناطق.

وأما عن مساكن اليهود فبعضها كان بداخل المدينة ، وبعضها كان قريبا منها وبعضها كان بعيدا عنها.

---

(١) تاريخ الجنس العربى جـ ٥ ص ١٤٨ ، وعصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة ص ١٠٥ ،والقرآن واليهود ص ٢٤ للأستاذ محمد عزة دروزة.

فبنو قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى محلة خاصة بهم ، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التى كانت خارج المدينة.

وبنو النضير كانت مساكنهم (بالعالية) بوادى بطحان على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكانت عامرة بالنخيل والزروع .

وبنو قريظة كانوا يسكنون فى منطقة (مهزور) التى تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة.

ومن بين اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها بطون صغيرة أخرى كبنى عكرمة ، وبنى ثعلبة ، وبنى محمر ، وبنى زعورا ، وبنى عوف ، وبنى بهدل، وبنى القصيص وغيرهم ، إلا أن هذه البطون الصغيرة كانت تابعة فى سياستها للبطون الكبرى كبنى قينقاع والنضير وقريظة.

ويقول الدكتور جواد على : « وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود (بالكاهنيين) نسبوا بذلك إلى جدهم الذى يقال له (الكاهن) و(الكاهن) هو ابن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار ، فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ، ولهذا كانوا يفتخرون به ، ويرون لهم السيادة على غيرهم من إخوانهم فى الدين » (١).

وأما يهود خيبر فكانوا يسكنون على بعد ثمانى برد من المدينة إلى جهة الشام وقد اشتهر يهود خيبر بغناهم؛ لخصوبة أرضهم ، وكثرة مزارعهم وبساتينهم ، كما اشتهروا ـ أيضاً ـ بضخامة حصونهم ومتانتها.

وعلى مقربة منهم كان يسكن قسم آخر من اليهود ، كيهود وادى القُرى وتيماء وفدك . ومساكن اليهود عموما ، كانت تمتاز بعزلتها ، ومتانتها ، وقد أقاموها كذلك؛ ليتحصنوا فيها عند الأخطار ، وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ (٢) .

ومن أقوى حصون اليهود، حصن النطاة، والصعب بن معاذ، وناعم والزبير والقموص ، والوطيح، وسلالم . . وكلها كانت توجد فى منطقة خيبر.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على جـ٦ ص ١٣ .

(٢) سورة الحشر ، وقد فسرنا هذه الآية فى فصل (تاديب اليهود) مبحث (غزوة بنى النضير) .

كما كانت تمتاز ـ في مجموعها ـ بوجودها في المناطق الخصبة ، والتي هي ملتقى طرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية من جزيرة العرب.

ومن أهم الأعمال التي اشتغل بها اليهود التجارة ، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة ، (كأبي رافع سلام بن أبي الحقيق) ، الذي كان ينعت بتاجر أهل الحجاز ،ويمكن أن يقال إن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفا عليهم في شمال الحجاز ، كذلك اشتغل اليهود بالزراعة التي كانت المهنة الرئيسية لسكان القرى منهم ، واشتغلوا بتربية الماشية والدواجن وكانوا في جهات (مقنا) يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة . ومن الصناعات التي كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها، صناعة الصياغة ، وقد اشتهر بها بنو قينقاع ، كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطي الربا ، وكان لهم من طبيعة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك ، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا، الذي نهاهم الله عن أخذه ،فقال تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١).

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوى نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكما فاحشا ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس ، بسبب أنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا ، وحصولهم على غنى وثراء بطرق خبيثة ، يأنف العربي عن سلوكها والتعامل بها.

(حـ) ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن ـ أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة ـ فنقول :

كان لليهود الذين سكنوا جزيرة العرب، مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم

---

(١) سورة النساء ١٦١ .

وأحكام شريعتهم ، وأيامهم الماضية ، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم ، كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عبادتهم وشعائر دينهم .

وكانت هذه الأماكن تسمى (المدراس) أى المكان الذى تدرس فيه نصوص التوارة ، وأمور الشريعة .

ولم يكن (المدراس) فى الواقع موضع عبادة وصلوات وتدريس فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك هو المكان الذى يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة فى سائر أحوالهم الدينية والدنيوية . وهو المكان الذى كان يقصده غيرهم حين يريد الاستفسار من أحبار اليهود عن شيء يريد الوقوف عليه.

والذين كانوا يقومون بمهمة تعليم اليهود أمور دينهم ، هم علماؤهم وأحبارهم، وقد ذكر المؤرخون أنه كان فى مقدمة هؤلاء الأحبار عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - الذى أعلن إسلامه بعد لقائه مع رسول الله ﷺ وفى مقدمتهم - أيضا - (عبد الله بن صوريا الأعور) الذى قيل عنه : إنه لم يكن بالحجاز فى زمانه من هو أعلم بالتوراة منه .

وقد جاءت الأخبار الصحيحة بأن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، كان يذهب إلى اليهود فى (مدراسهم) ليدعوهم إلى الإسلام وليحذرهم من الكفر به ، فقد أخرج البخارى، عن أبى هريرة قال : « بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله - ﷺ - فقال :انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبى - ﷺ - فناداهم : يامعشر يهود أسلموا تسلموا :فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، فقال ذلك أريد ، ثم قالها الثانية ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، ثم قال فى الثالثة : اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بما له شيئا فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله » (١) .

وبعض الصحابة - أيضاً - كأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يذهب إليهم فى هذا المكان ليأمرهم باتباع محمد ﷺ الذى كانوا يستفتحون به على غيرهم والذى يعرفون صدقه فيما يبلغه عن ربه كما يعرفون أبناءهم.

وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من المجادلات الدينية ، والأسئلة المتعنتة التى كان اليهود يقومون بتوجيهها إلى النبى ﷺ بقصد إحراجه وإظهاره بمظهر العاجز عن

---

(١) صحيح البخارى باب « فى بيع المكره ونحوه فى الحق وغيره من كتاب « الإكراه » جـ ٩ ص ٤٦ » .

الرد على أسئلتهم ومجادلاتهم ، إلا أن الرسول ﷺ كان يجيب على مجادلاتهم وأسئلتهم بما يدحض حجتهم ، ويخرس ألسنتهم [١] .

كذلك كان لليهود تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم فيما يتعلق بالذبائح ، والقرابين ، والقصاص ، والميراث ، والاعتراف ، والتطهير ، والرق ، والختان ، والنكاح ، وشئون المرأة ، وغيرها من التشريعات التى بعضها أخذوه عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهانهم وأحبارهم من عند أنفسهم.

من ذلك - مثلا - ما جاء فى الحديث الشريف عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ،ولم يجامعوهن فى البيوت - أى، لم يخالطوهن، ولم يساكنوهن فى بيت واحد - فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٢] فقال رسول الله ﷺ :« اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يترك من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أُسَيْدُ بن حضير، وعَبَّاد بن بشير فقالا : يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه النبى ﷺ حتى ظننا أن قد وجَدَ عليهما - أى غضب عليهما - فخرجا فاستقبَلَتْهما هدية من لبن إلى رسول الله « ﷺ » فبعث فى آثارهما فسقاهما، فعرفا أنه لم يَجِد عليهما [٣] .

وأيضاً كانت لهم أعيادهم الخاصة بهم والتى من أشهرها عيد الحصاد عيد رأس السنة، وعيد الصوم الكبير، وعيد الفصح ويسمونه: عيد الفطير [٤] .. ويهتم اليهود بهذا العيد لأنه يوافق اليوم الذى خرج فيه بنو إسرائيل من مصر فرارا من فرعون وظلمه.

---

(١) فصلنا القول فى حرب الجدل التى دارت بين الرسول ﷺ وبين اليهود فى فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) مبحث (المجادلات الدينية).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢ .

(٣) اخرجه مسلم فى كتاب الحيض جـ ١ ص ٢٤٦، واخرجه أبو داود فى باب (مؤاكلة الحائض) جـ ١ ص ٥٩ وأخرجه النسائى فى باب (ما ينال من الحائض) جـ ١ ص ١٥٣ .

(٤) قيل سمى بعيد الفطير ؛ لانهم خرجوا سريعا من مصر فلم يعدوا خبزهم كالعادة وإنما اعدوه فطيرا دون أن يختمر ، وما زالت هذه عادة اليهود فى هذا العيد الذى يستمر سبعة أيام ، يأكلون خبزا غير مخمر ، وهذه الأيام السبعه تبدأ فى كل عام فى اليوم الرابع عشر من شهر أبريل وتنتهى فى اليوم الحادى والعشرين منه.

ويعتبر اليهود كذلك يوم السبت عيداً لهم،لا يجوز ليهودى أن يشتغل فيه، ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه، يكون قد ارتكب جرما عظيما.

وكانت لليهود أيام خاصة يصومونها، كيوم عاشوراء، فقد روى البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ :« فنحن أحق وأولى بموسى منكم »، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه وقال لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »(١).

هذا،ويزعم اليهود أنهم يعتمدون فى عبادتهم،وتشريعاتهم،وآدابهم ومعاملاتهم، على ما جاء فى التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام.

وهنا نريد أن نتوسع قليلا فى الحديث عن التوراة، وأسفارها، وعما دخلها من تحريف وتبديل فنقول :

التوراة : كلمة عبرية معناها : الشريعة ،أو التعاليم الدينية .

وقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرا، أطلق عليها اسم « العهد القديم » للتفرقة بينهما وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها « العهد الجديد »، وجرت العادة أن يطلق على أسفار العهد القديم، وأسفار العهد الجديد اسم « الكتاب المقدس ».

واليهود يعتبرون التسعة والثلاثين سفراً هذه، أسفاراً مقدسة، أى: موحى بها. ويطلقون على خمسة منها إطلاقا حقيقيا اسم التوراة، أو كتب موسى، لأنها - فى زعمهم - أنزلها الله على موسى « عليه السلام » وكتبها موسى بنفسه .

وهذه الأسفار الخمسة هى : سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد.

١ - أما سفر التكوين «أو الخلق » فسمى بذلك لأنه يقص خلق السموات والأرض،ويحكى قصة خلق آدم وأكله من الشجرة،ونزوله إلى الأرض، كما يحكى

---

(١) اخرجه البخارى - واللفظ له - فى « كتاب الصوم » جـ٣ ص ٥٤ طبعة صبيح، واخرجه مسلم فى « باب صوم عاشوراء » من كتاب الصوم، جـ٢ ص ٥٩٧ . طبعة محمد فؤاد عبد الباقى .

قصة نوح « عليه السلام » وقصة الطوفان ، وقصة إبراهيم « عليه السلام » وأولاده، وينتهى هذا السفر بالحديث عن قصة يوسف « عليه السلام » إلى أن مات .

٢ ـ وأما سفر الخروج فسمى بذلك لأنه يحكى تاريخ بنى اسرائيل فى مصر ، وكيف خرجوا منها ؟ وكيف عاشوا بعد ذلك ؟ كما يحكى قصة تيههم وما جرى بينهم وبين موسى عليه السلام.

٣ ـ وأما سفر التثنية فسمى بذلك لأنه يكرر ويعيد التعاليم التى أوحاها الله إلى موسى عليه السلام ومعظمه يدور حول الشئون التشريعية، والاقتصادية ، والسياسية، الخاصة ببنى إسرائيل.

٤ ـ وأما سفر اللاويين فمعظمه يدور حول شئون العبادات،والوصايا والأحكام، والطقوس والأعياد، والنذور، واللاويون هم نسل لاوى أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام ونسب هذا السفر إليهم لأنهم كانوا سدنة الهيكل،وحفظة الشريعة،ومعظمه يدور حول ما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات.

٥ ـ وأما سفر العدد . فمعظمه يدور حول تقسيم بنى اسرائيل ، وبيان تعداد أسباطهم وجيوشهم وأموالهم وذكورهم وإناثهم ... وبجانب هذا به بعض الأحكام التى تتعلق بالعبادات والمعاملات .

أما الأربعة والثلاثون سفرا الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة فى الطول والقصر وهى :

« يشوع والقضاة ، وراعوث، وصموئيل الأول، وصموئيل الثانى، والملوك الأول، والملوك الثانى،وأخبار الأيام الأول،وأخبار الأيام الثانى، وعزرا ، ونحيما، واستير ، وأيوب ، والمزامير، والأمثال والجامعة، ونشيد الأنشاد، وأشعياء ، وأرمياء، ومراثى أرمياء، وحزقيال ، ودانيال ، وهوشع ، ويوئيل ، وعلموس ، وعويديا ، ويونان ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق، وصفنتيا ، وحجى، وزكريا ، وملاحى » [١] .

---

(١) هذه الأسفار التسعة والثلاثون التى تعتمدها الكنيسة البروتستانية ، اما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار اخرى هى (طوبيا ، ويهوديت ، والحكمة ، ويسوع بن سيراخ ، وباروح ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثانى)، وبذلك تكون الأسفار المقدسة عندهم ستة وأربعون.
وهناك اسفار أخرى يذكر المؤرخون انها كانت ثم ضاعت او اخفيت او أبطلت ، كما افاده الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه القيم (إظهار الحق).

وهذه الأسفار الأربعة والثلاثون مقدسة ـ أيضا ـ عند اليهود ، ويطلق عليها ـ تجوزا ـ مع الأسفار الخمسة السابقة اسم التوراة ، من باب إطلاق الجزء على الكل .

والأسفار في جملتها صبغتها دينية ، إلا أن منها ما يغلب عليه الطابع التاريخي، كأسفار التكوين ، والخروج ، ويشوع والقضاة ، وأخبار الأيام ، وعزرا ونحميا .. ومنها ما يغلب عليها الطابع التشريعي ، والأخلاقي ،والتوجيهي ، كأسفار اللاويين والمزامير ، والجامعة ، وأشعيا ومراثي أرمياء ... كذلك منها ما هو طويل: كسفر التكوين والمزامير واشعيا وأرميا ومنها ما هو قصير: كسفر عوبديا وحجي وحبقوق .

بعد هذا التعريف الموجز للأسفار المقدسة عند اليهود ، والتي يطلقون عليها اسم التوراة ، نسأل هل هذه الأسفار المقدسة عندهم هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول : إن الذي ينظر في هذه الأسفار ، يجد فيها من التناقض والافتراء ، والانحراف عن الحق ، وسوء التعبير ما يجعله يحكم عليها بأنها ـ في مجموعها ـ ليست هي التوراة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على موسى وهذه بعض الأدلة على ذلك.

أولا : اعترف القرآن الكريم بالتوراة التي أنزلها الله ـ تعالى على موسى عليه السلام ـ ومدحها في آيات كثيرة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) ﴾ .

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن اليهود قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوها وبدلوها ، واخفوا منها ما لايتفق مع أهوائهم وشهواتهم ،قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ .

وقال تعالى في سورة المائدة أيضاً :﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا ﴾ .

ثانيا : انقطاع سندها ، فإن التوراة الموجودة حاليا ليس لها سند متصل إلى موسى ـ عليه السلام ـ بل هى على النقيض من ذلك إذ يوجد فيها ما يدل دلالة قاطعة على أنها كتبت بعده بزمن طويل !!

فمثلا جاء فى سفر التثنية بخصوص وفاة موسى ـ عليه السلام ـ نص يقول « فمات موسى عَبد الرب فى أرض مؤاب ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا » .

فهذا النص بعيد كل البعد عن أن يكون كتبه موسى ـ عليه السلام وجاء فيه ـ أيضاً ـ « ولم يقم بعدُ نبى فى بنى إسرائيل مثل موسى » .

ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى ـ عليه السلام ـ

وقد أقام المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى أدلةً متعددةً على انقطاع سند التوراة فقال ما ملخصه :

« اعلم ـ أرشدك الله تعالى ـ أنه لابد لكون الكتاب سماويا واجب التسليم ، أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبى الفلانى ، ووصل إلينا بعد ذلك بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل .. وأنه لا سند لكون هذه التوراة المنسوبة إلى موسى ـ عليه السلام ـ من تصنيفاته ويدل عليه أمور منها .. أن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون (١) والنسخة التى وجدت بعد ثمانى عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها يقينا ، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة ـ أيضا ـ غالبا قبل حادثة بختنصر ، وفى حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد القديم عن صفحة العالم رأسا ، ولما كتب (عزرا) هذه الكتب على زعمهم ضاعت نسخها وأكثر نقولها فى حادثة انتيوكس) (٢) .

---

(١) يوشيا بن آمون واحد من ملوك اليهود حكمهم من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٦٠٩ ق م أى بعد موسى ـ عليه السلام ـ بستة قرون تقريبا .

(٢) المراد به (انتيوكس) الذى حكم سوريا من سنة ١٧٤ إلى سنة ١٦٤ ق م وقد أذل خلال حكمه اليهود إذلالا شديدا : راجع (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله الهندى جـ١ ص ٥٦ ـ ٥٨ ، طبع مكتبة الوحدة المغربية بالمغرب .

ويتحدث الدكتور على عبد الواحد وافى عن الأزمنة التى كتبت فيها تلك الأسفار المنسوبة إلى موسى « عليه السلام » فيقول :

« هذا ، وأهم أسفار العهد القديم هى أسفار - التكوين - والخروج - والتثنية - واللاويين - والعدد - التى ينسبها اليهود إلى موسى - عليه السلام - ويعتقدون أنها بوحى من الله ، وأنها تتضمن التوراة . ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين ، من ملاحظة اللغات والأساليب التى كتبت بها هذه الأسفار ، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع والبيئات الاجتماعية والسياسية التى تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت فى عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير - وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد - وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد ألف حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر الثنية قد ألف فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .. وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود ، وتتمثل فى هذه الأسفار عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل .. فهى إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التى يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام » (١) .

وبهذا نرى أن سند التوراة الحالية منقطع ، وأنها كتبت بعد موسى - عليه السلام - بأزمنة مختلفة وبأياد متعددة .

ثالثاً : إذا نظرنا إلى التوراة الحالية من حيث المتن نجدها محشوة بالقصص والعبارات والمتناقضات التى تتنزه الكتب السماوية الصحيحة عن ذكرها ، وإليك بعض الأمثلة .

(أ) يقرر سفر التكوين : « أن الله - تعالى - بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، استراح فى اليوم السابع ، وكان يوم سبت ، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل » (٢) .

---

(١) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص ١٦ طبعة مكتبة نهضة مصر .

(٢) سفر التكوين الإصحاح الثانى .

وهذا الوصف تنزه عنه الخالق - تعالى - كما تنزه أى كتاب سماوى عن أن يشتمل على هذه العبارة الباطلة.

ولقد بين القرآن الكريم أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض وما بينهما دون أن يناله نصب أو تعب فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (١) .

وفى الأسفار - أيضاً - ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا يعتقدون تعدد الآلهة ، وإن إلههم يخالف آلهة البشر (وفيها - كما يقول بعض الكتاب - مواقف كثيرة يبدو فيها الإله أشبه بالإنسان فى أحوال ضعفه وقوته ، وفى ضلاله ورشده ، وفى حلمه وجهله .. حتى لكأن الإله قد أتخذ له خيمة مع اليهود وعاش بينهم . ولهذا أمثلة كثيرة . قل أن تخلو منها صفحة من صفحات العهد القديم) (٢) .

(ب) تنسب التوراة الحالية لبعض الأنبياء - عليهم السلام - أعمالا قبيحة تتنافى مع العصمة التى منحها الله - تعالى لهم ، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس . من ذلك ما جاء فى سفر التكوين (عن لوط - عليه السلام - وابنتيه فهو يذكر أن لوطا - عليه السلام - وابنتيه هم الذين لجوا بعد هلاك قومه ، وأن ثلاثتهم قد أقاموا عقب ذلك فى غار ، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما (أن أبانا قد أصبح شيخاً كبيراً ، وليس فى هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذى يفعله ذكور الناس مع إناثهم ، وإذا بقى الأمر هذا على تلك الحالة . فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا ، وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة أن نسقى أبانا خميراً حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتى منه بذرية تخلد نسله .. ثم أنفذتا ما اتفقتا عليه ، وجاءت الكبرى بغلام اسمته (مؤاب) وجاءت الصغرى بغلام اسمته (عمون) ومن هذين الغلامين تكون شعب المؤابيين والعمونيين) (٣) .

هذا ، وفى التوراة الحالية نصوص أخرى فيها تطاول على بعض الأنبياء (٤) كآدم ، ونوح ، وإبراهيم ، واسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهرون ، وداود ، وسليمان - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - وفيها وصف لهم بأعمال ذميمة تتعارض مع الخُلُق الكريم ، الذى طبعهم الله - تعالى - عليه .

---

(١) سورة ق : الآية ٣٨ .   (٢) المسيح فى القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٤٦ .

(٣) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر .

(٤) ذكر هذه النصوص بإسهاب فضيلة المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجزيرى فى كتابه (أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين) من ص ٤٣١ - ٤٥٤ .

(حـ) في التوراة الحالية ، كثير من مظاهر التناقض والتضارب فى الأحكام.

فمثلا : سفر الخروج والتثنية (يقرران أن الإسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه أكثر من ست سنين) بينما يقرر سفر اللاويين فى هذه الصورة نفسها أن رق الشخص لا ينتهى إلا بحلول اليوبيل الإسرائيلى (وهو العيد الذى يجيء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك ، فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياماً إذا استرق عقب العيد الخمسين مباشرة [١] .

وهناك أمثلة عديدة للتضارب فى الأحكام والأعداد والتشريعات فى التوراة الحالية.

(د) ما اشتملت عليه بعض الأسفار من غزل شهوانى صريح .. ومن تعبير ماجن خليع .. يجعل العاقل يستبعد أن تكون هذه الأسفار منزلة من السماء ، وفى سفر (نشيد الأنشاد) - مثلا - كثير من هذا اللون الماجن من الغزل .. ففى بعض فقراته يقول : (فى الليل على فراشى طلبتْ من تحبه نفسى .. طلبته فما وجدته .. إنى أقوم وأطوف المدينة فى الأسواق والشوارع .. وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى .. فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدته .. فامسكته ولم أتركه أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى) [٢] .

وقد تحدث صاحب (قصة الحضارة) عما يشيع فى الأسفار من عبارات مهيجة للشهوة فقال : « وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين ، فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل .. وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى .. ولسنا ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال (أشعياء) (وأرمياء) » [٣].

وقصارى القول ، أن التوراة الحالية - فى مجموعها - قد كتبت بعد موسى - عليه السلام - بأزمان متفاوتة ، وبأفكار مختلفة ، وأن اليهود كتبوها انعكاساً لأخلاقهم،

---

(١) الأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٣٣ .

(٢) سفر (نشيد الأنشاد) نقلا عن كتاب (المسيح فى القرآن) للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٥٢ .

(٣) قصة الحضارة لديورانت جـ٣ ص ٣٨٨.

وتاريخهم وآمالهم وآلامهم . وكان مقصدهم الأول من وراء ذلك إظهارهم الشعب الإسرائيلى بمظهر الشعب المقرب إلى الله ـ تعالى ـ والمفضل على غيره من الشعوب ، ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا فى كتابتها ، امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات .

ورحم الله الشيخ (رحمة الله الهندى) (فقد تناول فى الكلام على أسفار العهدين العتيق والجديد ـ أى التوراة والإنجيل ـ كل باب من أبوابهما واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات ، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين ، ثم تناول بعد ذلك ما فى الكتابين من الاختلاف والأغلاط .. ثم عقد باباً خاصاً لإثبات التحريف فى كتب العهدين القديم والجديد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد وكان يأتى التحريف أحياناً بالزيادة وأحياناً بالنقصان وأحياناً بالتبديل اللفظى ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً ، كما ساق على التبديل اللفظى خمسة وثلاثين شاهداً ، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهدا .. مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم)[١] .

هذا ! وليست الأسفار التى تحدثنا عنها سابقاً هى الكتب المقدسة عند اليهود وحدها ، وإنما عندهم كتاب آخر يعتبرونه فى منزلة لا تقل عن منزلة التوراة وهذا الكتاب هو (التلمود) .

وذلك أن علماء اليهود ومجتهديهم قاموا بتأليف مجموعات من التفاسير والشروح للتوراة تتعلق هذه الشروح بشئون العقيدة والشريعة والتاريخ كما قاموا بجمع الروايات الشفوية التى تناقلها أحبار اليهود من جيل إلى جيل وقد بلغ ما جمعه هؤلاء المجتهدون ثلاثة وستين سفرا ، ألفت خلال القرنين الأول والثانى الميلادى ، وأطلق عليها اسم (المشناة) أى الشريعة المكررة ، لأن المشنا تكرار وإيضاح وتفسير وتكميل لما ورد فى التوراة .

---

(١) من مقدمة كتاب (إظهار الحق) للأستاذ عمر الدسوقى .

ثم قام بعد ذلك مجتهدون آخرون من اليهود الذين كانوا يسكنون فلسطين وبابل بشروح (للمشناة) أطلق على هذه الشروح اسم (الجمارا) أى : الشرح والتعليق . وقد تم تأليف هذه الشروح فى فترة طويلة امتدت من القرن الثانى إلى نهاية القرن السادس الميلادى .

ومن المشناة والجمارا يتكون التلمود الذى هو بمعنى التعاليم والآداب الدينية لليهود ، وبهذا نرى أن التلمود يتكون من شيئين :

من (المشناة) التى هى عبارة عن شروح وتفاسير للتوراة .

ومن (الجمارا) التى هى عبارة عن حواشي وتعليقات وتفسيرات للمشناة .

ويطلق على الشروح التى أضافها أحبار فلسطين إلى المشناة اسم التلمود الأورشليمى . ويطلق على الشروح التى أضافها أحبار بابل إلى المشناة اسم التلمود البابلى . وهو أضخم من التلمود الأورشليمى ، وأكثر تداولا منه ، وإذا أبهم على اليهود شيء من التلمود الأورشليمى ، راجعوا من أجل معرفته إلى التلمود البابلى، لأنهم يعتبرونه دليلهم ومرشدهم .

ويعتقد معظم اليهود أن التلمود كتاب مقدس ، ويضعونه فى منزلة التوراة ، ويرون أن الله تعالى أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة ، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها ، وبعض اليهود يضع التلمود فى منزلة أسمى من منزلة التوراة ، وقد نسب بعض اليهود إلى (أشعيا) أنه قال (إن التوراة كالمياه ، والميشنا كالخمر ، والجيمارا كالخمر المعطر ، فالعالم لا يمكنه الحياة بدون مياه وخمر وخمر معطر والغنى لا يدع واحدة تفوته ، ولهذا السبب فإن العالم لا يمكنه الثبات بدون التوراة والمشناة والجمارا ، فالشريعة هى كالملح ، والميشنا كالبهارا والجمارا . كالتوابل . إن الذين يدرسون التوراة يحتمل أن يكون عملهم فضيلة أو غير فضيلة ، أما الذين يدرسون الميشنا فإنهم يمارسون الفضيلة ويثابون عليها ، إلا أن الذين يدرسون الجمارا فانهم يكتسبون أعظم فضيلة وأسماها . . . وأن من يحتقر كلمات الربانيين يستحق الموت [١]) .

وقد احتوى التلمود على كثير من الأكاذيب ، والمفتريات ، التى لا يقبلها عقل

---

(١) عن كتاب (همجية التعاليم الصهيونية) للأستاذ بولس حنا سعد طبعة بيروت ١٦ .

من ذلك ما جاء فيه (من أن الله - تعالى - يقسم النهار إلى اثنى عشر ساعة فى الساعات الأولى الثلاث يدرس شريعة اليهود وفى الساعات الثانية يدين الشعوب وفى الساعات الثالثة يغذى العالم بأسره وفى الساعات الثلاث الأخيرة يلعب مع ملك الأسماك ...) [1] .

وجاء فيه (أن الله ندم لما أنزله باليهود بالهيكل ، وأنه ظل يصرخ ويقول (الويل لى لأنى تركت بيتى ينهب ، وهيكلى يحرق ، وأولادى يشتتون ..)[2]

وجاء فيه عن اليهود قوله : (تتميز أرواح اليهود عن باقى أرواح البشر بأنها جزء من الله تعالى كما أن الإبن جزء من أبيه وأنه يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض ... وأن اليهودى معتبر عند الله أكثر من الملائكة وأن اليهودى جزء من الله ، فإذا ضرب أمى إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية ، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان ، هو يقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود .. وأنه مسرح لليهودى أن يغش غير اليهودى ويحلف له أيمانا كاذبة)[3]

هذه مقتطفات من الأكاذيب والمفتريات التى امتلأ بها التلمود ، وقد قام بجمعها والتعليق عليها عدد كبير من الباحثين ، ومن أشهر الكتب التى ألفت فى ذلك كتاب (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) للدكتور (رو هلنج) الذى كان مدرسا بجامعة براج وقد قام بترجمته الدكتور يوسف نصر الله . وكتاب التلمود وشريعة إسرائيل ، لأحد الباحثين ، وكتاب (همجية التعاليم الصهيونية) للأستاذ بولس حنا سعد .

بعد هذا الحديث الموجز عن أسفار اليهود المقدسة نختم كلامنا عن أحوالهم الدينية بكلمة عن فرقهم فنقول :

لليهود فرق كثيرة تزعم كل فرقة منهم أنها أمثل طريقة ، وأشد تمسكا باصول الديانة اليهودية من غيرها ، ومن أشهر فرقهم :

(أ) **فرقة الفريسيين** : بمعنى المنعزلين والمنفصلين عن بقية الشعب ، وقد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .

(٣) الكنز المرصود فى قواعد التلمود ترجمة للدكتور يوسف نصر الله ص ٤٨ وما بعدها.

نشأت هذه الفرقة فى عهد المكابيين ، أى فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهدفهم المحافظة على الشريعة والتمسك بتعاليمها الحرفية . دون أى إجتهاد فيها.

ويرى الفريسيون صحة البعث والحساب والجزاء ، وأكثرهم لا يتزوجون ويحافظون على وجودهم عن طريق التبنى.

(ويعتقد الفريسيون أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة التى يعتمد عليها، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية ، ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير التى تعتبر توراة شفوية وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.. وتلك الروايات الشفوية هى التى دونت فيما يسمى بالتلمود ، ولضمان تقديس اليهود للتلمود أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة عليا،وأنهم معصومون .وأن أقوالهم صادرة عن الله ـ تعالى ـ وأن مخافتهم هى مخافة الله) (١) .

وعن سلوك الفريسيين يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين (ويتضح من التلمود أن الفريسيين لم يكونوا جميعاً على ما يرام ،وأن كثيرين منهم كانوا كذلك بحسب الظاهر فقط أما باطنا فكانوا يخالفون تعاليم فرقتهم وقد قسم التلمود الفريسيين إلى سبعة أقسام وقال إن ستة من هذه السبعة لا تستحق الاعتبار لمخالفتها الغاية المقصودة أما السابعة فأفرادها هم الفريسيون الحقيقيون وهم الذين يعملون بارادة الله لأنهم يحبونه) (٢) .

(ب) **فرقة الصدوقيين** : سموا بذلك نسبة إلى زعيمهم (صدوق الكاهن) الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى.

وهم ينكرون البعث والحساب والجزاء والجنة والنار . ويقولون إن جزاء الإنسان إنما يتم فى الدنيا.

وينكرون كذلك التلمود ، وحتى التوراة يرون أنها غير مقدسة قدسية مطلقة بل للفرد أن يدخل عليها ما يراه مناسبا .ومعظم المنتسبين إلى هذه الفرقة من أغنياء اليهود وأثريائهم ووجهائهم ، ويرى بعض الباحثين أنهم إلى الحزب السياسى أقرب منهم إلى الطائفة الدينية.

---

(١) اليهودية . للدكتور أحمد شلبى ص ١٩٦.

(٢) تاريخ الإسرائيليين . لشاهين مكاريوس ص ١١٩.

(حـ) **فرقة القرائين** : كانت هذه الفرقة فى مبدأ أمرها تمثل قلة من اليهود . إلا أنها اتسعت وكثر عدد المنتسبين إليها بعد تدهور شأن الفريسيين.

وهذه الفرقة تعترف بما جاء فى التوراة وحدها ، ولا تعترف اعترافا تاماً بأحكام وتعاليم الحاخامات ، بل تقول إن ما جاء عنهم قابل للخطأ والصواب والإضافة والتنقيص منه ، بخلاف فرقة الفريسيين التى ترى أن كلام الحاخامات له قدسية كقدسية كلام التوراة.

وقد أسست هذه الفرقة فى القرن الثامن الميلادى ، وتولى رئاستها (داود عنان) أحد علماء اليهود فى بغداد .

(د) **فرقة الكتبة** : وأفراد هذه الفرقة وظيفتهم كتابة الشريعة لمن يريدها ، فهم أشبه ما يكونون بالنساخ ، وقد نتج عن كثرة مزاولتهم لهذا العمل أن عرف عدد منهم بالالمام بأحكام شريعتهم ، فاتخذوا الوعظ والتدريس مهنة لهم.

وبمرور الأيام تولوا المناصب ، وعاونوا الحكام فى بلوغ غاياتهم وأصبحوا هم الرعاة للمدارس والمعابد.

هذه أشهر فرق اليهود الدينية وهناك فرق أخرى ذكرها علماء الملل والنحل ولا مجال لذكرها هنا . وبذلك نكون قد ألممنا بجوانب من أحوال اليهود الدينية.

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الأمر الرابع وهو علاقتهم بالأوس والخزرج - فنقول :

يذكر المؤرخون أن الأوس والخزرج أصلهما من قبيلة الأزد باليمن ، وأنهم جاءوا إلى المدينة بعد حادث سيل العرم التماسا لمكان جديد يصلح لمعيشتهم بعد أن غرقت مساكنهم باليمن ، وأنهم حين نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة ولذلك رضوا بما حصلوا عليه من أرض ضعيفة ومن رزق شحيح .. وبمرور الأيام اختلط الأوس والخزرج باليهود الذين كانوا يسكنون يثرب، وكانوا أصحاب الثروة والمال والكلمة النافذة فيها.

وقد بقى الأوس والخزرج على ضعفهم حتى ظهر فيهم رئيسهم (مالك بن العجلان)، الذى استطاع بدهائه ومكره وشجاعته أن يفتك باليهود وأن يجعل الكلمة العليا لبنى قومه.

ويصف (الدكتور جواد على) ما كان عليه اليهود من ضعف وذلة فيقول : « ولكن اليهود مع ما كان لهم من حصون وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرض التى أنشأوا مستوطناتهم فيها ، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها يهود ، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدون لهم إتاوة فى كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدى عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب » (١) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى انضمام بعض اليهود إلى الأوس، وبعضهم إلى الخزرج عند القتال ، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾ .

ومع أن الثابت أن اليهود لم يكن لهم نفوذ يذكر على المدينة من الناحية السياسية والحربية وأن السلطان من هذه الناحية كان للأوس والخزرج إلا أن بعض آيات القرآن الكريم تحكى لنا أن اليهود من الناحية الدينية كانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع وأنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم كانوا يبشرون بمبعث نبى جديد ويقولون للأوس والخزرج أن نبيا قد أظلنا زمانه ، وأننا سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قولهم هذا فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

والخلاصة : أن علاقة اليهود بالأوس والخزرج كانت خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا فى إثارتها

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام طبعة المجمع العلمى العراقى جـ٦ ص ٢٣ .
(٢) سورة البقرة :الآية ٨٩ .

فائدة لهم كما حصل ذلك فى كثير من الحروب التى أنهكت الأوس والخزرج، وأنهم كانوا يهمهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة ، وأن حديثهم عن النبى المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام.

وقد استمرت علاقة اليهود بالأوس والخزرج تسير على هذا المنوال إلى أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة فاشتركوا فى استقباله ، ثم جرى بينه وبينهم ما جرى من أمور سنتحدث عنها فى الفصول التالية.

والآن ،وبعد هذا الحديث عن تاريخ اليهود وأحوالهم فى مختلف العصور ننتقل إلى الفصل الثانى لنتحدث عن منهاج القرآن الكريم فى دعوتهم الإسلام.

الفصل الثانى

منهاج القرآن الكريم فى دعوة اليهود إلى الإسلام ومظاهر إنصافه لهم

* * *

كلامنا فى هذا الفصل يتناول موضوعين أساسيين.

أولهما : بيان أهم الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم لحمل أهل الكتاب على الدخول فى الإسلام ، والإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

وثانيهما : بيان أهم مظاهر الانصاف والتسامح التى عامل بها الإسلام أهل الكتاب :

وللحديث عن الموضوع الأول نقول : إن دعوة الناس إلى توحيد الله - تعالى - وإخلاص العبودية له ، والخضوع لحكمه ، هى القضية الأولى التى من أجلها بعث الله الأنبياء والمرسلين ، وأمرهم أن يوجهوا الناس إليها فى كل زمان ومكان.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم أن كل رسول بعثه الله - تعالى - كان يأمر قومه بتوحيد الله سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١).

والدعوة إلى عبادة الله وحده ، حكاها القرآن الكريم بصيغة متحدة على لسان عدد من رسله وهم ينصحون أقوامهم.

فقال تعالى - فى شأن نوح - عليه السلام - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) وقال تعالى فى شأن هود عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) وقال تعالى فى شأن صالح

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٥

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٩ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٥ .

عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) وقال تعالى في شأن شعيب عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) .

ولا شك أن كل نبى قد وجه هذه الجملة إلى قومه إما بنصها أو بمعناها ، لأنها جملة فى استجابة الناس - باخلاص وطاعة - لمضمونها ، سعادتهم وفلاحهم .

ولقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن تكون رسالته عامة للناس جميعاً ، وشريعته ناسخة للشرائع التى سبقتها ، ومعجزته الكبرى - القرآن الكريم - مصدقا للكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها ، ودعوته موافقة في جوهرها لما دعا إليه الأنبياء السابقون . وبمقتضى هذه المميزات التى منحها الله - تعالى لنبيه ﷺ دون غيره من الرسل ، أخذ يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله تعالى بعزيمة صادقة وبيان واضح ، وصبر جميل ، وحجة ساطعة وأدلة ناطقة بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

وكان من بين الأقوام الذين وجه إليهم الرسول ﷺ دعوته ليتبعوه ويصدقوه أهل الكتاب بصفة عامة ، واليهود الذين كانوا مجاورين لعرب الجزيرة بصفة خاصة .

ولقد سلك النبى ﷺ فى دعوته لهم ، كل وسيلة من شأنها إقناعهم بصدقه وتنبههم إلى حقية دعوته ، وساق لهم من آيات القرآن الكريم ما يحملهم على المبادرة إلى الدخول فى دين الإسلام أن كانوا ممن يفتحون قلوبهم للحق ، ويخافون مقام ربهم ، وينهون أنفسهم عن الهوى .

وهذه بعض الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم فى دعوته بنى إسرائيل إلى الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

أولا : إقامة الأدلة لهم على صدق النبى ﷺ وذلك عن طريق :

(أ) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل .

(ب) تنبيههم إلى محمداً ﷺ هو النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام .

---

(١) سورة الاعراف :الآية ٧٣ .

(٢) سورة الاعراف : الآية ٨٥ .

(جـ) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى كانوا يستفتحون به على الذين كفروا.

(د) تنبيههم إلى أن القرآن الكريم الذى نزل على محمد ﷺ مصدق للكتب السماوية السابقة.

ثانياً : إرشادهم إلى أن ـ ما دعاهم إليه محمد ﷺ يوافق فى أصوله ما دعا إليه الأنبياء.

ثالثاً :ترغيبهم فى اتباع محمد ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة.

رابعاً : إنذارهم بالعقوبة العاجلة والآجلة إذا لم يتبعوا النبى ﷺ .

خامساً : إعلامهم بأن اختلافهم فى الدين سببه البغى والحسد.

سادساً : إخبارهم بأن القرآن الكريم يقص عليهم الحكم الحق فيما اختلفوا فيه.

سابعاً : إقامة الحجة عليهم عن طريق الاستشهاد بهم على صدق النبى ﷺ .

هذه بعض الأمور التى ساقها القرآن الكريم كأدلة على صدق النبى ﷺ ودعا أهل الكتاب إلى تفهمها بتعقل وإخلاص ، ليتسنى لهم بذلك المسارعة إلى الدخول فى الإسلام ، واتباع نبيه محمد ﷺ . وهاك البيان عنها مفصلا بعد أن سقناها مجملة:

أولا : (إقامة الأدلة ـ لهم ولغيرهم ـ على صدق محمد ﷺ)

من بين الوسائل التى استعملها القرآن الكريم لدعوة بنى إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ﷺ إقامة الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه . ومن بين هذه الأدلة تنبيههم إلى أن محمدا ﷺ هو النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وقد جاء هذا التنبيه في قوله تعالي في سورة الأعراف: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨) ﴾ .

(تفسير الآيات الكريمة)

وصف الله ـ تعالى ـ رحمته بأنها (وسعت كل شيء) فهى فى الدنيا تعم المؤمنين والكافرين ، والمتقين والعاصين، وأما فى الآخرة ، فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنها ستخص بمن جمع أوصافاً ثلاثة : الوصف الأول : تقوى الله فى السر والعلن ، والثانى : اعطاء الزكاة عن سخاوة نفس لأربابها المستحقين لها ، والثالث : الإيمان بآيات الله تعالى التي أوحي بها إلى أنبيائه ورسله فقال تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم زاد من اتصف بهذه الأوصاف الثلاثة بيانا وتوضيحا بأنهم الذين يؤمنون بعبده ورسوله محمد ﷺ وبكتابه عن صدق وإخلاص فقال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾

وقد وصف ـ تعالى ـ رسوله بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به وتعزيره وتوقيره.

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .

والوصف الثانى : أنه نبى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين.

الوصف الثالث : أنه أمىٌّ ما قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله ـ تعالى ـ أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادئ توضح ما أنزله عليه القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التي يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى من الله إليه.

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢ .

(٢) سورة العنكبوت :آية ٤٨ .

الوصف الرابع : أشار إليها بقوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ أى : هذا الرسول النبى الأمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . ووجود اسمه ونعته فى كتبهم من أكبر الدواعى إلى الإيمان به ،وتصديقه واتباعه، ولقد كان اليهود يبشرون ببعثة النبى ﷺ قبل زمانها ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله ـ تعالى ـ نبيه بالهدى ودين الحق آمن به منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا ، واستكبروا ، وحسدوا محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبه ماجاء عن النبى ﷺ فيها ،أو يؤولونه تأويلا فاسدا ،أو يكتمونه عن عامتهم . ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم، أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانه عن الأميين منهم ، أبى الله ـ تعالى ـ إلا أن يتم نوره ، إذ بقى فى التوراة والإنجيل ما بشر بالنبى ﷺ وصرح بنعوته وصفاته بل وباسمه صريحا .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وها نحن نذكر طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن .

قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) : «وقد تقدمت بشائر مَنْ سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثاً على القبول ، فمنهم من عيَّنه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله تعالى جميعها فيه . حتى صار جلياً بعد الاحتمال ، ويقيناً بعد الارتياب (١) » .

وجاء فى (منية الأذكياء فى قصص الأنبياء) : « إن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بشر به الأنبياء السابقون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمْته ، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يُجْدِهم نفعاً ، لبقاء

---

(١) الباب الخامس عشر : فصل (بشائر الأنبياء محمد ﷺ) .

الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف ، لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات لِيَبْعُد صدقها على النبى ﷺ فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره ، ولا ماقصد به ، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم ، لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها » (١) .

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندى) فى كتابه (إظهار الحق) : « إن الأخبار الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن - أيضا - مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب ، ومن عرف أولا طريق أخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر . ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات وقابلها بالاخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الإخبارات المحمدية فى غاية القوة » (٢) .

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين كثيرا من البشائر التى وردت فى التوراة والإنجيل خاصة بالنبى ﷺ ومبينة نعوته وصفاته .

ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصا بالنبى ﷺ ما أخرجه البخارى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : (قرأت فى التوراة صفة النبى ﷺ) محمد رسول الله : عبدى ورسولى ، سميته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولاصخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله (٣) .

كذلك مما يشهد بوجود صفة النبى ﷺ فى التوراة ، ما أخرجه الإمام أحمد عن ابى صخر العقيلى قال ، (حدثنى رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة إلى المدينة فى حياة النبى ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهم حتى اذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى

---

(١) نقلا عن تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٨٧٤ .

(٢) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندى .

(٣) صحيح البخارى . باب « كراهة الصخب فى الأسواق » من « كتاب البيوع » جـ ٣ ص ٨٣ .

كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا ، أى لا، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول ﷺ « أقيموا اليهودى عن أخيكم » ثم تولى كفنه ،والصلاة عليه (١) .

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء فى ذلك (٢).

ثم وصف الله تعالى رسوله ﷺ بصفة خامسة فقال تعالى :﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ، أى : هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف، الذى يتناول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، كما يتناول مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور، التى جاء بها الشرع الحنيف وارتاحت لها العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى، ومساوئ الأخلاق .

ثم وصف الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بصفة سادسة، فقال تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها ،بسبب ظلمهم وقسوتهم عقوبة لهم ، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله ،كلحوم الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ،ولحم الميتة، والخنزير فى المأكولات ، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل، فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله تعالى رسوله ﷺ بصفة سابعة، فقال تعالى : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الأصر : الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله ، ويطلق على العهد كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ أى: عهدى .

قال القرطبى : « وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال ، فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥١ .

(٢) راجع على سبيل المثال : تفسير المنار حـ ٩ ص ٢٩١ وكتاب « اظهار الحق » للشيخ رحمة الله الهندى وكتاب « ادلة اليقين » للشيخ عبد الرحمن الجزيرى.

وثقل تلك الأعمال ، كغسل البول ، وتحليل الغنائم ، ومجالسة الحائض ، ومؤاكلتها ومضاجعتها ، فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه ، وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا خاضت المرأة لم يقربوها ، إلى غير ذلك مما ثبت في الصحيح وغيره »(١)

والأغلال : جمع غل ، وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ، والتعبير بوضع الأصر والأغلال عنهم استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة ، فقد شبه سبحانه ما أخذيه بنو إسرائيل من الشدة في العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أثقالا يئن من حملها، وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه .والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبي الأمي أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف، كلفهم الله بها بسبب ظلمهم ، لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ جاء بالتبشير والتخفيف ، وبعث بالحنيفية السمحة ، ومن وصاياه :« بشروا ولا تنفروا ،ويسروا ولا تعسروا » .

قال الإمام ابن كثير : وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهلها لهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل ، وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت، قد فعلت »(٢) .

إذاً، فمن الواجب على بني إسرائيل أن يتبعوا محمدا ﷺ الذي هذه صفاته ، والذي في اتباعه سعادتهم، في دنياهم وآخرتهم، ولهذا ختم الله ـ تعالى ـ الآية الكريمة ببيان عاقبة المصدقين لنبيه ، فقال تعالى﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي من بني إسرائيل وغيرهم وعزروه » بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ٣٠٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٤ .

وهو القرآن ،والوحى الذى جاء به ،ودعا إليه الناس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى ﷺ بأحسن الصفات، وأكرم المناقب ، وأقامت الحجة على أهل الكتاب، بما يجدونه فى كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم بأنه ما جاء إلا لهدايتهم وسعادتهم ، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه ، كانوا من ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾.

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة ، فقال تعالى :﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أى : قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إنى رسول الله إليكم جميعا ، لا فرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم ،وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته.

أما فى القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالي :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وقوله تعالي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ أى :وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة، من سائر الأمم ،وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ﷺ وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

وأما فى السُّنة فمن ذلك ما رواه البخارى، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة (١) .

وفى صحيح مسلم، عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة، يهودى، ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (٢) .

---

(١) صحيح البخارى (باب التيمم) جـ ١ ص ٨٧ .

(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة).

قال الإمام ابن كثير : « والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم» (١) .

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية، فقال تعالى: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : قل - يا محمد - للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السموات والأرض، والذى لا معبود بحق سواه ، والذى بيده الإحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يُصَدَّق رسوله . ثم بنى - سبحانه - على هذه النعوت الجليلة التى وصف بها نفسه، الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى: فآمنوا أيها الناس جميعاً، بالله الواحد الأحد، وآمنوا - أيضاً برسوله محمد ﷺ النبى الأمى الذى يؤمن بالله ، وبما أنزل عليه، وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه، ووحيه، واسلكوا سبيله ، واقتفوا آثاره ، فى كل ما يأمر به ،أو ينهى عنه ،رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

وفى وصفه ﷺ بالأمية مرة ثانية ، إشارة إلى كمال علمه ، لأنه مع عدم مطالعته للكتاب ، أو مصاحبته لمعلم ، فتح الله له أبواب العلم ، وعلّمه ما لم يكن يعلم، من سائر العلوم التى تعلمها الناس عنه ، وصاروا بها أئمة العلماء ، وقادة المفكرين ، فأكرم بها من أمية تضاءل بجانبها علم العلماء فى كل زمان ومكان .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله ﷺ بأشرف الصفات، وأقامتا أوضح الحجج وأقواها، على صدقه فى نبوته، ودعتا اليهود بل الناس جميعا -إلى الإيمان به ؛لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ،ولأنه ﷺ ما جاءهم إلا بالخير ، وما نهاهم إلا عن الشر ، ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة ، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون ، ولأن رسالته عامة للجن والإنس ، ومن كانت هذه صفاته ، وتلك شريعته ، جدير أن يتبع ، وقمين أن يصدق ويطاع ، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى، وآثر الحياة الدنيا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٥ .

(ب) تنبيههم إلى أن محمداً ﷺ هو النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام .

ومن بين الوسائل التى استعملها القرآن الكريم في دعوة بنى إسرائيل إلى الإسلام إفهامهم أن محمداً ﷺ الذى دعاهم إلى توحيد الله ـ تعالى هو النبى الذى بشر به عيسى ـ عليه السلام ـ وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكر ـ يا محمد لهؤلاء اليهود قول عيسى بن مريم لهم : يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، وإنى مصدق بالتوراة التى جاء بها أخى موسى ـ عليه السلام ـ وإنى مصدق ـ أيضا ـ بأحمد الرسول النبى الأمى العربى الذى سيأتى من بعدى ،فأنا أبشركم به ، وأدعوكم إلى تصديقه عند مجيئه، بالهدى ودين الحق .

ثم بين القرآن الكريم موقف بنى إسرائيل من الرسول الذى بشرهم به عيسى فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾أى : فحين جاءهم أحمد المبشّر به قبل ذلك بالدلائل الواضحات ، والمعجزات الباهرات ، قابلوا دعوته بالعناد والجحود، وقالوا له : إن ما جئت به ما هو إلا سحر واضح ، وباطل بيِّن البطلان .

فالآية الكريمة تذكر أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ خاتم أنبياء بنى إسرائيل قد بشرهم بالنبى ﷺ الذى لا رسالة بعده ولا نبوة ، وذكره لهم باسمه ؛لكى يؤمنوا به ويصدقوه عند ظهوره ، ولكنهم عند ظهوره ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وفى ذلك إقامة للحجة عليهم ، وتوبيخ لهم على استكبارهم وجحودهم .

هذا :وقد وردت أحاديث متعددة بيَّن فيها النبى ﷺ أن من أسمائه أحمد ، وأن عيسى بشَّر به،ومن هذه الأحاديث ما جاء فى صحيح البخارى،عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال :« إن لى أسماء،أنا محمد،وأنا أحمد،وأنا الماحى، الذى يمحو الله به الكفر،وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي،وأنا العاقب » (٢) .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر عددا من الأحاديث فى أسماء النبى ﷺ، وفى

---

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ ١ ص ٢٣٢ .

البشارات التي جاءت بشأنه : والمقصد أن الأنبياء - عليهم السلام - لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره، ومؤازرته إذا بعث ، وكان ما اشتهر من الأمر في أهل الأرض، على لسان إبراهيم الخليل، والد الأنبياء ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ،وكذا على لسان ابن مريم، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك، يعني : في الأرض قال : « دعوة أبي إبراهيم ،وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت » أي : ظهر في أهل مكة أثر ذلك الإرهاص فذكره (صلوات الله وسلامه عليه) (١).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد دعت اليهود إلى الإيمان بالنبي ﷺ، بأسلوب يحمل الدليل الواضح القوي على صدقه إذ أن آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام - قد بشر به ، ودعاهم إلى تصديقه واتباعه، ولكنهم عموا وصموا عن الحق ، وكفروا بهذين النبيين الكريمين كما كفروا بغيرهما من الأنبياء.

(جـ) « إفهامهم بأن محمداً ﷺ هو النبي الذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا » :

كذلك من بين الحجج التي أقامها القرآن الكريم على اليهود لحملهم على الاعتراف بصدق النبي ﷺ واتباعه ، إنباؤهم بأنه هو الرسول الذي كانوا يستنصرون ببعثته، قبل مجيئه على أعدائهم من المشركين ، وقد وضح القرآن الكريم هذا المعنى في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

والمعنى : وحين جاء اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ هو القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ موافق للتوراة، التي أنزلها الله ؛ لهدايتهم فيما يختص ببعثة النبي ﷺ ونعته ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : كان اليهود يستنصرون على أعدائهم من المشركين بمحمد ﷺ قبل بعثته فيقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي الذي نجد نعته في التوراة.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٠ .

(٢) سورة البقرة :الآية ٨٩ .

ثم بين القرآن الكريم موقفهم من النبى ﷺ بعد مجيئه فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : فحين جاءهم ما عرفوا صدقه ، وهو نبوة النبى ﷺ لانطباق علاماته، التى يجدونها فى كتابهم عليه وحده ، كفروا به لأنه ليس منهم ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ إبعادهم وطردهم من مواقع رحمته ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الذين عرفوا الحق فكتموه وهم يعلمون.

هذا ، ولقد كان مما دعا الأوس والخزرج إلى الدخول فى الإسلام ، كثرة سماعهم من اليهود عن قرب بعثة النبى ﷺ، وأنهم ينتظرون ذلك ،ليؤمنوا به فيرتفع شأنهم معه .

ولقد روى العلماء كثيراً من الآثار فى هذا (١) المعنى ، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا : « مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه أنا كنا نسمع من رجال يهود، حين كنا أهل شرك، وكانوا هم أهل كتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله محمداً ﷺ رسولا من عند الله ، أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٢) .

فهذه الآية الكريمة نبهت اليهود إلى نوع من ضلالهم وجحودهم؛ لكى يتركوا ذلك ، ويثوبوا إلى رشدهم ، يتبعوا النبى ﷺ الذى بشرت به كتبهم ، والذى كانوا يستنصرون ببعثته قبل مجيئها على أعدائهم المشركين.

(د) إرشادهم إلى أن القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية السابقة، ومهيمن عليها .

ومن بين الوسائل التى جاء بها الإسلام لدعوة أهل الكتاب للانضواء تحت لوائه، واتباع نبيه ﷺ؛ إرشادهم إلى أن القرآن الكريم - وهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ-

---

(١) ساق الإمام ابن تيمية عند حديثه عن هذه الآية الكريمة أكثر من عشرة آثار فى هذا المعنى ، وذلك فى كتابه (الجواب الصحيح لمنْ بدَّل دين المسيح) جـ٣ ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) (الجواب الصحيح لِمَن بدَّل دين المسيح) جـ٣ ص ٢٨٤ للإمام ابن تيمية.

مصدق للكتب السماوية السابقة ،ومهيمن عليها، وقد قرر القرآن الكريم هذا المعني في كثير من آياته . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (١).

أي : كما أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى -عليهما السلام- أنزلنا إليك يا محمد -الكتاب وهو القرآن الكريم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى :مؤيداً ومؤكداً لما تقدمه من الكتب السماوية ،كالتوراة والإنجيل.

وعبر عن الكتب الإلهية السابقة على القرآن الكريم بأنها بين يديه، لأن ما تأخر عن الشيء قد يكون وراءه وخلفه، وما تقدم عليه قد يكون قدامه وبين يديه .

ثم بعد أن وصف الله - تعالى - القرآن الكريم ، بأنه أنزله ، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أضاف إليه صفة أخرى فقال تعالى : ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ .

قال ابن عباس : المهيمن : الأمين ، والقرآن أمين على كل كتاب قبله، وقال مجاهد وقتادة : مهيمنًا: شهيداً ، وفى رواية عن ابن عباس : مهيمنًا أى: حاكمًا . وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل.

قال الإمام ابن كثير : وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ماليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأمينًا وحاكما عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه فقال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

وقال فضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز : « أضاف القرآن الكريم إلي كونه » مصدقاً لما بين يديه من الكتاب صفة أخرى إذ أعلن أنه جاء - أيضاً - مهيمنًا على تلك الكتب، أى: حارسًا أمينًا عليها،ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب، الا يكتفى الحارس بتأييد، ما خلده التاريخ فيها، من حق وخير ، بل عليه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٦٥ .

فوق ذلك أن يحميها من الدخيل، الذى عساه أن يضاف إليها بغير حق ، وأن يبرز ما تمس الحاجة إليه من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى، وجودها فى تلك الكتب ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبينه مما كتموه منها ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ ﴾(١) .

ومن الآيات التى بينت أن القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية السابقة قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) ﴾ (٤) .

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن الكريم الذى نزل على محمد ﷺ مصدق للكتب السماوية، التى أنزلت على الأنبياء من قبله، ومهيمن عليها ، فعلى أهل الكتاب أن يؤمنوا به؛ لأنه قد أتاهم بما يؤيد ما فى كتبهم، من الأحكام الصحيحة والمعانى الحقة،وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل،ويظهر ما أخفاه منها أحبارهم ورهبانهم بغير حق، ويفصل ما جاء به الشرع من حلال وحرام، وخير وشر.

وأن كتاباً هذا شأنه لا يكون إلا من عند الله ـ تعالى ـ ولا ينبغي لعاقل إلا أن يؤمن بما اشتمل عليه إيماناً عميقاً ، ويصدق ما جاء فيه تصديقاً قوياً .

ثانيا : (إرشادهم إلى أن ما دعاهم إليه محمد ﷺ يوافق ما دعا إليه الأنبياء السابقون) :

هذه وسيلة أخرى اتبعها القرآن الكريم فى دعوة أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام ، والإيمان بمحمد ﷺ ، وتتلخص هذه الوسيلة فى أن القرآن الكريم ذكر

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة ١١ ص ٦٨ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٢ .
(٣) سورة يوسف : الآية ١١١.
(٤) سورة يونس : الآية ٣٧ .

لهم أن دين الإسلام ،الذى دعاهم إلى الدخول فيه محمد ﷺ هو فى أصوله ومقاصده ولبه وجوهره يوافق ما دعا إليه جميع الأنبياء السابقين ، وقد وردت آيات كثيرة من القرآن الكريم، في هذا المعنى منها قوله تعالى :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(١) .

والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ شرع لكم ـ يا معشر المسلمين ـ من الدين ما شرعه لنوح ومن بعده من الأنبياء إلى زمن محمد ﷺ .

وتخصيص نوح ،وإبراهيم، وموسى، وعيسى بالذكر، لعلو شأنهم ، وعظيم شهرتهم، فهم ومعهم النبى ﷺ أولو العزم من الرسل ، وإلا فكل نبى جاء بمثل ما جاء به هؤلاء الأنبياء، من الدعوة إلى توحيد الله ، والإيمان بكتبه، ورسله، واليوم الآخر. قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أمرهم به جميعًا فقال تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى : اجعلوا هذا الدين، وهو دين التوحيد ، وإخلاص العبودية لله ، قائمًا دائمًا مستمرا ، واحفظوه من التغيير والتبديل ، واحذروا أن يقع فيه ما لم يأذن به الله ، ولا تتفرقوا فيه بأن تأخذوا بعض أصوله، وتتركوا البعض الآخر.

والنهى عن التفرق إنما هو فى أصول الدين وأسسه، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ،واليوم الآخر ، أما ما عدا ذلك من الفروع والتفاصيل ، فيجوز أن تختلف فيها شريعة عن الأخرى كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٣) .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف المشركين من دين التوحيد ، فقال تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى : شق وعظم على المشركين ما تدعوهم إليه، من توحيد الله، وترك عبادة سواه ، لأنهم توارثوا ما هم عليه من شرك كابرا عن كابر ، وهم كانوا عندما يدعون إلى الدين الحق يقولون ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٣ .
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥ .
(٣) سورة المائدة :الآية ٤٨ .

ثم بين ـ سبحانه ـ من هو أهل لرضاه وهدايته، فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ .

أى : الله ـ تعالى ـ يصطفى من يشاء من عباده ، ويقربهم إلى محل كرامته، ويوفق للعمل بطاعته من ينيب إليه ، ويتوب من ذنبه توبة صادقة نصوحا .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وضحت أن رسالة الأنبياء جميعًا واحدة فى أصولها وجوهرها، ولبها ومقاصدها.

وقد ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ اللذين يدعى اليهود اتباعهما ـ قد وصيا بينهما باتباع ملة الإسلام، وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ معناه : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله ، إلا من امتهن نفسه ، واستخف بها ، وظلمها بسوء رأيه ، حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

ثم بين الله ـ تعالى ـ منزلة نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وارشادهم فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى . فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لايماثله أحد فى سفهه، وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التى رفعته إلى المنازل العليا، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾أى : أصطفى الله ـ تعالى ـ إبراهيم لأنه أمره بطاعته، وإسلام وجهه إليه فى كل حال فبادر إلى الإمتثال وقال: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى :أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعًا.كما حكى

عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وبعد أن بين الله - تعالى - أن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا في نفسه ، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضا - يعمل على تكميل غيره ، ودعوته إلى توحيد الله تعالى . فقال - سبحانه - : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

الضمير في ﴿ بِهَا ﴾ يعود إلى الملة التي ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى :﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ والمعنى : ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته، ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها ، فقال كل منهما لأبنائه : « يا بني أن الله أصطفى لكم دين الإسلام ، الذي لا يقبل الله دينًا سواه ﴿ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : فاثبتوا على الإسلام . واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت، وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف .

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب، وزعمهم أنه كان على اليهودية ،التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام، فقال تعالى :﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ .

روى أنّ اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية ، فنزلت هذه الآية الكريمة (١) .

والمعنى : ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه ؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده ، لكي يسعدوا في دنياهم وأخراهم وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ص ٢٢ طبعة مصطفى الحلبي .

تثليث فيها، ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هى إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبودية ، واستسلام له بالخضوع والإنقياد .

ثم حذر الله ـ تعالى ـ أهل الكتاب من ترك طاعته إتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه ، أى : أن إبراهيم وذريته ، أمة قد مضت وانقرضت ، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر ، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم فى الدنيا، فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا؟ ، وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها، فاصلحوها وحسّنوها ، وآمنوا بمحمد ﷺ الذى هو دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى دينه وملته .

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة فى خلقه، وهى أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير ، وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر: وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبنى إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام، وأنه هو ويعقوب ـ عليهما السلام ـ قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت ، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته، أن يستمروا على ملته ،وملة إبراهيم ـ عليهما السلام .

وهذا الذى بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام .

وفى القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذى دعا إليه كل الأنبياء ، وانتسب إليه أتباعهم ، فنوح قال لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وموسى قال لقومه ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، والحواريون قالوا لعيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة يونس : الآية ٧٢ .
(٢) سورة يونس : الآية ٨٤ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته، وقالوا ﴿ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التى أرشدت إلى أن ما جاءهم به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون ، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا ، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة ، وهى أن ما جاء به النبى ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله فى أصول الدين وكلياته كتوحيد الله تعالى، واختصاصه بالعبادة ، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به، عن الله تعالى والإيمان بالبعث، وما يكون فيه من نعيم وعذاب ،والحض على مكارم الأخلاق ، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات، وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام، حسب ما يتناسب، وحالة الأمة التى بعث الله إليها رسولا من لدنه كما قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجودا فى الشرائع السابقة ، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس ، أن محمدا ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث، ووضعت عنهم أصرهم ،والأغلال التى كانت عليهم ، وشرعت لهم أمورا تتعلق بعباداتهم، ومعاملاتهم ،امتازت باليسر والتخفيف .

ويعجبنى فى هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز : « يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نقضًا لها ، وإنما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر .

مَثلُ ذلك مثلا ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته ، فقصر غذاءه على اللبن ، وجاء الثانى فى مرحلته التالية فقرر له طعامًا لبنًا، وطعامًا نشويًا خفيفًا ، وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًا من كل واحد منهم، بأن صاحبه كان موفقًا كل

---

(١) سورة القصص : الآية ٥٣ .

التوفيق فى علاج الحالة، التى عرضت عليه ، نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها ، لا تختلف باختلاف الإنسان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين .

هكذا الشرائع السماوية ، كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها ، وكلها يصدق بعضها بعضًا من ألفها إلى يائها ، ولكن هذا التصديق على ضربين.

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره ، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية ، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات :

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها) .

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة ، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها ، وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة .

فشريعة التوراة ـ مثلا ـ عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لاتقتل) (لاتسرق) فطابعها البارز تحديد الحقوق، وطلب العدل والمساواة .

وشريعة الإنجيل تجىء بعدها فتقرر هذه الأمور ، ثم تترقى فتزيد آدابًا مكملة ، (أحسن إلى من أساء إليك) .

وأخيرا تجىء شريعة القرآن فنراها تقرر كلا المبدأين فى نسق واحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ .

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق، وسياسة المجتمع ، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان، وملأت ما بقى فيه من فراغ ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية، الذى يمسك أركان البناء .

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير فقال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وجمله، إلا

موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » [١] .

وبذلك يتبين لنا :أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة، إنما هى فى الأصول والكليات ، لا فى الفروع والجزئيات .

ثالثًا : (ترغيبهم فى اتباع محمد ﷺ بالأسلوب اللين الحكيم)

رغب القرآن الكريم أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام بشتى ألوان المرغبات، فقد بين لهم أن فى اتباعهم للنبى ﷺ عزتهم وسعادتهم، وعصمة أموالهم ودمائهم فى الدنيا ، وفوزهم وفلاحهم، ورضا الله عنهم فى الآخرة، كما بين لهم أن ما يدعوهم إليه محمد ﷺ أمر تتقبله العقول السليمة ، وتنشرح له القلوب المستقيمة ، وتطمئن إليه النفوس الطيبة ، ولا يختلف عاقلان فى أنه خير وبر ورحمة.

ومن الآيات التى رغب القرآن الكريم فيها أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢] .

والمعنى قل ـ يا محمد ـ لأهل الكتاب ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف، بيننا وبينكم ،ولا يختلف فيها القرآن ، والتوراة، والإنجيل ، وهذه الكلمة هى : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ من خلقه ، بل نبرأ من كل معبود سواه ، ﴿ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة، فيما أمر به من المعاصى ، بأن نطيعهم فيما حرم الله ، وإنما ندين جميعاً لشرع الله تعالى فيما أمر ونهى ، وأحل وحرم.

ثم بين الله تعالى للمؤمنين ما يجب أن يقولوه لأهل الكتاب إذا لم يستمعوا

---

(١) من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة ١١ ص ٦٨١ . وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه فى الندوة العالمية للإسلاميات ، التى انعقدت فى لاهور فى أواخر سنة ١٩٥٧ ، إلا أن المنية عاجلته قبل الانتهاء من الندوة ـ فرحمة الله عليه ورضوانه .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

لكلمة الحق فقال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى :فإن تولى الذين تدعونهم إلى كلمة التوحيد عنها ، فقولوا أنتم -أيها المؤمنون لهم : أشهدوا - يا أهل الكتاب - بأنا مسلمون ، خاضعون لله وحده ، مذعنون لكلمة الحق ، وقد أنصفناكم بالدعوة إليها فلم تطيعونا، فلنا ديننا، ولكم دينكم ، والله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

هذا ، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ، أسمى الأساليب الحكيمة فى الدعوة الحق ، لدعوتها أهل الكتاب إلى توحيد الله، الذى جاءت به الكتب السماوية كلها، ولاشتمالها على ما يقنع العقول ، ويطمئن القلوب بالطف بيان ، وأبلغ أسلوب ، ولذا كان يتخذها النبى ﷺ منهاجه فى دعوته إلى الله ، وكان يذكرها فى كتبه إلى الملوك والأمراء ،وهو يدعوهم إلى الإسلام ، كما حصل فى رسالته إلى هرقل ملك الروم.

ومن الآيات التى دعا القرآن الكريم فيها أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام ، بأسلوب هادىء حكيم قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ (١) .

ومعنى الآيتين الكريمتين : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد ﷺ ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى: يظهر لكم أيها اليهود كثيرا من الأحكام والمسائل التى ذكرتها كتبكم ولكنكم كتمتموها الناس ، وأخفيتموها عنهم ، كإخفائكم صفة النبى ﷺ، التى تجدونها فى كتبكم ، وكتمانكم أمر البشارات به، وكتمانكم الحكم برجم الزانى المحصن، وغير ذلك من الأمور التى أخفيتموها عن العامة ، وتولى الرسول ﷺ إعلانها؛ إظهارا للحق ، ووضعا للأمور فى نصابها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك أن الرسول ﷺ قد سكت عن أشياء كتموها فلم يظهرها فقال تعالى :﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ أى : مما كنتم تخفونه فلا يبينه ، بل

---

(١) سورة المائدة : الآيتان ١٥ ، ١٦ .

يسكت عنه، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففى السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة.

وفى إظهار الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة له؛ لأنه لم يقرأ كتابا، ولم يجلس أمام معلم، فإخباره بأسرار ما فى كتابهم، أخبار عن الغيب، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان، به وتصديق دعوته، والانضواء تحت لوائه.

ثم مدح الله تعالى ما جاء به رسوله من الخير والهدى فقال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾أى: قد جاءكم من الله يا أهل الكتاب (نور وكتاب مبين) هو القرآن الكريم الذى يكشف ظلمات الشرك، ويهدى الناس إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم.

ثم بين سبحانه لأهل الكتاب مزايا هذا النور، الذى جاءهم من الله، والفوائد التي تعود عليهم باتباعه فقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: يهدى الله من استضاء بهذا النور إلى طريق السلامة من كل سوء وشقاء.

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى يخرجهم سبحانه من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام وضيائه، بتوفيقه وإرادته.

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى؛ يرشدهم ويسددهم إلى الدين القويم والمنهاج السليم، الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد دعتا اليهود إلى اتباع محمد ﷺ بأهدى أسلوب، وأكمل بيان، وأوضح برهان، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه من منافع جليلة، وفوائد عظيمة، تجعلهم يسارعون إلى تصديقه، إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ومن الآيات الكريمة التى دعت أهل الكتاب إلى تصديق محمد ﷺ وأزاحت كل عذر لهم قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ (١) مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

---

(١) قال الراغب: فتر: الفتور سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ اى سكون حال عن مجىء رسول الله ﷺ. ص ٣٧١ طبعة الحلبى تحقيق محمد سيد الكيلانى.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٩.

ففى هذه الآية يبين الله تعالى مقام الرسالة المحمدية ، وأنها جاءت والعالم في أشد الحاجة إليها، فيقول سبحانه مخاطباً أهل الكتاب :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ والمعنى : يا أهل الكتاب ـ يا من معرفتكم الكتاب توجب عليكم الطاعة ـ قد جاءكم رسولنا محمد يبين لكم ما أمرتم به ، وما نهيتم عنه ، على حين فتور من إرسال الرسل ، وبَعْدَ وقت لم يكن فيه بيان ولا إرشاد ، إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسول ولا نبى ، كما جاء فى الحديث الشريف « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه ليس بنى وبينه نبى [1] » .

فالله تعالى قد بعث محمدا ﷺ وقد انطمست معالم الشرائع ، وحرفت الأديان، وكثرت عبادة الأوثان، فكانت النعمة به أتم النعم .

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك ما يقطع عذرهم فقال تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أى : قد جاءكم رسولنا محمد يا أهل الكتاب على فترة من الرسل، يبين لكم الطريق المستقيم ، لكيلا تعتذروا، وتقولوا يوم الحساب ما جاءنا بشير يبشرنا بالخير على الطاعة ، ولا نذير يحذرنا من العقوبة عند المعصية . والمقصود من الجملة: قطع عذرهم ،وإبطال حجتهم ، إذا ما تذرعوا بالجهل ادعوا يوم القيامة أنهم لم يأتهم رسول يأمرهم بالمعروف ،وينهاهم عن المنكر ، ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ .

أى: أرسلناه إليكم لئلا تعتذروا ،وتقولوا ما جاءنا من بشير ونذير ، فقد جاءكم محمد ﷺ بشيراً ونذيراً؛ ليبشركم بحسن العقبى إذا آمنتم ،وعملتهم صالحا ، وينذركم بسوء المصير إذا بقيتم على كفركم وجحودكم للحق فعليكم أن تؤمنوا به ،لأنه يهديكم إلى الحق ،وإلى الطريق المستقيم .

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان قدرته وسلطانه، فقال تعالى : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها، وأنها جاءت، والناس فى أمس الحاجة إليها ، فعلى اليهود أن يؤمنوا بهذا الرسول النبى الأمى، الذى بشرهم وأنذرهم ، وأزاح عذر الجهل عنهم ، لينالوا رضا الله تعالى .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الخلق »جـ ٤ ص ٢٠٣ طبعة صبيح.

رابعا : إنذارهم بالعقوبة إذا لم يتبعو محمداً ﷺ .

وكما أن القرآن الكريم قد استعمل مع اليهود كثيرا من وسائل الترغيب وهو يدعوهم إلى الإسلام - كما بينا ذلك من قبل - فقد استعمل معهم كذلك أسلوب الترهيب؛ ليصرفهم عن الكفر، والفسوق ،والعصيان ، ويحملهم على الطاعة، والصلاح والإيمان .

ومن الآيات التي تحمل طابع الإنذار بالعقوبة لأهل الكتاب ، إذا لم يتبعوا الحق ، قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً . إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾(١) .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كلّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود ، منهم عبد الله بن صوريا ، وكعب بن أسد ، فقال لهم : يامعشر يهود : اتقوا الله وأسلموا ، فو الله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق ، فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا ، وأصرو على الكفر ، فأنزل الله فيهم ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (٢) .

وقد بدأ الله تعالى الآية الأولي بنداء لأهل الكتاب يأمرهم فيه بالإيمان بمحمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾

وفى هذه الجملة الكريمة تحريض لهم على الإيمان من وجهين :

أولهما : أنهم أوتوا علم الكتاب ، وهذا العلم يوجب عليهم أن يسارعوا إلى تلبية دعوة النبى ﷺ ، وألا تأخذهم العصبية الدينية ، كما أخذت أهلَ مكة العصبيةُ الجاهلية .

ثانيهما : أن هذا الإيمان الذى يدعَوْن إليه ، هو التصديق بما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، من قرآن لأنه يطابق - فى جوهره - ما أنزله على الأنبياء السابقين، الذين

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٤٧ و ٤٨ . (٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص ١٢٤ طبعة مصطفى الحلبى.

يزعم أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم ، إذن فوحدة المنزل توجب عليهم أن يؤمنوا بجميع ما أنزله الله تعالى على رسله ، وإلا كانوا ممن يفرقون بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ﴿ ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴾ .

ثم أنذرهم سبحانه وتعالى بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ .

والمعنى : يأيها الذين أوتوا الكتاب الألهى وهو التوراة ، آمنوا بالقرآن الذى أنزلناه مصدقا لما معكم فى أصول الدين وأركانه من قبل أن ننزل بكم إحدى عقوبيين :

الأولى : أشار إليها القرآن الكريم بقوله من قبل أن نطمس (١) وجوها فنردها على أدبارها .

قال مجاهد، أى: من قبل أن نطمس وجوها عن صراط الحق ، فنردها على أدبارها فى الضلالة.

وقال السدى : معناه : فنعميها عن الحق، ونرجعها كفارا .

وقال الضحاك : يعنى أن نردهم عن الهدى والبصيرة ، فقد ردهم على أدبارهم فكفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به.

وظاهر كلام هؤلاء أن هذه العقوبة من قبيل الطمس المعنوى .

والمعنى : آمنوا من قبل أن تقسو قلوبكم ، ونطبع عليها بسبب تمسكها بالضلال ، وتماديها في العناد . فهي كقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٢) .

---

(١) قال الراغب : الطمس إزالة الأثر بالمحو ، قال تعالى ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ وقال تعالى : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ﴾ أى أزل صورتها ، وقال تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أى: أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر ا . هـ ملخصا . س ٢٧ .
وقال ابن جرير : (وأما الطمس فهو العفو والدثور فى استواء ومنه يقال : طمست أعلام الطريق تطمس طموسا ، إذا دثرت وتعفت ، فاندفنت واستوت بالأرض) أ.هـ ملخصا جـ ٥ ص ١٢٣ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

القلب هو العقل . والحيلولة بين المرء وقلبه هو أن يسلب التفكير السليم ، والنظر المستقيم.

وكقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . ومن الواضح أن السد هنا سد معنوى رتب عليه أنهم لا يبصرون الهدى ولا يهتدون إلى الحق.

وأما العقوبة الثانية : فقد ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ أو نلعنّهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ ومعنى اللعن الطرد والإذلال المعنوى.

فخلاصة المعنى : أن الآية دعوة لليهود إلى الإيمان من قبل أن يطبع الله تعالى على قلوبهم ،ويذهب بنورها ، فلا تتجه إلى الحق ، ولا تميل إليه ، أو من قبل أن يلعنهم ويطردهم من رحمته ، ويكتب عليهم الذلة والمسكنة ، بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب.

وكلمة (أو) فى الآية لمنع الخلو ، فيجوز أن يعاقب الله تعالى طائفة منهم بعقوبة من هاتين العقوبتين ، ويعاقب طائفة أخرى منهم بالعقوبة الثانية إن هم استمروا فى ضلالهم وطغيانهم.

هذا وفى الآية أقوال أخرى للمفسرين منها :

إنّ قوله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ المراد بها عقوبة حسية ظاهرة ومعناها : محو معالم الوجه من الأنف والفم والعين ، وجعله على هيئة القفا ، وأن قوله تعالى : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ معناه : أن نمسخهم قردة خاسئين، كما فعلنا بأصحاب السبت حين عاقبناهم على اعتدائهم فيه ، وهذا القول مروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وتبعه عليه جماعة من المفسرين . ثم اختلفوا فى أن ذلك متى يكون ؟ فقال بعضهم يكون فى آخر الزمان، وقال بعضهم يكون فى الآخرة وقالت طائفة : هو مقيد بعدم إيمان أحد من أهل الكتاب المخاطبين بذلك ، وقد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وأمثاله.

وقيل المراد من الآية : آمنوا بالقرآن من قبل أن تنزل بكم إحدى العقوبتين :

---

(١) سورة يس : الآيتان : ٩ ، ١٠ .

الأولى : أن يسلط الله عليكم المؤمنين فيحاربوكم، وتولوهم الأدبار منهزمين، فتكون أقفيتكم هى الظاهرة.

والثانية : أن نلعنكم كما لعنا أصحاب السبت ، فنطردكم من رحمتنا ، ونمسخ عقولكم وأفهامكم ، ونترككم فى الأرض أذلاء مشردين .

وقيل المراد من الطمس : التغيير مطلقا ، ومن الوجوه : الرؤساء والوجهاء.

والمعنى : آمنوا بالقرآن من قبل أن نغير أحوال وجهائكم ورؤسائكم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ، ونكسوهم ذلا وصغارا، وإدبارا ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.

ويجوز أن يكون المعنى على تفسير الطمس والوجوه بما ذكرنا : آمنوا من قبل أن نرد وجهاءكم ورؤساءكم أذلاء صاغرين إلى المكان، الذى جاءوا منه،وهو (أذرعات) بأرض الشام ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت .

وإنما جعل الله تعالى إذلال الرؤساء والوجهاء، وإلحاق الصغار بهم، عقوبة على ترك الإيمان ، لأنهم عنوان الأمة ، ورمزها ، فإذا ذلوا ذلت الأمة جميعها.

قال عبد الرحمن بن زيد بناء على هذا التأويل : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى،وتأول ذلك بإجلاء بنى قينقاع، والنضير إلى أرض الشام ، فرد الله وجوههم على أدبارهم حيث عادوا إلى أذرعات وأريحا، من أرض الشام كما جاءوا منها.

هذا ، والذى نراه أن أمثل الآراء : هو الرأى الأول، الذى بدأنا به تفسير الآيات، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، ولسلامته من الاعتراضات والإشكالات ، ولوروده على ألسنة جمهور المفسرين، أمّا بقية الآراء فلا تخلو من اعتراضات وإشكالات ،لا نرى موجبا للإفاضة فيها ، وقد تكفل بعض المفسرين ـ كالرازى والآلوسى ـ ببيانها وتفصيلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ معناه : وكان جميع ما أمر الله تعالى به نافذا لا محالة ، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء فى الأرض، ولا فى السماء.

والضمير فى (أو نلعنهم) يعود لأصحاب الوجوه ، أو إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ خبرا مؤكدا ، وهو أنه ـ تعالى ـ لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر

ما سوى الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

والمعنى : أن الله تعالى لا يغفر لهؤلاء اليهود، الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذنوب والكبائر والآثام ، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ ﴾ بأن يدين بالخضوع والعبودية لغيره من خلقه ﴿ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ فقد اختلق إثما عظيما.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أمرتا بالإيمان بمحمد ﷺ وبينتا لهم أن عدم إيمانهم سيؤدى بهم إلى خزى الدنيا، وعذاب الآخرة ، وأنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

خامسا : إرشادهم إلى أن اختلافهم فى الدين سببه البغى والحسد :

الشرائع السماوية واحدة فى جوهرها ، فكلها منزلة من عند الله لهداية الناس، إلى ما يسعدهم فى دنياهم ،وآخرتهم ، واختلافها إنما هو فى الفروع ،وليس فى الأصول، وفى الجزئيات ،وليس فى الكليات ، وهذا الاختلاف فى الفروع والجزئيات بين الشرائع هو من رحمة الله تعالى بعباده ، حيث شرع لكل أمة ما يناسبها ، وما تقتضيه ظروفها وأحوالها.

ولقد جاء محمد ﷺ بالشريعة الخاتمة للشرائع ، والمهيمنة عليها ، والمصدقة لها فى أصولها، التى تتمثل فى الدعوة إلى توحيد الله ، والإيمان برسله ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم.

وكان من الواجب على اليهود أن يسارعوا إلى تصديق هذا الرسول النبى الأمى، الذى قامت الأدلة القاطعة على صدقه فيما يبلغه عن ربه . ولكن الكثيرين منهم عموا وصموا عن الحق ، وامتنعوا عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ثم اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا.

ولقد صرح القرآن الكريم فى كثير من الآيات بأن امتناع أهل الكتاب عن الدخول فى الإسلام ، وعن اتباع محمد ﷺ سببه البغى والحسد، لا الدليل والبرهان . ومن الآيات التى صرحت بذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ

اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠) ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ .

قال قتادة : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه ، وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به (١) .

ثم بين سبحانه أن اليهود لم يتركوا الإسلام تبعا لدليل عندهم ، وإنما تركوه بسبب بغيهم وحسدهم ،فقال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى شأن دين الإسلام فتركوه وامتنعوا عن الدخول فيه ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى : إلا من بعد أن علموا أنه الحق الذى لا محيد عنه ، ولم يكن اختلافهم عن جهل ،أو شبهة عندهم، بل ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى :ما كان اختلافهم وامتناعهم عن الانصياع للحق إلا من أجل بغيهم ،وحسدهم لمحمد ﷺ على ما آتاه الله من فضله ،ومن أجل طلبهم للرئاسة، وحظوظ الدنيا ، ورذيلة البغى والحسد وحب الدنيا إذا استولت على قلب، نزعت منه نور العلم، وجعلته يجحد الحق وينكره ، وينأى عن طريق الإيمان، ويتردى فى الكفر والفسوق والعصيان.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لكل كافر بآياته، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى: ومن يجحد حجج الله، وأعلامه التى نصبها ذكرى لمن عقل ، وأدلة لمن اعتبر ، فإن الله تعالى معاقبه ومحاسبه على ذلك حسابا عسيرا ؛لأنه سريع الحساب .

ثم أرشد الله رسوله ﷺ إلى الجواب ، الذى يجيبهم به، إذا جادلوه فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ .

أى : فإن حاجك أهل الكتاب ـ يا محمد ـ وجادلوك فى شأن دين الإسلام، بعد أن ثبت أنه هو الدين الحق، الذى لا شك فيه ، فلا تسر معهم فى لجاجتهم ، ولا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٣١٢ .

تهتم بمجادلتهم ، بل قل لهم إذا حاجوك : ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ أى : انقدت لله وحده ، بلساني وجوارحي وقلبى ، وأخلصت عبادتى له . دون أن أشرك معه أحدا من خلقه . ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أى : ومن اتبعنى كذلك أسلم وجهه لله .

قال صاحب الكشاف : قوله تعالى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أى : فإن جادلوك فى شأن الدين فقل أسلمت نفسى لله وحده ولم أجعل فيها لغيره شريكا ، بأن أعبده وأدعوه إليها معه ،يعنى : أن دين التوحيد هو الدين القويم، الذى ثبت عندكم صحته ، كما ثبت عندى ، وما جئت بشيء بديع تجادلوني فيه ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين ، هو حق اليقين، الذى ليس فيه لبس أو خفاء ، فما معنى المحاجة فيه [1] .

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب من أهل الكتاب أن يكونوا مثله فى إخلاص العبادة لله، والخضوع لذاته، فقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ أى :وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وقل كذلك للأميين الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ، قل لهؤلاء جميعا ، إذا كنت أنا قد أسلمت وجهى لله ، ومن اتبعنى كذلك أسلموا وجوههم لله ، فهل أنتم مثلى ،ومثل أتباعى فى ذلك بعد أن علمتم صدقى فيما أبلغه عن ربى ؟ . فالاستفهام فى الآية الكريمة ؛ للحض على أن يسلموا وجوههم لله ، وأن يخلصوا له العبادة كما أخلصها النبى ﷺ وأصحابه ، وأن يتركوا المحاجة الباطلة؛ لأنها لا تغنى من الحق شيئاً ، إذا العبرة فى طلب الحق ليست بكثرة المجادلات الداحضة ، وإنما العبرة فى طلبه بإخلاص القلوب ، وصفاء النفوس.

ولقد أجاد صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ فى بيان هذا المعنى إذ قال : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ يعنى :أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ، ويقتضى حصوله لا محالة ، فهل أسلمتم أم أنتم بعدُ على كفركم ، وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبقِ من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته ، هل فهمتها ؟ ومنه قوله تعالى بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وفى هذا الاستفهام تعبير بالمعاندة، وقلة الإنصاف؛ لأن المنصف إذا تجلت له

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٩٨ .

الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاند بعد تجلى الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان ، وكذلك فى «هل فهمتها »توبيخ بالبلادة ، وفى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ توبيخ بالتقاعد عن الانتهاء ،والحرص على تعاطى المنهى عنه (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبتهم إن أسلموا، ومصيرهم إن أعرضوا ،فقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أى : فإن أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا له العبادة ، فقد أصابوا سبيل الحق ، وسلكوا طريق الرشاد، وخرجوا من الضلال إلى الهدى ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ،أعرضوا عما تدعوهم إليه، وأدبروا عن صراط الله المستقيم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ﴾ أى: عليك تبليغهم ما أمرناك به ،وعلينا نحن حسابهم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أى :هو عليم بمن يستحق الهداية وبمن يستحق الضلالة ، وهو الذى ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

وفى هذا التذييل للآية الكريمة ، عزاء للنبى ﷺ عن كفرهم ، واشارة إلى أحوالهم ، وإنذار لهم بسوء مصيرهم إن استمروا فى ضلالهم وغيهم.

هذا ، ومن الآيات التى صرحت بأن السبب فى اختلاف أهل الكتاب وبعدهم عن الحق والصواب، هو البغى والحسد قوله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ﴾ .

ومنها قوله تعالى فى سورة الشورى :﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤) ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن أهل الكتاب سبب خلافهم فى شأن الدين الحق ـ بعد أن جاءهم العلم ، وتأكدوا أنه من عند الله ـ إنما هو بغيهم وحسدهم ، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير،وقد ذكر القرآن الكريم لهم ذلك؛ ليفيئوا إلى رشدهم، ويقلعوا عن عصبيتهم ،ويسلكوا الطريق المستقيم ، ويسارعوا إلى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٨ .

تصديق محمد ﷺ، الذى قامت البينات القاطعة ، والحجج الساطعة على صدقه، وهم يعرفون ذلك معرفة لا تشوبها ريبة أو شك ، كما ذكر القرآن لهم ـ أيضًا ـ أن فى إسلامهم هدايتهم وسعادتهم ، وأن فى إعراضهم عنه شقاؤهم وضلالهم .

سادسًا : إخبارهم بأن القرآن الكريم يقص عليهم الحق فيما اختلفوا فيه :

لم يكتف القرآن الكريم ببيان أن خلاف اليهود فى الدين، مرده إلى البغى والحسد ، وأن من الواجب عليهم أن يتركوا هذه الرذائل، ويتبعوا الحق الذى جاءهم به محمد ﷺ ، لم يكتف بذلك بل أخبرهم أنه قد بين لهم الحق والصواب فيما تنازعوا فيه ، فعليهم أن يفتحوا قلوبهم له ، وألا يقفوا فى سبيله، ويصدوا الناس عن اتباعه .

ومن الآيات التى بينت لأهل الكتاب أن القرآن الكريم يقضى بما هو الحق، فيما يتنازعون فيه، قوله تعالى فى سورة النمل : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) ﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة : أن هذا القرآن الكريم، الذى أنزله الله على نبيه محمد ﷺ يقص على بنى إسرائيل القصص الحق ، والأخبار الصدق فى أكثر الأمور، التى اختلفوا فيها ؛ لأنه هو الكتاب المصدق لما بين يديه من الكتب، وهو المهيمن عليها. فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه فهو باطل.

ولقد اختلف بنو إسرائيل فى كثير من أمورهم ، فاختلفوا فى شأن النسخ، فقال بعضهم :إنه مستحيل عقلا، وغير واقع شرعا ، وقال بعضهم: بجوازه عقلا، وامتناعه شرعا. . واختلفوا فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ فنسبوه إلى يوسف النجار ، ورمْوا أمه بما هى بريئة منه، واختلفوا فى شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقالوا: إنه كان يهوديا ، واختلفوا مع النبى ﷺ فى كثير من الأمور، التى ذكرناها مفصلة فى غير هذا الموضع[١] .

وقد حكى القرآن الكريم أكثر هذه الخلافات، وحكم فيها بالقول الحق، والحُكم

---

(١) راجع فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) مبحث (مجادلاتهم الدينية).

العدل ، ودعى بنى إسرائيل إلى طاعة الله ورسوله ، واتباع ما جاء به القرآن الكريم، إن كانوا ممن يسمعون النصيحة، ويتبعون الحق ، وينقادون للعدل.

ثم وصف سبحانه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن هذا القرآن الكريم بجانب كونه يقص على بنى إسرائيل أكثر الأمور، التى اختلفوا فيها ، ويقول فيها كلمة الحق ، فهو - أيضا - هدى ورحمة لقلوب المؤمنين به ، العاملين بتعاليمه ، المستقيمين على طريقه ، بما يبين لهم من الإرشادات النافعة ، والتوجيهات السديدة ، التى تسعدهم فى دنياهم وأخراهم.

ثم بين سبحانه أنه هو وحده الذى يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : إن ربك - يامحمد - هو الذى يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه فيهم يوم القيامة، فيجازى من أحسن منهم على إحسانه ، ويعاقب من أساء على إساءته ، وهو - سبحانه - ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه فلا يقدر أحد على دفع قضائه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما اختلفوا فيه ، وبمن يقضى له، وبمن يقضى عليه.

ثم أمر - سبحانه - نبيه ﷺ بالتوكل عليه ، وبالسير فى نشر دينه، وإعلاء كلمته، وقلة المبالاة بأعداء الدين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، فقال تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ الذى لا يخيب من اتبعه ، ولا يتركه إلا من عمى عن الهدى.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لبنى إسرائيل أن القرآن الكريم، قد اشتمل على أكثر ما اختلفوا فيه من شئون ، وقضى فيها بما هو الحق والعدل ، فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يحَكِّموا عقولهم ، وأن يتركوا العناد والحسد، وأن يتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ؛ لينالوا السعادة فى الدنيا ، ورضا الله فى الآخرة.

سابعًا : إقامة الحجه عليهم عن طريق الاستشهاد بهم ،على صدق النبى ﷺ :

ومن الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم فى دعوته، أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام: الاستشهاد بما أنزله الله عليهم من الكتاب ،على صدق النبى ﷺ، وعلى أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد.

وقد كرر القرآن الكريم حملهم فى اتباع الحق عن طريق الرجوع إلى كتبهم، وما جاءتهم به أنبياؤهم ،في كثير من آياته، لعلهم يعقلون ، ويستجيبون لما دعوا إليه .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١).

والمعنى : فإن كنت أيها الرسول فى شك مما أنزلناه إليك فى هذا القرآن، من قصص، وآداب، وأحكام ، فاسأل أهل الكتاب الذين قرءوا التوراة والإنجيل ، فإنهم يعرفون معرفة لا يشوبها خفاء، أنك على الحق ، ويعلمون علم اليقين أن ما جئت به من قرآن، هو من عند الله،لأن مطالعتهم لهذه الكتب أعطتهم هذا العلم، وتلك المعرفة،والآية الكريمة لا تفيد أن الرسول ﷺ قد حصل منه شك فيما أوحى الله إليه، حتى يسأل أهل الكتاب عن صحته، ولكن ذلك على سبيل الفرض والتقدير.

وقد أجاد صاحب الكشاف في توضيح هذا المعني فقال : فإن قلت : كيف قال الله تعالى لرسوله ﷺ ، ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ مع قوله فى الكفرة ﴿وإنهم لفى شك منه مريب﴾ ؟ قلت : فرق عظيم بين قوله ﴿وإنهم لفى شك منه مريب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلا ، وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ والمعنى : أن الله - تعالى - قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرّاة الكتاب ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد ﷺ ويبالغ فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا ، فسل علماء أهل الكتاب، يعنى : أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علما ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك، ومساءلتهم فضلا عن غيرك ، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم ،بصحة ما أنزل إلى رسول الله ،لا وصف رسول الله بالشك فيه (١) .

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٧٠ .

ومن مزايا هذا التعبير القرآني البليغ : تكثير الدلائل، وتقويتها ، لتزداد قوة ويقينا في القلب ، وإقامة الحجة الإلزامية على صدق ما يريد الإنسان إثباته، أو نفيه كما هو الحال في هذه الآية الكريمة ، فإنها أقامت الحجة على أهل الكتاب بأنهم يعلمون عن طريق كتبهم ـ صدق النبي ﷺ وليس في مقدورهم إنكار ذلك .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يزداد ثباتا على دعوته ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ . أي :لقد ثبت عندك ثبوتا لا شك فيه ـ يا محمد ـ أن ما جاءك من عند ربك هو الحق الواضح المؤيد بالمعجزات الباهرة ، والدلائل القاطعة ، فلا تكونن من الشاكين في ذلك .

وإذن فالآية الكريمة قد أقامت الحجة على بني إسرائيل بأنهم يعلمون صدق النبي ﷺ يقينا عن طريق كتبهم السماوية، فمن الواجب عليهم بناء على هذا العلم اليقيني أن يتبعوه ويؤمنوا به ويصدقوه ، وإلا كانوا ممن يكتمون الحق وهم يعلمون .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من ذكر أهم الوسائل التي اتبعها القرآن الكريم في دعوته أهل الكتاب بصفة عامة ، واليهود بصفة خاصة، إلى الدخول في الإسلام .

ولو أنهم فتحوا قلوبهم لها ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى لبادروا إلى تصديق النبي ﷺ ،واتباع ما جاء به، ولكن حرصهم على زينة الحياة ، وبيعهم الدين بالدنيا ، وتعصبهم لما ألفوه وحسدهم النبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله ، كل ذلك حمل أكثرهم على أن يؤثروا العمى على الهدى، فباءوا بغضب من الله ، واستحقوا الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة .

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الموضوع الثاني، وهو : (بيان أهم مظاهر الإنصاف والتسامح ،التي عامل بها الإسلام أهل الكتاب) فنقول : أرسل الله ـ تعالى ـ رسوله محمداﷺ بالهدى ودين الحق ، وكان العالم حينئذ يموج بالديانات الباطلة ، والنحل الفاسدة ، والأخلاق المرذولة ، والعادات القبيحة .. ومن الأقوام الذين اهتم الرسول ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام ، واتباع ما جاء به فريقان من الناس .

أولهما : المشركون، وهم عباد الأوثان والأصنام، الذين يزعمون أن مع الله آلهة أخرى، يدينون لها بالطاعة والخضوع .

وثانيهما : أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظًا مما ذكروا به ، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون . والمتتبع لسَير الدعوة الإسلامية يتبين له أن موقف الإسلام من الوثنيين يختلف عن موقفه من أهل الكتاب . فبالنسبة للوثنيين كان موقفه منهم موقف النقيض من النقيض ، فهو يبطل عقائدهم ، ويسفه أحلامهم ، ويعمل على إزالة هذه الأوثان من الوجود بكل طريق ، لأنها تتنافى مع توحيد الله - تعالى - وإفراده بالعبودية.

وقد أعلن الإسلام حربه على الوثنية بكل صراحة ووضوح، وجاهر باحتقاره ومقاطعته لعبدة الأصنام ، إذ حرم ذبائحهم ، ومنع التزوج منهم، أو تزويجهم ، ولم يسمح لهم بأن يقيموا شعائرهم الوثنية في البيت الحرام أو حوله ، ولا أن يعمروا مساجد الله ،شاهدين على أنفسهم بالكفر ، وأعلمهم يوم الحج الأكبر أن الله برىء منهم وأعطاهم مدة يراجعون فيها أنفسهم،ويدبرون أمرهم فإذا لم يعودوا بعدها إلى حظيرة الإسلام،قتلهم المسلمون حيث يوجدون،ويؤخذون، ويحصرون ويقعد لهم كل مرصد،ولم يقبل منهم الجزية التي يكون من ورائها حمايتهم والإذن لهم بإقامة شعائر دينهم الوثني فليس هناك إلا السيف،أو الإسلام.

هكذا وقف الإسلام من الوثنية موقف المحارب لها ، المحتقر لأتباعها حتى هدمها، وقوض أركانها ، وطهر الأرض منها ، وجعل النبي ﷺ يطعن تماثيلها يوم الفتح،وهو يردد قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(١) .

هذا - بإيجاز - موقف الإسلام من الوثنية وأتباعها ، أما موقفه من أهل الكتاب، فكان يمتاز بالتسامح العظيم ، والإنصاف التام ، والمعاملة الطيبة، ودعوتهم إلى الحق، بالتي هي أحسن، وإقامة الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة ، على صدق النبي ﷺ بل إنه ﷺ كان يكره أن يوافق عمله عمل المشركين ،ويحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، فقد أخرج البخاري : عن ابن عباس « أن النبي ﷺ كان يسدل شعره ، وكان المشركون يَفْرِقُون رءوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رءوسهم ، وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق النبي ﷺ رأسه » (٢) .

---

(١) سورة الإسراء :الآية ٨١ .

(٢) صحيح البخاري « باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة » جـ ٥ ص ٩٠ .

وإليك طرفا من مظاهر سماحة الإسلام، مع أهل الكتاب وإنصافه لهم .

أولا : وصفهم القرآن الكريم فى كثير من آياته بكونهم أهل كتاب :

والمراد بالكتاب : التوراة ،التى أنزلها الله ـ تعالى ـ على موسى ـ عليه السلام ـ لتكون هداية لبنى إسرائيل، والإنجيل الذى أنزله الله تعالى على عيسى ـ عليه السلام ـ ليكون نورا يسير على ضوئه أتباعه . وهذا الوصف ـ فى ذاته ـ فيه اعتراف بهم فى ماضيهم وحاضرهم ، وفيه تزكية لهم على غيرهم ممن لم يرث ما ورثوه من الكتب السماوية . وقد أورد القرآن الكريم هذا الوصف ، أحيانا على سبيل التكريم لهم ، والتلطف معهم ، والمديح لمن يستحق المديح منهم ، وأحيانا على سبيل التوبيخ لهم ، والتعريض بهم، والذم لأخلاقهم، ومسالكهم.

وهو فى الحالة الأولى يتلطف معهم ليقبلوا الحق ، ويذكرهم بأنهم أصحاب دين سماوى ، فاللائق بهم أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، وأن يتبعوا ما جاء به ، لأنه هو الرسول الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . ومن قبيل مدح القرآن لهم بهذه الصفة قوله تعالى فى سورة القصص ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ .

أما فى الحالة الثانية فهو يؤنبهم على كتمانهم الحق بعد أن علموه، ويوبخهم على تكذيبهم لمحمد ﷺ ،الذى يعرفون صدقه ،كما يعرفون أبناءهم ، ويقرعهم على عنادهم ،وجحودهم ،وتناقضهم ، لأن وصفهم بهذا الوصف ، يقتضى منهم أن ينزلوا على حكم كتابهم الذى أمرهم باتباع محمد ﷺ عند مبعثه.

ومن قبيل ذمهم على كفرهم مع أنهم أهل كتاب قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ .

وبذلك نرى أن وصف القرآن لليهود بأنهم أهل كتاب فيه اعتراف بما ورثوه من الهدى ، وتمييز لهم عن غيرهم من الوثنيين ، وإذا كان القرآن الكريم قد ساق هذا

الوصف لهم على سبيل توبيخهم وتقريعهم ، فلأنهم لم يعملوا بمقتضى ما أمرهم به كتابهم ، ولم ينقادوا للحق، الذى يعرفونه معرفة لا لبس فيها ولا خفاء.

ثانيًا : عدالة القرآن الكريم فى أحكامه عليهم :

نعت القرآن أهل الكتاب بصفة عامة ، بنعوت سيئة، كغلوهم فى الدين، واتباعهم طريق الباطل، ودمغ اليهود منهم بصفة خاصة بكثير من الرذائل ، كقتلهم لأنبياء الله، وتحريفهم للكلم عن مواضعه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه ، إلى غير ذلك من الصفات القبيحة، التى وصفهم بها بسبب فسوقهم وفجورهم . ولكن المتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أنه قد فرق بين صالحيهم وطالحيهم ، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه، من خير أو شر ملتزما فى ذلك طريقة العدالة والصدق ، وهذه بعض الآيات التى تضمنت استثناء بعضهم من تلك الرذائل ، ونوهت بسلامة مواقفهم ،واعتدالهم واقتصادهم ، وأشارت إلى إيمانهم ،وإخلاصهم واستجابتهم للحق.

قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ ﴾ إنصاف للقلة التى لم تنقض عهودها مع الله، من بنى إسرائيل ، وشهادة لتلك القلة بأنها لم تنحرف عن الحق ، ولم تنزلق مع الهوى .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة : أن بنى إسرائيل ليسوا متساوين، فى الشرور والمساوئ ، بل منهم ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أى : منهم جماعة مستقيمة على أمر الله ـ تعالى ـ وهم الذين أسلموا واتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ .

ثم وصفهم ـ سبحانه ـ بصفات جليلة، فقال تعالى : ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ

وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

فهذه الصفات الطيبة خاصة بمؤمنى بنى إسرائيل، أما كفارهم فهم بعيدون عنها، لأنهم منحرفون عن الحق ، كافرون بالله وباليوم الآخر.

ثم قال تعالى ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : ما يفعل هؤلاء الذين صلحت نفوسهم من خير، فلن يحرموا ثوابه ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وهو عليم بالمتقين فيجازيهم بما يسعدهم، ويرضيهم.

فهذه الآيات الكريمة تضمنت أوصافًا جليلة رائعة لمؤمنى أهل الكتاب، وبشرت من تنطبق عليه هذه الصفات بالثواب الكامل يوم القيامة.

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199) ﴾ .

فهذه الآية الكريمة فيها ما فيها من الثناء المستطاب على مؤمنى أهل الكتاب.

وفى سورة المائدة آيات كثيرة ، وصفت بنى إسرائيل بأقبح الصفات وأسوئها ولكنها استثنت قلة منهم، من هذه الصفات القبيحة إنصافا لها ، ومن هذه الآيات:

(أ) قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) ﴾ .

(ب) وقوله تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) ﴾ .

(جـ) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66) ﴾ .

(د) وقوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة قد وصفت أكثر اليهود، أو كثيرا منهم بالفسق والمسارعة في الأثم . وأكل السحت ، وعمل السوء ، دون أن تعمم هذه الأوصاف على جميعهم ، وفي هذا الاحتراس إنصاف للقلة التي آمنت منهم ، وعزل لها عن النعوت السيئة، التي نعت القرآن الكريم بها غالبية بني إسرائيل .

وقال - تعالى - في سورة النساء : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾ .

هذه الآية الكريمة جاءت عقب حملة شديدة على بني إسرائيل ، وصفهم فيها القرآن الكريم بنقض العهود ، والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقول البهتان على مريم ، وأنهم بسبب ظلمهم حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم ، وأعد للكافرين منهم عذابًا أليما ، ثم جاءت هذه الآية الكريمة بعد ذلك لتستثني الراسخين في العلم ، والذين آمنوا بالله ورسله، ولتمدح الذين حافظوا على الصلاة ، وأدوا الزكاة، وأقروا بالحساب والجزاء يوم القيامة، وبشرتهم بأن الله - تعالى - سيؤتيهم أجرا عظيما؛ لأنهم استقاموا على أمر الله، ولم يرتكبوا ما نهى الله عنه، كما كان حال الكثيرين من اليهود في كل زمان ومكان.

فالضمير في قوله تعالى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعود على بني إسرائيل الذين سبق الحديث عنهم.

هذه بعض الآيات الكريمة التي نوهت بشأن القلة المؤمنة المستقيمة من بني إسرائيل ، واستثنتهم من الذم والتوبيخ الذي دمغت به الكثرة الكافرة من اليهود، وذلك للتفريق بين مصلحهم ومفسدهم ، ولتسجيل الحسنة لصاحبها ، والسيئة على فاعلها ، حتى يأخذ كل فريق ما يستحقه من مدح أو ذم، بالعدل والصدق .

ثالثا : مجادلتهم بالتي هي أحسن :

أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أمثل الطرق في محاجة أهل الكتاب من حيث الأسلوب والموضوع ، فمن حيث الأسلوب أوصى بأن يكون أسلوبنا معهم في الجدال هادئًا حسنا، ماداموا غير متعنتين ظالمين .

ومن حيث الموضوع أوصى بأن يكون جدالنا معهم قائما على إقناعهم بأن دين

الله واحد ، وأن إلهنا وإلههم واحد ، وأننا لا نبغى منهم إلا أن يتبعوا الحق الذى اتبعناه ، وأن يتركوا العناد والجحود.

وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة العنكبوت : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : عليكم يا معشر المسلمين - ألا تحاجوا أهل الكتاب إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأقوها ، وهى أن تكون محاجتكم لهم بالرفق واللين ، لا بالخشونة والإغلاظ عليهم ، لأنهما يؤديان إلى المعاندة والصد عن سبيل الله ، أما الرفق واللين فمن شأنهما أن يعينا على المسالمة والمصافاة.

ثم استثنى القرآن الكريم من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : جادلوا أهل الكتاب جميعًا بالطريقة التى هى أمثل الطرق ، إلا الذين ظلموا منهم بالإفراط فى الإعتداء والعناد ، ولم ينفع معهم الرفق واللين ، فاستعملوا معهم الغلظة ، وعاملوهم بالطريقة التى ترونها مناسبة لردهم عن ظلمهم ، وكفيلة بصيانة حرمة دينكم ،وأنفسكم، وأموالكم ، وبلادكم.

ثم ضرب القرآن مثلا للمجادلة بالتي هي أحسن فقال تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : جادلوهم بالتى هى أحسن إلا الظالمين منهم فأغلظوا عليهم وقولوا لهم إذا جادلوكم فى شأن دينكم : آمنا بالذى أنزل إلينا وهو القرآن الكريم وبالذى أنزل إليكم وهو التوراة والانجيل ، وآمنا بأن إلهنا وإلهكم واحد هو الله رب العالمين ، ونحن له مسلمون خاضعون.

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى :إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملا معلقًا على شرط ، وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . فقد أخرج البخارى، عن أبى هريرة - رضى الله عنه ،قال : (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل

الكتاب ولا تكذبوهم ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

فهذه الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، وألا يغلظوا القول إلا للظالمين المعاندين منهم ، وفى ذلك ما فيه من التسامح معهم، والرفق بهم ، وعدم الإساءة إليهم.

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى، منها قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ .

رابعًا : إباحة طعامهم والتعامل معهم والزواج منهم :

من مظاهر سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، أنه أجاز أكل طعامهم ،وأحل ذبائحهم، والتعامل معهم بالبيع والشراء ،وغير ذلك من المعاملات.

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت :« اشترى رسول الله ﷺ من يهودى طعامًا إلى أجل ثم رهن درعًا له من حديد » (١) .

وعنها قالت : «توفى رسول الله ﷺ . ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير (٢) .

كذلك رخصت الشريعة الإسلامية للمسلمين أن يتزوجوا من نسائهم دون نساء المشركين عبدة الأوثان . قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (٥) ﴾ .

والمراد بالمحصنات: العفائف ،أو الحرائر ، وقوله تعالى ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ صريح فى جواز الأكل من طعامهم وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ واضح فى جواز نكاح نسائهم.

---

(١) صحيح البخارى « باب الرهن جـ ٢ ص ١٧٦ ».

(٢) صحيح البخارى ما قيل فى درع النبى ﷺ جـ ٤ ص ٤٤ .

وقد تزوج عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ : نائلة بنت القرافصة الكلبية، وهى نصرانية على نسائه ، وتزوج حذيفة يهودية ، وتزوج طلحة يهودية من أهل الشام.

قال ابن قدامة : ليس بين أهل العلم اختلاف فى حل حرائر أهل الكتاب، وممن روى عنه ذلك ، عمر ، وعثمان ، وطلحة ، وحذيفة بن اليمان وسلمان ، وجابر ، وغيرهم من الصحابة ، ثم قال : قال ابن المنذر : « ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك »[1] .

وقد أثبتت الشريعة الإسلامية للزوجة الكتابية حقوق الزوجية، التى أثبتتها لغيرها، كإعطائها حق القَسم بينها وبين الزوجة المسلمة ، والإنفاق عليها من حلال، ومعاشرتها بالمعروف ، وعدم إكراهها على ترك دينها.

وهذا كله من أكبر الشواهد على سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، ومودته لهم، ما داموا لم يسيئوا إلى الدولة الإسلامية ، ولم يستغلوا هذه السماحة، أو المودة فى إلحاق مضرة بالمسلمين.

خامساً : قبول الجزية منهم دون المشركين :

لم يقبل الإسلام من المشركين عبدة الأصنام الجزية ، بل خيَّرهم بين أمرين القتال أو الدخول فى الإسلام ، ولكنه قبل من أهل الكتاب أن يعيشوا فى ذمة المسلمين، وأن يبقوا على معتقداتهم ،دون إكراه لهم على الدخول فى الإسلام ، بشرط أن يسهموا فى تمكين الدولة الإسلامية من القيام بواجبها ، عن طريق دفع الجزية لها، مقابل حمايتهم ورعايتهم.

فالجزية فى شريعه الإسلام ما هى إلا حق، يأخذه الحاكم المسلم من أهل الكتاب نظير واجب عليه نحوهم ، وهو صيانة أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم، من التعرض لها بسوء.

وقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ معنى القسوة، والإذلال، وامتهان الكرامة ، وهذا الفهم خاطىء؛ لأن المقصود من الآية الكريمة ، أن يدفع أهل الكتاب مقدارا معينا من أموالهم حتى يكونوا

---

(١) المغنى لابن قدامة جـ ٧ ص ٥٠ .

مساهمين في بناء الدولة الإسلامية، التي ترعى شئونهم ، وأن يكونوا خاضعين لها، غير متمكنين من الثورة عليها ، أو الإضرار بمصالحها، أو الإقلاق لأمنها.

وهذا الخضوع التام منهم ، لأحكام الدولة الإسلامية، التي يعيشون في حمايتها، أمر تفرضه كل دولة على رعاياها، ومن تحت حمايتها ،حتى تستطيع أن تباشر وظيفتها الإصلاحية بأمان وطمأنينة، وحتى لا يتعرض كيانها للهدم وسلطانها للضعف ، وكرامتها للامتهان ، واستقرارها للتدهور والاضطراب.

هذا ومن مظاهر سماحة الإسلام مع أهل الكتاب أنه لم يوجب الجزية إلا على رجالهم ،دون نسائهم، وصبيانهم ، وأنه لم يأخذ الجزية إلا ممن يقدر على دفعها ، أما من ثبت عجزه عن دفعها فلا يكلف بها .

روى أبو يوسف في كتاب الخراج أن عمر ـ رضي الله عنه ـ مر على قوم أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام فقال : ما شأن هؤلاء؟ فقيل له إنهم أقيموا في الجزية فكره ذلك ، وقال : « هم وما يعتذرون به » قالوا :يقولون ما نجد ، قال : دعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون ثم أمر بهم فخلى سبيلهم »(١) .

ومن وصية أبي يوسف ـ رحمه الله ـ لخليفة المسلمين في عهده : قوله : « وينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك، وابن عمك محمد ﷺ حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقاتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من ظلم معاهدا أو كلفة فوق طاقته فأنا حجيجه) . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم وبعهودهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم) (٢) .

سادسا : معاملتهم بمقتضى قاعدة لهم ما لنا وعليهم ما علينا :

إذا ارتضى أهل الكتاب أن يعيشوا في ظل الدولة الإسلامية، وحمايتها ، والتزموا معها طريقة المسالمة ، فلم يعلنوا عليها حربا ، ولم يظاهروا عليها عدوا،

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٢٥ .

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٣٤ المطبعة السلفية.

يقاتلها، ولم يبدر منهم ما يمسها بسوء، فإن الإسلام فى هذه الحالة يأمر أتباعه أن يعاملوهم بمقتضى هذه القاعدة العادلة الرحيمة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) .

وهاك بعض الحقوق التى ظفر بها أهل الكتاب بناء على هذه القاعدة الذهبية .

(أ) صيانة دمائهم وأموالهم وأعراضهم من الاعتداء عليها، وتساويهم مع المسلمين فى وظائف الدولة وأعمالها ،ما داموا أمناء على مصالحها ،مؤدين لوظائفهم وأعمالهم، على الوجه الأكمل، وما دامت تلك الوظائف، أو الأعمال لا مضرة تترتب عليها، إذا تولاها غير المسلمين ،والتاريخ الإسلامى فى مختلف عهوده حفظ لنا أسماء عدد كبير من أهل الكتاب، الذين شغلوا مناصب مهمة فى الدولة الإسلامية. وإذا كان بعض حكام المسلمين قد عزل بعض الكتابيين من وظائفهم فسببه إضرارهم بالمناصب، التى أسندت إليهم .واستغلالهم إياها فيما يعود بالشر على الأمة الإسلامية.

(ب) العطف عليهم . والرأفة بهم عند العجز :

قال الإمام أبو يوسف: وحدثنى عمر بن نافع، عن أبى بكر ، قال مر عمر -رضى الله عنه- بباب قوم، وعليه سائل يسأل . وكان شيخا ضرير البصر فضرب عمر عضده . وقال : من أى أهل الكتاب أنت؟ . فقال : يهودى، قال: فما ألجاك إلى ما أرى ؟قال : أسأل الجزية، والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده . ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له : انظر هذا وضرباءه . فوالله ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ والفقراء: هم الفقراء المسلمون . وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ثم وضع عنه الجزية، وعن ضربائه . قال أبو بكر : «أنا شهدت ذلك من عمر، ورأيت ذلك الشيخ[1] ».

أما بعد : فهذا موقف الإسلام العادل من أهل الكتاب ،وذلك هو منهاجه الواضح السليم ،فى دعوتهم إلى الإسلام ، وتلك هى بعض مظاهر إنصافه لهم . وسماحته معهم، ومودته إياهم . ولقد كان الواجب على بنى إسرائيل، وهم أهل كتاب -أن يقابلوا الإحسان بالإحسان، وأن يتبعوا النبى ﷺ فيما يدعوهم إليه .

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٢٦ المطبعة السلفية.

ولكن اليهود لم يكونوا عند حسن الظن بهم، فلقد وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المشكك فى صحتها . المعادى لرسولها ﷺ، المثير للفتن بين أتباعها . وسلكوا فى سبيل القضاء عليها كل مسلك.

وسنتكلم فى الفصل التالى - إن شاء الله - عن مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين .

الفصل الثالث

مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين

* * *

بينا فى الفصل السابق ، بعض الوسائل التى اتبعها القرآن الكريم، لدعوة بنى إسرائيل، إلى الدخول فى الإسلام ، وسقنا بعض النماذج التى تدل على إنصاف الإسلام لهم ، وسماحته معهم ، ومودته إياهم.

وقلنا :إن اليهود لم يقابلوا هذه المعاملة الكريمة بمثلها ، بل سلكوا كل طريقة للقضاء على الدعوة الإسلامية.

وفى هذا الفصل سنذكر بعض المسالك السيئة ،التى اتبعها اليهود، لكيد الإسلام والمسلمين ،بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وقبل أن نتكلم عن مسالكهم الخبيثة ، نحاول أن نجيب على الأسئلة الآتية :

أولا : هل كان اليهود فى المدينة على علم بظهور النبى ﷺ وبأخباره قبل أن يهاجر إليها؟.

ثانيا : كيف استقبل اليهود النبى ﷺ عند وصوله إلى المدينة مهاجراً ؟

ثالثا : لماذا سالم اليهود ـ فى مجموعهم ـ الدعوة الإسلامية أول الأمر، ثم ناصبوها العداء بعد ذلك ؟

للإجابة على السؤال الأول نقول :

إن اليهود فى المدينة لم يكونوا يجهلون ظهور النبى ﷺ فى مكة، للأسباب الآتية :

أولا : كان بعض اليهود يأتون إلى مكة، لأشغال تجارية،وأعمال مختلفة،وأهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق،التى كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها،حين زفافهن،وكان سكان المدينة ـ أيضا ـ من الأوس والخزرج يأتون إلى مكة؛ لقصد التجارة،والطواف بالكعبة،وغير ذلك من أنواع الأعمال.

ولا شك أن هذه الاتصالات من تلك الأطراف ، كان يتخللها الحديث عن الدين الجديد الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ .

ثانيا : سبق لقريش ـ خلال وجود الرسول ـ ﷺ بينهم أن بعثت (النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط) إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ﷺ وصفا له صفته ، وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل .

سلوه : عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب ؟ .

وسلوه : عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ .

وسلوه :عن الروح ما هى ؟.

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وأن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فيه ما بدا لكم.

فانصرف (النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط) حتى قدما مكة ، وأخبرا قريشا بما سمعا من أحبار اليهود ، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد :

أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، وقد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هى ؟.

فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن ـ أى :لم يقل إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا،ولا يأتيه جبريل ـ عليه السلام ـ حتى أرجف أهل مكة،وقالوا :

وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ،قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه ،وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه ، وشق عليه ،ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ من الله بسورة أصحاب الكهف ،

فيها معاتبته إياه ،على حزنه عليهم ، وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف وجاءه بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) .

ثالثــا : كان اليهود فى المدينة إذا ما نشب بينهم وبين الأوس والخزرج نزاع ، هددوهم بقولهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه ، وإننا سنتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

الاستفتاح : طلب الفتح، أى: النصر : قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ .

فمعنى : يستفتحون : يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوهم فيقولون : اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان،والذى نجد نعته وصفته فى التوراة،فلما جاءهم هذا النبى الذى استنصروا به،لم يتبعوه،وكفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

رابعـا : كان النبى ﷺ فى السنوات القليلة التى سبقت الهجرة يلتقى ، خلال عرض دعوته على القبائل فى موسم الحج ، بأفراد من الأوس والخزرج، وكان عندما يدعوهم إلى الإسلام ، ينظر بعضهم إلى بعض، ويقول : (والله إنه للنبى الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقُنكم إليه) .

وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل النبى ﷺ إلى أهل المدينة (مصعب بن عمير) لكى يقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فانتشر الإسلام فى كثير من بيوت المدينة .

ثم كانت بعد ذلك بيعة العقبة الكبرى، التى اشترك فيها اثنا عشر نقيبا، من نقباء الأوس والخزرج ، والتى قال فيها الزعيم الخزرجى (أبو الهيثم بن التيهان) لرسول الله ﷺ :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٧١ طبعة الحلبى.

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(يارسول : إن بيننا وبين الرجال ـ أى اليهود ـ حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا) ؟

فتبسم الرسول ﷺ، وقال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم [1] أنتم منى، وأنا أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

والأمر الذى يهمنا تأكيده هنا ، هو أن اليهود لم يكونوا يجهلون تلك المبايعات التى تمت بين الرسول ﷺ، وبين أهل المدينة قبل الهجرة ، ولم يكونوا غافلين عن اتجاه سير الدعوة الإسلامية صوب يثرب، وانتشارها بين أهلها .

وكيف يجهلون والحال أن الإسلام لم ينتشر خفية فى المدينة؟ ، فها هو ذا (مصعب بن عمير) يدعو الناس إلى الله ورسوله، أمام الجميع ، وها هو ذا ينتقل من حى إلى حى، ومن بطن إلى بطن،والغبطة تملأ فؤاده ، لأنه يرى أن الدعوة الإسلامية قد وجدت أرضا خصبة بين أهل المدينة، وأن أتباعها فى يثرب يزداد كل يوم عددا وسلطانا .

ولكن :ما هى أهم الأسباب التى جعلت الأوس والخزرج يتقبلون دعوة الإسلام قبولا حسنا ، ويسارعون إلى الدخول فيها بقلوب منشرحة ؟.

للإجابة على هذا السؤال نقول : إن اختلاط الأوس والخزرج بيهود يثرب، كان له أثر روحى عميق ، فقد كان اليهود، وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية ، يعيبون عليهم اتخاذهم الأوثان آلهة ، وكانوا يتوعدونهم بظهور نبى جديد، يتبعونهم فيقتلونهم على يديه ، ويجعل ملك العالم تحت سلطانهم ، فهذه المناقشات الدينية ـ فضلا عن الفتن والحروب، التى أنهكت الأوس والخزرج، بسبب دس اليهود بينهم ـ جعلت سكان يثرب يستقبلون الدعوة الإسلامية استقبالا طيبا ، ويرون فيها، وفى الداعى إليها ﷺ المنقذ لهم مما هم فيه، من شقاق واضطراب .

وبذلك نستطيع أن نقول فى نهاية الجواب على السؤال الأول : إن اليهود لم يكونوا على علم فقط بظهور النبى ﷺ وبأخباره، بل إن وجودهم بالمدينة وضواحيها ، كان من أهم الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فيها ، وإن

---

(١) الهدم :إهدار دم القتيل : يريد إن طلب دمكم فقد طلب دمى ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمى؛ لاستحكام الألفة بيننا .

كان ذلك بطريقة غير مباشرة، ولا مقصودة منهم ، كما يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون .

بعد هذا نجيب على السؤال الثاني وهو : كيف استقبل اليهود النبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة؟ ، فنقول :

في يوم من أيام التاريخ المشهودة ، وبينما المسلمون في المدينة، كانوا ينتظرون كعادتهم قدوم النبي ﷺ بعد أن ترامت الأخبار إلى مسامعهم بهجرته إليهم ، صاح بهم يهودي، وقد لمح الركب النبوي (يا بني قَيْلَة هذا جدُّكم قد جاء [1]) .

أخرج البخاري في حديث الهجرة :« أن المسلمين في المدينة حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرَّة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما إلى أهليهم بعد أن طال انتظارهم فلما آوَوْا إلى بيوتهم ، أوفَى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه ،مُبيَّضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته :

يا معشر العرب هذا جَدُّكم الذي تنتظرونه ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوْا رسول الله بظهر الحَرَّة [2] .

واشترك اليهود ـ في مجموعهم ـ مع المهاجرين والأنصار في حسن استقبال صاحب الدعوة ﷺ ـ وإنما قلنا ـ في مجموعهم ـ لأن الأخبار الصحيحة حدثتنا أن بعض اليهود قد تنكر للدعوة الإسلامية ، وتوجس خيفة من صاحبها ـ ﷺ منذ اليوم الأول من الهجرة .

فعن صفية بنت حي بن أخطب ـ رضي الله عنهاـ قالت : (كنت أحبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما في ولد لهما قط، وأهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم النبي ﷺ ونزل قُباء في بني عمرو بن عوف ، غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر مغلسَيْن ، قالت : فو الله ما رجعا إلا مع مغيب الشمس ، قالت : فرجعا إلينا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيني،فهشِشتُ إليهما كما كنت أصنع،

---

(١) نسب الأوس والخزرج الذين يجمعهم أب واحد إلى أمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة ، ولذا كانوا يسمون بأبناء قيلة .

(٢) صحيح البخاري « باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة » جـ ٥ ص ٧٧ طبعة صبيح .

فو الله ما نظر إليَّ واحد منهما ، مع ما بهما مَن الغم قالت : وسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال نعم والله قال : أتعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته ـ والله ـ ما بقيت) [١] .

وذكر موسى بن عقبة ،عن الزهرى أن أبا ياسر بن أحطب، لما قدم النبى ﷺ المدينة ، ذهب إليه وسمع منه وحادثه ، ثم رجع إلى قومه فقال : يا قوم أطيعونى فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه ، فانطلق أخوه حيي ابن أخطب ـ وهو يومئذ سيد اليهود، وهما من بنى النضير ـ فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ، ثم رجع إلى قومه ـ وكان فيهم مطاعا ـ فقال : أتيت من عند رجل ـ والله ـ لا أزال له عدوا أبدا ، فقال له أخوه أبو ياسر :يا ابن أمى ، أطعنى في هذا الأمر، واعصنى فيما شئت بعده لا تهلك،قال : لا والله لا أطيعك أبدا واستحوذ عليه الشيطان، واتبعه قومه على رأيه،قلت :أما أبو ياسر فلا أدرى ما آل إليه أمره، وأما حيى فشرب عداوة النبى ﷺ ولم يزل ذلك رأيه حتى هلك [٢] .

فمن هذين النصَّين نرى أن بعض اليهود قد أضمروا سوءا للدعوة الإسلامية منذ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة ، ومع ذلك فإن النبى ﷺ قد تغاضى عن عداوة هذا البعض دون أن يجهلها ، وعمل على نشر روح التعاون والمودة مع اليهود ، فتحدث إلى رؤسائهم وتحدثوا إليه ، وتقرب منهم وتقربوا منه ، وأباح للمسلمين أن يؤاكلوهم وأن يتزوجوا من نسائهم ، وفرح اليهود عندما رأوا النبى ﷺ والمسلمين يستقبلون فى صلاتهم بيت المقدس، الذى هو قبلة بنى إسرائيل فى صلاتهم.

وقد أراد النبى ﷺ بجانب حسن معاملته لهم ، أن يزيد فى أسباب التعاون وتبادل المنافع معهم ، فعقد بينه وبينهم معاهدة عادلة ، أمَّنهم فيها على أنفسهم، وأموالهم ،وعقائدهم ،وضمنها ما فيها خيرهم ،وخير المسلمين ، **قال الإمام ابن كثير : قال محمد بن إسحاق** . وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم [٣] وهذا نصه :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٤٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٢٤.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين، من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ ـ المهاجرون من قريش على رِبعتِهم [١] ، يتعاقلون بينهم ، وهم يَفدُون عَانيهم [٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ ـ وبنو عوف على رِبعَتهم ، يتعاقلون ، معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف ،والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف،والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف ،والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانِيَها بالمعروف ،والقَسط بين المؤمنين .

٨ ـ وبنو النجار على رِبعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين .

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف ،والقسط بين المؤمنين .

١٠ ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف ،والقسط بين المؤمنين .

١١ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف ،والقسط بين المؤمنين .

---

(١) ربعتهم : امرهم الذى كانوا عليه.

(٢) العانى : الأسير.

١٢ ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفرَحًا [١] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وألا يُحالف مؤمن مولًى مؤمنٍ دونه .

١٣ ـ وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة[٢] ظلم ،أو إثم أو عدوان، أو فسادٍ بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان وَلَدَ أحدهم .

١٤ ـ ولا يقتُل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا يَنصر كافرًا على مؤمن.

١٥ ـ وأن ذمة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ ـ وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم .

١٧ ـ وأن سلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن، فى قتال فى سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم.

١٨ ـ وأن كل غازية غزت معنا يُعقب [٣] بعضها بعضا.

١٩ ـ وأن المؤمنين يبىء [٤] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

٢٠ ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفسا ولا يَحول دونه على مؤمن.

٢١ ـ وأنه من اعتبط [٥] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قوَد [٦] به إلا أن يرضى ولىُّ المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢ ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثًا أو يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

---

(١) المفرح هو من أثقله الدين والغرم فزال فرحه .

(٢) الدسع : الدفع والمعنى : طلب دفعًا على سبيل الظلم او ابتغى عطية على سبيل الظلم .

(٣) أى يكون الغزو بينهم نوبا يعقب بعضهم بعضا فيه.

(٤) من أباءا القاتل بالمقتول إذا قتلته به .

(٥) اعتبطه : قتله بلا جناية توجب قتله.

(٦) فإنه قود : أى : فان القاتل يقاد به ويقتل.

٢٣ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فأن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ.

٢٤ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥ - وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦ - وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ - وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ - وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ - وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ - وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ - وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهله.

٣٢ - وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ - وأن لبني الشطيْبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البردون الأثم.

٣٤ - وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ - وأن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦ - وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتَكَ فبنفسه، وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبرّ هذا.

٣٧ - وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبردون الإثم، وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

٣٨ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(١) لا يوتغ: لا يهلك ويفسد.

٣٩ ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١ ـ وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن من أهلها.

٤٢ ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث، أو اشْتجَار يُخَاف فَسَادُه، فإن مرده إلي الله، وإلى محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وأن الله علَى أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه.

٤٣ ـ وأنه لا تُجارَ قريشٌ ،ولا من نصرها.

٤٤ ـ وأن بينهم النصر على من دَهِمَ يثرب.

٤٥ ـ وإذا دعُوا إلى صلح يصالحونه ،ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

٤٦ ـ وأن يهود الأوس مواليهم ،وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الأثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره.

٤٧ ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ،ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جارٌ لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ(١).

هذه هى المعاهدة التى عقدها النبى ﷺ بين طوائف اليهود؛ وقد تضمنت كثيرا من المبادئ السامية، والأسس التى يجب أن تقوم عليها العلاقات بين الأمم، وهذه بعض الأمور التى يمكن أن تستخلص منها.

أولا: نصت المعاهدة على كفالة الحرية الدينية لليهود، وأباحت لهم أن يقوموا بأداء شعائر دينهم، بدليل أن من بين بنودها (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

ثانيا: فى المعاهدة روح اجتماعية عالية، فهى تقرر أن من خالف نصا من نصوصها، واعتدى على أحد ممن تكفل لهم الأمن والسلامة، فإن أهل الصحيفة

---

(١) سيرة النبى ﷺ لابن هشام . جـ ٢ ص ١١٩ المكتبة التجارية.

كلهم حرب عليه ، وفى ذلك اعتراف صريح بشخصية الجماعة ، وأن لها حقوقًا على الأفراد وعليها واجبات نحوهم ، وأن سلامة المدينة يشترك فى تحقيقها جميع سكانها .

ثالثًا : المعاهدة تنطق برغبة المسلمين فى التعاون الصادق مع اليهود ، من أجل نشر الطمأنينة، والأمن فى المدينة، والضرب على أيدى العادين ،ومدبرى الفتنة أيًا كان دينهم، أو جنسهم بدون تفرقة ،أو تمييز بين أحد ، وإذا حصل عدوان خارجى على المدينة ،فالمسلمون واليهود يشتركون فى الدفاع عنها .

رابعًا : اشتملت المعاهدة على كثير من المبادئ الإنسانية السامية ، كنصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة ، والتعاون على دفع الدية ، وافتداء الأسرى ، ومساعدة المدين ، إلى غير ذلك من المبادئ ،التى تشعر أبناء البلدة الواحدة كأنهم أسرة واحدة .

خامسًا : نصت المعاهدة على ما كان بين المسلمين وبين قريش من عداوة حينئذ، وحرمت على من اشترك فيها من مسلمين أو يهود ، موالاة قريش أو مناصرتها ، أو إيواء أحد منها ، وأن منْ فعل ذلك فعليه لعنة الله، وغضبه يوم القيامه ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

سادسًا : نصت الصحيفة على وجوب اشتراك اليهود مع المسلمين فى دفع ما عليهم من نفقات فى حالة الحرب ، كما نصت على وجوب مؤازرتهم ومناصرتهم للمسلمين بكل طريقة ممكنة ، فقد جاء فيها (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصر على من دهِم يثرب) .

سابعًا : نصت الصحيفة على أن كل أمر يختلف فيه أهلها ، يكون مرد الحكم فيه إلى النبى ﷺ لأنه صاحب السلطة العليا فى المدينة .

ثامنًا : تضمنت الصحيفة أن من ارتكب إثمًا يوجب عقوبة نفذت عليه ، وأن اشتراكه فى هذه الصحيفة لايعفيه من العقوبة، ومن بين نصوصها (وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم) .

تاسعًا : من المكاسب التى نالها المسلمون عن طريق هذه الصحيفة ، أنهم أصبحوا أمام عدو واحد هو قريش، لأن الصحيفة أمّنتهم جانب اليهود، لو أنهم -

أى اليهود ـ حافظوا على ما اشتملت عليه من مبادئ ، ولم ينقضوها بعد زمن قليل من كتابتها .

عاشراً : ومن المكاسب التى ظفر بها اليهود بسبب هذه المعاهدة ، حماية المسلمين لهم من أى اعتداء عليهم ، فقد نصت المعاهدة على (أنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ،ولا متناصر عليهم) ولكن اليهود لم يحافظوا على هذه المكاسب؛ لعدم وفائهم بعهودهم .

هذا ، وقد علق الأستاذ عبد الرحمن عزام على هذه الصحيفة بقوله :

(هذه المعاهدة من أنفس العقود الدولية، وأمتعها، وأحقها بالنظر والتقدير، من كافة الناس ، وما أولاها بأن تكون نبراساً للمسلمين فى أصول العلاقات الدولية بينهم، وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى ، هذا فضلا عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة .

هذه المعاهدة تعاقد فيها المسلمون مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى، فنشأ عن ذلك أول ميثاق (لجمعية أمم) أساسه النصر للمظلوم، والنصح والنصيحة، والبردون الأثم ، وحرمة الأوطان المشتركة ، وحرمة من يدخل فى الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم .

ولقد سبق الإسلام بهذه المعاهدة عهد (عصبة الأمم) الحديثة ، بأكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وهكذا وضع الرسول ﷺ الأساس المتين للدولة العالمية ، وللمعاملات الدولية ،فى هذا الميثاق على أساس الحرية للمشتركين فيه، وعلى مبدأ الاستقلال)(١) .

ومن كل ما تقدم نستخلص :أن اليهود كانوا على علم بأخبار الدعوة الإسلامية فى مكة، خصوصا فى السنوات الأخيرة التى سبقت الهجرة ، وأنهم ـ فى مجموعهم ـ قد استقبلوا النبى ﷺ عند وصوله إلى المدينة استقبالاً فيه مجاملة ، وأن عهدا ـ ليس بالطويل ـ من العلاقات الهائدة بينهم وبين المسلمين قد ساد المدينة بعد الهجرة .

بعد ذلك نجيب على السؤال الثالث وهو : لماذا سالم اليهود الرسول ﷺ فى

---

(١) من كتاب الرسالة الخالدة للأستاذ عبد الرحمن عزام ـ رحمه الله ـ ص ٦٥ .

الشهور التى أعقبت الهجرة ؟ ثم لما ناصبوه بعد ذلك الكيد والعداء بشتى ألوانهما وصورهما ؟

للإجابة على الشق الأول من هذا السؤال نقول :

أولا : اليهود لم يشتركوا فى الترحيب بالرسول ﷺ عند مقدمه إلى المدينة حبًا له ، وإنما اشتركوا فى الترحيب به أملا منهم فى استدراجه إليهم واستمالته إلى حلفهم، لكى يستعينوا به وبمن معه من المؤمنين على تأليف قوة فى جزيرة العرب يقاومون بها النصارى الذين أجلوهم عن (فلسطين) ومزقوهم شر ممزق،وكانوا يعتقدون ان الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لن يرضى عن تثليث المسيحية، فلابد أن يعاونهم المسلمون فى القضاء على المسيحية التى أخرجتهم من أرض الميعاد.

ثانيًا : اليهود ما سالموا النبى ﷺ فى الشهور القليلة التى أعقبت الهجرة إلا لأنهم كانوا يعتقدون أنه سيتركهم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم رسالته ، وأمنع من أن تنالهم دعوته ، وأكبر من أن ينضموا تحت رايته ، وكانوا يعتقدون أنه لن يأتى بتعاليم جديدة تخالف ما فى التوراة ، ولا يطعن فيها بتحريف أو تغيير ، بل لعلهم كانوا ينتظرون منه أن ينضم إليهم ، خصوصاً بعد أن رأوه يصلى إلى قبلتهم ، ويصوم يوم عاشوراء معهم ويقول : « نحن أحق بموسى منهم » ويعلن إيمانه بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر.

ثالثًا : اليهود عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، كانوا فى حالة شديدة من التفرق والشقاق ، وهذه الحالة السيئة التى كانوا عليها ، جعلتهم لا يستطيعون المبادرة بإعلان العداوة للرسول ﷺ ويرون من الأنفع لهم تأجيل المجاهرة بالعداء للدعوة الإسلامية إلى الوقت المناسب الذى يختارونه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين طوائف اليهود من تنازع وعداوة ،فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين إجمالا :

أن الله تعالى قد أخذ موثقًا على بنى إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضا، وألا يخرج بعضهم بعضا من داره ، وقد أقروا بذلك واعترفوا ، ولكنهم بعد أخذ الميثاق عليهم ، قتل بعضهم بعضا، وأخرج بعضهم بعضا من داره ، وذلك أنهم كانوا إذا حصل قتال بين الأوس والخزرج ، انضمت طائفة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج، وقاتلوا معهم ، وانضمت طائفة بنى قريظة إلى الأوس وقاتلوا معهم ، فكان يترتب على هذا أن يقاتل اليهود بعضهم بعضا ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها بذل اليهود جميعًا أموالهم لافتداء أسراهم الذين وقعوا فى أيدى الأوس والخزرج فكان العرب يعيرونهم ويقولون لهم :

كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم . فكان اليهود يقولون : قد حرم علينا قتالهم ،ولكنا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا ، فوبخهم الله تعالى بقوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

رابعًـــا : بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة تم الإخاء بين الأوس والخزرج ، وجمعتهم الدولة الإسلامية تحت لوائها بعد أن كانوا متفرقين وأصبحوا هم أصحاب الكلمة العليا فى المدينة وجددوا عهودهم مع النبى ﷺ بأن يدافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم ، وإزاء هذه القوة الشاملة التى طرأت على الأوس والخزرج بعد دخولهم فى الإسلام ، عجز اليهود فى المدينة عن مواجهة النبى ﷺ عند هجرته بالعداء السافر ، وآثروا أن يبدءوا حربهم معه بطرق ملتوية ، من أهمها حرب الإرجاف، والتشكيك، وإثارة المجادلات الدينية ، والمخاصمات الكلامية، كما سنبين ذلك قريبًا.

هذه هى أهم الأسباب التى جعلت اليهود يسالمون الدعوة الإسلامية فى الشهور الأولى ،التى أعقبت الهجرة ، ويقفون منها موقف المترقب المترصد لما سيصير إليه شأنها ، ولكن أتراهم يستمرون على هذه الحالة، ويتركون الدعوة الإسلامية تنتشر، وسلطانها يمتد ، مكتفين بالأمن فى جوارها ذلك الأمن الذى يزيد تجارتهم سعة ، وثروتهم ربحا ؟ كلا إنهم ما استمروا على هذه الحالة، وماتركوا الدعوة الإسلامية تأخذ طريقها الطبيعى تحت الشمس، بل بدأت المخاوف تساور نفوسهم،

والقلق يقض مضاجعهم ، والهموم تملأ جوانحهم والتفكير العميق فى الكيد للإسلام والمسلمين يسيطر على عواطفهم وعقولهم ، وذلك لأنهم رأوا تيار الحوادث يسير فى طريق مضاد لأطماعهم وأهوائهم للأسباب الآتية :

أولا : أحزنهم أن رأوا تعاليم الإسلام قد أقبل عليها الكثيرون ، وأن المسلمين يزيدون ولاينقصون ، وأن كل يوم يمر عليهم يزيدهم قوة إلى قوتهم ، ويكسبهم استقلالا فى العمل والتفكير.

ثانيا : حزّ فى نفوسهم ما شعروا به من أن عظمتهم المادية والسياسية المبنية على تفرق العرب ، وتمزق وحدتهم ، قد بدأت تنهار وتتلاشى ، بعد أن دخل الأوس والخزرج فى الإسلام ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ،متحابين ،متعاونين ، بعد أن كانوا فى الجاهلية متنازعين .

ثالثًا : أدركوا أن طمعهم فى ضم المسلمين إليهم ليزدادوا بهم قوة على محاربة النصارى فى جزيرة العرب من باب الأمانى والأوهام ، لأن الإسلام ليس فى تعاليمه ما يدل على أنه تابع لشريعة موسى - عليه السلام - وإن كان لايعارض الصحيح منها - بل هو فى كل يوم يظهر بمظهر التجديد والاستقلال ، ولأن المسلمين فى المدينة قد أصبحوا بعد الهجرة يكوّنون دولة لها شخصيتها المعنوية المستقلة ، وهم - فى حربهم وسلمهم وغير ذلك من الشئون - لايسيرون إلا على حسب توجيهات دينهم عن طريق نبيهم ، وليسوا على استعداد لأن يسيروا فى ركاب اليهود أو غيرهم.

رابعًا : اليهود بطبيعتهم أحرص الناس على حياة ، وأجشعهم فى جمع المال ، ولقد شعروا بأن حركة التجارة التى كانوا يحتكرونها فى المدينة منذ مئات السنين، ويستغلونها للكسب الحرام ، قد بدأت تخرج من أيديهم ، بعد أن نافسهم فيها المهاجرون المسلمون، الذين لا يقلون عنهم خبرة فى الشئون المالية والاقتصادية ، وهذه المنافسة جعلتهم يبذلون نهاية جهدهم فيما ينفعهم ويغنيهم عن الاستقراض من اليهود.

خامسًا : أفزعهم أن رأوا النبى ﷺ لم يجعلهم خارج نطاق دعوته ، وإنما دعاهم إلى الدخول فى الإسلام كغيرهم ممن دعا ، لأن رسالته عامة للناس جميعا ، ومرد فزعهم من توجيه الدعوة إليهم ، زعمهم الباطل أن الشعب الإسرائيلى فَذٌّ فى

النوع الإنسانى ، وأنه شعب الله المختار من بين سائر الأمم ، وأن من المحال أن يرسل الله رسولا من غيرهم ، وأن يوحى إليه بشرع جديد لا يقتصر فى تعاليمه على ما جاء فى التوراة .

سادسًا : غاظهم أن لمسوا فى شخصية النبى ﷺ المنافس الخطير الذى قضى على امتيازهم الدينى ، وكيانهم الخاص ، ومركزهم الأدبى ، فقد أخذ الناس ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبى ﷺ مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، لأنه رسول من عند الله ، ومن صميم العرب ، وما جاء به فيه السعادة الدينية والدنيوية .

سابعًا : أحزنهم أن شاهدوا تعاليم الإسلام تدعو إلى إحياء روح الأخاء والمساواة بين البشر ، فلا فضل لعربى على أعجمى، ولا لإسرائيلى على غيره إلا بالتقوى ، وأنها قد اجتذبت بعض علمائهم ورؤسائهم إليها ، فها هو ذا حبرهم وابن حبرهم (عبد الله بن سلام) لم يلبث حين اتصل بالنبى ﷺ أن أسلم ، وأمر أهل بيته بأن يسلموا، فأسلموا معه ، ولم يكتف بإعلان إسلامه ، بل وصف اليهود بأنهم قوم بُهت ، وحذر النبى ﷺ من مكرهم وخيانتهم ، فقد أخرج البخارى عن أنس بن مالك ،قال : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف [1] فأتى النبى ﷺ فقال :إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال (أخبرنى بهذه جبريل آنفا) قال جبريل ؟ قال (نعم) قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿ من كان عدوا لجبريل فإنه نزّله على قلبك ﴾ (أما أول أشراط الساعة : فنار تحشُر الناسَ من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة :فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نَزَعَ الولدُ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت) قال :أشهد أن لا إله إلا الله ،وأنك رسول الله .يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ :« أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا خيرُنا وابن خيرنا وسيدُنا،وابن سيدنا قال :« أرأيتم إن أسلم » قالوا :أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله

---

(١) يخترف . أى: يجنى ثمارها.

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا :هو شرُّنا وانتقصوه ،فقال: هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله) (١) .

هذه هى أهم الأسباب التى جعلت اليهود ينشطون لمحاربة الدعوة الإسلامية فى المدينة ، ويسلكون كل طريق لإطفاء نورها ، وإخماد سلطانها . لقد كرهوا أن يثبت أمر هذا الدِّين الحنيف ، وعز عليهم أن يعيشوا فى ظلاله ، وتحت سلطانه ، وإن اكتسبوا الأمن والقرار ، واستفادوا الرواج المادى فى هذا الجوار ، فأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا للنبى ﷺ والمؤمنين ، وعلى أن يقفوا فى وجه الدعوة الإسلامية يصدون عنها ، ويبغونها عوجا ، ويحشدون كل ما لهم من قوة ومال فى سبيل القضاء عليها فى مهدها ، فماذا هم صانعون لبلوغ غايتهم؟ .

للإجابة على هذا السؤال نقول : ليس من قبيل المبالغة أن نؤكد أن اليهود لم يتركوا وسيلة من شأنها تعطيل سير الدعوة الإسلامية إلا ولجوها ، ولم تَلحُ لهم بادرة يستطيعون معها الطعن فى الإسلام ونبيه ﷺ إلا اهتبلوها واستغلوها لصالحهم .

وهذه بعض مسالكهم لكيد الإسلام والمسلمين نذكرها إجمالا ، قبل أن نتكلم عنها تفصيلا :

١ ـ مسلك المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية.

٢ ـ تعنتهم فى الأسئلة لإحراج النبى ﷺ .

٣ ـ محاولتهم الدّس والوقيعة بين المسلمين .

٤ ـ محاولتهم رد المسلمين عن دينهم .

٥ ـ تلاعبهم بأحكام الله ـ تعالى ـ ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ .

٦ ـ تحالفهم مع المنافقين ضد المسلمين .

٧ ـ تحالفهم مع المشركين ضد المسلمين .

٨ ـ إيذاؤهم للرسول ﷺ بالقول القبيح.

---

(١) صحيح البخارى : باب قوله تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾ من كتاب التفسير جـ ٦ ص ٢٣ .
والبهت بضم الهاء والباء جمع بهوت ـ كرسول رسل ـ والبهوت العريق فى الكذب والافتراء.

٩ ـ استهزاؤهم بالدين وشعائره .

١٠ ـ محاولتهم قتل الرسول ﷺ .

أولا : مسلك المجادلات الدينية والمخاصمات الكلامية :

يبدو لنا أن أول طريقة اتبعها اليهود لإيذاء الرسول ﷺ وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين ، هي الإكثار من المجادلات الدينية ، والمخاصمات الكلامية ، فإن الإسرائيلي من طبعه الجدل والمماراة فى قبول الحق ، وقصة أمرهم بذبح بقرة، «وقصة الملأ من بنى إسرائيل، الذين قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله، وغيرهما مما جاء به القرآن الكريم فى شأن لجاجهم ، خير دليل على ما نقول ، ولسنا الآن بصدد تحليل نفسياتهم ، وإنما نحن الآن بصدد إيراد بعض الشواهد والنماذج للمسائل التى دار الجدل حولها ، وبيان أن جدلهم كان صادرا عن سوء نية ، وأنه لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان من أجل إظهار الرسول ﷺ بمظهر العاجز عن مقارعة حججهم ، ومجابهة براهينهم ، حتى يتشكك المسلمون فى صدق نبيهم ﷺ، ويرجعوا عن دين الإسلام، الذى هداهم الله إليه .

ولكن اليهود خابوا فى مسلكهم هذا ،كما خابوا فى غيره ، فقد لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الرد الذى يخرس ألسنتهم ، ويبطل حجتهم ، ويظهر أمر الله وهم كارهون .

وهذه هى بعض الأمور التى جادل اليهود فى شأنها ﷺ نذكرها إجمالا قبل أن نتحدث عنها بالتفصيل :

(أ) جدالهم فى نبوة النبى ﷺ بقصد الطعن فيها .

(ب) جدلهم فى إبراهيم وملته .

(جـ) جدلهم فى نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ

(د) جدلهم فى مسألة النسخ .

(هـ) جدلهم فى مسألة تحويل القبلة .

(و) جدلهم فيما أحله الله، وحرمه من الأطعمة .

وإليك الكلام عن كل مسألة من هذه المسائل بالتفصيل :

(أ) جدالهم النبى ﷺ فى شأن نبوته بقصد الطعن فيها .

حاول اليهود الطعن فى نبوة النبى ﷺ والتشكيك فى صدقه ، لكى ينصرف الناس عن دعوته ، واتخذوا لذلك وسائل متعددة من أهمها :

أولا : تصريحهم بأن محمداً ﷺ ليس هو النبى المنتظر،الذى بشرت به الكتب السماوية ، بعد أن عرفوا صدقه، كما يعرفون أبناءهم ، وقد حكى القرآن الكريم كذبهم هذا فى قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(١) .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - « أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولونه فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ،فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال لهما سلام بن مشكم - أخو بنى النضير - ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله الآية الكريمة »(٢) .

ومعنى الآية الكريمة : وحين جاء إلى اليهود كتاب من عند الله هو القرآن الكريم، مصدق للتوراة التى بين أيديهم ، وكانوا من قبل مجىء محمد ﷺ بهذا القرآن يستنصرون به على أعدائهم ويقولون لهم : سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، ولكنهم بعد أن جاءهم ما عرفوا أنه حق ، ومطابق لما عندهم من صفات له فى كتبهم ، كفروا به لأنه من العرب وليس من اليهود ، فلعنة الله على الكافرين ، الذين يجحدون الحق بعد أن تبين ، ويكتمونه عن تعمد وإصرار .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبختهم على كذبهم ، ومحاولتهم الطعن فى صدق النبى ﷺ .

ثانياً : ظهورهم أمام الناس بمظهر المحافظ على عهود الله ، وأنهم ما تركوا الإيمان بمحمد ﷺ حسدا له ، وإنما تركوا الإيمان به لأنه لم يات بالمعجزات التى أتى بها

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٢٤ .

الأنبياء السابقون ، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيًا صادقًا - فى زعمهم.

وقد حكى القرآن الكريم شبهتهم هذه ، ورد عليها بما يدحضها فقال تعالي في سورة آل عمران ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) ﴾ .

وملخص هذه الشبهة أنهم قالوا : (أن الله عهد إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته ، أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه ، أن تنزل نار من السماء فتأكلها) .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم فقال : قل لهم - يا محمد - ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والبراهين ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أى : بناء تأكل القرابين المتقبلة ، ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل.

قال الإمام الرازى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد ، وإنما على سبيل التعنت ، وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذا المعجز من الأنبياء المتقدمين مثل (زكريا، ويحيى ،وعيسى) - عليهم السلام - فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا فى قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة ، وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا فى قتلهم ، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم وهذا يقتضى كونهم متعنتين - أيضا - فى مطالبهم ، ولهذا لم يجبهم الله فيها) (٢) .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت دعواهم ، وردت عليهم بما يثبت كذبهم، ويؤيد صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه.

ثالثًا : مطالبتهم للرسول ﷺ بالمطالب المتعنته ، على سبيل التحدى والتعجيز، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مقترحاتهم ، لكى ينصرف الناس عنه ويعتقدوا عدم صدقه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ١٢٢ . طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٩٣٨ .

أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، من طريق عكرمة ،عن ابن عباس ،قال : (قال رافع ابن حريملة اليهودى لرسول الله ﷺ يا محمد : إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ [1] .

ومعنى الآية الكريمة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ علمًا نافعًا أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة ـ يا محمد ـ

﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ إما مشافهة ، أو بواسطة الوحى إلينا لا إليك ، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك ، قالوا هذا علي وجه العناد والجحود لأن تكون الآيات التى أقامها الله على صدق رسالته آيات حقا.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ أى : مثل هذا القول المتعنت ، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك فى العناد والضلال ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أى : جعلناها بينة واضحة فى ذاتها ، لمن شأنهم الإخلاص فى طلب الحق أينما كان ، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء ، موقنة بجلال الحق ووجوب اتباعه .

قال الإمام الرازى : وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء ، اختار أقرب الطرق إليه ، وبما أن الله قد كلّم موسى وكلمك يا محمد فلِمَ لا يكلمنا مشافهة ، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن فى أن القرآن معجزة ، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات ، وبيّنا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج ، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت ، وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥١٢ طبعة الحلبى.

١ ـ لو كان فى معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ، ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجا .

٢ ـ إن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب ، فإذا لم يكتف بها ، كان طلبه من باب المعاندة .

٣ ـ ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح فى كونها معجزة ، لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة ، فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح فى النبوة (١) .

هذا ، وبعض المفسرين يرى أن المراد (بالذين لا يعلمون) اليهود ، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب ،وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى ، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم ، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصدا أوليًا من هذه الآية للأسباب الآتية :

١ ـ الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم .

٢ ـ جملة ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى ، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب ، فقد قالوا له : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وقالوا له ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة .

٣ ـ الآية مدنية ومن سورة البقرة التى هى من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة ، ومن المعروف أن حديث القرآن المدنى عن أهل الكتاب بصفة عامة ، وعن اليهود بصفة خاصة ، أكثر من حديثه عن مشركى العرب ، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق .

٤ ـ سبب نزول الآية الذى ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصدا أوليًا فى هذه الآية .

---

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٦١ .

٥ ـ القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب دعموا قولهم بأن آيات القرآن التى تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفضية ، وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة ، بدليل قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾ .

٦ ـ الإمام ابن جرير رجح أن المراد ﴿ بالذين لا يعلمون ﴾ النصارى، مستدلا بأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم ، فالآية السابقة على هذه الآية تقول : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستلال لا نوافقه عليه لما يأتى :

(أ) لأن الآية ليست فى سياق خبر الله عن النصارى ، وإنما هى فى سياق خبر الله عن اليهود ، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم فى أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصارى وحدهم هم الذين ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك ، قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾(١) .

(جـ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود ، ولم يتعرض للنص الذى أورده ابن عباس فى سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال ، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب) .

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى : إننا لا نمانع فى أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ، ولكننا نرجح أنهم

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٠ .

اليهود المقصودون قصدا أوليا مهما دخل غيرهم معهم فى السياق ، وأن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التى لا خير من ورائها ، ومحاولاتهم الطعن فى نبوة النبى ﷺ .

رابعًا : ومن الوسائل التى اتبعها اليهود للطعن فى نبوة النبى ﷺ ، محاولتهم إنكار أن يكون القرآن منزلا من عند الله ـ تعالى ـ على محمد ﷺ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : قال ابن صوريا القطيونى (١) لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها ـ وغرضهم من هذه المقالة الطعن فى كون القرآن الكريم معجزة للرسول ﷺ فأنزل الله تعالى قوله : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (٢) .

الفاسق : من الفسوق وهو الخروج من شىء إلى آخر ، ويستعمل فى الكفر والمعصية ، لأنها خروج من فطرة الله التى هى حق وصلاح إلى ما هو باطل وفساد.

ومعنى الآية الكريمة : ولقد أنزلنا إليك ـ يا محمد ـ آيات واضحات الدلالة على معانيها ،لأنها بإعجازها للبشر ، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل عليها ، كالضياء يظهر الأشياء وهو ظاهر فى نفسه ، فمن تعسف فى تأويلها فقد خرج بها عن أن تكون آيات بينات ، والحق أنه ما يكفر بها إلا الماردون على الكفر بسبب انحراف فطرتهم ، وبعدهم عن كل مستحسن فى العقل والشرع ، وما من عاقل يتدبر هذه الآيات التى نزلت عليك يا محمد إلا أفضت به إلى الإيمان الصحيح لا محالة .

فالآية الكريمة ترد على اليهود الذين حاولوا الطعن فى صدق النبى ﷺ عن طريق إنكارهم أن يكون القرآن معجزة .

خامسًا : ومن الوسائل الخبيثة التى سلكها اليهود للطعن فى نبوة النبى ﷺ إنكارهم نزول الوحى عليه من السماء ، وغرضهم بذلك اتهامه بأن ما يقوله ليس من عند الله ـ تعالى ـ وإنما من عند نفسه .

أخرج ابن أبى حاتم ،عن سعيد بن جبير، قال : جاء رجل من اليهود يقال له : (مالك بن الصيف) فخاصم النبى ﷺ . فقال له النبى ﷺ :« أنشدك بالذى أنزل

---

(١) قال السهيلى : القطيون كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود وملكهم.

(٢) أسباب النزول النيسابورى ص ١٧ .

التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ - وكان حبرا سمينا - فغضب وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى ؟ فأنزل الله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية (١) .

وقال النيسابورى : قال محمد بن كعب القرظى : أمر الله محمداً ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أمره وكيف يجدونه فى كتبهم ، فحملهم الحسد لمحمد ﷺ أن كفروا بكتاب الله، وكفروا برسوله ، وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله هذه الآية (٢) .

ومعنى الآية الكريمة : اعلم - يا محمد - وأعلم أمتك - أن هؤلاء اليهود المنكرين للوحى ،ولنزول شيء عليك ، ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حتى معرفته، بإنكارهم للرسالات السماوية من أساسها ، فما كانت رحمة الله لتذر الناس لا هداية ، وما كانت حكمته لتترك الضلال والفساد يستشريان فى الأرض بلا مدافع، فتعظيم الله حق التعظيم ، يستلزم الاعتقاد بأنه لابد أن يبعث للناس من يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن ينزل على رسله الوحى الذى يبلغهم أوامره ونواهيه ، ثم سلهم - يا محمد - وخذ عليهم الحجة مما يعلمون ، وجبههم بالدليل الإلزامى ، ووبخهم على سوء جهلهم ، والتواء تفكيرهم ، واردد على سلبهم العام بقضية جزئية موجبة فقل لهم (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) وهو التوراة، لتكون نورا يستضاء به من الظلمات ، وهداية يهتدى بها من الشبهات ، ولكنكم - معشر اليهود - جعلتموها قراطيس مقطعة ، ووريقات مفرقة ، وأبديتم بعض نصوصها بين الناس ، وأخفيتم أكثرها مما فيه خطر على دنياكم ورياستكم ، أو ما فيه حجة عليكم لمحمد ﷺ والحال أن الله قد علمكم وعلم آباءكم عن طريقها ما كنتم تجهلونه من الأحكام والشرائع ، قل لهم يا محمد فى جواب هذا السؤال : الله الذى ينكرون أن يكون قد أنزل على بشر من شيء هو الذى أنزل التوراة على موسى ، وهو الذى علمكم وآباءكم مالم تكونوا تعلمون.

ثم بعد أن لزمتهم الحجة ، ذرهم فى طغيانهم يعمهون ، وفى باطلهم يخوضون، فما كان ذلك الإنكار منهم إلا لعبًا لا يستحق الاهتمام.

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول السيوطى هامش الجلالين ص ٢٣٢ .

(٢) أسباب النزول النيسابورى جـ ٢٥ .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ردت على اليهود فى إنكارهم نزول الوحى على النبى ﷺ .

هذه هى بعض الصور الجدلية ،التى اتبعها اليهود للطعن فى نبوة النبى ﷺ وقد باءت كلها بالفشل ، لأن القرآن الكريم قد اهتم بهذه الحرب الجدلية ـ التى هى أشبه ما تكون بحرب الأعصاب، أو ما يسمى بالحرب الباردة فى عصرنا الحاضر ـ فتعقب مزاعم اليهود وفندها ، ورد عليها بما يدحضها ، ويثبت صدق النبى ﷺ (ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة وأن الله لسميع عليم) .

(ب) « جدالهم مع النبى ﷺ فى شأن إبراهيم وملته ».

كانت ملة إبراهيم واتباع النبى ﷺ لها ودعوته إليها ، موضوع آيات عديدة فى العهد المكيّ وكانت هذه الآيات تعلن بأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان موحداً لله ـ تعالى ـ وما كان من المشركين ، من ذلك قوله تعالى فى سورة النحل ـ المكية ـ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) ثم قوله تعالى بعد ذلك فى السورة نفسها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، نزلت آيات مدنية متعددة ، تحكى ـ أيضًا ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين ، وأن ما يدعيه أهل الكتاب من أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يهوديا أو نصرانيا ، قول باطل ، وزعم فاسد .

وسنكتفى هنا بتفسير أربع آيات من سورة آل عمران ـ المدنية ـ ، فيها محاجة بين النبى ﷺ وبين أهل الكتاب حول إبراهيم وملته ، وهى قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

---

(١) الآية : ١٢٠ . (٢) الآية : ١٢٣ .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية (١) .

ومعنى الآيات الكريمة : لا يسوغ لكم معشر اليهود والنصارى مبادلة الحجة فى شأن إبراهيم ، من حيث إنه كان يهوديا أو نصرانيا،ومن حيث إنكم أكثر الناس اتباعا له ، أو أكثرهم بُعدا عنه ، ومن حيث ما جاء به وحقيته ، فإن التوراةَ والإنجيل ما نزلا إلا من بعده ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا ؟ وكيف يدين بهما قبل نزولهما ؟ إن هذه محاجة ظاهرة البطلان (أفلا تعلقون) هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا لهذا الشىء المتأخر عنه ؟ .

ثم عرضت الآية الثانية بعد ذلك لمظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لمقتضيات العقول السلمية ، وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقالت :

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : أنتم يا معشر أهل الكتاب بادلتم الحجة فى أمر عندكم علم به ، وهو جدلكم حول ما وجدتموه فى كتبكم مما يتعلق بدينكم ، أوجد لكم حول زعمكم أن شريعة التوراة والأنجيل مخالفة لشريعة القرآن ، أوجد لكم فى شأن النبى ﷺ لأن صفاته موجودة فى كتبكم ، ولكن لم تجادلون فيما ليس لكم به علم وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا ، مع أنه لا ذكر لدين إبراهيم فى أحد الكتابين ؟

لقد كان من الواجب عليكم أن تتبعوا ما أوحاه الله على رسوله محمد ﷺ فى شأن إبراهيم ، لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم حال إبراهيم وشأنه وملته ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، والعاقل من الناس ، هو الذى ينأى بعقله عن المجادلة فى أمر ليس عنده شىء من أسباب العلم به .

أما الآية الثالثة وهى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد صرحت ببراءة إبراهيم ـ عليه السلام ـ من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٢ .

كل دين يخالف دين الوحدانية ، وينفى عنه صفة اليهودية والنصرانية ، وفى هذا النفى ، تعريض بما فيهما من ضلال لا يليق أن يلصق بخليل الله إبراهيم - عليه السلام - وفيه - أيضا - تنويه بشأن إبراهيم ، وتنزيه له عن أن يتصف بما عليه هؤلاء من خلال .

وقد ذكرت الآية الكريمة على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقى ، فنعتته بمناقب ثلاث ، تتنافى كلها مع ما عند أهل الكتاب من تخليط، وتجسيم ،وانحراف عن الحق.

وصفته - أولا - بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفًا ﴾ أى: مائلا عن كل دين باطل ،إلى الدين الحق وهو الإسلام .

ووصفته - ثانيا - بأنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : ما كان ممن يشرك مع الله آلهة أخرى ، بأى لون من ألوان الإشراك ، وفى هذا الوصف تعريض بما هم عليه من كفر وإشراك بالله - تعالى - فكيف يزعمون أنهم على دين إبراهيم أو أن إبراهيم على ملتهم ؟

ثم جاءت الآية الرابعة لكى تحسم الخلاف ، ولتعلن فى صراحة ووضوح من هم أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم فقالت :﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى : أن الناس بالانتساب إلى إبراهيم أصناف ثلاثة منهم :

أولهم : ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ أى :الذين أجابوا دعوته فى حياته، واتبعوا تعاليمه بعد مماته ، ولو أن هؤلاء اليهود تجنبوا الشرك بكل ضروبه لأمكنهم أن يكونوا من أتباعه ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، فصاروا من غير أتباعه.

وثانيهم : ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ وهو محمد ﷺ الذى هو من نسله والداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم وقد نصت عليه الآية الكريمة ولم تذكره ضمن الذين اتبعوه ، لأنه تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم ، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين .

وثالثهم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى :آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه ، وفى هذا تنويه

بشأنهم ، وتقرير بأنهم أولى بإبراهيم من اليهود ، لأنهم طلبوا الحق وتحروه ، وأخلصوا دينهم لله .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشارة لهم بأنه ناصرهم ومتولى أمورهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسير لهذه الآية : (يقول ـ تعالى ـ أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبى ، يعنى محمدا ﷺ ، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم ، فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبى ولاة من النبيين ، وإن ولى منهم أبى وخليل ربى ، ثم قرأ :﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ الآية) [١] .

هذا هو موقف القرآن الكريم من محاجة اليهود للنبى ﷺ حول إبراهيم وملته ، فقد وبخهم لمحاجتهم فى إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده ، وقرعهم لجدالهم فى أمر لا علم عندهم به ، ونفى عن إبراهيم أن يكون منهم ، وقرر أن أولى الناس به هم الذين على ملة التوحيد وعلى رأسهم محمد ﷺ وأتباعه المؤمنون .

وهكذا أبطل القرآن الكريم دعاوى أهل الكتاب الباطلة في شأن إبراهيم ، بالحجج الملزمة ، والبراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

(جـ) « جدالهم فى نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ »

ومن المسائل التى احتدم فيها الجدل بين النبى ﷺ وبين اليهود نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ لأن الإسلام يعترف لعيسى بالنبوة ، وأنه من الرسل ، وأن مثله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وأن أمه صديقة مطهرة من كل ما يخدش المروءة والشرف .

ولكن اليهود لا يسلمون بذلك ، فهم لا يعترفون له بالنبوة ، بل يرون أنه قد أتى عن طريق غير شريف ، وأن أمه كانت امرأة بغيا .

أخرج ابن جرير ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود ، فيهم أبو ياسر بن أخطب ، ورافع بن أبى رافع ، وأزار بن أبى أزار ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٢ .

وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ؟ قال : أومن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بمن آمن به وما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شرًا من دينكم فأنزل الله فيهم :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) ﴾(١) .

ومعنى الآية الكريمة : قل ـ يا محمد ـ على سبيل التوبيخ والتبكيت والرد الملزم، لهؤلاء اليهود المنكرين لنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ إنكم ما تعيبون علينا إلا لأننا نؤمن بالله ونوحده ، ونؤمن بما أنزل علينا من عند الله ، ونؤمن بالرسل السابقين ـ ومن بينهم عيسى ـ وبما أنزل عليهم ، وما تنقمون منا إلا لان أكثركم فاسقون ، متمردون ، خارجون عن دائرة الإيمان . فما تعيبونه علينا ، وتكرهونه لنا هو عين الحق والصواب ، ورأس الفضائل والمكرمات ، وأساس السعادة فى الدنيا والآخرة .

فالآية الكريمة سجلت على اليهود أعظم أنواع المكابرة والجحود إذ جعلوا الإيمان برسل الله موجبا للنقمة ، مع أنه موجب للقبول والرضا والرحمة من الله ـ تعالى ـ .

ومن بلاغة القرآن الكريم وإنصافه لأهل الكتاب أنه لم يعمم حكم الفسق على جميعهم ، بل جعل الحكم بالفسوق منصبا على الأكثرين منهم ، لأن قلة من أهل الكتاب اتبعوا طريق الحق والإيمان .

قال صاحب الكشاف : فان قلت علام عطف قوله : ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ؟ قلت : فيه وجوه منها : أن يعطف على ﴿ أَنْ آمَنَّا ﴾ بمعنى : وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان ، كأنه قيل : وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا فى دين الإسلام وأنتم خارجون عنه .. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون ، ويجوز أن يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف ، كأنه قيل : ما تنقمون منا

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٩٢ ، سورة المائدة: الآية ٥٩ : (وتنقمون) تعيبون وتنكرون ، لأن النقمة معناها الإنكار باللسان أو بالعقوبة ـ كما قال الراغب ـ ونقم : ورد كضرب يضرب، وهى اللغة الفصحى التى جاء بها القرآن الكريم والأصل فيه ان يتعدى (بعلى) تقول : نقمت عليه بكذا ، وعدى فى الآية الكريمة (بمن) لتضمنه معنى تكرهون وتعيبون.

إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات ، ويدل عليه تفسير الحسن، بفسقكم نقمتم ذلك علينا [١] .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وبخت اليهود على كراهتهم للمؤمنين إيمانهم بالله وبكتبه وبرسله ، بدون تفرقه بينهم ، وكان من الواجب على هؤلاء اليهود أن يؤمنوا بما آمن به المؤمنون ، وأن يشهدوا لعيسى بالنبوة ، كما شهد له بها النبى ﷺ وأتباعه المسلمون الصادقون ، ولكن اليهود قوم لا يفقهون .

(د) جدالهم فى قضية النسخ

ومن الأمور التى اشتد فيها الجدل بين النبى ﷺ وبين اليهود ، قضية النسخ ، وكان جدالهم فيها يبغون من ورائه إثارة الفتن ، والطعن فى شريعة الإسلام .

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية ، أو حكمًا بحكم ، وقالوا : ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا، ما هذا من شأن الأنبياء ، وما هذا القرآن إلا من كلام محمد ﷺ ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضا .

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون جواب ، بل أنزل الله ـ تعالى ـ آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور ، ليزداد المؤمنون إيمانًا .

ومن هذه الآيات التى أنزلها الله ـ تعالى ـ فى هذا الشأن ، قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ .

ولما كانت قضية النسخ من القضايا المهمة ، التى استمر الجدل فيها قديمًا وحديثًا والتى اتخذها اليهود ذريعة للطعن فى الشريعة الإسلامية ، رأينا من الواجب علينا أن نفصل القول فيها قليلا ، تجلية للحقائق ، ووضعا للأمور فى نصابها (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىٍّ عن بينة) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٢٣ .

وسنتناول فى كلامنا عنها المباحث الآتية :

أولا : تفسير الآيات الكريمة.

ثانيًا : أهمية النسخ وحكمة مشروعيته.

ثالثًا : أدلة ثبوته جوازاً ووقوعا :

رابعًا : ما أثير حوله من شبهات والرد عليها .

خامسًا : مسالك العلماء فى القول بالنسخ.

قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾.

أولا : تفسير الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾.

سُبقت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ .

وهذه الآية فيها تصريح بأن الكفار بصفة عامة ، واليهود بصفة خاصة، لا يودون أن تكون النبوة فى محمد العربى ﷺ فهم لذلك يجحدون رسالته ، ويكذبون دعوته ، ويثيرون حولها الشبهات ، فرد الله عليهم رداً إجماليًا بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾، ثم أجاب عن أهم الشبهات التى أثاروها للتشكيك فى شريعة الإسلام ، وهى النسخ ، فقال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾.

والنسخ فى اللغة : الإبطال والإزالة :

وفى عرف الشرع : بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته ، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا.

وننسها : من أنسى الشىء جعله منسيا.

فمعنى نسخ الآية فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ رفع حكمها مع بقائها فى نظم القرآن.

ومعنى إنسائها في قوله - تعالى - ﴿ نُنسِهَا ﴾ رفع الآية من نظم القرآن جملة.

وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء ، لأن شأن ما لا يبقى في النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به .

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته ، وهو إذ هاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة ، بعد أن يقضى الله بنسخها.

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها ، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشيء من القرآن ، والله يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١).

ومما يدل على نسخ الآية المنساه ، أى انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها ، فيكون قوله تعالى « أو ننسها » معبراً عن حالة تعرض في بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم ، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا -.

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص ، أن ما ينسى لعدم حضوره في الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه ، فربما يقع في الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى غناءه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ننسأها ﴾ بالهمز ، من النسيء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ في قوله تعالى : ما ننسخ من آية على النوعين السابقين وهما : نسخ الآية حكما فقط ، ونسخها حكما وتلاوة.

ومعنى ﴿ ننسأها ﴾ نؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها ، وننزل ما يقوم مقامها في القيام بالمصلحة.

والخيرية والمماثلة في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ترجع إلى ثواب العمل بها ، فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها ، وقد يكون مماثلا له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها ، أقوم على المصلحة من الأخرى.

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ساق جملة كريمة في صورة الاستفهام التقريرى ، مخاطبا

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

بها الأمة الإسلامية فى شخص نبيها ﷺ لتكون دليلا على هذا الثبوت ، وهذه الجملة هى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والمعنى : أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته ، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر فى وقت بأمر ، ثم ينسخه أو يستبدله بآخر تبعًا لمقتضيات الظروف والأحوال.

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته ، وشمولها لكل شىء ، فقال تعالى :﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

والمعنى : أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها ، وأنه يتصرف فى أموركم ويجريها على حسب ما يصلحهم ، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم ، ويعينهم على أعدائهم سواه ، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره ، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شىء ، من حقه أن يمحو ما يشاء ، ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

فالآية الكريمة واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه بكل شىء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود ، تثبيتًا لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

والمعنى : لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم ﷺ مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق ، كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم ، فقالوا له : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (١)

---

(١) سورة النساء : الآية ١٥٣

وقالوا له ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ﴾ [1] ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان ، ولخرجتهم عن الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم ﷺ .

فالإستفهام فى الآية الكريمة للإنكار ، وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم ، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال ، وفى النهى عن إرادة الشىء ، نهى عن فعله بأبلغ عبارة .

هذا ، وقد وردت فى سورة النحل - أيضا - آيتان تدلان على ثبوت النسخ ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ بالنسخ ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظا أو حكما ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ من المصالح ، فعل ما يكون مصلحة فى وقت يصير مفسدة بعده وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه ، ﴿ قَالُوا ﴾ أى الكفرة لجهلهم وبُعدهم عن العلم بالناسخ ، للنبى ﷺ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ متقول على الله تامر بشىء ثم يبدو لك فتنتهى عنه ، وليس الأمر كما قالوا ، بل الحق أن أكثرهم لا يعلمون حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى قل لهم - يا محمد - إن القرآن الكريم قد نزله جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ بالتدريج على حسب الحوادث والمصالح ، تنزيلا ملتبسا بالصدق والحكمة ، ليثبت الله به الذين آمنوا على الإيمان وليكون ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه ، والذين إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة ، صح يقينهم ، ورسخت عقائدهم ، وأطمأنت قلوبهم ، وعرفوا أن الله - تعالى - حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب .

ووجه ثبوت النسخ من هاتين الآيتين الكريمتين ، أن التبديل معناه : رفع الشىء

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٣٨ .

ووضع غيره بدله ، وتبديل الآية بناء على ذلك معناه رفعها ، ووضع غيرها مكانها، وهذا هو النسخ بعينه.

قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع ، لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم ، وخلافه مصلحه . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء بحكمه (١) .

والمراد بالآية - هنا - الآية القرآنية لأمور:

أولها : قولهم الذى حكاه القرآن عنهم ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ فإن الإفتراء يستعمل فيما هو من جنس الكلام ، ومن المستبعد استعمال في الآية الكونية ، وأسلوب القرآن فى مواضع كثيرة يؤيد ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٣) .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه :قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ كانوا يقولون : إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، فيأتيهم بما هو أهون ، ولقد افتروا ، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق، والأهون بالأهون ، والأشق بالأشق ، لأن الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة(٤).

ثانيها : قوله تعالى﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾، لأن روح القدس هو جبريل، أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال : حَاتِم الجود ، والمراد : الروح المقدس ، وحاتم الجواد ، والمقدس : هو المطهر من المآثم . ومن المعروف عن جبريل - عليه السلام - أنه كان ينزل على النبىﷺ بالآيات القرآنية ، لا بالمعجزات الكونية.

ثالثها : سياق الآية اللاحقة ، وهى قوله تعالى ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ يدل على أن طعن المشركين كان منصبا على القرآن الكريم من حيث مصدره ومقاصده ، وأن بشرا هو الذى يعلمه إياه ، وهذا يؤيد أن المراد بالآية فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ ، إنما هو الآية القرآنية لا المعجزة الكونية.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٤ .
(٢) سورة الكهف : الآية ١٥ .
(٣) سورة النحل :الآية ١٠٥ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٤ .

رابعـهـا : سبق للمشركين أن طالبوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزات كونية كتفجير الأرض والرقى فى السماء ، وغير ذلك فلم يجابوا إلى مطالبهم ، لأنها مطالب متعنته ، وسد القرآن الكريم هذا الباب فى وجوههم ، ومن هذا الأسلوب ، نستنتج أن تبديل الآيات بمعنى المعجزات ، والاتيان بغيرها بدلا منها لم يكن شائعا فى عهد النبى ﷺ مع قومه وإنما الشائع الذى كان محل طعن المشركين واليهود ، إنما هو تبديل أحكام الآيات ، على حسب ما تقتضيه الحكم والمصالح.

ومن هذا العرض الموجز للآيات الكريمة المثبتة للنسخ ، نرى أنها قد دحضت شبهة اليهود وغيرهم فى هذه المسألة ، وجاءت للمؤمنين بالبراهين الواضحة ، والأدلة ، الساطعة التى تكشف لهم أن النسخ ليس محالا على الله ـ تعالى ـ وأنه ـ سبحانه ـ ما شرعه إلا لمصلحتهم ومنفعتهم .

ثانيا : أهمية النسخ وحكمة مشروعيته :

موضوع النسخ من الموضوعات التى سلم بوجودها الصحابة والتابعون من أول الأمر فى الشريعة الإسلامية ، وحديثهم المستفيض عنه ـ مهما كان فيه خلاف ـ كاف فى الدلالة على وجوده فى شريعة الإسلام . وأقواله الصحابة والتابعين ، ومَن بعدهم من مفسرين وأصوليين فيه ، تجعلنا نعتقد أن مسألة النسخ من المسائل التى كانت تُكوِّن واقعا مستقرا فى أذهان العلماء المسلمين .

ولقد اهتم العلماء ببحث موضوع النسخ من كل وجوهه ، ووضعوا له من الشروط والقواعد ما يميزه عن غيره من المسائل أكمل تمييز ، وذلك لأن معرفة الناسخ والمنسوخ تؤدى إلى فهم الأحكام فهما سليما ، وتدفع التناقض عن نصوص الشارع ، وتزيل اللبس الناتج عن تعارض الأدلة متى عرف صحيحها من سقيمها ، ومتقدمها من متأخرها ، وكثيرا ما يؤدى عدم معرفة الناسخ والمنسوخ إلى الوقوع فى الضلال والإضلال ـ وأيضا ـ فإن الإلمام بالناسخ والمنسوخ، يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ويطلع المسلم على حكمة الله ـ تعالى ـ فى تربيته للخلق ، وسياسته للبشر وابتلائه للناس ويكسب المسلم قدرة على الدفاع عن شريعته إزاء تهجم المتهجمين عليها .

لقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يكون النسخ واقعا فى الشريعة الإسلامية لحكم سامية، ومقاصد عالية ، من أهمها :

(أ) مراعاة مصالح العباد وتربيتهم فى أطوارهم المختلفة بالأدوية الدينية المناسبة لهم وبيان ذلك أن الأمة الإسلامية فى أول عهدها بالإسلام كانت تعانى فترة انتقال شاقة ، لانخلاعها عن موروثها وعاداتها . فلو كلفت بأوامر هذا الدين ونواهيه دفعة واحدة لشق عليها ذلك مشقة عظمى ، بل ربما نفرت منه ، لهذا تدرجت الشريعة الإسلامية فى أوامرها ونواهيها مع أتباعها تدرجا حسنا وصعدت بهم على طريق الرقى شيئا فشيئا وسارت بهم من الأسهل إلى السهل ومن السهل إلى الصعب . ومن الصعب إلى الأصعب أحيانا ، وبذلك تم لهم النجاح والفلاح ، لأن شريعتهم الخالدة (التى مشت بهم على مهل) أعطتهم لكل حالة ما يناسبها من تشريع وتوجيه وألبستهم لكل طور من أطوارهم اللباس الذى يلائمه ، وهذا لون من ألوان السمو والكمال فى شريعة الإسلام .

(ب) تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم ، لرفعه المشقة عنهم فى كثير من الأحكام المنسوخة ، وإحلال ما هو أسهل منها محلها ، وفى ذلك ما فيه من الإغراء على المبالغة فى شكره والاستجابة لأوامره ونواهيه .

(جـ) الإبتلاء والإختبار ، فإن المؤمن من شأنه أن يتلقى أوامر الله - تعالى - ونواهيه ، بالسمع والطاعة والإذعان والتسليم أما ضعيف الإيمان فإنه يتلقاها بالتشكيك وإثارة الشبهات حولها ، وبذلك يتميز الخبيث من الطيب ، وقوى الإيمان من ضعيفه .

(د) بيان أن شريعة الإسلام هى أكمل شريعة تفى بحاجات الإنسانية فى مرحلتها التى انتهت إليها بعد أن بلغت أشدها واستوت ، وأنها بنسخها لما سبقها من شرائع ، استحقت بأن تنعت بأنها الشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان .

ثالثًا : أدلة ثبوت النسخ :

لقد اتفق أهل الشرائع على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا،ولم يخالف من المسلمين فى النسخ سوى (أبى مسلم) [١] فإنه جوزه عقلا وقال بعدم وقوعه شرعا .

وقبل أن نرد على شبهات اليهود ، وعلى أبى مسلم ، نحب أن نبرهن أولا على ثبوت النسخ فنقول :

---

(١) أبو مسلم : هو محمد بن بحر الأصفهانى توفى سنة ٣٢٢ هـ .

(أ) النسخ لا محظور فيه عقلا ، وبيان ذلك ، أنه تصرف التشريع من الفاعل المختار الحكيم ، ومن حقه - سبحانه - أن يأمر عباده بما شاء ، وينهاهم عما يشاء وأن يبقى من أحكامه ما يريد ، لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه تبعا للحكم والمصالح.

وقد استفاضت الآيات القرآنية التي تدل على أن الخالق - عز وجل - قد شرع لعباده ما يصلحهم ، وتعبدهم بما يطيقون قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ ، ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، التي وردت في هذا المعنى.

(ب) ثبوت النسخ ووقوعه ، يؤيد ثبوت نبوة محمد ﷺ ، لأن امتناع ذلك يؤدى إلى بقاء الشرائع السابقة ، وهذا يستلزم عدم ثبوت النبوة وحيث إن الأدلة القاطعة قد قامت على ثبوت نبوة محمد ﷺ إذن فالشرائع السابقة منسوخة بشريعته، وهذا يؤدى إلى ثبوت النسخ ووقوعه.

(جـ) من الأدلة النقلية الدالة على ثبوت النسخ ، تلك الآيات الكريمة التي فسرناها قبل ذلك ، وهي قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

(د) الكتب السماوية السابقة أثبتت أن النسخ وقع بشريعة موسى ووقع فيها، واليهود أنفسهم يعترفون بذلك ولا ينكرونه.

فقد جاء في التوراة :(أن الله - تعالى - قال لنوح عند خروجه من السفينة إنى جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه) وقد حرم الله على بنى إسرائيل بعد ذلك كثيراً من الحيوان ، ففى ذلك دليل على أن النسخ وقع بشريعة موسى - عليه السلام - وجاء فيها أيضا : (أن الله - تعالى - أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد العجل منهم ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم) وهذا يدل على أن النسخ وقع فى شريعة اليهود نفسها.

وفى ذلك كله دليل على ثبوت النسخ ووقوعه عن طريق العقل والنقل.

رابعًا : الشبهات التى أثيرت حول النسخ :

وقد اهتم العلماء بالرد على منكرى النسخ اهتماما عظيما ، والمطالع لكتب

التفسير ، ولمباحث علم الأصول ، يلاحظ عناية كبرى بهذه القضية ، ومبعث هذا الاهتمام لم يكن موقف أبي مسلم منه ، لأن الرد على منكريه وهم اليهود ، كان سابقا على وجود أبي مسلم.

فاليهود هم الذين طعنوا في شريعة الإسلام ، وفي نبوة النبي ﷺ من أجل النسخ ، واعتبروا وجود الناسخ دليلا على أن القرآن ليس من عند الله ـ تعالى ـ ، لذلك رأينا اسم اليهود هو الاسم الظاهر على رأس المنكرين للنسخ.

وها هي الشبه التي تعلق بها اليهود لإنكار النسخ نسوقها ، ثم نبرهن على بطلانها فنقول :

(أ) قال اليهود : إننا نمنع النسخ ؛لأنه يستلزم البدَاء ـ وهو الظهور بعد الخفاء ـ والبداء محال على الله ، وبيان ذلك أن الله ـ تعالى ـ إذا أمرنا بشيء كان ذلك الشيء المأمور به حسنا وصالحا ، فإذا عاد ونهانا عنه بعد ذلك كان دليلا على أن ذلك الفعل الذي أمرنا به في الماضي لم يكن حسنا ولا صالحا ، وإنما كان قبيحا وفاسدا ، وإن قبحه وفساده كان خافيا على الله ـ تعالى ـ في أول الأمر حين أمر بفعله ، ثم بدا له من بعد ظهوره قبحه وفساده ، فعمد إلى النهي عنه ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

هذه هي الشبهة التي تعلقوا بها لإنكار النسخ ، والجواب عليها حاضر وميسور، وهو أن حكمة الناسخ والمنسوخ معلومة لله ـ تعالى ـ من قبل فلم يتجدد علمه بها وإن تجددت الحكمة ، بأن حصلت بعد أن لم تكن حاصلة وهذا لا يقتضي سبق الجهل بها ، وليس من باب البداء ، بل هو من باب نقل العباد من حكم آخر ، لضرب من المصلحة والمنفعة.

فالنسخ تبديل في المعلوم لا في العلم ، وكشف لنا وبيان عن بعض ما سبق في علم الله القديم المحيط بكل شيء ، ولا يرتاب عاقل في أن لاختلاف الأزمان والأحوال أثراً في حسن الأشياء وقبحها بالنسبة للمكلفين ، فقد يكون الشيء حسنا في وقت ، وقبيحا في وقت آخر ، ومن تصرفات الناس اليومية ، ومن واقعهم المعاشي نأخذ الدليل:

فمزاولة بعض الألعاب الرياضية كالمصارعة وحمل الأثقال ـ مثلا ـ تفيد الإنسان في فتوته وشبابه فيؤمر بها، ولكنها تؤذيه في سن الشيخوخة فينهى عنها ، وليس

بين أمره ونهيه سبيل إلى إنكار العقول ، فكيف إذا صدر الأمر أو النهى من الحكيم الخبير ؟! وإذن فأمر الله لعباده بالشيء فى زمن ونهيهم عنه فى زمن آخر لا يستلزم بداء ولا جهلا .

(ب) قالوا : إننا نمنع النسخ؛ لأنه يستلزم العبث ، وبيان ذلك: أن الحكم المنسوخ ما دام قد شرع لحكمة فنسخه يكون عبثًا،والعبث محال على الله ـ تعالى ـ

وجوابنا على ذلك : أن الحكم الناسخ والمنسوخ كلاهما شرعه الله لحكمة ، وأن كل واحد منهما أنسب ما يكون وأصلح ما يكون للعباد فى الوقت الذى شرع فيه، فقد يكون العمل بالحكم الناسخ أوفر من ثواب العمل بالحكم المنسوخ أو مماثلا له ، إلا أن كل واحد من الحكمين أنفع للعباد وأنسب لمصالحهم ، بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل به ، وبهذا يتضح أنه لا عبث فى النسخ، لأن أحكام الله جميعها تشتمل على الحكمة ،والمنفعة التى تعود على الخلق بالفائدة.

(جـ) قالوا : نحن نمنع النسخ لأنه يستلزم اجتماع الضدين واجتماعهما محال وبيان ذلك أن الأمر بالشيء يقتضى أنه حسن ، والنهى عنه يقتضى أنه قبيح ، فلو أمر بالشيء ثم نهى عنه أو العكس ، لاجتمعت هذه الصفات المتضادة فى الفعل الواحد الذى تعلق به الأمر والنهى .

وتدفع هذه الشبهة بأن الاستحالة إنما تكون إذا اجتمع الأمر والنهى على فعل واحد فى زمن واحد ، والنسخ بخلاف ذلك ، لأن من شروطه أن يكون الحكم الناسخ متأخرًا عن الحكم المنسوخ ، وإذن فقد ثبت الاختلاف فى الزمان ، وما دام الأمر كذلك فلا اجتماع للضدين.

وأيضًا :فإن اجتماع الضدين إنما يتأتى إذا كان الأمر والنهى قد تواردا على حسن لا يقبل حسنه القبح ، أو قبيح لا يقبل قبحه الحسن كالإيمان والكفر ، ومسائل النسخ ليست من القبيل ، لأنها إنما تكون فى الأفعال التى حسنها وقبحها يتأتى باعتبار ما يترتب عليها .

(د) قالوا :نمنع النسخ، لأنه لو جاز نسخ الحكم لكان ذلك إما مع علم الله تعالى ـ باستمراره أبدًا ، أو مع علمه بكونه مؤقتًا وكلاهما باطل ، لأن الأول يستدعى انقلاب علمه جهلا ، والثانى يقتضى انتهاء الحكم فى الوقت المقرر له ، فلا يتأتى النسخ لانتهاء الحكم فى الوقت المقرر له بدون نسخ.

وجوابنا على هذه الشبهة : أن الله ـ تعالى ـ يعلم انتهاء الحكم فى وقت معين ، ويعلم أيضا أنه سينسخه فى ذلك الوقت المعين فهو يعلم انتهاءه بسبب نسخه إياه كما يعلم الأسباب ومسبباتها قبل كونها ، وإذا كان الله تعالى ـ يعلم ارتفاع حكم بالنسخ كان ذلك مستلزما لوجود نسخ ذلك الحكم، وبذلك بطل الاستدلال على المنع.

(هـ) قالوا : إن التوراة التى أنزلها الله على موسى قد جاء فيها ؟ هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض وجاء فيها : (الزموا السبت أبداً) وهذا يفيد امتناع النسخ ، لأن نسخ شيء من أحكام التوراة إبطال لها ، وهذا لا يجوز.

وجوابنا على هذه الشبهة : أن التوراة الصحيحة لم يصبح لها وجود ، بدليل اختلاف نسخها بين فرق اليهود المختلفة ، والتواتر الذى خلعوه عليها غير صحيح ، لأنها لو كانت كما يقولون لا احتجوا بها أمام النبى ﷺ ولكن ذلك لم يكن ، بل الذى كان أن بعض علمائهم ـ كعبد الله بن سلام ـ قد دخل فى الإسلام بعد أن تبين له صدق النبى ﷺ ، وبذلك نرى أن تلك النصوص التى نسبوها إلى التوراة لا تصلح حجة ، وأن شبهاتهم لا أساس لها من الحق والصحة.

بعد هذا نحب أن نقف وقفة قصيرة مع (أبى مسلم) لمناقشته فيما ذهب إليه فنقول : احتج (أبو مسلم) على إنكار وقوع النسخ فى الشريعة الإسلامية بقوله تعالى :﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ووجه استدلاله أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ولا يتأتى نسخها . لأن النسخ فيه إبطال لحكم سابق.

وقد رد العلماء: بأن المراد بالباطل فى الآية الكريمة ما خالف الحق. والنسخ حق.

ومعنى الآية الكريمة : أن القرآن الكريم لم يتقدمه من الكتب ما يبطله ولا يأتى بعده ما يبطله ، ولا يقوم العقل الصحيح على خلافه . بل جميع ما جاء به من المقاصد والعقائد متفق مع جميع ما جاءت به الكتب السماوية ويؤيده العقل السليم.

وأيضا : فإن النسخ ليس إبطالا للحكم . وإنما يعرف به بيان أمده الذى لم يكن معروفا من قبل لحكم ومصالح تعود فائدتها على الناس.

هذا وقد أنكر كثير من العلماء على أبى مسلم مذهبه هذا فى النسخ . وحملوا

عليه حملات قاسية ، ولكن المحققين من العلماء ، فهموا مذهب (أبى مسلم) فى النسخ على وجه يلتقى مع ما يقوله علماء المسلمين ، فقالوا : (ومعنى إنكار أبى مسلم لوقوع النسخ ،أنه يزعم أن الأحكام التى نسخت من غير شريعتنا ، كانت مقيدة بظهور أحكام أخرى تناقضها من شريعتنا ، وعلى ذلك فالنسخ عنده من باب التخصيص فى الزمان ، وبذلك يعود خلافه مع الجمهور إلى اللفظ والتسمية فقط) [١] .

خامسًا : مسالك العلماء فى القول بالنسخ : العلماء المتكلمون فى النسخ أقسام ثلاثة:

(أ) فمنهم المغالون الذين حاولوا التخلص من القول بالنسخ إطلاقا تبعًا ـ لأبى مسلم ـ سالكين فيما ذهبوا إليه مذهب التأويل بالتخصيص ونحوه، وهؤلاء قد أخطأوا الصواب، لأنهم بمحاولتهم إنكار النسخ قد سلكوا طرقًا ملتوية، وحملوا الآيات ما لا تحتمل،ومهما لاحظنا أن من المنقول عن المتكلمين فى الناسخ والمنسوخ ما لا ينطبق عليه حد النسخ عند الأصوليين ، فإن حديث الصحابة والتابعين عنه كاف ،فى الدلالة على وجود مبدأ النسخ، وثبوته فى الشريعة الإسلامية .

(ب) ومنهم المسرفون ، وهم الذين أدخلوا فى النسخ ما ليس منه، بسبب خلطهم بين النسخ والتخصيص، أو بين النسخ والبيان ، وبسبب توهم التعارض الظاهرى بين الآيات، مع أنه لا تعارض فى الحقيقة ولانسخ ، وفاتهم أن النسخ هو آخر ما يصار إليه فى فهم آيات القرآن الكريم باتفاق العلماء ، وفاتهم ـ كذلك ـ أن يعرفوا أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحى له ، بل يقصدون به ما هو أعم منه ، مما يشمل بيان المجمل ،وتقييد المطلق ، ونحوهما ، ومن هؤلاء المسرفين (أبو جعفر النحاس) فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) (وهبة الله بن سلامة) وغيرهما .

(جـ) ومنهم المعتدلون الذين يقولون بالنسخ فى حدوده المعقولة ، فهم لم ينفوه إطلاقا ، ولم يتوسعوا فيه جزافا ، بل يقولون به فى حدود الضرورة، التى يقتضيها وجود التعارض الحقيقى بين الأدلة ، مع معرفة المتقدم منها، والمتأخر ، ومع وجود النقل الصحيح، الذى يؤيد ما ذهبوا إليه تأييداً بينًا .

---

(١) (علوم القرآن) لفضيلة الشيخ ابو سلامة.

وقد بذل العلماء الأثبات طاقتهم فى بيان أهمية النسخ ، وحكمة مشروعيته ، وأدلة ثبوته، وفى تمييز النسخ عن غيره ، فعرفوه تعريفا جامعا مانعا ، وبينوا طرق معرفته ، ووضحوا الأمور التى لا يجوز أن يعتمد عليها فى القول به ، وفصّلوا أنواعه ، ووضعوا شروطه ، وتوسعوا فى ذكر الفروق التى بينه وبين غيره من الأحكام ، وردوا على الشبهات التى أثيرت حوله ، وبذلك يتضح لنا أن ما أثاره اليهود من شبهات حوله لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، قد أبطلها القرآن الكريم ، وتولى علماء الإسلام دحضها بالتفصيل والتدليل [1] . ـ والله أعلم ـ

(هـ) جدالهم فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام :

من المسائل التى اشتهر فيها الجدل بين النبى ﷺ وبين اليهود ، مسألة تحويل القبلة ،من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكلامنا فى هذا الموضوع يتناول ما يأتى :

أولا : كيف كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ؟.

ثانيًا : ما الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ؟.

ثالثًا : كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل ؟.

رابعًا : تفسير الآيات الكريمة التى نزلت بشأن القبلة.

خامسًا : لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة رغم إنها من الأمور الفرعية ؟

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة.

أولا : فرضت الصلاة على النبى ﷺ فى مكة ليلة الإسراء والمعراج . ويرى بعض العلماء أن النبى ﷺ كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدبر الكعبة ، بل كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس ، وذلك بأن يقف بين الركنين: الأسود واليمانى.

---

(١) لمعرفة ما كتب عن النسخ من جميع الوجوه ، راجع ـ مثلا ـ كتاب « النسخ فى الشريعة الإسلامية » للأستاذ الدكتور مصطفى زيد . وكتاب « مناهل العرفان » للمرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى . ومحاضرة مطبوعة عن النسخ لفضيلة الدكتور محمد سعاد جلال.

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل فى صلاته وهو بمكة المسجد الحرام وهذا الرأى هو الذى نرجحه ، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم ، ولأنه ﷺ عربى ، وظهر بين قومه العرب ، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام ، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر ، إذن فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل المسلمون فى صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة.

ومهما يكن من خلاف بين العلماء فى الجهة التى كان النبى ﷺ يستقبلها فى صلاته، وهو بمكة ، فإن الأمر الذى لا خلاف فيه ، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل فى صلاته سوى بيت المقدس ، بأمر من الله - تعالى - وقد وردت أحاديث صحيحة فى ذلك ، منها ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ جهة مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قِبَلَ بيت المقدس فلما ولّى وجهه قِبَل البيت أنكروا ذلك [١] .

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح ، إذ جاءهم آتٍ فقال : إنَّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة [٢] .

وبذلك نرى أن النبى ﷺ كان يتوجه فى صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس ، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام.

ثانيًا : الشبهات التى أثارها اليهود بعد تحول المسلمين فى صلاتهم إلى المسجد الحرام.

قلنا إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة استقبل فى صلاته بيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفا لقلوب اليهود ، لأن بيت المقدس قبلتهم ، ورمز وحدتهم ،

---

(١) البخارى باب « الصلاة من الإيمان » من كتاب الإيمان جـ ١ ص ١٧ .
(٢) البخارى باب « ما جاء فى القبلة » من كتاب الصلاة جـ ١ ص ١٠٦ .

وقد فرحوا لصلاة الرسول ﷺ والمسلمين إليه وكان أمل النبى أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول فى الإسلام ، ولكنهم عموا وصموا ، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبى ﷺ قد اتبع قبلتهم وعما قريب سيتبع ملتهم ، واعتبروا اتجاه المسلمين فى صلاتهم إلى بيت المقدس نوعا من اقتباس الهدى منهم ، فتأثر الرسول ﷺ من موقفهم الجحودى ، وانبثقت فى نفسه أمنية التحول إلى الكعبة ، وأكثر من التضرع والابتهال إلى الله ؛كى يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم.

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه ﷺ فولاه القبلة التى يرضاها ، ففرح المؤمنون لذلك ؛لأن فى توجههم إلى البيت الحرام ، تاليفا لقلوبهم ، فهو مثابتهم ومركز تجمعهم ، وموطن أمنهم . ومهوى أفئدتهم ، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ .

أما اليهود ومَنْ على شاكلتهم ممن فى قلوبهم مرض ، فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود ، وإثارة الشبهات ، لبلبلة الأفكار ، وتشكيك المسلمين فى عقيدتهم.

ومما قاله المشركون فى ذلك : إن محمداً ﷺ قد تحير فى دينه ، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

ومما قاله المنافقون : ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها ؟

ومما قاله اليهود ـ الذين تولوا كبر التشكيك فى صحة التوجه إلى البيت الحرام ـ (إن القبلة الأولى ـ وهى بيت المقدس ـ إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق ،وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة ، ولو كان محمد ﷺ نبيا حقا ما ترك قبلة الأنبياء قبله، وتحول إلى غيرها ، وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غداً).

ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المرذولة ، الطعن فى شريعة الإسلام ، وفى نبوة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ

ثالثا : ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، فأخبر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعا قبل أن يصدر عنهم ، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ، ويثبت الإيمان فى القلوب ويهيىء الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم ، فذكر الله فى الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها ، لأن القادر على كل شيء ،

المالك للسموات والأرض تصرفا وتدبيراً ، أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب ، ففى أى مكان توجه المصلى فَثَمَّ وجه الله ، ثم نبه - رسوله - ﷺ بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم . إشارة إلى أن المصلحة فى التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت . وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماع نفوس لم تصطبغ بهداية الله وتوفيقه.

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعا للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه . وجعله - أيضا - حرما آمنا لهم . بينما يتخطف الناس من حولهم.

وأخيرا - سبحانه - أنه قد عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والقائمين والركع السجود.

ولقد كانت الآيات الواردة فى شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة ، كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل ، بأنّ بيتا له هذه القداسة جدير بأن يكون قبلة للناس فى صلاتهم ، ولكن اليهود ومن فى قلوبهم مرض ، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة فى نفوسهم ينقصها الدليل ، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة ، وكلاهما يعمى ويصم ، فلا غرابة إن نطقوا كفرا ، ولاكت ألسنتهم قبحا وسفها.

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة ، لم يجد آذانا صاغية من المؤمنين، لأن الله - تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس ولقَّن نبيه ﷺ الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ، ليكون ذلك أقطع لحجتهم ، كما قالوا فى الأمثال : (قبل الرمى يراش السهم).

رابعا : تفسير الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام:

١ - لقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة [١] فى شأن صرف القبلة

---

(١) الآيات من ١٤٢ - ١٥٠ .

إلى البيت الحرام ، لقن المؤمنين فيها الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم ، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية ، وبشرها بإجابة رجاء نبيها ﷺ إذ ولاه القبلة التى يرضاها ، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيرهم من الجاحدين ، ولو جاءهم بكل آية ، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل ، ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد ، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان .

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات، فى ثلاث آيات ، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه ، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكرارا فى الخطاب ليرسخ فى النفوس ، ويستقر فى المشاعر والقلوب .

هذا ، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحول القبلة من مقاصد ، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل ، فنقول : قال الله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (١) .

تضمنت هذه الآية الكريمة إعلام النبى - ﷺ والمؤمنين أن فريقا من الناس الذين خفت أحلامهم ، وضعفت عقولهم وعدلوا ، عما ينفعهم إلى ما يضرهم ، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام : أى شىء صرف المؤمنين عن قبلتهم التى كانوا عليها فى صلاتهم وهى بيت المقدس ؟

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : أى فائدة فى الأخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت : فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد قبل الحاجه إليه أقطع للخصم ، وأرد لشغبه) (٢) .

والمراد بالسفهاء : اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة ، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركى العرب .

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق ، وجحدوه ، وأنكروا نبوة النبى ﷺ مع علمهم بصدقه فى رسالته .

---

(١) سورة البقرة : الآيات من : ١٤٢ - ١٥٠ .   (٢) تفسير الكشاف : جـ١ ص ٢٣٧ .

وقد صرح البخارى ـ رحمه الله ـ بأن المراد بالسفهاء: هم اليهود ، فقد روى عن البراء بن عازب قال :

« كان رسول الله ﷺ يحب أن يُوجهَ إلى الكعبة ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ فتوجَّه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ ما ولاهُّم عن قبلتهم التى كانوا عليها »[1] .

ثم لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الجواب الذى يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم ، فقال تعالى :﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أى :قل لهم ـ يا محمد ـ إذا اعترضوا على التحويل : إن الأمكنة كلها لله ملكا وتصرفا ، وهى بالنسبة إليه متساوية ، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض ، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر، وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره ، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم ، لا ترجيحا لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم، فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق ، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك ، ثم إلى الكعبة ، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

٢ ـ ثم وصف الله ـ تعالى ـ الأمة الإسلامية ، بأنها أمة خيِّرة عادلة ، مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

والمعنى : ومثل ما جعلنا قبلتكم ـ أيها المسلمون ـ وسطا، لأنها البيت الحرام، الذى هو مثابة للناس وأمنا جعلناكم ـ أيضا ـ ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أى : خيارا عدولا بين الأمم؛ ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة ،التى تتوجهون إليها فى صلواتكم ، وتشهدوا على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ، ونصحوهم بما ينفعهم ، ولكى يشهد الرسول ﷺ عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

أخرج البخارى، عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : « قال رسول الله ﷺ يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون :ما أتانا من

---

(١) صحيح البخارى « باب التوجه إلى القبلة » جـ ٤ ص ١٠٤ من كتاب الصلاة.

نذير ، فيقال له من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، فذلك قوله - جل ذكره - ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

ثم بين الله - تعالى - الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ .

أى: وما شرعنا التوجه إلى القبلة، التى كنت عليها قبل وقتك هذا ، وهى بيت المقدس ، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر ، فنلعم من يتبع الرسول يأتمر بأوامره فى كل حال ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه ، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة ، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شىء ، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهدا فى العيان ، إذ تعلق الشىء واقعا فى العيان . هو الذى تقوم عليه الحجة ، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال لنعلم ولم يزل عالما بذلك ؟ قلت : معناه لنعلمه علما يتعلق به الجزاء ، وهو أن يعلمه موجودا حاصلا ، ونحوه ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ وقيل: ليعلم رسول الله، والمؤمنون ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده ، وقيل معناه : لنميز التابع من الناكص ،كما قال - تعالى - ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ فوضع العلم موضع التمييز ، لأن العلم به يقع التمييز به (٢) أ.هـ.

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة فى نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ .

أى : إنما شرعنا لك - يامحمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة؛ ليظهر حال من يتبعك ويطيعك فى كل حالة، ممن لا يطيعك ، وإن كانت هذه الفعلة - وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة ، إلا على الذين خلق الله الهداية فى قلوبهم ،فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان ، وقالوا: سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

---

(١) صحيح البخارى ، باب : « كذلك جعلناكم أمة وسطا » من « كتاب التفسير » جـ٦ ص ٢٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٣٨ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين ، وجواب لما جاشت به الصدور ، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين فى الفترة التى سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة .

فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ أنه مات على القبلة قبل أن تحوَّل رجال وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (١) .

وقال ابن عباس : كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى ، منهم ، أسعد بن زرارة ، وأبو أمامة .. وأناس آخرون فجاءت عشائرهم فقالوا : يا رسول الله : مات إخواننا ،وهم يصلون إلى القبلة الأولى ،وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾(٢) .

وروى أن حُيى بن أخطب، وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله ـ تعالى ـ والضلالة فيما نهى الله عنه ، فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا ؟ ـ وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة ـ فانطلق عشائرهم إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا، وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

والمعنى : وما كان الله ـ تعالى ـ ليذهب ثواب صلاتكم وأعمالكم الصالحة ،التى قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس ، لأنه ـ سبحانه ـ بعباده رءوف رحيم ، ولا يضيع أجر من أحسن عملا .

٣ ـ ثم خاطب الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ ووعده بأن القبلة التى سيؤمر بالتوجه إليها هى التى يحرص عليها ويرغب فيها فقال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ

---

(١) صحيح البخارى ، باب « الصلاة من الإيمان » من « كتاب الإيمان » جـ١ ص ١٨ .

(٢) أسباب النزول للنيسابورى جـ٢٣ .

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة، قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم ، فكان يدعو الله ، وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (١) .

والمعنى : قد شاهدنا ـ يا محمد ـ وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك إلى السماء ، تطلعا إلى نزول الوحي عليك ، وتوقعا لما ألقى فى روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيا منك وراء استمالة العرب إلى الدخول فى أحضان الإسلام ، ومخالفة لليهود الذين كانوا يقولون : أنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا ، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت ،وأعطيناك ما سألت ، ووجهناك إلى قبلة تحبها، وتميل إليها ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾.

أى : فاصرف وجهك وحَوِّله نحو المسجد الحرام وَجِهتهُ .

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها : فقال تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

أى : وحيثما كنتم وأينما وجدتم فى بر أو بحر ،فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه ، وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة؛ لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأولى خاصا بالنبى ﷺ، ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطره، خصهم بخطاب مفرد؛ ليكون ذلك آكد وأبلغ .

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها ،حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكان المصلى بالمدينة، أو بمكة، أو بغيرهما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٩٢ .

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ، ما يؤذن بكفاية مراعاة جهتها ، ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق . وأن من عاينها فرض عليه استقبالها، ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها . فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع.

وقد سقنا فى مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة، التى صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبى ﷺ قد أمر بالتحول إلى الكعبة، استداروا إليها، وهم فى صلاتهم ،فجعلوها قبلتهم.

ومما يشهد بقوة إيمانهم ،وعظيم امتثالهم لشرع الله، ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت :

« صلينا الظهر ـ أو العصر ـ فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء ـ أى بيت المقدس ـ فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام. فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى ﷺ قال : « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » »[1] .

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذى لا ريب فيه، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

أى : وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس، ليعلمون أن استقبالكم للكعبة حق ، لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله ، وأنه يصلى إلى القبلتين ، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم ،وما الله بغافل عن أعمالكم، بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حسابًا عسيرًا .

٤ ـ ثم أخبر الله ـ تعالى ـ عن كفر اليهود وعنادهم ، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول ﷺ بكل آية فقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٩٣ .

والمعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر بكل برهان وحجة ، بأن الحق هو ما جئتهم به ، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس فى الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام ، ما صدقوا به ، لأن تركهم أتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل ، وإنما هو عن مكابرة وعناد ، مع علمهم بما فى كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم ، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفى هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم ، وتقرير لحقيّة القبلة إلى الكعبة ، بعد أن أشاعوا بأن النبى ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبى المنتظر ، فقطع القرآن الكريم آمالهم فى رجوع النبى ﷺ إلى قبلتهم ، وأخبر بأنه ليس بتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب فى القبلة ، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : ﴿مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أى : ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود ، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك ، مختلفون فى باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب ، وجاء هذا التحذير فى شخص النبى ﷺ فقال تعالى : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أى : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم على سبيل الفرض ، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامى إليك بإقامتهم على الباطل ، إنك إذاً لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى.

فالآية الكريمة : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة ، وسيق الوعيد والتحذير فى صورة الخطاب للرسول ﷺ الذى لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب ، تأكيدا للوعيد والتحذير ، فكأنه يقول :

لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة ، وأعلاهم منزلة عندى ، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه ،فى الفضل وعلو المنزلة، إن اتبعوا أهواء المبطلين، وهم اليهود، ومن كان على شاكلتهم من المشركين :

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان ، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟.

قلت : كلتا القبلتين باطلة ، مخالفة لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة [1] .

٥ ـ ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق رسول الله ﷺ معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

أى : أن أحبار اليهود، وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبى ﷺ ، ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق ، كما يعرفون أبناءهم ، فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسية فى أن كلا منها يقين لا اشتباه فيه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبى صغير «ابنك هذا » ؟ قال :نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : « أما أنه لا يجنى عليك، ولا تجنى عليه » ويروى عن عمر أنه قال (لعبد الله بن سلام) : أتعرف محمدا ﷺ كما تعرف ولدك . قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته ، وإنى لا أدرى ما كان من أم ولدى ، فقبل عمر ـ رضى الله عنه ـ رأسه[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على الحق فى كل شئونك ليتمادون فى إخفائه وجحوده ، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم فى الدنيا والآخرة .

٦ ـ ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق ،الذى لا شك فيه فقال تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٤ .

أى : اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك، وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذى جاءك من ربك ، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه ، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم، الحق مع علمهم به ، أو فى الحق الذى جاءك من ربك، وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك، ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ ، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيها ﷺ : إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروّج به أهل الكتاب شبها تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله :

فإن قال لنا قائل : « أو كان النبى ﷺ شاكا فى أن الحق من ربه، أو فى أن القبلة التى وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن الشك فى ذلك، فقيل له ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ . قيل : ذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به . والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه :﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ثم قال ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فخرج الكلام مخرج الأمر النبى ﷺ والنهى له . والمراد به أصحابه المؤمنين» (١) .

٧ - ثم قال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ .

أى : لكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها فى عباداتهم ، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين ، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله - تعالى - وعدا لمن يطيع أمره ، ووعيدا لمن ينصرف عن الخير ، فقال تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى : فى أى بقعة يدرككم الأجل ، وتموتون فيها ، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة . لتقفوا بين يديه للحساب ، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٧ .

من قبوركم حيث كنتم ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم ، كما أنه ـ سبحانه ـ قدير على كل شيء ، وما دام الأمر كذلك ، فبادروا بالأعمال الصالحة شكرا لربكم، وحافظوا على قبلتكم ، حتى لا تضلوا كما ضل غيركم من اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر والعناد.

٨ ـ ثم أكد ـ سبحانه ـ حكم التحويل ، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام فى حالتى السفر أو الحضر فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أى : ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت ، فول ـ يا محمد ـ وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام، وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذى لا شك فيه من عند ربك ، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون ، وأطيعوا الله ـ تعالى ـ فى كل ما يأمركم به ، وينهاكم عنه ، لأنه ـ سبحانه ـ ليس بساه عن أعمالكم ، ولا بغافل عنها ، ولكنه محصيها عليكم ، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

٩ ـ ثم كرر ـ سبحانه ـ الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

أى : ومن أى مكان خرجت ـ يا محمد ـ فول وجهك تلقاء المسجد الحرام ، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله ، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

وتلك هى المرة الثالثة التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم ، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام ـ كما قال كثير من العلماء ـ فاقتضى الأمر تأكيده حتى يرسخ فى نفوس المؤمنين ويستقر فى مشاعرهم ، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح ، ولأن الله ـ تعالى ـ أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لنبيه ـ ﷺ ـ وللمؤمنين :

إلزموا هذه القبلة لأنها هى القبلة التى ترضونها وترغبون فيها وطالما تمنيتموها ، وإلزموها ـ أيضا ـ لأنها هى القبلة التى لن تنسخ بعد ذلك .

وإلزموها ـ كذلك ـ لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين ، وغيرهم من المعاندين والخاسرين .

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام فى هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث .

أولها : قوله تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية .

والمعنى : عليك ـ أيها النبى ـ ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة ، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم ، فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس . إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا ؟ إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول .

وقوله تعالى ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس ، والمعنى :

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم ، إلا للمعاندين منهم القائلين ، ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حبا لدين قومه ، واشتياقا لمكة ، وهؤلاء لا تخافوا مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ولا تقيموا لما يشاغبون به فى أمر القبلة وغيره وزنا ، فإنى كفيل أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم ، فأنتم ـ أيها المؤمنون ـ ما توجهتهم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بأذن ربكم وأمره ، ففى الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم ـ عز وجل ـ .

وقد أحسن صاحب الكشاف فى شرحه للجملة الكريمة ، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال :

﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ استثناء من الناس ، ومعناه : لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم ، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميْلا إلى دين قومه ،وحبا لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله . فإن قلت : أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يُحوَّل حتى احترز من تلك الحجة ، ولم يبال بحجة المعاندين ؟

قلت : كانوا يقولون ما له لا يُحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة ؟ فإن قلت : كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين ؟

قلت : لأنهم يسوقونه سياق الحجة . ويجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة ، حين يقولون بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم [1] .

وثانيها : قوله تعالى :﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ أي : ولّوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم ، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : وكي ترشدوا للصواب في كل أموركم ، فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه ، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهي قوله تعالى ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين ، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم في هذه المسألة.

خامسا : هذا ، وفي ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال الخامس ، وهو :

لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة؟ فنقول :

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان ، وكرر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة ، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق ، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره ، وساق وجوها من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٤٠ .

والمقتضى لهذه العناية ، وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال بذلك كثير من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان ، فاقتضى الأمر بسط الحديث فى مسألة القبلة ليزدادوا إيماناً على إيمانهم .

ولأن هذا التحويل - أيضا - جاء على خلاف رغبة اليهود ، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين فى التوجه إلى بيت المقدس ، لأنه قبلتهم ، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام ، اتخذوا منه مادة للطعن فى صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة ، وسلكوا لبلبلة أفكار المسلمين كل وسيلة .

فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة ، ومباين للعقول ، فلا يقع فى الشرائع الإلهية ، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة .

ويبدو أن شغبهم هذا ، كانت له آثاره عند ذوى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأنا غير شأن بقية الأحكام الفرعية ، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضا ، ومدعما بالأدلة والبراهين ، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة ، فلقد كرر وقرر ، ووعد وتوعد، ووضح وبيّن ، ليدفع كل شبهة ، وليجتث كل حجة ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين فى العلم ، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(و) جدالهم فيما حُرِّم عليهم من الأطعمة ، وفى أفضلية البيت الحرام :

ومن الشبهات التى أثارها اليهود ، وجادلوا النبى ﷺ فيها شبهتان :

تقرير الشبهة الأولى : أنه عندما نزل قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ قال اليهود : لسنا أول مَن حرمت عليهم هذه المطاعم ، ولم تحرم علينا عقابا لنا أو لظلمنا، بل هى كانت محرمة على إبراهيم، ومن أتى قبله وبعده من الأنبياء .

وتقرير الشبهة الثانية : أنهم قالوا عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام : ـ يا محمد ـ إن بيت المقدس أفضل من الكعبة ، وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبلها ، وهو أرض المحشر ، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه، ويصلون إليه ، وقد وعد الله ـ تعالى ـ إبراهيم أن تكون البركة فى نسل ولده إسحاق ، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ، ولبقيت على استقباله أبدا ، دون أن تتحول إلى المسجد الحرام ، فإن فى تحولك إليه مخالفة لقبلة الأنبياء من قبلك .

هذا هو تقرير الشبهتين اللتين أوردهما اليهود؛ للطعن فى نبوة النبى ﷺ، وقد أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى الرد على هاتين الشبهتين، وتزييف ما اشتملتا عليه من مغالطات ومكابرات ، فقال ـ تعالى ـ فى الرد على الشبهة الأولى.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾ (١) .

وقال ـ سبحانه ـ فى الرد على الشبهة الثانية :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ (٢) .

ولنبدأ بعد ذلك فى تفسير الآيات الكريمة فنقول :

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .. إلخ ﴾ .

تكذيب لليهود فى زعمهم أن ما حرم عليهم من الأطعمة كان محرما على غيرهم قبل نزول التوراة ، وأن الله لم يحرم عليهم شيئا بسبب ظلمهم كما سنفصل ذلك قريبا.

---

(١) سورة آل عمران .

(٢) سورة آل عمران .

والمعنى : كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل، قبل نزول التوراة ، إلا شيئًا واحدا كان محرما عليهم - أيضا - قبل نزول التوراة وهو ما حرمه إسرائيل على نفسه منها، فإنهم حرموه على أنفسهم استنانا بأبيهم ، فلما أنزل الله - تعالى - التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم ، قل لهم - يا محمد - إن جادلوك فيما أخبرناك عنه جيئوا بالتوراة فاقرؤوها إن كنتم صادقين فى دعواكم أن ما حرمه الله عليكم فيها ، كان محرما على نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام -.

فالآية الكريمة قد تضمنت أمورا ، من أهمها :

أولا : إبطال حجتهم ، فيما يتعلق بقضية النسخ ، إذ زعموا أن النسخ محال ، واتخذوا من كون النسخ مشروعا فى الإسلام ، ذريعة للطعن فى نبوة محمد ﷺ فدحض القرآن الكريم مدعاهم ، وألزمهم الحجة عن طريق كتابهم ، فقد أخبر - سبحانه - أن جميع الأطعمة السابقة على نزول التوراة ، كانت حلالا لبنى إسرائيل - سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه - واستمر الأمر على ذلك حتى نزلت التوراة فحرم الله عليهم فيها بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم ، وتحريم التوراة لبعض المطاعم التى كانت حلالا لهم قبل نزولها هو النسخ بعينه .

قال الإمام ابن كثير : الآية شروع فى الرد على اليهود ، وبيان بأن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله - تعالى - قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا - عليه السلام - لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الأبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وبتحريم أشياء أخرى زيادة على ذلك . وهذا هو النسخ بعينه (١) .

وقد صرح ابن كثير وغيره من المفسرين أن ما حرمه إسرائيل على نفسه هو لحوم الأبل وألبانها ، وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبى ﷺ وكان تحريمه لها تعبدا وزهادة وقهرا للنفس ،طلبا لمرضاة الله - تعالى -.

وقيل : إن ما حرمه على نفسه هو العروق ، روى ذلك عن ابن عباس، والضحاك

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٨٢ .

والسدى وغيرهم موقوفا عليهم . قالوا : كان يعتريه عرق النسا بالليل فيزعجه ، فنذر إن عوفى منه لا يأكل عرقا ، فلما شفاه الله ترك أكل العروق؛ وفاء بالنذر.

ثانياً : تضمنت ـ أيضا ـ تكذيبهم في دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم وإنما كان محرما على غيرهم ممن سبقهم من الأمم ، وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى بقوله : (وهو ـ أى ما اشتملت عليه الآية ـ رد على اليهود ، وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) وفي قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٢) ـ وحيث أرادوا جحود ما غاظهم ،واشمأزوا وامتعضوا مما نطق به القرآن، من تحريم بعض الطيبات عليهم ؛لبغيهم وظلمهم ، فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ،كانت ـ هذه الأشياء ـ محرمة على نوح، وعلى إبراهيم، ومَنْ بعده من بنى إسرائيل، وهلم جرا ، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا ، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله ، وأكل الربا، وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساويهم التى كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم) (٣) .

ثالثاً : تضمنت كذلك أمرا من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ بأن يتحداهم بالتوراة ويبكتهم بما نطقت به ،وذلك بقوله ـ تعالى فى الآية الكريمة ـ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : ما دمتم ـ يا معشر اليهود ـ قد زعمتهم أن ما حرِّم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم ليس تحريما حادثا ، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم ، فها هى ذى التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها بإمعان وتدبر إن كنتم صادقين فى مدعاكم.

---

(١) سورة النساء : الآيتان ١٦٠ ، ١٦١ .　　(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٦ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣١٤ .

والتعبير (بإن) يشير إلى عدم صدقهم ، لأنها تدل على الشك فى الشرط أى : هم ليسوا صادقين فيما يزعمون ، ولذلك لايتلون ولا يقرؤون ، ولو جاءوا بها لكانت مؤيدة لما أخبر به القرآن الكريم ، ولذلك لم يجسروا على إخراج التوراة ، وبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وفى ذلك الحجة البينة على صدق النبى ﷺ .

قال الإمام ابن جرير : « وأما قوله :﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول : إن كنتم محقين فى دعواكم أن الله أنزل تحريم - لحوم الأبل وألبانها - فى التوراة فأتونا بها ، واتلوا تحريم ذلك علينا منها ، وإنما ذلك خبر من الله - تعالى - عن كذبهم ، لأنهم لا يجيئون بذلك أبدا على صحته ، فاعلم الله بكذبهم عليه نبيّه ﷺ وجعل إعلامه إياه ذلك حجة له عليهم ، لأن ذلك إذ كان يخفى على كثير من أهل ملتهم ، فمحمد ﷺ وهو أمى من غير ملتهم ، لولا أن الله أعلمه ذلك بوحى من عنده . كان أحرى ألا يعلمه ، فكان فى ذلك له ﷺ من أعظم الحجة عليهم بأنه نبى الله إليهم ، لأن ذلك من أخبار أوائلهم ، وهو من خفى علومهم، التى لا يعلمها إلا خاصتهم ».

ثم توعدهم الله - تعالى - على كذبهم وجحودهم للحق فقال تعالى :﴿ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾أى : فمن تعمد الكذب واستمر عليه ، بزعمه أن ما حرم على بنى إسرائيل فى التوراة من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم ، كان محرما على غيرهم قبل نزولها ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى: فأولئك هم الكاذبون، الذين تجاوزوا الحدود المشروعة، وقالوا على الله الباطل ، من بعد ما تبين لهم الحق .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى اتباع ملة إبراهيم، فقال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل﴿ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ فيما أخبرنا من قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ وأنتم الكاذبون فى دعواكم أن ما حرم عليكم فى التوراة، بسبب ظلمكم ،كان حرامًا على غيركم، ممن سبقكم من الأمم،فالجملة الكريمة تعريض بكذبهم وافترائهم.

ثم قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى : فاتبعوا ملة الإسلام، التى عليها محمد ﷺ، ومن آمن معه ، فإنهم هم المتبعون حقًا لإبراهيم - عليه السلام - وهم

أولى الناس به ، وإبراهيم ما كان يهوديًا ولانصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا ، أى كان مستقيما مسلما وجهه الله وحده ، ثم نفى الله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى: ما كان إبراهيم فى أى أمر من أموره، من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى وإنما كان مخلصًا عبادته لله وحده ، ولقد أمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم، فقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ .

وفى ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال .

وبعد أن أبطل القرآن الكريم شبهتهم الأولى ورد عليهم بما يرشدهم إلى الصواب لو كانوا طلاب هداية ، شرع فى تفنيد شبهتهم الثانية ، وهى زعمهم أن بيت المقدس أفضل من الكعبة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

المراد بالبيت : البيت الحرام الذى بمكة ، والمقصود بكونه أول بيت : أنه أول بيت جعله الله تعالى - متعبداً للناس .

والمعنى : أن أول بيت وضعه الله - تعالى - للناس فى الأرض ليكون متعبداً لهم هو البيت الحرام الذى بمكة حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم حوله ، ففى الصحيحين، عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله : «أى مسجد وضع فى الأرض أولُ ؟» قال : «المسجد الحرام» ، قلت . ثم أى ؟ قال : «المسجد الأقصى» ، قلت كم بينهما ؟ قال :« أربعون سنة» ثم قال :« حيثما أدركتك الصلاة فصل ،والأرض لك مسجدا» (١) .

وإذن: فالبيت الحرام أسبق بناء من بيت المقدس ، وأجمع منه للديانات السماوية، وهو - أى البيت الحرام - أول بيت جعل الله - تعالى - حج الناس إليه عبادة، وطوافهم حوله عبادة ، ولا يوجد بيت سواه، الحج إليه ركن من أركان الإسلام .

---

(١) صحيح البخارى : باب:﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد ﴾ من كتاب « بدء الخلق » جـ ٤ ص ١٩٧ .

وبذلك ثبت كذب اليهود فى دعواهم : أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام ، وأن فى تحول الرسول ﷺ إلى الكعبة فى صلاته ، مخالفة للأنبياء قبله .

ثم وصف الله ـ تعالى ـ بيته الحرام بأنه ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أى : كثير الخير ، بسبب ما يحصل لمن حجه واعتمره، وعكف عنده ،وطاف حوله من الثواب الجزيل . ومضاعفة الأجر . وإجابة الدعاء ، وتكفير الخطايا . وهو فى الوقت ذاته ، وفير البركات المادية والمعنوية .

فمن بركاته المادية : إتيان الناس إليه من كل فج عميق، ومعهم خيرات الأرض ، يقدمونها على طريق تبادل المنفعة، أو الصدقة لمن يعيشون حوله ، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ (١).

ومن بركاته المعنوية : أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين، وهى فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم، على اختلاف أجناسهم، وألوانهم وأماكنهم .

ووصفه بأنه ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى :هو بذاته مصدر هداية للعالمين ؛لأنه قبلتهم ومتعبدهم ، وفى استقباله توجيه للعقول والقلوب إلى الله ـ تعالى ـ

ووصفه بأنه أى : فيه دلائل واضحات، وعلامات ظاهرات تدل على شرف منزلته ، وعلو مكانته .

ثم بين الله ـ تعالى ـ بعض هذه الآيات البينات، فقال تعالى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى : المقام المعروف بهذا الاسم.

فعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ : أن رسول الله ﷺ استلم الركن فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم ، فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين (٢)

فمقام إبراهيم :هو موضع قيامه ؛لعبادة الله تجاه الكعبة ، ولا شك أن فى المحافظة على مقام إبراهيم،وفى الأمر باتخاذه مصلى، أى :موضعا للصلاة والدعاء ، آية على

---

(١) سورة إبراهيم . (٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٧٠.

أن محمدا ﷺ ومن معه على ملة إبراهيم ، وأن الإسلام هو دين إبراهيم - عليه السلام .

ومعنى أنّ فى البيت مقام إبراهيم : أنه فى فنائه ،ومتصل به .

وقد رجح ابن جرير أن قوله تعالى : ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو بعض الآيات البينات التى فى البيت الحرام ؛ فقال « وأَوْلىَ الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب قول مَنْ قال : الآيات البينات منهن :مقام إبراهيم، وهو قول قتادة ،ومجاهد ، الذى رواه معْمَر عنهما، فيكون الكلام مرادا فيهنّ منهن ، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليها . فإن قال قائل : فهذا المقام من الآيات البينات فما سائر الآيات التى من أجلها قيل ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾؟ قيل : منهن المقام ، ومنهن الحجر ، ومنهن الحطيم »[1] .

ثم ذكر الله - تعالى -آية أخرى من الآيات التى تدل على فضل البيت الحرام وكرامته فقال تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ أى : من التجأ إليه أمِن من التعرض له بالأذى أو القتل ، قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [2] وفى ذلك إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم إذ قال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [3] .

ولا شك أن فى أمن من دخل هذا البيت ، أكبر آية على تعظيمه، وعلى عُلو مكانته عند الله؛ لأنه موضع أمان الناس، فى بيئة تغرى بالاعتداء، لخلوها من الزرع والنبات .

وفى الصحيحين، عن أبى شريح العدوى، أنه قال لعمرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكة - يعنى لقتال ابن الزبير - إئذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سَمعَتْه أذناى، ووعاه قلبى ، وأبصرَتْه عيناى ، حين تكلم به [4] ، أنه حمدا لله وأثنى عليه، ثم قال :« إن مكة حرّمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١١ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٨ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .

(٤) أراد بقوله (سمعته أذناى ، ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى) المبالغة فى تحقيق حفظه إياه ، وتيقنه من زمانه ومكانه ولفظه .

يَعْضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص [1] بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب » . فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو؟ قال :أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح . إن الحرم لا يُعيذ عاصيا[2] ، ولا فاراً بدم [3] ولا فارا بخربة) [4] ، [5] .

قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) [6] وقوله : « فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً » هذا التحريم لسفك الدم هو المختص بها ، وهو الذى يباح فى غيرها ويحرم فيها لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح فى غيرها ، إذا الجميع فى كلام واحد ، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص .

ثم قال ابن القيم - رحمه الله - والمعنى الذى ساق أبو شريح العدوى الحديث لأجله أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الأمام لا تقاتل لا سيما أن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم ،وإحلال حرم الله جائزا بالنص والإجماع ، وإنما خالف فى ذلك عمرو بن سعيد، الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيذ عاصيا ، فيقال له : هو لا يعيذ عاصيا من عذاب الله ، ولو لم يعذه من سفك دمه لم يكن حرما بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرما بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم،وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعذ مقيس بن صبابة، وابن خطل، ومن سُمى معهما لأنه فى تلك الساعة لم يكن حرما بل حلا ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه، يوم خلق الله السموات والأرض .وكانت العرب فى جاهليتها،يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم فلا يهيجه،وكان ذلك بينهم خاصة الحرم التى صار بها حرما،

---

(١) ترخص : أى: أخذ فيه بالرخصة.

(٢) لا يعيذ عاصياً أى: لا يجيره ولا يعصم دمه.

(٣) ولا فارا بدم : أى :ولا يعيذ الحرم إنساناً هارباً التجا إليه بسبب من الأسباب الموجبة للقتل.

(٤) ولا فاراً بخربة : أى: بسبب سرقة أو خيانة.

(٥) أخرجه البخارى فى باب « فليبلغ العلم الشاهد الغائب » من (كتاب العلم) جـ١ ص ٣٧ . وأخرجه مسلم فى (كتاب الحج) جـ٢ ص ٩٨٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(٦) راجع الجزء الثانى ص ١٧٧ وما بعدها : طبعة الحلبى.

ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الألحاق وقال لأصحابه فإنْ أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لك ، وعلى هذا فمن أتى حدا أو قصاصا خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم تجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ،رضي الله عنه، أنه قال : «لو وجدت فيه قاتل الخطاب مامسسته، حتى يخرج منه » . وذكر عبد الله بن عمر أنه قال : «لووجدت فيه قاتل عمر ما بدهته» . وعن ابن عباس أنه قال :« لو لقيت قاتل أبي في الحرم ماهيجته حتى يخرج منه» ، وهذا قول جمهور التابعين، ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافه.

وإليه ذهب أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ومن وافقه من أهل العراق والإمام أحمد، ومن وافقه من أهل الحديث .

وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم، كما يستوفى منه في الحل، وهو اختيار ابن المنذر (١) .

ثم بين الله ـ تعالى ـ لزوم الحج على كل قادر عليه ،فقال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أن الله ـ تعالى ـ فرض على الناس أن يحجوا بيته في أوقات معينة ، وبكيفية مخصوصة ، متى استطاعوا أداء هذه الفريضة ﴿وَمَن كَفَرَ ﴾ أي : من جحد فرضية الحج وأنكرها ،ولم يؤدها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غني عنه، وعن حجه وعن الناس جميعًا .

قال صاحب الكشاف : (وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ يعني: أنه حق واجب لله في رقاب

---

(١) زاد المعاد لابن القيم . والخلاصة : ان للعلماء اقوالا فيمن جنى جناية تستوجب القصاص او ما دونه داخل الحرم او خارجه . وملخص ما قالوه : انَّ من كان داخل الحرم وفعل ما يوجب حدًا او قصاصًا اقام الحاكم عليه الحد او القصاص . وإن كانت الجناية خارج الحرم ثم لجا إلى الحرم ، فإن كانت هذه الجناية لا تستوجب قتل الجاني اقم عليه الحد في الحرم وإن كانت تستوجب القتل ففيها خلاف بين الفقهاء . فالجمهور على انه لا يقتص منه داخل الحرم حتى يخرج منه ، وهو قول ابي حنيفة واحمد.
وذهب مالك والشافعي إلى انه يستوفى منه في الحرم كما يستوفى منه في الحل ولله در ابن القيم فقد افاض في بيانه لادلة الفريقين بما لا مجال لذكره هنا.

الناس ، لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته ، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الأبدال تثنية للمراد، وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام،والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ، ومنها : قوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج . ومنها : ذكر الاستغناء عنه ، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ، ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل عنه ، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط) (١) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود فى دعواهم أن ما حرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيهم ، وكذبتهم فى دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام.

وقد اشتمل هذا الرد على ما يثبت افتراءهم من واقع التاريخ ، فقد أمر الله - تعالى - النبى ﷺ أن يطالبهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين فى دعواهم ، فبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وأثبت القرآن الكريم أن البيت الحرام أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله ، فهو يسبق بيت المقدس فى أولوية الشرف والزمان ، وإذن فجدال اليهود للنبى ﷺ فى هذه الأمور ما هو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق ، والمعاند والجاحد لا ينفع معهما دليل أو برهان ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثانيًا : تعنتهم فى الأسئلة بقصد إحراج الرسول ﷺ :

استعمل اليهود فى المسلك السابق الذى تكلمنا عنه باستفاضة المجادلات الدينية ، والمخاصمات الكلامية ، لزلزلة الإيمان فى نفوس أتباع الدعوة الإسلامية ، ولكنهم حين وجدوا أن هذه المجادلات قد فشلوا فيها ، وخرجوا منها بالخيبة والخسران ، لأنّ القرآن الكريم لقّن رسول الله ﷺ الإجابات التى تبطل حجتهم ، وتخرس ألسنتهم ، لجأوا إلى مسلك آخر لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم . ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنتة إلى الرسول ﷺ بقصد إحراجه ، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم.

---

(١) تفسير الكشاف : جـ١ ص ٣١٦ .

وقد حكى القرآن الكريم هذا المسلك الخبيث من اليهود ، ووبخهم عليه ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظى، قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : ـ يا محمد ـ إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتنا أنت بالألواح من عند الله ،حتى نصدقك ، فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ .. الآيات [٢].

والمراد بأهل الكتاب هنا :اليهود خاصة ،بدليل سياق الآيات الكريمة التى ذكرت أوصافا لا تنطبق إلا عليهم.

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ معناه : يسألك اليهود ـ يا محمد ـ على سبيل التعنت والعناد ، أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة ،كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة ،مكتوبة فى الألواح جملة، أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا من السماء ،تأمرهم بتصديقك، واعلم ـ يا محمد ـ أنهم لو أجيبوا إلى ما طَلَبُوا ما آمنوا بك ، لأن الذى حملهم على سؤالهم هو: التعنت والجحود ، والمتعنت والجاحد لا يقنعه دليل ،أو برهان ، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا ،لما سألوك ذلك ، لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك.

ثم وبخهم الله ـ تعالى ـ على سؤالهم هذا ، وسلّى نبيه ﷺ، فقال تعالى .﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أى : لا تحزن ـ يا محمد ـ لأسئلتهم ، ولا تبتئس لتعنتهم ، فإن آباء هؤلاء الذين سألوك ، وسار أبناؤهم على نهجهم فى العناد ، قد سألوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ أعظم مما سألوك ، من تنزيل كتاب عليهم من السماء ، فحاضر هؤلاء اليهود ،كماضى آبائهم الأقدمين ، لا يهمهم قوة الدليل ، وإنما يهمهم إعنات الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٧ .

قال صاحب الكشاف : « ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب الشرط مقدر، معناه : إن استكبرت ما سألوك عنه ،فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، وإنما أسند السؤال إليهم ،وان وجد من آبائهم في أيام موسى ، لأنهم كانوا على طريقتهم، وراضين بسؤالهم ،ومضاهين لهم فى التعنت » [1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما سأل عنه بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ وما أصابهم نتيجة لتعنتهم ،فقال تعالى : ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى : فقد سأل بنو إسرائيل السابقون نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ أعظم مما سألك عنه المعاصرون، فقالوا له ، رغم الآيات الظاهرة ، والأدلة الباهرة ، التى دلت على صدقه، يا موسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى : عيانا نعاينه بأبصارنا ، ونراه بعيوننا، فترتب على قولهم هذا الذى يدل على جراتهم على الله ، أن ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى : نزلت عليهم نار من السماء، تجلجل بصوت رهيب، فصعقتهم بسبب طغيانهم وظلمهم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ رذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة، فقال تعالى :﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ أى : أن هؤلاء الذين سألوا موسى ـ عليه السلام ـ رؤية الله جهرة ، بعد أن أحياهم الله من صعقتهم، وبعد أن أنقذهم الله من فرعون وظلمه ، وبعد أن رأوا من الآيات الدالة على صدق نبيهم موسى ما رأوا، بعد كل ذلك ، اتخذوا العجل إلها معبودا من دون الله ، ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾ بسبب توبتهم، التي تابوها إلي ربهم بقتلهم أنفسهم ، وصبرهم فى ذلك على أمر ربهم .﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾أى : أعطيناه حججا بينات، ومعجزات باهرات،وقوة وقدرة على الانتصار،على من خالفه .

ثم بين ـ سبحانه ـ لونًا آخر من جحودهم وعنادهم فقال تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ وذلك أنهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة . وظهر منهم إباء، عما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٩٤ .

رفع الله على رءوسهم جبلا ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى الجبل فوق رءوسهم ؛خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ .. الآية [(1)] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى : وقلنا لهم حين أمرناهم بدخول باب مدينة بيت المقدس ، ادخلوه خاضعين لربكم ، طائعين لأمره ، مطاطئين رءوسكم ؛شكرا له ، ولكنهم خالفوا ما أمروا به من القول والفعل .

وقلنا لهم كذلك: ﴿ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾أى : لا تتجاوزوا الحدود، التى أمركم بالتزامها يوم السبت ، وهى ألا تصطادوا الحيتان فى هذا اليوم ، ولكنهم تحايلوا على صيدها ، وارتكبوا ما نهى الله عنه ، فصيرناهم قردة خاسئين .

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى : عهدا مؤكداً شديدا ، بأن يعملوا بما أمرهم الله به ، وينتهوا عما نهاهم عنه ، ولكنهم نقضوا عهودهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه بغير حق ، وانغمسوا فى السيئات والمعاصى ، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان ، قد كشفتا عما يريده اليهود، من إحراج للرسول ﷺ عن طريق أسئلتهم المتعنتة ، ووبختاهم على ذلك ، وساقتا طرفا من رذائلهم وقبائحهم ، ليعرفهم المؤمنون على حقيقتهم، فينصرفوا عنهم ويتقوهم ، وبذلك يرجع كيد اليهود إلى نحورهم .

هذا ، ومن قبيل الأسئلة المتعنتة التى وجهها اليهود إلى النبى ﷺ ، سؤالهم إياه عن الروح ، وعن طعام أهل الجنة، وشرابهم ، وعن الجنازة، وهل تتكلم؟ وعن وحدانية الله ، وعن ذى القرنين ، وعن ذات الله ـ تعالى ـ إلى غير ذلك من الأسئلة التى وجهوها إلى النبى ﷺ بقصد إحراجه ،والإساءة إليه، لا بقصد المعرفة، والوصول إلى الحق .

١ ـ فقد جاء فى الصحيحين ،عن عبد الله بن مسعود، قال : « بينّا أنا مع النبى ﷺ فى حرث، وهو متكىء على عسيب ـ أى جريدة نخل ـ إذ مرّ اليهود فقال

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧٣ .

بعضهم لبعض : سلوه عن الرُّوح ، فقال ما رَابَكم إليه ؟ - أى: ما دعاكم إلى سؤال تخشون سوء عقباه - وقال بعضهم: لايستقبلكم بشيء تكرهونه ، فقالوا: سلوه ، فسألوه عن الروح ، فامسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١) .

٢ - وفى صحيح مسلم، عن ثوبان، أنه قال : « كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها ، فقال : لم تدفعنى ؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله ! فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله ، فقال رسول الله ﷺ : « اسمى الذى سمانى به أهلى محمد » فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الظلمة دون الجسر» - أى: الصراط - فقال اليهودى : فمن أول الناس إجازة - أى: عبورا على الصراط - ؟ قال : « فقراء المهاجرين» . فقال اليهودى : فما تُحْفَتهُم - أى: هديتهم - حين يدخلون الجنة ؟ فقال رسول الله ﷺ :« زيادة كبد الحوت » ، فقال اليهودى : فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . فقال : فما شرابهم عليه ؟ قال! « من عين تسمى سلسبيلا » . فقال اليهودى صدقت .

وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى ،أورجل أو رجلان. قال : « ينفعك إن حدثتك » فقال اليهودى : أسمع بأذنى ، ثم قال : جئت أسألك عن الولد ؟ فقال النبى ﷺ « ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعَلا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكر - بإذن الله - أى: كان الولد ذكرا - وإذا علا منىُّ المرأة مَنِىّ الرجل آنثا - بإذن الله - أى :كان الولد أنثى - فقال اليهود : لقد صدقت وإنك لنبى ، ثم انصرف فذهب » (٢) .

٣ - وأخرج أبو داود ،عن أبى نملة الأنصارى ،عن أبيه ، أنه بينما هو جالس عند

---

(١) أخرجه البخارى - واللفظ له - باب ويسالونك عن الروح من كتاب « التفسير» جـ٨ ص ١٠٩ وأخرجه مسلم فى باب « سؤال اليهود » من كتاب « صفات المنافقين » جـ ٤ ص ٢١٥٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الحيض جـ١ ص ٢٥٢ .

رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود ، إذ مرَّ بجنازة، فقال اليهودى : يا محمد هل تتكلم الجنازة ، فقال النبى ﷺ : « الله أعلم »، فقال اليهودى : إنها تتكلم ، فقال النبى ﷺ :« ما حدثكم به أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم وقولوا :آمنا بالله ورسله،فإن كان باطلا لم تصدقوه وإن كان حقا لم تكذبوه » (١) .

٤ ـ وقال ابن إسحاق : « أتى رسول الله ﷺ النحّامُ بن زيد وقَرْدَم بن كعب ، وبَحْرِىّ بن عمرو ، فقالوا له يا محمد : أما تعلم أنَّ مع الله إلها آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ :« الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدْعُو ، فأنزل الله فيهم : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

٥ ـ وقال أيضا : قال جبل بن أبى قُشير ، وشَمْويل بن زيد لرسول الله ﷺ ، يامحمد أخبرنا ، متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟ فأنزل الله فيهما : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

٦ ـ وقال ـ أيضًا ـ قال حيىٌّ بن أخطب ، وكعب بن أسد ، وأبو رافع، وأشيع ، وشمويل بن زيد ، لعبد الله بن سلام ، حين أسلم : ما تكون النبوة فى العرب ، ولكنَّ صاحبك مَلك ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذى القرنين ، فقص عليهم ما جاءه من الله ـ تعالى ـ فيه ، مما كان قص على قريش ، وهم كانوا ممن أمر قريشا أن يسألوا رسول الله ﷺ عنه ، حين بعثوا إليهم النضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبى معيط (٤) .

٧ ـ وقال ـ أيضا ـ : وحُدِّثت عن سعيد بن جبير ،أنه قال :

---

(١) سنن أبى داود « كتاب العلم » جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٠.

أتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟

قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى انتُقع لونه ، أى: تغير: ثم ساورهم - أى باطشهم - غضبا لربه ، قال : فجاء جبريل - عليه السلام - فسكنه فقال : خفض عليك يا محمد ، وجاءه من الله - تعالى - بجواب ما سألوه عنه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ قال : فلما تلاها عليهم ! قالوا فصف لنا - يا محمد - كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب ﷺ أشد من غضبه الأول ، وساورهم فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال له مثل ما قال أول مرة ،وجاءه من الله - تعالى - بجواب ما سألوه بقول الله - تعالى - : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ⑥⑦﴾ (١) .

هذه بعض النماذج للأسئلة المتعنتة، التى وجهها اليهود إلى النبى ﷺ، بقصد مضايقته ، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة أسئلتهم ، ولقد خابوا فيما سلكوه . ولم يصلوا إلى ما أرادوه ، فقد كان النبى ﷺ يجيبهم بما يخرس ألسنتهم ، ويردهم على أعقابهم خاسرين ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ثالثًا : محاولتهم الدس والوقيعة وإثارة الفتنة بين المؤمنين :

ومن المسالك الخبيثة التى اتبعها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين ، مسلك الدس والوقيعة، وإثارة الفتنة بين المؤمنين ، وقد حكى القرآن الكريم هذا المسلك، ووبخ اليهود على سلوكهم إياه ، وأرشدهم إلى الطريقة المثلى التى تهديهم إلى الصراط المستقيم، فقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ⑨⑧ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ⑨⑨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ①⓪⓪ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ①⓪① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ①⓪② وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٢٠ .

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ .

أخرج ابن جرير ـ فى سبب نزول هذه الآيات ـ عن زيد بن أسلم، قال :

« مَرَّ شَاسُ بن قيس، وكان شيخًا قد عسا [٢] فى الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رآى من جماعتهم، وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَه [٣] بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابًا من اليهود كان معه ، فقال اعتمد إليهم فاجلس معهم ، وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله ،وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل . فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب : (أوس بن قيظى) ـ أحد بنى الحارثه بن الحارث، من الأوس ـ (وجبّار بن صخر) ـ أحد بنى سلمة من الخزرج ـ فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة [٤] وغضب الفريقان ، وقالوا: قد فعلنا ، السلاح السلاحَ ، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة : الحَرَّة ـ فخرجوا إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه ، حتى جاءهم، فقال :يا معشر المسلمين: الله الله ، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم ، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام،وأكرمكم به،وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر،وألف به بينكم،ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان،وكيد من عدوهم،فألقوا السلاح من أيديهم، وبَكَوْا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا،ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين،قد أطفأ الله كيد عدو الله (شاس بن قيس) وما صنع فأنزل الله فى

---

(١) عسا الشيخ : كبر وأسن ، من عسا القضيب إذا يبس .

(٢) هى قيلة بنت كاهل بن عذرة قضاعية وهى أم الأوس والخزرج.

(٣) جذعة : شابة فتية . يريد عودة الحرب قوية كما كانت .

شاس بن قيس ، وما صنع ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ الآية ، وأنزل الله ـ عز وجل ـ في أوْس بن قيظى وجبّعار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما ، الذين صنعوا ، مما صنعوا ، مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات : لم تعاندون الحق ، وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية، الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى ، والحال أن الله مطلع عليكم، وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظاهرة والخفية ، فيجازيكم عليها ، ويحاسبكم على مقاصدكم فى أقوالكم وأفعالكم.

فالآية الكريمة : قد تضمنت تأنيبهم على الكفر، وتهديدهم بالعقاب إذا استمروا فى مسالكهم الأثيمة ، ولكى يكون التأنيب أوجع ، أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يناديهم ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم الإيمان والإذعان للحق ولكنهم اتخذوا علمهم وسيلة للشر والتضليل ، فكان مسلكهم هذا دليلا على فساد فطرتهم ، وخبث طويتهم ، وسوء طباعهم.

وبعد أن أنبأهم القرآن الكريم فى هذه الآية على كفرهم وضلالهم ، ساق آية أخرى يوبخهم فيها على محاولتهم إضلالهم لغيرهم ، فقال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

والمعنى : قل يا محمد ـ مرة أخرى لهؤلاء اليهود ، مبالغة فى تقريعهم ، وإزاحة لأعذارهم ، لأى شىء تصرفون المؤمنين عن الإيمان الحق، وتمنعون من آمن بمحمد ﷺ عن الاستمرار على اتباعه ، وتثيرون الفتنة والوقيعة فى صفوف المسلمين .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٢٣ و ٢٤ طبعة الحلبى .

ثم كشف القرآن الكريم عن حالهم فى الصدّ عن سبيل الله، فقال : ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى : تطلبون العوج لسبيل الله الواضحة ، والميل بها عن القصد والاستقامة ، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة، فى أعين المهتدين ، كما التوت نفوسكم ، وانحرفت عقولكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال تبغونها عوجا وهو محال ؟

قلت : فيه معنيان : أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجا بقولكم بأن شريعة موسى لاتنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ،ونحو ذلك . والثانى : أنكم تتعبون أنفسكم فى إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم [1].

وقوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ معناه : والحال أنكم عالمون بأن سبيل الإسلام هو الدين الحق ، علم من يعاين ويشاهد الشيء على حقيقته ، فجحودكم عن علم، وكفركم ليس عن جهل .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لهم على ضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم ، لأنه ـ سبحانه ـ ليس غافلا عن أعمالهم ، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة ، بالفشل والذلة فى الدنيا ، وبالعذاب والهوان فى الآخرة .

قال الإمام ابن كثير :« هذا تعنيف من الله ـ تعالى ـ للكفرة من أهل الكتاب ، على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين ، والسادة المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وما بشروا به من ذكر النبى الأمى الهاشمى العربى المكى، سيد ولد آدم ،وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك، وهو مخالفتهم ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر الله ـ تعالى ـ أنه ليس بغافل عما يعملون ، أى: سيجزيهم على ذلك ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٨٧ .

وبعد أن بَيَّن القرآن الكريم أن اليهود قد جمعوا الخستين ، ضلال أنفسهم ، ومحاولتهم تضليل غيرهم ، تركهم مؤقتا فى طغيانهم يعمهون ، ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم ، وينهاهم عن الركون إليهم ، والاستماع إلى دسائسهم ، فقال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ .

والمعنى : إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه هؤلاء اليهود بينكم من دسائس ولنتم لهم ، وأصغيتم لدسائسهم لايكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم، كما كنتم فى الجاهلية، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة ، وكفركم بالله بعد إيمانكم . وقد خاطب الله المؤمنين بذاته فى هذه الآية بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يخاطب أهل الكتاب في الآيتين السابقتين ، إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعارا بأنهم هم الأحقاء بالمخاطبة من الله ـ تعالى ـ

وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة،فالمؤمن ليس خبًّا، ولكن الخب لا يخدعه .

وفى التعبير (بإن) إشارة إلى أن طاعتهم لليهود ليست متوقعة ، لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك ، ووصف ـ سبحانه ـ الذين يحاولون الدسيسة بين المؤمنين ، بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب ، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم ، ونعتهم بأنهم ﴿ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ للإشارة إلى أن تضليلهم متعمد ، وتآمرهم على إيذاء المؤمنين مقصود ، فهم أهل كتاب وعلم ، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ، أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطيعوا هذا الفريق من الذين أوتوا الكتاب ، أو أن يكفروا بعد إيمانهم ، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

الإستفهام للإنكار ، واستبعاد كفرهم فى حال اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان .

والمعنى : كيف تكفرون ، أو يتصور منكم الكفر ، أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه ، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله ﷺ بين ظهرا نيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس

عليكم أمر ،وفي هذا ما يومىء إلى إلقاء اليأس في قلوب اليهود من أن يصلوا إلى ما يبغونه بين المؤمنين ، في وقت يذكرُ النبى المؤمنين بما ينفعهم ، ويحذرهم مما يؤذيهم ويضرهم.

ثم أرشد الله عباده إلى الوسيلة التي تعصمهم من مكر اليهود وغيرهم فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

أي : من يلتجىء إلى الله في كل أحواله ، ويتوكل عليه حقَّ التوكل ، ويتمسك بدينه ، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ، ولا انحراف.

ثم أمرهم الله - تعالى - بعد ذلك بمجامع الطاعات ، ومعاقد الخيرات، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

أي : بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا منها شيئا ، ولا تكونن على ملة سوى الإسلام إذا أدرككم الموت ، بل عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل ، الذى لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ معناه : كونوا جميعًا مستمسكين بكتاب الله، الذى هو حبل الله المتين ، ونوره المبين، واجتمعوا على استعانتكم بالله، ووثوقكم به ، ولا تتفرقوا في أنفسكم، كما كان شأنكم في الجاهلية يضرب بعضكم رقاب بعض ،ولا تتفرقوا في دينكم فتؤمنوا ببعض القرآن وتكفروا ببعض ، فتضلوا عن سواء السبيل .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم بتأليف القلوب ، ورأب الصدوع بعد أن كنتم في الجاهلية أعداء متقاتلين ، فألف بين قلوبكم بأخوة الإسلام ، فأصبحتم متحابين ، متناصحين ، مترابطين .

ثم كرر - سبحانه - التذكير بعواقب الاختلاف والتفرقة ، وما يترتب عليهما من شرور بعد أن أشار إلى نعمة الوفاق ، فقال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أي : كنتم - بسبب اختلافكم وضلالكم على وشك الوقوع في النار فَمَنَّ عليكم ، وأنقذكم من التردى فيها بهدايتكم إلى الإسلام.

شبهت حالهم وترديهم في الاختلاف والوثنية وسيرهم في طريق الآثام والضلال قبل الإسلام،بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها.

وشبهت هداية الله - تعالى - لهم بحالة من يبعد غيره عن التردى فى النار ، وينقذه.

ثم بين - سبحانه - أن من شأنه أن يبين الناس آياته بيانًا شافيا في كل مقام كما بينها فى هذا المقام ، فقال تعالى :﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

أى : كهذا البيان الواضح الذى سمعتموه فى هذه الآيات الكريمة يبين الله لكم دائمًا ما يسعدكم فى الدنيا والآخرة ، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها ، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين ، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا ، وفضحتهم على مر العصور والدهور ، وحذرت المؤمنين من شرورهم وأرشدتهم إلى ما يعصمهم من كيدهم ، وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم ، لكى يعودوا إلى الطريق المستقيم.

رابعا : محاولتهم رد المسلمين عن دينهم بطريق الخداع والتلبيس

ومن مسالك اليهود - أيضا - لكيد الإسلام والمسلمين ، إظهارهم الإيمان لفترة من الوقت ، ثم رجوعهم عنه بعد ذلك إلى الكفر ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا اللون الخبيث من المخادعة فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ .

إن هذه الآيات الكريمة قد حكت عن اليهود طريقة ماكرة لئيمة ، هو تظاهرهم بالإسلام؛ ليُحسِن الظن بهم من ليس خبيراً بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ، ورجعوا إلى يهوديتهم ،ليوهموا حديثى العهد بالإسلام ، أو ضعاف الإيمان ، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة ، وأنهم ليس عندهم أى عداء للنبى ﷺ وأن الذى حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم فى الإسلام ، واتباعهم لمحمد ﷺ ، وجدوه دينا باطلا، وأن محمدا ﷺ ليس هو النبى المرتقب .

وأنهم ما عادوا إلى يهوديتهم إلا بعد الاختبار والفحص ، وإمعان النظر فى دين الإسلام .

ولا شك أن هذه الطريقة التى سلكوها لصرف المسلمين عن دينهم ، من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطانى ، لأن إعلانهم الكفر بالإسلام ، بعد إظهارهم الإيمان به ، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ، ويوقع ضعاف العقول والإيمان فى حيرة واضطراب ، خاصة وأن العرب قوم أميون ، ومنهم من كان يظن أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين ، وأنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه .

والمتتبع لمراحل التاريخ قديماً وحديثاً ، يرى أن كثيراً من الدهاء فى السياسة والحروب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والإضطراب فى صفوف الأمم والجماعات .

قال المرحوم الشيخ محمد عبده : « هذا النوع الذى تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام ، مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر ، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا (هرقل) ملك الروم ، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فى الإسلام ؟ فقال أبو سفيان : لا . ، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على بواطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل . أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب »[1] .

وقد روى المفسرون فى سبب نزل هذه الآيات الكريمة روايات متعددة ، كلها تدور حول المعنى الذى قررناه ، ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير الطبرى عن قتادة، قال : « قال بعض أهل الكتاب لبعض ، أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصدقوكم ، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه ، وهو أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم »[2] .

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٣١١ .

وأخرج ابن جرير - أيضا - عن السدى في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : « كان أحبار قرى عربية اثنى عشر حبرا ، فقالوا لبعضهم : ادخلوا في دين محمد أول النهار ، وقولوا . نشهد أن محمدا حق وصادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمدا كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلهم يشكون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم ؟ فأخبر الله - تعالى - رسوله ﷺ بذلك » (١) .

هذا ، وبعد تلك المقدمة التي سقناها بين يدى تفسير الآيات الكريمة نعود إلى تفسيرها فنقول : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ معناه :

وقال جماعة من اليهود ﴿ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : نافقوا وأظهروا الإيمان بالإسلام ونبيه ﷺ وبما أنزل عليه من قرآن في أول النهار ، ثم ارتدوا إلى دينكم اليهودية في آخر النهار ، رجاء أن ينخدع بحيلتكم هذه المؤمنون ، فيشكوا في دينهم ، ويعودوا إلى الكفر بعد الإيمان .

وقوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ كشف عن مقصدهم الخبيث ، وهو ابتغاؤهم رجوع المؤمنين عن دينهم الحق .

قال الإمام الرازى : « وفي إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذا الحيلة ، إعجاز وإخبار عن الغيب الذى كانوا يضمرونه ، وإحباط لما دبروه ، وردع لهم عن الإقدام إلى مثله ، لأنه فضحهم ، وكشف سترهم ، وخيب مسعاهم » (٢) .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك لونا من عنصريتهم وتعصبهم لباطلهم ، وتواصيهم فيما بينهم بألا يذعن أحد منهم لغير طائفته ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أى : لا تذعنوا وتظهروا سركم ، وما عندكم من الدلائل على صدق هذا النبى ، إلا لمن تبع ملتكم اليهودية دون غيرها ، فهم يعرفون أن النبى ﷺ صادق ولكنهم يتناهون عن أن يقولوه لغيرهم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٣١١ .   (٢) تفسير الرازى جـ٨ ص ١٠١ طبعة عبد الرحمن محمد .

وهنا يسوق القرآن الكريم جملة اعتراضية تأمر النبى ﷺ أن يسارع بردهم إلى الحقيقة التى عموا عنها فيقول :

﴿ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أى : أسروا تصديقكم ولا تفشوه إلا لمن تبع دينكم ، كراهة أن يظن المسلمون بأنهم قد أوتوا من الكتب السماوية مثل ما أوتيتم فيزدادوا إيمانا على إيمانهم ، ولا تظهروا ذلك إلا لأبناء دينكم ، أو خشية أن تقوم الحجة للمسلمين عليكم عند ربكم بسبب ذلك الإذعان والتصديق .

وللمرة الثانية فى آية واحدة يأمر الله نبيه ﷺ أن يبكتهم على أنانيتهم ، وأن يبين لهم أن الهداية هى فضل من الله يتفضل به على من يشاء من عباده فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : قل - يامحمد - لهؤلاء اليهود الذين أبوا الاعتراف بصدق رسالتك حسدا لك ، وكراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا ، قل لهم : إن النبوة والرسالة والتوفيق للإيمان . والهداية للإسلام فضل من الله - تعالى - لعباده ، والمتفضل المتكرم ليس ملزما بالعطاء لنوع من الناس خاصة ، وإذا كانت الرسالة قد جعلت فى بنى إسرائيل لحين من الزمان، فبفضل من الله ورحمته ، وليس ذلك بملزم له ، ولا بمسوغ لهم أن يمنعوها عن غيرهم من العرب ، وعليهم أن يذعنوا للحق سواء أكان الذى جاء به عربيا أو يهوديا ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه ، وذو علم بمن هو أهل للفضل . ثم قال تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : يختص بالنبوة وما يترتب عليه من الهداية من يشاء من عباده ، وذلك بمحض فضله العظيم ، وجوده العميم وهؤلاء اليهود الذين يريدون أن تكون النبوة وقفا عليهم لا تتعداهم ، إنما يضيقون ماوسعه الله ، ويحسدون النبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله ، وتجاهلوا تلك الحقيقة الكبرى ، وهى أن الأمر كله لله، وأنه - سبحانه - يختص برحمته من يشاء من عباده ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة لكيد الدعوة الإسلامية، لكى يتنبه المسلمون إلى وسائلهم الخبيثة، فيحذروها ويفطنوا إليها ، ويعملوا على إحباطها، بالسلاح الذى يناسبها .

خامسا : تلاعبهم بأحكام الله ـ تعالى ـ ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عند تقاضيهم أمامه .

هذه وسيلة جديدة ، من وسائل اليهود الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية استعلموا فيها ماجبلوا عليه من خداع وختل ، وذلك أنهم كانوا يتحاكمون إلى الرسول ﷺ فى بعض قضاياهم ، مؤملين أن يقضى بينهم بغير ما أنزل الله ، فيشيعوا ذلك بين الناس ، ويعلنوا عدم صدقه فى نبوته ، لأنه لو كان صادقاً لحكم بما أنزل الله .

ولكن الرسول ﷺ حكم بينهم بما أنزل الله ، فأحبط خطتهم ، وغلبوا هنا لك وانقلبوا صاغرين ، وهذه آيات كريمة من سورة المائدة ـ الحافلة بقصص بنى إسرائيل تصور لنا هذا اللون من مسالكهم الخبيثة، فتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم

بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

وردت فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة أحاديث متعددة منها :

١ ـ ما أخرجه البخارى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وإمرأة قد زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ » فقالوا نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله ابن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ،فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقالوا صدق ـ يا محمد ـ فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما .

قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرآة ـ أى ينحنى عليها ـ يقيها الحجارة) (١) .

٢ ـ ومنها ما رواه مسلم ،في صحيحه ،عن البراء بن عازب ،قال : « مُر على الرسول ﷺ يهودى مُحمَّما (٢) مجلودا فدعاهم فقال : « هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » فقالوا : نعم، فدعا رجلاً من علمائهم ،فقال : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا والله ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال النبى ﷺ :« اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » قال : فأمر به فرجم قال فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ ، أى يقولون : ائتوا محمدا ، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا (٣) .

---

(١) صحيح البخارى : باب « قل فاتوا بالتوراة » من كتاب « التفسير » جـ٦ ص ٤٦ .

(٢) التحميم وضع الحمة اى : الفحمة فى الوجه ، وهو كالتسخيم الذى جاء فى الرواية الأخرى من السخام كغراب ، وهو الفحم أو سواد القدر ، قال فى القاموس الحمم كقرد الفحم .. وحمم سخم الوجه به.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الحدود) جـ٣ ص ١٢٢٧ (باب رجم اليهود وأهل الذمة فى الزنا) .

٣ ـ وقال الزهرى : سمعت رجلا من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه ، ونحن عند ابن المسيب، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

« زنى رجل من اليهود بامرأة ، فقال بعضهم لبعض، اذهبوا إلى هذا النبى، فإنه بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله قلنا فتيا نبى من أنبيائك قال فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا يا أبا القاسم ، ما تقول فى رجل وامرأة زنيا ؟، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم ،فقام على الباب، فقال : أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟» قالوا : يحمم ويجبه ويجلد ـ والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما ـ قال : وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ به [١] رسول الله ﷺ النشدة فقال :« اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم» فقال النبى ﷺ « فما أول ما ارتخصتم [٢] أمر الله ؟ » قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فاخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أثره من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه، وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبى ﷺ :« فإنى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما .

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ فكان النبى ﷺ منهم [٣] .

٤ ـ وأخرج الإمام أحمد، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « إن الله أنزل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة، فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك، حتى قدم النبى ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً ،فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ،

---

(١) ألظ به : أى ألزمه وألح عليه فى ذلك .

(٢) أى : جعلتموه رخيصا وسهلا .

(٣) سنن أبى داود « كتاب الحدود » جـ ٢ ص ٤٦٥ طبعة الحلبى .

فقالت الذليلة : وهل كان فى حيين دينهما واحد، ونسبهما، واحد، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطينا كم هذا ضيما منكم، وخوفا، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ حكما بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم، ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما منا، وقهرا لهم ، فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه ، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه ، وإن لم يعطكم لا تحكموه ؟ فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين؛ ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ ،فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ففيهم والله أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل » (١) .

قال الإمام ابن كثير : ـ بعد أن ساق بعض الأحاديث، التى ذكرناها ـ فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإكرام، لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله ـ تعالى ـ إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤا على كتمانه وجحوده ، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة ، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه ، ظهر زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب، الذى بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ، ولهذا قالوا ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ أى : الجلد والتحميم فاقبلوه ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أى : من قبوله واتباعه (٢) .

هذا ، وبمطالعتنا لهذه الأحاديث التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، نراها جميعها قد وردت بأسانيد لا مطعن فيها ، وفى كتب السنة المعتمدة ، وأن الثلاثة الأولى منها؛ قد نصت على أن الآيات الكريمة، قد نزلت فى شأن قضية الزنا التى تحاكم فيها اليهود إلى النبى ﷺ أما الحديث الرابع : فيؤخذ منه أن سبب نزول الآيات كان فى قضية دماء، ولا تعارض بين هذه الأحاديث ، فقد يكون هذان السببان حصلا فى وقت واحد، أو متقارب، فنزلت هذه الآيات فيهما معًا،وقد قرر العلماء :أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو الطائفة من الآيات.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥٩ .

تفسير الآيات الكريمة

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ .

افتتحت الآية الكريمة بنداء من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ بعنوان : الرسالة للتشريف والتكريم ، وللأشعار بما يوجب عدم حزنه ، لأنه رسول عليه البلاغ ، وما دام قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ؛ فعليه بعد ذلك أن يهتم لما يقع من مسارعة بعض الناس إلى الكفر.

والنهى عن الحزن وهو أمر طبيعى لا اختيار للإنسان فيه ، مراد به النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم وَقْعِها ، وبذلك يتجدد الألم ؛ وتعزّ السلوى.

والمعنى : لا تهتم ـ أيها الرسول ـ بهؤلاء المنافقين ،الذين يقعون فى الكفر بسرعة ورغبة، ويبادرون إلى إظهاره متى لاحت لهم أى فرصة ؛ فإنى ناصرك عليهم ؛ وكافيك شرهم.

ثم كشفت الآية الكريمة بعد ذلك عن حقيقة حالهم فقال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : لا يهمك أيها الرسول شأن الذين يسارعون فى الكفر ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ بأن أظهروا الإسلام بألسنتهم ، ولكن قلوبهم خالية منه، وهؤلاء هم المنافقون .

ثم ذم القرآن الكريم اليهود لكذبهم وتلاعبهم بأحكام دينهم ،فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أى : ومن اليهود ـ يا محمد ـ قوم سماعون باغتباط وسرور للكذب، الذى يفترى عليك زورا وبهتانا من أحبارهم ،وهم مبالغون فى السماع لقوم آخرين ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أى: لم يحضروا مجلسك، وتجافوا عنه، إفراطًا منهم فى عداوتك وكراهيتك ؛ وعلى هذا التفسير تكون اللام للتقوية .

ويجوز أن تكون اللام للتعليل ؛ ويكون المعنى :

ومن اليهود ـ يا محمد ـ قوم سماعون لكلامك ؛ لا لينتفعوا به، ولكن لأجل أن يكذبوا عليك ،عن طريق التحريف لما سمعوا ، وهم ـ أيضا ـ سماعون لكلامك لينقلوه إلى قوم آخرين منهم ،لم يحضروا مجلسك، فهم فى مجلسك عيون عليك لغيرهم ،من وجهائهم ليبلغوهم ما سمعوا منك محرفًا .

قال صاحب المنار : « فهؤلاء يبلغون رؤساءهم وسائر أعداء الإسلام كل ما يقفون عليه ؛ لأجل أن يكون ما يفترونه من الكذب مقبولا ، لأنه مبنى على مسائل واقعة يزيدون فى روايتها،وينقصون ،ويحرفون منها ما يحرفون، ومن يكذب عليك، وهو لا يعرف من أمرك شيئا لا يستطيع أن يجعل كذبه مرجوَّ القبول كمن يعرف ؛ بل يظهر كذبه لأول وهلة ، ولهذا نرى الذين يفترون الكذب على الإسلام فى هذا الزمان يقرءون بعض كتب المسلمين ليبنوا أكاذيبهم على مسائل معروفة، يحرفون الكلم فيها عن موضعه ؛ كالذى افتروه فى قصة زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة وفى غيرها من الأخبار »[1] .

ثم ذكر القرآن الكريم صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ، وحكي طرفا من الشر الذى تواصوا به ، وتواضعوا عليه ، فقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ .

أى : أن هؤلاء اليهود ـ يا محمد ـ بجانب أنهم سماعون للكذب ، فهم ـ أيضا ـ ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أى :يميلونه ويزيلونه عن مواضعه، التى وضعه الله ـ تعالى ـ فيها ، بأن يتأولوه على غير تأويله،أو يبدلوه بالزيادة عليه، أو النقص منه، كما حصل منهم فى قصة اليهوديين اللذين زنيا ، فقد تركوا حكم التوراة وهو الرجم ، الذى يجدونه مكتوبا فيها، وقد أمروا بتنفيذه ، واستعاضوا عنه ـ من عند أنفسهم ـ حُكما آخر: هو الجلد، والتحميم وعملهم هذا أكبر دليل على عتوهم ، وفجورهم ، وجرأتهم على الله ـ تعالى .

﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أى : يقول هؤلاء المحرفون لكلام الله من بعد مواضعه لمن أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ليقضى بينهم ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أى : إن أفتاكم ـ محمد ـ ﷺ بهذا الحرف المغير عن مواضعه ـ وهو الجلد والتحميم، بدل الرجم ـ فاقبلوا حكمه واعملوا به، فهو الحق ، ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أى : وان أفتاكم بخلاف ما تواضعنا عليه ـ وهو الرجم بدل الجلد والتحميم ـ فاحذروا قبول حكمه ، وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال .

ثم بعد أن كشف القرآن الكريم عن جانب من فضائحهم ، أخذ فى تسلية الرسول ﷺ فقال تعالى :

---

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٨٩ .

﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

أى : ومن يرد الله ـ يا محمد ـ (فتنته) أى : اختباره فى دينه، فيظهر الاختبار كفره وضلاله ، فلن تملك له أيها الرسول شيئا من الهداية أو الرشد، فلا تهتم لمسارعتهم فى الكفر ، ولا تطمع فى جذبهم إلى طريق الهداية ، فإنك لا تملك لأحد نفعا ، وإنما عليك البلاغ ،وعلينا الحساب .

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه العادل علي أولئك اليهود ،الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، فقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾أى: أولئك اليهود، وأمثالهم من المنافقين، الذين مردوا علي الضلالة ، لم تتعلق إرادة الله بتطهير قلوبهم من الكفر والجحود ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ بهتك أستارهم ، وظهور كذبهم، وهوان شأنهم ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو الخلود فى النار بسبب انحرافهم عن الصراط المستقيم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء اليهود بجانب كثرة سماعهم للكذب ، فهم ـ أيضا ـ أكالون للمال الحرام فقال تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

السحت : هو كل ما خبث كسبه ، وقبح مصدره ، كالتعامل بالربا ، وأخذ الرشوة،سمى سُحتا من سَحتَه إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة، أى: مقطوعها ، ومن المعروف أن اليهود أرغب الناس فى المال الحرام، وأحرصهم عليه.

وقد فسر بعض العلماء السحت هنا: بالرشوة فى الحكم ، لحديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : « قال رسول الله ﷺ :« كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » قيل يا رسول الله« وما السحت ؟ » قال « الرشوة فى الحكم » (١) .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود فوق كونهم سماعون للكذب، الذى هو رأس كل رذيلة ، فإنهم كذلك آكلون للمال الحرام، بجميع صوره وألوانه ، فترتب على ذلك أن فسدت أمورهم الدينية والدنيوية .

ثم خاطب الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى : فإن جاءك اليهود متحاكمين إليك، فى قضاياهم فأنت مخير، بين أن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٢٥ .

تحكم فيهم ،لأنهم اتخذوك حكما، مع كونهم لم يؤمنوا بك ، وبين أن تتركهم وتهملهم ، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك الوصول إلى الحق ، بل يقصدون أن تحكم بينهم بما يوافق أهواءهم وشهواتهم.

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ أى : وان اخترت عدم الحكم ،وترك النظر فيما احتكموا فيه إليك فعادوك، وقصدوا مضرتك ،وإيذاءك ، فلن يستطيعوا ذلك لأن الله حافظك، وناصرك عليهم.

ثم قال تعالى :﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

أى : وإن اخترت الحكم والنظر - يا محمد - فى قضاياهم ، فليكن حكمك بالعدل، الذى أمرت به ، ولا تستمع لرغباتهم وشهواتهم ، إن الله يحب العادلين فى حكمهم بين الناس ، القاضين بينهم بما أمر الله - تعالى - وبما جاء به الإسلام من أحكام.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :« إن المقسطين عند الله - تعالى - على منابر من نور، على يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» (١) .

هذا ، وللعلماء أقوال مبسوطة فى كتب الفقه فى : هل الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة إذا تحاكموا إليه ، أو أن هذا التخيير قد نسخ وأصبح لزاما عليه أن يحكم بينهم ؟

قال الشيخ القاسمى فى الجواب عن هذا السؤال : وقد استدل بالآية من قال : إن الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة، أو الإعراض عنهم ، وعن بعض السلف : «إن التخيير المذكور نسخ بقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾».

والتحقيق: أنها محكمة، والتخيير باق ، وقد روى ذلك عن الحسن، والشعبى والنخعى والزهرى وبه قال أحمد ، لأنه لا منافاة بين الآيتين ، فإن قوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فيه التخيير ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم فى « كتاب الإمارة » جـ٣ ص ١٤٥٨ طبعة الحلبى . تحقيق فؤاد عبد الباقى .

(٢) تفسير القاسمى جـ٥ ص ١٩٩٢ .

وقال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف : قوله تعالى ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ ﴾ خُيِّر الرسول ﷺ إذا ترافع إليه أهل الكتاب بين الحكم بينهم ، والإعراض عنهم ، ثم نسخ التخيير بقوله تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ وقيل : إن التخيير ثابت بهذه الآية، وقوله تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ بيان لكيفيه الحكم عند اختياره له ، وأنه لا يحكم إلا بأحكام الإسلام ، وأما إذا تحاكم مسلم وذمى فإنه يجب الحكم بينهما بأحكام الإسلام اتفاقا (١) .

ثم أنكر القرآن الكريم عليهم مسالكهم الخبيثة ، وعجب من حالهم ؛لأنهم يُحَكِّمون من لا يؤمنون به، مع أن الحكم منصوص عليه في التوراة ،التي بين أيديهم فقال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : أن أمر هؤلاء اليهود ـ يا محمد ـ لمن أعجب العجب؛لأنهم يحكمونك في قضاياهم، مع أنهم لم يتبعوا شريعتك، ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحا واضحا ،فيما يحكمونك فيه ، والحق : أن مسلكهم هذا ليدل على أنهم ليسوا مؤمنين بكتابهم إيمانًا صحيحا؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين به حقا لما رغبوا عنه إلى غيره ، وليسوا مؤمنين ـ أيضا ـ بحكمك الذى وافق حكم التوراة ، لأنهم بعد أن سمعوه، أعرضوا عنه، لمخالفته لأهوائهم ، ولذلك فقد صدق فيهم قوله تعالى : ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وما أولئك اليهود الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين لا بكتابهم؛ لأنهم أعرضوا عنه ، ولابك يا محمد؛ لأن حكمك وافق الحق ،ولكنه لم يوافق أهواءهم .

قال الإمام الرازى : الآية الكريمة أظهرت قبائحهم؛ لئلا يغتر بهم مغتر، أنهم أهل كتاب، ومن المحافظين على أمر الله ، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : عدولهم عن حكم كتابهم . **ثانيها** : رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل . **ثالثها** : إعراضهم عن حكمه ﷺ بعد أن حكّموه ، وبذلك ظهره جهلهم وعنادهم (٢) .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ عجيب حال اليهود ، لتركهم حكم الله، وهم يعلمون. عقّبة بتفخيم شأن التوارة، التى أنزلها على موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى :

---

(١) تفسير صفوة البيان ص ١٩٣ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

(٢) تفسير الفخر الرازى . جـ ١٠ ص ٢٣٦ طبعة عبد الرحمن محمد .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾.

والمعنى : إنا أنزلنا التوراة فيها هدى للناس إلى الحق ، وإرشاد لهم إلى الصراط المستقيم ، وضياء يبين لهم ما التبس عليهم من الأحكام ، يحكم بهذه التوراة بين اليهود أنبياؤهم، الذين أسلموا وجوههم لله ،وأخلصوا له العبادة، وبعثوا فيهم منذ عهد موسى، إلى عهد عيسى ـ عليهما السلام ـ ويحكم بها ـ أيضا ـ بين اليهود (الربانيون) وهم: عُبَّادهم وزُهادهم (والأحبار) وهم: علماؤهم وفقهاؤهم السالكون طريق أنبيائهم ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ أى : كان النبيون الربانيون، والأحبار يحكمون بكتاب الله بين اليهود ، بسبب تكليف الله إياهم بحفظه، واظهاره والعمل به ، وصيانته من التغيير والتبديل ، وكان هؤلاء جميعا شهداء على الكتاب بأنه حق وصدق ، وبأنه من عند الله ـ تعالى ـ.

ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ اسْتُحْفِظُوا ﴾ للربانيين والأحبار ، ويكون الاستحفاظ من الأنبياء ، فيصير المعنى هكذا : وكذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود ، بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله، من التغيير والتبديل ، وبسبب كونهم عليه شهداء.

وعلى كلا المعنين فالجملة الكريمة تفيد : أن أنبياء بنى إسرائيل ، وعبَّادهم الصالحين ، وعلماءهم المخلصين ، كانوا لا يقضون بينهم إلا بالحق، الذى أنزله الله ـ تعالى ـ فى كتابه ، وأن هؤلاء اليهود الذين تركوا حكم التوراة، وجاءوا يحتكمون أمام رسول الله ﷺ ليقضى بينهم ،بغير ما أنزل الله ، ليسوا على شىء من الحق ، وليسوا بمقتدين بمن يجب الاقتداء بهم، من أنبيائهم وربانييهم وأحبارهم ، ولذلك حَقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ثم أمرهم الله ـ تعالى ـ أن يجعلوا خوفهم منه وحده، وألا يبيعوا دينهم بدنياهم، فقال تعالى : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ .

والمعنى : اقتدوا يا معشر اليهود المعاصرين للنبى، بأنبيائكم وربانييكم وأحباركم ،فى الانقياد لحكم الله ـ تعالى ـ الذى أنزله فى كتابه ، وإياكم أن تحرفوا كتابى ، أو تغيروا أحكامى، بسبب خوفكم من الناس، بل اجعلوا خشيتكم منى

وحدى فأنا الذى بيدى نفع العباد وضرهم، وإياكم - أيضًا - أن تتركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم بدلا منا ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من عرض الحياة الدنيا ، كالرشوة ، وابتغاء الجاه ، والحرص على أرضاء الناس ، فإن هذه الأمور - مهما عظمت - فهى قليلة مسترذلة ، بالنسبة لما عند الله - تعالى - من خير عميم، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

ثم بين - سبحانه - حال من يفعل فعل اليهود، فيحكم بغير شريعة الله ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

أى : كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله ، وقضى بغيره من الأحكام ، فأولئك هم الكافرون ؛ لأنهم كتموا الحق، الذى كان من الواجب عليهم كشفه وتبيينه ، وأظهروا غيره وقضوا به .

هذا ، والذى عليه المحققون من العلماء أن هذه الجملة عامة فى اليهود، وفى غيرهم ، فكل من حكم بغير ما أنزل الله عن جحود وتعمد وإصرار، كان من الكافرين .

قال الشيخ القاسمي في تفسيره : ما أخرجه مسلم عن البراء، من أن قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الثلاث الآيات فى الكفار كلها ، وكذا ما أخرجه أبو داود، عن ابن عباس : أنها فى اليهود خاصة - قريظه والنضير - كل ذلك لا ينافى تناولها لغيرهم ، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وكلمة (مَنْ) وقعت فى معرض الشرط، فتكون للعموم.

ثم قال : وكفر الحاكم بغير ما أنزل الله ،مقيد بقيد الاستهانة، بما أنزل الله ، وبالجحود له، وهذا هو المأثور عن عكرمة، وابن عباس.

روى الحاكم ،وابن أبى حاتم ،عن عبد الرزاق ،عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: أن من لم يحكم بما أنزل الله ، هو به كفر ، وليس بكفر ينقل عن الملة ، كمن كفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو هذا، روى عن عطاء، قال: «هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ».

ونقل فى (اللباب) عن ابن مسعود، والحسن، والنخعى : « أن هذه الآيات الثلاث عامة فى اليهود، وفى هذه الأمة ، فكل من ارتشى، وبدل الحكم، فحكم بغير حكم الله ، فقد كفر وظلم وفسق . وإليه ذهب السدى ، لأنه ظاهر الخطاب ،

ثم قال . وقيل : هذا فيمن علم نص حكم الله، ثم رده عيانا عمدا ، وحكم بغيره، وأما من خفى عليه النص، أو أخطأ فى التأويل، فلا يدخل فى هذا الوعيد ».

وقال إسماعيل القاضى فى (أحكام القرآن) . ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعل اليهود ، واخترع حكما يخالف به حكم الله ، وجعله دينا يعمل به ، فقد لزمه مثل مالزمهم من الوعيد المذكور ، حاكما كان أو غيره (١) بتصرف يسير.

وقال الشيخ حسنين مخلوف . ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ اختلف المفسرون فيمن نزلت فيهم هذه الآية ،والآيتان بعدها ، فقيل : فى اليهود ، والثالثة، فى النصارى ، والكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ ، لا على الكفر ،الذى ينقل عن الملة ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أريد منهما العتو والتمرد فى الكفر . وعن ابن عباس . من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فهو كافر، ومن أقر به فهو ظالم فاسق (٢) .

ثم كرر القرآن الكريم توبيخ اليهود وتأنيبهم؛ لتركهم الحكم بما هو منصوص فى كتبهم، فقال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴾ أى :فرضنا على اليهود فى التوراة ، التى أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ : مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿ وَالأُذُنَ ﴾ مقطوعة ﴿ بِالأُذُنِ ﴾ ﴿ وَالسِّنَّ ﴾ مقطوعة ﴿ بِالسِّنِّ ﴾ ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أى :ذات قصاص ، بأن يقتص فيها إذا أمكن كاليد والرجل ونحو ذلك ؛ وإلا فما لا يمكن القصاص فيه ـ ككسر عظم وجرح لحم ،مما لا يمكن الوقوف على نهايته ـ ففيه حكومة عدل .

﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ أى : فمن عفا من أصحاب الحق، عن قصاص وتصدق به على الجانى ، فذلك كفارة لذنوبه ، والضمير فى ﴿ لَهُ ﴾ يعود إلى المتصدق .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : أن كل من أعرض عن حكم الله ، المقتضى للعدل والمساواة ، وحكم بغيره فهو من الظالمين؛ لأنه لم يتبع قاعدة العدل والمساواة .

---

(١) تفسير القاسمى جـ٥ ص ١٩٩٩ .

(٢) تفسير (صفوة البيان) ص ١٩٥ للشيخ حسنين مخلوف.

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ أمر التوراة والإنجيل ، وما أودعه فيهما من الهدى والنور، أخذ ـ سبحانه ـ في بيان أمر القرآن الكريم، فقال تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أى : كما أنزلنا التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ـ عليهما السلام ـ أنزلنا عليك ـ يا محمد ـ الكتاب وهو القرآن الكريم ، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالصدق، الذى لا ريب فيه، أنه من عند الله ـ تعالى ـ وهذا القرآن الذى أنزلناه عليك ـ يا محمد ـ ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى : مؤيدا وموافقًا للكتب السابقة عليه فى أصول الدين ؛ وجوهر الشريعة.

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾أى : رقيبا على ما سبقه من الكتب السماوية ،المحفوظة من التغيير ، وأمينا وحاكما عليها ، لأنه هو الذى يشهد لها بالصحة ، ويقرر أصول شرائعها .

قال ابن جريج : « القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل » .

وقال ابن جرير : « وأصل الهيمنة : الحفظ والارتقاب ، يقال : إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده : قد هيمن فلان عليه ، فهو يهيمن هيمنة ، وهو عليه مهيمن »[١] .

وقال ابن كثير : « جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأكملها ، لأنه ـ سبحانه ـ جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب ، وزاد فيه من الكمالات، ما ليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينًا، وحاكما عليها كلها ، وتكفل ـ سبحانه ـ بحفظه بنفسه، فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٢].

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يحكم بين اليهود بما أنزل الله ، وألا يسير وراء أهوائهم ،فقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أى: ليكن حكمك ـ يا محمد ـ بين هؤلاء اليهود المخادعين ، إذا ترافعوا إليك فى قضاياهم ، موافقا لما بيَّن الله لك ، ولا تنحرف عن الحق متبعا أهواءهم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٢٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٥ .

قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

الشرعة : الشريعة ، وهى : الطريق الظاهر الموصل إلى الماء ، والمراد بها : الدين ، وسمى الدين شريعة؛ تشبيها بشريعة الماء، من حيث إن كلا سبب الحياة .

والمنهاج : الطريق الواضح فى الدين ، من نهج الأمر ينهج إذا وضح ؛ والعطف باعتبار جمع الأوصاف .

والمعنى : لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية ، وضعنا شريعة ومنهاجا، خاصين بها ، فالأمة التى وجدت منذ مبعث موسى، إلى مبعث عيسى ـ عليهما السلام ـ شريعتها ومنهاجها التوراة ، والأمة التى وجدت منذ مبعث عيسى، إلى مبعث محمد ـ عليهما السلام ـ شريعتها ومنهاجها الإنجيل . وأما هذه الأمة الإسلامية ، فشريعتها ومنهاجها القرآن ؛ لأنه اشتمل على ما جاء فى الكتب السابقة عليه، من أصول الدين وكلياته، التى لا تختلف باختلاف الأزمنة ، وزاد عليها ما يناسب العصر الذى نزل فيه ، والعصور التى تلت ذلك إلى يوم القيامة .

وأهل الكتاب إنما أمروا بأن يتحاكموا إلى كتبهم، قبل نسخها بالقرآن الكريم ، أما بعد نزوله ومجيء النبى ﷺ خاتما للرسالات السماوية ، فمن الواجب عليهم أن يدخلوا فى الإسلام ، متبعين شريعته، التى نسخت ما قبلها من شرائع ؛ وأن يصدقوا الرسول ﷺ فى كل ما جاء به من ربه ،وليس لأحد بعد بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا بالإيمان به ؛ وتصديقه ، واتباعه فى جميع أقواله وأفعاله .

قال أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ كلام مستأنف جيء به ؛لحمل أهل الكتابين من معاصريه ﷺ على الانقياد لحكمه، بما أنزل عليه من القرآن الكريم ، ببيان انه هو الذى كلفوا العمل به، دون غيره من الكتابين : وإنما الذين كلفوا العمل بهما ، من مضى قبل نسخهما من الأمم السابقة [1] ا.هـ.

وقال الإمام ابن كثير :« هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار مابعث الله به رسله الكرام،من الشرائع المختلفة فى الأحكام،المتفقة فى التوحيد،كما ثبت فى (صحيح البخارى) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :« نحن معاشر الأنبياء إخوة لعَلات، أمهاتهم، شتى ودينهم» واحد يعنى بذلك : التوحيد الذى

---

(١) تفسير أبو السعود : جـ ٢ ص ٣٤ .

بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى ، فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حراما، ثم يحل فى الشريعة الأخرى ـ كما قال تعالى فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ:﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ـ وبالعكس ـ قد يكون الشىء حلالا فى هذه الشريعة، ثم يحرم فى شريعة أخرى ـ وخفيفا فيزاد فى الشدة فى هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة [١] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أى : لو أراد الله ـ تعالى ـ أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة، تدين لشريعة واحدة فى جميع العصور لفعل ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شىء ، ولكنه ـ تعالى ـ خبير يعلم ما للأمم والأزمان من خصائص وطبائع ، ويعلم ما يناسب كل أمة من أحكام وشرائع، يستقيم به أمرها ، وتقتضيه مصلحتها ، فأنزل شرائع شتى ، تتفق جميعها فى الأصول،ويختلف بعض أحكامها فى الفروع،باختلاف الأمم والأزمان ، ومن الطبيعى أن ينسخ بعضها بعضا فى بعض الأحكام ، واقتضت حكمته ـ سبحانه ـ كذلك ، أن يختتم شرائعه بشريعة عامة كاملة محكمة ، كفيلة بمصالح الناس فى جميع الأزمنة والأمكنة ، وهذه الشريعة هى شريعة الإسلام، التى أتى بها محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم كرر الخالق ـ عز وجل ـ الأمر لنبيه محمد ﷺ بأن يحكم بينهم بحكمه ، وحذره من مكرهم وكيدهم، فقال تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « قال كعب بن أسد ، وابن صلوبا ، وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٦ .

رسول الله ﷺ فانزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ .. إلى قوله ﴿ يوقِنُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ عطف على ﴿ الْكِتَابَ ﴾ فى قوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

أى : أنزلنا إليك الكتاب ـ يا محمد ـ وأنزلنا إليك الحكم بما فيه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله إليك ، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود، الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا ، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : واحذر فتنتهم لك ، وصرفهم إياك عن بعض ما أنزلناه إليك، ولو كان أقل قليل ، بتصوير الباطل بصورة الحق ، أو بالكذب على التوراة بإنكار أحكامها ، وحملك على الحكم الذى يناسب شهواتهم : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : فإن أعرض هؤلاء اليهود عن حكمك ـ يا محمد ـ وتركوا العمل به؛ لمخالفته لأهوائهم ، فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله ،وحكمته فيهم ، إذ يريد ـ سبحانه ـ أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا ،بسبب بعض ذنوبهم، التى ارتكبوها فى حياتهم ، ولقد نفذ الله ـ تعالى ـ وعيده فى اليهود ، فقد طرد بعضهم من المدينة ، وقتل بعضهم جزاء فسقهم ،وغدرهم، وفجورهم .

قال صاحب الكشاف : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ يعنى بذنب المتولى عن حكم الله وإرادة خلافه ، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك ، وأراد أن لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد ، وأن هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها ، وهذا الإبهام لتعظيم المتولى، واستسرافهم فى ارتكابه (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أى : لمتمردون فى الكفر ، مصرون عليه ، خارجون عن الطريق المستقيم، الذى رسمه الله لعباده ، وفى تذييل الآية الكريمة بذلك ؛تسلية للرسول ﷺ على عدم إذعانهم للحق.

ثم وبخهم الله ـ تعالى ـ على ما كان منهم من تركهم الحق إلى الباطل، فقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أى : أينصرفون عن قبول حكمك بما أنزل الله ،

---

(١) اسباب النزول للنيسابورى ص ١١٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤١٩ .

ويعرضون عنه ، فيبغون حكم الجاهلية ، مع أن عندهم كتاب الله ، الذى فيه بيان حقيقة الحكم، الذى حكمت به فيهم ؟ والمراد بالجاهلية : إما الملة الجاهلية، التى هى متابعة الهوى، والمداهنة في الأحكام ، فيكون تعبيرا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم ، يبغون حكم الملة الجاهلية.

وأما أن يكون المراد بها : أهل الجاهلية ، وحكمهم الذى كان يقوم على المفاضلة بين الناس ، وعدم الأخذ بشرعة المساواة ، فيكون توبيخا لليهود - أيضا - لاقتدائهم بأهل الجاهلية.

ثم أنكر - سبحانه - أن يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله - سبحانه - أو مساويا له ، فقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى : لا أحد أحسن حكما من حكم الله - تعالى - لقوم يؤمنون بدينه ، ويذعنون لشرعه ، ويقرون بربوبيته ، ويتبعون أنبياءه ورسله.

هذا ، وقد شدد الإمام ابن كثير النكير على الذين يرغبون عن حكم الله، إلى أحكام من عند البشر ، ووصف من يفعل ذلك بالكفر ، وأفتى بوجوب مقاتلته حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فقال - رحمه الله - : « ينكر الله تعالى فى هذه الآية على من خرج عن حكمه المحكم - المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر - وعَدَل عنه إلى سواه ،من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند، من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية، المأخوذة عن (جنكزخان) الذى وضع لهم (الياسق) ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى،من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها،وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعا متبعا،يقدمونه على الحكم بكتاب الله،وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله،فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير.قال الله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى : يبتغون ويريدون،وعن حكم الله يعدلون : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى :ومن أعدل من الله فى حكمه، لمن عقل عن الله شرعه،وآمن به وأيقن، وعلم أن الله - تعالى - أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه - تعالى - وهو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء،العادل فى كل شيء .روى الطبرانى، عن ابن

عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله - عز وجل - من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلية، ومن طلب دم امرىء بغير حق ليريقه » [1] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد كشفت - باستفاضة - عن مسلك من أخطر المسالك الخبيثة، التى اتبعها اليهود؛ لكيد الإسلام والمسلمين ، إذ حاولوا فتنة الرسول ﷺ وجره إلى حظيرتهم، ليحكم بينهم، بغير ما أنزل الله ، وليوافقهم فى أهوائهم وشهواتهم ، وقد كررت الآيات الكريمة توبيخهم، وتأنيبهم، لتلاعبهم بدينهم ، وانحرافهم عن طريق الحق ، واستيلاء المطامع والرذائل عليهم ، وإعراضهم عن الحكم بما أنزل الله . . كما كررت الآيات الكريمة - أيضا - تحذير النبى ﷺ والمسلمين من خداعهم، ومكرهم، وشرورهم ، وأرشدتهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم ،فى دينهم ودنياهم .

سادسًا : تحالفهم مع المنافقين ضد المسلمين :

من أساليب اليهود فى محاربة الدعوة الإسلامية ، مظاهرتهم لكل مناوئ لها بصفة عامة ، ومحالفتهم للمنافقين فى سبيل القضاء عليها بصفة خاصة .

وفى سورة المائدة ،يقول الله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ .

روى ابن جرير ،عن عطية بن سعد ، قال :

جاء عبادة بن الصامت ،من بنى الحارث بن الخزرج ،إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله إن لى موالى من يهود ،كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبىّ : إنى رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من ولاية موالىّ ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه »،قال : قد قبلت ،

---

[1] تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٧ .

فأنزل الله - عز وجل - ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ نَادِمِينَ ﴾ (١) .

تفسير الآيتين الكريمتين

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ ابتدئت هاتين الآيتين بنداء عام للمؤمنين، ينهاهم الله - عز وجل - فيه ، عن الاستنصار بأهل الكتاب ، والركون إليهم ، والثقة بمودتهم ، والتحالف معهم ، بعد أن ثبت أنهم جميعا قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وهذا النهي عن موالاة اليهود والنصارى، سببه حنقهم الشديد على الإسلام ، وعداؤهم الظاهر والخفي للمسلمين، ولو زال هذا السبب لما وجد النهي ، لأن القرآن الكريم يأمر أتباعه أن يحسنوا إلى أهل الكتاب ، ما دام لم يصدر منهم ما يؤذي المسلمين .

قال تعالى في سورة الممتحنة :﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

فهاتان الآيتان صريحتان في كون النهي عن الولاية سببه : العداوة ، وكونهم حربا على المسلمين، وليس من أجل المخالفة في الدين .

ثم أشار سبحانه بعد ذلك إلى علة النهي عن موالاتهم؛ تأكيداً لاجتناب المنهي عنه فقال تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي : يوالي بعضهم بعضا؛ لاتحادهم في الدين، وإجماعهم على معاداة المسلمين ، فهم وإن اختلفوا فيما بينهم ؛ لكنهم متفقون على الكيد لدعوة الإسلام.

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه على من يخالف النهي فيتولاهم فقال:﴿ وَمَن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري جـ٦ ص ٢٧٥ . وقد اكتفينا بهذه الرواية في سبب النزول . وهناك روايات أخرى في سبب النزول كلها تدور حول معنى واحد وهو النهي عن موالاة أعداء الله والكشف عن تحالف جبهتي اليهود والمنافقين ضد المسلمين .

يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أى : ومن ينصرهم ويستنصر بهم ،مع عداوتهم للمؤمنين، يكن من جملتهم ، وحكمه حكمهم، وأن زعم أنه مخالف لهم فى الدين .

قال ابن جرير : « فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين ، فهو من أهل دينهم وملتهم ؛ فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه راض ، وإذا رضى دينه ، فقد عادى من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه » (١).

وقال صاحب الكشاف : « هذا تغليظ من الله، وتشديد فى وجوب مجانبه المخالف فى الدين واعتزاله » (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : إن من يظاهر أعداء الله، وينصرهم ويستنصر بهم؛فالله ـ عز وجل ـ لا يوفقه إلى الطريق المستقيم،لأنه صار ظالمًا بوضعه الولاية فى غير موضعها الحق،ومن كان هذا شأنه فهو بعيد عن الهدى والرشاد .

وبعد هذا النهى الشديد عن موالاة أعداء الله ، صور القرآن الكريم حالة من حالات المنافقين بين فيها كيفية توليهم أعداء الله ، وأشعر بسببه ، وما يؤول إليه أمرهم ، فقال تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أى : فترى ـ يامحمد ـ المنافقين الذين ضعف إيمانهم ، فلم يصل إلى رتبة التصديق واليقين ، يسارعون فى مناصرة اليهود وتأييدهم ، مسارعة الداخل فى الشىء ، الثابت عليه، الراغب فيما يزيده تمكنا ورسوخا ، دون أن يعيروا تعاليم الإسلام، التى يتظاهرون بها أدنى اهتمام.

والتعبير بقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم ﴾ تعبير قوى رائع، وصفوا به كثيرا فى القرآن الكريم ، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك والقوة النفسية ، كان ضعف القلب الذى عبر عنه بالمرض ، يضرب مثلا للخور ، والتردد، والتزلزل، وانهيار النفس ،وهذه طبيعة المنافق فى كل زمان ومكان، لا يمكن أن يكون صريحا واضحا منحازا إلى ناحية معينة ، فهو يتردد بين الناحيتين، ويلتمس الحظوة فى الجانبين ، ولا يهمه إلا أن يطمئن على نفسه، فى يومه وغده.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ٢٧٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤١٩ .

وقد كشف القرآن الكريم عن الذريعة التى تذرع بها المنافقون لموالاتهم اليهود فقال تعالى :﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أى : يقولون معتذرين عن ارتمائهم فى أحضانهم نخاف أن تنزل بنا مصيبة مما يدور به الزمان، كأن تمسنا أزمة ،أو ضائقة أو أن يكون النصر فى النهاية لهم، فنحن نحالفهم؛ لنتقى شرهم ، ولننال عونهم عند الملمات والأزمات.

فرد الله على المنافقين معاذيرهم الباطلة ، وبشر المؤمنين بالظفر، وبحصول مايرجون فقال تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ أى : فلعل الله -عز وجل- بفضله، وصدق وعده ، أن يأتى بالقضاء الفصل، وهو نصره للمؤمنين على أعدائهم ، أو بأمر من عنده ، يقطع دابر اليهود، فيصير المنافقون نادمين على بُغضهم للمؤمنين ، ومناصرتهم لليهود ، وشكهم فى أن تكون العاقبة لأتباع النبى ﷺ الصادقين . ولقد صدق الله وعده فأذل اليهود ، وأورث المؤمنين أرضهم، وديارهم، وأموالهم ، وفضح المنافقين وأخزاهم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

هذا ، وقد اشتملت الآيتان على ضروب من توكيد النهى، عن موالاة أعداء الله تعالى بأساليب متعددة، منها : النهى الصريح فى قوله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ ومنها : بيان علة النهى فى قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ومنها : التصريح بأن من يواليهم فهو منهم، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ومنها : تسجيل الظلم على من يواليهم، فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ومنها : الإخبار بأن موالاتهم من طبيعة الذين فى قلوبهم مرض وزيغ؛ خوفا من أن تدور الدائرة عليهم ،ومنها : قطع أطماع المنافقين فى النصر وسوق البشارة للمؤمنين بالفتح فى قوله تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ والرجاء من الله - تعالى - لابد أن يحصل؛ لأنه صادر من عزيز كريم، لا يخلف وعده .

وهكذا نرى أن الآيتين الكريمتين قد بينتا بأسلوب صريح أن طائفة اليهود والمنافقين كانتا تكوّنان جبهة متحدة، فى عدائها للدعوة الإسلامية .

أما فى سورة الحشر، فيقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَتَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

من المتفق عليه بين المفسرين أن سورة الحشر قد نزل معظمها فى شأن بنى النضير ، فقد ذكرت ما أصابهم من هزيمة على يد المؤمنين، بسبب جرمهم، وهاتان الآيتان تصوران مظهرا من مظاهر التناصر بين اليهود، والمنافقين ، وإن كان هذا التناصر لم يتم بصورة فعلية .

فقد أخرج ابن جرير، وابن إسحق ،أن المسلمين لما حاصروا بنى النضير أرسل عبد الله بن أبى، ومن معه المنافقين إليهم من يقول لهم : اثبتوا وتمنّعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربص اليهود ذلك من نصرهم ولكن المنافقين لم يفعلوا فأنزل الله هاتين الآيتين (١)

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ... ﴾ معناه : لقد علمت أيها السامع علم اليقين حال أولئك المنافقين، الذين قالوا لإخوانهم فى الكفر والضلال ـ وهم اليهود ـ عندما ضيق المسلمون عليهم الخناق، بسبب خياناتهم ، قالوا لهم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ... ﴾ أى : لئن أخرجتم من دياركم، ومنازلكم، لنخرجن معكم ،ولا نطيع أحدا سألنا خذلانكم ، وترك نصركم ، وإن قاتلكم المسلمون فنحن معكم، نناصركم ،ونعينكم عليهم ، فلا تهتموا ـ أيها اليهود ـ بل اجتهدوا فى قتالهم ، ولا تهنوا فى الدفاع عن دياركم وأموالكم .

ولكن الله ـ عز وجل ـ الخبير بحقيقتهم ، رد عليهم زعمهم هذا بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : هو شهيد على كذبهم ،فى مواعيدهم، التى منّوا بها اليهود، فإنه لما اشتد الحصار على بنى النضير ، انتظروا من المنافقين العون لهم بناء على وعودهم ،ولكن لم يجبهم مجيب ، وأدركوا أن هذه الوعود كاذبة وخادعة .

وبعد أن بين أن القرآن كذبهم على سبيل الإجمال، فصّله بعد ذلك؛ ليزيد فى تعجيب المخاطب من حالهم؛ وليبين له مبلغ جبنهم ،فقال تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لايخرجون مَعَهُمْ ﴾ أى : لئن أخرج المسلمون بنى النضير من ديارهم ، لا يخرج

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٢١ .

معهم المنافقون، الذين وعدوهم بذلك ، ولئن قاتلهم المسلمون لا ينصرونهم ، ولئن نصرهم المنافقون على سبيل الفرض والتقدير ، ليولن الأدبار، منهزمين مخذولين عنهم، ثم لا يكون النصر بعد ذلك إلا للمؤمنين .

أما بعد ، فنستطيع أن نقول : بعد أن سقنا بعض الآيات التى تثبت تحالف اليهود مع المنافقين لكيد المسلمين - أن اليهود هم الذين ساعدوا على إيجاد طائفة المنافقين، وتقويتها في المدينة ، بما بثوا فيهم من الشكوك ، وبما أثاروه حول الإسلام من شبهات، وأباطيل ، وأن المنافقين ما قويت شوكتهم إلا بمساعدة اليهود إياهم،وليس أدل على ذلك من أنه بمجرد أن ضعفت قوة اليهود بعد تنكيل المسلمين بهم،رأينا المنافقين - أيضا - يخفت صوتهم،وتنهار دولتهم،كما وصفتهم الآية الكريمة بقولها :﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

ولقد بلغت المودة بين اليهود والمنافقين فى المدينة مبلغا كبيرا، بدليل أن عبد الله ابن أبىّ - زعيم المنافقين - لما حضرته الوفاة أحاط اليهود بسريره ، وأخذوا يبكون وينتحبون ، فغضب لذلك أحد أبناء (عبد الله بن أبىّ) وأراد أن يطردهم ، فمنعه أبوه، وقال له : دعهم فإن قربهم منى يشفى صدرى ، فقال له اليهود : ياعبد الله نود أن نفديك بدمائنا، وأموالنا ، ولما مات أرادوا أن يقوموا بدفنه ، فمُنعوا من ذلك ، وبعد دفنه أخذ اليهود ينثرون التراب على رءوسهم من شدة الحزن والألم لوفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أبىّ.

ثم نستطيع أن نقول بعد ذلك فى نهاية هذا البحث الموجز : إن وجود اليهود فى المدينة، من الأسباب القوية، التى علمت بعض أهلها من العرب خُلق النفاق ، وذلك لأن العربى صريح بطبعه، وحركة النفاق ما ظهرت فى العهد المكى؛ لأن القرشيين كانوا صرحاء فى حربهم للإسلام والمسلمين .

فلما تمت الهجرة، وانتصر المسلمون في بدر، بدأ بعض اليهود - وتبعهم بعض العرب - يتظاهرون بالإسلام ، ويبطنون الخوف ، وقد ساق ابن هشام أسماء عدد كبير من اليهود، الذين أسلموا نفاقا ، وذكر من بينهم زيد بن اللصيت ، وسعد بن حنيف ، ورافع بن حريملة .. وغيرهم [١] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ١٧٤ .

وبهذا نرى أن اليهود كانوا من وراء المنافقين يشجعونهم ، ويمدونهم بالمال وبالأفكار الخبيثة لحرب المسلمين ، وبضعف اليهود ضعف معهم شأن المنافقين .

سابعًا : تحالفهم مع المشركين ، وشهادتهم لهم بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا

(أ) في سورة النساء آيات كريمة ، سجلت على اليهود موقفا مخزيا ، وهو أنهم رغم كونهم أهل كتاب ، فقد حملهم الحسد على أن يفضلوا عابدى الأوثان على أهل الإيمان . وهذه الآيات الكريمة هى قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾**﴾ .

أخرج ابن جرير: عن عكرمة :أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فحرضهم على النبى ﷺ وأمرهم أن يحاربوه، وقال لهم: إنّا معكم سنقاتله ، فقالوا : إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين، وآمن بهما ، ففعل ، ثم قالوا له: نحن أهدى أم محمد؟ ، فقال : اعرضوا عليّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن قوم ننحر الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ،ونصل الرحم ، ونُقرى الضيف ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه ، وخرج من بلده ، فقال: بل أنتم خير وأهدى فنزلت فيه ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾ (١) .

وأخرج ابن إسحاق ،عن ابن عباس، قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة: حيى بن أبى الحقيق ، وأبو رافع .. وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٤ .

الأول ، فاسألوهم أدينكم خير ، أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ، وممن اتبعه ، فأنزل الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ (٢) وَالطَّاغُوتِ﴾ معناه : قد رأيت وعلمت علم اليقين - أيها الرسول الكريم - حال هؤلاء اليهود الذين أوتوا حظا من الكتاب ، يؤمنون بردىء العقائد والأخلاق ؛ ويصدقون عبدة الأوثان.

قال الإمام ابن جرير : والصواب من القول فى تأويل ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ أن يقلل : يصدقون بمعبودين من دون الله ، ويتخذونهما إلهين ، وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له ، كائنا ما كان ذلك المعظم ، من حجر أو إنسان أو شيطان (٣) .

ثم بين - سبحانه - ما نطقوا به من الكذب والبهتان أمام المشركين، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ .

أى : يقولون إرضاء للذين كفروا ، هؤلاء فى شركهم وعبادتهم للجبت والطاغوت ، أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا من المؤمنين، الذين اتبعوا محمدا ﷺ .

وفى وصفهم ﴿ بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ بيان لحقيقة حالهم ، وهو أنهم نسوا حظا مما ذكروا ، ومع ذلك فإن النصيب الذى أوتوه لم يعملوا به ، لأنهم لو عملوا به، لما فضلوا عبادة الأوثان على عبادة الرحمن.

ثم بين الله - سبحانه - مصيرهم السيء بسبب انحرافهم عن الحق ،فقال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ أى :أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فأيدوا المشركين بالقول والعمل ، وسجدوا لأصنامهم ، وزكوا أفعالهم ، أخزاهم الله، وأبعدهم من رحمته ، بسبب كذبهم وحقدهم وسيطرة

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٥ .

(٢) الجبت أصله الجبس فقلبت السين تاء ومعناه الردىء الذى لا خير فيه، ويطلق على السحر وعلى الأصنام، والطاغوت مصدر الطغيان ومبعثه ، أو هو صيغة مبالغة كالملكوت من ، الملك أو مصدر ، ويصح فيه التذكير والتأنيث والإفراد والجمع وهو مجاوزة الحد فى كل شىء .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٣ .

الهوى على نفوسهم ومن يخزه الله ويخذله ، فلن تجد له نصيرا ينصره ، أو شفيعًا يشفع له .

وإذا كان اليهود قد ذهبوا إلى أهل مكة ليستنصروا بهم على المسلمين، فإن أهل مكة لن ينصروهم ، ولئن نصروهم فلن تستمر نصرتهم لهم ، لأن الخذلان من وراء المحاربين للحق.

ثم انتقل القرآن الكريم من توبيخهم على مناصرتهم للمشركين ، وإيمانهم بالجبت والطاغوت إلى تقريعهم على البخل والأثرة، فقال تعالى :﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ (١) أى : أثبت أنهم إذا أوتوا حظا من الملك والسلطان، ولو كان ضئيلا يعدلون ؟ كلا ما ثبت هذا ، لأنهم أهل هوى، ولا عدل عند من غلب عليه الهوى.

والمعنى : أن هؤلاء اليهود لاحظ لهم ،ولا نصيب من الملك المستقر الدائم بسبب ظلمهم وطغيانهم، وعصبيتهم الجامحة،فلو كان لهم نصيب منه ، لما أعطوا غيرهم، أىَّ قدر من حقوقهم عليهم ، ولو كان ضئيلا بالغا أقصى حدود الضآلة ، ذلك لأن اليهود قوم لا ينظرون إلا لمصلحتهم الذاتية ، ويتوهمون أنهم صنف ممتاز فى الخليقة ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهم فوق هذا لشحهم وأنانتيهم، يشق عليهم أن ينتفع بأى خير من ليس من طائفتهم ، ولقد أثبتت الأيام صدق ما أخبر به القرآن الكريم عنهم ، فإنهم بعد أن دخلوا بعض البلاد الإسلامية فى فلسطين ـ بمساعدة الاستعمار ـ طردوا أهلها الشرعيين منها ، واستولوا على كل ما فيها من خيرات، ولم يسمحوا لهم، بأن يأخذوا معهم ما يستر العورة ، أو يسد الرمق ، وأقرب مثال لذلك أنهم عندما احتلوا ـ عن طريق الغدر ـ قرى (دير ياسين ، وقبية، وكفر قاسم ، واللد والرملة) وغيرها من البلاد الفلسطينية، قاموا بذبح النساء والأطفال، والشيوخ ، ومن نجا من الذبح والقتل استلبوا منه جميع ما يملكه.

ثم انتقل القرآن الكريم من توبيخهم على البخل ، إلى تبكيتهم على رذيلة

---

(١) أم هنا منقطعة وهى للإضراب والاستفهام ، والمراد بالإضراب هنا الانتقال من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت إلى تبكيتهم على البخل والشح ، والاستفهام هنا للانكار بقرينة المقام . والنقير : النكتة الصغيرة التى تكون فى ظهر النواة وهو الثقب الذى تنبت منه النخلة ، ويضرب به المثل فى الشىء الصغير البالغ أقصى حدود الصغر.

الحسد، التى استولت عليهم، فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب الناس من خير، ويتمنون زواله . ويعملون على قطعه، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

أى : إن هؤلاء اليهود ليسوا بخلاء فقط،بل هم جمعوا مع ذلك، رذيلة الحسد، فهم يحقدون على العرب؛ لأن النبى ﷺ منهم. ويحسدون النبى ﷺ لأن الله - عز وجل - خصه بالنبوة،ويضمرون السوء للمؤمنين،لأنهم يزيدون ولا ينقصون.

فالمراد بالناس : قبيل العرب ، وقبيل النبى ﷺ ، فهم - أى: اليهود - يحسدون النبى ﷺ والمؤمنين على ما آتاهم الله من الوحى والنبوة بمحض فضله وكرمه ، فيكون اليهود الذين يحسدون من يتكرم عليه الله ، إنما يعاندون الخالق - عز وجل - وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وهذا الحسد إنما كان بسبب اعتقادهم أنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس غرورا منهم .

ثم ألزمهم القرآن الكريم الحجة بما يعرفونه من إيتاء الله الكتاب والحكمة لآل إبراهيم فقال تعالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ أى: إذا كنتم تحسدون النبى ﷺ على النبوة ، لتوهمكم أنها لا تكون إلا فيكم ، فقد كذبتهم وتعديتهم ، لأن الله - عز وجل - قد أعطى آل إبراهيم ، أى قرابته القريبة من ذريته كإسماعيل - وهو جد العرب - وإسحاق ، ويعقوب وغيرهم ، أعطاهم الكتاب من غير تفرقة بينهم ،وأعطاهم الحكمة ، أى : العلم النافع، والعمل به ، وأعطاهم مع ذلك سلطانا عظيما ، إذن فأنتم أيها اليهود لستم مختصين بالنبوة، ولستم أولى الناس بإبراهيم ، لأن صلة العرب به من حيث القرابة كصلتكم به ، فإذا كنتم من نسل إسحاق بن إبراهيم، فالعرب - ومنهم محمد ﷺ - من نسل إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام .

ثم بين القرآن الكريم عاقبة كل من المحسن والمسيء فقال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أى : فمن اليهود الذين أوتوا الكتاب من آمن بما جاء به الأنبياء من هدى وسار عليه، ومنهم من أعرض عنه ونآى بجانبه، وهؤلاء الذين أعرضوا حسبهم أن تكون جهنم بسعيرها ولهيبها نصيبا لهم . وفى هذا تسلية للرسول ﷺ ليكون أشد صبرا على ما ناله منهم من أذى وجحود وإنكار.

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد سجلت على اليهود بيعهم دينهم بدنياهم

وإيمانهم بالخرافات والأوهام ، واستيلاء الأثرة والشح على نفوسهم، وحسدهم الناس على ما آتاهم الله من فضله، وتفضيلهم عبدة الشيطان، على عباد الرحمن.

هذا وتحالفهم مع المشركين الذى سجلته الآيات الكريمة على اليهود ، قد شهد بقبحه (الدكتور إسرائيل ولفنسون) ـ اليهودى ـ فى كتابه: (تاريخ اليهود فى جزيرة العرب) فقد قال معلقا على هذه القصة : «كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا لعدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية، باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى، من: تقتيل، واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد، فى عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم ،وكل عزيز عليهم ، فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان ، إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة، التى توصيهم بالنفور، من أصحاب الأصنام ، والوقوف منهم موقف الخصومة »(1) .

وفى سورة المائدة آيتان كريمتان ، تصرحان بوضوح أن كثيراً من اليهود يوالون المشركين ، بغضا منهم للإسلام ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨١ ﴾ .

والمعنى : ترى أيها الرسول الكريم، كثيراً من اليهود المعاصرين لك، يوالون الكافرين، ويحالفونهم عليك ، مع أنك أنت تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله بدون تفريق بينهم ، وأولئك المشركون الذين حالفهم اليهود لا يؤمنون بشىء من ذلك ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ أى : لبئس زادا لهم فى الآخرة، موجب سخطه ـ تعالى ـ عليهم ، أى : أعمالهم التى من أجلها استحقوا غضب الله وسخطه عليهم، فجعلهم فى عذاب جهنم خالدين .

(1) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ١٧٣ .

ثم بين الله تعالى بعد ذلك، أن تولى اليهود للمشركين، دليل على فساد فطرتهم ،وبعدهم عن الإيمان الحق، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى : ولو كان أولئك اليهود الذين تولوا المشركين، يؤمنون بموسى -عليه السلام- كما يزعمون ، وبما أنزل إليه من الهدى والبينات ، لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء ،وأصفياء، لأن تحريم تولى المشركين متأكد فى التوراة، وفى شرع موسى -عليه السلام- وإذن فهذه الولاية القوية بين اليهود والمشركين ليس لها من سبب، إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالإسلام . والتواطؤ على حربه ، والكيد بدعوته ، ومعاداة أتباعه.

ثم كشف القرآن الكريم عن الأسباب التى حملت اليهود على التآلف مع المشركين، فقال تعالى :﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى :ولكن الكثيرين من اليهود منحرفون عن طريق العقيدة القويمة التى تهدى القلب والعقل،إلى الطريق المستقيم،وخارجون عن حَظيرة الدين،ولذلك اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن تواطؤ اليهود مع المشركين؛ لمحاربة المسلمين ،وفى هذا الكشف تحذير للمسلمين من شرورهم ، حتى لا ينخدعوا بهم، ولا يأمنوا لهم .

ثامنا : إيذاؤهم لرسول الله ﷺ بالقول القبيح والخطاب السيء :

جبل اليهود على المخادعة والمراوغة ، واتخذوا هذه المخادعة والمراوغة سلاحا لهم، فى إيذائهم للنبى ﷺ ، فكانوا يخاطبونه بالكلام الذى فيه تورية ، ويلوون ألسنتهم بالكلمة؛ لتؤدى الغرض السيء الذى يقصدونه ، وهو إيذاء النبى ﷺ والتهكم به ؛ والتهوين من شأنه ، وإظهاره أمام أصحابه بمظهر الجاهل بأساليبهم.

كان الصحابة -رضى الله عنهم- ينطقون بالكلمة، يقصدون بها معناها الصحيح،الذى فيه تكريم،وإجلال للنبى ﷺ ولكن اليهود كانوا يتلقفون هذه الكلمة،فيلوون بها ألسنتهم ؛لتؤدى معنى قبيحا عندهم وقت النطق بها،وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك،ونهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول ﷺ بألفاظ معينة،حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى ﷺ،من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ .

(راعنا) من المراعاة ، وهى المبالغة فى الرّعى ، بمعنى حفظ الغير ، وإمهاله ، وتدبير أموره ، وتدارك مصالحه ، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حدثهم بحديث : راعنا يا رسول الله ، أى : راقبنا وانتظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه ، فتلقف اليهود هذه الكلمة ،لموافقتها كلمة سيئة عندهم ، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم ، ويقولون ﴿ رَاعِنَا ﴾ يا أبا القاسم ، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والانتظار ، وهم يريدون فى الحقيقة معنى اسم الفاعل، من الرعونة، التى هى الحمق والخِفّة ، فنهى الله ـ تعالى ـ المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبى ﷺ والتنقيص من شانه .

قال قتادة : « كانت اليهود تقول للنبى ﷺ راعنا سمعك ، يستهزئون بذلك ؛ وكانت ـ هذه الكلمة ـ فى اليهود قبيحة » .

وقال الإمام ابن كثير : « نهى الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية؛ لما يقصدونه من التنقيص، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولوا راعنا ويورون بالرعونة ،كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلموا ، إنما يقولون :« السّام عليكم » والسام هو: الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم « وعليكم »، وإنما يستجاب لنافيهم، ولايستجاب لهم فينا ، والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا (١) .

وقال الإمام ابن تيمية : كان المسلمون يقولون :« راعنا يا رسول الله، وأرعنا سمعك »، يعنون: من المراعاة ، وكانت هذه اللفظة سبا قبيحا بلغة اليهود ، فلما سمعتها اليهود اغتنموها، وقالوا فيما بينهم :كنا نسب محمدا سرا، فأعلنوا له الآن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤٨ .

بالشتم ، وكانوا يأتونه، ويقولون : « راعنا يا محمد » ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها (سعد بن معاذ) ففطن لهم ، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود : « عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه » ، فقالوا : أولستم تقولونها ، فأنزل الله - تعالى - ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ لكى لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا، إلى شتم الرسول ﷺ (١).

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه، بدل هذه الكلمة، فقال تعالى : ﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ أى : لا تقولوا تلك الكلمة - وهى ﴿ رَاعِنَا ﴾ أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ، وقولوا مكانها ﴿ انظُرْنَا ﴾ أى : انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك ، من نظر بمعنى انتظر ، تقول : نظرت الرجل أنظره إذا انتظرته وارتقبته ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ أى : انتظرونا نقتبس من نوركم .

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل ، وهو أن يتجنب الإنسان فى مخاطباته لغيره الألفاظ التى توهم جفاء، أو تنقيصا فى مقام يقتضى إظهار مودة، أو تعظيم .

ثم بين - سبحانه - مصير اليهود المؤلم جزاء تعديهم على رسول الله ﷺ فقال : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أى : لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة ﴿ رَاعِنَا ﴾ وسيلة إلى سب الرسول ﷺ عذاب أليم؛ جزاء كفرهم، وتطاولهم، وسفاهتهم .

ثم بين - سبحانه - للمسلمين ما يضمره لهم هؤلاء اليهود من بغض وحسد فقال تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة، صرحت بأن اليهود كانوا يُحيُّون رسول الله ﷺ بكلام محرف، لا يفطن له أكثر الناس، يقصدون به الدعاء عليه بالموت ، فكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يكبتهم ويخزيهم، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى، عن أنس بن مالك ،قال :

---

(١) كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » للإمام ابن تيمية ص ٢٤١ .

« مر يهودي برسول الله ﷺ فقال : السام عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « وعليك » . فقال رسول الله ﷺ - لأصحابه - « أتدرون ما يقول؟ » ؛ قالوا : لا ، قال يقول : « السام عليك » قالوا يا رسول الله : ألا نقتله ؟، قال : « لا ، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم » (١) .

وأخرج الشيخان، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت :

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : « السام عليك » قالت عائشة : ففهمتها ، فقلت : « عليكم السام واللعنة » ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « مهلا ياعائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله » فقلت يا رسول الله : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : « لقد قلت وعليكم » (٢) .

وروى مسلم ،عن جابر بن عبد الله، قال : « سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ،فقال : « وعليكم » فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : « بلى قد سمعت فرددت عليهم ، وإنما نجاب ولا يجابون علينا »(٣) .

وإذن فالآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ وهذه الأحاديث الشريفة ، تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية، القول الملتوى القبيح ، والخطاب المحرف السيء ، ولكن الله - تعالى - أحبط خطتهم ، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ، التي كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم،وكان الرسول ﷺ يرد بما يغيظهم ويخزيهم،وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح،وأيد الله - تعالى - رسوله، والمؤمنين بقوته ونصره.

تاسعًا : استهزاؤهم بالدين وشعائره :

من مسالك اليهود - أيضا - لكيد الدعوة الإسلامية ، اتباعهم طريق الاستهزاء بالإسلام ، والتهكم بشعائره وعباداته ، وقد فضح القرآن الكريم مسلكهم هذا ، ونهى المؤمنين عن موالاتهم ومصافاتهم ،فقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) صحيح البخاري،باب « إذا اعرض الذمي وغيره بسب النبي » من كتاب « استتابة المرتدين » جـ٩ص٢٠ .

(٢) اخرجه البخاري - واللفظ له - في باب « كيف يرد على أهل الذمة السلام » جـ٨ ص ٧٠ .
اخرجه مسلم في كتاب السلام جـ٤ ص ١٧٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) صحيح مسلم : باب « النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من « كتاب السلام » جـ ٤ ص ١٧٠٧ .

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان، وصدقتم بكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، لا يجوز لكم ـ بحال من الأحوال ـ أن تُوادوا الذين اتخذوا دينكم ـ الذى هو مناط سعادتكم ـ هزوا ولعبا، أى : جعلوه مادة للسخرية والعبث، والاستخفاف ، ومن مظاهر ذلك إظهارهم الإسلام أمامكم، فإذ ما خلوا إلى شياطينهم قالوا :إنما نحن مستهزئون .

وفى نداء المؤمنين بوصف الإيمان ، إثارة للحمية فى قلوبهم ،من أجل دينهم وعبادتهم، التى اتخذها أعداؤهم مثار سخرية واستهزاء ، لأنه لا يليق بمؤمن أن يوالى من يعبث بدينه .

ثم بين القرآن الكريم الوان المستهزئين بالدين ، المتلاعبين بشعائره، فقال تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى : لا تتخذوا اليهود والنصارى والمشركين أعوانًا ونصراء، لأنهم جميعًا متفقون على محاربتكم، والاستخفاف بدينكم .

وفى وصفهم ﴿ بأنهم أوتوا الكتاب ﴾ بيان لكمال شناعتهم، وغاية ضلالهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بكتابهم، لما اتخذوا دين الله هزواً ولعباً .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالمواظبة على طاعته، وبامتثال أوامره ،فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حقا، فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة .

ثم بين الله تعالى استهزاء اليهود ومن على شاكلتهم بشعيرة خاصة من شعائر الدين ، بعد أن صرح فى الآية الأولى باستهزائهم بالدين على الإطلاق فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ .

أى :إذا دعا بعضكم بعضا إلى الصلاة،وأذن المؤذن بحضور وقتها سخر من دعوتكم إليها،وتضاحك من الأعلام بها من نهيتهم عن ولايتهم من اليهود وغيرهم،لأنهم قوم يجهلون حقيقة الأديان،وما قدروا الله حق قدره،ولا عرفوه حق معرفته .

قال الإمام القرطبى : « كان إذا أذن المؤذن، وقام المسلمون إلى الصلاة، قال اليهود: قاموا لا قاموا ، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا، وقالوا فى حق الأذان : لقد ابتدعت يا محمد شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر : وقيل إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السخف والمجون ؛تجهيلا لأهلها ، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعى إليها » [١] .

ونفى سبحانه العقل عنهم؛ لأنهم لم ينتفعوا به، واتخذوا دين الله هزوا ولعبا ، وهذا فعل من لا عقل عنده.

عاشرا : محاولتهم قتل الرسول ﷺ

لم يكتف اليهود بحروب الجدل، التى حاربوا بها النبى ﷺ ولا بحروب الدس والوقيعة، ومحاولة إثارة الفتنة بين أصحابه ، ولا بإظهارهم الإسلام فى أول النهار وكفرهم فى آخره ، ولا بتحالفهم مع كل مبغض للإسلام والمسلمين، ولا باستهزائهم بالدين وشعائره ، لم يكتفوا بكل ذلك من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية ، وإنما لجأوا إلى وسيلة أخرى، سولتها لهم أنفسهم الغادرة، وعقولهم الحاقدة .. وهذه الوسيلة هى محاولتهم قتل النبى ﷺ .

ولقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم ، وكيف أنه ـ سبحانه ـ نجى نبيهم محمدا ﷺ من مكر اليهود وأذاهم ،فقال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ .

أخرج ابن جرير ـ فى سبب نزول هذه الآية ـ عن ابن أبى زياد قال : جاء رسول الله ﷺ بنى النضير يستعينهم فى عَقْل [٢] أصابه، ومعه (أبو بكر وعمر وعلى) فقال : أعينونى فى عَقْل أصابنى ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة ، اجلس حتى نطعمك ونعطيك، الذى تسألنا ، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرونه وجاء (حُيىٌّ بن أخطب) ـ وهو رأس القوم ، وهو الذى

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٢٤ طبعة دار الكتب .

(٢) أى : فى دم أصابه أصحابه وتكفل الرسول ﷺ بدفع ديته .

قال لرسول الله ﷺ ما قال ـ فقال حيي لأصحابه : لا ترونه أقرب منه الآن . اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ، ولا ترون شرا أبدا ، فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم ، حتى جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فأقامه من ثَمَّ فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فأخبر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ ما أرادوا به (١) .

وقال الإمام ابن كثير : وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ، ومجاهد ، وعكرمة، وغير واحد ، أن هذه الآية نزلت فى شأن بنى النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، حين جاءهم يستعينهم فى دية العامريين، ووكلوا (عمرو بن جحاش) بذلك ، وأمروه، متى جلس النبى ﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبى ﷺ على ما تعاهدوا عليه ، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه، فأنزل الله فى ذلك الآية (٢) .

وهناك روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، منها : أنها نزلت فى شأن أعرابى أراد أن يقتل النبى ﷺ فنجاه الله ـ تعالى ـ منه ، ومنها : أنها نزلت بعد أن نجى الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ من بنى ثعلبة، وبنى محارب ، حين أرادوا أن يقتلوه، وهو مشتغل بالصلاة ومعه أصحابه .

والذى نراه :أنه لا مانع من أن تكون الآية الكريمة قد نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة ، فقد تتعدد الحوادث، والمنزل واحد، كما قال العلماء .

إلا أننا نرجح ما ذهب إليه ابن جرير، من أن حديث القرآن بعد ذلك عن اليهود ونقضهم للعهود ، قرينة قوية على أن الآية تذكير للمؤمنين بنعمة إنجاء الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ من مكر اليهود وكيدهم .

قال الإمام ابن جرير : بعد أن ذكر آراء العلماء فى صفة هذه النعمة، التى ذكر الله بها المؤمنين؛ ليشكروه عليها ـ « وأولى الأقوال بالصحة فى تأويل ذلك، قول من قال : عنى الله بالنعمة التى ذكر فى هذه الآية ، نعمته على المؤمنين به وبرسوله ، التى أنعم بها عليهم ، فى استنقاذ نبيهم محمد ﷺ مما كانت يهود بنى النضير

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ١٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١ .

همت به من قتله وقتل من معه، يوم سار إليهم نبي الله ﷺ في الدية، التي كان تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية ، وإنما قلنا : ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك؛ لأن الله عقب ذكر ذلك برمي اليهود بقبيح أفعالها ، وخيانتها ربهاوأنبيائها ، ثم أمر نبيه ﷺ بالعفو عنهم ، والصفح ، عقب قوله ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ومن غيرهم كان يبسط الأيدى إليهم ؟ لأنه لو كان الذين هموا ببسط الأيدى إليهم غيرهم ، لكان حريا أن يكون الأمر بالعفو والصفح عنهم ، لا عمن لم يجر لهم بذلك ذكر ، ولكان الوصف بالخيانة في وصفهم في هذا الموضع لا في وصف من لم يجر لخيانته ذكر ، ففي ذلك ما ينبيء عن صحة ما قضينا له بالصحة من التأويلات في ذلك دون ما خالفه [1] .

والآية الكريمة قد افتتحت بأمر المؤمنين بأن يذكروا نعمة الله عليهم فقالت : ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أى : يا من آمنتم بالله ورسوله ، اذكروا نعمة الله عليكم ، واشكروه عليها ، ليزيدكم من إحسانه وإنعامه ودفع المكروه عنكم.

ثم وصف ـ سبحانه ـ نعمته التي أمرهم بالشكر عليها مع سائر نعمه فقال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أى : اذكروا نعمة الله عليكم ، التى من أكبر مظاهرها ، كفه عنكم أيدى اليهود، الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم ، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة ، ولكن الله ـ تعالى ـ أحبط مكرهم ،ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكل عليه ،فقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ فى رعاية حقوق نعمته، ولاتخلوا بشكرها ، فقد أراكم قدرته ، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم ، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون بربهم ، المقرون بوحدانيته ، المتبعون لرسوله ، العاملون بأمره ونهيه ، فإن ذلك من كمال دينهم، وتمام إيمانهم، وإنهم متى فعلوا ذلك كلأهم ورعاهم ، وحفظهم ممن أرادهم بسوء: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ١٤٦ .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكَّرت المؤمنين بنعمة الله عليهم ؛ ليزدادوا له شكرا وحمدا ، وأشارت إلى ما أراده اليهود من أذى لرسول الله ﷺ فأحبط الله - تعالى - كيدهم ، وخيب مسعاهم .

هذا ، وليست هذه هي الحادثة الوحيدة التي حاول اليهود فيها قتل النبي ﷺ بل هناك غيرها .

فقد أخرج الإمام البخاري ،عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « لما فتحت خيبر - واطمأن رسول الله ﷺ بعد فتحها - أهديت إليه شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ بعد أن لاك مضغة ثم لفظها - :« اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود » ، فجمعوا له، فقال لهم حين اجتمعوا عنده : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي فيه ؟» قالوا : نعم يا أبا القاسم . فقال لهم رسول الله ﷺ :« من أبوكم ؟» قالوا : أبونا فلان قال :« كذبتم أبوكم فلان » - قال الحافظ ابن حجر : أي : إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - (عليه السلام) - قالوا : صدقت وبررت ، قال : « فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟» قالوا نعم :يا أبا القاسم ، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم : من أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها زمانا يسيرا ثم تخلفوننا فيها ، فقال لهم : « اخسئوا فيها » ، أي : اسكنوا فيها سكون ذلة وهوان والله لن نخلفكم فيها أبدا ،ثم قال لهم : « هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟» فقالوا نعم . قال : « أجعلتم في هذه الشاه سماً ؟ نسب إليهم العجل لأنهم لما علموا به لم ينكروه - قالوا : نعم، قال :« فما حملكم على ذلك ؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك . وإن كنت نبياً لم يضرك (١) .

وبهذا نرى أن اليهود حاولوا قتل الرسول ﷺ أكثر من مرة، ولكن الله - تعالى - عصمه من مكرهم ، ونجاه من شرهم ، ﴿ ويأبى او إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

والآن - وبعد أن ذكرنا نماذج متنوعة لبعض الوسائل التي اتبعها اليهود لكيد الدعوة الإسلامية - نريد أن نسأل ، ماذا كان موقف النبي ﷺ منه بعد كل هذه الأعمال السيئة التي صدرت عنهم ؟!!

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني جـ٧ ص ٣٤٥.

للإجابة على هذا السؤال نقول : كان موقف النبى ﷺ يتضمن الأمور الآتية :

أولا : مواصلته دعوتهم إلى الدخول فى الإسلام :

على الرغم من أن اليهود لم يتركوا وسيلة لكيد الدعوة الإسلامية إلا فعلوها ، فإن الرسول ﷺ ظل يدعوهم إلى الإسلام ، ويسوق لهم الحجج والأدلة على صدقه، حتى يقطع عذرهم ، ويسجل عليهم ظلمهم وفسوقهم عن أمر الله .

ومن الآيات التى أمرت اليهود بأن يتركوا عنادهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ .

ومنها قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ .

ثانيا : ردهم إلى الصواب فيما جادلوا فيه أو سألوا عنه :

ذكرنا فى أوائل هذا الفصل أمثلة متعددة للأمور التى جادل اليهود فيها النبى ﷺ، وللأسئلة المتعنتة التى كانوا يواجهونه بها ، كجدلهم فى نبوته ﷺ، وفى إبراهيم وعيسى ـ عليهما السلام ـ وفى موضوع النسخ، وتحويل القبلة ، وفى طلبهم منه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء .. إلى غير ذلك من مجادلاتهم الكثيرة .. ولقد كان موقف النبى ﷺ منهم فى هذا المقام ، يتضمن ردهم إلى الصواب فيم جادلوا فيه ، أو سألوا عنه ، ويتضمن كذلك إيراد الحجج الملزمة لهم، التى تفضح باطلهم ، وتقضى على شبهاتهم ، وتكشف عن أكاذيبهم ، وتتهكم بعقولهم ومنطقهم ، وتتحداهم أن يأتوا بالتوراة فيتلوها إن كانوا صادقين، أو أن يقيموا دليلا واحدا على صحة ما يزعمونه . وبذلك غلبوا وانقلبوا صاغرين فيما جادلوا فيه، أو سألوا عنه ـ كما بينا ذلك من قبل ـ

ثالثًا : نهى المؤمنين عن موالاتهم ومصافاتهم :

نهى الله - تعالى - المؤمنين عن موالاة اليهود وأمثالهم من الكافرين والمنافقين وحذرهم من الركون إليهم ، أو الإصغاء إلى شبهاتهم . وقد جاء هذا التحذير في آيات كثيرة، منها قوله تعالى، في سورة آل عمران : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾ (١) .

أخرج ابن جرير، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالا من اليهود، لما كان بينهم من الحلف والجوار في الجاهلية، فنهاهم الله - تعالى - عن مباطنتهم ، تخوف الفتنة عليهم منهم ، وأنزل الله - تعالى - قوله ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ الآية (٢) .

وفى هذه الآيات الكريمة، ينهى الله المؤمنين عن أن يتخذوا من أعدائهم - كاليهود - أولياء وأصفياء . ثم بين - سبحانه - حكمة النهى عن تلك الموالاة والمصافاة ،وهى ما يضمره لهم اليهود وأمثالهم، من غش وخيانة، فقال تعالى : ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود وأمثالهم من المنافقين، لا يقصرون فى إتيان العمل، الذى فيه فساد لكم ، وهم فوق ذلك يودون ويتمنون ضرركم فى دينكم ودنياكم، وها أنتم ترون أن عداوتهم لكم ، قد ظهرت من أفواههم لأنهم لا

---

(١) قال صاحب الكشاف : « بطانة الرجل ووليجته ، خصيصه وصفيه الذى يفضى إليه بشعوره ثقة به ، شبه ببطانة الثوب، كما يقال: فلان شعارى ، وفى الحديث « الأنصار شعار والناس دثار » . ﴿ لا يالونكم خبالا ﴾ يقال : الا فى الأمر يالوا إذا قصر فيه ، ثم استعمل متعديا إلى مفعولين فى قولهم لا الوك نصحا، ولا الوك جهدا، على التضمين ، والمعنى : لا امنعك نصحا، ولا انقصكه جـ ١ ص ٣٣٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٦١ .

يتمالكون، مع ضبطهم أنفسهم، وتحاملهم عليها، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم لكم ، وما تخفيه صدور هؤلاء اليهود لكم ،من بغضاء أكبر وأعظم مما بدا على أطراف ألسنتهم ، وها نحن قد بينا لكم - يا معشر المؤمنين - العبر والعظات ، إن كنتم تعقلون عن الله - تعالى - مواعظه وعبره ، وأمره ونهيه.

ثم بين - سبحانه - الفارق الكبير بين نفوس المؤمنين الطيبة الطاهرة النقية ونفوس هؤلاء اليهود، الذين يعادونهم، فقال تعالى : ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أى : أنتم يا معشر المؤمنين تحبون هؤلاء اليهود وأمثالهم من المنافقين ، ومن أجل تلك المحبة دعوتموهم إلى الإسلام، ليسعدوا فى دنياهم ، وأخراهم، وهم لا يحبونكم بل يبطنون لكم العداوة والبغضاء، وأنتم كذلك ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: بجميع الكتب السماوية، المنزلة على رسل الله - تعالى - وهم يكفرون بالقرآن ، ويؤمنون ببعض التوراة، دون بعض والباعث لهم على ذلك كله الحسد والبغضاء ولنبيكم ﷺ وإن هؤلاء اليهود وأمثالهم ﴿ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقا وخداعا ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى :وإذا فارقوكم بعد أن رأوا اجتماع كلمتكم ، عضوا على أطراف أصابعهم تغيظا منكم ، وحسرة بسبب ما أنتم عليه من إخاء، ومحبة،وهداية.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه أن يقول لهؤلاء اليهود ما يزيد في غمهم وحزنهم، فقال تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

ثم زاد القرآن الكريم فى الكشف عن حالهم ، وأرشد المؤمنين إلى النجاة من شرورهم، فقال تعالى :﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ .

أى : إن تنالوا أيها المؤمنون خيراً فى دينكم أو دنياكم، يغضب اليهود لذلك ، وإن يصبكم شر بإخفاق سرية لكم ، أو بأصابة عدوكم منكم ، يفرحوا له ، لأنهم لا يريدون لكم إلا السوء . ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله ، فتعملوا بما أمرتم به ، وتنتهوا عما نهيتم عنه ، لا يضركم كيدهم شيئا، لأن الله - تعالى - حافظكم من كيدهم ، وناصركم عليهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن موالاة اليهود وأمثالهم ، وحذرتهم من مكرهم وخداعهم ، وبينت لهم ألوانا من غشهم وخيانتهم

وغدرهم، وأرشدتهم إلى أن يتمسكوا بالصبر والخوف من الله، حتى ينجوا من كيدهم، وينالوا رضاء ربهم.

رابعًا : نهى المؤمنين عن سؤالهم :

نهى النبى ﷺ المسلمين عن سؤال اليهود، فيما يتعلق بأمور الدين ، وأمرهم أن يرجعوا فى أمر دينهم إلى قرآنهم، وسنة نبيهم ﷺ، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

« يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه لم يُشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ،وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا :هو من عند الله ؛ليشتروا به ثمنًا قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم » (١) .

ومن الأسباب التى من أجلها نهى النبى ﷺ أصحابه، عن سؤال أهل الكتاب ، أنهم كانوا إذا سألهم المؤمنون يكتمون علمهم عنهم ، أو يجيبونهم بغير الجواب الحق.

أخرج الشيخان أن (مروان) قال لبوابه ، (رافع) :« اذهب إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لتعذبن جميعا ».

فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ؟ إنما دعا النبى ﷺ اليهود فسألهم عن شىء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره ، ثم خرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه ، ثم قرأ ابن عباس :﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾ (٢) .

---

(١) صحيح البخارى « كتاب الشهادات » باب « لا يسال اهل الشرك عن الشرك » جـ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) صحيح البخارى - واللفظ له - « كتاب التفسير » باب قوله تعالى ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ﴾ جـ٦ ص ٥١ . واخرجه مسلم فى كتاب « صفات المنافقين واحكامهم » جـ٤ ص ٢١٤٣ .

وبذلك نرى أن تعاليم الإسلام قد نهت المؤمنين عن سؤال اليهود ، لأنهم حرفوا كتبهم ، ولم يكونوا أمناء على العلم، الذى أمرهم الله بتبليغه .

خامسًا : تحذير المؤمنين من أن ينهجوا نهجهم .

فى القرآن الكريم آيات كثيرة ، ذكرت ألوانا من الأذى الذى ألحقه بنو إسرائيل بأنبيائهم ، خصوصا نبيهم موسى - عليه السلام - فقد أخبر القرآن عنهم أنهم عصوا أمره وقالوا له : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ وقالوا له : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ وفضلا عن هذا ، فإنهم اتهموا بأنه إنسان به آفة جسمية ،تتنافى مع مقام الرسالة والنبوة، فبرأ الله - تعالى - رسوله موسى مما اتهموه به ،وكانت نتيجة إيذائهم له ولغيره من رسل الله - عليهم السلام - أن سخط الله على اليهود، وفى العذاب هم خالدون .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك لكى يعتبر المؤمنون ،ويبتعدوا عن هؤلاء اليهود الذين آذوا رسل الله ، ولا ينهجوا نهجهم؛ لئلا يصابوا بما أصيبوا به .

ومن الآيات التى حذرت المؤمنين من أن ينهجوا نهج بنى إسرائيل، الذين آذوا رسل الله ، قوله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ .

أخرج الإمام البخارى، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن موسى - عليه السلام - كان رجلا حييا ستِّيرا، لا يرى من جلده شىء، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب، فى جلده إما برص ، وإما أدرة [(١)] وإما آفة ، وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى - عليه السلام - فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على حجر ،ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ،وأن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ،فجعل يقول : ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملأ بنى إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله - تعالى - وبرأه مما يقولون ، وقام إلى الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه، فو الله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ﴾ [(٢)] .

---

(١) الأدرة - بضم فسكون - انتفاخ الخصيتين كثيرا.

(٢) صحيح البخارى : باب « من اغتسل عريانا » من كتاب الغسل جـ ١ ص ٧٥ .

ومعنى الآيات الكريمة : يأيها الذين آمنوا بالله ورسله ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى، وهم اليهود، حيث تنقصوه، وعصوا أوامره ، ونسبوا إليه ما لا يليق بمقام الرسالة والنبوة ، ولكن الله ـ تعالى ـ برأه مما تقولوه عليه، من كذب وبهتان ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن أسمى منزلته ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى : كان موسى ذا وجاهة ومنزلة قريبة عند الله ـ تعالى ـ لاستقامته على أمره ، وخوفه من مقام ربه .

وفى سورة الصف آية كريمة قريبة فى معناها ومغزاها من هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

والمعنى : واذكر ـ يا محمد ـ إذ قال موسى ـ عليه السلام ـ لقومه بنى إسرائيل: ياقوم لم تؤذوننى بمختلف ألوان الأذى ، والحال أنكم تعلمون صدقى علما يقينا .

قال صاحب الكشاف : « كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه فى نفسه، وجحود معجزاته ، وعصيانه فيما تعود عليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة » (١) .

وقال الإمام ابن كثير : « وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من أذى، وأمر له بالصبر ولهذا كان يقول : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهى للمؤمنين، أن ينالوا من النبى ﷺ أو يوصلوا إليه أذى » (٢) .

ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاء اليهود، فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق، مع علمهم به ، وجحودهم له، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، والله لا يهدى قوما فسقوا عن أمره، وجحدوا آياته ، واستحبوا العمى على الهدى .

ومن هذا نرى أن الآيتين الكريمتين قد وصمتا بنى إسرائيل بإيذائهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ مما جعلهم محل غضب الله وسخطه ، وحذرتا المؤمنين من السير على طريقتهم ،لأن السير على طريقتهم يؤدى إلى الشقاء فى الدنيا والآخرة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٥٩ .

سادسًا : تذكيرهم بنعم الله عليهم وعقوباته لهم :

تضمن ـ أيضا ـ موقف النبي ﷺ من اليهود، الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بكل سلاح ، تذكيرهم بنعم الله عليهم ، لأن هذا التذكير من شأنه أن يحملهم على الطاعة والشكر، إن كانوا ممن يعقل، أو يسمع ، وقد أفاض القرآن الكريم فى سرد النعم ،التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل؛ لكى يقابلوها بالحمد له، والوفاء بعهده ، والإيمان برسله . ولكن القرآن الكريم بجانب إفاضته فى ذكر ما أنعم الله به عليهم ، أفاض ـ أيضا ـ فى ذكر مواقفهم الجحودية، من هذه النعم ،وغمطهم إياها، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، كما أفاض القرآن الكريم ـ كذلك ـ فى ذكر مخازيهم ومفاسدهم ،وتعديهم لحدود الله ، وغير ذلك من المنكرات التى ارتكبوها ، والتى بسببها سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، إلى يوم القيامة، وجعل الذلة والمسكنة مضروبة عليهم .

وفى ذكر القرآن الكريم لما أنعم الله به على بنى إسرائيل، ولجحودهم تلك النعم عبرة للمؤمنين، وتنبيه للغافلين، حتى لا يحذوا حذوهم، ويسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، من العقوبات والنقم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

سابعًا : إنذارهم بسوء المصير إذا استمروا فى طغيانهم :

تضمن موقف النبى ﷺ منهم ـ أيضا ـ تهديدهم بالعقوبات الرادعة، وأخذهم بالشدة، إذا لم يفلح معهم اللين ، والجدال بالتى هى أحسن ، وطردهم من المدينة إذا هم استمروا فى زعزعة أمنها، وإثارة الفتن فيها ، وهذا الموقف الحازم معهم كان بمثابة التحذير الأخير لهم ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتركوا ما درجوا عليه من ضلال وعناد، وصد عن سبيل الله ، وإيذاء النبى ﷺ والمسلمين .

وفى سورة الأحزاب آيات كريمة ؛ حملت طابع التحذير لهم ولغيرهم، من الاستمرار على الأذى ،والإساءة للمسلمين ؛ وهذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عن كيدهم وخداعهم ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ عن فجورهم وفسوقهم، والمرجفون [1] فى المدينة عن إذاعتهم أخبار السوء . لئن لم ينته هؤلاء جميعا عما هم عليه من طغيان: ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنسلطنك عليهم، فننزل بهم العقوبات، التى تسوءهم وتردعهم عن غيهم، ثم لا يجاورونك فى المدينة إلا زمنا قليلا ، ريثما يعدون عدتهم للرحيل عنها ومغادرتها بلا رجعة . ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ أى: مطرودين من رحمة الله. أينما وجدوا، أو حلوا، أخذوا لذلتهم وجبنهم، وقتلوا تقتيلا شديدا ، وذلك حكم الله فيهم، بسبب كفرهم، ومشاقتهم لله ولرسوله .

ثم بين ـ سبحانه ـ سنته التي لا تتخلف وهي نصره للمؤمنين، وإذلاله للمفسدين، فقال تعالى :﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أى: هذه سنة الله فى المنافقين والفاسقين، إذا استمروا على نفاقهم وفسوقهم، أن يسلط عليهم أهل الإيمان؛ ليقهروهم ويذلوهم، ويسوموهم سوء العذاب، وسنة الله فى ذلك لا تبديل فيها ولا تحويل.

وإلى هنا نكون قد ذكرنا طرفا من وسائل اليهود لكيد الدعوة الإسلامية ، كما ذكرنا أمثلة لموقف الرسول ﷺ منهم.

ولكن هل كف اليهود عن تلك الوسائل الخبيثة، التى ذكرنا طرفا منها ـ كتشكيكهم فى صدق نبوة النبى ﷺ ،ومحاولتهم الدس والوقيعة بين المسلمين ، وتلاعبهم بأحكام الله ـ تعالى ـ واستهزائهم بالدين وشعائره ؟ ـ وهل استمعوا لنصح النبى ﷺ لهم ، وتحذيره إياهم عاقبة مكرهم السيء ؟.

كلا إنهم ما كفوا عن ذلك ،ولا استمعوا للنصح الكريم، الذى وُجه إليهم، ولا اعتبروا بما أصاب من كان على شاكلتهم من عقوبات ، بل استمروا فى طغيانهم وفسوقهم، وكيدهم للإسلام ، ومحاولاتهم القضاء عليه بكل وسيلة.

وإزاء كل هذه الأعمال السيئة، التى صدرت عنهم، كان لابد من اتخاذ موقف حازم يكون فيه تأديب لهم ، ومنع لشرورهم ، وهذا ما سنبينه فى الفصل التالى ـ بعون الله تعالى .

---

(١) الإرجاف : إشاعة السوء ، يقال أرجف بكذا : إذا أخبر به على غير حقيقته ، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة ،وهى الزلزلة.

الفصل الرابع
تأديبُ اليهود

١ ـ تلخيص لما تحدثنا عنه فى الفصل السابق.

٢ ـ موقف اليهود بعد انتصار المسلمين فى بدر.

٣ ـ تطاول يهود بنى قينقاع على المسلمين ، وعدم انصياعهم لنصيحة الرسول ﷺ.

٤ ـ حوادث غزوة بنى قينقاع.

٥ ـ الخطة الحكيمة التى سلكها الرسول ﷺ فى حربهم.

٦ ـ الآثار التى ترتبت على إجلائهم.

١ ـ بينا فى الفصل السابق أن اليهود قد حاولوا بكل وسيلة القضاء على الدعوة الإسلامية، ووضحنا أنهم قد سلكوا لبلوغ غايتهم مسالك متعددة ، منها: طعنهم فى نبوة النبى ﷺ واستهزاؤهم بالإسلام، وشعائره وإثارتهم للشبهات؛ لتشكيك المسلمين فى دينهم ، وعملهم على تفريق كلمة المؤمنين، وتصديع وحدتهم .. إلى غير ذلك من المسالك الخبيثة، التى تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق. وقلنا أن النبى ﷺ تحمَّل سفههم ، وصبر على أذاهم ومكرهم ، وجادلهم بالتى هى أحسن، رغم تطاولهم، وسوء أدبهم ، ولم يوجف عليهم بخيل ولاركاب، أملا فى هدايتهم واستجابتهم للحق، الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

ولكن اليهود لم يقابلوا الجميل بالجميل ، بل قابلوا حلم رسول الله ﷺ بالإمعان فى التمرد ،والغدر والإساءة ، فقد انتقلوا من نطاق جحود النبوة ، وتشكيك المسلمين فى صحة دين الإسلام إلى نطاق الغدر ، ونقض العهود والمجاهرة بالكراهية والاستنكار لما يصيب المسلمين من خير.

٢ - فعندما حصلت غزوة بدر ، وخرج المسلمون منها منتصرين ظافرين ، ظنوا أن هذا النصر، سيقابل بالسرور والارتياح، من جانب اليهود؛ لأنهم أهل كتاب وجيرانهم فى الدار، وحلفاؤهم بمقتضى المعاهدة، التى تنص على أن يقفوا بجانب المسلمين فى الدفاع عن المدينة.

ولكن اليهود كُبتوا لهذا النصر ، وشككوا فى صحته ، وذلك أن الرسول ﷺ قبل أن يعود بجيشه إلى المدينة بعد الانتهاء من غزوة بدر، أرسل (زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة) - رضى الله عنهما - ليبشرا أهل المدينة بنصر المسلمين ، وعندما وصلاها أخذ (عبد الله بن رواحة) ينادى فى الناس، ويعلن فوز المسلمين، ويذكر أسماء قتلى المشركين ، وصدّقه (زيد بن حارثة) فيما قاله ، وكان ممتطيا (القصواء) ناقة الرسول ﷺ، واستقبل أهل المدينة هذه الأخبار السارة بالتهليل والتكبير ، إلا أن اليهود أفزعتهم هذه الأنباء السارة وأذهلتهم ، فصاح بعضهم.

أيها الناس إن محمداً قد قتل وأصحابه قد هزموا ، وهذه ناقته نعرفها جميعًا ، ولو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول هذان ما يقولان هذيانا من الفزع والرعب ، ولئن كان ما يقولانه حقًا لبطن لأرض خير من ظهرها ، بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم ، وملوك العرب ، وأهل الحرم والأمن ، ولم يكتفوا بهذا بل سافر بعضهم إلى مكة ؛لينشد الأشعار فى رثاء قتلى المشركين، وليحرض قريشا على أن تأخذ بثأرها من المسلمين .

وهكذا كشف اليهود عن حقدهم الدفين ، وعداوتهم الصريحة للمسلمين ، بعد أن انتصر المسلمون فى بدر ، وظهر أمر الله وهم كارهون.

٣ - وكان أول من كشف عن دفين غله وضغنه ، واستهزأ بالإسلام وأهله ، هم يهود بنى قينقاع [١] الذين يقيمون داخل المدينة ، وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين ، فهم لم يكتفوا بالدسائس والمؤمرات يحيكونها ضد الإسلام وأتباعه، بل تطاولوا واعتدوا على عرض امرأة مسلمة ، قدمت بجلب [٢] إلى سوقهم لتبيعه

---

(١) قال الزرقانى فى شرح المواهب ما ملخصه: « بنو قينقاع بطن من يهود المدينة منازلهم عند جسر بطحان مما يلى العالية ، كانوا أشجع اليهود ، وأكثرهم مالا وأشدهم بغيا، وكانت غزوتهم يوم السبت فى نصف شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة » جـ٢ ص ٤٥٥ .

(٢) الجلب بفتح الجيم واللام كل ما يجلب إلى السوق ليباع فيها.

وجلست إلى صائغ منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ، وكان يهوديا فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [١] .

أدرك الرسول ﷺ أن اليهود بعملهم هذا لا يبتغون الفتنة فقط، بل يريدون بجانب ذلك محاربة سلطانه ، ونفوذ كلمته ، وتصديع دولته ، وإظهاره هو ومن معه من المسلمين، بمظهر العجزة عن أن يردوا اعتداء نزل بهم ، أو شرا أصاب عرضهم وشرفهم ، ولو تم لليهود ما يؤملون، لهانت دولة المسلمين ، ولطمع فيهم أعداؤهم ، وهذا ما يأباه المسلمون كل الإباء .

قال الزرقاني في شرح المواهب : « وذكر ابن سعد أن بني قينقاع لما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد والمدة، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ فقال النبي ﷺ :« إني أخاف بني قينقاع » [٢] .

ثم سار النبي ﷺ إليهم وجمعهم في سوقهم ،فقال لهم : يا معشر اليهود احذروا من الله ـ عز وجل ـ مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل : تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم، فقالوا : مُدلين بقوتهم ـ يا محمد إنك ترى أننا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس ، فأنزل الله ـ عز وجل .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑫ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٧ .

(٢) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٥٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

وهكذا نرى أن بنى قينقاع قد أمعنوا فى بغيهم وعنادهم ، وقابلوا نصح رسول الله ﷺ لهم ، وتحذيره إياهم بالسخرية والتهكم:

ومعنى الآيتين الكريمتين : قل يا محمد للكافرين بهذا الدين، وعلى رأسهم اليهود، المغرورون بأموالهم وقوتهم ، قل لهم : إنكم ستهزمون فى الدنيا ، وتجمعون وتساقون إلى نار جهنم، التى هى بئس الفراش لكم فى الآخرة ، وقد صدق الله وعده بقتل بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم، وهذا من أوضح الشواهد على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

ولم يوجه القرآن الكريم الخطاب إليهم ، بل أمر الرسول ﷺ أن يجابههم به فقال ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ لأنهم كانوا مغرورين بقوتهم عليه ، مفتخرين بعددهم وعُددهم ، فمن المناسب أن يتولى هو الرد عليهم ، ليكون أوقع فى تهديدهم وزجرهم .

وبعد هذا الإنذار بأنهم سيغلبون، ساق لهم حادثة واقعية، تشهد بصدق النبى ﷺ ، وهى حال الطائفتين اللتين التقتا فى ميدان القتال يوم بدر ، فهزمت الطائفة القليلة المؤمنة، الطوائف الكثيرة، بإذن الله ، فقال تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ أى : قد كان لكم أيها اليهود عبرة ودلالة على أنكم ستهزمون، وعلى أن الله معز دينه ، ونا صر رسوله ، فى فرقتين التقتا يوم بدر للقتال ، فئة صغيرة تقاتل فى سبيل، إعلاء كلمة الله ، وهم النبى ﷺ وأصحابه ، وفئة أخرى كافرة كبيرة، وهم مشركو مكة، وقد شاهدتم بأعينكم ما يثير العبرة ،وهو أن الله عز وجل قد نصر الطائفة المؤمنة الصغيرة ، على الطائفة الكافرة الكبيرة .

قال صاحب الكشاف : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريبا من ألفين ، أو مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين ، أراهم الله إياهم مع قلتهم ،أضعافهم ،ليهابوهم، ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مددا لهم من الله، كما أمدهم بالملائكة ، والدليل عليه قراءة نافع ترونهم بالتاء، أى : ترون يامشركى قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة أو مثلى أنفسهم . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله - تعالى - فى سورة الأنفال ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ ؟ قلت : قللوا أولا فى أعينهم ،حتى اجترؤا عليهم فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم فكان

التقليل والتكثير فى حالين مختلفين ... وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين على ما قرر عليه أمرهم، من مقاومة الواحد الإثنين، فى قوله تعالى: ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ... ﴾[1] .

ثم بين الله تعالى بعد ذلك أن النصر والخذلان بيده فقال: ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى: أن الله تعالى يقوى ببصره من يريد قصره من عباده ، إن فى ذلك ، أى: التكثير والتقليل، وغلبة القليل مع عدم العدة ، للكثير الشاكى السلاح ، اعتباراً واتعاظا لأصحاب العقول السليمة، والمدارك الصحيحة، التى تفهم الأمور على وجهها القويم .

فالآيتان الكريمتان ، قد اشتملتا على بشارة للمؤمنين ، وتهديد للكافرين، وعلى رأسهم اليهود ، ودعوة إلى التأمل فيما يجرى فى الكون من أمور محسوسة، ترشد الناس إلى أن من يعتمد على قوته وحدها من غير اعتبار بما تجرى به المقادير يخذله الله ، وتأتيه الهزيمة من حيث لا يحتسب ، وخير شاهد على ذلك موقعة بدر، التى جرت أحداثها بمرأى ومسمع من اليهود ، فقد انتصر المسلمون فيها - رغم قلتهم - على المشركين - رغم كثرتهم - وفى ذلك أبلغ عبرة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد .

٤ - ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن أحداث غزوة بنى قينقاع فنقول :

لم يبق أمام النبى ﷺ بعد هذا التحدى السافر، من جانب يهود بنى قينقاع من سبيل إلا مقاتلتهم ، لأن المسلمين لو تركوهم يبغون ويتطاولون ، لتعرض سلطانهم فى المدينة للضياع ، ولطمع فيهم أعداؤهم ، ولصارت المدينة وكرا؛ للدسائس والفتن.

ولذا سار النبى ﷺ لقتال بنى قينقاع، فى شوال من السنة الثانية بعد الهجرة ، فحاصرهم المسلمون فى دورهم خمسة عشر يوما متتالية، لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، فاضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما يصنعه الرسول ﷺ فى رقابهم ونسائهم وذراريهم ، وأموالهم - (فجاء عبد الله بن أبى بن سلول حين مكن الله المسلمين من رقابهم، فقال : يا محمد أحسن فى موالى ، فأبطأ عليه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٦ .

النبي ﷺ فقال : يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه النبي ﷺ ، فأدخل يده في جيب رسول الله ﷺ فغضب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى رأوا لوجهه ظللا[١] وقال له : أرسلني ويحك، فقال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، أربعمائة حاسر [٢]، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأسود والأحمر، تحصدهم في غداة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال ﷺ : « هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروننا بها [٣] ».

« وقد حاول ابن أبي مرة أخرى أن يسعى في بقائهم ومقامهم معه في المدينة ، ولكن الرسول ﷺ أبى ذلك ،وتخاصم بعض المسلمين مع ابن أبي حتى شجه ، ورأى بنو قينقاع ذلك، فخافوا وقالوا : والله لا نقيم في بلد تشج فيه يا ابن أبي، ولا نستطيع عنك دفاعا » [٤] .

وكان من بين المسلمين الذين تخاصموا مع ابن أبي، لدفاعه عن يهود بني قينقاع ـ عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال له يا رسول الله : إني : أتبرأ من حلف يهود بني قينقاع ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف جميع الكفار وولايتهم ، فأنزل الله تعالى في شأن عبادة وابن أبي، قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [٥] .

ثم أمر الرسول ﷺ بعد ذلك بإجلائهم ، فخرجوا من المدينة تاركين وراءهم السلاح ،وأدوات الذهب، الذي كانوا يصوغونه « وكان الذي تولى إخراجهم من المدينة عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ فمضى بهم حتى بلغ بهم ذباب [٦] وهو يقول : الشرف الأبعد ، الأقصى فالأقصى »[٧] وساروا حتى وصلوا وادي القُرى ، وهناك أقاموا زمنا ،ثم انتقلوا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات [٨] على حدود الشام، وبها أقاموا ، ولم يبقوا فيها طويلا حتى هلك أكثرهم .

---

(١) الظلل جمع ظلة ، وهي في الأصل السحابة ، فاستعيرت هنا ؛ لتغير وجه الرسول ﷺ .

(٢) الحاسر الذي لا درع له، والدارع الذي يلبس الدرع.

(٣) تاريخ الطبري طبعة دار المعارف جـ٢ ص ٤٨٠ .

(٤) حياة محمد لمحمد حسنين هيكل ص ٢٤٧.

(٥) شرح المواهب . وقد فسرنا هذه الآيات في فصل (مسالك اليهود) جـ١ ص ٤٥٧ .

(٦) ذباب جبل بالقرب من المدينة. (٧) تاريخ الطبري جـ٢ ص ٤٨١ .

(٨) أذرعات ـ بفتح الهمزة وسكون الذال وكسر الراء ـ بلدة بالشام.

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام ، وكان عددهم يبلغ السبعمائة تقريبا، واستخلف الرسول ﷺ يوم شرع فى غزوهم أبالبابة الأنصارى، ليكون واليا على المدينة، وكان يحمل لواءه وقت غزوهم حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - وأخذ المسلمون من حصنهم سلاحا وآلات كثيرة ، وكان الذى تولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة، فأخذ النبى ﷺ خمسها، وقسم أربعة أخماسها على أصحابه، فكانت أموالهم أول ما خمس بعد بدر.

٥ - وفى ختام حديثنا عن غزوة بنى قينقاع، يجدر بنا أن نشير إلى الخطة الحكيمة، التى استعملها الرسول ﷺ فى حربه معهم ، وهى محاصرتهم فى دورهم ووجه العظمة فى تلك الخطة الحكيمة أنها كانت أنجح وسيلة للقضاء عليهم . وذلك لسببين:

أولهما : انعدام الاكتفاء الذاتى ، فلم يكن لبنى قينقاع نخيل ولا زرع، يعيشون من خيراتها، ولكنهم كانوا صاغة يعيشون مما يصوغون من حُلى وغيرها ، وبذلك كانوا يعتمدون على غيرهم فى الطعام ، وهكذا كان حصارهم، وقطع الصلة بينهم وبين غيرهم ، أنجح وسيلة لقهرهم، لأنهم كيف يعيشون ما دامت ضرورات الحياة غير متوافرة لديهم ؟

وثانيهما : ضعف الروح المعنوية عندهم ، بسبب بعدهم عن أبناء جلدتهم ، ووجودهم داخل المدينة بمفردهم ، وانقطاع أسباب اتصالهم بالخارج ، ونضوب المال من بين أيديهم، وهم أحرص الناس عليه ، كل هذه الأمور جعلت روحهم المعنوية ضعيفة ،وسرعتهم إلى التسليم قوية (١) .

٦ - هذا وقد ترتب على إجلائهم ، أن خفت صوت المنافقين فى المدينة، ودخل الرعب فى قلوب بقية اليهود ، وعادت للمسلمين هيبتهم وكرامتهم ، وجنى بنو قينقاع ثمار الشر، الذى زرعوه ، وباءوا به، وكان خيرا لهم أن يحافظوا على عهودهم لو كانوا يعقلون.

---

(١) من مقال بعنوان (فن الحصار فى غزوة بنى قينقاع) مجلة الأزهر المجلد ٢٥ ص ٥٦٣ ، للأستاذ محمد جمال الدين محفوظ.

(مقتل كعب [1] بن الأشرف)

١ ـ موقف كعب بن الأشرف من الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة.

٢ ـ موقفه من انتصار المسلمين فى بدر.

٣ ـ قصة مقتل كعب بن الأشرف، كما رواها البخارى.

٤ ـ الرد على من زعم أن قتل ابن الأشرف، كان خيانة وغدرا.

١ ـ كان كعب بن الأشرف من اليهود، الذين أعلنوا بغضهم وعداءهم للنبى ﷺ، منذ وصوله إلى المدينة مهاجراً، يدل على ذلك ما جاء فى شرح المواهب «من أن ابن الأشرف كان طويلا جسيما، ذا بطن وهامة، شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطى أحبار يهود ويصلهم، فلما قدم النبى ﷺ المدينة، جاءه أحبار اليهود من بنى قينقاع، وبنى قريظة، لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل؟ قالوا، هو الذى كنا ننتظر، ما أنكرنا من نعوته شيئًا، فقال لهم: قد حرمتم كثيراً من الخير، ارجعوا إلى أهليكم، فإن الحقوق فى مالى كثيرة، فرجعوا عنه خائبين، ثم رجعوا إليه، فقالوا له: إنا تعجلنا فيما أخبرناك به أولا، ولما استوثقنا علمنا أننا أخطأنا، وليس هو النبى المنتظر، فرضى عنهم ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئًا من ماله» [2].

٢ ـ وعندما انتصر المسلمون فى بدر على قريش. فزع يهود المدينة، وكبتوا لهذا النصر، فقد كانوا يؤملون أن تدور الدائرة على المسلمين، فى هذه المعركة؛ ليتخلصوا منهم، فتعود إليهم زعامتهم الدينية؛ ومكاسبهم التجارية والاقتصادية. وكان على رأس اليهود الذين أحزنهم هذا الانتصار، وأذهلهم كعب بن الأشرف.

قال الشيخ الزرقانى ـ رحمه الله ـ: «كان كعب بن الأشرف قد عاهد النبى ﷺ قبلُ ألا يعين عليه أحداً، فنقض العهد، وسب النبى ﷺ وسب أصحابه، وكان من عداوته: أنه لما قدم البشيران ـ زيد بن حارثه، وعبد الله بن رواحة ـ بقتل من قتل

---

(١) كعب بن الأشرف كان شاعراً وخطيبًا، وكان أبوه ـ فى بعض الروايات ـ من بنى النضير، وقيل: إن اباه من بنى نبهان ـ بطن من قبيلة طيء ـ أما أمه فكانت يهودية بإجماع الرواة، ومنها أخذ يهوديته وتعصبه لليهود، فكان من أحقد الناس على رسول الله ﷺ والمسلمين.

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ ٢ ص ٨.

من قريش ببدر ، وأسر من أسر منهم ، قال كعب : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان، فهؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها،فلما أيقن الخبر ورآى الأسرى مقرنين كبت وذل، وخرج إلى قريش يبكى قتلاهم،ويحرضهم على قتال النبى ﷺ ... ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم . . »[1] .

وقد نصح الناصحون كعب بن الأشراف ، أن يكف أذاه عن المسلمين، ولكنه تمادى فى طغيانه وغدره ، وأبى أن ينزع عن كيده وفجوره ، فأهدر النبى ﷺ دمه .

وقد ساق الإمام البخارى، قصة مقتل كعب بن الأشرف، فقال : « حدثنا على بن المدينى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، قال عمرو بن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول ، قال رسول ﷺ من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بنٍ مسلمة ، فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال نعم قال : فأذن لى أن أقول شيئاً ، قال قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا ، وإنى قد أتيتك أستسلفك، قال وأيضا والله لتملنه ، قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شانه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا، أو وسقين .. فقال كعب: نعم ، ارهنونى ، قالوا: أى شيء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم؟ ،قالوا : كيف نرهنك نساءنا ،وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنونى أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة ـ أى السلاح ـ فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟،فقال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخى أبو نائلة ، وقال غير عمرو:فقالت له:أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم،قال:إنما هو أخى محمد بن مسلمة،ورضيعى أبو نائلة،إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب ،قال:ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين، قيل لسفيان سماهم عمرو، قال الحارث بن أوس، وعباد بن بشر، قال عمرو فقال محمد بن مسلمة: إذا ما جاء فإنى قائل ـ أى جاذب بشعره ـ فاشمه فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ٢ ص ٨ .

فدونكم فاضربوه ، فنزل إليهم متوشحا، وهو ينفخ منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحا، أى: أطيب .. وقال غير عمرو : قال عندى أعطر نساء العرب، وأكمل العرب ، فقال: أى محمد بن مسلمة : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال نعم فشمه ثم، أشم أصحابه، ثم قال : أتأذن لى ؟، قال نعم . فلما استمكن منه ، قال: دونكم فاقتلوه ، فقتلوه ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه » [1] .

وقد ساق ابن إسحاق، وابن كثير قصة مقتل كعب بن الأشرف بصورة أوسع فقالا ما ملخصه : « كان من حديث كعب بن الأشرف، أنه لما أصيب أصحاب بدر وتيقن عدو الله ابن الأشرف الخبر . خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وعنده عاتكه بنت أبى العيص ، فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب من قريش، الذين أصيبوا فى بدر ، فقال قصيدة منها قوله :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب، بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فقال رسول الله ﷺ :« من لابن الأشرف؟» فقال محمد بن مسلمة - أخو بنى عبد الأشهل - أنا لك به يا رسول الله،أنا أقتله،قال :« فافعل إن قدرت على ذلك »، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ، فقال له : لم تركت الطعام والشراب، فقال يا رسول الله، قولا لا أدرى هل أفين لك به أم لا؟ فقال:إنما عليك الجهد ، فقال يا رسول الله إنه لابد لنا من أن نقول :قال: « قولوا مابدا لكم فأنتم فى حل من ذلك » ، فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة - وهو أبو نائلة - وكان أخا لكعب من الرضاعة - وعباد بن بشر، والحارث بن أوس،وأبو عبس بن جبر،ثم قدموا إلى عدو الله كعب قبل أن يأتوه (سلكان بن سلامة)،فجاءه ، فتحدث معه ساعة،وتناشدا شعرا،ثم قال له أبو نائله :ويحك يابن الأشرف!! إنى جئتك لحاجة أريد

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى : (باب مقتل كعب بن الأشرف) جـ٧ ص ١٣١ طبعة منير الدمشقى . وأخرجه مسلم فى « كتاب الجهاد » باب « مقتل كعب بن الأشرف » جـ٣ ص ١٤٥٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

ذكرها لك فاكتم عنى ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة .. فقال كعب بن الأشرف : أما والله لقد أخبرتك ياابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول، فقال له سلكان : إنى أردت أن تبيعنا طعاما، ونرهنك ونوثق لك .. فقال : أترهنونى أبناءكم ؟، قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معى أصحاب لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم ونرهنك من الحلقة ـ أى من السلاح ـ ما فيه وفاء .. فقبل كعب وقال: إن فى الحلقة لوفاء ، فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

قال ابن اسحاق : فحدثنى ثور بن زيد ،عن عكرمة، عن ابن عباس قال : مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم، فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع ﷺ إلى بيته.

وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب فهتف به أبو نائلة، فوثب فى ملحفة فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت : إنك أمرؤ محارب ،وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة، فقال لها :لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب .. وبعد أن تماشى معهم ساعة أدخل أبو نائلة يده فى شعره،ثم قال: ما رأيت كالليلة، ثم مشى ساعة وعاد لمثلها، فلما استمكن منه قال: اضربوا عدو الله فضربوه، فاختلفت سيوفهم فلم تغن شيئا .

قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولاً ـ أى سكينا ـ فى سيفى حين رأيت أسيافنا لا تغنى شيئا فأخذته ، فوضعته فى ثنته، أى: ما بين سرته وعانته ـ ثم تحاملت عليه، فوقع عدو الله ، وصاح صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار .. ثم أخبرنا رسول الله ﷺ بقتله . وأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بالمدينة يهودى إلا ويخاف على نفسه (١) ملخصا.

هذه هى قصة مقتل كعب بن الأشرف كما وردت فى صحيح البخارى ، وفى كتب السيرة المعتمدة ، وقد زعم بعض المستشرقين ومن فى قلوبهم مرض أن مقتل كعب بن الأشرف كان غدرا وخيانة له ، ونحن ندفع هذه التهمة بما يأتى:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٦ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣١.

أولا : كعب بن الأشرف كان قد عاهد النبى ﷺ على ألا يعين عليه أحدا ، ولكنه نقض عهده ، فقد رحل إلى قريش بعد هزيمتهم فى بدر ورثى قتلاهم وحرضهم على قتال النبى ﷺ ، وفضل دين الجاهلية على دين الإسلام، وجاهر بعداوته للمسلمين .

وقد جاءت أحاديث متعددة تفيد : أن رسول الله ﷺ ما أذن فى قتل كعب بن الأشرف، إلا بعد أن نقض العهد، وأمعن فى إيذاء المسلمين ، ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن أبى أويس، عن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن مسلمة، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله أن كعب بن الأشرف عاهد رسول الله ﷺ ألا يعين عليه، ولا يقاتله ثم نقض عهده، ولحق بمكة ، ثم قدم المدينة معلنا لمعاداة النبى ﷺ وكان أول غدره هجاءه للنبى ﷺ، فندب رسوله الله ﷺ إلى قتله (١) .

وقد جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ بعد قتل كعب بن الأشرف، فقالوا له يامحمد : قد طرق ـ أى قتل ـ صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا ، قتل غيلة بلا جرم ،ولا حدث علمناه ، فقال رسول الله ﷺ :« إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه آذانا ، وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف (٢) .

ثانيًا : كعب بن الأشرف بإيذائه للنبى ﷺ وهجائه له ، أصبح مهدر الدم ، ولا يعصم دمه بأمان، ولا عهد .

وقد عقد الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فصلا ضافيا لتحقيق هذه المسألة، فقال ما ملخصه :

الحديث الثالث (٣) ، ما احتج به الشافعى على أن الذمى إذا سب الرسول ﷺ قتل، وبرئت منه الذمة . وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودى .

قال الخطابى : قال الشافعى : يقتل الذمى إذا سب النبى ﷺ، وتبرأ منه الذمة، واحتج فى ذلك بخبر ابن الأشرف ، وقال الشافعى فى الأم : لم يكن بحضرة النبى

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ص ٧١ .

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ص ٧١ .

(٣) ذكر ابن تيمية قبل ذلك حديثين استدل بهما على أن من سب الرسول ﷺ يقتل، وهذا هو الحديث الثالث.

ﷺ ولا قربه مشرك من أهل الكتاب، إلا يهود المدينة، وكانوا حلفاء الأنصار ، ولم تكن الأنصار أجمعت أول ما قدم رسول الله ﷺ إسلاما ، فوادعت يهود رسول الله ﷺ فلما كانت وقعة بدر أظهر بعض اليهود عداوة النبى ﷺ وحرضوا على قتاله ، فقتل رسول الله ﷺ من فعل ذلك منهم.

قال ابن تيمية : ومعلوم أنه إنما أراد بهذا الكلام كعب بن الأشرف ، وقصته مشهورة مستفيضة.

ثم قال : والاستدلال بقتل كعب بن الأشرف لسبه الرسول ﷺ من وجهين :

الأول : أنه كان معاهداً مهادنا ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم بالمغازى والسير ، وهو عندهم من العلم العام الذى يستغنى فيه عن نقل الخاصة ،وكعب بن الأشرف بسبه الرسول ﷺ أصبح ناقضا للعهد : والدليل على أنه أصبح ناقضا للعهد بسبه النبى ﷺ ما جاء فى الحديث الشريف :« من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ؟» .. لأن هذا القول يدل على أن أذى الله ورسوله، علة لندب المسلمين إلى قتل من يفعل ذلك من المعاهدين.

الثانى : إن النفر الخمسة الذين قتلوه من المسلمين : محمد بن مسلمة ، وأبا نائلة ، وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبا عبس بن جبر ، قد أذن لهم النبى ﷺ أن يغتالوه، ويخدعوه بكلام يظهرون به أنهم قد آمنوه ووافقوه، ثم يقتلوه ، .. وهم عندما قتلوه إنما فعلوا ذلك من أجل هجائه للرسول ﷺ ومن حل قتله بهذا الوجه لم يعصم دمه بأمان ولا عهد ، كما لو آمن المسلم من وجب قتله لأجل قطع الطريق . أو آمن من وجب قتله لأجل الزنا ،أو لأجل ترك أركان الإسلام، ونحو ذلك ، ولا يجوز له أن يعقد له عهد، سواء كان عقد أمان، أو عقد هدنة، أو عقد ذمة، لأن قتله حد من الحدود ، وليس قتله لمجرد كونه كافرا حربيا.

ثم قال ابن تيمية : وقد عرضت لبعض السفهاء شبهة فى قتل كعب بن الأشرف بأن دم مثل هذا يعصم بذمة متقدمة، أو بظاهرة أمان.

فقد قال الواقدى : « حدثنى إبراهيم بن جعفر، عن أبيه، قال : قال مروان بن الحكم ،وهو على المدينة ،وعنده ابن يامين النضرى : كيف كان قتل كعب بن الأشرف؟ فقال ابن يامين :كان غدرا ، ومحمد بن مسلمة جالس شيخ كبير ، فقال: يا مروان أيغدر رسول الله ﷺ عندك ؟، والله ما قتلناه إلا بأمره ،والله لا

يؤوينى وإياك سقف بيت إلا المسجد ، وأما أنت ياابن يامين فلله علىّ إن أفلت، وقدرت عليك وفى يدى سيف إلا ضربتك به على رأسك ، فكان ابن يامين لا ينزل من بنى قريظة حتى يبعث له رسولا ينظر محمد بن مسلمة، فإن كان فى بعض ضياعه نزل، فقضى حاجته ثم رجع ، وإلا لم ينزل ، فبينا محمد فى جنازة وابن يامين فى البقيع فرآى محمدا يغشى عليه جرائد يظنه لا يراه فعاجله ، فقام إليه الناس فقالوا : يا أبا عبد الرحمن ما تصنع ؟ نحن نكفيك، فقام إليه، فلم يزل يضربه به جريدة حتى كسر الجريد على وجهه ورأسه . ثم قال : والله لو قدرت على السيف لضربتك به » (١) .

ثالثاً : كعب بن الأشرف بتماديه فى طغيانه ، وإيذائه للمسلمين، وتأليبه أعداءهم من قريش، على حربهم بعد هزيمتهم فى بدر، صار عدوا للمسلمين ومهددا، لأمن المدينة وسلامتها ، فأصبح من حق المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يبتدروه بالهجوم والعقاب، بعد أن تفاقم شره، ونقض عهده، وأعرض عن النصيحة ولو أن المسلمين تركوه يسرح ويمرح ويتطاول ويفسد فى الأرض . لتعرضت هيبتهم للضياع ، ودينهم للاستهزاء والسخرية ، ودولتهم للاضطراب، وإثارة الفتنة، ولطمع فيهم من لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة .

ولهذه الأسباب نرى أن كعب بن الأشرف هو الذى جنى على نفسه، بإيذائه للنبى ﷺ والمسلمين ، وأنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه لما أصابه شر ، ونرى أن قتله كان عقابا عادلا له، بعد أن نقض عهده، وأعرض عن النصيحة ، وجاهر بعداوته للمسلمين، وسب النبى ﷺ .

وكان مقتل كعب بن الأشرف فى رمضان من السنة الثالثة بعد الهجرة ، وقيل كان فى شهر ربيع الأول من نفس السنة.

هذا ، وقد أهدر النبى ﷺ بعد غزوة بدر دم كل من كان على شاكلة كعب بن الأشرف، فى عدائه للمسلمين ، ومن الذين أهدرت دماؤهم (أبو عفك اليهودى) لأنه كان يرسل الأشعار فى هجاء النبى ﷺ والمسلمين ، ولأنه كان يحرض الناس على حرب الإسلام وأتباعه ، وقد تولى قتله (سالم بن عمير العمرى) فى شهر شوال على رأس عشرين شهرا من هجرة النبى ﷺ إلى المدينة.

---

(١) «من كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ للإمام ابن تيمية ص ٩٠ .

ووثب كذلك محيصة بن مسعود على تاجر يهودى، يقال له ابن سنينة ، كان يؤذى المسلمين فقتله ، فقال حويصة بن مسعود ـ وكان لم يسلم بعد ـ لأخيه محيصة ـ وكان قد أسلم ـ أى عدو الله أقتلته ؟ أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله ؟ فقال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك !! فقال حويصة : آلله لو أمرك محمد ﷺ بقتلي لقتلتني ؟ قال نعم ، قال حويصة : والله إن دينا بلغ بك هذا لعجب ثم أسلم [1] .

وهكذا تعقب المسلمون بالقتل والإرهاب بعد معركة بدر ، كل غادر بعهده ، مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ودينها ، مظهر العطف والأسف على ما أصابها ، وذلك ليتفرغوا للقاء أعدائهم ،وليطهروا المدينة من (الطابور الخامس) الذى يعرف مواطن الضعف والقوة فيهم ، فيبلغها إلى أعدائهم ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك لا استطاع هؤلاء المرجفون فى المدينة ، والمؤذون للمسلمين إثارة الاضطراب والقلاقل ،فى حالتى السلم والحرب ، ولكن بالقضاء عليهم ، عادت للمسلمين هيبتهم وطمأنينتهم،وأصبحوا هم أصحاب الكلمة العليا فى مدينتهم.

(غزوة بنى النضير [2])

١ ـ السياسة الحكيمة التى اتبعها الرسول ﷺ بعد غزوة أحد .

٢ ـ أسباب غزوة بنى النضير .

٣ ـ إنذارهم بالجلاء ونزولهم على حكم رسول الله ﷺ فى النهاية .

٤ ـ تفسير الآيات الكريمة التى نزلت بشأنهم .

٥ ـ الآثار التى ترتبت على إجلاء بنى النضير.

١ ـ كانت غزوة بنى النضير، فى شهر ربيع الأول، من السنة الرابعة بعد الهجرة، أى : بعد غزوة أحد، بحوالى خمسة شهور ، ولقد ترتب على هزيمة المسلمين فى غزوة أحد أن تنكر لهم كثيرون ممن كانوا يهادنونهم أويداهنونهم، فأعراب البادية أعدوا أنفسهم للإغارة على المدينة، وانتهاب خيرها ، والقضاء على مسلميها ، واليهود جاهروا بسخريتهم ، وأظهروا سرورهم لانتصار المشركين.

---

(١) (السيرة النبوية) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣ ص ١٦ تحقيق مصطفى عبد الواحد . طبعة الحلبى .

(٢) النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا يسكنون العالية بوادى بطحان على بعد ميلين او ثلاثة من المدينة ، وكانوا يملكون نخيلا بجوارها .

وشعر النبى ﷺ بدقة الموقف؛ لأن قيادة الأمم أصعب ما تكون بعد الهزائم الكبيرة، والانكسارات الخطيرة.

وفى هذه الظروف القاسية الحرجة سلك النبى ﷺ فى سياسته طريقتين حكيمتين ، مكنتاه من استعادة مكانة المسلمين، وسطوتهم ،وهيبتهم فى النفوس، وهاتان الطريقتان هما :

أولا : تكليف بعض الصحابة بالتجول فى أنحاء الجزيرة ، ليقضوا على الشائعات التى تحاك ضدهم ، وليقفوا على أخبار القبائل المعادية لهم وتحركاتها ، فيبلغوا الرسول ﷺ بها ، وهى فى مرحلة التنبيه والإعداد . ولقد نجحت هذه الطريقة على أحسن وجه واستطاع المسلمون أن يعرفوا أخبار أعدائهم قبل أن يفاجأوا بعدوانهم .

ثانيهما : سلك النبى ﷺ طريقة الدفاع الهجومى ، لأن خير وسيلة للدفاع الهجوم - كما يقول خبراء الحرب - بمعنى أنه ﷺ كان يهاجم أعداءه فى عقر دارهم قبل أن يهاجموه.

ففى أعقاب غزوة أحد أرسل النبى ﷺ سراياه للقضاء على بنى أسد ، وهذيل، لأنهما حاولا غزو المدينة ، وقد نجحت هذه السرايا فى مهمتها ، واستطاعت أن ترد غارات الأعداء وهى بعد فى مرحلة الإعداد ، بل إن النبى ﷺ كان يخرج بنفسه لقتال الغادرين فى أماكنهم،كما حصل فى غزوة ذات الرقاع.

وهكذا طبق النبى ﷺ (مبدأ الوقاية) (١) كأحسن ما يكون التطبيق ، ووضع له المبادئ والأسس ،التى هيأت للمسلمين النصر ، وأعادت لهم مكانتهم وهيبتهم بعد هزيمة أحد .

٢ - **أسباب غزوة بنى النضير** : من بين الأسباب التى حملت النبى ﷺ على غزوة بنى النضير وإجلائهم ،ما يأتى :

أولا :نقض بنو النضير عهودهم ،التى تحتم عليهم ألا يؤووا عدوا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض،بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف فى المدينة،وقد حصل ذلك فى غزوة السويق التى تتلخص أحداثها :فى أن أبا سفيان بن حرب حاول بعد

---

(١) مبدأ الوقاية من مبادئ الحرب وتعرفه القوانين الحربية بأنه التدابير التى يتخذها القائد لسلامة قوته من المفاجأة ، ولإخفاء مواقعه عن العدو.

هزيمته في بدر بشهرين أن ينتقم من المسلمين ، فسار إلى المدينة في مائتي راكب حتى وصل إلى ديار بني النضير تحت جنح الظلام ، فطرق باب سيدهم (سلام بن مشكم) فاستقبله (سلام) استقبالا حسنا، وسقاه خمرا ، وعرفه أخبار المسلمين، وبعد أن تدارس معه أصلح الطرق، لإيذائهم والإفلات من عقوباتهم ، هجم برجاله على ناحية يقال لها، (العريض)،فأحرقوا بيتين ونخيلا بها وقتلوا رجلا من الأنصار، وحليفا له في حرث لهما،ثم انكفأوا هاربين إلى مكة،وشعر المسلمون بما حدث،فانطلقوا في أثرهم،وأحس أبو سفيان، ومن معه بالطلب، فأسرعوا في الهرب،وألقوا الزاد الذي معهم - وكان أغلبه من السويق - لكي لا يثقلهم في فرارهم،وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن أمعن أبو سفيان ومن معه في الفرار.

ثانيا : رفض يهود بني النضير في غزوة أحد أن يعينوا المسلمين بسلاحهم ،أو بأموالهم ، وقبل المعركة أخذوا يصرفون الناس عن الخروج فقالوا لابن أبي : « إنك قد نصحت محمدا ﷺ بعدم الخروج ، وأشرت عليه برأي من مضى من آبائك ، فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبى أن يقبله، وأطاع الغلمان الذين معه » وصادف حديثهم هوى في نفسه، فانخذل عن الاشتراك، في غزوة أحد .

ثالثا : رأى النبي ﷺ بحسن سياسته أن مبدأ الوقاية الذي استخدمه ضد القبائل المشركة الغادرة بعد أحد ، يجب أن يطبق - أيضا - على بني النضير بعد أن آذوا المسلمين بأقوالهم وأعمالهم ، وإلا فستتعرض المدينة للفتن الداخلية ، ويتعرض سلطان المسلمين فيها؛ للضعف والاضطراب .

رابعا : شعر النبي ﷺ أن بني النضير يتربصون به الدوائر ، بعد نكبة الرجيع وبئر معونه [1] وأن هذه النكبة ذكرتهم - بانتصار قريش في أحد، وأنستهم فوز المسلمين في بدر وغيرها ، فأراد الرسول ﷺ أن يستدرجهم؛ لتتضح له نياتهم ، فذهب إليهم في عدد من الصحابة لكي يطلب معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما (عمرو بن أمية) خطأ غداة مرجعه من بئر معونة ، لأن القتيلين من بني عامر كانا حلفاء بني النضير ، وتظاهر اليهود بتلبية الطلب، وجلس النبي ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، ولكن اليهود خلا بعضهم إلى

---

(١) حادثة الرجيع وبئر معونة حصلت بعد غزوة أحد وفيها قتل أكثر من خمسين صحابيا غدرا وهم في طريقهم لتعليم الغادرين فرائض الإسلام وشعائره .

بعض، وبرزت فيهم روح الغدر والخيانة، فقالوا : إنكم لن تجدوا محمدا ﷺ على مثل هذه الحال ، منفردا ليس معه من أصحابه إلا نحو العشرة ، فمن منكم يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه ؟ وتطوع عمرو بن جحاش اليهودى للقيام بهذه المهمة ، وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم الله ـ عز وجل ـ رسوله ﷺ مكر اليهود به ، فنهض من مكانه مظهرا أنه يريد قضاء حاجة، وقفل عائدا إلى المدينة مسرعا.

وشعر الصحابة بمغيب الرسول ﷺ فقاموا فى طلبه وصادفوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عن النبى ﷺ فأخبرهم أنه رآه يدخلها، وأنه قصد توا إلى المسجد؛ فلما لحقوا به قالوا يا رسول الله : « قمت ولم نشعر » فأخبرهم بما اعتزمه اليهود من الغدر به ، ومحاولتهم قتله .

ونزل القرآن الكريم بعد ذلك ، يذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم ، حيث نجى نبيهم ﷺ مما بيته له يهود بني النضير، من غدر ومكر فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وهكذا ظهر غدر يهود بنى النضير ، وتعدد أذاهم ، وصار من العسير جعل المدينة قاعدة أمينة للدعوة الإسلامية، واليهود بجوارها ، ورأى عليه الصلاة والسلام أن يطبق معهم مبدأ الوقاية ـ الذى طبقه على غيرهم بعد أحد ـ قبل أن يستفحل شرهم ، فماذا فعل معهم ؟

٣ ـ إنذارهم بالجلاء ونزولهم على حكم الرسول ﷺ فى النهاية:

أرسل النبى ﷺ محمد بن مسلمة إليهم، وقال له : « اذهب إلى بنى النضير فقل لهم : إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى، فلا تساكنوننى بها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك منكم ضربت عنقه.

وأسقط فى أيدى بنى النضير ، ولم يجدوا جوابا يردون به ، سوى أن قالوا لمحمد

---

(١) فسرنا هذه الآية فى فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) مبحث محاولتهم قتل الرسول ﷺ.

ابن مسلمة: يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا الخبر رجل مثلك ، فأجابهم بقوله (لقد تغيرت القلوب) فقالوا: نتحمل، ومكثوا أياما يعدون العدة للرحيل.

وفى تلك الفترة أرسل اليهم (عبد الله بن أبى بن سلول) من يقول لهم : اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ولا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم، قبل أن يصل إليكم . فعادت لليهود بعض ثقتهم ، وتشجع كبيرهم (حيى بن أخطب) وأرسل إلى النبى ﷺ من يقول له : « إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك » فكبر الرسول ﷺ وكبر معه المسلمون، وقال « حاربت يهود » ، وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

ونهض النبى ﷺ والمسلمون لمناجزتهم ، وتحدى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى ، أو من غيرهم ، فحاصروهم عشرين ليلة ، وعمد النبى ﷺ إلى خطة بارعة تعد ضربة قاصمة لليهود ، وهى حرق نخيلهم ، فقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم لتزول ؛حماستهم للقتال ، وجزع اليهود وتصايحوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها ؟

وأدرك بنو النضير أنه لا مفر من جلائهم ، ودب اليأس فى قلوبهم، وخاصة بعد أن أخلف ابن أبي وعده بنصرهم ، وعجز إخوانهم عن أن يسوقوا لهم خيرا، أو يدفعوا عنهم شرا، فأرسلوا إلى النبى ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم ، فقال لهم: « أخرجوا منها، ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا الحلقة، وهى الدروع والسلاح» فرضوا بذلك ، وطفقوا يجمعون ما يشاءون من مال أو طعام ، ويخربون بيوتهم؛ لكى لا ينتفع بها المسلمون من بعدهم ، وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير ، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر ، وسار آخرون إلى أذرعات بالشام ، وحزن المنافقون؛ لاجلائهم حزنا شديدا ، وأنشدوا الأشعار فى مدحهم.

وقد قسم الرسول ﷺ أموال بنى النضير التى تركوها بين المهاجرين دون

الأنصار، بعد أن استبقى قسما خصصت غلته للكراع والسلاح ، وبذلك أصبح من هاجر من المسلمين إلى المدينة فى غنى عن معونة الأنصار ، وأصبح لهم مثل ثروتهم ، ولم يشترك فى القسمة من الأنصار سوى (أبى دجانه، وسهل بن حنيف) ، فقد ذكروا فقرا فأعطاهما النبى ﷺ كما أعطى المهاجرين .

قال البلاذرى :« كانت أموال بنى النضير مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب » فقال رسول الله ﷺ للأنصار :« ليست لإخواتكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه، وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة» . فقالوا : بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت . فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فقال أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم، إلا كما قال الغنوى :

حزى الله عنَّا جعفرا حين أزلفت	بنا نعلنا فى الوطأتين فزلت
أبوا أن يملونا فلو أن أمنا	تلاقى الذى يلقون منا لملت
فذو المال موفور وكل مقصَّب	إلى حجرات أدفأت وأظلت [1]

ولم يسلم من بنى النضير غير رجلين (يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب) فأحرزا أموالهما ولم تقسم.

هذا ، وفى شأن بنى النضير ، نزلت معظم آيات سورة الحشر ، وقد سمى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ سورة الحشر بسورة بنى النضير ، ففى البخارى، عن سعيد ابن جبير، قال : قلت لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ سورة الحشر ، قال سورة بنى النضير [2] .

٤ ـ تفسير الآيات الكريمة المتعلقة ببنى النضير فى سورة الحشر :

تضمنت الآيات الكريمة المتعلقة ببنى النضير فى سورة الحشر ثلاث مقاصد رئيسية :

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى : تحقيق الدكتور صلاح المجدجـ ١ ص ٢١ طبعة مكتبة النهضة .

(٢) صحيح البخارى « باب حديث بنى النضير جـ ٥ ص ١١٣

أولهـــا : بيان ما حل ببنى النضير من الإخراج والإجلاء بسبب مشاقتهم لله ولرسوله.

ثانيها : بيان حكم ومصارف الفيء، الذى أفاءه الله على رسوله ﷺ فى هذه الغزوة.

وثالثها : بيان ما حصل من مناصحة المنافقين لليهود ، وخذلانهم لهم عندما جد الجد، ووصفهم بالجبن والاختلاف ، رغم تظاهرهم بالاتحاد والائتلاف.

أما المقصد الأول من هذه الآيات، فيتجلى فى قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)**﴾ .

قوله تعالى: ﴿ **لِأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ قال البيضاوى : الحشر: إخراج جمع من مكان إلى آخر، ومعنى لأول الحشر، أى: فى أول حشرهم، من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك ، أو فى أول حشرهم للقتال . أو الجلاء إلى الشام ، وآخر ، حشرهم إجلاء عمر ـ رضى الله عنه ـ إياهم من خيبر إلى الشام [1] .

ثم بين الله ـ عز وجل ـ فضله على المؤمنين ورحمته بهم ، لإجلائه أعداءهم بسهولة لم يكونوا ينتظرونها، فقال : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ** ﴾ أى : ما كنتم تتوقعون ـ أيها المؤمنون ـ خروجهم بهذا اليسر ، وذلك لشدة بأسهم ، ومناعة حصونهم ، وكثرة عددهم ، وما كانوا هم أيضا يتصورون خروجهم من ديارهم ، فقد غرتهم حصونهم وقوتهم ، وأنستهم قوة الله التى لا تغالب ، وجعلتهم يستبعدون أن ينالهم المسلمون بسوء، ماداموا قد تمنعوا بحصونهم ، ولكن ظنونهم خابت .

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٥٦٠ .

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى :جاءهم بأس الله الذى لا يرد ، من حيث لم يخطر ذلك ببالهم ؛ فبعد أن كانوا يدلون بقوتهم، أصبحوا يشعرون بالهلع والجزع، كلما تقدم المسلمون نحوهم.

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى :أنزله إنزالا شديداً فيها ، فامتلأت خوفا وفزعا خصوصا بعد مقتل كبيرهم ـ كعب بن الأشرف ـ وبعد خذلان المنافقين لهم وقد كانوا منوهم الأماني.

ثم صور القرآن الكريم حيرتهم وتخبطهم عندما عجزوا عن الدفاع، فقال تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يفسدون دورهم بأيديهم من الداخل ؛ليسدوا بما نقضوه من الخشب والحجارة أفواه الدروب، حتى لا يدخلها المسلمون عليهم، وحتى لا تبقى صالحة للاستعمال بعد جلائهم ، وليأخذوا معهم ما يرغبون فيه من الخشب والأبواب ، ويفسدها المؤمنون من الخارج ليتسنى لهم الدخول عليهم ، وليزيلوا تحصنهم بها ، ومجال القتال فيها.

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : فاتعظوا يا أصحاب العقول السليمة بما جرى لهؤلاء القوم من أمور عظام ، وبلاء ما كان ليخطر لهم على بال، ولو أنهم وفوا بعهودهم لما نزل بهم الشر، الذى استحقوه ، ولكنهم عموا وصموا ،فأوقدوا نارا كانوا هم حطب لهيبها.

ثم بين القرآن الكريم أن عذابا آخرا كان سيلحقهم في الدنيا، لو لم يخرجوا من ديارهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن الله ـ عز وجل ـ قدر جلاءهم عن المدينة ، وأراد خروجهم عنها بسبب بغيهم ومشاقتهم، لكان لهم عند الله فى الدنيا عذاب آخر من القتل والأسر، ونحو ذلك لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدنيا.

وقوله تعالى :﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ استئناف معناه : أن الله تعالى : سيضم إلى عذابهم فى الدنيا عذاب النار فى الآخرة، وهو أشد من عذاب الدنيا.

ثم بين الله ـ عز وجل ـ السبب الذى استحقوا من أجله هذا المصير الأليم فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : ما نزل بهم من عذاب وما سينزل سببه أنهم حاربوا الله ورسوله ، ومن يفعل ذلك ـ كائنا من كان ـ ، فإن له الخزى والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى العقبى.

ثم ساق القرآن الكريم بشارة للمؤمنين طمأنهم فيها إلى أن إيذاءهم لهؤلاء المشاقين لله ورسوله بقطع نخيلهم، هو عين الصواب فقال تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى : ما قطعتم من النخيل الجيد، الذى يملكه هؤلاء اليهود، أو تركتم منه فكل ذلك بإذن الله ، الذى بلغه إليكم رسوله ﷺ وقد أذن الله لكم فى ذلك؛ ليخزى أولئك اليهود، الذين فسقوا عن أمر ربهم ، ولتطهر البلاد من شرورهم.

أخرج الشيخان :عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال :

« حرق رسول الله ﷺ نخل بنى النضير وقطع ـ أى قطع بعضها ـ وهى البويرة ـ موضع نخيلهم ـ فنزلت ؛ ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ « أن رسول الله ﷺ حين أمر بقطع نخيل بنى النضير وحرقه ، قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وكان فى نفوس المؤمنين من ذلك شىء ، فقالوا: لنسألن رسول الله ﷺ ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ، فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ ... ﴿ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

أى : إنكم بأمر الله قطعتم ، وبرضاه تركتم ، لأن ذلك ليس للعبث والإضرار ، بل لتأييد المؤمنين ، وإرهاب وإذلال الفاسقين ، ولأن قطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته ، وبذلك استقرت قلوب المؤمنين المتحرجة ، وشفيت صدورهم مما حاك فيها ، لأن ما فعلوه كان بأمر الله ورضاه.

أما المقصد الثانى الذى تضمنته هذه الآيات الكريمة وهو بيان حكم الفىء ومصارفه ،فيتجلى فى قوله تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ (٣) اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ

---

(١) أخرجه البخارى ـ واللفظ له ـ فى « باب حديث بنى النضير » جـ٥ ص ١١٢ . وأخرجه مسلم فى كتاب (الجهاد والسير) جـ٣ ص ١٣٦٧ طبعة الحلبى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٣.

(٣) الفىء لغة مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع ، وأفاءه الله إليه أى رده وصيره إليه . وشرعا : ما أخذه المسلمون من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير . أما الغنيمة فهى ما أخذه المسلمون عنوة من أموال الكفار المحاربين . والإيجاف الإسراع فى السير . والركاب ما يركب من الإبل والدولة ـ الضم ـ الشىء الذى يتداوله القوم بينهم يكون لهذا مرة ولذاك أخرى ، والدولة ـ الفتح ـ انتقال حال سارة من قوم إلى قوم ، فالأولى اسم لما يتداول من الأموال والثانية اسم لما ينتقل من الأحوال.

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾.

والمعنى : ما صيره الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أموال بنى النضير، التى بقيت بعد جلائهم ، فحكمها ليس كحكم الغنيمة، التى أعطى الله المحاربين أربعة أخماسها ، واستبقى خمسها فقط لله وللرسول ﷺ ولذوى القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل ،كما حصل فى غنائم بدر ، وإنما حكم هذه الأموال أن تترك لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء ، وذلك لأن المسلمين لم يحصلوها عن طريق القتال والمصاولة ، ولم يسيروا إليها سراعا على خيولهم أو إبلهم ، فقد قذف الله الرعب فى قلوب بنى النضير، فنزلوا صاغرين على حكم الرسول ﷺ بدون قتال يذكر ، وقد ذهب المسلمون لغزوهم راجلين لأن بيوتهم كانت تبعد عن المدينة بمقدار ميلين تقريبا .

أخرج الشيخان ،عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال :

كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله ـ تعالى ـ على رسوله ، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبى ﷺ خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله ـ تعالى ـ(١) .

ثم أشار الله ـ عز وجل ـ إلى السبب الحقيقى الذى بلغهم النصر، فقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى :ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ، فيستسلموا لهم فى النهاية ، لأن الرسل لا يخاصمون، ولا يصالحون، إلا لإعلاء كلمة الله،والله القدير على كل شىء كفيل بنصرهم وغلبتهم على أعدائهم.

---

(١) أخرجه البخارى ـ واللفظ له ـ فى باب « فضل الجهاد والسير » جـ ٤ ص ٤٦ . وأخرجه مسلم فى باب «حكم الفىء » جـ ٢ ص ١٣٧٦ .

وبعـد أن بين الله ـ عـز وجل ـ حكـم مـا أفـاءه على رسـوله ﷺ من أمـوال بني النضير، أتبعه بحكـم ما أفاءه عليـه من قرى الكفار عامة، فقال تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ .

فـهذه الآية الكريمة :جواب سؤال مقدر ناشيء مما فهـم من الكلام السابق، فكأن قائلا قـال . قـد علمنا حكـم مـا أفاءه الله على رسـوله من أمـوال بنى النضـيـر ، فـمـا حكـم ما أفاءه الله عليه من أموال غيرهم ؟

فكانت هـذه الآية هي الجـواب ، ولذا لـم تعطف علىٰ الآية الأولى؛ لأنهـا بيـان لها، وتفصيل لما أجمله الله في الآية السابقة.

والمعنى : ما صيره الله ـ عز وجل ـ إلى رسول الله ـ ﷺ من كفار أهل القرى بدون قـتـال ولا حـرب ، فـيـصرف في وجـوه البر والخـيـر، ولا يقـسـم تقـسـيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ﷺ ولذوى قرباه من مؤمنى بنى هاشم وبنى المطلب، لأن الصدقة لا تحل لهم ، ولليتامى الذين فقدوا السند والعائل ، وللمساكين ذوى الحاجة والبؤس، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يستطيع الوصول إليه لبعد الشقة .

ثـم كشف القرآن الكريم عن العلة في هذا التقسيم الإلهي، فقال تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى : إنما حكمنا بذلك الحكـم ، وقسمنا الفيء هذا التقسيم البديع ، من أجل ألا يكون المال متداولا بين الأغنياء خاصـة يتكاثرون به، دون أن ينال الفقراء منه شيئا ، كمـا كان الحال في الأهلية ، لأن الجاهلين كانوا إذا أصابوا من أعدائهـم شيئا أخـذ الرئيس ربعـه لنفسـه ، ثـم يصطفى من الباقى بعد ذلك ما يشاء ،وفى ذلك يقول شاعرهم (لك المرباع منها والصفايا) أى:من الغنيمة .

وهذه الجملة الكريمة ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ تعتبر قاعدة كبرى من قـواعـد الإسـلام ، لأن كل وضـع اقـتـصـادى لا تحكمـه هذه القـاعـدة فـمـصـيـره إلى الانهيار والاضطراب .

ولقـد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هـذه القاعـدة ، ففرض الزكاة ، وبين مصارفها، وشرع كثيرا من الأحكام التى من شأنها أن توسع على المحتاجين ، وحرم الاحتكار والربا ، وهـما من أهم الوسائل لجعل المال دولة بين الأغنياء دون الفقـراء ، وبذلك وضع الإسلام نظاما اقـتـصـاديا فـريدا مـتـوازن الجـوانـب، مـتـعـادل الحـقـوق والواجبات ، يكفل لمن تبعه السعادة والرخاء ، والراحة والهناء .

ثم أمر الله ـ عز وجل ـ أتباع النبي ﷺ في كل زمان ومكان ، أن يطيعوه فيما يأمر وينهى فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه ولا تخالفوه ، وما حذركم منه فاجتنبوه ، واتقوا الله؛ لأن عقابه شديد لمن عصاه ، أليم على مخالفه، ولم يتبع أمره.

وبعد أن مدح الله ـ عز وجل ـ المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم ابتغاء مرضاة الله ونصر دينه ، وأثنى على الأنصار الذين أحبوا إخوانهم المهاجرين إليهم وفتحوا لهم قلوبهم ، وآثروهم على أنفسهم وذكر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وما يرجونه لأنفسهم من رحمة ومغفرة.

بعد أن ذكر هذه الصورة الوضيئة للمهاجرين والأنصار ، ولمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،عقبها ببيان المقصد الثالث ، وهو وعد المنافقين ليهود بني النضير بأنهم معهم في المنشط والمكره، وخذلانهم لهم عند الشدة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

والمعنى : لقد علمت يا محمد علم اليقين حال أولئك المنافقين الذين شجعوا اليهود على حربك ، وقالوا لهم ،إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا ، فإذا أخرجتم خرجنا معكم ، ولا نسلمكم للمسلمين أبدا ، وأن قوتلتم قاتلنا معكم ونصرناكم ، ولكن الله ـ عز وجل ـ الخبير بحقيقتهم يشهد أنهم لكاذبون فيما يزعمون ، لأن بني النضير إذا أخرجوا من ديارهم فلن يخرج معهم المنافقون ، وإن قاتلهم المسلمون فلن يستطيعوا لهم نصرا ،ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير ليولن جميعا الأدبار منهزمين ، ثم لا ينصر الله بني النضير.

ولقد صدق الله ـ عز وجل ـ فيما أخبر وقرر ، وكذب هؤلاء المنافقون فيما أعلنوه لإخوانهم وقرروه.

ثم قرر القرآن الكريم حقيقة قائمة في نفوس اليهود والمنافقين ، جعلتهم يجبنون ويفزعون من لقاء المؤمنين فقال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء اليهود ومن يدافعون عنهم يخافونكم - أيها المؤمنون - أكثر مما يخافون الله . وذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون شيئا من عظمة الله وقدرته ، ومن كان هذا شأنه كانت خشيته للناس أشد من خشيته لله - عز وجل - :

ثم أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بحقائق أخرى شهدت بصدقها الأيام قديما وحديثا فقال تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

أى :أن هؤلاء اليهود قد ألقى الله فى قلوبهم الرعب،فلا يقاتلونكم مجتمعين متفقين فى موطن من المواطن،لأن الهلع والجزع قد استحوذ على نفوسهم، بل يقاتلونكم من وراء قراهم المحصنة بالخنادق،وجدرانهم وحوائطهم التى يتسترون خلفها.

ولقد أكدت حرب فلسطين بين المؤمنين حقا، وبين اليهود صدق هذه الحقيقة، فما كان اليهود يقاتلون إلا من وراء المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين ، فإذا ما تقابلوا مع المسلمين وجها لوجه ولوا الأدبار فى ذعر وفزع ، حتى لكأن هذه الآية الكريمة نزلت فيهم ابتداء ، وسبحان العليم الخبير بطبائع البشر.

ثم كشف القرآن عن سببين من أسباب ضعفهم وخورهم، فقال تعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ .

أى : أن هؤلاء القوم عداوة بعضهم لبعض متأصلة ، فهم فى تخاذل وانحلال يستحيل معه النصر وقد يظنهم الرائى لأول وهلة متفقين متآلفين ، ولكنهم فى حقيقتهم متفرقو الأهواء والمصالح، والقلوب بسبب أنهم قوم لا يعقلون الحق، ولا يدورون معه ، وإنما يدورون فى ركاب الباطل.

ولقد صدقت الأيام ما أخبر عنه القرآن الكريم بشأن اليهود من أنهم ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ .

يقول (الفريد ليلنتال) : « إن الأعضاء اليهود الجبناء، الذين يعيشون فى صهيون ولندن وأمريكا هؤلاء الزعماء الصهاينة هم الذين تركوا ستة ملايين من أبناء جلدتهم يحرقون ويخنقون ويشنقون دون حماية وبعدم اكتراث ثم يقول : فقد كانوا يعلمون مقدما بالوقت ، والأسلوب والمكان الذى ستجرى فيه عمليات الإبادة ، ويرفضون أن ينذروا الضحايا » [1] .

---

(١) من كتاب (إسرائيل : ذلك الدولار الزائف) ص ٣٥ لمؤلفه الكاتب اليهودى الفريد ليلنتال ، طبعة دار العلم للملايين ببيروت .

وفى هذه الآيات الكريمة تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وتهوين لهم من شأن أعدائهم ، لأن المقاتل متى عرف ضعف خصمه، زالت هيبته من قلبه، وكان ذلك من أسباب نصره وفوزه عليه.

ثم بين القرآن الكريم بأن ما نزل ببنى النضير من بلاء بسبب غدرهم ، قد نزل ما يشبهه بإخوان لهم من قبل جزاء خيانتهم وغرورهم، فقال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أى : مثل هؤلاء اليهود من بنى النضير ، فيما نزل بهم من عقوبات ، كمثل إخوان لهم من قبل وهم بنو قينقاع الذين غزاهم المؤمنون وطهروا المدينة منهم ، بسبب سوء أعمالهم ، والحال أن لهم فى الآخرة عذابا أليما لا يعرف مقداره سوى علام الغيوب.

ولو أن بنى النضير لهم قلوب يفقهون بها، لاعتبروا بمن سبقوهم، ولكنهم قوم لا يعقلون .

ثم ضرب القرآن الكريم مثلا آخر للمنافقين الذين أغروا بنى النضير بالمقاومة ثم خذلوهم عند المحنة فقال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾ .

أى : مثل هؤلاء المنافقين، الذين منوا إخوانهم بنى النضير بالنصر، ثم خذلوهم وانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة ، ومثل هؤلاء فى انخداعهم بوعودهم، مثل هذين الفريقين كمثل الشيطان الذى خدع إنسانا وأغراه على الكفر؛ إغراء الآمر للمأمور، ووعده بالنصر إذا هو أطاعه، فلما استجاب لإغوائه ، واحتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه ، وقال : إنى أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب ، ولكن هذا التبرؤ لم ينفعه ، كما لم ينفع الإنسان وعده له بالإعانة ، ولذا كانت عاقبة الآمر بالكفر، وهو الشيطان ـ والمستجيب له ـ وهو الإنسان ـ الخلود فى النار أبد الآبدين .

وهكذا جزاء كل ظالم لنفسه، معرض عن ذكر ربه ، وبهذا المثل المؤثر فى النفوس والقلوب تنتهى قصة بنى النضير ، بعد أن ضمت فى ثناياها هذه الحشود

الزاخرة من الحقائق والتوجيهات وبعد أن بينت الآيات الكريمة ما استحقوه من عقاب جزاء أعمالهم السيئة ، وحكم ما أصابه المؤمنون منهم دون أن يوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب ، وعاقبة كل من يلتمس العون من الناس ، بدون اعتماد على خالق الناس.

ولقد ساق القرآن الكريم هذه القصة في صورة تختلف في روايتها عما في كتب البشر ، بمقدار ما بين صنع الله ،وصنع البشر من فوارق لا تقاس .

٥ ـ الآثار التى ترتبت على إجلاء بني النضير :

لقد كان إجلاء بني النضير تطبيقًا بارعًا لسياسة الأخذ بمبدأ الوقاية ، التى سار عليها النبى ﷺ ، لا سيما فى أعقاب غزوة أحد ، لأن بقاءهم بجوار المدينة ـ بعد أن ظهر غدرهم ـ كان سيخلق كثيرا من الفتن داخلها ، مما يتعذر معه أن تصبح قاعدة أمينة للدعوة الإسلامية ، فضلا عن أن وجودهم بجوار المدينة معناه وجود عدو آخر سوى قريش ، الأمر الذى سيرغم المسلمين على قتال عدوين إذا لزم الأمر بدلا من عدو واحد ، فكان من المتحتم إجلاؤهم ليتفرغ المسلمون لعدو واحد هو قريش.

كذلك فإن إجلاء بنى النضير كان خطة حكيمة ، وضربة صائبة أصابت مقتلا من اليهود والمنافقين فى وقت واحد ، لأنهما كانا يمثلان جبهة متحدة ضد المسلمين ، فلما تصدعت تلك الجبهة خفت صوت المنافقين ، وفترت عزيمتهم ، وانتكست رايتهم.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين بهذا النصر الذى أحرزوه بدون تضحيات تذكر، توطد سلطانهم فى المدينة ، وعمها الأمن والاطمئنان ، وانتفع المهاجرون بما أفاءه الله عز وجل على رسوله ﷺ من أموال اليهود ، وتمكن المسلمون من التفرغ لقمع الأعراب، الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، فقتلوا العشرات منهم ،في الرجيع ،وبئر معونة بنذالة وكفران، وما كان ذلك ليتم بسهولة لو بقى يهود بنى النضير شوكة فى جنب المدينة .

(غزوة بنى قريظة)

١ ـ نبذة عن غزوة الأحزاب ،وأثر اليهود فيها .

٢ ـ نقض يهود بنى قريظة لعهودهم، وأثر ذلك فى ارتفاع روح الأحزاب المعنوية.

٣ ـ بنو قريظة يصرون على نقض عهودهم، ويسبون النبى ﷺ .

٤ ـ كعب بن أسد يقترح على اليهود أموراً.

٥ ـ تحكيم سعد بن معاذ فيهم، ورضا الرسول ﷺ بحكمه.

٦ ـ تنفيذ حكم سعد فيهم ، وهل فى هذا الحكم ظلم لهم ؟

٧ ـ الآيات التى نزلت فى شأن غزوة الأحزاب .

٨ ـ النتائج التى ترتبت على غزوة بنى قريظة.

١ ـ قلنا إن المسلمين بعد إجلائهم لبنى النضير قوى سلطانهم فى المدينة قاعدتهم ، وشعروا بالأمان والاطمئنان ، ولكنهم فى الوقت نفسه التزموا الحذر وأخذوا يتنطسون أخبار الجزيرة حتى لا يفاجأوا بمن يغير عليهم ، لا سيما وقد كثر أعداؤهم ، فقريش تناصبهم العداء ، وقبائل الأعراب تترقب الفرصة؛ للهجوم عليهم .. وأدرك هؤلاء الأعداء جميعاً أنهم أعجز من أن ينالوا من المسلمين شيئا لو قاتلوهم متفرقين ، لأن المسلمين أصبح لهم من القوة ـ فى سنوات قليلة ـ ما يجعلهم يخيفون أشد قبائل العرب وأعظمها.

وكان اليهود أكثر الناس إدراكا لهذه الحقيقة ، فأخذوا يفكرون فى وسيلة للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وهداهم تفكيرهم فى النهاية إلى أن خير وسيلة توصلهم لبلوغ غايتهم ، هى أن يكتلوا أعداء الإسلام فى جيش واحد ، لينازلوا المسلمين فى معركة حاسمة يكون فيها القضاء الأخير على الإسلام وجنده .

وتنفيذا لهذه الفكرة الخبيثة التى اختمرت فى رءوس أكابر اليهود ، أسرع (حيى بن أخطب النضرى) ومعه نفر من اليهود ، إلى أهل مكة يستنفرونهم لحرب المسلمين ، وقالوا لهم فيما قالوا : إنا سنكون معكم على محمد ـ ﷺ ـ وصحبه ، حتى نستأصلهم ، وتناسوا أنهم أهل كتاب، فسجدوا لأصنام المشركين، وصدّروا لهم فتوى مضمونها : إن قتال محمد ﷺ حق ، واستئصاله واجب ، لأن دينكم خير من دينه ، وتقاليدكم أفضل من تعاليمه.

ونزل قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وسر أهل مكة بما سمعوا من اليهود ، ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب المسلمين، وعاهدوهم على أن يكونوا معهم فى الزحف على المدينة ، ولم يكف حيى بن أخطب، ومن معه من اليهود ما قالوه لقريش ، بل ذهبوا إلى أعراب غطفان فعقدوا معهم حلفا مشابها لحلف قريش ، ووعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر إذا تم لهم النصر ، ثم تركوهم وذهبوا إلى قبيلة بنى مرة، وقبيلة فزازة ، وأشجع، وسليم ،وأسد ، وإلى كل من تأثر عند المسلمين ، فأخذوا يزكون لهم وثنيتهم،ويحرضونهم على قتال المسلمين ،ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب النبى ﷺ ويمنونهم بالنصر الذى لا هزيمة معه ، فاستجاب الجميع لهم ، وخرجوا يبغون القضاء على الإسلام وأهله.

وبذلك نجح اليهود ـ الذين اكتفى المسلمون بإجلائهم عن المدينة ـ فى تأليب أحزاب الكفر؛ لمحاربة الإسلام ، وتوهموا أن دولته ستزول بعد أيام.

٢ ـ وعلم النبى ﷺ بما بيته الأحزاب من كيد ، فاستشار أصحابه ماذا سيفعلون لمقابلة تلك الألوف المؤلفة، من رجال، وخيل، وإبل، وأسحلة، وذخيرة ؟ فأشار سيدنا سلمان الفارسي ـ رضى الله عنه ـ بحفر خندق فى الجهة الشمالية من المدينة، لأنها منطقة مكشوفة يستطيع العدو أن يدخلها دون بقية الجهات؛ لأنها محاطة بالبساتين الكثيفة، وبالموانع الطبيعية الأخرى ، وأعجب النبى ﷺ والمسلمون بالفكرة ، فنفذوها فى أيام قليلة ، ثم حصنوا المدينة تحصينا قويا حكيما ، يصعب معه وصول الأعداء إليها.

وأقبلت جيوش الأحزاب حتى بلغت مشارف المدينة ، فاغتاظوا لحصانتها ، وأبلسوا حين رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحامها ، ومضت أيام تبادل المسلمون فيها مع أعدائهم التراشق بالنبال، ودب اليأس من النصر فى قلوب قادة الأحزاب ، لأن المدينة محصنة بقوة وحكمة ، والخندق يحول بينهم وبين الوصول إليها ، ولأن المؤمنين مصرون على الدفاع عن أنفسهم ، والطقس قارس البرودة ، عاصف بالرياح ، وخيامهم لا تحميهم من أذاه ، وكثرة كاثرة من جيش الأحزاب

تتكون من الأعراب، الذين لم يتعودوا المكث فى مكان واحد لفترة طويلة ، وبنى قريظة مازالوا على عهدهم مع النبى ﷺ

إذن : ففى إمكان المسلمين أن يقاوموا شهورا طويلة ، وبناء عليه فمن الخير للأحزاب أن تعود أدراجها ،ثم ترجع لقتال المسلمين فى الوقت المناسب .

وشعر حيى بن أخطب وبطانته بعزم الأحزاب على العودة إلى ديارهم فجن جنونهم ، لأن عودتهم إلى ديارهم معناها تمكين المسلمين من رقاب اليهود ، فحاول حيى بن أخطب وزمرته، بكل وسيلة أن يغريهم بالبقاء ، وأن يهون لهم الصعاب ، وأن يبشرهم بأنه مقنع بنى قريظه بنقض عهودهم مع المسلمين ، حتى ينقطع عنهم المدد ، ويحاط بهم من كل جانب وتنفتح الطريق أمام الأحزاب لدخول المدينة من الجهة الجنوبية، التى يسكنها بنو قريظة ؛ وفرحت الأحزاب بفكرة حيى ، وارتفعت روحها المعنوية ، وسارع حيى بن أخطب بالذهاب إلى كعب بن أسد؛ ليغريه بنقض عهده مع المسلمين ، وسمع الأخير بما يريد حيى بن أخطب فأغلق دونه حصنه ، فقال له حيى ويحك يا كعب افتح لى ، فقال كعب : ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم ؛ وإنى قد عاهدت محمدا ﷺ فلست بناقض ما بينى وبينه ؛ فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقا .

إلا أن (حييا) لزم بابه، وقال له : والله ما أغلقت الحصن دونى إلا خوفا على جشيشتك (١) أن آكل منها، فغضب كعب بن أسد، وفتح له ، فقال حيى: يا كعب لقد جئتك بعز الدهر ، وببحر طام (٢) ؛ جئتك بقريش على قادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، من دومة الجندل، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقمَى إلى جانب أحد ؛ قد عاهدونى على الا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه ، فقال له كعب: يا حيى لقد جئتنى بذل الدهر ، وبجهام (٣) قد هراق ماؤه فهون يرعد ويبرق ليس فيه شىء ؛ ويحك يا حيى دعنى وما أنا فيه ، لم أر من محمد ﷺ إلا صدقا ووفاء ؛ فلم يزل حيى بكعب يفتله فى

---

(١) الجشيشه طعام يصنع من الجشيش ؛ وهو البر يطحن غليظا .

(٢) البحر الطامى ، المرتفع الكثير الماء ؛ وأراد تشبيه عدد القوم فى كثرته بالبحر؛ لأنه يغطى جوانبه كلها.

(٣) الجهام. السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه وهراق : يريد أنه خال من المطر.

الذروة (١) والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده مع النبى ﷺ ؛ وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين ، ومزق الصحيفة التى كانت بينه وبينهم (٢) .

وهكذا استطاع حيى بن أخطب أن يقنع سائر اليهود بوجهة نظره؛ وأن يزين لهم الخيانة والغدر فى أحرج الساعات وأعصبها ؛ وأن يضمهم إلى صفوف الأحزاب، التى جعلت غايتها استئصال شأفة الإسلام والمسلمين .

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم ، وأراد الرسول ﷺ أن يتثبت مما بلغه ؛ فأرسل (سعد بن معاذ ،وسعد بن عبادة ؛ وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير) ـ رضى الله عنهم ـ وقال لم : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟، فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه(٣)، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » فلما أتى هؤلاء الصحابة إلى بنى قريظة ألفوهم على أخبث ما بلغهم عنهم .

وحاول سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ أن يذكرهم بعهودهم مع النبى ﷺ وأن يحذرهم من سوء المصير إذا استمروا على نقضهم بالعهد ، فاستهزءوا به قائلين : أكلت أبر أبيك، ووقعوا فى النبى ﷺ فقال كبيرهم كعب بن أسد مَنْ رسول الله!! لا عهد بيننا وبينه ولا عقد ، وبلغ الغضب بسعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ منتهاه ، فشاتمهم وشاتموه ، فقال له سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، وعاد الصحابة الأربعة إلى الرسول ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : (عضَلْ والقارة) ، أى: قد غدرت قريظة بالمسلمين، كما غدرت عضل والقارة بخُبيب وأصحابه .

---

(١) الذروة والغارب : أعلى ظهر البعير ، وإذا نفر البعير وشرد من صاحبه واستعصى عليه أخذ يمسح بيده على أعلى ظهره حتى يسكن ويطمئن إليه ويستأنس به ، أراد أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا نفر حتى خدعه.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٣٥ ـ بتصرف ـ.

(٣) أى :كلمونى بكلام يخالف ظاهره معناه، ولا يفهمه أحد سواى.

وفرحت الأحزاب لغدر قريظة، وارتفعت روحها المعنوية ،وأعدت كتائبها لغزو المدينة من كل جانب ، ووجم المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا، فقد أصبح عدوهم من فوقهم ،ومن أسفل منهم ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال قائلهم : «لقد ظهر سحر محمد ﷺ إنه كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ،وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الخلاء وحده ».

وامتلأت قلوب المؤمنين بالغيظ، على بنى قريظة، الذين نقضوا عهودهم، فى ساعة العسرة متعمدين ، ومتحالفين مع الأحزاب، الذين قدموا للإجهاز على الإسلام وأهله ، والذين أعدوا أنفسهم لاستباحة المدينة، وقتل رجالها واسترقاق نسائها ، وبيع ذراريها فى الأسواق.

أما الرسول ﷺ فإنه استقبل غدر بنى قريظة بالثبات والحزم ، واستخدم كل الوسائل ،التى من شأنها أن تقوى روح المؤمنين ، وتصدع جبهات العادين ، فصاح فى أتباعه :« الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره » .

وأرسل فى الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) فى مائتى رجل ، (وزيد بن حارثه) فى ثلاثمائة رجل ، يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير؛ ليرهبوا بنى قريظة، ويحفظوا النساء والصبيان من غدرهم ، وفكر ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى تفريق كلمة الأحزاب ، فتفاوض سرا مع قواد غطفان، على إعطائهم ثلث ثمار المدينة ،على أن يرجعوا بمن معهم إلى ديارهم . . إلا أن هذا الإعطاء لم يتم لعدم رضا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة به.

واستعمل ﷺ أيضا سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة كل ممزق، فلقد حدث فى هذه الساعات الحرجة أن أسلم سرا (نعيم بن مسعود الغطفانى) وأتى النبى ﷺ ليعلن إسلامه ،وقال له : يا رسول الله إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له رسول الله ﷺ :« إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » أى : ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا، فلا يقوموا لنا ،ولا يستمروا على حربنا .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ـ وكان لهم نديما فى الجاهلية، فقال لهم . يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد

بلدكم ، فيه أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ،وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة (١) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدتكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم؛ ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا ، حتى تناجزوه ، فقالوا له: لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج إلى قريش فقال لهم : قد عرفتم ودى لكم .. وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىّ حقا أن أبلغكم إياه ، نصحا لكم ، فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل ، قال اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه، إنا قد ندمنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا لتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فوافقهم على ذلك ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا منكم .

ثم خرج إلى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم مثل ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال، سنة خمس، أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة من يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ؛ قد هلك الخف والحافر (٢) ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، فأرسلوا إليه أن اليوم السبت ؛ وهو يوم لا نعمل فيه شيئا .. ومع ذلك فلن نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا؛ ثقة لنا حتى نناجز محمدا ،فلما علمت قريش وغطفان بما قالته قريظة، قالوا : والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق .. ثم امتنعوا عن أن يعطوهم رهنا منهم ، فلما فعلوا ذلك، قالت قريظة : إن الذى ذكره لكم نعيم بن مسعود حق .. وخذل الله ـ تعالى ـ بينهم » (٣) .

---

(١) النهزة : انتهاز الشيء واختلاسه .

(٢) يريد بالخف :الابل ، وبالحافر: الخيل .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤١ بتصرف وتلخيص.

ونجحت دعاية نعيم ـ رضى الله عنه ـ كل النجاح فى غرس روح التشكك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب ، لأنها جاءت فى الوقت المناسب، وبالأسلوب المناسب .

وأخيرا ـ وبعد أن بلغت القلوب الحناجر ـ وجرى من القتال ما جرى بين المسلمين والأحزاب ، جاء نصر الله ، إذ أرسل على جنود الكفر ريحا وجنودا من عنده ، فتصدعت جبهات الأحزاب، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، وخيل إليهم أن المسلمين قد أحاطوا بهم، ليقطعوا دابرهم ، فصاح أحد قوادهم طليحة بن خويلد (أن محمدا) ﷺ قد بدأكم بشر، فالنجاة النجاة.

وقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فاستخفف القوم ما استطاعوا حمله من متاع ، وانطلقوا ،ومازال الريح تعصف بهم ، وفروا هاربين ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ .

وحان وقت الحساب لبنى قريظة ، وهاك خبره !

٤ ـ أرتدت جيوش الأحزاب مدحورة إلى ديارها ، تحمل معها الفشل والخيبة . وتنفس المسلمون الصعداء، وحمدوا الله ـ عز وجل ـ أن نجاهم من عدوهم.

أما بنو قريظة فقد قبعوا فى حصونهم وحدهم، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت، وعلى رأسهم غدرتهم الشنيعة ، فأصبحوا وأمسوا، وهم أشبه ما يكونون بالمعتدى الأثيم ،الذى قامت كل البراهين على إدانته ، فهو يترقب برهبة وفزع قصاص العدالة منه.

وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يكون القصاص العادل منهم سريعًا وحاسمًا .

فقد أخرج الشيخان ، عن عائشة ،قالت : « لما رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح ،واغتسل أتاه جبريل، فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فاخرج إليهم ، قال النبى ﷺ :« فإلى أين ؟ ،قال: ها هنا، وأشار إلى بنى قريظة، فخرج النبى ﷺ إليهم » (١) .

---

(١) أخرجه البخارى ـ واللفظ له ـ فى (باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب) جـ٥ ص ١٤٢ . وأخرجه مسلم فى (كتاب الجهاد) باب « جواز قتال من نقض العهد » جـ٣ ص ١٣٨٩ .

ثم أمر النبى ﷺ المسلمين أن يسرعوا فى الخروج لقتال بنى قريظة ، وألا يشغلهم أى شاغل عن هذا الخروج .فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال النبى ﷺ يوم الأحزاب :« لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها ،وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف أحدا (١) .

٥ - لقد كان الرسول ﷺ حريصا على أن يخرج المسلمون إلى بنى قريظة بأقصى سرعة ، ليباغتوهم ويبادنوهم قبل أن يستكملوا عدتهم، ويقووا حصونهم، ويستجمعوا أشتات فكرهم ،لذا بادر المسلمون إليهم ، يحمل رايتهم (على بن أبى طالب) - كرم الله وجهه - فلما اقترب من منازلهم وجدهم مصرين على غوايتهم وغرورهم ، فقد تطلعوا إلى المسلمين بغل وحقد ، ثم سبوا النبى ﷺ ونساءه سبا قبيحا ، ولكى يصرف الإمام على - كرم الله وجهه - رسول الله ﷺ بعيدا عن منازل أولئك السفهاء حتى لا يسمع سبهم له ، أعطى الراية لأبى قتادة الأنصارى ، ثم ذهب إلى النبى ﷺ فاعترض طريقه، وهو مقبل إليهم ، فقال له يارسول الله : « لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث ! فقال:« لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ » قال: نعم يا رسول الله ، قال :« لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا ثم دنا من حصونهم فقال لهم : « يا إخوان القردة والخنازير ، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته ؟ » فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا (٢) .

وهكذا اليهود فى كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم فى أمان يسبون ويتطاولون ، وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون ، فإذا ماضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون ، فهم يتلونون لكل حالة بالشكل، الذى يظنونه نافعا لهم ، أما العهود والمواثيق ، والقيم الخلقية ، والمعانى الإنسانية ، فلا حساب لها فى ميزانهم .

على أن هذه السفاهات والمحايلات لم تغنهم شيئا ، فقد ضيق المسلمون عليهم الخناق ، وأحكموا حصارهم لمدة خمس وعشرين ليلة ، فلم يستطع بنو قريظة خلالها أن يخرجوا من حصونهم .

---

(١) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى باب (مرجع النبى ﷺ من الأحزاب) جـ٥ ص ١٤٣ وأخرجه مسلم فى (كتاب الجهاد) (باب المبادرة بالغزو) جـ٢ ص ١٣٩١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٤٥ .

وأيقنوا أن حصونهم لن تغنى عنهم من الهلاك شيئا، إذا استمر الحال على ذلك، وفى غمرة يأسهم جمعهم كبيرهم - كعب بن أسد - وقال لهم:

يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا: وما هى ؟

قال: نتابع هذا الرجل ،ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم ،قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم على هذه ، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا، ومعنا السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ؛ فإن نهلك لم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم .

قال : فان أبيتم على هذه ، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد ﷺ وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ، قالوا : نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

قال كعب : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما (١) .

حاول بنو قريظة بعد ذلك أن يظفروا بصلح يضمنون معه حياتهم ، فأرسلوا (شاس بن قيس) ليعرض على النبى ﷺ أنهم يريدون أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح ، فابى عليهم الرسول ﷺ ذلك ، فأرسلوا ثانيا : يعلنون تنازلهم عن الأموال، بشرط أن تحقن دماؤهم، وتسلم لهم نساؤهم وذرياتهم، ولكن الله خيب سعيهم ،فقد أبى الرسول ﷺ أن يقبل منهم إلا النزول على حكمه بدون شرط.

ومع ذلك فلم ييأس يهود بنى قريظة ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ من يقوله له : ابعث إلينا أبا لبابة لنستثيره فى أمرنا، وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم، فأرسله

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٥٨٣ .

النبى ﷺ إليهم ، فلما رأوه ، قام إليه الرجال ، وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء أمامه ، حتى رق لهم ، فقال كعب بن أسد لأبى لبابة : لقد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد ﷺ لن يفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه، فماذا ترى ؟ أننزل على حكمه ؟ قال : نعم - وأشار بيده إلى حلقه - كأنه ينبههم إلى أنه الذبح [١] ثم أدرك لفوره أنه خان رسول الله ﷺ لأن فى قوله هذا تنفيرا لهم عن الانقياد لحكم الرسول ﷺ فمضى هائما على وجهه ، وشعر بذنبه فلم يستطع مواجهة النبى ﷺ ثم دخل المسجد فربط نفسه فى سارية من سواريه ، وأقسم ألا يفك منها حتى يتوب الله عليه ، وعاهد الله ، ألا يطأ أرضا لبنى قريظة أبدا ، ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبدا.

وعلم النبى ﷺ بقصته فقال : أما لو جاءنى لا ستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه [٢] وقد قبل الله - عز وجل - توبته ونزل قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [٣] .

وجاء الناس ليفكوه ويبشروه بقبول توبته - بعد أن مكث ست ليال لا يحل من رباطه إلا للصلاة - فأبى أن يفكه أحد إلا رسول الله ﷺ ففكه - عليه الصلاة والسلام - وهو خارج لصلاة الصبح .

وأخيرا لجأوا إلى وسيلة يستدرون بها عطف حلفائهم من الأوس، فأرسلوا إليهم من يقول لهم : « ألا تأخذون لأخوانكم مثل ما أخذت الخزرج لأخوانهم » ؟ يريدون أن الخزرج قد وقف واحد منهم هو عبد الله بن أبى بن سلول بجانب حلفائه بنى قينقاع ، حتى نجوا من القتل، واكتفى النبى ﷺ منهم بالجلاء عن المدينة ، فعلى الأوس أن يفعلوا مع حلفائهم بنى قريظة مثل ما فعل واحد من الخزرج مع حلفائه من بنى قينقاع .

ومشى رجال من الأوس إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله : ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج ؟ فقال لهم :« يا معشر الأوس ، ألا

---

(١) قال صاحب المواهب : كان أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ لهم بحقن دمائهم ، وعرف أنه سيذبحهم إن نزلوا على حكمه.

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) سورة التوبة.

ترضون أن أجعل بينى وبين حلفائكم رجلا منكم ؟» قالوا: بلى، قال : فقولوا لهم فليختاروا من يريدون ، واختار بنو قريظة (سعد بن معاذ) - رضى الله عنه - ليحكم فيهم ، ظنا منهم أن الحلف الذى كان بينهم وبينه فى الجاهلية سينفعهم ويشفع لهم عنده، فيخفف حكمه عليهم .. ونسوا أو تناسوا مجيئه إليهم بنفسه ينصحهم بالوفاء ،ويحذرهم عاقبة الغدر ، فأساءوا إليه وإلى النبى ﷺ .

إن الرجل الذى اختاره اليهود للحكم عليهم ، هو بذاته الذى جرح جرحًا بليغًا وهو يجاهد الأحزاب، فدعا الله، وقال : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فابقنى لها ، فإنه لا قوم أحب إلىَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك، وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها شهادة لى ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وأمر الرسول ﷺ عندما أصيب سعد بن معاذ فى غزوة الأحزاب أن يُجعل فى خيمة (رفيدة [1]) لتقوم بتمريضه ، فلما استقدمه الرسول ﷺ ليصدر حكمه فى بنى قريظة اكتنفه قومه ،وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم.

لكن سعدا - رضى الله عنه - لم يغب عن باله - وأصوات الرجاء تطن فى أذنيه أن بنى قريظة قد نقضوا عهودهم فى ساعة العسرة، وأنهم قد تطاولوا على الرسول ﷺ فسبوه سبًا قبيحًا ، وأن المسلمين قد أحيط بهم من فوقهم، ومن أسفل منهم ، فزاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر ،وأن المدينة وثمارها وحرثها ونسلها وحرمتها لم تنج من بطش جيوش الأحزاب إلا بأعجوبة خارقة ، وأن بنى قريظة ما استداروا بأسلحتهم منضمين إلى جيوش الكفر - عن تعمد وإصرار - إلا ليشاركوهم فى قتل المسلمين واسترقاقهم.

لم يغب عن بال سعد - رضى الله عنه - شيء من ذلك ، لذا لم يلبث أن قال عندما أكثروا الرجاء « لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ».

فلما انتهى - رضى الله عنه - إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، قال الرسول ﷺ « قوموا إلى سيدكم » فقاموا فى صفين،كل رجل منهم يحيى سعدا،حتى وصل إلى

---

(١) رفيدة امرأة من أسلم وقيل من الأنصار كانت تقوم بخدمة الجرحى ومداواتهم.

النبى ﷺ فقال له : « احكم يا سعد » فقال : « الله ورسوله أحق بالحكم » فقال رسول الله ﷺ :« قد أمر الله أن تحكم فيهم » .

فالتفت سعد إلى الجهة التى فيها بنو قريظة وقال : أترضون بحكمى ؟ قالوا نعم؟ فأخذ عليهم العهد بذلك ، ثم قال : ومن ها هنا ـ يريد النبى ﷺ ولم يستطع أن يلتفت إليه حياء منه وإجلالا له ـ فقال النبى ﷺ : نعم ، فقال سعد « فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال،وتسبى الذرارى والنساء » .

فقال النبى ﷺ لسعد :« لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات »[1] .

هذا ، وفى إصابة سعد بن معاذ يوم الخندق ، وفى حكمه على بنى قريظة ، وفى انفجار جراحته ، أخرج الشيخان حديثا طويلا نرى من المناسب ذكره هنا.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق ، رماه رجل من قريش يقال له (ابن العرقة) ، رماه فى الأكحل ـ عرق وسط الذراع إذا قطع لم يرقأ الدم ـ فضرب النبى ﷺ خيمة فى المسجد، ليعوده من قريب ، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل ، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار ، فقال قد وضعت السلاح، والله ما وضعته أخرج إليهم ، قال النبى ﷺ فأين فأشار إلى بنى قريظة ، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه فرد رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم.

قال هشام : فأخبرنى أبى عن عائشة أن سعدا قال : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى فيها . فانفجرت من ليلته ، فلم يرعهم ـ وفى المسجد معه خيمة من بنى غفار ـ إلا الدم يسيل إليهم ، فقالوا يا أهل الخيمة : ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ؟ فإذا سعد جرحه يغذ دما ـ أى: يسيل بقوة ـ فمات منها ـ رضى الله عنه [2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه البخارى ـ واللفظ له ـ فى كتاب الجهاد « باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب » جـ٥ ص ١٤٣ . وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير « باب جواز قتال من نقض العهد » جـ٣ ص ١٣٨٩ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

٦ ـ ثم حفرت الخنادق فى سوق المدينة لتنفيذ حكم سعد فيهم ، وسبق إليها رجال بنى قريظة ، ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم ، وكان عددهم ما بين الستمائة والسبعمائة ، وقال بعضهم فى ذهول لسيدهم (كعب بن أسد) وهم يقدمون لمصارعهم : يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟ فأجابهم ، أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع [١] ، وأنه من دعى به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل.

أجل هو القتل ، جزاء الغادرين الجاحدين الذين طعنوا المسلمين من الخلف فى أحلك الساعات ، وأشد الأوقات .

وأتى فى النهاية بجرثومة الفساد ، ورأس الفتنة (حيى بن أخطب) ليلقى جزاءه العادل ـ وكان قد مزق حلته من كل ناحية حتى لا يسلبها ـ فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : « أما والله مالمت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه » وفيه قال الشاعر:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغى العز كل مقلقل

ولم يقتل المسلمون من نساء قريظة إلا امرأة واحدة ، لأنها ألقت رحى على أحد المسلمين فقتلته . ولم يقتلوا من ذكورهم إلا من كان بالغا.

وقد قسم النبى ﷺ أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، بعد أن أخرج منهم الخمس ، فأعطى للفارس سهمين ،ولفرسه سهما، وأعطى للراجل سهما ، وكانت الخيل يوم قريظة ستا وثلاثين فرسًا وقد نهى الرسول ﷺ عن أن يفرق بين الأم وولدها فى سبايا بنى قريظة، وقال : « إن من فعل ذلك فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » .

٧ ـ وفى شأن غزوة الخندق نزلت تسع عشرة آية فى سورة الأحزاب [٢] افتتحت بتذكير المؤمنين بفضل الله عليهم،إذ نجاهم من أعدائهم،فى وقت بلغت فيه قلوبهم

---

(١) المراد أن من يناديهم ليقدموا على القتل لا يكف عن طلبه بل هو مستمر فى دعوته لهم.
(٢) من الآية ٩ ـ ٢٧ .

الحناجر ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)... ﴾ .

ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن المنافقين، والذين فى قلوبهم مرض، فوصفتهم بالشح الهالع، والجبن الخالع، واللسان السليط ، وفضحت نفوسهم الخبيثة وأعذارهم الواهية، حيث كان فريق منهم يستأذن النبى ﷺ ويقولون : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ - أى ليس فيها ما يحجبها عن العدو - ، ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ كما يزعمون ، وإنما هم يريدون الهرب والفرار من القتال، مع أن فرارهم هذا لن ينجيهم من الموت أو القتل ، لأنهم ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير أو مغيث .

ثم أمرت الآيات الكريمة بعد ذلك المؤمنين بأن يتأسوا بالنبى ﷺ فى أقواله وأفعاله ،وأحواله ،ومدحتهم لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وذكرتهم فى النهاية كما ذكرتهم فى البداية بفضل الله عليهم ، حيث رد عنهم بأس الذين كفروا ، فعادوا إلي ديارهم مهزومين دون أن ينالوا خيراً : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ثم ختمت الآيات الكريمة بالإشارة إلي ما حل ببني قريظة، جزاء غدرهم، فقال تعالي : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

أى :اذكروا أيها المؤمنون نعم الله عليكم ، حيث رد الذين كفروا عنكم ، وأنزل بقدرته بنى قريظة، الذين عاونوهم فى حصونهم المنيعة ، وألقى فى قلوبهم الخوف والفزع ، فنزلوا على حكمكم صاغرين ، فقتلتم رجالهم ، وأسرتم نساءهم وأطفالهم ،وأورثكم الله مزارعهم وحصونهم ،وماشيتهم وجميع ممتلكاتهم ، كما أورثكم أيضا بفضله أرضا لم تطؤوها من قبل - كأرض خيبر وغيرها - لأنه سبحانه قدير على كل شيء ، ونصير لمن ينصره ، ومهلك لمن يحاربه .

وبعد : فهل ظلم المسلمون اليهود بهذا الحكم ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول : كلا ما ظلمهم المسلمون ، ولكن بنى قريظة هم الذين سعوا إلى حتفهم بظلفهم ، بسبب خيانتهم للعهود، التى بينهم وبين المسلمين فى ساعة العسرة ، والشرائع والقوانين جميعها تقضى بأن من خان عهده فى مثل هذه الأوقات فجزاؤه الحرمان من الحياة .

وما صنعه المسلمون معهم ما هو إلا من باب الدفاع عن النفس ، وبنو قريظة ما حافظوا على عهودهم قبل غزوة الأحزاب إلا خوفا من المسلمين ، فلما وجدوا أن المسلمين قد أحيط بهم من كل جانب ، أعلنوا عن حقيقتهم ،فنقضوا عهودهم، وانضموا إلى المشركين المهاجمين .

٨ ـ هذا ، وبالقضاء على بنى قريظة زال نفوذ اليهود زوالا تاما عن المدينة وأطرافها، وأصبحت قاعدة أمينة للمسلمين ، وخفت كل صوت يقلق أمنها ، ويكدر صفوها ، وزادت هيبة المسلمين فى قلوب أعدائهم ، وتحدث بقوتهم ونفوذهم، من كان يستخف بهم ، وانفسح المجال أمام المسلمين؛ ليخرجوا من مدينتهم آمنين ،فينشروا نور الله فى الأرض ، وأيقنت قريش وأحلافها بأن الدعوة الإسلامية قد أصبحت قوة فى مقدورها أن تتخطى الحدود ، وتتجاوز السدود ، وبشر النبى ﷺ أصحابه بأن قريشا لن تستطيع غزو المدينة بعد الذى أصابها فى غزوة الأحزاب .

فقد أخرج البخارى، عن سليمان بن صرد، قال : سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عن المدينة :« الآن نغزوهم ولا يغزوننا : نحن نسير إليهم » (١) .

وقد أيدت الأحداث صدق ما أخبر به الرسول ﷺ .

(مقتل أبى رافع سلام بن أبى الحُقَيق)

تعقب المسلمون بعد قضائهم على بنى قريظة بسبب غدرهم ، كل من عرف بعداوته للإسلام، وكان على رأس اليهود الذين آذوا المسلمين (أبو رافع سلام بن أبى الحقيق) فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب، بالمال الكثير؛ ليحاربوا النبى ﷺ ، وكان من زعماء اليهود البارزين، الذين حزبوا الأحزاب؛ للقضاء على الدعوة الإسلامية ،وأتباعها .

---

(١) صحيح البخارى باب (غزوة الخندق) جـ ٥ ـ ١٤١ .

ولقد بلغت المنافسة فى الخير بين قبيلتى: الأوس والخزرج ، أن إحداهما كانت إذا قامت بعمل يرضى الله ورسوله ﷺ سارعت الأخرى بفعل يشبهه.

قال ابن إسحاق : « حدثنى محمد بن شهاب الزهرى، عن عبد الله بن كعب ابن مالك، قال : وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار: الأوس والخزرج ،كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين (١) ، لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ﷺ غناء - أى منفعة ،ورفع مكروه عنه - إلا قالت الخزرج ، والله لا تذهبون بها فضلا علينا عند رسول الله ﷺ فى الإسلام ، قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك ، فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف ، قالت الخزرج ، والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدًا ، قال : فتذاكروا من رجل لرسول الله ﷺ فى العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى قتله فأذن لهم ، فخرج إليه من الخزرج، من بنى سلمة خمسة نفر: هم - عبد الله بن عتيك - أميرهم - ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعى ، وخزاعى بن الأسود(٢) ».

وكان خروجهم لقتل أبى رافع فى رمضان، من السنة السادسة ، وقيل فى ذى الحجة من السنة الخامسة.

وقد وردت قصة مقتله فى كتب السنة الصحيحة ، وفى كتب السيرة ، وهاك رواية الإمام البخارى فى هذا الشأن، قال: عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال:

« بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان فى حصن له بأرض الحجاز فانطلقوا حتى دنوا من حصنه، وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم - أى :رجعوا بمواشيهم، التى ترعى وتسرح - فقال عبد الله لأصحابه :إجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أدخل،فأقبل حتى دنا من الباب،ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة - حتى لا يعرف - وقد دخل الناس، فهتف

---

(١) أراد ان كليهما كان يبذل قصارى جهده فى الدفاع عن الإسلام.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٤٣ طبعة الحلبى.

به البواب يا عبد الله [1] إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق - أي: المفاتيح - على وتد ، قال ابن عَتيك ، فقمت إليها فأخذتها، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ليلا، وكان في عَلا لىٍّ له - جمع علِّية أي: غرفة - أي كان الناس يجتمعون عنده ليلا؛ للتحدث في مختلف الشؤون، لأنه زعيم خيبر الأكبر - ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت عليٍّ من داخل ، قلت : إن القوم إن أحسوا بى، لم يخلصوا إلىٍّ حتى أقتله ، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم، وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت؟ - أى: لا أدرى خصوص المكان الذى هو فيه - فقلت يا أبا رافع - لأعرف موقعه - قال من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف وأنا دهش - أى: حيران - فما أغنت شيئا ، وصاح - أبو رافع - فخرجت من البيت، فمكثت غير بعيد، ثم دخلت عليه - كأني أغيثه وغيرت صوتي - فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال لأمك الويل ، إن رجلا فى البيت ضربنى قَبْل بالسيف ، قال عبد الله: فضربته ضربة أثخنته - أى: جرحته جرحا بليغا - ولم أقتله ، قال : ثم وضعت ضبيب السيف - أى: حده - في بطنه حتى دخل فى ظهره، فعرفت أني قد قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى وأنا أرى، قد انتهيت إلى الأرض - لأنه كان (رضى الله عنه) ضعيف البصر كما جاء فى بعض الروايات - فوقعت فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب ، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته أو لا؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور، فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز قال: فا نطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاة - أى: أسرعوا - فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته - بما وقع - فقال :« ابسط رجلك » فبسطتها ، فمسحها فكأنما لم أشتكها قط ، وفى رواية عن ابن عتيك، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر فقال : « أفلحت الوجوه [2] » .

هذا،وهناك روايات أخرى فى مقتل (أبى رافع) يؤخذ منها :أن قاتله هو عبدالله بن أنيس،أو أن الخمسة قد اشتركوا فى قتله،إلا أننا آثرنا رواية البخارى، التى تصرح بأن قاتله هو:(عبد الله بن عتيك)؛ لأنها أقوى سنداً من غيرها،ولذا قال

---

(١) أراد يا من أنت عبد الله ، ولم يرد اسمه الحقيقى.

(٢) صحيح البخارى (باب : قتل أبى رافع) جـ ٥ ص ١١٧.

صاحب المواهب : « الصواب أن الذى دخل عليه وقتله عبد الله بن عتيك وحده كما فى البخارى » [١] .

قال الحافظ ابن حجر :« وفى هذا الحديث من الفوائد : جواز اغتيال المشرك، الذى بلغته الدعوة، وأصر على الكفر ، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده، أو ماله، أو لسانه ، وجواز التجسس على أهل الحرب، وتطلب غرتهم ، والأخذ بالشدة فى محاربة المشركين ، وجواز إيهام القول للمصلحة ، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدليل والعلامة؛ لاستدلال ابن عتيك - رضى الله عنه - على أبى رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعى بموته » [٢] .

وبمقتل أبى رافع دب الرعب فى قلوب يهود خيبر ، وزالت عن طريق الإسلام عقبة كأداء طالما آذت المسلمين ، وكان مقتله كتمهيد لفتح خيبر.

(مقتل أسير بن رزام)

تولى أُسير بن رِزام زعامة يهود خيبر، بعد مقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق وكان أسير يجتمع ببنى غطفان؛ ليعقد معهم العقود والاتفاقيات، ليكونوا معه عندما يشتبك مع المسلمين فى حرب، وأخذ يشجع اليهود بعد ذلك على الحرب ويقول لهم :« والله ما سار محمد ﷺ إلى أحد من يهود ، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد ، ولكن سأصنع معه ما لم يصنع غيرى ، فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟ قال : سأجمع غطفان وغيرها من القبائل ، ونسير إليه فى عقر داره ، فإنه لم يغز أحد فى عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد ، فقالوا له : نعم ما رأيت » [٣] .

وترامت أنباء تهديدات (أُسير بن رِزام) إلى مسامع المسلمين ، فأرسل النبى ﷺ عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - على رأس ثلاثة نفر من المسلمين؛ ليعرفوا له أخبار أُسير بن رِزام .

وكان مسيرهم إليه فى رمضان، من السنة السادسة ، فلما وصل عبد الله بن

(١) شرح المواهب للزرقانى جـ٢ ص ١٧٠ .
(٢) فتح البارى جـ٧ ص ٢٤٢ (كتاب المغازى).
(٣) شرح المواهب للزرقانى جـ٢ ص ١٧٠ .

رواحة إلى ناحية خيبر، دخل فى حوائطها ، دون أن يفطن إليه أحد، وفرق زملاءه الثلاثة على الحصون ، وأخذ الجميع يتنطسون أخبار (أسير بن رزام) ومن معه لمدة ثلاثة أيام ، فعلموا أنه يضمر الشر للمسلمين ، ويعد العدة لغزوهم.

فعادوا إلى النبى ﷺ فحدثوه بما رأوا وسمعوا ، وقالوا له : تركنا (أسير بن رزام) يجهز الكتائب لغزونا ، فعندئذ رأى النبى ﷺ بحسن سياسته، أن يرسل إلى (أسير بن رزام) من يدعوه إلى القدوم على المدينة؛ لمفاوضته فيما يريد ، وندب لتلك المهمة ثلاثين رجلا برئاسة عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ فوصلوا إلى خيبر فى شوال من السنة السادسة.

فلما دخلوا على (أسير بن رزام) قالوا له : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال: نعم ،ولى منكم مثل ذلك ؟ قالوا: نعم ، ثم قالوا له : إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك؛ ليستعملك على خيبر ، ويحسن إليك ، فطمع فى ذلك، واستشار بعض اليهود فى الخروج إلى المدينة فخالفوه ، ولكنه خرج ومعه ثلاثون رجلا من اليهود، وخرج المسلمون معه ، فلما كانوا (بالقرقرة) [1] ندم أسير على خروجه إلى المدينة ، وحاول أن يستل سيفه؛ ليغدر بالمسلمين ، ففطن عبد الله بن أنيس ـ رضى الله عنه ـ له، وهو يريد السيف ، فقال له : أغدر يا عدو الله ، ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله وضرب (أسير) عبد الله بن أنيس بمخراش فى يده من شوحط فأمه ـ أى: ضربه بآلة من شجر الجبال، الذى يتخذ منه القسى فشجه ـ ومال كل رجل من المسلمين على صاحبه من اليهود ، فقتله إلا رجلا واحدا أفلت على رجليه ، ولم يصب من المسلمين أحد ، ثم قدموا على النبى ﷺ فحدثوه بما جرى لهم مع (أسير) ورجاله، فقال لهم ﷺ :« قد نجاكم الله من القوم الظالمين ».

وبمقتل أسير بن رزام تخلص المسلمون من يهودى طاغية، أراد أن يغزوهم فى عقر دارهم ،وأظهر الغدر للمسلمين ، فجنى على نفسه بغدره وظلمه.

(غزوة خيبر) [2]

١ ـ ماذا تم للمسلمين بعد القضاء على بنى قريظة ؟

---

(١) (القرقرة) مكان على بعد ستة أميال من خيبر.

(٢) خيبر ـ بوزن جعفر ـ مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ، على بعد ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام ، سميت باسم رجل من العماليق نزلها ،وكان اسمه خيبر ، وقيل: الخيبر اسم الحصن، أو القلعة.

٢ ـ بشارات القرآن الكريم للمسلمين بفتح خيبر.

٣ ـ الأسباب التى حملت المسلمين على غزوة خيبر.

٤ ـ خروج المسلمين بقيادة النبى ﷺ إلى خيبر.

٥ ـ معارك غزوة خيبر بعد وصولهم إليها وفتحها.

٦ ـ معاملة الرسول ﷺ لأهل خيبر، وقسمته لأموالهم.

٧ ـ فتح خيبر كان عنوة لا صلحا.

٨ ـ زواج الرسول ﷺ بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب.

٩ ـ قصة الشاة المسمومة، التى قدمت للرسول ﷺ فى خيبر.

١٠ ـ فى أعقاب غزوة خيبر.

١١ ـ إجلاء اليهود عن جزيرة العرب.

١ ـ بعد أن تم القضاء على بنى قريظة جزاء غدرهم، شعر المسلمون بالهدوء والاستقرار، ورسوخ القدم، وأصبحوا يخرجون من المدينة؛ لينشروا الإسلام بين القبائل، وهم آمنون مطمئنون، ولكن بقى أمامهم فريقان من الخصوم الألداء وهم، أهل مكة، ويهود خيبر.

أما أهل مكة فقد استطاع النبى ﷺ بحسن سياسته، وسعة تفكيره وسداد رأيه، أن يعقد معهم صلح الحديبية، الذى قال فيه الزهرى: «ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه». فقد ترتب عليه أن أمن الناس بعضهم بعضا، فاتسع نشاط المسلمين فى كل مجال، وأخذوا ينشرون دينهم فى أنحاء الجزيرة العربية، فدخل عدد وفير من المشركين فى الإسلام.

وأما يهود خيبر فقد تهيأ الرسول ﷺ لحربهم، فى المحرم من السنة السابعة (١) بعد عودته من الحديبية بعشرين يوما تقريبا.

وقد سارع النبى ﷺ بغزوهم بعد الانتهاء من صلح الحديبية حتى لا يدع لهم

---

(١) هذا رأى الجمهور، وقيل: كانت فى أواخر السنة السادسة، والمعتمد قول الجمهور.

مجالا للاستعانة بالقبائل المعادية للإسلام ،وعنصر المباغتة والمبادأة، الذى سار عليه النبى ﷺ فى هذه الغزوة يعتبر من أهم الفنون الحربية، التى اعتمد عليها المحاربون فى العصر الحديث.

٢ - وفى سورة الفتح التى نزلت على النبى ﷺ بعد صلح الحديبية بشارات متعددة للمسلمين، الذين حضروا هذا الصلح ، وإشارات إلى ما سينالونه من مغانم خيبر جزاء إخلاصهم لدينهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥﴾ ﴾ فالمراد بالمغانم هنا: مغانم خيبر.

ومعنى الآية الكريمة : سيقول الذين تخلفوا عن الحديبية؛ لضعف إيمانهم ، وتعللهم بانشغالهم بأموالهم وأهليهم ، دعونا - أيها المسلمون - نتبعكم ونسر معكم إلى غزوة خيبر ، وهم بقولهم هذا يريدون أن يبدلوا كلام الله ، لأنه - سبحانه - وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركهم فيها غيرهم ممن لم يحضرها ، ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرفض طلبهم فى الخروج معه، فقال : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى :لا تأذن لهم فى الخروج معك إلى خيبر ، ما داموا قد امتنعوا عن الخروج إلى الحديبية ، فقد أخبرك الله قبل مرجعك من الحديبية إلى المدينة بأن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية، وليست لمن تخلف عنها.

ثم حكى الله - تعالى - ردهم فقال : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أى: سيقول المخلفون لكم أيها المؤمنون ، إن الله ما أمر بعدم خروجنا ، بل أنتم تريدون أن تستأثروا بغنائم خيبر وحدكم، ومن ثم منعتمونا من الخروج معكم ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى : ليس الأمر كما يقول هؤلاء المتخلفون، بل منعهم كان بسبب تخلفهم عن حضور الحديبية ، وجهلهم بالكثير من أمور الدين ، إذا لو كانوا يفقهون ما تخلفوا عن رسول الله ﷺ .

وفى آيات أخرى بشر الله المؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت فى صلح الحديبية ، بشرهم بالفتح القريب، والظفر بالخير الوفير، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) ﴾ .

فالمراد بالفتح القريب : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية ، والمراد بالمغانم الكثيرة :مغانم خيبر ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ مغانم خيبر أصابها المسلمون بعد مدة قصيرة من صلح الحديبية.

ومعنى الآيات الكريمة : لقد رضى الله عن أهل الحديبية، الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فعلم ـ سبحانه ـ ما فى قلوبهم من الصدق ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ، ورزقهم جزاء إخلاصهم وطاعتهم فتح خيبر ، عقب انتهائهم من الحديبية ، وعوضهم عما كانوا يرجونه من غنائم أهل مكة ، بغنائم خيبر الكثيرة النفيسة، فهو ـ سبحانه ـ ذو عزة فى انتقامه من أعدائه ، وذو حكمة فى تدبير أمور خلقه وشئونهم.

ثم بشرهم الله ـ تعالى ـ بغنائم كثيرة ينالونها فى مستقبل الأيام، فقال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

وفى آية أخرى من سورة الفتح ـ أيضا ـ بشارة للمؤمنين بفتح خيبر ، وهذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

أى : وعدكم الله مغانم كثيرة تظفرون بها من أهل الشرك فى أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ، ولكن عجل لكم مغانم خيبر ، ومنع أعداءكم من يهود وغيرهم من الإغارة على المدينة بعد خروجكم منها، إلى الحديبية ؛لتشكروه ، ولتكون تلك النعم كلها دليلا على حفظ الله إياكم ، وهدايته لكم إلى الصراط المستقيم.

والمراد بالفتح القريب: فتح خيبر ،كما قال جمهور المفسرين ، والمعنى :

لقد صدق الله - تعالى - رسوله ﷺ رؤياه، التى أراها إياه ، وهى دخوله هو وأصحابه المسجد الحرام؛ آمنين لا يخافون أهل الشرك ، محلقا بعضهم ، ومقصرا البعض الآخر ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أى : فعلم - سبحانه - أن الخير والمصلحة فى صرفكم عن دخول مكة هذا العام ، ولم يشأ - سبحانه - أن يردكم خزايا ولا ندامى، بل جعل من قبل دخولكم المسجد الحرام، الذى وعدتم به فى رؤيا نبيكم فتحا قريبا، وهو فتح خيبر، وصلح الحديبية.

فهذه الآيات الكريمة ، فيها بشارات للمؤمنين بأن خيبر ستفتح على أيديهم ، وأنهم سينالون منها خيرا كثيرا ، ورزقا وفيرا ؛ لذا خرجوا إليها مع النبى ﷺ وقلوبهم زاخرة بالإيمان ، ونفوسهم مليئة بالأمل فى نصر الله - تعالى - بناء على وعده الذى لا يتخلف.

٣ - الأسباب التى حملت المسلمين على غزوة خيبر :

أهم الأسباب التى حملت المسلمين على حرب يهود خيبر تتلخص فيما يلى :

(أ) من خيبر خرج وفد اليهود الذى حزب الأحزاب على حرب المسلمين فى غزوة الخندق، وإذا لم يؤدب المسلمون يهود خيبر بعد أن فشل الأحزاب ، فربما يعودون لمثلها فى المستقبل ، فالحكمة والكياسة توجب على المسلمين كسر شوكتهم.

(ب) بعد هزيمة الأحزاب لم يحاول يهود خيبر إصلاح سلوكهم وسياستهم مع المسلمين، بل على العكس شرعوا يحالفون غطفان والأعراب ، ليكونوا معهم جبهة جديدة تحارب المسلمين مرة أخرى .

(جـ) بعد القضاء على بنى قريظة غضب يهود خيبر، وأخذوا يرسلون الوفود بالأموال إلى المدينة لفداء نساء وذرارى بنى قريظة ، ثم اجتمعوا فيما بينهم ، وقرروا تأليف جيش منهم،ومن يهود وادى القُرى وتيماء؛ للزحف على المدينة وهى خالية من أهلها ،حين كانوا فى صلح الحديبية للأخذ بثأر بنى قريظة ، وقد تطوع لقيادة هذا الجيش (أسير بن رزام) الذى تحدثنا عن قصة مقتله قريبا.

(د) أصبح المسلمون بعد صلح الحديبية آمنين أهل مكة، والنواحى الجنوبية

من الجزيرة العربية ، أما ناحية الشمال من المدينة، فوجود يهود خيبر فيها،من شأنه أن يجعل أمن المدينة فى خطر،فقد يستعين بهم هرقل لحرب المسلمين،ولا شك أنهم سيلبون طلبه؛لكى يثأروا لأنفسهم من المسلمين متى لاحت لهم أى فرصة.

هذه هى أهم الأسباب التى حملت النبى ﷺ على حرب يهود خيبر ليقضى على شوكتهم قضاء لا تقوم لهم بعده قائمة فى جزيرة العرب ، وبذلك تظفر الدعوة الإسلامية بالأمن والاستقرار.

هذا ، وفى كتب السنة الصحيحة أحاديث متعددة عن غزوة خيبر ، فقد ساق الإمام البخارى فى هذه الغزوة ثلاثين حديثًا ـ كما قال ابن حجر ـ وقد تناولت هذه الأحاديث أخبارها وحوادثها ، وما دار فيها من شئون مختلفة ، وسنذكر منها ما له علاقة ببحثنا فى موضعه المناسب ـ إن شاء الله ـ .

٤ ـ خروج المسلمين بقيادة النبى ﷺ إلى خيبر :

استعمل النبى ﷺ على المدينة (نميلة بن عبد الله الليثى) وخرج إلى خيبر فى ألف وستمائة من أصحابه ، منهم مائتان من الفرسان ، والباقون ما بين راجلين وراكبين للإبل ، وجاء الذين تخلفوا عن الخروج فى صلح الحديبية،يعرضون السير معه إلى خيبر ؛لينالوا شيئا من الغنائم ، فأبى عليهم ذلك ، إلا أن يخرجوا غازين متطوعين ليس لهم من الغنيمة شىء .

وتعمد النبى ﷺ بحسن سياسته، وهو فى طريقه إلى خيبر أن يحول بين غطفان وبين مساعدتها لليهود ، فنزل بجيشه فى واد يقال له : الرجيع بين غطفان، وخيبر ، فتوهمت قبيلة غطفان أن قوة المسلمين توشك أن تحيط بهم ، فقبعوا فى دورهم ، ولم يجرءوا على مناصرة يهود خيبر ، ونجحت خطة النبى ﷺ فى عزل يهود خيبر عن حلفائهم من المشركين .

قال ابن إسحق : وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر [1] فبنى له فيها مسجدا على الصهباء ـ وهو فى طريق خيبر ـ ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان؛ ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ فبلغنى

---

(١) عصر جبل بين المدينة وخيبر.

أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا، فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم ،فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر (١).

ولكى يهون النبى ﷺ السفرة على المسلمين وهم فى طريقهم إلى خيبر ، أذن لعامر بن الأكوع - رضى الله عنه - أن يحدو بهم بالشعر والرجز ، لتسير القافلة بسرعة ونشاط.

روى الإمام البخارى، عن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال: « خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع ياعامر ، ألا تسمعنا من هنيهاتك (٢) وكان عامر رجلا شاعرا ، فنزل عامر يحدو بالقوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتديا	-	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فدى لك ما اقتفينا	-	وثبت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينة علينا	-	إنا إذا صبح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا	-	وإن أرادوا فتنة أبينا

فقال رسول الله - ﷺ - : « من هذا السائق ؟ قالوا: عامر بن الأكوع : فقال: « يرحمه الله » .

فقال رجل من القوم وجبت يا رسول الله، فقتل عامر يوم خيبر شهيدا (٣) .

٥ - وصول المسلمين إلى خيبر ، ومعاركهم فيها ، وفتحهم إياها .

كان اليهود قد حصنوا أرضهم ودورهم ، وقسموها إلى ثلاث مناطق ، تتألف كل منطقة من جملة حصون : أما المناطق فهى : نطاة ، والشق ، والكتيبة ، ومن حصون النطاة : حصن ابن معاذ، وحصن ناعم ، وحصن قلعة الزبير ، ومن حصون الشق : حصن أبى وحصن النزار ، ومن حصون الكتيبة : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلالم وهو حصن بنى أبى الحقيق (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٤٤ .

(٢) الهناة جمع هنة ، والمراد بها هنا :الشيء الحقير ، كأنه حقر أمر الشعر لمايتخلله غالبًا من الكذب . وإن كان من الشعر ما هو حكمة.

(٣) فتح البارى جـ٧ ص ٣٢٦ .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام . لجواد على جـ٦ ص ١٥٥ .

وقد بنى يهود خيبر هذه الحصون المكينة على المرتفعات ، ليكونوا فى مأمن من غارات الأعراب ، وليتسنى لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ، وهم بداخلها عن طريق الرمى بالسهام وغيرها ، وفيها كانوا يضعون غلالهم وأموالهم وكل شىء له قيمة عندهم ، وفى أيام الأخطار كانوا يعيشون على ما فى الحصون من مؤونة وزاد ، وقد زادوا فى تحصينها وتقويتها بعد التنكيل بإخوانهم ،الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها، وهم بنو قينقاع والنضير ، وقريظة .

ولكن هذه التحصينات لم تغن عنهم من الله شيئا، فعندما أشرف النبى ﷺ على حصون خيبر ، ورآها المسلمون رأى العين ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحابه قفوا ، ثم تضرع إلى الله ـ عز وجل ـ بهذا الدعاء.

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها ،وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله » .

ثم زحف النبى ﷺ بأصحابه فى الصباح المبكر على حصون خيبر ، فى الوقت الذى خرج فيه يهودها بمساحيهم (١) ومكاتلهم إلى حقولهم، فلما أبصروا وفوجئوا بالمسلمين يسيرون نحوهم، ارتدوا على أدبارهم إلى حصونهم؛ فزعين وهم يصيحون فى ذهول محمد والخميس (٢) .

واستغل النبى ﷺ هذا الفزع؛ لتشجيع أصحابه على القتال ، والتهوين من شأن يهود خيبر ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

أخرج الشيخان، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله أتى خيبر ليلا ، وكان إذا أتى قوما بليل لم يُغِربهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا: محمد، والله محمد والخميس ، فقال النبى ﷺ :« الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (٣) .

---

(١) مساحى : جمع مساحاة وهى المجرفة من الحديد.

(٢) الخميس : الجيش.

(٣) صحيح البخارى ـ واللفظ له ـ (باب غزوة خيبر) جـ ٥ ص ١٦٧ ، وأخرجه مسلم فى « كتاب الجهاد » باب (غزوة خيبر) جـ ٣ ص ١٤٢٦ .

ووقف المسلمون أمام حصون خيبر ،والإيمان يملأ قلوبهم بنصر الله ، وكان وقوفهم بالقرب من حصن النطاة ، فقال الحباب بن المنذر :« يا رسول الله أن أهل النطاة لى بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا، وذلك أسرع لانحطاط نبالهم علينا » فالرأى عندى أن نتحول إلى مكان آخر، فتحول النبى ﷺ إلى موضع حائل بين أهل خيبر وغطفان ، ومشرف فى الوقت نفسه على حصون النطاة.

وابتنى النبى ﷺ مسجدا فى هذا المكان صلى فيه طوال مقامه بخيبر ، ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - بقطع نخيل يهود حصن النطاة ، ليحملهم على الخروج للقتال ، فقطع المسلمون عددا منها ، ثم توقفوا بإذن منه ﷺ .

أما اليهود فإنهم بعد أن رأوا المسلمين قد أحاطوا بهم، وأبصروا نخيلهم تقطع أمام أعينهم ، اجتمعوا وتشاوروا مع زعيمهم (سلام بن مشكم) ، فأشار عليهم بإدخال أموالهم وعيالهم، فى حصن الوطيح والسلالم ، وإدخال ذخائرهم فى حصن ناعم ، أما المقاتلة وأهل الحرب فيدخلون فى حصن النطاة، فاستجابوا له، ودخل هو معهم، يحرضهم على القتال ، ويشجعهم على الاستماتة فى سبيل أنفسهم وأموالهم .

وبعد أن حاصر المسلمون منطقة نطاة حصاراً شديداً ، خرج اليهود منها دون أن يفارقوها بعيدا ، لأنهم لحرصهم على الحياة يكرهون القتال في الميادين المكشوفة ، فهم كما وصفهم الله - عز وجل - ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ واستغل المسلمون فرصة مبارحتهم لحصونهم ، فشنوا هجومهم عليهم، واقتتل الفريقان حول منطقة نطاة قتالاً شديدا ، وقاتل الرسول ﷺ فى ذلك اليوم أشد قتال ، وكان يلبس درعين وبيضة ومغفرا ، ويركب فرساً يقال لها (الظرب) ، وفى يده قناة وترس .

واستمر المسلمون يقاتلون أهل منطقة نطاة سبعة أيام متوالية ، كان اليهود خلالها يحاربون أمام دورهم، دون أن يبتعدوا عنها ، فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم فأغلقوها دونهم ، وخلال محاصرة المسلمين لحصون نطاة وقتالهم أهلها، مات (سلام بن مشكم) زعيم يهود خيبر ، فانتقلت قيادتهم إلى (الحارث بن أبى زينب) الذى خرج من حصن ناعم أحد حصون منطقة نطاة - يريد منازلة

المسلمين فدحره بنو الخزرج، واضطروه أن يرتد على أعقابه هاربا ، واستمر المسلمون يضيقون الخناق على حصن ناعم بمنطقة نطاة وشعارهم (يا منصور أمت أمت) واليهود مستميتون فى الدفاع عن أنفسهم، لإيقانهم بأن هزيمتهم فى هذه المعركة معناها القضاء النهائى على كيانهم فى الجزيرة العربية.

وبعد معارك عنيفة دارت بين المسلمين واليهود حول حصن ناعم، بشر النبى ﷺ أصحابه بأن الفتح سيكون على يد رجل يحبه الله ورسوله :

روى الإمام البخارى، عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - (أن رسول الله) ﷺ قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله يديه ، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» ، قال : فبات الناس يدوكون [1] ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجوا أن يعطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب، فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : «فأرسلوا إليه» ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال على يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال - عليه الصلاة والسلام - انفذ على رسلك حتى.تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [2] .

ومن هذا النصح الرشيد الذى وجهه النبى ﷺ للإمام على - كرم الله وجهه - يتبين لنا أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يحارب أهل خيبر؛ لكى يظفر بأموالهم ، وإنما حاربهم؛ لمشاقتهم لله ورسوله ، ولو أنهم استجابوا للحق ، وتركوا معاداة الإسلام وأهله ، لعاشوا آمنين ، ولكنهم عموا،أو صموا عن الحق ، فسلب الله - عز وجل - نعمه عنهم.

لقد دعاهم على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -إلى الإسلام فأبوا، وخرج من حصونهم مرحب اليهودى، وقد لبس درعين وتقلد بسيفين . . وجعل يُدِلُّ بقوته ويقول :

---

(١) يدوكون : اى يتحدثون فى شان من سياخذ الراية.

(٢) صحيح البخارى (باب غزوة خيبر) جـ ٥ ص ١٧١ .

قد علمت خيبر أنى مَرحَب - شاكِى السلاح بطلٌ مُجرَّب
أطعن أحيانا وحينا أضرب - إذا الليوث أقبلت تُحَرَّبُ
إنّ حماىَ للحِمَى لا يُقرب - يُحجم عن صولتى المُجرَّب

فانبرى له على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ودار بينهما قتال شديد انتهى بهلاك مرحب ، وقيل :إن الذى قتله محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - انتقاما لأخيه محمود الذى ألقيت عليه رحى أثناء حصار الحصن فصرعته ، فثار له بقتل مرحب ، لكن الذى عليه أكثر كتب السيرة أن الذى قتل مرحبا هو على بن أبى طالب .

ثم خرج ياسر أخو مرحب ، فبرز له الزبير بن العوام - رضى الله عنه - وكانت السيدة صفية أم الزبير، قد خرجت مع الجيش للمعاونه ، فخشيت على ابنها أن يقتل، فطمأنها النبى ﷺ وقال لها :« بل ابنك يقتله ان شاء الله ، فصرع الزبير ياسرا اليهودى » . .

ودار القتال بعد ذلك عنيفا بين المسلمين واليهود ، وانتهى بفتح حصن الناعم - أحد منطقة النطاة - على يد الإمام على - كرم الله وجهه - ، بعد قتل قائده الحارث ابن أبى زينب .

وبعد أن سقط حصن الناعم توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ وزحفوا عليه ، ودار حوله قتال شديد ، وكان الإعياء والتعب قد بلغ ببعض المسلمين منتهاه، بعد أن نفذت مؤونتهم ، فذهب وفد منهم إلى النبى (ﷺ) فقالوا : والله يارسول الله لقد جهدنا ، وما بأيدينا من شىء ، فرفع النبى ﷺ يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها غناء، وأكثرها طعاما وودكا »[1] .

ففتح الله على المسلمين حصن (الصعب بن معاذ) وما بخيبر حصن أكثر طعاما وودكا منه .

ثم حاصر المسلمون بعد ذلك حصن الزبير، وكان منيعا حتى أن المسلمين لم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٨٣ .

يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود إلا بعد أن قطعوا عنه الماء ، فاضطر اليهود إلى الخروج إلى القتال، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام قوة، المسلمين فولوا الأدبار إلى منطقة الشق ، وبذلك تم للمسلمين فتح منطقة نطاة، التى كانت تضم حصن ناعم، والصعب والزبير، وهى من أهم حصون خيبر وأغناها وأقواها .

توجه المسلمون بعد ذلك إلى منطقة الشق فحاصروها ، وكانت تشمل حصن أُبىَ ، وحصن النزار ، وقد دافع اليهود عنها دفاع المستميت، ولكنها سقطت فى النهاية على أيدى المسلمين .

ثم أمر النبى ﷺ أصحابه بالتوجه إلى منطقة الكتيبة، وفيها حصن القموص ، والوطيح ، والسلالم ، فابتدأ المسلمون بمحاصرة حصن القموص ، وهو من أهم حصون خيبر ،ففيه كان يسكن آل أبى الحقيق زعماء اليهود وأثرياؤهم ، وقد حاصر المسلمون هذا الحصن حصارا شديداً اضطر اليهود معه إلى الفرار صوب حصنى الوطيح والسلالم ، فلما ضيق المسلمون عليهم الخناق فى هذين الحصنين ، استولى على نفوسهم اليأس، وأيقنوا أنه لا محيص من الاستسلام ، فعرضوا الصلح على النبى ﷺ . فقبله ـ عليه الصلاة والسلام ـ واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئا من أموالهم ، فإن كتموا فلا ذمة لهم ولا عهد .

وبذلك سقطت حصون خيبر فى أيدى المسلمين ، وخضع أهلها لحكم النبى ﷺ .

٦ ـ معاملة الرسول ﷺ لأهل خيبر وكيفية قسمة غنائمها بين المسلمين

كانت أراضى خيبر واسعة الأطراف ، وفيها من الحدائق والبساتين والمزارع ما يحتاج إلى الأيدى الكثيرة، التى مارست أشغال الزراعة والفلاحة زمنا طويلا ، وأهلها هم أدرى الناس باستغلالها واستثمار خيراتها ، وأهل المدينة ـ وإن كانوا أهل فلاحة ـ إلا أن الجيش الإسلامى فى حاجة إليهم؛ لإعلاء كلمة الله ، وأرضهم ـ أيضا ـ فى حاجة إلى جهودهم لإصلاحها، والاستفادة منها ، لذا قبل النبى ﷺ مصالحة أهل خيبر على بقائهم فيها بشرط أن يكون نصف ثمارها للمسلمين .

وقد روت كتب السنة، والسيرة، الطريقة التى عامل بها النبى ﷺ يهود خيبر ، ومن ذلك ما جاء عن نافع، عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال :« قاتل رسول الله ﷺ) أهل خيبر، حتى ألجاهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل

فصالحوه على أن يجلوا منها ،ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء، ويخرجون منها ، واشترط عليهم ألايكتموا ولايغيبوا شيئا ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبوا مَسْكًا - أى جلدا - فيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، كان قد احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لكنانه بن الربيع - زوج صفية بنت حيى بن أخطب ، وكان عنده كنز بنى النضير « ما فعل مسك حيى الذى جاء به من بنى النضير ؟» قال : أذهبته النفقات والحرب، فقال الرسول ﷺ : «العهد قريب والمال أكثر من ذلك» ، وجاء رجل من اليهود فقال يارسول الله : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فقال رسول ﷺ لكنانة : « أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟» قال: نعم ،فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، وسبى نساء آل أبى الحقيق وذراريهم ، وقسمة أموالهم بالنكث، الذى نكثوا، فقد كان كنانة بن أبى الربيع منهم ، وكانوا يعلمون أن الكنز عنده، ولكنهم كتموا ذلك » .

وأراد رسول الله ﷺ أن يجليهم منها ، فقالوا يا محمد دعنا فى هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها وكانوا لا يستطيعون أن يقوموا عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ، وقال لهم : « نقركم فيها على ذلك ماشئنا » .

(وكان عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - يأتيهم كل عام فيخرصها (١) عليهم، ثم يضمنهم الشطر ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه ، فقال لهم : يا أعداء الله تطعمونى السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ، ولأنتم أبغض الناس إلى، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل عليكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض » (٢) .

قال الإمام ابن القيم : وقد قسم النبى ﷺ غنائم خيبر على ستة وثلاثين سهما، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ،فكان الرسول ﷺ والمسلمون لهم النصف من ذلك ، وعزل النصف الآخر لنوائبه وما ينزل من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله - تعالى -

---

(١) الخارص هو الذى يقدر الثمر على أصوله . (٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٩٩ .

لأهل الحديبية من شهد منهم خيبر، ومن غاب عنها ، وكانوا ألفا وأربعمائة،وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية سوى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ فقسم له رسول الله كسهم من حضرها (١) .

٧ ـ فتح خيبر كان عنوة لا صلحا :

يرى بعض العلماء أن خيبر قد فتح بعضها عنوة، وبعضها صلحا ، لأن حصنى الوطيح والسلالم من منطقة الكتيبة قد حصل فيهما الصلح، وقد قسم النبى ﷺ ما فتح عنوة بين أهل الخمس والغانمين ، وعزل ما فتح صلحا لنوائبه وما يحتاج إليه فى أمور المسلمين .

والصحيح الذى عليه جمهور العلماء: أن أرض خيبر جميعها فتحت عنوة، فعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ « أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فأصبناها عنوة فجمع السبى » (٢) .

وقال ابن إسحاق : سألت ابن شهاب الزهرى، فأخبرنى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال .

وقال ابن عبد البر : الصحيح فى أرض خيبر :أنها كانت عنوة كلها، مغلوبا عليها ،فإن رسول الله ﷺ قسم جميع أرضها على الغانمين لها، الموجفين عليها بالخيل والركاب وهم أهل الحديبية .

وقال الإمام ابن القيم : ومن تأمل السير والمغازى حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فتحت عنوة ، ولو فتح شىء منها صلحا لم يجلهم رسول الله ﷺ عنها ، فإنه لما عزم على إخراجهم منها قالوا له : نحن أعلم بالأرض منكم ، اتركونا لنكون فيها ولنعمرها، ولكم شطر ما يخرج منها ، وهذا صريح فى أنها فتحت عنوة ، ثم قال: وقد حصل فيها من القتال ما هو معلوم، وليست الحصون التى أسلمها أجهلها بعد الحصار، والقتال صلحا، إذ لو كانت صلحا لملكها أهلها،كما يملك أهل الصلح أرضهم وسائر أموالهم .فالصواب الذى لا شك فيه :أنها فتحت

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) صحيح مسلم « كتاب الجهاد » باب « غزوة خيبر » جـ ٣ ص ١٤٢٦ .

عنوة، والإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمها ووقفها، وقسم البعض ووقف البعض [(١)] .

٨ ـ زواج النبى ﷺ بصفية بنت حيى ـ رضى الله عنها :

فى قصة زواج النبى ﷺ بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب ـ وردت أحاديث متعددة مضمونها ، أن المسلمين بعد أن تم لهم فتح حصن القموص ، أتاه سيدنا بلال ـ رضى الله عنه ـ بالسيدة صفية ومعها ابنة عمها ، وكانت السيدة صفية تحت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وكانت حديثة عهد بالزواج ، فأمر النبى ﷺ بلالا ـ رضى الله عنه ـ أن يذهب بها إلى رحله فمر بها وبمن معها على قتلى من اليهود ، فلما رأتهم التى مع السيدة صفية صاحت، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلما بلغ النبى ﷺ ذلك غضب على بلال، وقال له : « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ،ثم عرض النبى ﷺ على السيدة صفية الإسلام فأسلمت، فاصطفاها لنفسه ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها رسول الله ﷺ وهو فى طريق عودته إلى المدينة من خيبر ، ورأى فى وجهها خضرة، فقال لها : ما هذا يا صفية ؟ فقالت يا رسول الله : رأيت فى المنام قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه، وسقط فى حجرى، وأنا يارسول الله ما أعلم من شأنك شيئا ـ فقصصت ما رأيت فى منامى على زوجى فلطم وجهى، وقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً .

وفى الليلة التى بنى فيها النبى ﷺ بالسيدة صفية ، بات أبو أيوب خالد بن زيد متوشحا سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطوف بالقبة التى نام فيها النبى ﷺ ، فلما أصبح الصباح ورأى أبو أيوب رسول الله ﷺ كبر !! فسأله الرسول: « مالك يا أبا أيوب ؟» فقال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك ، فضحك الرسول ﷺ وقال : « اللهم أحفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » .

روى الإمام البخارى، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: « أقام الرسول ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال، بنى فيها بصفية ، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ١٤٧ .

كان فيها من خبز ولحم،وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت،فألقى عليها التمر والإقط، والسمن،فقال المسلمون:إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ قالوا إن حجبها فهى إحدى أمهات المؤمنين،وإن لم يحجبها فهى مما ملكت يمينه،فلما ارتحل وطألها خلفه ومد الحجاب،فعلمنا أنها إحدى أمهات المؤمنين » [١] .

٩ ـ قصة الشاة المسمومة التى قدمت إلى الرسول ﷺ فى خيبر :

بلغ الحقد منتهاه فى نفوس يهود خيبر على النبى ﷺ والمسلمين، فما كانوا يظنون فى يوم من الأيام أن المسلمين سيفتحون أرضهم ، وينزلونهم على حكمهم، لأن حصون خيبر قوية محكمة ، ورجالها أصحاب قوة وثروة ، فلما فتح الله للمسلمين حصون خيبر ، أرادت زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم أن تغدر بالنبى ﷺ ، فأهدت إليه شاة مسمومة فلما أكل منها ـ عليه الصلاة والسلام ـ شعر بالسم ، فلفظ ما أكله وهو يقول :« إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » وأكل منها البشر بن البراء فمات بعد وقت قصير ، من أكلته التى أكلها ، واستدعى النبى ﷺ المرأة التى وضعت السم ، فقال لها :« ما حملك على ذلك » فقالت : قد بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، ففعلت ما فعلت وقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر . فقال عليه الصلاة والسلام « ما كان الله ليسلطك على » .

وقد وردت روايات فى أن النبى ﷺ أمر بقتلها ،وأخرى فى أنه عفا عنها ، وقد وفق بينهما العلماء، بأنه لم يقتلها أولا ، فلما مات بشر بن البراء قتلها قصاصا منها، وقد احتجم النبى ﷺ ليزول أثر المرض ، وعندما دخلت عليه أم بشر لتعوده، فى مرض موته قال لها :« يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلتها مع بشر بخيبر » .

روى الإمام البخارى ،عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « لما فتحت خيبر ـ واطمأن رسول الله ﷺ ـ بعد فتحها ـ، أهديت إليه شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ بعد أن لاك منها مضغة ثم لفظها :«أجمعوا لى كل من كان ههنا من اليهود»، فجمعوا له،فقال لهم لما اجتمعوا عنده،«إنى سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقى ؟» قالوا :نعم يا أبا القاسم؛فقال رسول الله ﷺ « من أبوكم » :أبو فلان، قال :« كذبتم

---

(١) صحيح البخارى باب (غزوة خيبر) جـ٥ ص ١٧٢ .

أبوكم فلان » قال الحافظ ابن حجر ،أى: إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام »قالوا: صدقت وبررت ، قال:« فهل أنتم صادقى عن شئ إن سألتكم عنه ؟ » قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا، فقال لهم : « من أهل النار ؟ قالوا: نكون فيها زمانا يسيرا ثم تخلفوننا فيها فقال لهم : « اخسئوا فيها - أى اسكنوا سكون ذلة وهوان - والله لن نخلفكم فيها أبدا ، ثم قال لهم هل أنتم صادقى عن شئ إن سألتكم عنه ؟ قالوا: نعم ، قال «أجعلتم فى هذه الشاة سما ؟ » - نسب لهم الجعل لأنهم لما علموا به لم ينكروه - قالوا نعم قال : « فما حملكم على ذلك ؟» قالوا :أردنا إن كنت كذابا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك » (١) .

هذا ، وبفتح خيبر غنم المسلمون كثيرا من الخيرات ، حتى قال عبد الله بن عمر: « ما شبعنا حتى فتحنا خيبر » (٢) وقالت السيدة عائشة : « عندما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر » (٣) .

١٠ - فى أعقاب غزوة خيبر :

فى أثناء محاصرة المسلمين لحصنى الوطيح والسلالم بخيبر ، أرسل النبى ﷺ (محيصة بن مسعود) إلى يهود (فدك) ليدعوهم إلى الإسلام وكان رئيسهم - يوشع بن نون - فلما علموا بسقوط الحصنين السابقين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه أن يصالحوه على نصف أموالهم ، فقبل الرسول ﷺ منهم ذلك ، فكانت أموال فدك خالصة للنبى ﷺ ينفق ما يأتيه منها فيما يراه من المصالح؛ لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من أمر خيبر تجهز للرحيل إلى المدينة عن طريق وادى القُرى ، وهو موضع بقرب المدينة كان به جماعة من اليهود، فلما سمعوا بقدوم المسلمين إليهم تهيأوا للقتال ، وعرض عليهم النبى ﷺ الإسلام فأبوا ، فحاصرهم المسلمون أربعة أيام تقريبا ، فلما استمروا على رفضهم لدعوة الإسلام عبأ النبى ﷺ أصحابه لقتالهم ، وأعطى اللواء لسعد بن عبادة - رضى الله عنه - فبرز رجل

---

(١) صحيح البخارى : (باب إذا غدر المشركون بالمسلمين) جـ ٤ ص ١٢١ .

(٢) صحيح البخارى : (باب غزوة خيبر) جـ ٥ ص ١٧٨ .

(٣) صحيح البخارى : (باب غزوة خيبر) جـ ٥ ص ١٧٨ .

من يهود وادى القُرى يطلب القتال، فقتله الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ ثم برز رجل آخر فقتله أيضا، ثم ثالث فقتله كسابقيه ، ثم برز رجال منهم فقتلهم على التوالى أبو دجانة ـ رضى الله عنه ـ حتى قتل من يهود وادى القرى أحد عشر رجلا، وكان كلما قتل منهم رجل دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام ،وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحصونهم ودماءهم ،وحسابهم على الله ، فلما وجد يهود وادى القُرى أنهم أعجز من أن يقاوموا قوة المسلمين ، استسلموا مع طلوع الشمس من اليوم الثانى من قتالهم ، وأعطوا ما بأيديهم ، وفتحها النبى ﷺ عنوة ، وغنم المسلمون أموالهم، فأصابوا منهم أثاثا ومتاعا كثيرا ، وقسم الرسول ﷺ ما غنمه على أصحابه، وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود وعاملهم عليها، واستخلف على وادى القُرى عمرو بن سعيد بن العاص (١) .

أما يهود تيماء (٢) فإنهم بعد أن علموا بهزيمة يهود وادى القرى خارت قواهم فصالحوا النبى ﷺ على دفع الجزية ، وأقاموا ببلادهم وأرضهم فى أيديهم ، وولى عليهم النبى ﷺ يزيد بن أبى سفيان وكان إسلامه يوم فتحها ، وعاد المسلمون بعد ذلك إلى المدينة وقد استشهد منهم فى تلك المعارك حوالى خمسة عشر شهيدا ، وقتل من اليهود زهاء المائة ، وقد استغرقت تلك المعارك ما يقرب من شهرين قضاها الرسول ﷺ والمسلمون خارج المدينة لإعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ .

١١ ـ النتائج التى ترتبت على فتح خيبر وغيرها من قرى اليهود :

قضت غزوة خيبر على قوة اليهود فى البلاد الحجازية قضاء نهائيا ، ودانوا جميعا لسلطان المسلمين وزال كل ما لهم من نفوذ ومكانة فى شبه جزيرة العرب ، وأصبح المسلمون مطمئنين على مدينتهم من الجهة الشمالية بعد فتح خيبر ، كما اطمأنوا عليها من الجهة الجنوبية بعد صلح الحديبية ،وماتت الفتن، التى كان اليهود يبثونها فى أنحاء الجزيرة العربية،لكيد الإسلام والمسلمين،ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض، التى عاش اليهود عليها حينا من الدهر، يتمتعون بخيراتها دون أن يشكروا نعم الله عليهم،وأيقن أعداء الدعوة الإسلامية بأنها قد أخذت مكانها تحت الشمس،وأن نورها فى طريقه ليعم الآفاق،وعامل الرسول ﷺ بقية اليهود

---

(١) شرح المواهب للزرقانى جـ ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) تيماء بلدة بين المدينة والشام .

الذين لم يجاهروا بعدائهم بالتسامح ، فلم يكلف يهود البحرين إلا أن يدفعوا الجزية ، ورضى من يهود بنى غادية، وبنى عريض أن يدفعوا الجزية، ولهم الذمة ، وأوصى معاذ بن جبل - رضى الله عنه - بألا يفتن يهود اليمن عن يهوديتهم ، وصالح ﷺ يهود (مقتنى وبنى حنينة) على ربع كراعهم وثمارهم، وكتب لهم كتابا بذلك، وعندما طلب يهود خيبر من الرسول ﷺ أن يرد عليهم صحائف التوراة التى وصلت إلى أيدى المسلمين بعد فتح خيبر ، أجابهم إلى طلبهم، وردها عليهم. وفى ذلك يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

إن اليهود حفظوا له - أى للنبى ﷺ - هذه اليد ، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ، ولم يفعل ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولم يفعل ما فعله النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس ،حيث أحرقوا - أيضا - صحف التوراة ، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرنا، وبين رسول الإسلام - عليه الصلاة والسلام [١] .

١٢ - اجلاء اليهود عن جزيرة العرب :

استمر الرسول ﷺ على معاملته الحسنة لليهود، الذين لم يرفعوا رءوسهم بأذى للإسلام والمسلمين ، إلا أنه أوصى قبيل وفاته بإخراج اليهود من جزيرة العرب حتى لا يبقى بها دينان ، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام أقر أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - اليهود بمثل المعاملة التى عاملهم بها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تم إجلاء اليهود عن جزيرة العرب ، تنفيذا لوصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولأنهم ارتكبوا بعض الجرائم فى حق المسلمين ، فقد اغتالوا رجلا من الأنصار، وألقوه فى إحدى الآبار ، واعتدوا على عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وهو نائم ، فعن نافع، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : خرجت أنا والزبير والمقداد بن عمرو إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا ، قال : فعدى علىّ بالليل وأنا نائم على فراشى ففدعت يداى من مرفقى فلما أصبحنا استصرخ على صاحباى ، فأتيانى فسألانى من صنع بك هذا ؟ فقلت لا أدرى ، قال : فأصلحا من يدى ثم قدما بى على عمر

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ١٧٠ .

ـ رضى الله عنه ـ فقال : هذا من يهود ثم قام فى الناس خطيبا فقال : أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان قد عامل يهود خيبر على أننا نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم اعتداءهم على الأنصارى قبله ، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق بى ، فإنى مخرج اليهود . . فأخرجهم .

ولما أخرج عمر ـ رضى الله عنه ـ اليهود من خيبر ركب فى المهاجرين والأنصار وخرج معه جبار بن صخر ، وكان خارص أهل المدينة فحاسبهم ، وقسم خيبر على أهل جماعة الأسهم ثم أجلاهم إلى الشام .

وقد ساق البخارى حديثا طويلا فى كيفية إجلاء عمر ليهود خيبر، فقال حدثنا أبو أحمد ، حدثنا محمد بن يحيى ، أخبرنا مالك عن نافع ،عن ابن عمر ، قال : لما فدع أهل خيبر يدى عبد الله بن عمر ، قام عمر خطيبا فقال : إن رسول الله ﷺ كان قد عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال : نقركم ما أقركم الله ، وإن عبد الله ابن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل، ففدعت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت إجلاءهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى الحقيق فقال : يا أمير المؤمنين . أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا؟

فقال عمر : أتظن أنى نسيت قول رسول الله ﷺ كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة ، فقال : هذه هزيلة من أبى القاسم ، فقال عمر : كذبت يا عدو الله ، فأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر ، مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك (١) .

أما بعد : ففى ختام حديثنا عن هذا الفصل نقول :

إن اليهود قد عاشوا فى الجزيرة العربية مئات السنين ، يأكلون من خيرها ، ويتقلبون على أرضها ، ولو أنهم وقفوا من دعوة الإسلام موقف المسالم لها لما نزل بهم ما نزل من القتل والطرد والإجلاء ، ولكنهم أبو إلا جحودا وعنادا للنبى محمد ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

---

(١) صحيح البخارى : « باب ما يجوز من الشروط » جـ٣ ص ٢٣٨ .

لقد مد الإسلام رواقه على هذه الأرض، بعد أن ظلت حينا من الدهر فى أيدى اليهود يعيشون عليها كما يشتهون.

والعظة التى نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وهو لا ينتزعها من قوم، ويعطيها آخرين محاباة . كلا، ولكن الأمة التى تبطر النعمة تسلبها ، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها، ويشكر الله عليها.

وقد طبق هذا القانون على بنى إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة ، واتبعوا الهوى .. إن الحياة كروفر ،وإقبال ،وإدبار ، والنظرة العجلى إلى تاريخ البشرية توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تتهيأ أمة أخرى لا نتزاعه، والدول التى سادت أشبه بلجج البحر، التى ترتفع حينا ثم لا تلبث أن تضمحل رويداً رويدا ،حتى تنداح على الشاطىء ضعيفة متطامنة ، ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتهبط مستكينة من جديد .

وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترثهما دولة الإسلام الفتى الناهض، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة.

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى فى جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساما ، وما اكتسبت أقطار الأرض الأخرى من بقائهم شيئا ، ربما نالت مزيدا من الحبوب والفاكهة التى يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد، الذى يصدره بنو إسرائيل من معاملات الربا، وأخلاق العهر والتحلل ، أما الإسلام فقد بزغ من الجزيرة يوم بزغ ، رسالة إيمان وإصلاح ، وبما يحمله فى طواياه من حق ونفع استحق الانتصار (١).

ونعود مرة أخرى فنقول :

إن اليهود هم الذين جنوا على أنفسهم، فإنهم ما طردوا من الجزيرة العربية إلا بنقضهم لعهودهم مع المسلمين ، وبمحاربتهم لدعوة الإسلام ، وبجحودهم لرسالة النبى ﷺ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

---

(١) من فقه السيرة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ص ٢٦٥ .

الفصل الخامس
نعم الله تعالى على بني إسرائيل وموقفهم منها

* * *

إن القارئ لكتاب الله - عز وجل - يرى بوضوح فى كثير من سوره آيات عديدة، تتحدث باستفاضة عن ألوان النعم، التى ساقها الله - سبحانه - لبنى إسرائيل ، فهو يذكر تفضيلهم على العالمين ، وإنجاءهم من عدوهم ، وكثرة الأنبياء فيهم ، إلى غير ذلك من وجوه النعم ، وذلك ليحملهم على أن يقوموا بواجب الشكر لخالقهم، الذى حباهم تلك النعم الجليلة ، وليحذرهم من الوقوع فى المعاصى ، لأن الوقوع فيها مع توافر النعم بين أيديهم ، يؤدى إلى العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة ، وليغرس فيهم خلق الحياء، والبعد عن المخالفة ، فإن شعور الإنسان العاقل بمزيد فضل الله عليه ، يدعوه إلى الاستقامة على أمره ، وليطمعهم فى آلاء أخرى ، حيث إن تذكيرهم بالنعم السالفة ،فيه إغراء بأخرى خالفة ، متى اتبعوا الصراط المستقيم، فقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

والملاحظ - أيضا - أن الله - عز وجل - وهو يتحدث عن مظاهر النعم على بنى إسرائيل قد عقبها بموقفهم الجحودى منها، وبما ترتب على موقفهم هذا من قصاص عادل؛ ليتناسب مع ما اقترفوه من آثام ، فكأنه سبحانه - يصورهم وهم يمرون بحالات ثلاث : حالة المن والعطاء ، وحالة الجحود والإباء، وحالة الانتقام والجزاء ، وذلك ليكون فى قصصهم عبرة وعظة ، تهدى الناس إلى أن يقوموا نحو خالقهم بواجب العبادة والشكر ، حتى لا يصيبهم ما أصاب بنى إسرائيل من عقوبات ، جزاء ظلمهم وكنودهم ،وتهالكهم على ارتكاب السيئات .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نتتبع الآيات الكريمة، التى وردت فى هذا الشأن ، فنفسرها، ونبين ما اشتملت عليه من حكم عالية ، وتوجيهات جليلة ، وتصوير صادق لطبائع بنى إسرائيل.

وسنبدأ بآيات كريمة من سورة البقرة ، تناولت بالإجمال والتفصيل طائفة من الآلاء، التى أسبغها الله على بنى إسرائيل ، كما اشتملت أيضا على بعض العقوبات التى حلت بهم ؛جزاء بغيهم وكفرهم ، وهذه الآيات، منها قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ .

صلة الآيات الكريمة بما قبلها : بعد أن ذكر القرآن الكريم الناس جميعا بنعم الله عليهم ، ليحملهم بذلك على إخلاص العبادة له، وتصديق رسوله ﷺ فيما جاء به، ومن بين هذه النعم: خلق آدم، وإظهار فضله على الملائكة ، اتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين المعاصرين للنبي ﷺ وهم بنو إسرائيل ، استمالة لقلوبهم نحو الإيمان به، وبرسوله ﷺ ، وكسرا لعنادهم ولجاجهم ، فقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وإسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وفى إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم ، وحث لهم على الامتثال لأوامر الله ونواهيه ، فكأنه قيل يا بنى العبد الصالح ، والنبى الكريم ، كونوا مثل أبيكم فى الطاعة والعبادة.

ويستعمل مثل هذا التعبير فى مقام الترغيب والترهيب ، بناء على أن الحسنة فى نفسها حسنة، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة، وهى من بيت النبوة أسوأ ، ففى هذا النداء خير داع لذوى الفطر السليمة منهم، إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة ، واستعمالها فيما خلقت له.

ومعنى ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تنبهوا بعقولكم وقلوبكم، لتلك

المنافع، التى أتتكم على سبيل الإحسان منى ، وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم ، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها.

والمراد بالنعمة ، المنعم به عليهم ، وتجمع على نعم ، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الجمع، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فإن لفظ العدد والإحصاء قرينة، على أن المراد بالنعمة: النعم الكثيرة ، ويبدو أن المراد بالنعمة فى الآية التى معنا كذلك: النعم المتعددة ، حيث إنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معهودة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع ـ اعتمادا على القرينة ـ من أبلغ الأساليب الكلامية.

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ بالوفاء بما عاهدهم عليه فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ،كاليمين، والوصية وغيرهما ، ويضاف إلى المعاهد والمعاهَد جميعًا ، يقال : أوفيت بعهدى ، أى: بما عاهدت غيرى عليه ، وأوفيت بعهدك ، أى بما عاهدتك عليه ، وعهد الله : أوامره ونواهيه، والوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، ويندرج فيه كل ما أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ، من اتباع محمد ﷺ متى بعث ، والإيمان بما جاء به من عند الله :وتصديقه فيما يخبر به عن ربه.

والمعنى : وأوفوا بما عاهدتمونى عليه من الإيمان بى ، والطاعة لى ، والتصديق برسلى ، أوف لكم بما عاهدتكم عليه من التمكين فى الأرض، فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده ، فقال تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى :خافونى، ولا تخافوا سواى ، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيتى وحدى ، فإن ذلك يعينكم على طاعتى ، ويبعدكم عن معصيتى.

وحذف متعلق الرهبة للعموم ، أى: ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون ، حتى لا أنزل بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره ، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعدا ووعيدا، وترغيبا وترهيبا.

وبعد أن أمر الله ـ عز وجل ـ بنى إسرائيل ، أن يوفوا بعهده عمومًا أتبع ذلك بأمرهم بأن يوفوا بعهد خاص، وهو القرآن الكريم ، وفى التعبير عنه بذلك: تعظيم لشأنه ، وتفخيم لأمره، وأفرد ـ سبحانه ـ أمرهم بأن يؤمنوا به مع اندراجه فى قوله

تعـالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ للإشارة إلى أن الوفاء بالعهد لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به .

والمراد بما معهم : التوراة . والتعبير عنها بذلك : للأشعار بعلمهم بتصديقه لها والمعنى : آمنوا يا بنى إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوراة، ومن مظاهر هذا التصديق اشتمال دعوته على ما يحقق دعوتها ، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل، والبعد عن الرذائل ، وإخباره بما جاء فيها من الإشارة، إلى بعثة النبى ﷺ ومطابقة ما وصفته به مطابقة واضحة جلية ؛ وهيمنته عليها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « ولو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى » (١) .

وفى إخبار بنى إسرائيل بأن القرآن الكريم مصدق لما معهم ، إثارة لهم - لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه، متدبرين آياته ؛ حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح، المؤدية إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم ، والكفر به كفر بما بين أيديهم ، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد ﷺ المنزل عليه القرآن الكريم .

قال الإمام الرازى : وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبى ﷺ من وجهين :

أولهما : أن الكتب السابقة قد بشرت به ، وشهادتها لا تكون إلا حقا .

وثانيهما : أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبرهم عما فى كتبهم بدون معرفة سابقة لها ، وهذا لايتأتى إلا عن طريق الوحى (٢) .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص ، عرض بهم؛ لتكذيبهم وجحودهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ أى : لا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم فيقتدى بكم أناس آخرون ، وبهذا تصيرون أئمة للكفر ، مع أن من الواجب عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به؛ لأنكم أدرى الناس بأنه من عند الله ، وأكثرهم علما بأنه الرسول، الذى نزل عليه هذا القرآن هو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٣٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٤٢ بتصرف وتلخيص.

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، تبكيتهم على مسارعتهم فى الكفر ، واستعظام وقوع الجحود منهم . وتوعدهم عليه بسوء المآل .

قال الإمام الرازى : هذه الجملة خطاب لبنى إسرائيل قبل غيرهم ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : لا تكفروا بمحمد فإنه سيكون بعدكم كفرة، فلا تكونوا أنتم أولهم ،لأن هذه الأولية موجبة لمزيد الآثم ، وذلك لأنهم إذا سبقوا إلى الكفر ، فإما أن يقتدى بهم غيرهم أولا ، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزره ووزر كل كافر إلى يوم القيامة ، وإن لم يقتد بهم غيرهم أجتمع عليهم أمران : السبق إلى الكفر ، والتفرد به ، وكلاهما منقصة عظيمة ، تؤدى إلى العاقبة الوبيلة (١) .

ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم فقال ـ تعالى ـ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾. والاشتراء هنا استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات ، والمراد بالآيات : البراهين المؤيدة لصدق النبى ﷺ وفى مقدمتها القرآن الكريم والتوراة .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها، من نحو الرياسة والمال والجاه ، وما إلى ذلك من الأمور التى خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول ﷺ .

والمعنى : لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصدقا لما معكم شيئا من حطام الدنيا ، ولا تختاروا على ثواب الله بديلا من الأموال ، فإنها مهما كثرت فهى قليلة مسترذلة، بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص ،من رعاية ضافية فى الدنيا ، وخيرات حسان فى الأخرى .

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات ، إذ لا يكون إلا قليلا، وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله ـ عز وجل ـ.

ونزل تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل ، فكأن الإيمان كان فى حوزتهم ، ولكنهم خلعوه ونبذوه ، مستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير، فباؤا بغضب على غضب ، لكفرهم بالقرآن الكريم ،وبتوراتهم التى بشرت بالرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٤٢ بتصريف وتلخيص.

ثم حذرهم ـ سبحانه ـ من التمادى فى الكفر بما أنزل مصدقا لما معهم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ الإتقاء معناه : الحذر ، يقال : فلان اتقى الله، أى : حذر عقابه وبطشه ، والحذر من عقاب الله يستلزم امتثال أوامره،واجتناب نواهيه ، فمعنى : ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ آمنوا بى، واتبعوا الحق ، وأعرضوا عن الباطل .

وبعد أن نهى القرآن الكريم بنى إسرائيل عن الكفر والضلال ، عقب ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم، فقال تعالى :﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . اللبس ـ بفتح اللام ـ الخلط ، وفعله لبس من باب ضرب ، تقول : لبست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكله ، وحقه بباطله:

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس :

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل، حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾: والثانية: طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهى المشار إليها بقوله تعالى ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾.

وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين؛ لصرف الناس عن الإسلام ، فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم؛ الدالة على صدق النبى ﷺ تأويلا فاسدا ، يخلطون فيه الحق بالباطل، ليوهموا العامة أنه ليس هو النبى المنتظر، وكان بعضهم يلقى حول الحق الظاهر شبها ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى ﷺ والتى لا توافق أهواءهم وشهواتهم ، فنهاهم الله ـ تعالى ـ عن هذه التصرفات الخبيثة.

والمعنى : لا تخلطوا الحق الواضح، الذى نطقت به الكتب السماوية، وأيدته العقول السليمة ، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم ؛إرضاء لأهوائكم ، ولاتكتموا الحق، الذى تعرفونه كما تعرفون أبناءكم؛ بغية انصراف الناس عنه ، لأن من جهل شيئا عاداه ، فالنهى الأول عن التغيير والخلط ، والنهى الثانى عن الكتمان الإخفاء.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية ، أى: وأنتم من ذوى العلم ، ولايناسب من كان كذلك أن يكتم الحق، أو يلبسه بالباطل؛وإذا كان هذا الفعل ـ وهو لبس الحق بالباطل، أو كتمه وإظهار الباطل وحده ـ يعد من كبائر الذنوب،فإن وقعه يكون أقبح، وفساده أكبر،وعاقبته أشأم،متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل.

ففى هذه الجملة الكريمة ، بيان لحال بنى إسرائيل المخاطبين بهذا النهى، وتبكيت لهم ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه عن جهالة ، وإنما عن علم وإصرار على سلوك هذا الطريق المعوج.

قال أبو حيان في البحر : « وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم ، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل ، إذ الجاهل بحال الشيء لايدرى كونه حقا أو باطلا ، وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل [1] ».

وبعد أن أمرهم ـ سبحانه ـ بأصل الدين الذى هو الإيمان به وبرسوله محمد ﷺ أردفه بركنين من أركانه العملية ، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق وانعطفت نفوسهم ،نحو خشية الله وحده ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها مستوفية لأركانها، وشرائطها ،وآدابها ، والمراد بإيتاء الزكاة :دفعها لمستحقيها كاملة غير منقوصة.

والمعنى : عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة، التى هى أعظم العبادات البدنية ، وعلى إيتاء الزكاة التى هى أعظم العبادات المالية ، وأن تخضعوا لما يلزمكم فى دين الله تعالى ،لأن فى محافظتكم على هذه العبادات تطهيرا لقلوبكم ، وتاليفا لنفوسكم ، وتزكية لمشاعركم ، ولأنكم إن لم تحافظوا عليه كما أمركم الله ـ تعالى ـ فسيلحقكم الخزى فى الدنيا، والعذاب فى الأخرى.

هذا ، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة ، وبيان ماشتملت عليه من توجيه سليم ، وتركيب بليغ ، بما قاله أبو حيان فى تفسيره، فقد قال ـ رحمه الله :ـ

« وفى هذه الجمل ـ وإن كانت معطوفات بالواو التى لا تقتضى فى الوضع ترتيبا ـ ترتيب عجيب من حيث الفصاحة، وبناء الكلام بعضه على بعض ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولا بذكر النعمة التى أنعمها عليهم، إذ فى ذلك مايدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته،ثم أمرهم بإيفاء العهد الذى التزموه للمنعم،ثم رغبهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم فى الإيفاء بالعهد،ثم أمرهم بالخوف من نقمه إن لم

---

(١) تفسير « البحر المحيط » لأبى حيان جـ ١ ص ١٨٠ . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ.

يوفوا، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان ، وأمر بالخوف من العصيان ، ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن، ورغب فى ذلك بأنه مصدق لما معهم ،فليس أمرا مخالفا لما فى أيديهم ، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهى عن لبس الحق بالباطل، وعن كتم الحق ، فكان الأمر بالإيمان أمر بترك الضلال : والنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق تركا للاضلال.

ولما كان الضلال ناشئا عن أمرين : إما تمويه الباطل حقا، إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع ، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا ، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم ، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان، وإظهار الحق بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، لأن الصلاة آكد العبادات البدنية ، والزكاة آكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد، والخضوع له تعالى مع جملة الخاضعين الطائعين.

فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم ، واختتامها بالانقياد للمنعم ، وما بينهما من تكاليف اعتقادية، وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف، والاختتام ، يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام ، وهذه الأوامر والنواهى وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فى الصورة، إلا أنها عامة فى المعنى ، فيجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان أن يعمل بها (١) .

وبعد كل هذه الأوامر والنواهى ، وبخهم الله - تعالى - وقرعهم على ارتكابهم لأمور لا تصدر عن عاقل ، وهي أنهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه ، فقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ .

الأمر : طلب إيجاد الفعل ، والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال الخير ، والنسيان : ضد الذكر وهو السهو الحادث بعد حصول العلم ، والعقل : يطلق على قوة في النفس، تستعد بها لقبول العلم ، وإدراك الشيء.

والمعنى : كيف يليق بكم يا معشر اليهود ، وأنتم تأمرون الناس بأمهات

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ١٨١ مطبعة السعادة : الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ.

الفضائل، وألوان الخيرات ، أو تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون به غيركم ، وأنتم مع ذلك تقرءون توراتكم ، وتدركون أى عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه، الذى ترديتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته ؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذوى قرابته ، ولمن بينه وبينه صلة من المسلمين ، أثبت على الذى أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل - يريدون محمداً ﷺ فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولايفعلونه (١) .

والاستفهام المدلول عليه بالهمزة فى قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ . أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يقصد به: التقريع والتوبيخ . والتعجيب من أحوالهم الغريبة.

والمراد بالنسيان فى الآية الكريمة : تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم ، لأن الناسي حقيقة ليس مؤاخذا على ما نسيه، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد الوارد فى الآية الكريمة ، وليس التوبيخ متوجها إلى كونهم كانوا يأمرون الناس بالبر؛ لأنه فعل محمود ، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما يرشدون إليه سواهم، فهم يداوون الناس وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل.

وقوله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ مزيد تقبيح لشأنهم ، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل، الذى قد يتشبث به بعض الفاسقين عن أمر الله، عندما ينكر الناس عليهم فسوقهم.

وفى قوله تعالى: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أسمى أنواع الهداية، والإرشاد السليم ، فإن من ألطف الأساليب فى الخطاب والتوجيه ، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير ، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور ، فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة ، فيذكر له مسدى النصح تلك الصفة فى معرض الاستفهام؛ بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه.

وتطبيقًا لهذا المبدأ نقول : أن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ يعقلون ويدركون الأشياء ، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٣٦٥ : طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٥ سنة ١٩٣٥م.

ولكنهم لم يسيروا على مقتضى ما لديهم من عقول ، حيث كانوا يأمرون الناس بالخير ، ويصرفون أنفسهم عنه ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : إن ما أتيتم من أفعال سقيمة ، يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد، بأنكم لا عقول لكم ، ولا فضيلة لديكم ، وفى هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب فى فعل الخير ، والترهيب من فعل الشر.

ولما كانت الأمور التى كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة ، فقد أرشدهم إلى الوسائل التي تقوى عزائمهم ، وتطهر قلوبهم ، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ الاستعانة : طلب المعونة ، والصبر : حبس النفس على ما تكره، يقال : صبر على الطاعة ، أى: حبس نفسه عليها متحملا ما يلاقيه فى أدائها، من مشاق، وصبر عن المعصية ، أى: كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء.

والمعنى :واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا،والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام،والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر، التى تحجز أنفسكم عن غشيان الموبقات،وبفريضة الصلاة، التى تنهاكم عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ كبيرة : أى صعبة شاقة، يقال كبر الشىء إذا شق وثقل ، ومنه قوله تعالى :﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى: ثقل وصعب ، والخاشعين من الخشوع وهو فى الأصل: اللين والسهولة ، ومعناه فى الآية الكريمة ، الخضوع والاستكانة لله تعالى ، والضمير فى ـإنهاـ للصلاة لعظيم شأنها ،واستجماعها لضروب من الصبر ، والاستثناء مفرغ ، أى: كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين.

والمعنى : إن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين، المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى؛ لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح فى الدنيا، والسعادة فى الآخرى ، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطا وسرورا، يجعل نفوسهم تنشط إليها كلما حل وقتها بهمة وإخلاص.

قال الإمام الرازى : فإن قيل : إن كانت ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين،

فيجب أن يكون ثوابهم أكثر ، وثواب الخاشع أقل، وذلك منكر من القول ؟ قلنا : ليس المراد أن الذى يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع ، وكيف يكون ذلك، والخاشع يستعمل فى الصلاة جوارحه وقلبه ولا يغفل فيها ، وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه بفعل الصلاة أعظم، وإنما المراد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أى :ثقيلة على غير الخاشع ، لأنه لا يعتقد فى فعلها ثوابا ، ولا فى تركها عقابا ، فيصعب عليه فعلها ، فالحاصل أن الملحد لاعتقاده عدم المنفعة فى أدائها ثقل عليه فعلها ، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل على الطبع ، أما الموحد فلما اعتقد فى فعلها أعظم المنافع ، وفى تركها أكبر المضار ، لم يثقل عليه أداؤها ، بل أداها وهو سعيد بها، ألا ترى إلى قول الرسول ﷺ ﴿ جعلت قرة عينى فى الصلاة ﴾ وصفها بذلك لأنها كانت لا تثقل عليه [1] .

ثم وصف ـ سبحانه ـ الخاشعين وصفا يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

الظن : يرد فى أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح ، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع ، وهو المراد هنا ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، وقوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى : علمت إنى ملاق حسابيه .

وملاقاة الخاشعين لربهم معناها :الحشر إليه بعد الموت ، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل .

والمعنى : إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين ، الذين يعتقدون لقاء الله تعالى يوم الحساب ، وأنهم عائدون إليه؛ لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب أعمالهم .

قال ابن جرير ـ مرجحا أن المراد بالظن هنا، العلم واليقين :« إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله ـ تعالى ـ عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه ، والظن شك ، والشاك فى لقاء الله كافر ؟ قيل له : إن العرب قد تسمى اليقين ظنا

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٣٤٩ .

والشك ظنا ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة ، والضياء سدفة ، والمغيث صارخا ، والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمى بها الشئ وضده ، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين قول دُريد بن الصمة : فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج .

يعني بذلك : تيقنوا أن ألفى مدجج تأتيكم ، ثم قال : والشواهد من أشعار العرب وكلاهما على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصي ، وفيما ذكرنا لمن وفق في فهمه كفاية ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ وعن مجاهد قال : « كل ظن في القرآن فهو علم [١] » .

والذين قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقي وهو الاعتقاد الراجح ، فسروا (ملاقاة الخاشعين لربهم) بمعنى : قربهم من رضاه يوم القيامة (ورجوعهم إليه) بمعنى حلولهم بجواره الطيب ، واستقرارهم في جناته ، أي : وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يتوقعون قربهم من ربهم ، ودخولهم جناته عند رجوعهم إليه .

وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف ، فقد قال : « فإن قلت : ما لها لم تثقل على الخاشعين، والخشوع في نفسه مما يثقل ؟ قلت : لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ أي : يتوقعون لقاء ثوابه ، ونيل ما عنده ويطعمون فيه » [٢] .

وإنما كان شعور الخاشعين بذلك كله ظنا لا يقينا ، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب ، ففي وصفهم بأنهم يظنون إشارة إلى خوفهم ، وعدم أمنهم مكر الله تعالى : وهكذا يكون المؤمن دائماً بين الخوف والرجاء .

ومن هذا العرض لمعنى الآية الكريمة يتبين لنا ، أن من فسر الظن هنا بمعنى اليقين والعلم ، يرى أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر إليه بعد الموت، ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم على أعمالهم ، والحشر والمجازاة يعتقد صحتهما الخاشعون اعتقادا جازما .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٦٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٢٣ .

أما من فسر الظن هنا بمعنى: الاعتقاد الراجح ، فيرى أن لقاء الخاشعين لله معناه توقعهم لقاء ثوابه ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته ، وتوقع الثواب والظفر بالجنات يرجح الخاشعون حصولهما؛ لأن مرجعهما إلى فضل الله وحده.

والذى نراه أن الرأى الأول أكثر اتساقا مع ظاهر معنى الآية الكريمة، وبه قال قدماء المفسرين، كمجاهد، وأبى العالية وغيرهما.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة توبيخ أحبار اليهود على نصحهم لغيرهم وتركهم لأنفسهم ، وإرشادهم إلى العلاج الذى يشفيهم من هذا الخلق الذميم ومن غيره متى استعملوه بصدق وإخلاص ، وهذا العلاج يتمثل فى تذرعهم بالصبر ، ومداومتهم على الصلاة . وشكرهم لله - تعالى - على نعمه، التى فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها ، وها نحن نذكرها مرتبه كما ساقها القرآن الكريم.

أولا : نعمة تفضيلهم على العالمين :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

أعاد القرآن الكريم نداءهم ، تأكيدا لتذكيرهم بواجب الشكر، واهتماما بمضمون الخطاب ،وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات ، وتفصيلا لما أسبغه الله عليهم من منن، بعد أن أجملها فى النداء الأول ، ليكون التذكير أتم ، والتأثير أشد، والشكر عليها أرجى.

وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما فى حال ذكر النعم ، لأن تكرارها يغرى النفوس الكريمة بطاعة مرسلها ، والسير على الطريق القويم.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ عطف على نعمتى ، أى: واذكروا تفضيلى إياكم على العالمين ، وهذا التفضيل نعمة خاصة ، فعطفه على (نعمتى) من عطف الخاص على العام؛ للعناية به ، وهو - أى التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها ؛ والمقصود منه: الحض على الاتصاف بما يناسب تلك النعم ، ويستبقى ذلك الفضل.

وقد ذكر الله - تعالى - بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بهذه النعم مع أنها

كانت لآبائهم ، كما يدل عليه سياق الآيات الآتية ، لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم ، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع ، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم ، وحسن سمعة تعود عليهم ، وتغريهم بالإيمان والطاعة ـ لو كانوا يعقلون ـ.

ومن مظاهر ، تفضيل الله لبنى إسرائيل على عالمى زمانهم ، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبى ﷺ ما لم يجمع لغيرهم ، فقد حباهم بكثير من النعم ، وبعث فيهم عددا كبيرا من الأنبياء ، ونجاهم من عدوهم ، ولم يعجل العقوبة عليهم، رغم عصيانهم واعتدائهم ، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم، كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود.

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان ، بل قابلوها بالجحود والطغيان، فسلبها الله عنهم ، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم.

ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التى منحها الله لبنى إسرائيل ، ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران، فأزالها الله عنهم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١).

أى : سل ـ يا محمد ـ بنى إسرائيل المعاصرين لك ، سؤال تقريع وتوبيخ ، كم آتاهم الله على أيدى أنبيائهم من النعم الجليلة،والمعجزات الباهرة ، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات،وتمكنوا منها، وعقلوها،قابلوها بالعناد والإستهزاء، وجعلوها من أسباب ضلالهم ،مع أنها مسوقة لهدايتهم وسعادتهم،فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة فى الدنيا،وتوعدهم بشديد العقاب فى الآخرة.

ومن الآيات التى صرحت بأن الله ـ تعالى ـ أعطى بنى إسرائيل نعما وفيرة ، ولكنهم لم يحمدوه عليها ، قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٢ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١١.

(٢) سورة الدخان .

أى : ولقد نجينا بفضلنا وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين، الذى كان ينزله بهم فرعون وجنده ، بأن أغرقناه ومن معه، أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلوما غشوما ، وفضلا عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل -عن علم منا بما يكون منهم- على عالمى زمانهم، وآتيناهم من النعم والمعجزات ما فيه اختبار لقلوبهم ، وامتحان لنفوسهم ، فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان ، أن كفروا بنعم الله ، وكذبوا برسله وقتلوهم ، فتوعدهم الله فى الدنيا ،بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد.

وأيضا من الآيات التى ساقت أنواعا من نعم الله على بنى إسرائيل، ولكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ﴾ (١) .

والمعنى : ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة؛ لتكون هداية لهم ، ومنحناهم الحكمة والفقه فى الدين، وجعلنا النبوة فى عدد كبير منهم ، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة ، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم، قبل بعثة النبى ﷺ ، وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدى أنبيائهم الكثير من المعجزات، والدلائل، التى تقوى إيمانهم ، وتهديهم إلى الصراط المستقيم ،ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم ، بل جعلوا علمهم بالدين الحق سببا للخلاف والشقاق ، والسير فى طريق الضلال ، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم.

والعبر التى نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها ، أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، ومنحهم الكثير من النعم ، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر ، بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر ، فسلب الله عنهم ما حباهم من نعم ، ووصفهم فى كتابه بأقبح الصفات ، وأسوأ الطباع ، كقسوة القلب ، ونقض العهد ، والتهالك على شهوات الدنيا ، والتعدى على الغير، والتحايل على استحلال محارم الله ، ونبذهم للحق، واتباعهم للباطل . إلى غير ذلك من الصفات ،التى توارد ذكرها فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة الجاثية .

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرا ، لأن الميزان عند الله للتقوى، والعمل الصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : «فإن قيل: إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد ﷺ وهذا باطل، فكيف الجواب ؟ قلنا: الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد فضلتكم على عالمى زمانكم ، وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك، وهو الآن ليس بموجود، لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد ﷺ ما كانت موجودة فى ذلك الوقت، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين فى ذلك الوقت ، أنهم أفضل من الأمة المحمدية، وهذا هو الجواب أيضا عن قوله تعالى : ﴿ **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ وعن قوله تعالى :﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ (١) .

وبهذا يتبين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار ، استناداً إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها ، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص ، ولا يشهد لها العقل السليم.

ثم قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ ، بعد أن ذكرهم ـ سبحانه ـ فى الآية السابقة بنعمة عظمى من نعمه ، حذرهم فى هذه الآية الكريمة من التقصير فى العمل الصالح ، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمى زمانهم، قد يحملهم على الغرور ، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم ولو أذنبوا ، فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك الأوهام بأحكم عبارة، وأجمع بيان.

والمراد باتقاء اليوم وهو يوم القيامة : الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب والحذر منه يكون: بالتزام حدود الله ـ تعالى ـ وعدم تعديها ، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه، كما تقول: مكان مخيف . وتنكير النفس فى الموضعين وهو فى حيز النفى: يفيد عموم النفوس ، أى: لا تقضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئا من الحقوق.

ووصف اليوم بهذا الوصف ، ولم يقل يوم القيامة مثلا ، للإشعار بأن التصرف فى ذلك اليوم لله وحده ، فليس فيه ما اعتاد الناس فى هذه الدنيا، من دفاع بعضهم عن بعض.

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٣٥٥ .

والمعنى : احذروا يا بنى إسرائيل - يوما عظيما أمامكم سيحصل فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله فى جميع الأحوال والإخلاص له فى كل الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما يكن قدرها عظيما عن نفس شيئا ما ، مهما يكن ذنبها صغيراً .

ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يناسب المقام فقال :تعالى ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الضمير فى ﴿ مِنْهَا ﴾ يعود إلى النفس المحاسبة فى ذلك اليوم ، والشفاعة : من الشفع ضد الوتر ، وهى: انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ، أى: لا يقبل منها أن تأتى بشفيق ليحصر لها نفعا ، أو يدفع عنها ضررا .

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيا مطلقا ، ولكن هناك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا ممن أذن له الرحمن فى ذلك ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٢) .

وللجمع بين هذه الآيات ، تحمل الآيات التى تنفى الشفاعة نفيا مطلقا على أنها واردة فى شأن النفوس الكافرة ، وتحمل الآيات التى تبيح الشفاعة على أنها واردة فى شأن المؤمنين، إذا أذن الله فيها للشافعين ، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكو ن له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين ، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخارى، عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وجعلت أمتى خير الأمم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة » (٣).

قال الإمام ابن جرير :« وهذه الآية وإن كان مخرجها عاما فى التلاوة، فإن المراد بها :خاص فى التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ،أنه قال:« شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى .وأنه قال ليس من نبى إلا وقد أعطى دعوة،وإنى خبأت دعوتى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة طه الآية ١٠٩.

(٣) صحيح البخارى . (باب التيمم) جـ١ ص ٨٧ .

شفاعة لأمتى ، وهى نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا » . فقد
بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين ، بشفاعة نبينا محمد ﷺ
عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم ، وأن قوله ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾
هى لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - »[1] .

ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ .

العدل : العوض والفداء ، سمى بالمصدر؛ لأن الفادى يعدل المفدى بمث
القيمة، أو العين ويسويه به ، يقال : عدل كذا بكذا، أى : سواه به .

والمعنى : لا يؤخذ منها فداء،أو بذل فى ذلك اليوم إن هى استطاعت إحـ
على سبيل الفرض والتقدير .

ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى : ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ والنصر هو : الإعا
الحرب، وغيره بقوة الناصر ،وقدم المسند إليه؛ لزيارة التأكيد المفيد أن انتفاء نص
محقق ، فضلا عما استفيد من نفى الفعل، وإسناده للمجهول . وجاء الضمير
قوله تعالى ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ جمعا مع أنه عائد على النفس الثانية المفردة ،
فى معنى نفوس لوقوعها منكرة فى سياق النفى وهو (لا) فى قوله تعالى
تَجْزِي﴾ والنكرة إذا وقعت فى سياق النفى تناولت كل فرد من أفرادها ، و
صارت فى معنى الجمع ، وصح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو (هم) .

والمعنى : أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة .

ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز ، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجـ
فى مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم
كانوا كذلك جاءت هذه الآيه الكريمة؛ لتبطل ما اعتقدوه ، وتقطع ما أمـ
ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة، سوى الإيمان وال
الصالح .

فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها: ﴿ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن
شَيْئًا ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٦٨ .

ونفت انتفاعهم بشفاعة الشافعين يوم الحساب بقولها ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ .

ونفت قبول البدل أو الفداء عما ارتكبوه من خطايا بقولها ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ .

ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاتهم من عذاب الله بسببه ، ما داموا مصرين على كفرهم وجحودهم .

هذا ، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم في التوجيه ،وطريقة فريدة في الإرشاد جمعت بين الترغيب والترهيب ، فإن الآية الأولى ابتدأت بندائهم باسم أبيهم إسرائيل - عليه السلام - الذى هو أصل عزهم ، ومنشأ تفضيلهم؛ لتحيى الشعور بالكرامة فى نفوسهم ، ولتغرس الإحساس بالشرف فى مشاعرهم ، ولتحملهم على الترفع عن الدنايا ، لأن الذى يشعر أنه من منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار ، ثم جاءت الآية الثانية فأرشدهم إلى أن التقوى هى سبب السلامة والفوز ، وحذرتهم من أهوال يوم القيامة، وأفهمتهم بأن انتسابهم إلى أولئك الآباء لن يغنى من الله شيئا يوم الجزاء ، وإنما الذى ينفعهم فى ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام ، التى أتى بها النبى ﷺ وفى ذلك ما فيه من كبح غرورهم ، وإبطال ظنونهم .

ثانيا : نعمة إنجائهم من عدوهم :

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة ثانية جليلة الشأن ، هى نعمة إنجائهم من عدوهم فقال تعالى :﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ اذكروا نعمتى ﴾ فى الآية السابقة ، من باب عطف المفصل على المجمل أى ﴿ اذكروا نعمتى واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ .

وإذْ بمعنى وقت ، وهى مفعول به لفعل ملا حظ فى الكلام، وهو اذكروا أى :

اذكروا وقت أن نجيناكم ، والمراد من التذكير بالوقت : تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .

وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه ، ويطلق غالبا على أولى الخطر والشأن من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الإسكاف .

وفرعون : اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر ، ولملك اليمن تُبَّع .

ويسومونكم : من سامه خسفا إذا أذله واحتقره، وكلفه ما لا يطيق .

والبلاء : الامتحان والاختبار، ويكون فى الخير والشر ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١)

والمعنى : اذكروا يابنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون، الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم، واستئصال لأعقابكم ، وامتهان لكرامتكم ،حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم،وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه ، امتحان لكم بالسراء لتشكروا، ولتقلعوا عن السيئات، التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الأخرى .

قال الإمام الرازى ـ رحمه الله ـ ما ملخصه : « وأعلم أن الفائدة فى ذكر هذه النعمة ـ أى : نعمة انجائهم من عدوهم ـ يتأتى من وجوه أهمها :

١ ـ » أن هذه الأشياء التى ذكرها الله ـ تعالى ـ لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة ، صار تخليص الله ـ عز وجل ـ لهم من هذه المحن من أعظم النعم ، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من بالغ فى إذلالهم ، ولا شك فى أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة فى الطاعة والبعد عن المعصية ، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمها الحجة ، وليقطع عذرهم .

٢ ـ أنهم لما عرفوا أنهم كانوا فى نهاية الذل ، وكان عدوهم فى نهاية العز ، إلا أنهم كانوا محقين وكان خصمهم مبطلا ، لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٥ .

المبطلين، فكأنه تعالى يقول لهم : لا تغتروا بكثرة أموالكم ، ولا بقوة مركزكم ؛ ولا تستهينوا بالمسلمين؛ لقلة ذات يدهم ، فإن الحق إلى جانبهم ، ومن كان الحق إلى جانبه فإن العاقبة لابد أن تكون له » [١]

وخوطب بهذه النعمة اليهود، الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ مع أن هذا الانجاء كان لأسلافهم ، لأن فى نجاة أسلافهم نجاة لهم ، فإنه لو استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم ، ولما بقى هؤلاء الأبناء ، فلذلك كانت منة التنجية تحمل فى طياتها منتين، منّة على السلف لتخلصهم مما كانوا فيه من عذاب ومنّة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ، فكان من الواجب عليهم جميعا أن يقدروا هذه النعمة قدرها ، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذى أنجاهم من عدوهم . ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعاما شاملا لأفرادها، سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه ، ولأن الآثار التى تترتب عليه كثيرا ما يرثها الخلف عن السلف . ولأن فى إخبارهم بذلك تصديق للنبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبرهم بتاريخ من مضى منهم بصدق وأمانة ، وفى ذلك دليل على أنه صادق فى نبوته و رسالته .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون، ولم تجعل منه ، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا له فى إذاقتهم سوء العذاب ، وإنزال ألوان الإذلال والإعنات بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهو فى ظاهره خير - لأن هذا الإبقاء عليهن ، كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن فى الخدمة، وإذلالهن بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل، وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الطيبة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل ، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبته فى ذلك ، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعاً .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة ، فإن المرأة

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٣٦٠ .

لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال . لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد . فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن ، والنجاة فى العظم منها تكون بحسبها .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب ، فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان » [١] .

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء فى قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الأطفال دون البالغين لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه فى اليم، وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء: الرجال لا الأطفال ، لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء ، والنساء هن البالغات .

والذى نرجحه: هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه أتم فى إظهار نعمة الإنجاء ، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعا للنسل ، ويسترقون الأمهات استعبادا لهن ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .

وقد جاءت جملة ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ فى هذه الآية الكريمة بدون عطف ، وجاءت فى سورة إبراهيم معطوفة بالواو [٢] ، لأنها هنا بيان وتفسير لجملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ فيكون المراد من سوء العذاب هنا تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٢) آية سورة إبراهيم، هى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الآية ٦ .

وأما فى سورة إبراهيم فقد جاء سياق الآيات لتعداد المحن التى حلت ببنى إسرائيل، فكان المراد بجملة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ نوعا منه ، والمراد بجملة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ نوعا آخر من العذاب ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى، وإنما هى تمثل نوعا آخر من المحن التى حلت بهم .

هذا ، وقد تكرر تذكير بنى إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم وذلك لجلال شأنها ، ولحملهم على الطاعة والشكر .

١ ـ من ذلك قوله تعالي في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١) .

٢ ـ وقوله تعالي في سورة طه : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٢) .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هى فى معناها، فيها تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم ، حيث أنجاهم ـ سبحانه ـ ممن أراد لهم السوء ، وعمل على قتلهم وإبادتهم ، واستئصال شأفتهم ، وفى ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد فى شكر الله ـ تعالى ـ لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم .

ثالثا : نعمة فرق البحر بهم .

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها تمام الانجاء ، وتجلي فيها إكرام الله لهم ، وهي نعمة فرق البحر بهم فقال تعالى : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ .

والمعنى : واذكروا يابنى إسرائيل من جملة نعمنا عليكم ، نعمة فرق البحر بكم، وانفصاله بعد اتصاله ، حين ضربه موسى بعصاه ، فأصبحت فيه طرقا يابسة متعددة ، فولجتموها،وسرتم فيها؛ هربا من فرعون وجنده،وبذلك تمت لكم النجاة،

---

(١) الآية ١٤١ .

(٢) الآيات من ٨١ ـ ٨٣ .

وحصل الغرق لأعدائكم ، وقت أن عبروا وراءكم، وقد شاهد تموهم والبحر يلفهم بأمواجه ،مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض ،ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ ، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم .

فالآية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بني إسرائيل، وغرق فرعون وقومه، وملخصها .

أن الله -عز وجل- أوحى إلى نبيه موسى -عليه السلام . . . أن يرحل ببنى إسرائيل ليلا من أرض مصر، التى طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى عليه السلام ما أمره به الله تعالى وعلم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام ، فتبعهم بجيش كبير ، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر ، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة ، ولجأوا إلى موسي -عليه السلام- يشكون إليه خوفهم وفزعهم ، ولكنه رد عليهم بقوله : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وأوحي الله إليه: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه: ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ وأمر موسى -عليه السلام- بنى إسرائيل أن يعبروا فعبروا، بين فرقى الماء دون أن يمسهم أذى، واقتفى فرعون وجنوده أثرهم؛ طمعا فى إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر، ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة ، كان فرعون وجنده مازالوا بين فرقى البحر فانطبق عليهم، وعاد كما كان أولا، فغرقوا جميعا وبنو إسرائيل ينظرون إليهم فى دهشة وسرور .

وأسند -سبحانه- فرق البحر إلى ذاته الكريمة ، ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهو معهم بعنايته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ بيان للمنة العظمى، التى امتن بها عليهم ، والتى ترتبت على فرق البحر ، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران : أولهما : نجاتهم : وثانيهما : إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة .

والإيمان الصحيح يقضى بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له ، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر ، وهو زعم لا سند له، ولا دليل عليه .

واقتصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون، أى: جنده وأنصاره ، وصرحت آيات أخرى بغرقه مع آله ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن

مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٢) ومن تمام النعمة أن الله ـ تعالى ـ أهلك مع فرعون كل مناصر له .

وقوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أى : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم ، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم ، وأبلغ فى الشماتة به ، وأرجى لشكر النعمة ، ولا شك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى ، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظمى ، ومعاينته لا نفراق البحر فيها تقوية لإيمانه ، وتثبيت ليقينه ، إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « أعلم أن هذه الواقعة ـ أى : واقعة فلق البحر ـ تضمنت نعما كثيرة على بنى إسرائيل فى الدين والدنيا ، أما نعم الدنيا فمن وجوه :

أولها : أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا فى موقف حرج ، لأن فرعون وجنوده من ورائهم، والبحر من أمامهم ، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم ، وإن هم تقدموا غرقوا ، فحصل لهم خوف عظيم ، جاءهم بعده الفرج، بانفلاق البحر وهلاك عدوهم .

ثانيها : أن الله ـ تعالى ـ خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريما ورعاية لهم .

ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب . وتم لهم الأمن والاطمئنان، وذلك نعمة عظمى؛ لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله ، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا ، لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق، تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل .

وأما نعم الدين فمن وجوه :

أولها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجو د الصانع الحكيم ، وعلى صدق موسى تقترب من العلم الضرورى .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٤٠ .

ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم .

ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله ، فإنه لا عز فى الدنيا أكمل مما كان لفرعون ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل . ثم إن الله - تعالى - في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا ، والذليل عزيزا ، والقوى ضعيفا ، والضعيف قويا وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا ، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل -)[1] .

هذا ، ونعمة فرق البحر لبنى إسرائيل ، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها فى القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهى نعمة فرق البحر بهم - لكى يشكروا خالقهم عليها ، ويتبعوا نبيه محمدا ﷺ ، ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم ، فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا ، والعقوبة فى الآخرة ، جزاء جحودهم وطغيانهم، وما ربك بظلام للعبيد .

رابعا : نعمة عفوه - سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل :

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة، وهى عفوه عنهم رغم جحودهم وكفرهم، وعبادتهم لغيره ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

المواعده : مفاعلة من الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها هنا ، أمر الله - تعالى لموسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة أبى عمرو، وأبى جعفر (وعدنا) وقيل: المفاعلة على بابها على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة، وأمره بالحضور للمناجاة ، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال ، فكان الوعد حاصلاً من الطرفين .

---

(١) تفسير الرازى بتصريف جـ١ ص ٣٦٠ .

وملخص هذه القصة : أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله ، وأغرق عدوهم أمام أعينهم ، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه، فوعده ـ سبحانه ـ أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته ، وبعد انقضاء تلك الفترة، وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه ، اتخذ بنو إسرائيل عجلاً جسدا له خوار، فعبدوه من دون الله، وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقه، فرجع إليهم غاضبًا حزينًا ، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم فلما فعلوا ذلك عفا الله تعالى عنهم لكى يشكروه ، ويلتزموا الصراط المستقيم .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن واعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد ، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل فى غيبته ، ولا شك أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة غير الله ، وبوضعكم الأمور فى غير مواضعها ، ومع هذا فلم نعاجلكم بالعقوبة ، بل قبلنا توبتكم ، وعفونا عنكم ، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى .

وهذا التذكير يحمل فى طياته التعجيب من حالهم ، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة حيث عبدوا فى غيبة نبيهم ما هو مثال فى الغباوة والبلادة وهو العجل .

وفى اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخى الرتبى فى جملة ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إشعار بأنهم قد انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور فى القبح والمعصية، وحذف المفعول الثانى لا تخذتم وهو (إلها أو معبودا) لشناعة ذكره ، ولعلمهم هم بأنهم قد اتخذوه إلها .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ معناه : من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم ، وفى ذلك زيادة تشنيع عليهم ، حيث وصمهم ـ سبحانه ـ بعدم الوفاء ، لأنهم كان من الواجب عليهم ـ لو كانوا يعقلون ـ أن يستمروا على توحيد الله فى غيبة نبيهم لا سيما وقد رأوا من المعجزات والنعم ، ما يطمئن النفوس ، ويقوى الإيمان ويغرس فى القلوب الطاعة لله تعالى .

وجملة ﴿ أَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ حالية،مقيدة لا تخذتم،ليكون اتخاذهم العجل معبودا،مقرونا بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته،وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ معناه: ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة، ومحونا ذنوبكم، لتوبتكم من بعد اتخاذكم العجل معبودا من دون الله، رجاء أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم، وتستعملوا نعمه فيما خلقت له، وتتبعوا رسوله ﷺ.

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان، ما يدل على غباء بنى إسرائيل، وقصر نظرهم؛ لأنهم اتخذوا العجل إلهًا بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبيهم، كما تضمنتا تسلية للرسول ﷺ عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، فكأنه سبحانه يقول له: إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا فى غيبته عجلا جسدا له خوار، دون أن يفطنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين.

خامسا: نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة خامسة فيها صلاح أمورهم، وانتظام شئونهم ألا وهي إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوراه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يابنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة، وفيها الشرائع والأحكام، لكى تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد فى الدنيا، وإلى الفوز بالسعادة فى الآخرة.

فالمراد بالكتاب: التوراة التى أوتيها موسى - عليه السلام - فأل للعهد.

والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل، وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (١) كما يطلق على المعجزة كما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ (٢) أى: المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ١. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٨.

والمراد بالمرقان هنا: التوراة نفسها، ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير ما ملخصه: «وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضوع، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ:

وإذ آتينا موسى التوراة، التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل، فيكون الكتاب نعتاً للتوراة، أقيم مقامها؛ استغناء به عن ذكر التوراة، ثم عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها» (١).

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة، لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان، المقصود منه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ماذا كان موقف بنى إسرائيل من التوراة التى أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم؟ كان موقفهم منها ـ كما هى عادتهم ـ موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك، وشبههم فى تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها، بالحمار الذى يحمل كتب العلم، ولكنه لا يدرى ما فيها. فقال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

حُمّلوا التوراة: أى علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: أى: لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه. والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء.

ومعنى الآية الكريمة: مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة، وكلفوا العمل بأحكامهم ولكنهم لم يعملوا بها، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب، ولكنه لا يدرى ما فيها، ولا يناله من حملها إلا التعب، بئس مثلا مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله، التى تشهد بصدق النبى ﷺ وتذكر صفاته التى لا تنطبق إلا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٨٥ طبعة الحلبى.

عليه، وقد جرت سنة الله - تعالى - فى خلقه ، ألا يهدى إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين ، لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، وباعوا دينهم بدنياهم .

قال صاحب الكشاف : « شبه الله - تعالى - اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - شبههم - بالحمار يحمل أسفارا، أى كتبا كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله وبئس المثل » [1].

وقال الإمام ابن القيم : « شبه الله - تعالى - من حمّله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم لنصوصه - شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدرى ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره ، فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن فترك العمل به ، ولم يؤد حقه ، ولم يرعه حق رعايته [2] .

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة ، وجعلها نورا وهدًى لهم، ولكنهم تركوها ، ولم يعملوا بما فيها ، واستحبوا العمى على الهدى ،﴿ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

سادسا : نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم :

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة ، وهى إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم وإخبارهم بقبول توبتهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٧٥ .

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم (نقلا عن تفسير القاسمى) جـ١٦ ص ٥٨٠٠ .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل ـ لتنتفعوا وتعتبروا ـ وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه بعيدا عنهم ، يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ،وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله ـ تعالى ـ فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم ، فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحا ، واقتلوا أنفسكم؛ لتنالوا عفو ربكم ، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية ، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم ، لأنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده، على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب ، ولأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه، ويستقيم على صراطه الواضح.

وفى نداء موسى ـ عليه السلام ـ لهم بقوله : (يا قوم) تلطف فى الخطاب ليجذب قلوبهم إلى سماعه، وليحملهم على تلقى أوامره بحسن الطاعة وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه ، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم وإنما يريد لهم الخير.

والبارئ هو الخالق للمخلوقات بدون تفاوت أو اضطراب ، فهو أخص من الخالق، ولذا قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ .

وفى هذا التعبير الحكيم ، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارى، الذى أحسن كل شيء خلقه ؛ وفيه أيضا تقريع لهم على غباوتهم ، حيث تركوا عبادة بديع السموات والأرض ، وعبدوا عجلا ضرب به المثل فى الغباوة فقالوا « ابلد من ثور » فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : لقد إتخذتم هذا العجل إلها لتشابهكم معه فى البلادة وضيق الأفق.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت من أين اختص هذا الموضع بذكر البارى؟ قلت : البارئ هو الذى خلق الخلق بريئا من التفاوت ، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ومتميزا بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة، والصور المتباينة ، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة ، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التى هى مثل فى الغباوة والبلادة ، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، ونثر مانظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك ، وغمطوها بعبادة ما لا يقدر على شيء منها (١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أمر من موسى - عليه السلام - لهم بقتلهم أنفسهم، حتى تكون توبتهم مقبولة ، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه ، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى، لأنه تشريع من الله - تعالى -.

والمراد بقتلهم أنفسهم: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه . فيكون المعنى : ليقتل بعضكم بعضا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ أى: فليسلم بعضكم على بعض.

وقيل المراد: أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلا حقيقيا ، حتى يكفر عن ردته بعبادته لغير الله ، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك ، وأن الله - تعالى - رفع عنهم القتل وعفا عمن بقى منهم على قيد الحياة كرما منه وفضلا ، وهذا هو معنى التوبة فى قوله تعالى: ﴿ فتاب عليكم ﴾ ، ومعنى العفو فى قوله تعالى فى الآية السابقة: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيرا من، الآثار، التى تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل ، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : قال الله تعالى لموسى إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم . من لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن ، فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ، ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها . وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول (١) .

وأخرج ابن جرير، عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : « لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى ، فتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه ، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم فقال له : يا بنى الله ادع الله لنا ، وأخذوا بعضديه يشدون يديه ، فلم نزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم . فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى (لا تحزن) أما من قتل منكم فحى عندى يرزق ، وأما من بقى فقد قبلت توبته . فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٩٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٨٧ . طبعة الحلبى.

وجملة ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ تعليلية ، جيء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم ـ عليه السلام ـ واسم الاشارة ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم.

وقال ﴿ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ ولم يقل عنده ، لأن فى هذا التكرير حملا للمخاطبين على التفكر والتذكر والطاعة ، وإشعارا لهم بأن عبادة من برأهم وذرأهم وخلقهم فى أحسن تقويم ، خير لهم فى دنياهم وأخراهم.

وجملة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ جواب لشرط محذوف للإيجاز، أى: فامتثلتم ما أمرتم به فقبل البارى توبتكم ، وهى خطاب من الله ـ تعالى ـ لبنى إسرائيل على لسان موسى، فيه تذكير لهم بنعمته ، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم.

وعطفت هذه الجملة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالفاء ، لإشعارهم بأنه ـ سبحانه ـ لم يتركهم ليستأصلوا أنفسهم جميعا بالقتل ، بل تداركهم بلطفه ورحمته ،فقبل توبتهم ، ورفع عقوبة القتل عمن بقى منهم.

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ إخبار وثناء على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله من عفو ورحمة . وأكدها ـ سبحانه ـ لتنزيلهم منزلة من يشك فى قبول توبته ، لعظم جريمتهم وضخامة خطيئتهم وسيرهم إلى أمد بعيد فى طريق الشيطان.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل ، فإن الله ـ تعالى ـ لطف بهم ، ورحمهم ، وقبل توبتهم ، وعفا عن قتلهم أنفسهم بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم فى توبتهم ، كما تضمنت ـ أيضا ـ تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم ، لأنه لولا عفوه سبحانه عن آبائهم لما وجدواهم ، وفيها كذلك اشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد ﷺ وإغراء اليهود المعاصرين له بالدخول فى الإسلام لأنه إذا كان آباؤهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم فإن شريعة الإسلام تقول لهم : لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم الأغلال التى كانت على أسلافكم ، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون .

سابعا : نعمة بعثهم من بعد موتهم :

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك بنعمة جليلة ، أسبغها الله عليهم رغم مطالبهم

المتعنته ، وهذه النعمة تتجلى في بعثتهم من بعد موتهم ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

جهرة : فى الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والدعاء ، واستعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف . إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات .

والصاعقة : كما قال ابن جرير ـ « كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إجلى هلاك وعطب وذهاب عقل . صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفة ، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقا وهو حى غير ميت قوله تعالى : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ يعنى مغشيًا عليه ،فقد علم أن موسى لم يكن حين غشي عليه وصعق ميتا ، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك ﴾ (١) .

وأصل البعث فى اللغة إثارة الشئ من محله ، وتحريكه بعد سكون ، ومنه بعث فلان الناقة إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعني الإيقاظ كما ورد فى قصة أهل الكهف ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أى : أيقظناكم .

ويستعمل ـ أيضا ـ بمعنى الإحياء وهى المراد فى الآية التى معنا بدليل قوله ـ تعالى ـ ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يابنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم ، وتعنتم فى الطلب ، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة ، لن نؤمن لك ، ولن نقر بما جئتنا به ، حتى نرى الله عيانا وعلانية ، فيأمر بالإيمان بك ، وبما جئت به ، فأخذتكم العقوبة التى صعقتكم ـ بسبب جهلكم وتطاولكم ـ وأنتم تشاهدونها بعيونكم ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحيينا كم من بعد أن أخذتكم الصاعقة ، لكى تشكروا الله على نعمه التى من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٠ طبعة الحلبى.

قال الإمام ابن جرير : ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم ، وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره ما تثلج بأقلها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس ، وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله ، ومرة يعبدن العجل من دون الله ، ومرة يقولون لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، وأخرى يقولون له إذا دعوا إلي القتال : ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ومرة يقال لهم : ﴿حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيقولون حنطة فى شعيرة ، ويدخلون الباب من قبل أستاههم ، مع غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم ، التى يكثر إحصاؤها ، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدا ﷺ وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم الذين فصل عليهم قصصهم فى ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى ، وتوثبهم على نبيه موسى - عليه السلام - تارة بعد أخرى ، مع ابتلاء الله لهم ، وسبوغ آلائه عليهم» (١) .

والقائلون لموسى - عليه السلام - ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ يرى جمهور المفسرين أنهم هم السبعون، الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه ، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأى .

من ذلك ما أخرجه ابن جرير ،عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أنه قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه - وقالوا له أطلب لنا ربك لنسمع كلامه - قال -: سمعوا كلاما ، فقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال : فسمعوا صوتا فصعقوا ، يقول : ماتوا ، فذلك قوله : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذاك عقوبة لهم ، فبعثوا لبقية آجالهم (٢) .

وقال ابن كثير : « الذين قالوا لموسى أرنا الله جهره » المراد بهم: السبعون المختارون منهم ،ولم يحك كثير من المفسرين سواه » (٣) .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٩٨٢ طبعة الحلبى.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٢.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٤ .

وقيل :إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين ، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال فى تفسير هذه الآية : « قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال لهم موسى : « إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم به ، ونهيكم الذى نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابى فخذوه فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت ياموسى ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ : قال فجاءت غضبة من الله - تعالى - فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا جميعا قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** ﴾ .

فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله، فقالوا لا : فقال : أى شئ أصابكم فقالوا : أصابنا أننا متنا ثم أحيينا قال خذوا كتاب الله، قالوا لا، فبعث الله ملائكته، فنتقت الجبل فوقهم » [1] .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا، ثم قال : وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين : أحدهما : أنهم سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق، والثانى : أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف .

قال القرطبى : وهذا هو الصحيح ،لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم، لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أمورا عظاما من خوارق العادات، وهم مع ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم » [2] .

وقال ابن جرير: « ولا خبر عندنا بصحة شئ مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة ، فنسلم لهم ، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه ، فإذا كان لاخبر بذلك تقوم به حجة . فالصواب من القول فيه أن يقال : إن الله - جل ثناؤه ؛ قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له ﴿ **يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ كما أخبر عنهم أنهم قالوه ....» [3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٩٤ . (٢) تفسير ابن كثير ص ٩٤ .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٩٣ طبعة الحلبى.

وفى ندائهم لنبيهم باسمه ﴿ يا موسى ﴾ سوء أدب منهم معه ، لأنه كان من الواجب عليهم ، أن يقولوا له : يا رسول الله أ يانبى الله ، من الصفات التى تشعر بصفات التعظيم والتوقير ، وقد تكررت مناداتهم له باسمه مجردا فى كثير من المواطن .

ومن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ أنهم كانوا يقولون له : يارسول الله ، استجابة لأمر الله - تعالى - فى قوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ .

وقولهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ دليل على تمردهم وعصيانهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من نعم ، وما شاهدوا من معجزات ، إذ أنهم طلبوا منه أن يروا الله عيانا ، فإن لم يروه داخلهم الشك فى صدق نبيهم .

وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية (جهرة) لإزالة احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية ، أو العلم القلبى ، فهم لا يعتقدون إلا بالرؤية الحسية ، لغلظ قلوبهم ، وجفاء طباعهم .

وقوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة ، لأن الفاء تفيد التعقيب .

وجملة وأنتم تنظرون تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها، وفى مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم ، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم ، وإن إصابتهم بهذه العقوبة كان فى حالة إساءتهم، وتمردهم وطمعهم فى أن ينالوا ما ليس من حقهم .

والآية الكريمة تفيد : أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة فى الدنيا، وأنهم علقوا إيمانهم عليها ولم يأبهوا للآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم ، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على ذلك ، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله - تعالى - ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة .

وجملة (ثم بعثنا كم من بعد موتكم) هى محل النعمة والمنة ، وهى معطوفة على قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ ودل العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زمانا تتصور فيه المهلة والتأخير .

والمراد ببعثهم : إحياؤهم من بعد موتهم ، وهو معجزة لموسى ـ عليه السلام ـ استجابة لدعائه .

وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد النبوى ، من محاربة الدعوة الإسلامية ، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها ، وفيهما أيضا تسلية للنبى ﷺ عما لا قاه من اليهود لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم ، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو كانوا يعقلون .

ثامنا : نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم :

ثم عطف ـ سبحانه ـ على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى بل نعمتين ، وهما تظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى ، فقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

الغمام : جمع غمامة ،وهى السحابة ، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .

والمنّ : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهو ـ على أرجح الأقوال ـ مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : اسم جنس جمعى واحدته سلواه ، وهو طائر برى، لذيذ اللحم سهل الصيد يسمى بالسمانى ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، كان في مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قال السدى :لما دخل بنو إسرائيل التيه ، قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ كيف لنا بما هاهنا ، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمان أكبرمنه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه ، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟

فأمر الله ـ تعالى ـ موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل الله عليهم الغمام ، فقالوا هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ... ﴾ (١) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يابنى إسرائيل من بين نعمى عليكم نعمة إظلالكم بالغمام وأنتم فى التيه؛ ليقيكم حر الشمس ، وحرارة الجو ، ونعمة منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله ، وقلنا لكم كلوا من طيبات مارزقناكم ،واشكروا ربكم الذى رزقكم هذه النعم ، ولكنكم كفرتم بها فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شئ ، لأن الخلق جميعا لن يبلغوا ضرى فيضرونى، ولن يبلغوا نفعى فينفعونى .

فالآية الكريمة قد أشارت إلى حجودهم النعمة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وما ظلمونا ﴾ معطوف على محذوف ، أى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير ، وأن جملة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل .

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة ﴿ كَانُوا ﴾ والفعل المضارع ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم . لأنك لا تقول فى ذم إنسان « كان يسئ إلى الناس » إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الآخرى .

قال الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ما ملخصه . (هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهرة على ما ترك منه ، وذلك أن معنى الكلام :كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا فاكتفى بما ظهر عما ترك ، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أى : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ، ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها فإن الله ـ تعالى ـ لا تضره معصية عاصى ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٧ .

ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل) (١) .

هذا ، ونعمة تظليل بنى إسرائيل بالغمام قد تكررت فى القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم وهى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه ، ولذا أرسل الله عليهم رجزا من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم .

تاسعا : نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك :

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك بمنة عظيمة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها ؛ وما رعوها حق رعايتها ـ وهى تخليصهم من عناء التيه ، والإذن لهم فى دخول بلدة يجدون فيها الراحة والهناء ، وإرشادهم إلى القول الذى يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه ـ فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

القرية : هى البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها بيت المقدس على الراجح

والرغد : الواسع من العيش الهنئ الذى لا يتعب صاحبه ، يقال أرغد فلان . إذا أصاب واسعا من العيش الهنئ .

الحطة : من حط بمعنى وضع ، وهى مصدر مراد به طلب حط الذنوب .

قال صاحب الكشاف : (حطة) فعلة من الحط كالجلسة ، وهى خبر مبتدأ

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٩٨ طبعة الحلبى.

(٢) الآيتان ١٦١ ، ١٦٢.

محذوف ، أي: مسألتنا حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات [1] ..» .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل ـ لتتعظوا وتعتبروا ـ وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ، وأبحنا لهم أن يأكلوا من خيراتها أكلا هنيئا ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين شكرا لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه سبحانه بأن يحط عنكم ذنوبكم ،فإذا فعلتم ذلك العمل اليسير ، وقلتم هذا القول القليل ، غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم ، وزدنا المحسن منكم خيرا جزاء إحسانه ، ولكنهم جحدوا نعم الله ، وخالفوا أوامره ، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر أتو به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ وفتحها الله عليهم عشيه جمعه ، وقد حسبت لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد (سجدا) أى: شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال [2] .

وقوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها ، حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا .

وقوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم ، بأيسر الطرق وأسهل السبل ، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين ، وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ، ويمحوا سيئاتهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٨ .

وقوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم ، وإغراء لهم على الإمتثال والشكر ، لو كانوا يعقلون ـ لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب .

قال الإمام ابن جرير : يعنى بقوله تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ، ونسترها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها . وأصل الغفر: التغطية والستر ، فكل ساتر شيئا فهو غافر ... والخطايا : جمع خطيئة ـ بغير همز ـ كالمطايا جمع مطية ... » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن ، أى من كان منكم محسنا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئا نغفر له خطيئاته .

وقد أمرهم ـ سبحانه ـ أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين ، وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم ، لأن تغلبهم على أعدائهم ، ودخلوهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، نعمة من أجل النعم ، وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لكى يزيدهم من فضله ، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر .

ولهذا كان النبى ﷺ يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب ، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا ، وأنه لخاضع لربه ، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرا لله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمان ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح :

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمان ركعاب عند أول دخولها شكرا لله ـ تعالى ـ وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى ، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمان ركعات .

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح ؟

إنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله ، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله ، بل خالفوا ما أمروا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٢ .

به من قول وفعل ،ولذا قال تعالى ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ أخرج البخارى، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : « قيل لبنى إسرائيل ادخلو ا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا، ودخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة فى شعيرة » (١) .

قال الإمام ابن كثير : « وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق ، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعى رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا حطة ، أى أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا : حنطة فى شعيرة؛ وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته » (٢) .

فقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ بيان للسبب، الذى من أجله نزل عليهم العذاب ، وتوبيخ لهم على مخالفتهم أوامر الله ـ تعالى ـ لأن تبديل الشئ معناه تغييره، وإزالته عما كان عليه، بإعطائه صورة تخالف التى كان عليها .

والفعل (بدّل) يقتضى بدلا ومبدلا منه ، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل ـ وهو القول الذى لم يقل لهم ـ دون ذكر المبدل منه ـ وهوالقول الذى قيل لهم ـ والتقدير فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به، قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان .

قال صاحب الكشاف : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى وضعوا مكان حطة قولا غيرها ، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة ، فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذا به ، كما قالوا مكان حطة : نستغفرك ونتوب إليك أو اللهم اعف عنا وما أشبه ذلك » (٣) .

---

(١) صحيح البخارى . باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) جـ ٦ ص ٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٩ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٨ .

والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة ، أن من أمره ـ تعالى ـ بقول أو فعل ، فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله ، دخل فى زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء المصير .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله ـ تعالى ـ والرجز ـ فى لغة العرب ـ هو العذاب ، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .

وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه، وأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها ، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم . ولم يقل القرآن « فأنزلنا عليهم » بالإضمار ، وإنما قال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالإظهار ، تأكيدا لوصفهم بأقبح النعوت وهوالظلم ، وإشعارا بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم وظلمهم .

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن بنى إسرائيل مكنوا من النعمة، فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها ، وأرشدوا إلى القول الذى يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل ، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله ، حرمانهم من تلك النعمة إلى حين ، ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم ، وفى هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة لهم لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة ، وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه أيضا تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم .

عاشرا : نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش :

ثم ذكّرهم ـ سبحانه ـ بعدذلك بنعمة من أجّل نعمه عليهم ، وهى إغاثتهم فى التيه بالماء بعد أن اشتد به العطش ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

الإستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أوحبس المطر ، وذلك عن طريق الدعاء لله ـ تعالى ـ فى خشوع واستكانة . وقد سأل موسى ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد به العطش ، عندما كانوا فى التيه [1] ، فعن ابن عباس أنه قال : «كان ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها» [2] .

وهذه النعمة كانت نافعة لهم فى دنياهم ، لأنها أزالت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا ، وكانت نافعة لهم فى دينهم ، لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله ، وعلى قدرته وعلمه ، ومن أقوى البراهين على صدق موسى ـ عليه السلام ـ فى نبوته .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم فى صحراء مجدبة ، فتوسل إلى نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فى خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذى يكفيهم ، فأجبناه إلى ما طلب ، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر ففعل فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط ، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره ، وقلنا لهم تمتعوا بما من الله به عليكم منْ مأكول طيب ومشروب هنئ رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على مافعلتم نادمين .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى ـ عليه السلام ـ ، وحده لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه ، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله ـ تعالى ـ له ، حيث أجاب سؤاله ، وفجر الماء لهم ببركة دعائه .

واللام فى قوله ـ تعالى ـ لقومه للسببية . أى لأجل قومه .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ عطفت الجملة بعدها على محذوف، والتقدير فأجبناه إلى ما طلب وقلنا اضرب بعصاك الحجر .

وأل فى ﴿الْحَجَرَ﴾ لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين. وقيل

---

(١) وقيل كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على انه كان فى التيه أصح وأكثر.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠٠ .

للعهد ، ويكون المراد حجرا معينا معروفا لموسى عليه السلام بوحى من الله تعالى، وقد أورد المفسرون فى ذلك آثارا حكم المحققون بضعفها ولذلك لم نعتد بها .

والذى نرجحه أنها لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا إن تفجر الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى -.

والفاء فى قوله تعالى ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ كسابقتها للعطف على محذوف تقديره : فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح دلالة المعنى عليها.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا ، لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطا ، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الإثنى عشر ، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر.

وقال - سبحانه - هنا ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ وقال فى سورة الأعراف ﴿ فانبجست ﴾ والإنبجاس: خروج الماء بقلة ، والإنفجار، خروجه بكثرة ، ولا تنافى بينهما فى الواقع، لأنه انبجس أولا ، ثم انفجر ثانيا ، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ إرشاد وتنبيه إلى حكمة الإنقسام إلى اثنتى عشرة عينا أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه ، فلا يتعداه إلى غيره ، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ مقول لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشرب - لأنه قد تقدمه إنزال المنّ والسلوى ، وقد قيل هنالك ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة فى غير ما وضعت له بعد أن أذن لهم فى التمتع بالطيبات ، لأن النعمة عندما تكثر قد تنسي العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة ، ويعيث فى الأرض فسادا . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ .

والمعنى : ولا تسعوا فى الأرض مفسدين ، وتقابلوا النعم بالعصيان فتسلب عنكم.

قال ابن جرير -رحمه الله- : « وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد ، يقال منه : عثى فلان فى الأرض : إذا تجاوز الحد فى الإفساد إلى غايته ، يعثى عثا مقصور ، ويقال للجماعة يعثون » [1] .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة ، ونصحتهم بأن يعملوا على شكرها ، وحذرتهم عاقبة الإفساد فى الأرض.

حادى عشر : نعمة شمول الله إياهم بفضله وبرحمته رغم نقضهم للمواثيق

ثم ذكّرهم -سبحانه- بنعمة شمولهم برحمته وفضله ، رغم توليهم عن طاعته ، ونقضهم لميثاقه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : (وكان سبب أخذ الميثاق عليهم ، فيما ذكره ابن زيد ، ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال ابن زيد لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذى أمركم به ونهيه الذى نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ، لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابى فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى فيقول : هذا كتابى فخذوه ، قال : فجاءت غضبه من الله ، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعا ، قال : ثم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة الحلبى.

أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا لا : قال : أى شيء أصابكم ؟ قالوا متنا جميعا ثم حيينا قال : خذوا كتاب الله ، قالوا لا فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا نعم ، هذا الطور ، قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، قال : فأخذوه بالميثاق قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق » (١) .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا - يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتنتفعوا ، وقت أن أخذنا عليكم جميعا العهد بأن تعبدوا الله وحده ، وتتبعوا ما جاءكم به رسله ، وتعملوا بما في التوراة ، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديدا لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته ، وقلنا لكم جميعا خذوا ما آتيناكم في كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد ، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هديه ، لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولكن الذى حصل منكم جميعا أنكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم، فتركتم تعاليم كتابكم وآذيتم أنبياءكم ، ولولا أن الله - تعالى - رأف بكم، ووفقكم للتوبة ، وعفا عن زلاتكم ، لكنتم من الهالكين في دنياكم وآخرتكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة في الآيات السالفة ، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما في التوراة ، من الأمور العائد عليهم نفعها .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ أى : أعليناه وجعلناه فوق رءوسكم كالظلة .

والطور : اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رءوسهم ، وقد تكرر تذكيرهم بذلك في كثير من الآيات ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

قال الإمام القرطبى : ﴿ نَتَقْنَا ﴾ أى : زعزعناه فاستخرجناه من مكانه ، وكل

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧١ .

شيء قلعته فرميته به فقد نتقته ، وقيل : ﴿ نَتَقْنَا ﴾ رفعناه ، قال ابن الأعرابى : الناتق : الرافع » (١) .

وقال فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله - عند تفسيره للآية الكريمة : « وأخذ الميثاق عليهم كان قبل رفع الجبل فوقهم ، على ما جاء ترتيب النظم ، ورفع الجبل لأشهادهم آية من آيات الله تقوى إيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله ، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما فى الكتاب المنزل بجد وعزم واجتهاد » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ مقول لقول محذوف دل عليه المعنى ، والتقدير : وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى تمسكوا به ، واعملوا بما فيه بجد ونشاط ، وتقبلوه بحسن استعداد ، وبدون تقصير أو تردد .

والمراد بما ﴿ آتَيْنَاكُم ﴾ التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونورا لهم . وقوله تعالى . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أى : احفظوه ، وتدبروه وتدارسوه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشىء منه .

قال الإمام القرطبى : وهذا هو المقصود من الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب - ، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ : « إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه » (٣) .

(ولعل) فى قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إما للتعليل ، فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة ، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وآجلتكم وإما للترجى ، وهو منصرف إلى المخاطبين ، فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه ، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

وقوله تعالى ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق ، الذى أخذ عليهم ، ونبذ له خلف ظهورهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٣٦ .

(٢) مجلة لواء الإسلام السنة الثانية العدد السابع ص ٤ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٣٧ .

والمشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أخذ الميثاق عليهم ، وقبول ما أوتوه من الكتاب ، المعنى ، ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتى بعد أخذ الميثاق عليكم ، ومشاهدتكم للآيات التى تستكين لها القلوب ، لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى : ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ تصريح بما حباهم به - سبحانه - من رأفه بهم ، وقبول لتوبتهم ، وعفو عن خطيئاتهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إنكم بأعراضكم عن طاعتى ، ونقضكم لعهدى ، وإهمالكم العمل بكتابى ، وعدم تاثركم بآياتى ونذرى ، قد استحققتم غضبى وعذابى ، ولكن حال دون حلولهما بكم ، فضلى الذى تدارككم، ورحمتى التى وسعتكم ، ولطفى وإمهالى لكم ، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم ، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم.

وبذلك تكون الآيتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود للنعمة ، ونقض للعهد ، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم ، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ .

جحودهم للنعمة واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود للنعمة واستخفافهم بها ، وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير فقال تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ .

الصبر : حبس النفس على الشئ بمعنى إلزامها إياه ومنه الصبر على الطاعات ، أو يطاق على حبسها بمعنى كفها ، ومنه الصبر عن المعاصى . والطعام : ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى . والبقل : ما تنبته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما . والفوم : قيل هو الثوم ، وقيل هو الحنطة . والقثاء : نوع من المأكولات أكبر حجما من (الخيار) .

قال ابن جرير : وكان سبب مسألتهم موسى ـ عليه السلام ـ ذلك فيما بلغنا عن قتادة، أنه قال : كان القوم فى البريه قد ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، فملوا ذلك ، وذكروا عيشا كان لهم بمصر ، فسألوه موسى فقال الله تعالى ﴿ **اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم** ﴾ (١) .

ثم ساق ابن جرير رواية ، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن فى البرية ،بل كان فى التيه فقال : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : أنبأنا ابن زيد قال :

كان طعام بنى إسرائيل فى التية واحداً ، وشرابهم واحداً ، كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المن ، وطعامهم طير يقال له السلوى ، يأكلون الطير ويشربون العسل ،لم يكونوا يعرفون خبزا ولا غيره ، فقالوا يا موسى : إنا لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها فقرأ حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ **اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم** ﴾ (٢) .

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف ـ فى تفسيرهما ـ على أن سؤالهم لموسى ـ عليه السلام ـ كان فى التيه.

قال أبو حيان ،عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد** ﴾ . (لما سئموا من الاقامة فى التيه ، والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التى ألفوها ، وعن العوائد التى عهدوها ، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك ، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون ، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم(٣)) .

وقال صاحب الكشاف : كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عكرهم (٤) فاجموا ـ أى ملوا وكرهوا ـ ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء ﴿ **على طعام واحد** ﴾ أرادوا ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى (٥) .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩ .
(٣) تفسير ابن حيان جـ ١ ص ٢٣١ .
(٤) فنزعوا إلى عكرهم : اى: حنوا إلى اصلهم وعادتهم.
(٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧ .

ومعنى الآية الكريمة إجمالا : واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم ، وفساد أذواقهم ، وإعناتهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ حيث قالوا له ببطر وسوء أدب : لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت ، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها ، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى ، فوبخهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ بقوله : أتختارون الذى هو أقل فائدة، وأدنى لذة ، وتتركون المن والسلوى، وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة ؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار، فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهها.

وأحاطت ببنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه ، وحق عليهم غضب الله.

ثم بين الله ـ تعالى ـ السبب فى جحودهم للنعم، وفى أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأنزل عليهم غضبه بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ الخ أى : أن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم ، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية ، والسجية الثابتة ، فليس غريبا على مثل هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على نعمة المن والسلوى ، وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم.

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم ، لا يقدر النعمة قدرها، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موقفهم الجحودى منها ، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقاتهم ، وفيه إشعار بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ إذا عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف (لن) المفيد تأبيد النفى فقالوا (لن نصبر .. الخ) فكأنهم يقولون له مهددين ، ليلجئوه إلى دعاء ربه سريعا : إننا ابتداء من هذا الوقت الذى نخاطبك فيه إلى أن نموت ، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد ،لأننا قد سئمناه ومللناه ، ولن نعود إليه: فالتعبير (بلن) يشعر بشدة ضجرهم ، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها.

قال الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ « بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا

عليه ، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه . وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقل وفوم) [1] .

ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان ، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات ، والعرب تقول لمن يجعل على مائدته فى كل يوم ألوانا من الطعام لا تتغير ، إنه يأكل من طعام واحد .

وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم ، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وكذلك دعاء الصالحين ، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله ، فيلاقى من الإجابة ما لا يلاقيه دعاء نفوس تستهويها الشهوات ؛ وتستولى عليها السيئات .

وقولهم ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ولم يقولوا ربنا ، لعدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم ، ولأنه - سبحانه - قد اختصه بما لم يعط مثله لهم من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة .

وقولهم : ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلام - وهو فى معنى مقول قول محذوف والتقدير : أى قل لربك يخرج لنا .

وجاء التعبير بالفعل ﴿ يُخْرِجْ ﴾ مجزوما ، مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : ﴿ أن يخرج ﴾ للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه ، حتى لكأن إخراج ماتنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه ، وأنه لو لم يدع لهم ، لكان شحيحا عليهم بما فيه نفعهم [2] .

والجملة الكريمة : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ من مقول موسى - عليه السلام - لهم ، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم ، وضعف عقولهم، لإيثارهم الأدنى وهو البقل، وما عطف عليه ، على ما هو خير منه، وهو المن والسلوى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠١ .

(٢) تفسير (التحرير والتنوير) جـ١ ص ٥٠٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور . طبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٦٤ .

قال ابن جرير عنده تفسيره للآية الكريمة : « أى قال لهم موسى : أتأخذون الذى هو أخس خطرا وقيمة وقدرا من العيش ، بدلا بالذى هو خير منه خطرا وقيمة وقدرا ، وذلك كان استبدالهم ، وأصل الاستبدال : هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك ، ومعنى قوله ﴿ أَدْنَى ﴾ أخس وأوضع وأصغر قدرا وخطرا ، وأصله من قولهم : هذا رجل دنيّ بين الدناءة وإنه ليدنى فى الأمور ـ بغير همز ـ إذا كان يتبع خسيسها ، ثم قال : ولاشك أن من استبدل بالمن والسلوى : البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم ، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه » (١) .

ثم أضاف موسى ـ عليه السلام ـ إلى توبيخهم السابق على بطرهم وجحودهم توبيخا آخر فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى : إذا كان هذا هو مرغوبكم ، فاتركوا هذا المكان ، وانزلوا إلى مصر من الأمصار ، لكى تجدوا ما سألتمونى إياه من البقل والفوم وأشباههما ، لأن ما اخترتموه لا يوجد فى المكان الذى حللتم به ، وإنما يوجد فى الأمصار والقرى.

وقوله تعالى : ﴿ مِصْراً ﴾

قال ابن كثير : « هكذا هو منون مصروف مكتوب الألف فى المصاحف الأئمة العثمانية ،وهو قراءة الجمهور بالصرف » (٢) .

وقال ابن جرير : « فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين: ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ وهى القراءة التى لا يجوز عندى غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين، واتفاق قراءة القراء على ذلك . . » (٣) .

وقال أبو حيان فى البحر : « وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب (مصر) بغير تنوين ، وقد وردت كذلك فى مصحف أبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود ، وبعض مصاحف عثمان ـ رضى الله عنه ـ » (٤) .

والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصرا من الأمصار؛ لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى ،وإنما يكون فى القرى والأمصار ، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١ .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٥ .

(٤) تفسير أبى حيان جـ ١ ص ٢٣٣ .

والمعنى على القراءة الثانية : اتركوا المكان الذى أنتم فيه ، واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب ، فإنكم تجدون فيها ما تبغونه ، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ، ولا ترتاحون للفضائل النفسية ، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر فى الآية الكريمة ؛ مصر فرعون ؛ قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ .

وقوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾ .

قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك ، وجعلها لهم ، فلم يكونوا يرثونها ثم لاينتفعون بها ، ولايكونون منتفعين إلا بمصير بعضهم إليها .

قال ابن جرير : « ومن حجة من قال إن الله - تعالى - انما عنى بقوله : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ أى : مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها ، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبنى إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر ، وإنما ابتلاهم بالتيه ، بامتناعهم على موسى فى حرب الجبابرة، إذ قال لهم : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .. إلى قوله تعالى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ . فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا - دخولها حتى هلكوا فى التيه وابتلاهم بالتيهان فى الأرض أربعين سنة ، ثم أهبط ذريتهم الشام ، فأسكنهم الأرض المقدسة ، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع (يوشع بن نون) بعد وفاة موسى بن عمران فرأينا أن الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ،ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها ، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ ونتأوله أنه ردهم إليها. قالوا : فإن احتج محتج بقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ؟ قيل لهم . فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك ، فملكهم إياها ولم يردهم إليها ، وجعل مساكنهم الشام »[1] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢١٤ .

قال أبو حيان في البحر : « ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر » [1] .

ومع أن ابن جرير ـ رحمه الله ـ قد رد على من قال ، إن المراد بالمصر مصر فرعون ، استناداً إلى قراءة غير الجمهور إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين ،فقد قال : « والذى نقول به فى ذلك : أنه لا دلالة فى كتاب الله ـ تعالى ـ على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر ، وأهل التأويل متنازعون تأويله ، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه الله ـ تعالى ـ فى كتابه وهم فى الأرض تائهون ، فاستجاب الله لموسى دعاءه، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه فرارا من الأرض التى تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك ، إذ كان الذى سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار، وأنه قد أعطاهم ذلك إذا صاروا إليه ، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر ، وجائز أن يكون الشام [2] » .

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير ، نرى أنه لم يقطع برأى فى المكان الذى أمر بنو إسرائيل بالهبوط فيه ، وأنه يرى أن الله ـ تعالى ـ قد استجاب لموسى ـ عليه السلام ـ دعاءه ، وأن موسى وقومه قد هبطوا ـ فعلا ـ إلى قرار من الأرض التى تنبت البقول وأشباهها .

وقد عارض الإمام ابن كثير فى تفسيره رأى ابن جرير، فقال :

وهذا الذى قاله ـ أى: ابن جرير ـ فيه نظر ، والحق أن المراد: مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك ، لأن موسى ـ عليه السلام ـ يقول لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ، ولهذا قال: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى: ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم [3] .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٤ .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٤ .

وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير ـ رحمه الله ـ يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى ـ عليه السلام ـ لم يسأل ربه إجابة طلبهم ، لأنهم كانوا متعنتين بطرين، والله ـ تعالى ـ يكره من كان كذلك ،وأن قول موسى ـ عليه السلام ـ لهم ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ من باب التوبيخ والتجهيل لهم ، إذا ليس حولهم حينئذ بلد قريب يستطيعون الوصول إليه.

هذا ، والذى نرجحه فى هذا المقام هو ماذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتى:

أولا : أن القراءة بالتنوين متواترة : وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها ، وهذه القراءة المتواترة ، نص فى أن المراد من مصر ، أى بلد كان ، لا مصر فرعون ، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون ، وذلك لأن الأمصار، التى تنبت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر ، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكانهم بعداً شاسعا ، ويتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون.

ثانياً : لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، كما قال أبو حيان وغيره ، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر ، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين، ولكنهم أبوا طاعة نبيهم ـ عليه السلام ـ فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين ، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعا فى التية ، وبقى أبناؤهم ، فامتثلوا أمر الله ـ تعالى ـ وهبطوا إلى الشام. وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

ثالثاً : ليس فى الآية ما يشعر بأن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم ،فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم، ولو من طريق الإشارة ؟

رابعاً : دخولهم فى التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين، ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه ، كما يشعر بذلك قوله تعالى ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ فكيف يخرج السجين من سجنه، تلبية لبعض رغباته المنكرة ، وبناء على ذلك يكون الأمر فى قول موسى لهم : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ للتهديد والتوبيخ والتجهيل.

ثم بين - سبحانه - العقوبات التى حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى: ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ .

ضرب الذلة والمسكنة عليهم: كناية عن لزومهما لهم ، وإحاطتهما بهم ، كما يحيط السرادق بمن بداخله.

قال صاحب الكشاف : « جعلت الذلة محيطة بهم ، مشتملة عليهم ، فهم فيها كمن يكون فى القبة من ضربت عليه ، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة » [١] .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشده يقال : ضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها ؛ وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق.

والذلة : على وزن فعله ، من قوله القائل : ذل فلا يذل ذلة وذلا ، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة.

والمسكنة : مفعلة من السكون ، ومنها أخذ لفظ المسكين ، لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفاقه والفقر ، والمراد بها فى الآية ، الضعف النفسى ، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص ، فيجعله يحس بالهوان ، مهما تكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينهما وبين الذلة ، أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج ، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى: هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق ، واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وتوارث الذلة قرونا طويلة ، يورث هذه المسكنة ، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الخص المستذل . ولقد عاش اليهود قرونا وأحقابا مستعبدين لمختلف الأمم ، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفا نفسيا جعلهم لايفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة ، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية، مادامت تجلب لهم غرضا من أغراض الدنيا ، ومهما كثر المال فى أيديهم ، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى، وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧ .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ، ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم ، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء ، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة .

قال ابن جرير - رحمه الله - «يعنى بقوله تعالى: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال باءوا إلا موصولاً إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوأ وبواء ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ يعنى: تنصرف متحملهما ، وترجع بهما قد صارا عليك دونى ، فمعنى الكلام إذا، ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم منه سخط» (١) .

وقال صاحب الكشاف : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ من قولك باء فلان بفلان ، إذا كان حقيقا بأن يقتل به لمساواته له ومكافاته ، أى: صاروا أحقاء بغضبه (٢) .

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة واستحقاقهم غضب الله وسخطه ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ . الجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك ؟ فكان الجواب ، فعلنا بهم ذلك بسبب جحودهم لآيات الله ، وبسبب قتلهم لأنبيائه ، وخروجهم عن طاعته، ومجاوزتهم حدوده . والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية ، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهى التى يسميها علماء التوحيد المعجزات ، وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات ، ومرنوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع (يكفرون) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى: ويقتلون أنبياء الله، الذين ابتعثهم مبشرين ومنذرين ، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - لأنهما أبيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢١٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧ .

وقال ـ سبحانه ـ ﴿ بغير الحق ﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبداً ، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر في شريعتهم لأنها تحرمه ، ﴿ أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ . فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم ، وتقبيح إجرامهم ، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ في الفهم ، أو تأول في الحكم ، أو شبهة في الأمر ، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا ، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا ، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم [١] .

وقال الإمام الرازي : « فإن قيل : قال هنا : ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ وقال في آل عمران ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ فما الفرق ؟ قلت : إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل يتجلى في حديث : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : (كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق) فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا ،وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم، أي لم يكن هناك أي حق يستندون إليه ، لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره البتة » [٢] .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

العصيان : الخروج عن طاعة الله ، والاعتداء : تجاوز الحد الذي حده الله ـ تعالى ـ لعباده إلى غيره ، وكل متجاوز حد شيء إلى غيره، فقد تعداه إلى ما جاوز إليه وللمفسرين في مرجع اسم الاشارة (ذلك) رأيان :

أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد مرنوا على عصيانهم لخالقهم ، وتعديهم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله ـ تعالى ـ وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ١ ص ٣٩٠ .

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى ، وارتكاب المناهى، وتجاوز الحدود المشروعة ، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود لما استمرؤا المعاصى ، وداوموا على تعدى الحدود ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكذيبا وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق.

والثانى : يرى أصحابه أن اسم الإشارة الثانى يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول، وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصا على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم لغضب الله ـ تعالى ـ كما بينا . والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة ، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا ، وقتلهم أنبياءنا ، وخروجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب فقد بدأ ـ سبحانه ـ بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته ، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه ، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء ، وتخطى الحدود ، وعدم المبالاة بالعهود ، وهذا الترتيب من لطائف القرآن الكريم فى سوق الأحكام ، مشفوعة بعللها وأسبابها.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بجحود النعم ، وسوء الأدب وحمق التفكير ، وهوان النفس ، وبلادة الطبع ، وبطر الحق ، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم ، وما وصفتهم به أيدته الأيام، وصدقته الأحداث، فى كل زمان ومكان.

أما بعد : فهذا طرف من النعم الجليلة التى حباها الله لبنى إسرائيل ، ولقد كان من الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر ، فكانت نتيجة ذلك أن سلبها الله ـ تعالى ـ عنهم ، وعاقبهم على جحودهم بما يستحقون ، وسنفصل القول فى العقوبات التى عاقبهم الله بها جزاء ظلمهم وفسوقهم ، بعد أن نتعرض فى الفصلين التاليين لبيان رذائلهم ودعاواهم الباطلة، كما حكاها القرآن الكريم.

الفصل السادس
رذائل اليهود كما يصورها القرآن الكريم

إن القارىء للقرآن الكريم يرى بوضوح أنه قد سجل على بنى إسرائيل كثيرا من الأخلاق السيئة ، والطباع القبيحة ، والمسالك الخبيثة .. فقد وصفهم بالكفر والجحود والأنانية والغرور ، والجبن والكذب ، واللجاج والمخادعة ، والعصيان والتعدى ، وقسوة القلب ، وانحراف الطبع ، والمسارعة فى الإثم والعدوان ، وأكل أموال الناس بالباطل ، إلى غير ذلك من الرذائل التى سجلها القرآن الكريم عليهم ، واستحقوا بسببها الطرد من رحمة الله ، وضرب الذلة والمسكنة عليهم ..

وإن هذه القبائح التى سجلها القرآن عليهم ، يراها الإنسان واضحة جلية فيهم على مر العصور، واختلاف الأمكنة ، ولم تزدهم الأيام إلا رسوخا فيها وتمكنا منها، وتعلقا بها.

وهذه بعض رذائلهم نعرضها إجمالا ، ثم نفسر الآيات الكريمة، التى تحدثت عن ذلك تفصيلا :

أولا : نقضهم للعهود والمواثيق.

ثانيًا : سوء أدبهم مع الله - تعالى - وعداوتهم لملائكته ، وقتلهم لأنبيائه.

ثالثًا : جحودهم الحق ، وكراهتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد .

رابعًا : تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى.

خامسًا : نبذهم لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام الشيطانية .

سادسًا : تحريفهم للكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به .

سابعًا : حرصهم على الحياة، وجبنهم عن الجهاد فى سبيل الله.

ثامنًا : طلبهم من نبيهم موسى أن يجعل لهم إلها كما لغيرهم آلهة.

تاسعًا : عكوفهم على عبادة العجل .

عاشراً : تنطعهم فى الدين، وإلحافهم فى المسألة .

وهاك الكلام مفصلا عن كل واحدة من هذه الرذائل، التى دمغهم القرآن الكريم بها .

أولا : نقضهم للعهود والمواثيق

صفة نقض العهود من الصفات التى دمغ القرآن الكريم بها اليهود فى كثير من آياته، والمتتبع لتاريخهم قديما وحديثا يرى أن هذه الرذيلة تكاد تكون طبيعة فيهم، فقد أخذ الله عليهم كثيرا من المواثيق، على لسان أنبيائه ورسله، ولكنهم نقضوها ، وعاهدهم النبى ﷺ غير مرة ، فكانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة .

وفى سورة البقرة آيات كريمة صرحت بأن اليهود قد نقضوا - إلا قليلا منهم - العهود، التى أخذها الله عليهم بأن يعبدوه، ويعملوا صالحا ، وهذه الآيات منها قوله تعالى :

أولا : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ .

ومعنى الآية إجمالا : واذكروا يا بنى إسرائيل؛ لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله ، وأمرناكم فيه كذلك ، بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق ، وأن تصلوا أقرباءكم، وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم ، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم ، وأمرناكم فيه - أيضا - بأن تقولوا للناس قولاحسنا فيه صلاحهم ونفعهم ، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة ، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة ، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق ، وأعرضتم عنه ، إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه .

والمراد ببنى إسرائيل فى الآية الكريمة : سلفهم وخلفهم ، لأن هذه الأوامر والنواهى التى تناولتها الآيات الكريمة ، والتى هى مضمون العهد المأخوذ عليهم ، قد أخذت عليهم جميعا على لسان أنبيائهم ورسلهم .

والدليل على أن المقصود ببنى إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوى . قوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين ، والإعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم ،كما سيأتى .

وقوله تعالى ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ.. ﴾ بيان للميثاق وتفصيل له . وجاء التعبير بقوله تعالى: ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ فى صورة الخبر المنفى، والمراد منه النهى عن عبادة غير الله ، لإفادة المبالغة والتأكيد ، فكأن الأمر والنهى قد امتثلا فيخبر بوقوعهما ، أو أنهما لأهميتهما يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة حتما ، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع ، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما أمر به، ومجتنب لما نهى عنه فى الحال ، وفى ذلك ما فيه من إفادة المبالغة، فى وجوب امتثال الأمر والنهى .

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريدا من التوجيه المحكم، الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق ، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله ـ تعالى ـ عليهم ، بأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا ، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان، وهما الوالدان ، لما لهما من فضل الولادة، والعطف والتربية ، ثم بالأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب أو الأم ، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة ، ثم باليتامى لأنهم فى حاجة إلى العون، بعد أن فقدوا الأب الحانى ، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم ، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، لأن الناس إن لم يكونوا فى حاجة إلى المال ، فهم فى حاجة إلى حسن المقال . ثم أرشدتهم إلى العبادات، التى تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق، فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر ، ولعظم شأن هاتين العبادتين: البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله ، تفخيما لشأنهما؛ وتوكيدا لأمرهما ، وكان

من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة ، لكنهم عموا وصموا عنها ، فوبخهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ .

أى : ثم توليتم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من مواثيق ، فأشركتم بالله وعققتم الوالدين ، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين، وقلتم للناس أفحش الأقوال ، وتركتم الصلاة ، ومنعتم الزكاة ، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ ﴾ إنصاف لمن حافظ على العهد منهم ،حيث إنه لا تخلو أمة من المخلصين الذين يرعون العهود ، ويتبعون الحق ، وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين، فى الأمة ، لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر فى الأكثرين منها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملة حالية تفيد أن الإعراض عن الطاعة ، وعدم التقيد بالمواثيق، التى أقروا بها عادة متأصلة فيهم ، ووصف ثابت لهم ، وسجية معروفة منهم .

قال صاحب المنار : « قد يتولى الإنسان منصرفا عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه ، فليس كل متول عن شيء معرضا عنه، ومهملا له على طول الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد : ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ لازما لابد منه ، وليس تكرارا كما يتوهم .. ثم قال : وقد كان سبب ذلك التولى مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه ، فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله ، يحلون برأيهم، ويحرمون ، ويبيحون باجتهادهم، ويحظرون، ويزيدون فى الشرائع والأحكام ، ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنه اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فإن الله هو الذى يضع الدين وحده، وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه ، وما شرع على السنة رسله »[1] .

وخلاصة الفرق بين التفسير الذى بدأنا به، وبين تفسير صاحب المنار ، لقوله

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٧٠ .

تعالى ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة فى القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية ، والمعنى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى أعرضتم وأنتم قوم عادتكم الإعراض . وعلى تفسير صاحب المنار تكون هذه الجملة مبينة لنوع التولى ومتممة لمعناه . والتفسير الأول ـ الذى سقناه ـ أدخل فى باب الذم ، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود.

ثانيًا : قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾ (١).

بعد أن بين ـ سبحانه ـ فى الآية السابقة أن الله ـ تعالى ـ قد أخذ على بنى إسرائيل عهدا بأن يعبدوه، ويؤدوا فرائض الله ، إلا أنهم نقضوا هذا العهد، وتولوا عنه سوى قليل منهم ، بعد ذلك بين فى هذه الآيات الكريمة أنه ـ سبحانه ـ أخذ عليهم عهدا آخر، ولكنهم نقضوه كما هو دأبهم.

وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة : أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضا ، وألا يخرج بعضهم بعضا من داره ، وأنهم إذا وجدوا أسيرا منهم فى يد غيرهم، فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر ، وتخليصه من أيدى أعدائهم ، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتى : الأوس والخزرج ، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس ، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج ، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب حلفائها أبناء ملتهم المنضمون إلى حلفائهم الآخرين ،فإذا وضعت الحرب أوزارها ، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم، كما أمرهم الله ـ تعالى ـ وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب، وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى ، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم . ويحكى التاريخ أن العرب كانوا

---

(١) سورة البقرة .

يعيرونهم فيقولون لهم : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم ؟ فكان اليهود يقولون : قد حرم علينا قتالهم ،وكلنا نستحيى أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

وقد توعدهم - سبحانه - بالخزى فى الدنيا والآخرة ، جزاء نقضهم لعهوده ، وتفريقهم بين أحكامه.

والمعنى الإجمالى للآيات الكريمة : واذكروا - أيضا - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأوصيناكم فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل ، وبألا يخرج بعضكم بعضا من مساكنهم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد ، والالتزام بما جاء فيه ، ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق، وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه ، خرجتم على تعاليم التوراة ، فنقضتم عهودكم ، وأراق بعضكم دماء بعض ، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم ظلما وعدوانا ، وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرابتكم ، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم، وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم ، فلم لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم ،وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم ؟ وكيف تستبيحون القتل ،والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدى عدوهم ؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا ، والعذاب الدائم فى الأخرى ، وما الله بغافل عما تعلمون . ولا شك أن أولئك اليهود الذين نقضوا عهودهم ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، قد باعوا دينهم بدنياهم ، فلا يخفف عنهم العذاب، ولا هم ينصرون.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ معناه : اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بنى إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره ، وألا يخرجه من دياره ، على حد قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ [1] أى : فليسلم بعضكم على بعض .

وفائدة هذا التعبير : التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين ، يجب أن يكون

---

(١) سورة النور : الآية ٦١

شعورها بالوحدة قويًا وعميقا ، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه ، وإخراجه له من داره إخراجا لها .

قال صاحب المنار : « وقد أورد - سبحانه - النهى عن سفك بعضهم دم بعض ، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكد وحدة الأمة ، وتحدث فى النفس أثرًا شريفًا ، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ، ووجدان يتأثر فقال تعالى :

﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه، وانتحر بيده ، وقال تعالى : ﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ على هذا النسق ، وهذا التعبير المعجز - ببلاغته - خاص بالقرآن الكريم »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تسجيل عليهم ،بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق، والتزموا به ، إذ المعنى :

ثم اعترفتم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه ، فكان من الواجب عليكم أن تفوا به ، فماذا كان موقفهم بعد هذا الإقرار والإشهاد ؟

لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك أنهم نقضوا عهودهم ، وارتكبوا ما نهوا عن ارتكابه ، فقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ..﴾ أى : ثم أنتم - يا معشر اليهود - بعد اعترافكم بالميثاق ، والتزامكم به ، نقضتم عهودكم ، وارتكبتم فى حق إخوانكم ما نهيتم عنه ، من القتل والإخراج ، وفعلتم ما لا يليق بالعقلاء ، ويحترم المواثيق.

ولما كان قتل بعضهم لبعض ، وإخراجهم من أماكنهم يحتاج إلى قوة وغلبة ، بين - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك ، وهم متعاونون عليه بالشرور ومجاوزة الحدود، فقال تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أى: تتعاونون على قتل إخوانكم وإخراجهم من ديارهم، مع من ليسوا من أقاربكم وليسوا على دينكم ، وأنتم مرتكبون فى ذلك الإثم والعدوان.

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٧٢ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ بيان لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله ـ تعالى ـ.

أى : أنتم ـ يا معشر اليهود ـ إن وجدتم الذين قاتلتموهم، وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكاكهم ، وتبذلون عوضا لإطلاقهم ، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم ،كتركهم أسرى فى أيدى أعدائكم ، فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم، كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ بضمير الشأن للاهتمام بها ، والعناية بشأنها ، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم ، وليس خافيا عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله .

والمعنى : أفتتبعون أحكام كتابكم فى فداء الأسرى ، ولا تتبعونها فى نهيكم عن قتال إخوانكم، وإخراجهم من ديارهم ؟ فالاستفهام للانكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه ـ تعالى ـ بالإيمان ببعضها، والكفر بالبعض الآخر.

وبعض الكتاب الذى آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرى فى أيدى عدوهم ، وبعضه الذى كفروا به هو ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار ، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : « وإنما سمى ـ سبحانه ـ عصيانهم بالقتل، والإخراج من الديار كفرا ، لأن من عصى أمر الله ـ تعالى ـ بحكم عملى معتقدا أن الحكمة والصلاح فيما فعله ، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج ، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب ، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين ، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه ، يدخل فى زمرة الكافرين؛ لأن الإيمان كل لا يتجزأ » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ العقاب الدنيوى والأخروى، الذى استحقه أولئك المفرقون

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة الثانية .

لأحكامه فقال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مشار به إلى القتل والإخراج من الديار ، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيا وكفرا، والخزى فى الدنيا، هو الهوان والمقت والعقوبة ، ومن مظاهره : ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة، بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم ، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر ، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار ، وتلك سنة الله فى كل أمة لا تتمسك بدينها ،ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها .

ولما كان البعض قد يتوهم أن خزيهم فى الدنيا قد يكون سببا فى تخفيف العذاب عنهم فى الأخرى ، نفى ـ سبحانه ـ هذا التوهم ، وبين أنهم يوم القيامة سيصيرون إلى ما هو أشد منه ، لأن الله ـ تعالى ـ ليس ساهيا عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها .

فالمراد من نفى الغفلة نفى ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شرورهم .

وفى ذلك دليل على أن الله ـ تعالى ـ يعاقب الحائدين عن طريقه المستقيم ، بعقوبات فى الدنيا ، وفى الآخرة ، جزاء طغيانهم ، وإصرارهم على السيئات .

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

والمعنى : أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله ، وباعوا دينهم بدنياهم، وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرا .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود بنقضهم للعهود ، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين .

ثالثـًا : وفى سورة المائدة آيتان كريمتان صرحتا بأن الله ـ تعالى ـ أخذ على بنى إسرائيل الميثاق، بأن يقوموا بما أمرهم به من تكليف ، ولكنهم نقضوه وخالفوه ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ

نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ .

الميثاق : العهد الموثق، الذى أخذه الله على بنى إسرائيل ، لكى يؤدوا ما كلفوا به، وليعملوا بما تضمنته التوراة، التى أنزلها الله - تعالى - على نبيهم موسى.

والنقيب : كبير القوم، القائم بأمورهم ، سمى بذلك؛ لأنه ينقب عن أحوالهم ويفتش عنها [١] .

والمعنى : ولقد أخذ الله العهود الموثقة على بنى إسرائيل ، ليعملن بما فى التوراة، وليحافظن على ما كلفهم به، من صلاة وزكاة ،وطاعة للرسل فى المنشط والمكره ، واختار منهم زعماءهم الاثنى عشر؛ ليراقبوا أحوالهم الدينية ، وليطلعوا على أحوال الجبارين ،الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة، التى كتبها الله لهم ، وأمرهم بدخولها.

وتفصيل ذلك ، أن الله - تعالى - بعد إغراقه لفرعون وجنده أمام أعين بنى إسرائيل أمر نبيه موسى أن يسير بهم إلى الأرض المقدسة [٢] ، التى كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال الله لهم : إنى جعلتها لكم وطنا، ودار هجرة، فاخرجوا إليها،وجاهدوا من فيها، وإنى ناصركم عليهم،وأمر الله - تعالى - موسى - أيضا - أن يختار منهم اثنى عشر نقيبا على حسب بطونهم، ليكون هؤلاء النقباء كفلاء على بطونهم فى تنفيذ ما أمرهم به نبيهم ، ففعل موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه.

وقبل أن يصل موسى - عليه السلام - إلى الأرض المقدسة بعث هؤلاء النقباء إليها، ليتحسسوا أخبار القوم الجبارين ،الذين يسكنون تلك الأرض، وليسبروا

---

(١) قال القرطبى : « النقَّاب الرجل العظيم الذى هو فى الناس على هذه الطريقة ، ومنه قيل فى عمر - رضى الله عنه - إنه كان لنقابا ، فالنقباء الضمان ، وأحدهم نقيب ، وهو شاهد القوم وضمينهم ، وإنما قيل نقيب لانه يعلم دخيلة امر القوم ويعرف مناقبهم ، وهو الطريق إلى معرفة امورهم ، والنقيب أكبر مكانة من العريف » باختصار جـ ٦ ص ١١٢.

(٢) قيل المراد بها : بيت المقدس - وهو الراجح - وقيل المراد بها :الشام ، وقيل :اريحاء وقيل،سيناء ، وقيل غير ذلك.

قوتهم ومنعتهم ، وأمرهم عند عودتهم أن يخبروه بما شاهدوه ؛ وألا يطلعوا بقية القوم على أحوال سكان تلك الأرض وقوتهم ، حتى لا تضعف مقاومتهم ، وتخور عزائمهم.

فلما اطلع النقباء على أحوال الكنعانيين وجدوا منهم قوة عظيمة ، جعلتهم يتهيبون قتالهم ، وأخبر عشرة منهم عند عودتهم بنى إسرائيل بما شاهدوا ، ففت في أعضادهم ، وأبوا طاعة نبيهم في قتالهم ، وقالوا له : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ .

وبذلك نرى أن نقباء بنى إسرائيل كانوا أول من نقض العهد في هذه القصة، ولم يستمر على الوفاء إلا اثنين منهم، هما ـ يوشع بن نون ، وكالب بن يفنه ـ.

وقد تعرضنا لهذه القصة بالتفصيل عند تفسيرنا للآيات الكريمة، التى وردت فيها (١) .

وإنما اختار ـ موسى ـ عليه السلام ـ اثنى عشر نقيبا من بنى إسرائيل بعدد بطونهم ـ ليكونوا رقباء عليهم ، لأنهم قوم قد توالت عليهم القرون ، وهم تحت حكم فرعون وظلمه،فانحلت إرادتهم، وتزعزعت ثقتهم بأنفسهم ، وضعف في نفوسهم الأثر بالفضائل،فكان لابد لهم من مذكر مستمر بينهم، يكفكف من أطماعهم إذا رغبوا،ويرفع من معنوياتهم إذا رهبوا،حتى تتربى إرادتهم،وتقوى عزائمهم.

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ معناه : أحيط بمكنون نفوسكم ، وأعينكم بنصرى وتأييدى ، متى قيدتم أنفسكم بعهدى ، واتبعتم رسلى ، وسرتم على الطريق المستقيم، الذى رسمته لكم.

فالجملة الكريمة فيها تحذير لهم من المعصية ، لأنها لا تخفى عليه ـ سبحانه ـ وفيها وعد عظيم لهم بالنصر متى أطاعوه ، ومن كان الله معه فلا شيء يقوم أمامه ، ومهما يكن من شيء يعاديه فهو كالهباء إلى جانب قوة الله التى لا تغلب.

ثم بين ـ سبحانه ـ الميثاق المؤكد الذى أخذه عليهم، في جملة شرطية مؤكدة بالقسم، تضمنت خمسة أمور، فقال تعالى : ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم

---

(١) راجع تفسير الآيات الكريمة في مبحث (حرصهم على الحياة وجبنهم عن الجهاد) من هذا الفصل.

بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾.

فأول : هذه الأمور الخمسة التى تضمنها الميثاق « إقامة الصلاة » بمعنى : المداومة عليها، وأدائها على الوجه الأكمل، بخضوع وخشوع.

وثانيها : « إيتاء الزكاة » لمستحقيها ، لأنها فريضة بها يتحقق التكافل الإجتماعى بين عباد الله ، وبها يتولد التعاون والمحبة بين الأغنياء والفقراء.

وثالثها : بينه - سبحانه - بقوله ﴿ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ﴾ أى : صدقتموهم جميعا فيما يجيئونكم به من الوحى ، وأذعنتهم جميعا فيما يدعونكم إليه ، بدون تفريق أو تمييز ، لأن رسالة الله - تعالى - واحدة ، ورسله جميعا جاءوا بشرع واحد فى أصله ، ولا خلاف بينهم فيه إلا فى بعض فروعه.

وأضاف - سبحانه - الرسل الكرام إليه ، لتعظيم شأن رسالاتهم وتأكيدها ، وللإشارة إلى أن الإيمان بهم جميعا واجب ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن عصاهم فقد عصاه.

ورابعها : بينه الله - تعالى - بقوله : ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ قال الراغب :« التعزير: النصرة مع التعظيم . .) فالمراد من الآية الكريمة ونصرتم رسلى، وقويتموهم، ووقرتموهم ودفعتم عنهم كل من يتعرض لهم بسوء.

وخامسها : بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى : أنفقتم فى سبيل نصرة الحق ،الذى جاءت به الرسل ،ووقفتم إلى جانب حماته، تنصرونهم بأموالكم ،كما تنصروهم بأنفسكم.

هذه هى الأمور الخمسة التى تضمنها ميثاق الله الذى أخذه على بنى إسرائيل فى جملة شرطية مؤكدة بالقسم ، وقد بين الله - تعالى - جواب القسم بقوله :

﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ . وهذا الجواب يتضمن وعدين كريمين لهم متى وفوا بعهودهم ، وهما غفران ذنوبهم فى الدنيا ، وإسعادهم برضاه وجناته فى الأخرى.

ثم بعد أن فتح الله لهم باب كرمه إن وفوا بعهودهم ، حذرهم من نقض عهوده وجحود نعمه بقوله : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى :فمن

جحد منكم شيئا مما أمرته به فتركه ، أو عمل شيئا مما نهيته . أو نقض عهده معى؛ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم ، فقد بعد عن السبيل المستوية. وأخطأ الطريق الواضح، وسار فى متاهات الضلال، التى لا هداية فيها، ولا خير معها.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت » من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سواء السبيل » فلم قال :﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ ؟ قلت : أجل من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل . ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم . لأن الكفر إنما عظم قبحه؛ لعظم النعمة المكفورة . فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر، وبلغ النهاية العظمى [1] .

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد بينت أن الله ـ تعالى ـ قد أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات، التى كلفهم إياها ، ورغبهم فى الوفاء به ، وحذرهم من النقض والخيانة له فماذا كان موقفهم منه ؟

كان موقفهم منه أن نقضوا هذا الميثاق ، فلم يقوموا بأداء التكاليف، التى كلفهم الله بها ، وأساءوا إلى رسل الله غاية الإساءة ، فقتلوا فريقا منهم ، وكذبوا فريقا آخر. وخانوا النبى ﷺ الذى أمرتهم كتبهم بنصرته، وحاولوا قتله ،وخيارهم ونقباؤهم لم يكونوا أقل نقضا للعهود من عامتهم ، ولذلك طردوا جميعا من رحمة الله ، وأصبحت قلوبهم قاسية عاتية لا تعي خيرا ولا تفعله ، وقد بين الله ذلك بقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ .

والمعنى : فبسبب نقضهم للميثاق الذى أخذناه عليهم ، والتزموا بأحكامه طردناهم من رحمتنا، واستحقوا مقتنا وغضبنا ، وجعلنا قلوبهم غليظة قاسية عاتية، منزوعة منها الرأفة والرحمة ، نائية عن قبول الحق ، منصرفة عن الانقياد للآيات ، وذلك لأنهم لما مردوا على النقض للعهود، ودرجوا على العصيان والمخالفة، صلبت قلوبهم ،وجمدت نفوسهم، فصارت لا تتأثر بالمواعظ ، ولا تلين للآيات والنذر.

وفى وصفهم بذلك الوصف ، تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من اليهود المعاصرين له، من غدر وأذى، ونقض للعهود.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٠٨ .

ولذا قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة : « يقول - جل ثناؤه - لنبيه محمد ﷺ يا محمد : لا تعجبن من هؤلاء اليهود الذين همّوا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك، ونكثوا العهد الذى بينك وبينهم ، غدرا منهم بك، وبأصحابك ، فإن ذلك من عاداتهم وعادات سلفهم ، ومن ذلك أنى أخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى - عليه السلام - على طاعتى، وبعثت منهم اثنى عشر نقيبا، قد تخيروا من جميعهم؛ ليتحسسوا أخبار الجبابرة، ووعدتهم بالنصر عليهم ، وأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم بعدما أريتهم من العبر والآيات ما أريتهم ، فنقضوا ميثاقهم، الذى أوثقونى به ، ونكثوا عهدى ، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم ، فإذا كان ذلك من فعل خيارهم مع أيادى عندهم ، فلا تستنكر مثله من فعل أراذلهم »(١) .

هذا ، والقراءة المشهورة ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ بالألف على وزن (فاعله) مأخوذة من القسوة ، تقول : قسا قلبه يقسو فهو قاس: إذا غلظ واشتد ، وصار يابسا صلبا .

وقرأ حمزة، والكسائى : ﴿وجعلنا قلوبهم قسيّة﴾ بتشديد الياء من غير ألف على وزن فعيلة ، وللمفسرين فى معناها رأيان : أحدهما : أن (قسيه) بمعنى (قاسيه) غير أن فيها مبالغة ، لأنها على وزن فعيله ، فهى تدل على تمكن صفة القسوة فيها . والثانى : أن معنى (قسيه) هنا غير معنى (قاسية) وإنما هى فى هذا الموضع مأخوذة من قولهم درهم قسى - على وزن شقى - أى: فاسد ردىء .

والمعنى على هذا الوجه :« وجعلنا قلوبهم إيمانها ليس خالصا ، وإنما يخالطه كفر ونفاق، كالدراهم القسيه التى يخالط فضتها غش،من نحاس أو رصاص أو غيرهما .

قال ابن جرير : « وأولى التأويلين عندى بالصواب ، تأويل من تأول فعيلة من القسوة، كما قيل : نفس زكية وزاكية ، وامرأة شاهدة وشهيدة ، لأن الله - تعالى - وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به ، ولم يصفهم بأى شيء من الإيمان ، حتى تكون قلوبهم موصوفة بإيمان يخالطه كفر ، كالدراهم القسيهة التى يخالط فضتها غش »(٢) .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٥٣ طبعة الحلبى.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٥٥ .

وأما صاحب الكشاف : فقد رد التفسير الثانى إلى الأول ، وجعل بينهما تعانقا وتلازما فى المعنى ، فقال : وقرأ عبد الله (قسية) أى : ردية مغشوشة ، من قولهم درهم قسى، وهو من القسوة ، لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين ، والمغشوش فيه يبس وصلابة » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض نتائج لعنهم، وقساوة قلوبهم، بسبب نقضهم لعهودهم، فقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أى : يميلونه عن الموضع الذى نزل فيه فيه ولأجله ، عن طريق التأويل الباطل ، والتفسير الفاسد ، أو عن طريق تبديل الألفاظ بالزيادة أو النقصان.

وقد فعل اليهود كل ذلك فى التوراة بدليل أن كتبهم حرمت عليهم أكل الربا والتعامل به بقولها :« أخاك لا تقرضه بالربا » والمراد : أخاك فى الإنسانية لا تقرضه بالربا ، لأن ما يحرم التعامل به مع الإسرائيلى، يحرم التعامل به مع غيره - أيضا - ولكن اليهود حرفوا هذه العبارة ، وفسروها تفسيرا ضيقا سقيما ، يتفق مع أهوائهم ومطامعهم ، فأضافوا إليها كلمة الإسرائيلى فأصبحت هكذا :« أخاك الإسرائيلى لا تقرضه بالربا » وبذلك تغير المعنى تغيرا جوهريا.

وهذا التحريف الذى ذمهم الله - تعالى - عليه ، كان منهم بعد عهد موسى - عليه السلام - واستمر إلى عهد نبينا ﷺ وإنما عاب الله - تعالى - على بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى ذلك ، لأنهم من أبنائهم ، وساروا على منهاجهم فى الكذب على الله ، ونقض المواثيق التى أخذت عليهم فى التوراة.

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب تحريفهم للكلم عن مواضعه ، قد تركوا نصيبا كبيرا مما أمروا به، فقال : تعالى : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى: تركوا نصيبا مما ذكروا به ، وأمروا بالعمل بمقتضاه.

قال الراغب : « النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع ، إما لضعف قلبه ، وإما عن غفلة ، وإما عن قصد ، حتى ينحذف عن القلب ذكره » (٢).

والأنواع الثلاثة التى ذكرها الراغب كأسباب النسيان فعلها اليهود ، فهم قد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٠٨ .

(٢) مفردات الراغب ص ٤٩١ .

أصابتهم الغفلة عن تدبر كتابهم، والعمل بما فيه بسبب ضعف قلوبهم ،واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وأهملوا أمر دينهم وشريعتهم ولم يقيدوا أنفسهم بها في حياتهم ومجتمعهم، عن تعمد وقصد ، لأن تنفيذها والتقيد بها يكلفهم الإستقامة على دين الله ، وهذا ما تأباه نفوسهم الجامحة ، وشهواتهم العارمة.

والتنكير في قوله تعالى ﴿وَنَسُوا حَظًّا ..﴾ للتكثير ، لأن الحظ هو النصيب الكبير ، الذى يعد محظوظا من يظفر به ، وهذا يدل على أن الجزء الذى نسيه أولئك اليهود ، هو جوهر الكتاب ولبه ، وهذا هو الحق ، لأن القارئ للتوراة المتداولة ، لا يجد فيها ذكرا لليوم الآخر ، وما يجرى فيه من حساب يترتب عليه الثواب والعقاب.

وهذه الجملة الكريمة وما يشبهها مما أورده القرآن الكريم فى هذا المعنى، تعتبر من أعظم معجزات القرآن الكريم ، فإن الناس قبل البعثة النبوية الشريفة ، لم يكونوا يعرفون أن اليهود نسوا حظا كبيرا مما ذكرتهم به توراتهم ، فلما بين القرآن الكريم ذلك ، عرفوا ما لم يكونوا يعرفونه من قبل.

ولما كانت أخلاق الآباء يتوارثها الأبناء حتى تكاد تكون جبلة فيهم، حذر الله تعالى نبيه ﷺ من اليهود المعاصرين له . والذين ورثوا رذائل آبائهم، ونقضهم لعهودهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ (١) مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾.

أى :لا تزال - أيها الرسول - ترى فى هؤلاء اليهود الحاضرين صورة السابقين ، فى الخيانة والغدر، والنقض للعهد ، وإن تباعدت الأزمان ، فهؤلاء الذين يعاصرونك فيهم خيانة أسلافهم ، وفيهم قسوتهم وضلالهم ، وفيهم نقضهم لعهودهم ، وفيهم انحرافهم عن الطريق المستقيم ، إلا قليلا منهم دخلوا الإسلام ،فوفوا بعهودهم ،ولم يكونوا ناقضين لها.

وهذه الجملة الكريمة تصور أكمل تصوير طبيعة اليهود فى كل زمان ومكان ، فهم قبل الإسلام نقضوا عهودهم مع الله - تعالى - وآذوا أنبياءه ورسله ، فلما بعث النبى ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به ، ونقضوا عهودهم معه فى

---

(١) فى الخائنة وجهان أحدهما : أن الخائنة بمعنى المصدر كالكافيه والعافية، والثانى : الخائنة صفة لموصوف محذوف ،والمعنى : تطلع على فرقة خائنة أو طائفة خائنة ، وقرىء على خيانة منهم ...).

كل مرة ، وحاربوه بكل وسيلة ، واستمر حالهم مع المسلمين على ذلك ، منذ البعثة النبوية إلى اليوم ، ما عرف عنهم وفاء ولا إيمان ، وإنما ديدنهم مع المسلمين الخيانة والغدر، ونقض العهود، وإن أعوزتهم القدرة الظاهرة على الأذى ، استعملوا الوسائل الخفية، وتآمروا مع كل عدو للدعوة الإسلامية ، وإذا ما حانت لهم الفرصة، انقضوا على أتباعها بقسوة وغلظة، دون أن يرقبوا فى مؤمن إلا ولا ذمة.

ثم ختم الله - تعالى - الآية الكريمة بقوله : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العفو : عدم مقابلة الإساءة بمثلها . والصفح : ترك اللوم والمعاتبة ، ولذا قالوا : إن الصفح أعلى رتبة من العفو ، لأن العفو ترك المقابلة بالمثل ظاهرا ، أما الصفح فهو يتناول ذلك ، ويتناول السماحة النفسية ، واعتبار الإساءة كأن لم تكن فى الظاهر والباطن .

والاحسان : الإنعام والتفضل والإتقان ،ومن ضروبه : العفو عن المسىء ،والصفح عنه.

وللعلماء أقوال فى الذين أمر النبى ﷺ بالعفو عنهم .

١ - فيرى بعضهم أن المراد بهم القلة اليهودية، التى آمنت واستثناها الله بقوله ﴿قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ . وهذا الرأى مردود بأنهم مادامو قد آمنوا ، فقد عصموا دماءهم وأموالهم ولم يصبح للعفو والصفح عنهم موضع.

٢ - ويرى بعضهم أن الذين أمر النبى ﷺ العفو والصفح عنهم هم كافة اليهود، إلا أن الآية نسخت بآية التوبة، وهي قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . وهذا الرأى ضعيف؛ لأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا تعذر الجمع بين الآيتين، وهو غير متعذر كما سنبين.

٣ - ويرى أبو مسلم :أن المراد بهم اليهود الذين بقوا على كفرهم ولكنهم لم ينقضوا عهودهم كما يرى أنهم هم المرادون بالقليل فى قوله تعالى ﴿ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾(١).

٤ - والذى نرجحه : أن العفو والصفح عام لجميع اليهود ، وإن من مظاهر ذلك

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص ٣٨٤ طبعة المطبعة الحسينية.

مسالمتهم ومساكنتهم ، وقبول الجزية منهم ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن ، ومعاملتهم بمبدأ : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » مع العفو والصفح عن زلاتهم، التى لا تؤثر على كيان الدعوة الإسلامية ، فإذا ما نقضوا عهودهم ، وخانوا الله ورسوله والمؤمنين ، وأصبح العفو عنهم فيه مضرة بالمسلمين ، ففى هذه الحالة يجب معاملتهم بالطريقة، التى تقى المسلمين شرورهم ، لأن العفو عنهم عند استلزام قتالهم للدفاع عن النفس والعقيدة ، فيه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وهذا الرأى يقارب قول أبى مسلم ،وربما اعتبر توضيحا له .

والمتتبع لتاريخ الدولة الإسلامية، يرى أن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة عامل اليهود القاطنين بها معاملة طيبة ، فعقد معهم معاهدة عدم اعتداء ، وصابرهم رغم أذاهم ، وعفا وصفح عن إساءتهم؛ أملا فى هدايتهم فلما نقضوا عهودهم ، ولجوا فى طغيانهم ، عاقب كل طائفة بالعقوبة، التى تناسب ذنبها ، فأجلى بنى قينقاع ، وبنى النضير . وقتل بنى قريظة ، وصالح أهل خيبر على جزء من ثمارهم على أن يجليهم متى شاء ، ثم أمر ﷺ فى أواخر حياته بإجلاء اليهود عن جزيرة العرب كلها ،حتى لا يبقى بها دينان .

وعلى المسلمين أن يطبقوا هذه المعاملة على اليهود المعاصرين لهم ، فاليهود الذين اعتدوا على ديارنا، يجب أن يقاتلوا ويطردوا منها ، وغيرهم نعاملهم بالحسنى ، إلا أن يعاونوا ويظاهروا شرارهم ، وقليل منهم من لم يفعل ذلك.

رابعًا : وفى القرآن الكريم آيات متعددة صرحت بأن اليهود أخذ الله عليهم العهد فى كتبهم،بأن يؤمنوا بالنبى ﷺ الذى يجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، وأن يتبعوا ما أنزل عليه، وهو القرآن الكريم ، فلما ظهر النبى ﷺ جحدوا نبوته ، وتركوا ما أمرتهم به كتبهم ، ونقضوا العهود التى أخذت عليهم بتصديقه ، وكفروا بالقرآن الكريم ،وقالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ومن هذه الآيات قول الله تعالى فى سورة آل عمران :

(أ) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : « هذا توبيخ من الله ،وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله

عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله - تعالى - تابعوه ، ولكنهم كتموا ذلك ، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم»(١).

وأخرج الإمام ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : « إن هذه الآية نزلت في فنحاص وأشيع - اليهوديين - وأشباههما من أحبار اليهود ، كتموا صفات النبي ﷺ التي في كتبهم، والتي أمرهم الله - تعالى - بإظهارها (٢) ».

(ب) ومن هذه الآيات - أيضا - قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : كان اليهود يستفتحون - أي : يستنصرون - على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله - تعالى - من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولونه فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور - أخو بني سلمة - : يا معشر اليهود : اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم - أخو بني النضير - ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله هذه الآية (٣) .

(جـ) ومن هذه الآيات - كذلك - قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة :

وحين جاء إلى اليهود وأحبارهم رسول من عند الله ، وهو محمد ﷺ مصدق للتوراة في أصول الدين، الذي ارتضاه الله لعباده ، وهي تصدقه في أنه هو النبي

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣٠ .

المنتظر ، حين جاءهم هذا الرسول ، طرح فريق كبير من اليهود تعاليم التوراة التى فيها البشارة بالنبى ﷺ وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنها إعراضا تاما ، حتى لكأنهم لا يعلمون منها شيئا.

قال الإمام ابن جرير : «ومعنى قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود فنقضوا عهد الله ، بتركهم العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه ، لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه، وهذا من الله - تعالى - إخبار عنهم بأنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة ، وأنهم عاندوا أمر الله ، فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم»(١).

فالآية الكريمة صريحة فى أن اليهود نقضوا العهود، التى أخذت عليهم فى كتبهم ،بأن يؤمنوا بالنبى محمد ﷺ ويصدقوه عند ظهوره، فيما يخبر به عن الله - تعالى - .

هذه آيات ثلاث أوردناها كدليل على نكث اليهود لعهودهم التى أخذها الله عليهم فى توراتهم ،وعلى ألسنة أنبيائهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ،وقد أقروا بها ولكنهم نقضوها وخالفوها.

خامسا : والآن فلننتقل إلى لون آخر من ألوان نقضهم لعهودهم، فنقول :

بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، عقد مع اليهود الذين كانوا يسكنونها معاهدة ضمن لهم فيها الحرية والاستقرار ، وكان من أهم نصوص هذه المعاهدة «أنه إذا حصل اعتداء على المدينة فعلى اليهود أن يدافعوا مع المسلمين عنها ، وأن على اليهود أن يتفقوا مع المسلمين ما داموا محاربين ».

ونكتفى هنا ببيان أن اليهود بطوائفهم المختلفة، قد نقضوا عهودهم بالنسبة لهذا النص الذى يحتم عليهم الدفاع عن المدينة مع المسلمين .

(أ) فبنو قينقاع الذين كانوا يقيمون داخل المدينة ، وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين ، لم يكتفوا بالامتناع عن مد يد العون، والمساعدة للمسلمين فى غزوة

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٣٣ .

بدر ، بل ساءهم أن ينتصروا على قريش ، وصرحوا بحزنهم لهزيمة أهل مكة ، وأخذوا يتحرشون بالمسلمين .

وفي خلال ذلك ، نزل جبريل على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (١) فلما فرغ جبريل ـ عليه السلام ـ من قراءتها ، قال النبي ﷺ :« إنى أخاف من بنى قينقاع ، ثم سار إليهم فى سوقهم فقال لهم : « يا معشر اليهود : احذروا من الله ـ تعالى ـ مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم، وفى عهد الله إليكم ، فقالوا : مدلين بقوتهم ـ يا محمد ـ إنك ترى أنا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لو حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس . . » .

ولما وجد الرسول ﷺ منهم تصميماً على نقضهم لعهودهم ، ومحاربة مستمرة للدعوة الإسلامية ، ومآزرة لكل معارض لها ، طردهم من المدينة، إلى أذرعات جزاء غدرهم وخيانتهم (٢) .

(ب) وأما بنو النضير: فكانوا فى نقضهم لعهودهم مع المسلمين أفحش من سابقيهم ، فإنهم لم يكتفوا بمنع يد المعونة عن المسلمين فى بدر ، بل آووا الأعداء الذين جاءوا للإفساد فى المدينة بعد ذلك ، فقد حصل منهم فى غزوة السويق التى تتلخص أحداثها :فى أن أبا سفيان بن حرب ، حاول بعد هزيمته فى بدر أن ينتقم من المسلمين ، فسار مع رجال له إلى المدينة فوصلها ليلا ، فطرق باب (سلام بن مشكم) ـ أخو بنى النضير ـ فاستقبله استقبالا حسنا وعرفه أخبار المسلمين ، فخرج أبو سفيان من عنده وهجم برجاله على ناحية يقال لها: (العريض) . . وعلم المسلمون بذلك، فتعقبوا أبا سفيان ومن معه ، ولكنهم نجوا بعد أن ألقوا ما معهم من سويق .

وبنو النضير ـ أيضا ـ هم الذين حاولوا اغتيال الرسول ﷺ حين جاءهم إلى بيوتهم ؛ليطلب منهم المعونة فى دفع دية قتيل قتل خطأ (٣) .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٨ .
(٢) بينا بالتفصيل أسباب هذه الغزوة ونتائجها فى فصل (تاديب اليهود) .
(٣) بسطنا الكلام فى غزوة بنى النضير وأسبابها ونتائجها فى فصل (تأديب اليهود) .

وكانت عقوبتهم جزاء خياناتهم ونقضهم لعهودهم أن طردهم المسلمون من المدينة كسابقيهم.

وأما بنو قريظة فقد كانوا فى نقضهم لعهودهم مع المسلمين ، ونكثهم مواثيقهم، أشد من كافة طوائف اليهود ، لأنهم لم ينقضوا عهودهم فى وقت السلم ، بل تحللوا منها فى وقت الشدة والعسر ، وإحاطة أحزاب الكفر بالمدينة.

وذلك أن المشركين بعد أن جمعوا جموعهم فى غزة الأحزاب بقيادة أبى سفيان، وبتحريض حيى بن أخطب اليهودى ، بلغ المسلمين فى ذلك الوقت أن يهود بنى قريظة قد نقضوا عهودهم، وانضموا إلى جيش الكفر وأرسل الرسول ﷺ إليهم من يحذرهم من مغبة خياناتهم ، ولكنهم أصروا عليها ، وكذبوا الرسول ﷺ وذكروه بسوء.

وبعد أن رد الله الذين كفروا ـ عن المدينة ـ دون أن ينالوا خيرا منها، تفرغ الرسول ﷺ والمسلمون لتأديب بنى قريظة، الذين نقضوا عهودهم فى ساعة العسرة ، وكان حكم الله فيهم القتل جزاء غدرهم وخياناتهم (١) .

هذا ، وفى ختام هذا البحث نستطيع أن نقول : إن الآيات التى وصفت اليهود بنقض العهود ، ـ والتى يؤيدها واقعهم التاريخى ـ كثيرة متعددة . ومن هذه الآيات ما فيه تصريح بأن هذه الرذيلة تكاد تكون طبيعة فيهم ، وصفة لازمة من صفاتهم، قال تعالى : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهد نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ (٢).

قال صاحب الكشاف عند تفسيره للآية الكريمة : « واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله ـ تعالى ـ الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا ، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون** ﴾ (٣) .

وقال ابن جرير : « لم يكن فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غدا » (٤).

---

(١) فصلنا الكلام فى غزوة بنى قريظة فى فصل (تاديب اليهود).

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠١.

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧ طبعة الحلبى.

(٤) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٢.

والتعبير (بكلما) يفيد أن نبذ العهود يتكرر منهم المرة بعد الأخرى، في كل زمان ومكان ، ولهذا قال الفخر الرازى.

« والمقصود من هذا الاستفهام ، الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه، لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التوبيخ والتبكيت . ودل بقوله ؛ أو كلما عاهدوا على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه ، بل يدل على أن ذلك كالعادة منهم ، فكأنه - تعالى - أراد تسلية الرسول ﷺ عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم ، بل هو سجيتهم وعادتهم، وعادة سلفهم على ما بينه فى الآيات المتقدمة ،من نقضهم العهود والمواثيق حالا بعد حال ، لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا تصعب على النفس مخالفته، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك ».

وبهذا تكون الآيات الكريمة التي سقناها في هذا المبحث قد وصفت اليهود بنقضهم لعهودهم، التى أخذها الله - تعالى - عليهم ليعبدوه، ولايشركوا به شيئا ويحافظوا على أداء العمل الصالح ، ونقضوا عهودهم التى أمرتهم بها كتبهم حيث سفك بعضهم دم بعض ، ونقضوا عهودهم مع أنبيائهم، إذ آذوهم وعصوهم ، ونقضوا عهودهم التى أخذت عليهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ عند ظهوره . ونقضوا عهودهم في كل موطن يرون النقض فيه، يوافق أهواءهم ، ويساير شهواتهم ؛ ولهذا طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون إلا قليلا .

ثانيا : سوء أدبهم مع الله - تعالى - وعداوتهم لملائكته، وقتلهم لأنبيائه :

حكى القرآن الكريم كثيرا من رذائل اليهود ومقابحهم ، ومن بين ماحكاه عنهم من رذائل ، سوء أدبهم مع الخالق - عز وجل - ووصفهم له - سبحانه - بما لا يليق به ، وبما هو منزه عنه ، كذلك من بين ما حكاه عنهم من آثام ، مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - وقتلهم للأنبياء الكرام الذين جاءوهم بالهدى ودين الحق ، وتعديهم على من يأمرونهم بالقسط من الناس.

وهذه هى بعض الآيات التى سجلت عليهم هذه الرذائل ، التى لا تصدر إلا ممن ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

أولا : قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾ .

روى الحافظان : ابن مردويه ،وابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال لما نزل قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية (١) .

واخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بيت المدراس ، فوجد من يهود ناسا كثيرين ،قد اجتمعوا على رجل منهم، يقال له فنحاص، فقال له أبو بكر : ويحك يافنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر مابنا إلى الله من حاجة وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإننا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرض منا: كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ،وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله .

فذهب فنحاص إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد انظر ماصنع صاحبك، فقال النبى ﷺ لأبى بكر : «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟» فقال يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيما قال فنحاص : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ..﴾ (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٣ .

(٢) أسباب النزول للنيسابورى ص ٧٦.

واخرج ابن المنذر عن قتادة أنه قال : « ذكر لنا أن هذه الآية ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ..﴾ نزلت في حيى بن أخطب ، لما أنزل الله - تعالى - ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال حيى : يستقرضنا ربكم ، وإنما يستقرض الفقير الغنى »[1] .

فهذه النصوص تفيد أن اليهود كانوا يتهكمون على القرآن الكريم ، عندما يدعو الناس إلى البذل والإنفاق ، ويستهزئون بتعاليم الإسلام، التى تحض على الجود والسخاء ، ويصفون الله - عز وجل - بما هو منزه عنه ، ويحاولون بطرق شتى تحريض المؤمنين على الشح، وعدم الإنفاق ، لتشكيكهم فى دينهم ، وصرفهم عن الاستجابة لكتاب ربهم، وسنة نبيهم ، وليس هذا القول القبيح غريبا على اليهود . فقد سجل القرآن الكريم عليهم فى آية أخرى أنهم قالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أى : بخيلة بالعطاء ، كما سجل عليهم جهالاتهم وجرأتهم على مقام ربهم فى كثير من المواضع.

لقد بين - سبحانه - أنه سميع لأقوالهم وأفعالهم ، عليم، بها لا تخفى عليه، فقال تعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴾ أى : لقد سمع الله قول أولئك اليهود، الذين نطقوا بالفحش والزور ، فزعموا أن الله - تعالى - فقير وهم أغنياء.

والمقصود من السماع لازمه: وهو العلم والإحاطة بما يقولون من العظائم، ثم محاسبتهم على ما يقولون يوم يلقونه - سبحانه - فى يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فالجملة الكريمة تفيد أن الله - تعالى - مطلع عليهم، ومراقب لهم مراقبة من يستمع إليهم ، ومحيط بما يرتكبونه من أقوال وأفعال ، وسيحاسبهم على سوء أدبهم ، وقبيح أقوالهم ؛ لأن من يملك الوجود بمن فيه وما فيه ، لا يخفى عليه شيء ، وقدير على معاقبة من لايقدره حق قدره ، ولهذا قال تعالى : ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أى : سنسجل عليهم فى صحف أعمالهم قولهم هذا؛ وقتلهم الأنبياء بغير حق.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٧٣٢ .

وفى هذا التعبير البليغ تهديد شديد لهم على ما ارتكبوا من خطيئات ؛ لأن المقصود من الكتابة نتائجها ، وهو الحساب العسير، ثم العذاب المهين ؛ بدليل دخول حرف التسويف على فعل الكتابة ، وإلا فالكتابة فى صحف الأعمال قد حصلت فعلا من وقت ارتكابهم هذه الجرائم.

وقد قرن - سبحانه - قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أسلافهم ،وهو قتلهم الأنبياء بغير حق، وذلك لإثبات أصالتهم فى الشر ؛ واستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية استباحوها ، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرؤ على الله - عز وجل - فقتل الأنبياء فيه تعد على أمناء الله ، الذين اختارهم لتبليغ رسالاته . وقولهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ فيه تطاول على ذات الله ، وكذب عليه ووصفه بما لا يليق به - سبحانه - وبذلك كله يكونون قد عتوا عتوا كبيرا ، وضلوا ضلالا بعيدا.

وإضافة القتل إلى المعاصرين للعهد النبوى مع أنه حدث من أسلافهم صحيحة ، لأنهم رضوا به ولم ينكروه ، وإن لم يكونوا قد باشروه ، ومن رضى بجريمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو ، وفى الحديث الشريف : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها ،كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شاهدها».

ووصف - سبحانه - قتلهم للأنبياء بأنه :﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ مع أن هذا الإجرام لا يكون بحق أبدا ، للإشارة إلى شناعة أفعالهم . وضخامة شرورهم ؛ وأنهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه.

ثم صرح - سبحانه - بالعقوبة ، بعد أن كنى عنها فقال تعالى : ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى : سنجازيهم بما قالوا وبما فعلوا . ونلقى بهم فى جهنم ، مخاطبين لهم بقولنا : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة، ففى الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه السياق.

والذوق هو إدراك الطعوم ، والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه، فالتعبير به هنا فيه تهكم عليهم ، واستهزاء بهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

ثم صرح - سبحانه - بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بهذا العذاب، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أى : ذلك العذاب الشديد الذى حاق بكم - أيها اليهود - بسبب ما قدمته أيديكم من عمل شيء ، وما نطقت به أفواهكم من قول منكر ، فقد اقتضت حكمته - تعالى - ألا يعذب إلا من يستحق العذاب، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

وبذلك تكون هاتان الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود على جهالاتهم وقرعتهم على سوء أدبهم ، وتوعدتهم بالعذاب المهين ، جزاء جرأتهم على خالقهم.

ثانيا : قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

هاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة عجيبة حقا من رذائل اليهود ، وهى عداوتهم لملك من ملائكة الله ، لا يأكل مما يأكلون ، ولا يشرب مما يشربون، وإنما هو من الملائكة المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون ، وإذا فليس هناك أى مقتض لعداوته ، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحى من عند الله على محمد ﷺ وهم يحسدونه على النبوة ، فلج بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل - أيضا - وهذه حماقة وجهالة منهم ، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم، فى دينهم وفى دنياهم ، ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لاتفرق بين الخير والشر.

ومعنى الآيتين الكريمتين : قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبريل . إنه لا وجه لعداوته ،لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه ، وإنما نزله على قلبك بأمر الله، ليكون مؤيدا لما نزل قبله من الكتب السماوية ، وليكون هداية إلى طريق السعادة، وبشارة للمؤمنين بالجنة ، وقل لهم كذلك من كان معاديا لله، أو لملك من ملائكته، أو لرسول من رسله ، فقد كفر وباء بغضب من الله ، ومن غضب الله عليه ، فجزاؤه الخزى وسوء المصير.

قال الإمام ابن جرير : « أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا ، على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وميكائيل ولى لهم » (١) .

وروى البخارى فى صحيحه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبى ﷺ وهو فى أرض يخترف - أى يجنى ثمارها - فأتى النبى ﷺ فقال له : إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى ، فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرنى بهن جبريل آنفا » قال : جبريل ؟ قال نعم ، قال ذلك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ النبى ﷺ هذه الآية : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ الآية ثم قال: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت، قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . يا رسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى ، فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ :«أى رجل فيكم عبد الله؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا،قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟» فقالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله فقال:«أشهد أن لا إله إلا الله،وأن محمدا رسول الله فقالوا : شرنا وابن شرنا وانتقصوه، قال:فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله» (٢).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها ؛ قالوا له صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك . قال : وليى جبريل ، لم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴾ الآيات (٣).

وفى حديث للإمام أحمد، والترمذى، والنسائى، قال اليهود للنبى ﷺ بعد أن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٣١ .

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾ جـ ٦ ص ٢٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٢٧٨ .

سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة، وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها ، أنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخير فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - ؟ قالوا :جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ . .﴾ الآية .

فيؤخذ من هذه الأحاديث، وما فى معناها أن اليهود فى عهد النبى ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة ، قد تكررت منهم فى مواقف متعددة بينهم، وبين النبى ﷺ ، وأن الذى حملهم على ذلك هو حسدهم له ، وغيظهم من جبريل لأنه ينزل بالوحى عليه .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : « ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله ، ومع ذلك يبغضونه ، وهذا أحط دركات الانحطاط فى العقل والعقيدة، ولاشك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة ، لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام »[1] .

وفى أمر الرسول ﷺ بلفظ ﴿قُلْ﴾ كى يرد على اليهود ، تثبيت له ، وتطمين لنفسه ،وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحى وهو جبريل - عليه السلام - .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن الله - تعالى - لا يعبأ بهم،ولا بغيرهم ممن يعادى جبريل،إن وجد معاد آخر له سواهم.

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحى ، وإشارة إلى أن السبب فى تمكنه ﷺ من تلاوة القرآن الكريم ، وإبلاغه للناس ، ثباته فى قلبه .

وقوله تعالى : ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ معناه : فلا موجب لعداوته ، لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره ، وإذن فعداوته عداوة لله فى الحقيقة والواقع ، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط، وقائمة مقامه .

قال صاحب الكشاف :« فإن قلت : كيف استقام قوله تعالى: ﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ جزاء للشرط ؟ قلت : فيه وجهان أحدهما : إن عادى جبريل أحد من أهل

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٢٢٦ ٨

الكتاب فلا وجه لمعاداته ، حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه، وشكروا له صنيعه، فى إنزالهماينفعهم، ويصحح المنزل عليهم ، والثانى: إن عاداه أحد فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم ، وموافقا له ، وهم كارهون للقرآن، ولموافقته لكتابهم ، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له ، كقولك : إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ أى: بأمره ، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل الذى نزل بالقرآن بإذن الله ، لا من تلقاء نفسه ، وحجة أولى عليهم.

وقوله تعالى : ﴿ مصدقا ﴾ حال من الضمير العائد على القرآن الكريم ، فى قوله ﴿ نزل ﴾ أى :أنزله حالة كونه مؤيدا للكتب السماوية، التى قبله ومن بينها التوراة، وهذه حجة ثانية عليهم.

ثم عززهما ـ بثالثة ورابعة ـ فقال تعالى : ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أى: هذا القرآن، الذى نزل مصدقا لكتبكم ، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح ، والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتيه وتنقذه مما هو فيه من ضلالات، ولو كان الواسطة فى مجيئها عدوا له ، وهو ـ أيضا ـ مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى ـ عنهم فى الدنيا والآخرة ، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى، فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفحلين، وبذلك يكون القرآن قد أقام حججا متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين . وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بخمس صفات.

أولها : أنه منزل من عند الله وبإذنه . وثانيها : أنه منزل على قلب النبى ﷺ ، وثالثها : أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية ، ورابعها : أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه .وخامسها : أنه بشارة سارة للمؤمنين .

ثم بين ـ تعالى ـ حقيقة الأمر فيمن يعادى جبريل، وأن عداوته عداوة لله ـ تعالى ـ فإنه أمين وحيه إلى رسله، ليس له فى ذلك شيء إلا أن يبلغ ما أمر به،فقال تعالى:﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ . والمعنى:أن عداوة جبريل عداوة لله،وأن عداوة محمد ﷺ عداوة لله ـ أيضا ـ فالإيمان بالله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٦ .

وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ، فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع . ومعنى عداوة العبد لله: كفره به، ومخالفته لأوامره ونواهيه . ومعنى عداوته لملائكته : إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافي عصمتهم ورفعة منزلتهم . ومعنى عداوته لرسله تكذيبه لهم، وتعمده إلحاق الأذى بهم، ومعنى عداوة الله لعبده : غضبه عليه ومجازاته له على فسوقه وكفره.

وصدر ـ سبحانه ـ الكلام باسمه الجليل تفخيما لشأن ملائكته ورسله ، وإشعارا بأن عداوتهم إنما هى عدواة له ـ تعالى ـ.

وأفرد ـ سبحانه ـ جبريل وميكائيل بالذكر ، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل ، وتعظيم ميكائيل ، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع ، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير : « فإن قال قائل : أوليس جبريل وميكائيل من الملائكة ؟ قيل: بلى ، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما فى الآية فى جملة أسماء الملائكة ؟ قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما : أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا ، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجل أن جبريل صاحبه ، أعلمهم الله ـ تعالى ـ أن من كان لجبريل عدوا فإن الله عدو له وأنه من الكافرين ، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه ، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، ولسنا لله ولا لملائكته ولا لرسله أعداء ، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصا ، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه ، وكذلك قوله ورسله لست يا محمد داخلا فيهم ، فنص الله ـ تعالى ـ على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم؛ ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ، ويحسم تمويههم أمورهم على ضعاف الإيمان » [1] .

وقال ـ سبحانه ـ فى ختام الآية الكريمة: ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ ولم يقل فإن الله عدو له أو لهم ، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم، كفر وجحود ، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل ، وللإشعار بأن عداوة الله تعالى لهم، سببها كفرهم ، فإن الله

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٣٩ .

لا يعادى قوما لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه، معاقبة العدو للعدو.

قال صاحب المنار : « فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا بها ، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ، ولكنهم كذلك فى نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم فى الواقع ، وهى أنهم أعداء الحق، وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل، الذى يزعمون أنهم يحبونه ، وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى ﷺ لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية؛ لأن المقصود من الجميع واحد. ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سائر رسل الله لأن وظيفتهم واحدة، فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التى انفرد بها » (١).

وبهذا تكون الآيتان الكريمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة ، لمعاداتهم لجبريل؛ وتكذيبهم لمحمد ﷺ وبينتا ما عليه أمرهم من خزى وهوان، بسبب هذه العداوة التى لا باعث عليها إلا الحسد ، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

ثالثا : (أ) قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ .

اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان على جملة من الرذائل، التى عرف بها بنو إسرائيل فى مراحل تاريخهم.

أما الرذيلة الأولى : فهى كفرهم بآيات الله التنزيلية والكونية ، أى: يجحدون البينات الواضحة، الدالة على وحدانية الله ، ويكفرون بالحجج الساطعة المثبتة لصدق رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويعرضون عن اتباع الحق، الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٩٤.

وأما الرذيلة الثانية : فهي : ﴿إنَّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإن هذا العمل قد تكرر منهم فى مختلف العصور.

فقد قتل اليهود من الأنبياء (أشعياء بن أموص) الذى عاش فى منتصف القرن الثامن، قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - قتله (منسى) ملك اليهود ، بأن أمر بنشره نشرا على جذع شجرة عام سبعمائة قبل الميلاد ، لأنه كان ينصحه بترك السيئات . وقتلوا النبى (أرميا) رميا بالحجارة ، لأنه أكثر من توبيخهم على منكرات أعمالهم ، وكان ذلك فى أواسط القرن السابع قبل الميلاد . وقتلوا النبى زكريا - عليه السلام - لأنه حاول الدفاع عن ابنه يحيى . قتله (هيرودوس) العبرانى، ملك اليهود من قبل الرومان . وقتلوا النبى يحيى بن زكريا - عليهما السلام - قتله (هيرودوس) أيضا ، لأن ابنة أخته غضبت على يحيى؛ لأنه لم يصدر الفتوى التى تهواها ، وهى زواجها بهيرودوس ، وقتلوا النبى (حزقيال) قتله قاض من قضاتهم ؛لأنه نهاه عن منكرات فعلها . وزعموا أنهم قتلوا (عيسي) عليه السلام وافتخروا بذلك ، فوبخهم القرآن الكريم ، بقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ .

وحاولوا قتل النبى ﷺ مرارا ، ولكن الله - تعالى - خيب محاولتهم ، وعصمه منهم ،وحفظه من شرورهم.

ومن هذه الوقائع التاريخية الثابتة ، نرى أن قتل اليهود للنبيين قد تعدد منهم فى أوقات مختلفة ، ومن أجيال متعاقبة.

وقد يقال : إن اليهود ما قتلوا كل الأنبياء، فلم أخبر القرآن الكريم عنهم أنهم قتلوا النبيين ولم يقل قتلوا بعض النبيين ؟

والجواب عن ذلك : أنهم قد استهانوا بمقام النبوة ،ومقام الدعوة إلى الحق فاعتدوا ذلك الاعتداء الشنيع على بعض الأنبياء ، ومن فعل ذلك مع البعض فقد اعتدى علي مقام النبوة ، وكأنما قتل جميع الأنبياء ، كما قال تعالي : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

ونص - سبحانه - على أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق، مع انه لا يكون بحق أبدا؛ للتصريح بموضع الاستنكار ، لأن موضع الاستنكار هو اعتداؤهم على الحق بقتلهم

للأنبياء ، وللإشارة إلى أنهم لانطماس بصيرتهم، وعتوهم في الشر ، قد صاروا أعداء للحق ،لا يألفونه ولا يرتاحون إليه ، وللتسجيل عليهم أن هذا القتل لأنبياء كان بدون وجه في شريعتهم ، فإنها قد نهتهم عن القتل . فهذا القيد من باب الاحتجاج عليهم بما نهت عنه شريعتهم؛ لتخليد مذمتهم في كل زمان ومكان.

قال فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة : « وذكر - سبحانه - كلمة الحق بصيغة التنكير فقال ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ لعموم النفي ، بحيث يتناول الحق الثابت والحق المزعوم، والحق الموهوم . أي : لم يكونوا معذورين بأي نوع من أنواع العذر في هذا الأعتداء، فلم يعتقدوا أنه الحق ، ولم يزعموه ، ولم يتوهموه ، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل : فكان فعلهم إجراما في باعثه ، وإجراما في حقيقته ، وأبلغ إجرام في موضوعه » (١) .

وبعد أن دمغهم - سبحانه - بجريمة قتل الأنبياء،وهي أعظم جريمة في هذا الوجود،عقبها بجريمة ثالثة من جرائمهم وهي : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي قتلهم الدعاة إلى الحق، واعتداؤهم على الآمرين بالقسط، الذي هو ميزان الاعتدال في كل شيء، وإيذاؤهم للمرشدين الذين يبثون روح الفضائل بين الناس.

وفعلهم هذا من أسبابه صممهم عن الانصياع للهدى ، وإعراضهم عن سبيل الرشاد، وضيق نفوسهم عن تقبل كلمة الحق ، فهم ممن ينطبق عليهم حديث رسول الله ﷺ : « بئس القوم قوم يقتلون الذين يامرون بالقسط من الناس ، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتقية » . وفي حديث آخر عن أبي عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله عنه - أنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله : أي الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أشد الناس عذابا يوم القيامة ، رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم قال : « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا، من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلا منهم فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم » (٢).

---

(١) تفسير الآيات الكريمة للشيخ محمد أبي زهرة مجلة لواء الإسلام . السنة التاسعة العدد الثاني.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٥.

ووصف ـ سبحانه ـ الذين يأمرون بالقسط بأنهم من الناس ، مع أنهم منهم حتما، للإشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء ، بل هم من الناس غير المبعوثين ، وفي قرنهم بالأنبياء ، تنبيه على علو منزلتهم ، وصدق جهادهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تهكم واستهزاء بهم ، لأنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن لهم البشارة بجنسهم لا بعملهم ، فرد الله عليهم هذا المدعى ، وبين أن البشرى التي يرتقبونها بسبب المحبة المزعومة، هي عذاب أليم وليس بنعيم مقيم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لو صدر من هؤلاء عمل صالح فيما يرى الناس فهو مردود عليهم بسبب ما هم مقيمون عليه من تلك القبائح، فقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : أولئك الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه ، ومن يأمرونهم بالقسط من الناس ، قد بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا، بعدم قبولها لفساد اعتقادهم ، وعدم إيمانهم ، كما أنها قد بطلت في الآخرة ـ أيضا ـ لأن العمل الصالح إنما ينفع مع الإيمان ، وهؤلاء قد أوغلوا في الكفر والفساد ، ففقدوا الاستعداد والقبول لكل خير ، إذ الإعراض عن الحق ، ومعاقبة من ينطق به ، وقتل الذين يدعون إليه ، لا يكون إلا ممن طبع الله على قلوبهم ،وجعلها كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ معناه : أن عذاب الله واقع بهم لا محالة وأنه ليس هناك من يدفعه عنهم . ويمنعهم منه فهو تأكيد لحبوط أعمالهم.

(ب) هذا ، وفي سورة المائدة آيتان كريمتان صرحتا بأن بني إسرائيل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم وشهواتهم ، قابلوه بالتكذيب والعناد ، وتارة بالقتل والاعتداء ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : لقد أخذنا العهد الموثق على بني إسرائيل بأن يعبدوا الله وحده ، وأن يعملوا بما أمرناهم به ، وأن ينتهوا عما نهيناهم عنه ، وأرسلنا إليهم رسلا ليبشروهم وينذروهم، ولكنهم كانوا كلما جاءهم رسول من رسلنا بما يخالف أهواءهم ، ويضاد شهواتهم ، قابلوه تارة بالعصيان والتكذيب ، وتارة

بالقتل والترهيب ، وحسب أولئك الفاسقون من بنى إسرائيل ألا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم ، فعموا عن الحق ، وأمنوا بأس الله فتمادوا في فنون الغى، وصموا عن سماع المواعظ والعبر من الهداة الأخيار ، ثم تابوا فتاب الله عليهم، ولكنهم عاد أكثرهم إلي العمي والصمم عن الانقياد للحق ، والعمل بما أمرتهم به رسلهم : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وسيحاسبهم عليها يوم القيامة، وسيجازيهم بما يستحقونه من عقاب، جزاء كفرهم واعتدائهم على رسل الله ـ تعالى ـ.

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ..﴾ الخ الآية بيان لنوع من جناياتهم المتعددة ، وهو تعديهم على رسل الله، الذين أرسلوا لهدايتهم أحيانا بالتكذيب، وأحيانا بالتقتيل.

والمراد بالميثاق الذى أخذ عليهم ، ما أمرتهم به رسلهم من توحيد الله وطاعته ، والاستجابة لأوامر رسله ، والإيمان بمحمد ﷺ الذى يجدون صفاته فى كتبهم.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ﴾ معناه : أرسلنا إليهم رسلا ذوى عدد كثير، وأولى شأن خطير ، ليهدوهم الصراط المستقيم ، ولكن ماذا كان موقفهم من هؤلاء الرسل الأخيار ؟

لقد كان موقفهم أنهم: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾.

ففى هذه الجملة الكريمة بين الله ـ تعالى ـ عادة من عادات بنى إسرائيل التى لا تتخلف عنهم ، وهى أنهم كلما جاءهم رسول بشىء لا تميل إليه نفوسهم الشريرة، قابلوه بأحد أمرين ، التكذيب المستلزم للتولى والعصيان، أو القتل وسفك الدماء.

فالآية الكريمة أفادت أن هؤلاء اليهود ، قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن تحجر القلب غايته ، حتى لم يعد يؤثر فى نفوسهم وعظ الرسل وهديهم ، بل صار هذا الوعظ يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب ، وقتل أولئك المصطفين الأخيار.

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أين جواب الشرط، فإن قوله : ﴿فَرِيقًا

كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ ناب عن الجواب لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ، لأنه لا يحسن أن تقول : إن أكرمت أخى أخاك أكرمت ؟ قلت هو محذوف يدل عليه قوله ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه ، وقوله :فريقا كذبوا جواب مستأنف لقائل يقول : كيف فعلوا برسلهم » [1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنهم مع هذا الفسوق والاعتداء حسبوا أنهم لن يصيبهم أى عقاب فقال تعالى : ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ﴾ أى : أن أولئك اليهود الذين كذبوا بعض الرسل ، وقتلوا بعضهم ، ظنوا ظنا تمكن من نفوسهم تمكن العلم واليقين ، أنهم لن يصيبهم شر وعقاب بسبب هذا التكذيب والقتل للرسل، فأغراهم ذلك بالعمى عن اتباع الحق ، وبالصمم عن سماع المواعظ والعبر التى تنفعهم.

وهذا شأن الأمم عندما تنحط مداركها ، فإنها ترتكب المنكرات ، وتتجاوز الحدود ، وتتمادى فى اقتراف القبائح ، ومع هذا تظن أن الله ـ تعالى ـ لا يؤاخذها بظلمها وإفسادها.

ثم بين الله ـ تعالى ـ أنه قبل توبتهم ولكنهم بعد ذلك عادوا إلى فسوقهم فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : ثم تاب الله عليهم حين رجعوا إلى الحق ، وأقلعوا عن الفسوق والعصيان ، ولكنهم لم يستمروا على ذلك، بل عادوا إلى ظلمهم وإفسادهم ، لأنهم قوم مردوا على نقض المواثيق ، والسير فى طريق الذين إن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا .

وقوله تعالى: ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ بدل من فاعل:﴿ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾ أو هو الفاعل والواو علامة الجمع. والمراد :أن عماهم عن الحق؛ وصممهم عن سماعه ، لم يكن عاما من جميعهم، ومستغرقا كل فرد من أفرادهم،وإنما كان هو الكثير الغالب عليهم.وهذا من إنصاف القرآن الكريم لأهل الإيمان والتقى، ولو كانوا يمثلون قلة فى الأمة.

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم على أعمالهم الأثيمة ووعيد لهم على أفعالهم الذميمة ، لأنه ـ سبحانه ـ لا تخفى عليه تلك الأعمال

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٢٧ .

والأفعال ، بل سيسجلها عليهم ، ويقول لهم يوم القيامة : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت عادة خبيثة، من عادات اليهود السائدة فيهم ،في كل زمان ومكان ، وهى مقابلتهم لأنبياء الله، وللذين يأمرونهم بالقسط من الناس، تارة بالتكذيب والاستكبار ، وتارة بالتقتيل والإيذاء ، وقد أدت بهم هذه العادة المتأصلة فى نفوسهم إلى خزى الدنيا، وعذاب الآخرة.

ثالثا : تحايلهم على استحلال محارم الله ـ عز وجل ـ

من رذائل بنى إسرائيل ، التى وقعوا فيها نتيجة جهلهم وفسوقهم وجشعهم وضعف إرادتهم رذيلة التحايل على هدم الشرائع ، ليصلوا إلى مطامعهم وشهواتهم ، ظانين ـ لجهلهم وعدم فقههم ـ أنهم عن طريق ذلك التحايل المحرم . سيفلتون من المؤخذاة والعقوبة ، وقصة أصحاب السبت التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، أكبر دليل على تلاعبهم بالدين، وتهالكهم على الدنيا.

وملخص هذه القصة : أن الله ـ عز وجل ـ أخذ على بنى إسرائيل عهدا ، بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت، وحرم عليهم فيه الاصطياد دون سائر الأيام ، وقد أراد ـ سبحانه ـ أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم ، فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد، فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الحيتان ، فنصحهم فريق منهم بأن ذلك يكون امتثالا ظاهريا لأوامر الله ـ سبحانه ـ ولكنه فى حقيقته فسوق عما أمرنا الله به فى يوم السبت من ترك الصيد فيه ، فلم يعبأوا بذلك ، ونفذوا تلك الحيلة ،فغضب الله عليهم ،ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم، ولمن أتى بعدهم ، وموعظة للمتقين.

والحديث عن أصحاب السبت ، قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣) وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون (١٦٤) فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١٦٥) فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة : سل يا محمد بنى إسرائيل سؤال تقرير وتوبيخ عن أهل القرية التى كانت قريبة من البحر ، فإنهم قد اعتدوا فى يوم تعظيمهم للسبت ، وتجاوزوا حدود الله ، إذ كانت تأتيهم الأسماك فى هذا اليوم كثيرة ظاهرة على وجه الماء ، وفى غيره من الأيام لا تأتيهم بهذه الكثرة؛ ابتلاء من الله لهم ، واختبارا لعزيمتهم وإرادتهم.

وتفصيل هذا الاعتداء الذى حصل منهم فى يوم السبت ، أنهم قد حفروا حياضا إلى جانب البحر، الذى كانت تكثر فيه الأسماك فى هذا اليوم ، فكانت الحياض تنساب إلى تلك الحياض فى يوم السبت، مع ما تحمله من الأسماك الكثيرة، ثم إذا أرادت الرجوع إلى البحر لا تستطيع؛ لضآلة الماء الذى بالحياض ، فتبقى فيها إلى أن يصطادوها بعد يوم السبت ، وصنيعهم هذا ظاهره امتثال أمر الله - تعالى - فإنهم لم يصطادوا فى يوم السبت ، وحقيقته أنه مجاوزة لما حرم الله عليهم من الصيد ، فإن حجزها فى الحياض صيد لها فى المعنى.

ولقد نصحهم فريق منهم بألا يفعلوا ذلك ، لئلا ينزل بهم بأس الله وعقوبته فعصوا أمرهم ، ولم يستمعوا لنصحهم ، فلم يكف الناصحون عن تذكيرهم ووعظهم.

ولقد انتقدتهم طائفة على تكرار هذه العظات، مع عدم استماعهم إليها فقالوا للناصحين : لم تعظون قوما قد حكم الله بإهلاكهم، أو بتعذيبهم عذابا شديدا ؟ فأجاب الواعظون . نعظهم لنعتذر إلى الله تعالى من مغبة التقصير فى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، ورجاء أن يتقوا فيتوبوا، وينجوا من الإهلاك ، فلما ترك العادون نصيحة صلحائهم ، وأعرضوا عنها ، أنجينا الناصحين ، وأخذنا العاصين بعذاب شديد، بسبب تماديهم فى الفسوق والعصيان ، ذلك العذاب الشديد هو مسخنا إياهم قردة صاغرين أذلاء ، جزاء تعديهم حدود الله تعالى.

والمقصود من سؤالهم تقريعهم على عصيانهم ، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم ،والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أخبرهم بها النبى الأمى، الذى لم يقرأ كتابهم ، كان ذلك معجزة له ، ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : « أى : واسأل ـ يا محمد ـ هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم ،عن قصة أصحابهم، الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم، واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هى « أيلة » وهى على شاطىء بحر القلزم »[1] .

وقال الإمام القرطبى : « وهذا سؤال تقرير وتوبيخ ، وكان ذلك علامة لصدق النبى ﷺ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم ، وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأنا من سبط إسرائيل ، ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزير فنحن أولادهم ، فقال الله ـ عز وجل ـ لنبيه سلهم ـ يا محمد ـ عن القرية ، أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فروع الشريعة »[2].

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية : قرية (أيلة) التى تقع بين مدين والطور ، وقيل: هى قرية طبرية ، وقيل: هى مدين.

ومعنى كونها ﴿ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه ، مشرفه على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار، أى: قريبا منها . وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ بيان لموضع الاختبار والامتحان ، والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم فى وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء ، دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وانتهى ، لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، ابتلاء من الله ـ تعالى ـ لهم.

قال ابن عباس : «إن اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به، وهو يوم الجمعة ، فتركوه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٤٠٣ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ .

واختاروا السبت فابتلاهم الله ـ تعالى ـ به ، وحرم عليهم الصيد فيه ، وأمرهم بتعظيمه فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ (١) .

وقال الإمام القرطبى : « وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود ـ عليه السلام ـ وأن إبليس أوحى إليهم ،فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ معناه : بمثل هذا الابتلاء، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت ، واختفائه فى غيره نبتليهم ، ونعاملهم معاملة من يختبرهم ، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم، وتعديهم حدود ربهم ، وتحايلهم القبيح على شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجزل له ثواب أخراه ، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ثم بين ـ سبحانه ـ فرق هذه القرية، وحال كل فريق فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

والذى يفهم من الآية الكريمة ، ـ وعليه جمهور المفسرين ـ أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

١ ـ فرقة المعتدين فى السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار.

٢ ـ فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم .

٣ ـ فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقول : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٣١٦ طبعة المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٨هـ.

(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص ٣٠٦.

تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : قالت فرقة من أهل القرية ، لأخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت ، لم تعظون قوما لا فائدة من وعظهم ، ولا جدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذابا شديدا ، جزاء تماديهم فى الشر ، وصممهم عن سماع الموعظة ،فكان رد الناصحين عليهم : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين :

الأولى : الاعتذار إلى الله ـ تعالى ـ من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة، حتى ينجوا من العقوبة ، ويسيروا فى طريق المهتدين.

وقيل: إن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب، فاعتدت فى السبت، وفرقة أحجمت عن الاقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله ـ تعالى ـ فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكم أو معذبهم عذابا شديدا فى زعمكم ؟ فأجابتهم الناصحة بقولها : معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتقون .

والذى نرجحه :أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق ـ كما قال جمهور المفسرين ـ لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية (ولعلكم تتقون) بكاف الخطاب ، بدل قولهم (ولعلهم يتقون) الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة ، والفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة :« إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق : فرقة عصت وصدت ، وكانوا ، نحوا من سبعين ألفا ، وفرقة نهت واعتزلت وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفا ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية ، لم تعظون قوما ـ عصاة ـ الله مهلكم ، أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية ؟ [1] » .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٠٧.

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى : فلما لج الظالمون فى طغيانهم ، وعموا وصموا عن النصيحة ، أنجينا الناصحين، وأخذنا العادين بعذاب شديد، لا رحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله.

والآية الكريمة صريحه فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون، وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء ، أما الفرقة الثالثة التى لا مت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين ، فقد سكتت عنها.

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر ، فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم.

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت، ولم ترتكب شيئا مما ارتكبوه ، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت بائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه، فلا جدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره.

قال صاحب الكشاف :«فإن قلت : الأمة الذين قالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ـ من أى الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين، أم من فريق المعذبين ؟. قلت: من فريق الناجين؛ لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه . حيث لم يروا فيه غرضا صحيحا لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهى حال المنهى وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثا منك ، ولم يكن إلا سببا للتلهى بك ، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم . أو لفرط حرصهم وحدهم فى أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥١٥ .

وقال الإمام ابن كثير : « ويروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ما أدرى ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة » (١).

والذى نرجحة أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها ، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين، ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحة، ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين فى السبت موقفا سلبيا استحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ . أى: فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون ، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك.

قال الآلوسى : « والأمر فى قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ﴾ تكوينى لا تكليفى ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به ؛ وهذا كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول ، وأن يكون الغرض مجرد التمثيل » (٢) .

وقيل فى تفسير الآية : إن الله ـ تعالى ـ عاقب القوم أولا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخا خلقيا وجسميا، فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية وعليه الجمهور.

وقيل : مسخهم مسخا خلقيا ونفسيا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليها أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد.

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى ، وتأبيهم عن قبول النصيحة،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣ ص ١٤٧ .

وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم ، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

وفى سورة البقرة آيتان كريمتان ذكرت فيهما قصة أصحاب السبت بصورة مجملة ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[١] .

والمعنى : ولقد عرفتم - يا بنى إسرائيل - عاقبة الذين تجاوزوا أمرنا الشرعى ، فاعتدوا فى يوم السبت ، وهو اليوم الذى أمروا فيه بالتجرد للعبادة ، فترتب على ذلك أن صيرناهم قردة صاغرين ، وقد اقتضت حكمتنا أن تكون هذه العقوبة - وهى صيرورتهم قردة - عبرة رادعة لمن شاهدها وعاينها ، ولمن جاء بعدها ولم يعاينها ، وإنما تلقى خبرها عن طريق موثوق به ،وأن تكون أيضا موعظة للمتقين ، الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم ، والذين يحسنون الانتفاع بالعظات والمثلات .

وعبر القرآن الكريم عن هذه القصة هنا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ .. ﴾ إلخ مع أن الآيات السابقة الخاصة ببنى إسرائيل صدرت فى مجموعها بحرف (إذ) المشعر بزمن القصة ، لأن قصة أصحاب السبت كانت معروفة لعلماء اليهود وأحبارهم ، وكانوا يحاولون إخفاءها عن عامتهم ودهمائهم ، فأطلع الله - تعالى - رسوله ﷺ عليها ، لتكون معجزة له . حيث أخبرهم عن طريق الوحى بما يعملونه ويحاولون كتمانه ، وأسند الأمر فيها لعلمهم المؤكد فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ .. ﴾ إلخ لكى لا يلجأوا إلى محاولة كتمانها وتجاهلها .

والمقصود من اعتدائهم فى السبت : حبسهم الحيتان فى هذا اليوم ، بسبب الحياض، التى حفروها على مقربة من البحر، وشرعوا إليها الجداول ، فإذا دخلتها وأرادت أن تخرج منها لا تستطيع لضآلة الماء فتبقى ، فيصطادونها بسهولة إذا مضى يوم السبت ، وقيل : نصبوا شباكا فى البحر يوم الجمعة ، فامتلأت بها الحيتان يوم السبت، وما استطاعت أن تخرج ، حتى أخذوها يوم الجمعة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥١٤ .

قال ابن جرير : « وأصل السبت : الهدوء والسكون فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت؛ لهدوه وسكون جسده واستراحته ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى :راحة لأجسادكم ، وهو مصدر من قول القائل : سبت فلان يسبت سبتا » (١) .

وقال صاحب الكشاف : والسبت مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت يوم السبت(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أى: صيروا كذلك ، والخاسىء هو المبعد الطريد ، أى: كونوا قردة مبعدين من الخير، أذلاء فكانوا كذلك .

وقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى: العقوبة، وهى مسخهم قردة صاغرين ﴿ نَكَالاً ﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها أى : تمنعه عن أن يفعل مثل ما فعله هؤلاء المعتدون ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أى : للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها ، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها . والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ، ولمن أتى بعدها وعلم علما يقينيا بحال العادين فى السبت ؛ الذين مسخوا بسبب عصيانهم ، تحذيرا له من أن يعمل عملهم ، فيمسخ كما مسخوا ، ويحل به العذاب الذى حل بهم.

﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى: لكل من سمع بها منهم ، وأسند ـ سبحانه ـ الموعظة إلى المتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها، ويجنون ثمارها.

وفى سورة النحل إشارة إلى العقوبة التى حلت باليهود بسبب تعديهم فى يوم السبت ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وفى سورة النساء ـ أيضا ـ تصريح بعقوبة اللعن التى حاقت ببنى إسرائيل بسبب تحايلهم على استحلال محارم الله ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٧٣ .   (٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥١٤ .

وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل القبيحة التى يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة. وغاياتهم الدنيئة، ومطامعهم الخسيسة.

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى كتابه « إغاثة اللهفان » فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم ، فقال ما ملخصه : ومن مكايد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع ،الذى يتضمن تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ، فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به . ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذى ذموه وأهدروه.

وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله ـ تعالى ـ به وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام، وتخليص المحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ، والظالم مظلوما، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ، . . . ثم قال :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة ، لما تحايلوا على إباحة ما حرمه الله ـ تعالى ـ عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله ـ تعالى ـ بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، وليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى ـ عليه السلام ـ وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل ، واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قردة ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم سبحانه قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا ، وفى

الحديث الشريف : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » [1] .

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال :

« قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها » [2]. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : بلغ عمر ـ رضى الله عنه ـ أن سمرة باع خمرا فقال : قاتل الله سمره ، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها ـ أى : أذابوها ـ فباعوها » [3] .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السبت من اليهود ، برذيلة الجهالة، وضعف الإرادة ، وتحايلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسخ الشنيع ، جزاء إمعانهم فى المعصية، وصممهم عن سماع المواعظة ، وما ربك بظلام للعبيد .

رابعا : جحودهم الحق بعد ما تبين ، وكراهتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد :

من الرذائل التى تكرر وصف اليهود بها فى القرآن الكريم ، رذيلة جحود الحق عن معرفة وعلم ، ورذيلة الأنانية المفرطة التى تحيا فى نطاق من التعصب الذميم ، والعنصرية المقيته ، فتجعلهم يحرصون على احتجاز الخيرات لأنفسهم دون سائر الناس ، وتحملهم على الشعور بأن كل بر يصيب غيرهم فكأنما قد اقتطع منهم ، وتحولهم إلى أناس يتميزون من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم.

وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذه القبائح فى آيات متعددة ، من ذلك :

أولا : قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٢) صحيح البخارى : باب (لايذاب شحم الميتة) جـ ٣ ص ١٠٢ ، واخرجه مسلم فى « كتاب المساقاة » جـ ٣ ص ١٢٠٦ طبعة الحلبى.

(٣) صحيح البخارى : باب (لايذاب شحم الميتة) جـ ٣ ص ١٠٢ ، واخرجه مسلم فى « كتاب المساقاة » جـ ٢ ص ١٢٠٧.

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

عن أبى العالية قال : « كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم ، فلما بعث الله ـ تعالى ـ محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ فقال ـ تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : ولما جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ، مصدقا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبى ﷺ ونعته ، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم ، لما جاءهم هذا النبى المرتقب، ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته ، وكذبوا كتابه: ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . بئس الشىء الذى باعوا به أنفسهم ، الكفر بما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ ، وكفرهم هذا كان من أجل البغى الذى استولى على نفوسهم ، والحسد الذى خالط قلوبهم ، وكراهية لأن ينزل الله وحيه على محمد العربى ﷺ فباءوا بسبب هذا الخلق الذميم ، بغضب مترادف متكاثر من الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ جزاء كفرهم وحسدهم.

فالآيتان الكريمتان فيهما تصوير صادق لما جبل عليه اليهود من جحود للحق بعد ظهوره ، وأثرة جامحة ممزوجة بحقد دفين ؟ جعلتهم يكرهون الخير لجميع الناس.

والمراد بالكتاب فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ القرآن الكريم . وفى تنكيره زيادة تعظيم وتشريف له ، وفى الإخبار عنه بأنه من عند الله ، إشارة إلى أن ما يوحى به ـ سبحانه ـ جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة؛ لأنه صادر من الحكيم الخبير . والذى مع اليهود هو التوراة ، ومعنى كون القرآن مصدقا لها ، أنه يؤيدها ويوافقها فى أصول الدين ، وفيما يختص ببعثة النبى ﷺ وصفته.

وفى وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم ، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة،

لأنهم لم يكفروا بشيء يخالف أصول كتابهم، وإنما كفروا بالكتاب الذى يصدق كتابهم.

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية ، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع ، يستنصرون عليهم بالنبى ﷺ قبل بعثته فيقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبى الذى نجد نعته فى التوراة.

والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو الفصل فى الشيء والحكم فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ . ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال تعالى : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ أى : أن تستنصروا فقد جاءكم النصر . فالمراد به فى الآية الاستنصار.

ثم بين ـ سبحانه ـ حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ أى : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول ، ليكون اللفظ أشمل ، فيتناول الكتاب والرسول الذى جاء به ، لأنه لا يجيء الكتاب إلا عن طريق رسول.

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه . حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة في التوراة عن النبى ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به ، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم ، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبى المبعوث منهم لا من العرب ، ملأ قلوبهم غيظا وحسدا ، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها ، وحال بينها وبين أن يكون لها أى أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق.

ولقد حاول رئيسهم (عبد الله بن سلام) ـ رضى الله عنه ـ أن يصرفهم عن العناد، وأقسم لهم بأن ما جاء به النبى ﷺ هو الحق المصدق لما معهم، فعليهم أن يتبعوه ، ولكنهم عموا وصموا وتنقصوه ، ولذا لعنهم الله تعالى ، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى: ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال ـ سبحانه ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل عليهم ، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أنهم بكفرهم قد باعوا أنفسهم بثمن بخس ، فقال تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : بئس الشيء باع به اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله على ما يشاء من عباده .

وجمهور المفسرين على أن ﴿ اشْتَرَوْا ﴾ هنا بمعنى : باعوا ، لأن أولئك اليهود ، لما كانوا متمكنين من الإيمان الذى يفضى بهم إلى السعادة الأبدية بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه ، واستمروا على كفرهم بغيا وحسدا وحبا فى الرياسة وتعصبا لجنسيتهم لما كانوا كذلك ، صار اختيارهم للكفر على الإيمان ، بمنزلة اختيار صاحب السلعة ثمنها على سلعته ، فكأنهم بذلوا أنفسهم التى كان باستطاعتهم الانتفاع بإيمانها ، وقبضوا الكفر عوضا عنها فأنسفهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفرهم بمنزلة ثمنها المقبوض ، فبئس هذا الثمن الذى أوردهم العذاب الأليم .

وعبر ـ سبحانه ـ عن كفرهم بصيغة المضارع : ﴿ أَن يَكْفُرُوا ﴾ وعن بيعهم لأنفسهم بالماضى : ﴿ اشْتَرَوْا ﴾ للدلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل نزول الآية ، وأن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد ، وأنهم ما زالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة .

وقوله تعالى : ﴿ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ . تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه . أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بدافع من البغى والحقد ، وكراهة لأن ينزل الله الوحى من فضله على من يشاء من عباده ، فالبغى هنا مصدر بغى يبغى إذا ظلم ، والمراد به ظلم خاص هو الحسد ، وإنما عد الحسد ظلما ، لأن الظلم معناه المعاملة التى تبعد عن الحق وتجافيه . والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير ، والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما صنع ، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود ، كما أنه لن يناله ضر من بقائها ، ومادام الأمر كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة ، وصدق الشاعر فى قوله :

وأظلم خلق الله من بات حاسدا - لمن بات فى نعمائه يتقلب

فاليهود قد كفروا بما أنزل الله ، من أجل حسدهم للنبى ﷺ على النبوة، ولأنه لم يكن منهم، وكان من العرب ، وكراهيه لأن ينزل الله الوحى على من يصطفيه للرسالة من غيرهم ، فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة ، وأثرتهم الذميمة، التى حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم ، فليس لله - تعالى - فى زعمهم - أن ينتزعها من ذرية إسحاق؛ ليجعلها فى ذرية إسماعيل - عليهما السلام -.

ولم يصرح - سبحانه - بأن المحسود هو النبى ﷺ لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة؛ وللتنبيه على أن الحسد فى ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين، فقال تعالى :

﴿ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبى ﷺ بغضب مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم بعيسى - عليه السلام - وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتضييعهم لأحكام التوراة ، فهم بسبب كفرهم المستمر، الذى تعددت أسبابه ، يصيبهم غضب كثير متعاقب من الله - تعالى -.

ويصح أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ أنهم رجعوا بغضب شديد مؤكد ، لصدوره من الله - تعالى -.

والمراد بالكافرين : اليهود الذين تحدث القرآن عنهم فيما سبق ، فهم الذين عرفوا صدق محمد ﷺ فى نبوته بما نطقت به التوراة ، ومع ذلك كفروا به فاستحبوا العمى على الهدى.

وعبر عنهم بهذا العنوان؛ للتنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مذل لهم، كان بسبب كفرهم، ويصح أن يراد بالكافرين ، وهم يدخلون فيه دخولا أوليا ، وإنما كان لهم العذاب المهين؛ لأن كفرهم لما كان سببه البغى والحسد والتكبر والأنانية ، قوبلوا بالإهانة والصغار.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد كشفتا عن لون من صفات اليهود الذميمة ، وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى كانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل

بعثه ، وبيعهم الإيمان الذى كان فى مكنتهم الظفر به ،بالكفر بما أنزل الله من دين قويم ، وكتاب كريم؛ إرضاء لغريزة الحقد الذى استحوذ على قلوبهم ، وتمشيا مع أثرتهم، التى أبت عليهم أن يؤمنوا بنبى ليس من نسل إسرائيل، ولو جاءهم بالحق المبين ، فحق عليهم قول الله - تعالى :﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

ثانياً : فى سورة البقرة - أيضا - آيتان أخريان فيهما تنبيه للمؤمنين ، إلى ما يضمره لهم المشركون وأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد ، ومن كراهة لأى خير يمنحه الله لهم.

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(١) .

﴿ مَا يَوَدُّ ﴾ أى : ما يحب - والود : محبة الشىء مع تمنيه - يقال : ود فلان كذا يوده ودا ومودة بمعنى : أحبه وتمناه.

قال صاحب الكشاف : « ومن الأولى - فى الآية - للبيان ، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان : أهل الكتاب، والمشركون ، كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ والثانية مزيدة لاستغراق الخير ، والثالثة لابتداء الغاية »(٢) .

ومعنى الآية الكريمة : لا يحب الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ولا المشركين عبدة الأصنام أن ينزل الله عليكم أيها المؤمنون أى شىء من الخير، الذى ينفعكم بسبب حسدهم لكم ، وبغضهم إياكم ، وهذا نوع من غبائهم وجهلهم ، لأن الله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق فى إنزال الخير على من يشاء من عباده ، وفى اختصاص رحمته بمن يريد اختصاصه بها منهم ، دون أن يضره سخط الساخطين ، أو حسد الحاسدين ، وهو صاحب الفضل العظيم على جميع المخلوقات.

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ

---

(١) الآية ١٠٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٨ .

خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بيان لما يبيته الكافرون - خصوصا اليهود - للمسلمين من حقد وكراهية ، وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم ، والثقة بهم.

وفى التعبير بقوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ دون ما يود أهل الكتاب؛ تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها، لصدقوا محمدا ﷺ الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

وعطف عليهم المشركين؛ ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضا - يضاهون كفرة أهل الكتاب ، فى كراهة نزول أى خير على المؤمنين ، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، عن طريق نبيه ﷺ من دين قويم ، وقرآن كريم ، وهداية عظمى، وأخوة شاملة ، وأمن بعد خوف ، وقوة بعد ضعف.

والخير : النعمة والفضل ، والمراد به فى الآية الكريمة: النبوة وما تبعها من الوحى الصادق ، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة ، والحجة البالغة ، والبلاغة الباهرة ، والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين؛ لعنادهم وحسدهم ، وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

والمشركون كرهوا ذلك - أيضا - لأن فى انتشار الإسلام ، وفى تنزيل الوحى على النبى ﷺ ما يخيب آمالهم فى إبطال الدعوة الإسلامية ، وإضعاف شوكتها ، والنصر على أتباعها.

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

رد عليهم بما يكشف عن جهلهم، وجهل جميع الحاسدين ، لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله ، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه - على المحسود ، والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق فى الإعطاء والمنع ، فكان من الواجب على هؤلاء الذين لايودون أن ينزل أى خير على المؤمنين، أن يريحوا أنفسهم من هذا العناء ، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء ، لأن الله - تعالى - يهب خيره لمن يشاء.

والاختصاص بالشىء : الإنفراد به ، تقول : اختص فلان بكذا أى: انفرد به ، ويستعمل متعديا إلى المفعول به ، فتقول : اختصصت فلانا بكذا أى: أفردته به وجعلته مقصورا عليه ، وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص فى الآية الكريمة.

وقيد ـ سبحانه ـ اختصاص رحمته بمن يشاء ، ليعلم الناس جميعا ، أن إفراده بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها ، وليس لأحد كائنا من كان أى تأثير في ذلك.

ومفعول المشيئة محذوف، كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه . أى : يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها ، وهى تتناول النبوة ، والقرآن ، والنصر ، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين .

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تذييل لما سبق، أى: أن كل خير يناله العباد فى دينهم ،أو دنياهم إنما هو من عنده ـ تعالى ـ يتفضل به عليهم ، وفى ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم ، وتعريض باليهود وغيرهم ممن حسدوا محمدا ﷺ على أن آتاه الله النبوة ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : إنى أصطفى للنبوة من أشاء من عبادى، وهى لا تدرك بالأمانى ، ولكنى أهبها لمن هو أهل لها .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء، وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ،ما داموا معتصمين بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم .

وأما الآية الثانية فهى في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب ، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر ، حسدا لكم ،وبغضا لدينكم ، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم لمحمد ﷺ فلا تهتموا بهم ، بل قابلوا أحقادهم وشرورهم بترك عقابهم ،والإعراض عن أذاهم حتى يأذن الله لكم فيهم، بما فيه خيركم ونصركم ، فإنه ـ سبحانه ـ على كل شيء قدير.

وقوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ بيان للون من ألوان الشرور، التى يضمرها أهل الكتاب، وعلى رأسهم اليهود ، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق ، إلى الكفر الذى أنقذهم الله ـ تعالى ـ منه .

وإنما أسند ـ سبحانه ـ هذا التمنى الذميم إلى الكثرة منهم ، إنصافا للقلة المؤمنة التى لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام .

وقوله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ مبالغة في ذمهم؛ بسبب ما تمنوه وأحبوه . إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان ، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول ، لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، منع صاحبه من الانتقال منه إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذى حملهم على هذا التمني الذميم: هو الحقد والحسد، فقال تعالى : ﴿ حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ أى : أن هذا التمنى لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذى استولى على نفوسهم ، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون التحول عنه إلى الكفر ، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين :« والحسد : قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان ، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير مذموم بكل لسان ، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد ، فإن تمنى زوالها كراهة للجور والفساد لا يدخل فى قبيل الحسد المذموم ، فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهى الغبطة والمنافسة ، وهى محمودة؛ لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد، لولا المنافسة لظل فى غفلة عنها ، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود ، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به ، وإظهار ما يستدعيه من القدح فى المحسود ، والقصد إلى إزالة النعمة عنه » (١) .

وقوله تعالى: ﴿ مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ إعلام للمؤمنين ، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك فى كتابهم ، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ، ولكنهم لخبث نفوسهم ، وسوء طباعهم ، رسخ الحسد فى قلوبهم ، لدرجة يعسر معها صرفه عنهم ، أو صرفهم عنه.

والجملة الكريمة: ﴿ حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام ، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين، إلا إذا عرف فى نفسه صحته ، وأنه طريق الفوز والفلاح.

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد ٥ ص ٦.

وقوله تعالى : ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت ، بعد أن ظهر لهم صدق النبى ﷺ وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن النبى المبشر به ، لا تنطبق إلا عليه ، وإذا كفرتم به لم يكن عن جهل ،وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة ، وبتبشيرها بالنبى ﷺ .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين فى ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح ، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

العفو : ترك العقاب على الذنب ، والصفح : ترك المؤاخذة عليه ، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين ، وأن تعرضوا عن رفع السيف فى وجوههم حتى يأذن الله لكم فى أن تشفوا صدوركم منهم ، ويبيح لكم قتالهم الذى يترتب عليه نصركم ، إذ أن كل شىء داخل تحت سلطان قدرته تعالى.

فالمراد بالأمر فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الإذن للمسلمين بقتالهم فى الوقت الذى يختاره الله ـ تعالى ـ لهم ، عندما تكون لهم القوة التى يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : « وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول : لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوى العادل ، للقوى الجاهل، وفى إنزال المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء؛ إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل، فإن الحق هو الذى يصرع الباطل، كما قلنا غير مرة ، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه » (١) .

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٢١ .

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : أن كل شيء داخل تحت قدرته النافذة، التي لا يعجزها شيء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده ، فأذن للمؤمنين في الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم ، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين ، والطرد والقتل لليهود الحاقدين.

وبذلك تكون الآيات التي سقناها في هذا المبحث قد دمغت اليهود برذيلة جحود الحق ، وكراهة الخير لغيرهم ، ورسوخ الحسد في قلوبهم ، وقد أدت بهم هذه الرذائل إلى الشقاء في الدنيا والآخرة: ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

خامسا : نبذهم لكتاب الله ، واتباعهم للسحر والأوهام الشيطانية :

أصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الخبيثة، والعقول التافهة ، من طباعهم أنهم يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وبنو إسرائيل لهم فى هذا المجال نصيب موفور ، وتاريخهم فى مختلف العصور يشهد بأن أكثرهم من الذين استحبوا العمى على الهدى، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومن الرذائل التى وصمتهم الآيات القرآنية بها ، نبذهم لكتاب الله - تعالى - واتباعهم للأساطير الباطلة ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾ (١).

والمعنى : وحين جاء اليهود وأحبارهم رسول من عند الله ، وهو محمد ﷺ

---

(١) سورة البقرة .

الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التى تشهد بصدقه ، وراء ظهورهم ، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله ، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان ـ عليه السلام ـ ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان ساحرا ، وما تم له ملكه العريض ، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا .

وقد أكذبهم الله ـ تعالى ـ فى هذا الزعم بقوله : ﴿ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أى : بتعلم السحر ،والعمل به ، كما يزعم هؤلاء : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُوا ﴾ بتعلم السحر وتعليمه للناس ، وتعليمهم ـ أيضا ـ ضربا آخر منه وهو ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ من وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به ، ولقد كان الملكان لا يعلمان أحدا من الناس السحر حتى ينصحاه بقولهما : إن هذا السحر الذى نعلمك إياه ، القصد منه التمييز بين المطيع والعاصى ، وبين السحر والمعجزة ، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين ، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله فى الشرور والآثام ، ولإحداث التفرقة بين الزوجين ، ولكن هذا السحر الذى يتعاطاه الشياطين وأتباعهم لن يضر أحدا بذاته ، وإنما ضرره يتأتى إذا أراد الله ـ تعالى ـ وشاءه ، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله ، المؤثرون عليه اتباع السحر ، أن من استبدل السحر بكتاب الله ، فليس له نصيب من نعيم الجنة ، ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ علما نافعا . ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ بالله وبرسوله محمد ﷺ كما أرشدتهم إليه التوراة ، ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى والآثام ، لأثيبوا مثوبة من عند الله ، هى خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. ﴾ إلخ الآية .

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول ﷺ وطرح لتعاليم كتابهم التى أمرتهم باتباعه .

أخرج ابن جرير، عن السدى قال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ

(١٠١) ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ .. ﴾ أى : لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت ، فذلك قول الله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله علماء اليهود ، فنقضوا عهد الله ، لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ ، وتصديقه [1] .

وفى وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له ، ومبالغة فى إنكار عدم إيمانهم به ، وإغراء للناس جميعا بالدخول فى دعوته ، لأنه ليس رسولاً من تلقاء نفسه ، وإنما هو رسول من عند الله ـ تعالى ـ.

والمراد: ﴿ بما معهم ﴾ التوراة ، وتصديق الرسول ﷺ لها ، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها فى أصول الدين ، وأن ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر، بعد عيسى ـ عليه السلام ـ لا تنطبق إلا عليه ﷺ .

وعبر ـ سبحانه ـ عن تركهم العمل بالكتاب الذى نزل لهدايتهم بالنبذ ، مبالغة فى عدم اعتدادهم به ، وتناسيهم إياه ، لأن أصل النبذ : طرح وإلقاء ما لا يعتد به .

وفى إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب ، سخرية بهم ، واستجهال لهم ، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه ، ولو كان النابذون من المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم ، ولكن أن يكون التاركون للنور هم الذين أوتوه وأكرموا به ، فذلك هو الضلال المبين.

والمراد من: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ الذى نبذوه لما جاءهم رسول الله ﷺ التوراة ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقا ، لاتبعوا الرسول ﷺ الذى ذكرت صفاته فيها ، والذى وجب عليهم بمقتضى كتابهم: ﴿ التوراة ﴾ الإيمان به ، فهم بجحودهم لنبوته ، يكونون جاحدين لتوراتهم التى شهدت له بالصدق .

وقيل المراد بكتاب الله الذى نبذوه : القرآن ، لأنهم لم يؤمنوا به ، بل تركوه بعد سماعه ، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد ، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٤٣ (بتصرف وتلخيص) .

والذى نراه : أن الرأى الأول أرجح ، لأن النبذ يقتضى سابقة الأخذ فى الجملة ، وهو متحقق بالنسبة للتوراة ، بخلاف القرآن الكريم، فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به ، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر ، إذا كان المراد بالكتاب الذى نبذوه، هو عين الكتاب الذى نزل لهدايتهم ،وآمنوا به وهو التوراة.

وقوله تعالى : ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ كناية عن إعراضهم الشديد عنه ، وتوليهم عن تعاليمه.

تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره ، أى: تولى عنه معرضا ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه . ففى هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله ـ تعالى ـ حيث شبه ـ سبحانه ـ تركهم لكتابه ، بحالة شيء يرمى به وراء الظهر استهانة به . وفى إضافة الوراء إلى الظهر ، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك.

قال الأستاذ الإمام : « ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله ، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءا منه وهو ما يبشر بالنبى ﷺ ويبين صفاته ، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره ، بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره ، وترك الجزء منه كتركه كله ، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس ، ويجرىء على ترك الباقى .. »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية ، أى: طرحوه وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئا ، ومن لا يعرف أنه كتاب الله.

وشبههم بمن لا يعلمون، مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله ـ حق العلم ـ لأنهم نبذوه مكابرة وعنادا ، ولأنهم لم يعلموا بمقتضى علمهم ، ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء ، فى جحود الحق والانغماس فى الآثام.

وقال ـ سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ بنفى الحال والاستقبال، للإشعار بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإنابتهم،بل هم تمر بهم الأيام ، وتتوالى عليهم العظات، ومع

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٩٧.

ذلك لا يتوبون، ولا يرجعون إلى الحق ، فهم مستمرون على طرح كتاب الله فى كل وقت وآن ،ومصممون على ذلك.

ثم حكى ـ سبحانه ـ لونا آخر من زيغهم وضلالهم ،واتباعهم للأباطيل ، بعد أن وبخهم على نبذهم لكتابه فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ .

اتبعوا : من الاتباع وهو الاقتداء ، والضمير فيه يعود على اليهود المعاصرين للنبى ﷺ .

وتتلو : من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة .وقال الراغب : تلا عليه :كذب عليه .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو كائن حى خلق من النار ، ويطلق على الممتلىء شراً من الإنس.

والمعنى : إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله ، واتبعوا الذى كانت تتلوه وتقصه الشياطين، على عهد ملك سليمان ، وفى زمانه ، من الأكاذيب والكفر، ومن ذلك زعمهم :أن ملكه قام على أساس السحر ، وأنه ارتد فى أواخر حياته ، وعبد الأصنام : ارضاء لنسائه الوثنيات ، إلى غير ذلك من الأكاذيب، التى ألصقوها به ـ عليه السلام ـ وهو برىء منها .

قال صاحب الكشاف : «وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أى : على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها، ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك فى زمان سليمان ـ عليه السلام ـ حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ معناه : وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا ،إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم، بقصد إضلالهم، وصرفهم عن عبادة الله ـ تعالى ـ إلى عبادة غيره من المخلوقات .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٧ .

ففى الجملة الكريمة تنزيه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك، وتبرئة له من عمل السحر، الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين، وينسبونه إليه زورا وبهتانا ، ودلالة على أن ذلك السحر الذى نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر.

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان ، وأنه ارتد فى آخر عمره ، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى ﷺ سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحرا يركب الريح.

فإن قال قائل : ما الحكمة فى نفى الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحدا نسب إليه ذلك ؟

فالجواب : أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله ، واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر أضافوا هذا السحر إلى سليمان ، وقالوا: إنه كان يسخر به الجن والإنس والريح ، فأكذبهم الله - تعالى - بقوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ كما بينا.

والضمير فى قوله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ يعود على الشياطين الذين افتروا الأكاذيب على سليمان - عليه السلام -.

ويجوز أن يعود على اليهود ، الذين نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تلته الشياطين على سليمان .

قال الأستاذ الإمام : فى قوله تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ : وجهان

أحدهما : أنه متصل بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

والثانى : وهو الأظهر: أنه متصل بالكلام عن اليهود، وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند قوله تعالى ﴿ كَفَرُوا ﴾ وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهورا فى زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم ، أى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وههنا يقول القائل : بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان فى رميه بالكفر، وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه، التى كانت تحت كرسيه ؟ فأجاب على طريق الاستئناف البيانى ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... ﴾.

ونفى الكفر عن سليمان، وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض ، فعلم - أيضا - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية ، وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر ، لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها ، ويضرون بها الناس خداعا وتمويها وتلبيسا » [١] .

وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان خاصة، مع أنه كان معروفا قبل سليمان - عليه السلام - كما أخبر به القرآن عن سحرة فرعون . إنما أضاف ذلك إليهم : لأن هذا كان هو الواقع منهم . ولأن سحر هؤلاء الشياطين للذين كانوا على عهد سليمان ، كان مدونا فى صحف اليهود من قديم ، وتوارثه خلفهم عن سلفهم، إلى أن وصل إلى من عاصر النبى ﷺ منهم ، ولأن سليمان - عليه السلام - أعطاه الله - تعالى - ملكا واسعا ، وسخر له الإنس والجن والريح ، فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر.

و ﴿ مَـا ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ موصولة ، وهى معطوفة على السحر فى قوله تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ أى: يعلمون الناس السحر ، ويعلمونهم الذى أنزل على الملكين .

والذى أنزل عليهما هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به ، ليعرفاه الناس فيجتنبوه ، على حد قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فالشياطين عرفوه فعملوا به ، وعلموه للناس؛ ليستعملوه فى الشرور والمآثم، بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه [٢] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٠١ .

(٢) ويجوز أن تكون (ما) معطوفة على قوله تعالى: ﴿ ماتتلو الشياطين ﴾ والمعنى على هذا الرأى : واتبع اليهود بعد أن نبذوا كتاب الله السحر الذى تلته الشياطين على عهد سليمان ، واتبعوا كذلك السحر الذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

وعلى هذا الرأى يكون قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ جملة معترضه بين المتعاطفين قصد بها تبرئة سليمان من السحر ، وإضافته إلى الشياطين ، وبيان أنهم هم الذين تعلموه وعلموه الناس بقصد إضلالهم.

هذا ، وفى اعراب (ما) فى قوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ آراء أخرى اكتفينا عنها بما ذكرناه لوفائه بالغرض.

هذا ، واختصت بابل (١) بالإنزال ؛لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر ، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة؛ لتسخير العامة لهم، في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب،فحدث فساد عظيم ، وعمت الأباطيل، فألهم الله ـ تعالى ـ هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه ، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها، قد خدعوهم وأضلوهم ، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم.

واللام في ﴿ الْمَلَكَيْنِ﴾ مفتوحة في القراءات العشرة المتواترة ، وقرىء شاذا (الملِكين) بكسر اللام.

قال بعض المفسرين : المراد بالملكين ـ بفتح اللام ـ رجلان صالحان اطلعا على أسرار السحر، التي كانت تفعلها السحرة ، فعلماها للناس، ليحذراهم من الانقياد لتلبيسات الشياطين، وسميا ملكين مع أنهما من البشر، لصلاحهما وتقواهما ، ويؤيد هذا الرأي قراءة الملكين ـ بكسر اللام ـ وإن كانت شاذة.

وقال جمهور المفسرين : إنهما ملكان على الحقيقة، أنزلهما الله ـ تعالى ـ ليعلما الناس السحر؛ ابتلاء لهم ، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون النبوة كذبا، ويسخرون العامة لهم ،ويخرجونهم إلى عبادة غير الله . ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما السحر ، وهما بدل أو عطف بيان للملكين.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ بيان لما كان ينصح به الملكان ،من يريد تعلم السحر عنهما . والجملة حالية من هاروت وماروت.

والفتنة : المراد بها هنا : الابتلاء والاختبار ، تقول : فتنت الذهب في النار . أي : اختبرته؛ لتعرف جودته من رداءته.

والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحدا من الناس السحر، إلا وينصحاه بقولهما ، إن ما نعلمك إياه من فنون السحر، الغرض منه :الابتلاء والاختبار؛لتمييز المطيع من العاصي .فمن عمل به ضل وغوى،ومن تركه فهو على هدى ونور من الله، لإظهار الفرق بين المعجزة والسحر، فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون

---

(١) بابل : مدينة بالعراق ينسب إليها السحر والخمر.

من الكافرين ، كما كفر السحرة بنسبتهم التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات.

فالمقصود من تعليم الملكين للناس السحر : فضح أمر السحرة، الذين كثروا فى تلك الأيام ، وادعوا ما لم يأذن به الله ، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك ، وإنما هم أفاكون . وأخبروا عن أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغة في الإقرار بأنهما لا يملكان نفعا ولا ضرا لأحد ، وإنما هما فتنة محضة ، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصى.

ثم بين ـ سبحانه ـ لونا من السحر البغيض الذى استعمله أولئك السحرة فى الأذى فقال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أى: فيتعلم بعض الناس من الملكين ما يحصل به الفراق بين المرء وزوجه.

فالجملة الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لأنه يقتضى أن التعليم حاصل ، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه فى التفريق بين الزوجين . وخصص ـ سبحانه ـ هذا اللون من السحر بالنص عليه ، للتنبيه على شدة فساده ، وعلى شناعة ذنب من يقوم به ، لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ راجع لأحد ، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد ، لوقوعه فى سياق النفى ، والنكرة إذا وردت بعد نفى كانت فى معنى أفراد كثيرة ، فصح أن يعود ضمير الجمع إليه لذلك.

ثم نفى ـ سبحانه ـ أن يكون السحر مؤثرا بذاته فقال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى : أن أولئك السحرة لن يضروا أو ينفعوا أحدا بسحرهم إلا بإذن الله وقدره ، فالسحر سبب عادى لما ينشأ عنه من الأضرار ، ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك.

والجملة الكريمة معترضة؛ لدفع توهم أن يكون السحر مضرا بذاته ، بحيث لايتخلف عنه الضرر متى تعاطاه الساحر.

والمراد :﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ هنا: تخليته ـ سبحانه ـ بين المسحور وضرر السحر،أى:إن شاء حصل الضرر بسبب السحر،وإن شاء منعه فلا يصيب المسحور منه شيء من الأذى.

وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر ، مبالغة فى نفى أى تأثير للسحر بذاته ، وإغراء للناس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوى غيبية سوى الأسباب التى ربط الله بها المسببات ، وإرشادا لهم إلى حسن الاعتقاد ، وسلامة اليقين .

ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعلمين السحر للأذى، وللتفرقة بين المتحابين ، يتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أى : أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم ، ولم يتعلموه ليفرقوا به الحق والباطل ، أو ليدفعوا به الشر عن أنفسهم ، قد سلكوا بهذا التعليم الطريق الذى يضرهم ولاينفعهم ، وأصبحوا بذلك عاصين لما نصحهم به الملكان عند تعليم السحر.

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر للأذى، ومبالغة فى تجهيل المصدقين لهم ، لأن الساحر - مهما بلغت براعته - فلن يستطيع أن يمنع شيئا أراده الله ، ولا أن يأتى بشىء منعه الله ، ومادام كذلك فالمشتغل به ، والمصدق له كلاهما وقع فى ضلال مبين.

وقد أفادت الجملة الكريمة بجمعها بين إثبات الضر ونفى النفع مفاد الحصر ، فكأنه - سبحانه - يقول : « ويتعلمون ما ليس إلا ضررا بحتا ».

ثم بين - سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق ، المتبعين للباطل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ أى : ولقد علم أولئك اليهود الذين نبذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر ، أن من استبدل السحر بكتاب الله ليس له حظ من الجنة ، لأنه قد اختار الضلال وترك الهدى . وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر أو تعليمه للأذى والضرر ، وشددت العقوبة على مرتكبه ، وعلى متبع الجن والشياطين والكهان.

فالضمير فى ﴿ عَلِمُوا ﴾ يعود إلى أولئك اليهود الذى تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

والاشتراء هو اكتساب شىء ببذل غيره ، والمراد: أنهم اكتسبوا السحر الذى تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا فى سبيل ذلك إيمانهم ونصيبهم من الجنة ، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة ، لإقبالهم على التمويه والكذب، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير.

وأكد ـ سبحانه ـ علمهم بضرر السحر بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ... ﴾ للإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره ، وإنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

شروا : بمعنى باعوا ، وبيع الأنفس هنا معناه : بيع نصيبها من الجنة ونعيمها .

والمعنى : ولبئس شيئا باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به ، ولو كانوا ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك .

وأثبت لهم العلم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ .. ﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ جريا على الأسلوب المعروف فى فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ، ونفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

وإلى هذا المعنى الذى قررناه أشار صاحب الكشاف بقوله :

« فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ على سبيل التوكيد القسمى ، ثم نفاه عنهم فى قوله :﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ قلت : معناه : لو كانوا يعملون بعلمهم ،جعلهم حين لم يعلموا به كأنهم منسلخون عنه »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ المنافع التى تعود عليهم لو اتبعوا الحق ، بعد أن بين الأضرار التى ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة [2] من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل ، آمنوا بمحمد ﷺ أو بالتوراة إيمانا حقا ، واتقوا الله ، فاجتنبوا مايؤثمهم ومنه السحر والتمويه ، لكانت لهم مثوبة من عند الله ، هى خير لهم من السحر وغيره ، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك ، واستبدلوا السحر بالإيمان والتقوى ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

فقوله تعالى : ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ جواب للو الشرطية ، وأصل التركيب ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٨ .

(٢) المثوبة : اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب ، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير.

لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل ، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم ، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها ، كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك »[1] .

وقال الإمام الآلوسي : « ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله، مع أنه أخصر ، ليشعر التنكير بالتقليل، فيفيد أن شيئا قليلا من ثواب الله - تعالى - في الآخرة الدائمة ، خير من متاع كثير في الدنيا الفانية ، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم ، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى »[2].

وقوله تعالى: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ شرط آخر محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه وحذف مفعول ﴿ يعلمون ﴾ لدلالة ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ عليه . أي : لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التي سقناها في هذا المبحث قد دمغت بني إسرائيل بجحود الحق ، ونبذهم لتعاليم كتابهم ، وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل ، وسيرهم في طريق الشر عن تعمد وإصرار ، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم ، وحماقة تفكيرهم ، وسوء تدبيرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .. فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب أليم.

هذا ، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث ، أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول.

السحر : في أصل اللغة معناه : الصرف ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فأنى تسحرون ﴾ أي : فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقد ورد ذكر السحر في القرآن والسنة ، واتفق علماء المسلمين على أن هناك شيئا يسمى سحرا ، إلا أنهم اختلفوا في تصويره.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٨.

(٢) تفسير الآلوسي جـ ١ ص ٣٨٤.

فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن للسحر آثارا حقيقية ، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية ، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

أولا : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ به : ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وهم السحرة - على أرجح الأقوال -.

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال مجاهد وعكرمة ،والحسن، وقتادة، والضحاك ، يعنى: السواحر قال مجاهد :« إذا رقين ونفثن فى العقد »[1] .

فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية ، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يستعيذ من شرور السحرة.

ثانيا : قال الإمام البخارى : - فى باب هل يستخرج السحر - : حدثنى عبد الله ابن محمد ، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة، عن عروة ، فسألت هشاما عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا ، فقال : يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر ، ما بال الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم - رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقا - قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاطة ، قال : وأين ؟ قال فى جُفّ طلعةٍ ذكرٍ تحت راعوفة فى بئر ذَروان . قالت : فأتى البئر حتى استخرجه ، فقال : « هذه البئر التى أريتها، وكأن نخلها رءوس الشياطين » قال : فاستخرج - أى: السحر - قالت : فقلت : أفلا - أى - تنشرت ؟ فقال : « إن الله قد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا »[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٧٣ .

(٢) فتح البارى : لابن حجر جـ ١٢ ص ٣٤٥ وطبعة الحلبى.

وهذا تفسير موجز لمفردات الحديث : (هشام) : هو ابن عروة بن الزبير ، ومعنى : (أفتانى فيما استفتيته فيه) : أجابنى فيما دعوته من أن يطلعنى على حقيقة ما أنا فيه (مطبوب) أى: مسحور يقال: طب الرجل - بالضم - إذا سحر . (لمشط) : الآلة التى يسرح بها شعر الرأس واللحية ،=

فهذا الحديث الصحيح يفيد : أن السحر قد أثر فى جسم الرسول ﷺ بنوع من المرض أو الثقل ، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير فى عقله.

قال الإمام ابن القيم : « هذا هو الحديث الذى رواه البخارى ، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون فى صحته ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه ، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقه ؛ وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه » (١) .

وقال الإمام القرطبى :« الأدلة متوافرة على أن للسحر حقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه ؛ وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ،ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة، ومخالفتهم أهل الحق؛ ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان؛ وتكلم الناس فيه ؛ ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله » (٢) .

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى : «قال المازرى : « مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة . خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها . وقد ذكره الله - تعالى - فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم . وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به . وأنه يفرق بين المرء وزوجه . وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضا مصرح بإثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه ، فإحالة كونه من الحقائق محال . ولا يستنكر فى العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام ، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر . قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث

=(والمشاطة) : ما يخرج من الشعر إذا مشط . (وجف طلع نخلة ذكر) هو الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر . (والراعوفة) : حجر يوضع على رأس البئر يقوم عليه المستقى وقد يكون فى أسفلها (وبئر ذروان) : اسم لموضع البئر . (كأن ماءها نقاعة الحناء) : يعنى أحمر اللون . (أفلا أى تنشرت) : النشرة - بالضم - ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسا من الجن قيل لها ذلك : لأنه يكشف بها عما خالطه من الداء.

(٢) التفسير القيم لابن القيم - تفسير سورة الفلق.

(٣) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٤٦ .

لسبب آخر . فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذى ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ . والمعجزة شاهدة بذلك ؛ قال القاضى عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله فى الحديث : « حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن » أن يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر، فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور [١] .

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تخييل وتمويه ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فأخبر ـ سبحانه ـ أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا على الحقيقة وإنما كان تخييلا وتمويها . وقال تعالى في سحرة فرعون أيضا ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أى فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، وأرهبوهم بما فعلوه ، وجاءوا بسحر عظيم فى فنه .

والذى نراه أن السحر على أضرب منها :

أولا : ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق، كقلب الإنسان حيوانا وعكسه، وهذا قد أحاله المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء ، وأهل السنة أجازوا وقوعه، وإن كان لم يقع فعلا ، ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع ، بأن : المعجزة خارق يظهر على يد من يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة ، السحر ليس فيه دعوى نبوة ولا معارضة .

هذا ، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه ، ولا يظهر إلا على يد شرير، بخلاف المعجزة .

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : « وهذا النوع لم يقع لنا دليل ولا ظاهرة فى الشريعة على وقوعه ، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة

---

(١) صحيح مسلم « كتاب السلام » باب السحر جـ ٤ ص ١٧١٩ شرح وتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى .

والسحر فرقا واضحا، تقتضى عدم صحة وقوعه ، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعبانا ، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش، ولا أن يجعل الماء ينبع من بين الأصابع فتروى منه العطاش ، وأعنى أنه لا يجرى على يده من خوارق العادات ، مثل ما يجرى على أيدى الأنبياء للإعجاز » (١) .

ثانيا : أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عليها الضرر، بدون مماسة ولا ملابسة لمن وقع عليه الضرر ، وهذا الضرب قد أجازه أهل السنة، ومنعه المعتزلة ، ومن أمثلته: ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه ، والظاهر فى هذا الضرب قول أهل السنة ، لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة أنهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وقد صح فى الحديث: أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله ﷺ، وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه ﷺ كأنما نشط من عقال.

ثالثا : مزاولة أسباب يترتب عليها آثارا ظاهرية لا حقيقية ، وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة ، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ .

هذا ، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للأذى ، وجاءت تعاليمه بذمه وتحريمه ، وتوعدت مرتكبيه بالعقوبات الأليمة ، ففى الحديث الشريف :« حد الساحر ضربه بالسيف » (٢) .

وقد أفتى بعض الفقهاء: بقتل الساحر؛ لأنه زنديق ، وبعضهم أفتى: بقتله إن كان رجلا حتى يتوب عنه ، وبحبسه إن كان امرأة حتى تتركه ، وبعضهم أفتى: بأن الساحر إذا كان قد أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه ، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه ، حكم عليه بدية مناسبة.

وبعد ، فهذه كلمة موجزة ذكرناها عن السحر، فى ختام المبحث ، لم نقصد بها الخوض فى تفصيلاته المختلفة ، وإنما قصدنا بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه

---

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الثالث ص ٨.

(٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول لفضيلة الشيخ منصور على ناصف جـ٣ ص ٣٠ (كتاب الحدود)، (باب : حد الساحر) .

بمناسبة حديثنا عن رذائل اليهود، التى منها نبذهم لكتاب الله، واتباعهم للأوهام والأباطيل والأكاذيب.

سادسا : تحريفهم للكلم عن مواضعه ليشتروا به ثمنا قليلا:

(أ) قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ .

من أبرز رذائل بنى إسرائيل التى كرر القرآن الكريم ذكرها : تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وحمله على غير وجهه الصحيح ، وذلك لقسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا.

والآيات الكريمة التى معنا قد افتتحت : بتبئيس المؤمنين من دخول اليهود فى الإسلام، ولكن هذا التبئيس قد سبق بما يدعمه ويؤيده ، فقد بينت الآيات السابقة عليها ، موقف اليهود الجحودى من نعم الله ـ عز وجل ـ كما بينت تنطعهم فى الدين ، سوء إدراكهم لمقاصد الشريعة ، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا ما رأوا من الآيات البينات ، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم للحق ، خاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ (١) أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ (٢) مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون ـ أيها المؤمنون ـ بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران ، أن يدخلوا فى الإسلام ، والحال أنه كان

---

(١) الطمع تعلق النفس بالحصول على شىء مرغوب تعلقا قويا.

(٢) التحريف أصله مصدر حرف الشىء يحرفه إذا مال به إلى الحرف ، وهو يقتضى الخروج عن جادة الطريق، ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة وبالصراط المستقيم ، شاع فى تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف.

فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله، ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه ، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى ، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزى والعذاب الأليم.

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم ، إذ طمعوا فى استجابة اليهود لدعوة الحق ، بعد أن علموا سوء أحوالهم ، وفساد نفوسهم . والنهى عن الطمع فى إيمانهم لا يقتضى عدم دعوتهم إلى الإيمان ، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه ، لإقامة الحجة عليهم فى الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم ، ولقطع عذرهم فى الآخرة وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوسا منصفة تستجيب لدعوة الحق ، وتهدى إلى الطريق المستقيم ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ معهم هو وأصحابه من بعده ، ولكن اليهود صموا آذانهم عن الحق بعد ما عرفوه فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية ، وهنا يأتى النهى عن الطمع فى إيمانهم بهذه الآية وأمثالها.

وجملة: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ حالية ، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم ، وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين:

أحداهما : ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد.

والمراد بالفريق فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أحبارهم وعلماؤهم الذين عاصروا الرسل الكرام ، فسمعوا منهم ، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم.

والتحريف أصله: انحراف الشيء عن جهته، وميله عنها إلى غيرها. والمراد به هنا: إخراج الوحى والشريعة عما جاءت به ، بالتغيير والتبديل فى الألفاظ ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد ، والتفسير الباطل.

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ زيادة تشنيع عليهم ، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية ، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع ، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دنيوية وأخروية.

ففى هذين القيدين من النعى عليهم ما لا مزيد عليه ، حيث أبطل بهما عذر الجهل والنسيان ، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان.

وإنما كان قيام فريق من أحبار اليهود بتحريف الكتاب سببا فى اليأس من إيمان عامتهم ، لأن هؤلاء العامة المقلدون ، قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين ، دون أن يلتفتوا إلى الحق ، أو يتجهوا إلى النظر فى الأدلة الموصلة إليه ، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عماية التقليد ، وغواية الشيطان ، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق، وجلال الصدق ، ولأن أمة بلغ الحال بعلمائها - وهم مظهر محامدها - أن يجرءوا على كلام الله فيحرفوه لا تنتظر من دهمائها أن يكونوا خيرا منهم حالا، أو أسعد مآلا.

ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم ، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

والمعنى : وإذا ما تلاقى المنافقون من اليهود مع المؤمنين ، قالوا لهم نفاقا وخداعا. صدقنا أن ما أنتم عليه هو الحق ، وأن محمدا ﷺ رسول من عند الله . وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض . قال الذين لم ينافقوا لإخوانهم الذين نافقوا معاتبين: أتخبرون المؤمنين بما بينه الله لكم فى كتابكم مما يشهد بحقيقة ماهم عليه ، لتكون لهم الحجة عليكم يوم القيامة ، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم ؟ فالآية الكريمة فيها بيان لنوع آخر من مساوىء اليهود ومخازيهم، التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم ، وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من تدليس(١).

قال الإمام الرازى : « وإنما عذلوهم على ذلك لأن اليهودى إذا اعترف بصحة التوراة ، واعترف بشهادتها على صدق النبى ﷺ كانت الحجة قوية عليه، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضا من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين » (٢) .

---

(١) والضمير فى (لقوا) الأولى يعود إلى فريق اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقا ، وفى (قالوا) الثانية يعود إلى فريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم ، والذين كانوا يلومون من نافق منهم لتحديثه المؤمنين بما يشهد بصدق محمد ﷺ .

(٢) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٠٠ .

والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ للإنكار والتوبيخ. والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي: اقض بيننا وبين قومنا بالحق.

قال ابن جرير : « أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم والمعنى : أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد بشرت به التوراة » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ متعلق بالتحديث ، ومرادهم تأكيد النكير على إخوانهم الذين أظهروا إيمانهم نفاقا ، فكأنهم يقولون لهم : أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفي حكمه وقضائه ، لأنهم سيقولون لكم : ألم تحدثونا في الدنيا بما في كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا ؟ فيكون ذلك زائدا في ظهور فضيحكم، وتوبيخكم على رءوس الخلائق يوم الموقف العظيم ، لأنه ليس من اعترف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار.

وجملة : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من بقية مقولهم لمن نافق منهم ، وقد أتوا بها لزيادة توبيخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين.

والمعنى : أليست لكم عقول تحجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟

ثم وبخهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم الذين نافقوا ما قالوا ، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا ، ويحرفون من كتاب الله ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يخفون من كفر وحقد ، وما يظهرون من إيمان وود ؟

فالآية الكريمة :فيها توبيخ وتجهيل لليهود، الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما في توراتهم مما يؤيد صدق النبي ﷺ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيمانا صادقا بإحاطة علمه تعالى بسرهم وعلانيتهم ، لما نهوا إخوانهم عن تحديث

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٧٠.

المؤمنين بما فيها ،فإن ما فيها من صفات للنبى ﷺ من الحقائق، التى أمرهم الله ببيانها ونهاهم عن كتمانها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم ، بعد أن بين حال علمائهم ومنافقيهم فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (١) لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ أى : ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون الكتابة ، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم ، أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق ، أو قراءات عارية عن التدبر والفهم ، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبنى على البرهان القاطع، والدليل الساطع.

فالآية الكريمة: فيها زيادة تيئيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة، فإنهم قد وصلوا إلي حال من الشناعة لا مطمع معها فى هداية ، فعلماؤهم محرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم ، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التى وضعها لهم أحبارهم ، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق ، أو أن تقبل على الصراط المستقيم.

و (الأمانى) ـ بالتشديد ـ جمع أمنية ، مأخوذة من تمنى الشيء أى : أحب أن يحصل عليه ، أو من تمنى إذا كذب ، أو من تمنى الكتاب أى قرأه .

فإن فسرنا الأماني بالأول كان قوله تعالى ﴿ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ معناه : إلا ما هم عليه من أمانيهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات.

وإن فسرناها بالكذب ، كان قوله تعالى: ﴿ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ معناه : إلا أكاذيب مختلفة ، سمعوها من أحبارهم فقبلوها على التقليد.

وإن فسرنا الأمنية بالقراءة كان قوله تعالى: ﴿ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ معناه : إلا ما يقرءونه من قراءات خالية من التدبر ، وعارية عن الفهم ، من قوله تمنى كتاب الله أول ليلة .. أى قرأ.

هذا ، وقد رجح ابن جرير تفسير (الأمانى) بالأكاذيب، فقال ما ملخصه (وأولى ما روينا فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ بالصواب ، أن هؤلاء الأميين

---

(١) الأميون جمع أمى ، وهو الذى لا يحسن الكتابة والقراءة.

لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله على موسى شيئا ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتقولون الأباطيل كذبا وزورا ، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا منهم لا يقينا » (١) .

والذى نراه : أن المعانى الثلاثة للأمانى تنطبق على اليهود ، وكلها حصلت منهم، وما دام اللفظ يصدق على المعانى الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية ، ولا معنى لأن نشتغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره.

وعلى أى تفسير من هذه التفاسير للأمانى ، فالاستثناء منقطع ، لأن أى واحد من هذه المعانى ليس من علم الكتاب الحقيقى فى شىء.

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ زيادة تجهيل لهم ، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل ، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين ، وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق ، فهم ليسوا على علم يقينى من أمور دينهم ، وإنما هم يظنونها ظنا بدون استيقان ، والظن لا يغنى من الحق شيئا.

وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود ، توعد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ (٢) لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

والمعنى : فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأحبار من اليهود، الذين يكتبون الكتابات المحرفة، والتأويلات الفاسدة بأيديهم ، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق ، ثم يقولون لجهالهم ومقلديهم كذبا وبهتانا هذا من عند الله ، ومن نصوص التوراة التى أنزلها الله على موسى ، ليأخذوا فى نظير ذلك عوضا يسيرا من حطام الدنيا ، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله ، وخزى كبير لهم من أجل ما اكتسبوه من أموال بغير حق.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٧٥.

(٢) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقد يستعمل بدون حرف نداء كما فى قوله تعالى : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾.

فالآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحبار اليهود، الذين تجرءوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل ، وباعوا دينهم بدنياهم ، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله .

وصرح ـ سبحانه ـ بأن الكتابة ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليؤكد أنهم قد باشروها عن تعمد وقصد ، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها ، وليصور حالتهم في النفوس كما وقعت ، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدا لهيئتهم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ كشف عن كذبهم وفجورهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ثم يزعمون أنه من عند الله ، ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان .

ثم بين ـ سبحانه ـ العلة التي حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي : كتبوا الكتاب بأيديهم ، ونسبوها إلى الله زورا وبهتانا، ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا ، كاجتلاب الأموال الحرام ، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع في الرئاسة والجاه ، وإرضاء العامة ، بما يوافق أهواءهم .

وعبر ـ سبحانه ـ عن الثمن بأنه قليل ، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب ، وحرموه من الثواب المقيم .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف ، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل ، فهو وعيد لهم على الوسيلة ـ وهي الكتابة ـ وعلى الغاية ـ وهي أخذ المال بغير حق ـ.

قال الشيخ القاسمي : قال الراغب : « فإن قيل : لم ذكر ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ بلفظ المستقبل ، و ﴿ كتبت ﴾ بلفظ الماضي ؟ قيل . تنبيها على ما قاله النبي ﷺ، من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فنبه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبوه حالا فحالا ، وعبر بالكتابه دون القول ، لأنها متضمنة له وزيادة ، فهي كذب باللسان واليد ، وكلام اليد يبقى رسمه أما القول فقد يضمحل أثره » (١) .

---

(١) تفسير القاسمي جـ ١ ص ١٧٤ .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود برذيلة التحريف، لكلام الله عن تعمد وإصرار، ووصفتهم بالنفاق والخداع ، ووبختهم على بلادة أذهانهم، وسوء تصورهم لعلم الله ـ تعالى ـ وتوعدتهم بسوء المصير؛ جزاء كذبهم على الله ، وتجاوزهم لحدوده ، واستحلالهم لمحارمه.

(ب) وفى سورة النساء آية كريمة صرحت بتحريفهم للكلم عن مواضعه وبإساءتهم إلى النبى ﷺ بلسان حالهم ومقالهم ، وهذه الآية الكريمة هى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : من اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قوم يميلون الكلم عن وجهه الصحيح ، ويجعلونه محتملا لغير معناه ، عن طريق تبديله بالزيادة أو النقص ، وتأويله تأويلا فاسدا يخالف الصدق ، ولا يكتفون بذلك بل يقولون عند سماعهم لداعى الحق ـ ﷺ ـ سمعنا قولك ووعيناه ، وعصينا ما تدعونا إليه ، واسمع لا سمعت خيرا قط ، ثم يزيدون فى إساءتهم فيقولون له : وراعنا يفتلون بها ألسنتهم، قاصدين إساءته والتهكم عليه ، والطعن فى دينه، ولو ثبت عنهم أنهم قالوا سمعنا الحق وأطعناه، بدل قولهم : سمعنا وعصينا ، وقالوا : اسمع إجابتنا لدعوتك، وانظر إلينا نظرة عطف ورعاية ، بدل قولهم غير مسمع وبدل قولهم : راعنا التى يلوون بها ألسنتهم بقصد الاساءة والذم ، لو ثبت عنهم ذلك ، لكان أنفع لهم ، وأعدل وأسد ، لما فيه من حسن الفائدة لهم فى الدنيا والآخرة ، ولكنهم لم يفعلوا ما فيه فائدتهم فحقت عليهم اللعنة بسبب إصرارهم على الكفر ، إلا عددا قليلا منهم نجوا من هذا اللعنة بسبب إيمانهم واستقامتهم.

فالآية الكريمة تصور طائفة من أفعال اليهود الذميمة ، وتحكى لونا من رذائلهم عند استماعهم لدعوة النبى ﷺ لهم إلى الطريق المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا .. ﴾ الخ بيان للموصول فى الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ : « وقد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم ، وتحذيرهم من مخالطتهم ، والاهتمام بحملهم على الثقة بالله ـ تعالى ـ والاكتفاء بولايته ونصرته »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ هو وما عطف عليه بيان لاشترائهم الضلال بالهدى ، وتفصيل لفنون ضلالهم ، والجملة الكريمة صفة لموصوف محذوف تقديره : من الذين هادوا فريق يحرفون الكلم عن مواضعه .

وللمفسرين فى بيان معنى التحريف وكيفيته تأويلات من أهمها ما يلى :

١ ـ قال الإمام الرازى : « فى كيفية التحريف وجوه : أحدها : أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر. الثانى : أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية ، كما يفعله أهل البدع فى زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم . الثالث : أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به ، فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه » (٢) .

٢ ـ وقال صاحب الكشاف : قوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ يميلونه عنها ويزيلونه ، لأنهم بدلوه ووضعوا مكانه كلما غيره فقد أمالوه عن مواضعه التى وضعه الله فيها وأزالوه عنها ، وذلك نحو تحريفهم (أسمر ربعة) عن موضعه فى التوراة بوضعهم (آدم طوال) مكانه ، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحد بدله(٣) .

٣ ـ وقال الإمام ابن كثير : قوله تعالى ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أى : يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله ـ تعالى ـ قصدا منهم وافتراء (٤) .

٤ ـ وقال صاحب المنار : « التحريف يطلق على معنيين : أحدهما : تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له وهو المتبادر ، لأنه هو الذى حملهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٠١ .

(٢) تفسير الرازى جـ ١٠ ص ١١٨ طبعة عبد الرحمن محمد .

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٦٧ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٠٧ .

على مجاحدة النبى ﷺ، وإنكار نبوته، وهم يعلمون . إذ أولوا ولا يزالون يؤولون البشارات به إلى اليوم ، كما يؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر لا يزالون ينتظرونه . وثانيها : أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب، ووضعها فى موضع آخر ، وقد حصل مثل هذا التشويش فى كتب اليهود، إذ خلطوا فيما يؤثر عن موسى ما كتب بعده بزمن طويل، وكذلك وقع فى كلام غيره من الأنبياء،وقد اعترف بهذا بعض المتأخرين من أهل الكتاب » (١) .

ومن هذه النقول يتبين لنا :أن تحريفهم للكلم عن مواضعه ، يتناول تبديل ألفاظ كتبهم بالزيادة أو النقص ، وتأويل معانيها تأويلا سقيما لاتؤيده النصوص الصحيحة ، ولا العقول السليمة ، كما يتناول ـ أيضا ـ حملهم كلام النبى ﷺ على غير وجهه ، متعمدين إساءته ومذمته ، فقد روى عن ابن عباس، أنه قال : « كان اليهود يأتون النبى ﷺ يسألونه عن الأمر فيخبرهم ، ويرى أنهم يأخذون بقوله ، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه » .

ثم بين الله ـ عز وجل ـ بعد ذلك ، أن هذا الفريق من اليهود لا يكتفى بتحريف الكلم عن مواضعه ، بل أضاف إلى رذيلة التحريف رذائل أخرى منها النطق بالعصيان عند سماعهم لدعوة الحق ، واستهزاؤهم بالرسول ﷺ وتهكمهم بدين الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا (٢) بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ أى : يقولون للرسول ﷺ إذا دعاهم إلى الحق : سمعنا ما قلته يا محمد ووعيناه وعقلناه، ولكنا لا نطيعك فيه ، وإن كان هو الحق الذى لا يشوبه باطل ، وهذا يدل على تغلغل الكفر فى قلوبهم واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم ، وشدة نفورهم من اتباع الحق عن تعمد وإصرار. وقوله تعالى حكاية عنهم ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ معطوف على قولهم ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وهو من مقولهم ـ أيضا ـ.

والمراد أنهم لم يكتفوا بإعلان العصيان صراحة ، بل أضافوا إليه عبارتين يريدون

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ١٤٠ .

(٢) (ليا) أصله لويا لأنه من لويت ، أدغمت الواو فى الياء لسبقها بالسكون ومثله (الطى) ومعنى اللى الانحراف والالتفات والانعطاف عن جهة إلى أخرى ، والمراد هنا إما صرف الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، وإما ضم أحد الأمرين إلى الآخر.

منهما الشر ، وإن كانتا تحتملان الخير؛ مبالغة منهم فى النفاق والمخادعة ، وتوصلا منهم إلى التهكم والسخرية بالإسلام ونبيه، عن طريق التورية والتوجيه.

أما العبارة الأولى فقولهم :﴿ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ يريدون بها : اسمع حال كونك مدعوا عليك بلا سمعت ، يقصدون بذلك الدعاء عليه بالصمم أو بالموت ؛ أو اسمع غير مسمع كلاما فيه خير قط ، وهذا ظاهر فى أن المراد بها الشر ، وإن كانت فى ذاتها تحتمل الخير: على معنى : اسمع منا غير مسمع كلاما مكروها ، كانوا - لعنهم الله - يخاطبون بذلك رسول الله ﷺ استهزاء به ، مظهرين له الخير، وهم يضمرون الدعاء عليه بالشر.

وأما العبارة الثانية فهى قولهم: ﴿ راعِنَا ﴾ كان المؤمنون يقولونها للنبى ﷺ يقصدون بها أن يرعاهم ،ويقبل عليهم بالنصح والإرشاد ، فتلقفها اليهود وفتلوا بها ألسنتهم ، وحولوها عن المعنى الظاهر لها إلى معنى ذميم ، وهو رمى النبى ﷺ بالرعونة والحمق.

قال الراغب : « كان ذلك قولا يقولونه للرسول ﷺ على سبيل التهكم يقصدون رميه بالرعونة ، ويوهمون أنهم يقولون ؛ ﴿ راعِنَا ﴾ أى: احفظنا فهم ينطقون بالكلمة على أن النون من بنية الكلمة ، وليس ضمير المخاطبين ، وذلك لى اللسان وفتله، والطعن فى الدين » (١) .

وقال صاحب الكشاف : « يحتمل راعنا نكلمك،أى: ارقبنا وانتظرنا، ويحتمل شبه كلمة عبرانية، أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهى راعينا ، فكانوا يقولونها سخرية بالدين،واستهزاء برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والإكرام، ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ فتلا بها وتحريفا، أى: يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل،حيث يضعون ﴿راعِنَا ﴾ موضع ﴿وَانظُرْنَا﴾ و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ موضع لا أسمعت مكروها،أو يفتلون بألسنتهم مايضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا،ثم قال:فإن قلت :كيف جاءوا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعد ما حرصوا وقالوا:سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان،ولا يواجهونه بالسب، ودعاء السوء، ويجوز أن

---

(١) مفردات الراغب ص ١٩٨.

يقولوه فيما بينهم ، ويجوز ألا ينطقوا بذلك ، ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به » (١) .

والذى لا شك فيه : هو أن هاتين العبارتين ، وإن كانتا تحتملان الخير والشر ، إلا أن مراد اليهود بهما هنا : الأذى للرسول ﷺ والطعن فيما جاء به ، لأن هذا هو الذى يتفق مع ما عرف عنهم من حقد للناس، على ما آتاهم الله من فضله .

قال ابن عطية : « وهذا اللىّ باللسان إلى خلاف ما فى القلب ، موجود حتى الآن فى بنى إسرائيل ، ويحفظ منه فى عصرنا أمثلة ، إلا أنه لا يليق ذكرها بهذه الكتاب » .

وقد علق (أبو حيان) على عبارة ابن عطيه فقال :« وما قاله ابن عطية يحكى عن يهود الأندلس، وقد شاهدناهم ، وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطريقة ، وكأنهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ، ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين ، مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير » (٢) .

ثم صرح القرآن الكريم بعد ذلك بالطريق الذى كان يجب عليهم أن يسلكوه ، وبالقول الذى كان ينبغي لهم أن ينطقوا به، عند دعوتهم إلى الحق ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ أى : لو أنهم قالوا سمعنا بلسان حالهم ومقالهم عند توجيه دعوة الحق إليهم ، بدل قولهم سمعنا وعصينا، وقالوا عند مخاطبتهم النبى ﷺ واسمع إجابتنا لدعوتك، وانظر إلينا نظرة عطف ورعاية وأناة ، وأعرضوا عن تلك العبارات الملتوية الموهمة، التى ظاهرها الخير وباطنها الشر ، لو أنهم فعلوا ذلك لكان أنفع لهم فى الدنيا والآخرة ولكنهم لسوء طباعهم لم يفعلوا ذلك، فحقت عليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة، بسبب هذا الكفر والجحود، وقد صرح القرآن بذلك فقال :

﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : إلا قليلا منهم آمنوا، فلم يلعنوا .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد سجلت على اليهود تحريفهم لكلام الله تعالى، ولكلام الذين يأمرونهم بالقسط من الناس، كما سجلت عليهم سوء أدبهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦٧ .   (٢) تفسير البحر المحيط جـ ٣ ص ٢٦٤ .

مع الرسول ﷺ ومع كل من يدعوهم إلى الهدى والرشاد، ووصفهم الله بالالتواء في القول ، والتوقح في الفعل ، والقدح في الدين مع استعمالهم للعبارات التي تحتمل التوقير ، لكنهم يفتلون بها ألسنتهم؛ ليصلوا إلى مرادهم وهو التحقير ، ومن كانت هذه صفاته حقت عليه اللعنة، وسوء المصير .

سابعا : حرصهم على الحياة ، وجبنهم عن الجهاد :

من القبائح التي طبع عليها اليهود في كل زمان ومكان ، صفة التهالك على الدنيا، والحرص على الحياة ، مهما اتسمت بالذل، أو تلطخت بالعار ، وقد أدى بهم هذا الحب الشديد للحياة إلى الجبن الهالع ، والنكوص على الأعقاب في كل موطن شريف ، والاعتذار عن القتال في سبيل الحق بشتى ألوان المعاذير ، ولقد صور القرآن الكريم هذه الرذائل التي جبل عليها اليهود أكمل تصوير وأصدقه ، وهذه بعض الآيات التي وردت في هذا المعنى .

أولا : قال تعالي في سورة البقرة : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن يا محمد أولئك اليهود الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، لتجدنهم أحب الناس للحياة، وأحرصهم عليها وأشدهم كراهية للموت ، وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط، بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معاني الراحة والطمأنينة ، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ في هذه الدنيا ، وهم في حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورا طويلة ، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ . وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم في دعواهم، أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس؛ لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت، ولا يكاد يخطر ببالهم، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذلة العيش ، كما يشعر بذلك التنكير في قوله تعالى ﴿ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ .

والمراد بالناس: جميعهم، وأفعل التفضيل فى ﴿ أَحْرَصَ ﴾ على بابه، لأن الحرص على الحياة غريزة فى البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة، وكيفية وأسبابا، كما قال الشاعر:

أرى كلنا يهوَى الحياةَ بسعيه حريصا عليها مستهاما بها صبا

فُحب الجبان النفسَ أورده التُّقى وحبُّ الشجاع النفسَ أورده الحربا

فالناس جميعا وإن كانوا يشتركون مع اليهود فى الحرص على الحياة، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم، وبكرامتهم وبكل شيء

ونكر - سبحانه - الحياة التى يحرصون عليها، زيادة فى تحقيرهم فكأنه سبحانه يقول: إنهم شديدو الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء؛ وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق حياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة، فمن أمثال اليهود المشهورة (الحياة وكفى).

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة تؤدى إلى الجبن، واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة، والحياة الذليلة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ عطف على الناس، لأنه لما كان قوله تعالى: ﴿ أَحْرَصَ النَّاسِ ﴾ فى معنى: أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى، فيكون قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ معطوف عليه فيكون المعنى: أحرص من جميع الناس وأحرص من الذين أشركوا على الحياة.

والذين أشركوا؛ هم الذين جعلوا لله شركاء، وإنما أفردوا بالذكر مع أنهم من الناس؛ مبالغة فى تبويخ اليهود وذمهم، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة وهم أهل الكتاب على المشركين الذين لا كتاب لهم، ولا يدينون ببعث أونشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم، وابتذال كرامتهم، وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم، التى تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة.

قال صاحب الكشاف: « وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقا بأعظم التوبيخ، فإن

قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك » (١).

ثم بين سبحانه مظهرا من مظاهر حرصهم على الحياة، فقال تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أى: يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهورا كثيرة ، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها ، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل العمر ، وعدم طيب العيش .

فالجملة الكريمة مستأنفة، لإظهار مغالاتهم فى التهالك على الدنيا، ولتحقيق عموم النوعية فى الحياة المنكرة ، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام ، أو أكثر، فجيء بهذه الجملة الكريمة؛ لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة ، التى لا هناء فيها ولا راحة ، والتى استعاذ من بلوغها المؤمنون .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة؛ لأن الموت لن يتركهم مهما طال عمرهم فقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أى: وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعدلة ، ولا بمنحيه عنه .

والجملة الكريمة: فيها بيان مصيرهم المحتوم ، وقطع لحبال مطامعهم ، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم ، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم .

وفى التعبير ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ إشارة إلى أن طول عمرهم ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم . وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لهم، لأنه سبحانه عليم بأعمالهم محيط بما يخفون وما يعلنون ، وسيجازيهم عن كل ذلك بما يستحقون .

ثانيا : قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٥ .

غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ .

هذه الآيات تصور لنا ما فطر عليه بنو إسرائيل من جبن شديد . وعزيمة خوارة، وعصيان لرسولهم، وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد . وهى تحكى بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة ملخصها :

أن بنى إسرائيل بعد أن ساروا إلى بلاد الشام عقب غرق فرعون وجنده، أمام أعينهم ، أوحى الله تعالى إلى موسى أن يختار من قومه اثنى عشر نقيبا، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة، التى كان يسكنها الكنعانيون حينئذ ، ليتحسسوا أحوال سكانها، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه ، وكان مما قاله موسى للنقباء عند إرسالهم للتجسس على أحوال الأرض المقدسة وسكانها الجبارين : « لا تخبروا أحدا سواى عما ترونه » فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها ، وجدوا منهم قوة عظيمة، وأجساما ضخمة، ومدينة حصينة ، فعاد النقباء إلى موسى عليه السلام، وقالوا له وهو فى ملأ من بنى إسرائيل : قد صرنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها، فإذا هى فى الحقيقة تدر لبنا وعسلا وهذا ثمرها، غير أن الساكنين فيها أقوياء ؛ ومدينتهم حصينة، وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال إلا اثنين منهم وهما ـ يوشع بن نون وكالب بن يفنة [١] ؛ فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى عليه السلام وبقتال الكنعانيين معه . . .ولكن بنى إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة، وأصروا على عدم الجهاد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء، وقالوا :ياليتنا متنا فى مصر ، أو فى هذه البرية . . .ثم قالوا :لماذا أتى الرب بنا إلى هذه الأرض؟ أمن أجل أن نقتل بسيوف الجبارين وتصير أطفالنا ونساؤنا غنيمة لهم؟ثم صاحوا :لنقم لنا رئيسا ونرجع إلى مصر. . . وحاول موسى عليه السلام أن يصدهم عما ترددوا فيه من جبن وعصيان،وأن يحملهم على قتال الجبارين،ولكنهم عموا وصموا وأوحى الله

---

(١) يفنه بفتح الياء وضم الفاء وتشديد النون كما جاء فى تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨ .

تعالى إليه أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون فى الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم .

هذا هو ملخص هذه القصة ،كما وردت فى كتب التفسير والتاريخ، وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين ـ الذين ورد ذكرهم فى الآيات الكريمة ـ لا تناسب العقول السليمة ، وليس لها أصل يعتمدعليه ، بل هى مما يستحى من ذكره ـ كما قال ابن كثير ـ [1] .

ومعنى الآيات إجمالا : واذكر أيها الرسول الكريم وقت أن قال كليم الله موسى عليه السلام لقومه بنى إسرائيل ـ بعد خروجهم من مصر ، وإنقاذهم من ظلم فرعون وقربهم من الأرض المقدسة، ياقوم تذكروا واشكروا نعمة الله عليكم، حيث جعل فيكم أنبياء كثيرين ، وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وجنده، وأعطاكم من النعم ما لم يعط غيركم من عالمى زمانكم ، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى وعدكم الله سكناها متى آمنتم به، واستقمتم على أمره. ولا تنكصوا على أعقابكم بمخالفة ما جاءكم به أنبياؤه ، فترجعوا خاسرين فى دنياكم وأخراكم . ولكن بنى إسرائيل قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ إن فى الأرض المقدسة التى أمرتنا بدخولها قوما أقوياء متغلبين، لا قدرة لنا على قتالهم ، وإنا لن ندخلها حتى يرحلوا عنها ، فإن يرحلوا عنها لسبب من الأسباب، التى لا تعلق لنا بها ، فإنا داخلون فيها بدون محاربة . فقال لهم رجلان ممن يخافون الله تعالى وحده : يا قومنا ادخلوا عليهم باب المدينة ، وباغتوهم بالقتال، فإذا فعلتم ذلك انتصرتم عليهم ، وعلى قوة ربكم ومعونته ، فاتكلوا وثقوا بالفوز إن كنتم مؤمنين حق الإيمان .

ولكن بنى إسرائيل لم يقنعهم هذا القول، بل قالوا لنبيهم موسى : إنا لن ندخل هذه الأرض طول حياتنا، ما دام هؤلاء القوم الأقوياء فيها ،فإن كنت مصمما على دخولها، فاذهب أنت وربك، لقتالهم وأخرجاهم منها ،أما نحن فههنا قاعدون

---

(١) من ذلك ما جاء فى وصفهم من أن منهم عوج بن عنق الذى كان طوله ثلاثة آلاف ذراع . وأن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا فى ظل رجل منهم .. الخ.

قال الإمام الآلوسى بعد أن ساق بعض ما ورد فيهم من صفات .. وهى عندى حديث خرافة . جـ ٢ ص ٢٨٣ . وقد وردت أيضا هذه القصة مبسوطة فى الفصل ١٣، ١٤ من سفر العدد ، وفيها الكثير من المبالغات .

منتظرون فجعل موسى - عليه السلام - يشكو إلى مولاه فسوق قومه وجبنهم،فقال: ﴿ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ يترددون فى البرية حيارى تائهين ، فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون متمردون .

هذا ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير لبنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان عليه أسلافهم من قبائح ليتركوها ، حتى لا يتعرضوا للعقوبات التى حلت بآبائهم بسبب جبنهم وعصيانهم ، وفيه كذلك تسلية الرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى ومعاندة .

قال الإمام ابن جرير عند تفسيره اللآية الكريمة :« وهذا أيضا من الله تعالى تعريف لنبيه ﷺ بتمادى هؤلاء اليهود فى الغنى ، وبعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم ، وبطء إثابتهم إلى الرشاد مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع أياديه وآلائه عليهم ، مسليا بذلك نبيه ﷺ عما ينزل به من مقاساتهم فى ذات الله . يقول الله تعالى له: لاتأس على ما أصابك منهم، فإن الذهاب عن الله والبعد عن الحق ،ومافيه لهم الحظ فى الدنيا والآخرة من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم ،وتعزَّ بما لاقى منهم أخوك موسى - عليه السلام - واذكر إذ قال موسى لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يقول : إذكروا أيادى الله عندكم ، وآلاءه قبلكم » (١) .

وفى قول موسى عليه السلام لهم ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تلطف معهم فى الخطاب وحمل لهم على شكر النعمة، واستعمالها فيما خلقت له لكى يزيدهم الله من فضله على هذا الشكر .

وقوله لهم : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ بيان لنعم ثلاث أسبغها الله - تعالى - عليهم .

أما النعمة الأولى: فهى جعل كثير من الأنبياء فيهم كموسى، وهارون، وزكريا ويحى،وعيسى عليهم السلام،ولم يبعث الله تعالى أنبياء فى أمة من الأمم،كما بعث فى بنى إسرائيل،فقد أرسل سبحانه عددا كبيرا من الأنبياء إليهم فى فترات متعاقبة ليخرجوهم من الظلمات إلى النور،وينقذوهم من الظلم والفجور .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ١٦٨ .

وأما النعمة الثانية : فهى جعلكم ملوكا ،أى: جعلكم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه، أو جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم بعد أن كنتم لا تملكون شيئا من ذلك، وأنتم بمصر فرعون وهذه النعمة أىْ نعمة الحرية من الفضائل العظمى، التى لا يقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة ، التى تعاف الظلم ، وتأبى الضيم .

وأما النعمة الثالثة : فهى أنه سبحانه آتاهم من ألوان الإكرام والمنن ما لم يؤت أحدا من عالمى زمانهم، فقد فلق لهم البحر فصاروا فى طريق يابس حتىٰ نجوا، وغرق عدوهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا ويتمتعوا ، وفجر لهم من الحجر اثنى عشر عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم ، إلى غير ذلك من صنوف النعم التى حباهم بها،والتى كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه .

ولم يكتف موسى ـ عليه السلام ـ ببيان هذه الأمور الثلاثة ليغريهم بالاستجابة لنصائحه بل أضاف إلى ذلك نداء آخر فيه ترغيب وترهيب: فقال : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ فهو يحرضهم على دخول الأرض المباركة ، المطهرة من الأرجاس ، وهى أرض بيت المقدس على الأرجح [١] التى كانت موطنا لعدد كبير من الأنبياء وعلى رأسهم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم صارت مسكنا للكنعانيين المشركين، الذين لوثوها بكفرهم ووثنيتهم .

ثم أضاف إلى المغريات السابقة بدخولها ، إغراء جديدا فيه ضمان للنصر، وبشارة بالفوز فقال : ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فهو أى : التى قسم لكم سكناها ، ووعدكم إياها ، بشرط أن تؤمنوا به ، وتطيعوه ، وتجاهدوا فى سبيله ، وتستجيبوا لتوجيهات رسله ـ عليهم السلام ـ أو التى فرض الله عليكم دخولها، وأمركم به كما أمركم بالصلاة والزكاة .

---

(١) وقيل المراد بها: اريحاء ، وقيل :الشام ، وقيل :الطور وما حوله ، قال ابن جرير: « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : أن يقال : هى الأرض المقدسة ، كما قال نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ لأن القول فى ذلك بأنها أرض دون أرض ، لا تدرك حقيقة صحته إلا بالخبر ، ولا خبر بذلك يجوز القطع به ؛ غير أنها لن تخرج عن أن تكون من الأرض التى ما بين الفرات وعريش مصر ، لاجماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالإخبار على ذلك » جـ٦ ص ١٧٢ .

وليس هناك توكيد أقوى من هذا التوكيد لضمان النصر ، لأنه ضمان صادر من الله القوى العزيز .

وبعد أن أغراهم بمقتضيات الإقدام ، حذرهم من الجبن والإحجام، فقال : ﴿ لا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى : امضوا أيها القوم لأمر الله الذى أمركم به من دخول الأرض المقدسة ، ولا ترجعوا عما جئتكم به من الهدى، وتجبنوا عن القتال، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الخسار فى الدنيا والآخرة، وإلى حرمانكم من خيرات الأرض التى كتبت لكم .

قال ابن جرير : فإن قال قائل : وما كان وجه قول موسى لقومه ، إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة ، لا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، أو يستوجب الخسارة من لم يدخل أرضا جعلت له ؟ قيل : إن الله عز ذكره ـ كان أمره بقتال من فيها من أهل الكفر به ، وفرض عليهم دخولها ، فاستوجب القوم الخسارة بتركهم، إذن فرض الله عليهم من وجهين أحدهما : تضييع فرض الجهاد الذى كان الله فرضه عليهم ،والثانى : خلافهم أمر الله تعالى فى تركهم دخول الأرض، وقولهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ إذ قال لهم ادخلوا الأرض المقدسة : ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (١) .

وقد جاءت هذه الجملة الكريمة: ﴿ لا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ تحمل طابع التحذير الشديد ، وتنذرهم بالخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمره بعد أن ساق لهم ألوان المشجعات ، لأن موسى ـ عليه السلام ـ كان مشفقا ومتوقعا إحجام القوم عن الجهاد ، بعد أن جرب خبث نفوسهم ، وسوء طباعهم فى مواطن كثيرة ، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة ، يذكر لهم أكبر النعم، ويسوق لهم أكرم الذكريات ، وأقوى الضمانات وأشد التحذيرات ، لكى يمتثلوا أمره ، ويقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة وهمة عالية .....

ولكن بنى إسرائيل مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب ؛ فإن همتهم الساقطة، وعزيمتهم الخائرة، وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم ، فقد قالوا لنبيهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ١٧٢ .

متذرعين بالمعاذير الكاذبة : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ (١) وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ أى : إن الأرض التى وعدتنا بدخولها - يا موسى - فيها قوم أولوا قوة وأولو بأس شديد ، لا طاقة لنا بحربهم ، ولا قدرة لنا على قتالهم، فهم قوم متغلبون على كل من يقاتلهم ، فليس من العقل أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة بالدخول عليهم ، ثم أضافوا إلى هذا التعلل لعدم الدخول تأكيدا آخر نفوا فيه نفيا قاطعا دخولهم تلك الأرض مادام هؤلاء الجبارون فيها فقالوا ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ أى : أننا ياموسى لن ندخل هذه الأرض مطلقا ، ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن يخرجوا منها فنحن على استعداد لدخولها فى راحة ويسر ، وبلا أدنى تعب أو جهد أو قتال . .

ولاشك أن قولهم هذا حكته عنهم الآية الكريمة ، يدل على منتهى الجبن والضعف ، لأنهم لا يريدون أن ينالوا شيئا باستخدام حواسهم البدنية أوالعقلية، بل يريدون أن ينالوا ما يبغون بقوة الخوارق والآيات ، وأمة هذا شأنها لا تستحق الحياة الكريمة ، لأنها لم تقدم العمل الذى يؤهلها لتلك الحياة .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك أن رجلين مؤمنين منهم قد استنكرا إحجام بنى إسرائيل عن الجهاد ؛ وحرضاهم على طاعة نبيهم - عليه السلام - فقال تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . أى : قال رجلان موصوفان بأنهما من المتقين، الذين يخافون الله ويخشونه ، قد أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والثقة بوعده - تعالى - قالا لقومهما الممتنعين عن دخول الأرض المقدسة ، ياقومنا إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها فلا تخشوهم ، وادخلوا عليهم باب مدينتهم ، وفاجئوهم بسيوفكم، وبا غتوهم بقتالكم ، وامنعوهم من البروز إلى الصحراء ، لئلا يجدوا للحرب مجالا ، فإذا فعلتم ذلك أحرزتم النصر ، وأدركتم الغلب .

---

(١) الجبار صيغة مبالغة من جبر الثلاثى على القياس ، ويطلق فى اللغة على الطويل القوى المتكبر الذى يجبر غيره على ما يريد ، مأخوذ من قولهم : نخلة جبارة اى طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى.

وفى وصف هذين الرجلين بذلك ، تعريض بأن من عداهما من القوم ليسوا ممن يخافون الله ، وليسوا ممن أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان واليقين .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت من أين علما أنهم غالبون ؟ قلت : من جهة إخبار موسى بذلك وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ ﴾ . وقيل من جهة غلبة الظن، وما تبينا من عادة الله فى نصره رسله ؛ وما عهدا من صنع الله لموسى فى قهر أعدائه ؛ وما عرفا من حال الجبابرة » [1] .

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دعوة من الرجلين المؤمنين لقومهما ، بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب ، وأن يعقدوا عزمهم على دخول الباب على أعدائهم ، إن كانوا حقا مؤمنين بالله ، موقنين بصدق وعده ، فإن من طبيعة المؤمن أن يقدم متوكلا على الله ، فهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من الرجلين المؤمنين لم تصادف من بنى إسرائيل قلوبا واعية ، ولا آذانا صافية ، بل قابلوها بالتمرد والعناد ، وكرروا لنبيهم نفيهم القاطع للإقدام على دخول الأرض المقدسة ما دام الجبارون فيها، فقالوا : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ أى :قالوا غير عابئين بالنصيحة ، بل معلنين العصيان والمخالفة : ياموسى إنا لن ندخل هذه الأرض التى وعدتنا بدخولها فى أى وقت من الأوقات ، وبأية حال من الأحوال - فضلا عن أن نقتحمها عليهم - ما داموا هم يقيمون فيها ، لأننا لا طاقة لنا بقتالهم .

ثم أضافوا إلى هذا القول الذى ينم عن جبنهم وجزعهم ، سلاطة فى اللسان ، وسوء أدب فى التعبير ، وتطاولا على نبيهم - عليه السلام - فقالوا : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ أى : إذا كان أمر هذه المدينة يعنيك ، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة ، وأخرجاهم منها ، لأنه ليس ربا لنا ، إن كانت ربوبيته تكلفنا هذا الجهد الشاق ، وإنا هاهنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه ، لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين فنحن فى غنى عنه ، ولا رغبه لنا فيه.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤١٠ .

وقولهم هذا ،يدل أكبر دلالة عل سوء أدبهم مع ربهم - تعالى - وجفائهم فى مخاطبة نبيهم عليه السلام لأنهم قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والاستهانة بأوامر الله التى وصلتهم عن طريق رسوله .

(وهكذا يخرج الجبناء فيتطاولون ، والجبن والتطاول قرينان فى معظم الأحوال) .

وبعد أن أيقن موسى - عليه السلام - من جبن بنى إسرائيل ، وتأكد من إصرارهم التام على عدم القتال ، وسمع منهم الأقوال المنكرة، بعد كل ذلك لجأ إلى ربه يشكو إليه سوء صنيع قومه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى : قال موسى باثا شكواه وحزنه إلى الله ؛ ومعتذرا إليه من فسوق قومه وفرقهم : رب إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد الزمه بطاعتك إلا أمر نفسى ، وأمر أخى ، ولا ثقة لى فى غيرنا أن يطيعك فى العسر واليسر، والمنشط والمكره . ولم يذكر الرجلين اللذين قالا لقومهما فيما سبق ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ لعدم ثقته الكاملة فى دخولهما معه أرض الجبارين ، وفى وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية القوم عنه ، فإن بعض الناس يقدم على القتال مع الجيش الكثير ، ولكنه قد يحجم إذا رآى أن عدد المجاهدين قليل ، ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وأمر أخيه .

وصرح بأنه يملك أمر أخيه هارون، كما يملك أمر نفسه . لمؤازرته التامة له فى كفاحه ظلم فرعون، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة، فى كل موطن من مواطن الشدة، وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله - تعالى -

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت أما كان معه الرجلان المذكوران ؟ قلت : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه ، وتلونهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبى المعصوم الذى لا شبهة فى أمره ، ويجوز أن يكون قال ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه ، ويجوز أن يريد ومن يؤاخينى على دينى»[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ بيان لما يرجوه موسى - عليه

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤١١ .

السلام ـ من ربه ـ تعالى ـ بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته . أى : فاقض بيننا وبين القوم الخارجين عن أمرك ، بأن تحكم لنا بما نستحق . وتحكم عليهم بما يستحقون ، وهذا الرجاء من موسى ـ عليه السلام ـ لربه ـ تعالى ـ فى معنى الدعاء عليهم .

وقد أجاب الله دعاءه ، بأن أضلهم ظاهرا كما ضلوا باطنا ، وجاء الحكم الفاصل ممن يملكه، وهو قوله تعالى : ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ (١) فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: قال الله ـ عز وجل ـ لموسى مجيبا لدعائه ، يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة عليهم ، لا يدخلونها مدة أربعين سنة، يسيرون فى الصحراء تائهين متحيرين ،لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا ، فلا تحزن عليهم، بسبب هذه العقوبة ،لأننا ماعاقبناهم بها إلا لخروجهم عن طاعتنا . وتمردهم على أوامرنا ، وجبنهم عن قتال أعدائنا .

وهكذا أسلمهم شؤم صنيعهم ـ وهم على أبواب الأرض المقدسة ـ إلى التيه ، ليتدربوا على الخشونة ، وليرغبوا عن الترهل ؛ ولينالوا ما يستحقون من تاديب ، وليعلموا أن للنصر ثمنا يناسبه ، وأن العاقبة للمتقين .

قال ابن جرير : « فإن قال قائل : فكيف قال: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقد علمت أنهم لم يدخلوها بقوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ فكيف يكون مثبتا فى اللوح المحفوظ أنها مساكن لهم ، ومحرما عليهم سكناها ؟ .قيل : إنها كتبت لبنى إسرائيل دارا ومساكن ، وقد سكنوها ونزلوها وصارت لهم كما قال الله ـ تعالى ـ وإنما قال لهم موسى ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى بها : كتبها الله لبنى إسرائيل ، وكان الذين أمرهم موسى بدخولها من بنى إسرائيل ، ولم يرد أن الله ـ تعالى ـ كتبها للذين أمرهم بدخولها ، بأعيانهم . ولو قال قائل : قد كانت مكتوبة لبعضهم، والخاص منهم ؛ فأخرج الكلام على العموم ، والمراد منه الخاص ، إذ كان (يوشع وكالب) قد دخلا ، وكأنما ممن خوطب بهذا القول كان أيضا وجها صحيحا» (٢) .

---

(١) التيه : الصحراء التى يتاه فيها ، يقال تاه يتيه ويتوه إذا تحير ولم يعرف طريقه ، وصحراء تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم وجود الأعلام التى يهتدى بها فيها.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٢٧ .

ويرى من المناسب فى هذا المقام أن نتعرض للأمور الآتية :

أولا : الرد على اليهود فى دعواهم أن الأرض المقدسة ـ وهي فلسطين ـ ملك لهم مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

ثانياً : الحكمة فى كون عقابهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض.

ثالثاً : مايؤخذ من هذه الآيات من العبر والعظات.

وللآجابة على الأمر الأول نقول : للمفسرين أقوال فى المراد من الكتابة فى قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أشهرها قولان :

أولهما : أن معنى كتب الله لكم ، أى: أمركم بدخولها، وفرضه عليكم كما أمركم بالصلاة والزكاة ، فالكتب هنا مثله فى قوله تعالى : ﴿كتب عليكم الصيام﴾ أى : فرض عليكم ولزمكم وهذا قول قتادة ،والسدى.

والثانى ؛ أن معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ قدرها وقضى أن تكون مساكن لكم دون الجبارين، وهذا القضاء مشروط بالإيمان، وطاعة الأنبياء، والجهاد فى سبيل نصرة الحق، فإذا لم يكونوا كذلك ـ وهم لم يكونوا كذلك فعلا ـ لم يتحقق لهم التمكين في الأرض المقدسة ، ولذا بعد أن أغراهم نبيهم ـ عليه السلام ـ بأن هذه الأرض مكتوبة لهم، حذرهم من العصيان، ومن الجبن والمخالفة فقال لهم ﴿ لا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى : ولا تعصوا أمرى ، وتنكصوا عن الجهاد وترجعوا القهقرى مرتدين على أدباركم فتبوءوا بالخسران ، وتحرموا من الأرض التى كتب الله لكم. قال الآلوسى : « فإن ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان قطعا » (١) .

وقال ابن عباس : « كانت هبة من الله لهم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم » (٢) .

وقال الفخر الرازى : « إن الوعد بقوله ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لاجرم لم يوجد المشروط » (٣) .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص ٣٨٨ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص ٣٨٨ .

وعلى كلا الرأيين فإن الآية الكريمة تصور بأسلوب بليغ ، ما كان عليه بنو إسرائيل من جبن وتخاذل، إذ أن نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ قد ساق لهم أقوى أنواع التحريض على الإقدام لدخول الأرض المقدسة فقال لهم ـ كما حكى القرآن عنه : ـ

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . ثم بعد ذلك أنذرهم بسوء المصير إذا هم خالفوا أمره فقال لهم : ﴿ لا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ومع كل هذا الترغيب في دخولها، والترهيب من المخالفة والتردد، فإن بنى إسرائيل قد نكصوا على أعقابهم خاسرين، وأبت نفوسهم الذليلة أن تتقدم خطوة نحو الأرض التى أمرهم نبيهم بدخولها، بل أضافوا إلى ذلك الجبن والخور، إمعانا فى الإدبار والعصيان، فقالوا لنبيهم ومرشدهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ :

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن رجلين صالحين ، وقفا إلى جانب موسى ـ عليه السلام ـ ينصحان بنى إسرائيل بطاعته ،. ويشجعانهم على دخول تلك الأرض فقالا لهم : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إلا أن بنى إسرائيل لم تنفع معهم كل هذه النصائح والعظات ، بل قابلوها بالتمرد والعناد ، فقد أكدوا لنبيهم أنهم لن يدخلوا الأرض المقدسة مادام الجبارون فيها، لأن دخولهم فيها يستلزم الجهاد والحرب، وهم ليسوا أهلا لذلك ، وإنما هم أهل لسلب ماتهواه نفوسهم المريضة بدون أى جهاد ،أو مجهود .

وقد صور القرآن الكريم ما استولى على قلوبهم من جبن خالع، وعلى نفوسهم من سوء أدب فى التعبير فقال : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

وبسبب هذا الإصرار على الجبن والتمرد من بنى إسرائيل، عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالحرمان من دخولها، وبالتيهان فى قطعة من أرضه فقال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وبذلك نرى أن قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يصور لنا بدليل السياق والسباق نفسية بنى إسرائيل الخوارة، وكيف أنهم أمعنوا فى معصية نبيهم، وأبوا دخول الأرض المقدسة رغم كل ماساق لهم من بشارات، وماتوعدهم به من عقوبات.

والخلاصة أن الكتابة فى قوله تعالى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ إما أن تكون كتابة تكليفية على معنى: كتب عليكم،وفرض أن تدخلوها مجاهدين مطيعين لنبيكم.

وإما أن تكون كتابة قدرية ، أى : قضى وقدر الله ـ تعالى ـ أن تكون لكم. وهى فى هذه الحالة مشروطة بالإيمان، وامتثال الأوامر، وقيامهم بواجب الجهاد والطاعة لنبيهم ، وبنو إسرائيل لم يتحقق فيهم هذا لاشرط، بل الذى تحقق منهم أنهم كفروا بالله، وعصوا أنبياءهم ، وجبنوا عن الجهاد فى سبيل الله . وحتى بعد أن فتح الله لهم باب رحمته، وقال لهم ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾. لم يقابلوا هذه النعمة الجليلة بالطاعة والشكر، وإنما قابلوها بالجحود والبطر، فكانت عاقبة أمرهم أن أنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب فسوقهم وظلمهم.

وبذلك نرى أن دعوى اليهود أن: الأرض المقدسة ملك لهم بدليل قوله تعالى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ لا أساس لها من الصحة، ولايشهد لها عقل أو نقل.

وللإجابة على الأمر الثانى ـ وهو كون عقابهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ـ نقول : اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يجعل عقوبته لقوم مناسبة لما اجترجوا من ذنوب وآثام ، وبنو إسرائيل لطول ما ألفوا من ذل واستعباد، على أيدى فرعون وقومه، هانت عليهم نعمة الحرية، وضعف عندهم الشعور بالعزة ، وماتت فيهم صفة الإحساس بالكرامة الإنسانية، وأصبحت حياة الذلة والعبودية والاسترقاق مع القعود أحب إليهم من حياة العزة والكرامة مع الجهاد... ولهذا عندما دعاهم نبيهم ـ عليه السلام ـ لدخول الأرض المقدسة ليعيشوا فيها عيشة طيبة عزيزة، اعتذروا إليه بشتى ألوان المعاذير ، وأكدوا له عدم اقترابهم منها طول حياتهم مادام الجبارون فيها.

فاقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يحرمهم منها جزاء جبنهم وعصيانهم، وأن

يحكم عليهم بالتيهان فى الأرض حيارى، لا يعرفون لهم مقرا ، حتى ينشأ منهم جيل آخر ، يقدر نعمة الحرية قدرها.

قال ابن خلدون في مقدمته : « .... ويظهر من مساق الآية الكريمة [١] ومفهومها : أن حكمة ذلك التيه مقصودة ، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به، وأفسدوا من عصبيتهم ، حتى نشأ فى التيه جيل آخر عزيز لايعرف الاستعباد والقهر، ولا يسأم المذلة والخسف، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى، اقتدروا بها على المطالبة والتغلب، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة ، أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر، سبحان الحكيم العليم»[٢] .

ولصاحب المنار كلام حسن فى حكمة هذه العقوبة، نرى من المناسب إثباته هنا، فقد قال فى ختام تفسيره لهذه الآيات الكريمة: « إن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستبداد، وتساس بالظلم والاضطهاد ، تفسد أخلاقها وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة،، وتألف الخضوع ، وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية، إذا أخرجتَ صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نيرها، وألفيته ينزع بطبعه إليها، ويتفلت منك ليتقحم فيها، وهذا شأن البشر فى كل ما يألفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر.

وقد ضرب النبى (ﷺ) مثلا لهدايته ، وضلال الراسخين فى الكفر فقال : «مثل ومثلكم كرجل استوقد نارا فلما أضارت ماحولها جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، ويجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[٣] .

أفسد ظلم الفراعنة فطرة بنى إسرائيل فى مصر، وطبع عليها بطابع المهانة والذل؛ وقد أراهم الله ـ تعالى ـ ما لم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدّق رسوله موسى ـ عليه السلام ـ وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل والعبودية والعذاب، إلى الحرية والاستقلال والعز والنعيم، وكانوا

---

(١) المراد بها قوله تعالى: ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ... ﴾ .

(٢)مقدمة ابن خلدون الفصل ١٩ .

(٣) رواه الشيخان .

مع هذا كله، إذا أصابهم نصب أو جوع، أو كلفوا أمرا يشق عليهم، يتطيرون بموسى ويتململون منه، ويذكرون مصر، ويحنون إلى العودة إليها؛ ولما غاب عنهم أياما لمناجاة ربه اتخذوا إلههم عجلا من حليهم وعبدوه.... وكان الله ـ تعالى ـ يعلم أنهم لاتطيعهم نفوسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وأن وعده ـ تعالى ـ لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته فى طبيعة الاجتماع البشرى، إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية والعبودية ،ونشأ بعده جيل جديد فيه حرية البداوة ، وعدل الشريعة ، ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم، حتى يبين لهم حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم.

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله ـ تعالى ـ بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله إليهم، فأبوا واستكبروا فأخذهم الله ـ تعالى ـ بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قوما آخرين، جعلهم هم الأئمة الوارثين ، جعلهم كذلك بهممهم وأعمالهم الموافقة لسنته وشريعته المنزلة عليهم، فهذا بيان حكمة عصيانهم لموسى بعد ماجاءهم بالبينات، وحكمة حرمان الله ـ تعالى ـ لذلك الجيل منهم من الأرض المقدسة .

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التى بينها الله تعالى لنا، ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد،إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها، وقد كان يقوم بهذا فى العصور السالفة الأنبياء، وإنما يقوم بها بعد ختم النبوة ورثة الأنبياء، الجامعون بين العلم بسنن الله فى الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والإخلاص فى حب الإصلاح، وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات، ومن يضلل الله فما له من هاد» (١) .

وللإجابة على الأمر الثالث ـ وهو مايستفاد من هذه الآيات من عظات ـ نقول : إن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على لون فريد فى أسلوب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ فقد بدأت بتذكير بنى إسرائيل بأمجادهم، وبعظم نعم الله عليهم ، لتغرس فيهم الشعور بالعزة ، ولتغريهم بالإستجابة لما أمر به ـ سبحانه ـ .

كما اشتملت على تحذيرهم من مغبة الجبن والمخالفة والنكوص على الأعقاب، لأن ذلك يؤدى بهم إلى الخسران فى حياتهم وبعد مماتهم.

---

(١) تفسير المنار جـ ص ٣٣٧ .

وفوق ذلك فقد صورت بأمانة وصدق جبلة بنى إسرائيل على حقيقتها، وكشفت - بلا حجاب - عن خور عزيمتهم، وسقوط همتهم ، وجبن نفوسهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم ، وعصيانهم لأنبيائهم ، واحجامهم عن الجهاد فى سبيل الله، وجفائهم فى مخاطبة رسلهم، مما جعلهم أهلا للعقوبات الرادعة بسبب جبنهم ومعصيتهم . . .

وفى ذلك تسلية للرسول - ﷺ - عما لحقه من اليهود المعاصرين له، من أذى وتحذير لهم من السير على طريقة آبائهم المعوجة، ومن التأسى بأخلاقهم المرذولة ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للعقوبات التى حلت بأسلافهم .

قال الإمام ابن كثير : « تضمنت هذه القصة تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعته فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم . هذا ، مع ماشهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال، والغرق له ولجنوده فى البحر، وهم ينظرون ، لتقربه أعينهم - وما بالعهد من قدم - ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لاتوازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم، وظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لايغطيها الليل، ولا يسترها الذيل .

ثم قال : فأين هم مما قاله الصحابة يوم بدر حين استشارهم الرسول ﷺ فى قتال قريش : « لقد قالوا له يارسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد، وما تكره أن تلقى بنا عدونا غدا، وإنا لصُبُر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله .. » (١) .

كذلك يؤخذ من هذه القصة أن معصية الله ورسله تؤدى إلى الخسار فى الدنيا والآخرة فإن بنى إسرائيل لما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة، وعصوا أمر نبيهم موسى - عليه السلام - عاقبهم الله - تعالى - بالتيه مدة أربعين سنة .

وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التى سجلت على اليهود حرصهم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩ .

على الحياة، وجبنهم عن الجهاد، وإعراضهم عن النصيحة ، وعصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - وجدالهم له بالباطل من القول ، وقد أدى بهم ذلك إلى سوء العقبى فى الدنيا والآخرة .

ثامنا : طلبهم من نبيهم موسى أن يجعل لهم إلها كما لغيرهم آلهة :

عاش بنو إسرائيل فى مصر زمانا طويلا ، ذاقوا فيه سوء العذاب، وألفوا خلال معيشتهم فى مصر وثنية قدماء المصريين وعبادتهم للعجل، شأن المغلوب فى تقليده الغالب وشاء الله - تعالى - أن ينقذهم مما هم فيه من جهالات وذل وهوان، فأرسل نبيه موسى - عليه السلم - ليدعو فرعون وقومه إلى عبادة رب العالمين، ولكن فرعون طغى وبغى، ولم يذعن للآيات والنذر التى جاءه بها موسى، فكان مصيره هو ومن معه الغرق فى البحر أمام أعين بنى إسرائيل، الذين كانوا قد خرجوا بقيادة نبيهم موسى مهاجرين من مصر إلى بلاد الشام. وما أن جاوز بنو إسرائيل البحر الذى غرق فيه عدوهم أمام أعينهم، والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، فعاودتهم طبيعتهم الوثنية ، وحنوا إلى ماعليه القوم من ضلال فطلبوا من نبيهم ومنقذهم من وثنية فرعون وظلمه، أن يجعل لهم إلها من جنس تلك الآلهة التى رأوها تعبد من دون الله، وهنا غضب موسى - عليه السلام - عليهم، وعاب عليهم جهالاتهم وفساد تفكيرهم وبين لهم أن ما عليه هؤلاء القوم زائل وهالك وأنكر عليهم ابتغاءهم إلهاً سوى الله تعالى الذى فضلهم على عالمى زمانهم، وأنجاهم بلطفه وفضله من العذاب، الذى كانوا يلقونه من فرعون وقومه. وتظاهر بنو إسرائيل بالاقتناع لما قاله لهم نبيهم، إلا أن بلادة طبعهم لم تفارقهم، فقد عبدوا العجل فى غيبة موسى عنهم كما سنفصل ذلك بعد قليل.

ولقد صور القرآن الكريم بأسلوبه البليغ حادثة طلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلها - صنما - كما لغيرهم آلهة من الأصنام - فقال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ

فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

هذه الآيات الكريمة وما بعدها شروع في بيان قصة موسى - عليه السلام - مع قومه بني إسرائيل ، بعد أن بينت الآيات السابقة قصته مع فرعون التي انتهت بتدمير ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون . ومعنى الآيات الكريمة :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ برعايتنا وقدرتنا ، فأتوا عقب عبورهم إياه على قوم يواظبون على عبادة أصنام لهم ويلازمونها ، فحنت قلوبهم إلى الوثنية وقالوا لنبيهم : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ فزجرهم نبيهم بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ شأن الألوهية وعظمتها ، إن عبدة هذه الأوثان مدمر ومهلك ما هم فيه، وزائل ما كانوا يعملونه من عبادة غير الله الواحد القهار . ثم زاد في توبيخهم والإنكار عليهم بقوله ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : خصكم بنعم لم يعطها لغيركم من عالمي زمانكم ، فكان من الواجب عليكم أن تشكروا هذه النعم ، وأن تذكروا وقت أن نجاكم من آل فرعون الذين ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم ﴾ العذاب والنجاة منه ﴿ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بيان للمنة العظمى التي منحهم الله إياها ، وهي عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى تجاوزوه ، يصحبهم لطف الله - تعالى - وتحدوهم رعايته وعنايته .

وقوله تعالى ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب في ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذي دعاهم إلى توحيد الله تعالى لكي يزيدهم من فضله .

ولكن طبيعة بني إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما أن وقعت

---

(١) الآيات من ١٣٨ - ١٤١ .

أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم (١) ،حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى أنقذهم مما هم فيه بنور التوحيد ، أن يجعل لهم وثنا كغيرهم لكى يعبدوه من جديد . لقد حكي القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، ما لبثوا أن قالوا لنبيهم: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ . قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم، ولأن ما ألفوه من عبادة للأصنام أيام استعباد فرعون لهم ، ما زال متمكنا من نفوسهم ، ومسيطرا على عقولهم، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس، كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفى قولهم لنبيه :﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ بصيغة الأمر ؛ أكبر دليل على غباء عقولهم ؛ وسوء أدبهم لو استأذنوه مثلا فى اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة ؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه، وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله تعالى ؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار ـ أن يقوم هو بنفسه بصياغة صنم لهم لكى يعبدوه كغيرهم !! .

ولقد غضب موسى ـ عليه السلام ـ من طلبهم هذا، وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه ـ فرد عليه ردا قوياً فيه توبيخ لهم، وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى : إنكم يا بنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم، وغطى على عقولكم، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم. ولو يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم، وسفه النفس، وفساد العقل، وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، وبين لهم فساد ما طلبوه فى ذاته، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ماهم فيه بالدمار، ومقضى على

---

(١) اختلف المفسرون فى شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بنى إسرائيل بهم، فقيل: هم من عرب لخم. وقيل: هم من لخم وجذام. وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ـ عليه السلام ـ قومه بقتالهم . وقيل: إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر .

ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار، وستصير العبادة لله الواحد القهار.

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء مايطلبون، وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير.

قال الإمام الرازى : « والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول فى هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سببا لاستحكام ذكر الله تعالى فى القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعالى تعلق قلبه بغيره، ويصير ذلك التعلق سببا لأعراض القلب عن ذكره تعالى. وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع، وسعى فى تحصيل ضد هذا الشيء ونقيضه، لأنا بيّنا أن المقصود من العبادة، رسوخ معرفة الله - تعالى - فى القلب، والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب، فكان هذا ضداً للغرض، ونقيضاً للمطلوب - والله أعلم - » (١) .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : قال موسى - عليه السلام - مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع ،أغير الله أطلب لكم معبودا أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمى زمانكم ، وقد كان من الواجب عليكم أن تختصوه بالعبادة ، كما اختصكم هو بشتى النعم الجليلة .فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار المشرب معنى التعجب ، لا بتغائهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل ، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

فهذه المنة العظمى كانت جديرة بأن تذكر من بنى إسرائيل وتشكر، لأن فيها

---

(١) تفسير الرازى جـ٤ ص ٢٩١ .

ابتلاء بالعذاب ، وابتلاء بالنجاة، لينظر ـ سبحانه ـ كيف يعملون؟ وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير، وسفاهة تفكير. فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلها كما لغيرهم آلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ماطلبوه فى ذاته ؛لأن مصيره إلى الزوال والهلاك، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون إلها، ثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر، ثم ذكرتهم فى ختامها بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم، لتشعرهم بأن ماطلبوه من نبيهم، هو من قبيل مقابلة الإحسان بالجحود والنكران، ولتحملهم على أن يتدبروا أمرهم، ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحا، إن كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات.

تاسعاً : عكوفهم على عبادة العجل من دون الله :

من الرذائل التى تدل على جهالات بنى إسرائيل، والتواء نفوسهم، وفساد عقولهم، وانطماس بصيرتهم ، وتأبيهم على الإصلاح والمعالجة، اتخاذهم العجل معبودا من دون الله، واستحواذ محبته على قلوبهم.

وقد وبخ القرآن الكريم بنى إسرائيل على هذه الرذيلة التى أشربتها نفوسهم ، وبين لهم فسادها وبطلانها فى كثير من سوره وآياته .

وقبل أن نتعرض لتفسير الآيات التى تحدثت عن عبادة بنى إسرائيل للعجل، وارتكابهم هذه الرذيلة، نرى أن من المناسب أن نسوق بين يدى الآيات خلاصة تاريخية موجزة، عن قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل فنقول :

بعد أن أغرق الله ـ تعالى ـ فرعون ومن معه أمام أعين بنى إسرائيل ،ونجاهم من ظلمه، وسار بهم نبيهم موسى إلى أرض الشام ، أراد ـ سبحانه ـ أن يكرمهم بهدايته، فواعد موسى ـ عليه السلام ـ أن يعطيه التوراة بعد أربعين يوما يصومها، واستخلف موسى عليهم أخاه هارون خلال فترة غيابه عنهم وقال له :﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

ولكن بنى إسرائيل بعد أن فارقهم موسى لتلقى التوراة من ربه ـ التى فيها هداية

ونور لهم - انتهزوا لين جانب هارون معهم، فعبدوا عجلا جسدا له خوار،صنعه لهم السامرى من حلى نسائهم، التى استعاروها من قبط مصر، وحاول هارون أن يصدهم عن ذلك بشتى السبل ،ولكنهم أعرضوا عنه قائلين : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ . فلما كرر عليهم النصيحة استضعفوه وكادوا يقتلونه . وأعلم الله - تعالى - موسى أن قومه قد فتنهم السامرى بعبادة العجل، فعاد إليهم مغضبا حزينا . وأخذ يوبخهم بقوارص الكلم، وينذرهم بسوء المصير ، فاعتذروا إليه بأن السامرى هو الذى خدعهم وأضلهم.

وظن موسى - عليه السلام - أن أخاه هارون قد قصر معهم؛ فأخذ يعاتبه بشدة إلا أن هارون - عليه السلام - بين له أنه لم يأل جهدا فى نصيحتهم ووعظهم ولكنهم قوم لايحبون الناصحين .

ثم وجه موسى - عليه السلام - بعد ذلك توبيخه وتقريعه إلى السامرى - رأس الفتنة ومدبرها - فقال له بعد أن سمع كلامه . ﴿ فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ؛ وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ﴾ وعلى مشهد من بنى إسرائيل وفى موسى - عليه السلام - بوعده فأحرق العجل، وألقى ترابه في البحر؛ وأثبت للجميع أن المستحق للعبادة إنما هو الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .
وأوحى الله - تعالى - لموسى أن توبة عابدى العجل من قومه لن تكون مقبولة إلا بقتلهم لأنفسهم ، فلما فعلوا ذلك عفا الله - تعالى - عنهم لعلهم يشكرون .

هذه خلاصة تاريخية موجزة، لقصة اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلها من دون الله، والآن فلنبدأ فى تفسير الآيات الكريمة التى تعرضت لهذه القصة، وهذا هو القسم الأول منها :

(أ) قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى ـ عليه السلام ـ لهم، وذهابه لتلقى التوراة عن ربه . مستخلفا عليهم أخاه هارون .

والحلى [١] ـ بضم الحاء والتشديد ـ جمع حلى ـ بفتح فسكون ـ كثدى وثدى ـ وهى اسم لما يتزين به من الذهب والفضة، وهذه الحلى كان نساء بنى إسرائيل ـ قبيل خروجهن من مصر ـ قد استعرنها من نساء المصريين ، فلما أغرق الله ـ تعالى ـ فرعون وقومه ، بقيت تلك الحلى فى أيديهن ، فجمعها السامرى بحجة أنها لا تحل لهن، وصاغ منها عجلا جسدا له خوار، وأوهمهم بأن هذا إلههم، وإله موسى فعبدوه، من دون الله .

قال الحافظ ابن كثير : « وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار؟، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم » [٢] .

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم؛ لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت، كصوت البقر؛ ليكون معبودا لهم .

قال صاحب الكشاف :« فإن قلت : لم قيل واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا، والمتخذ هو السامرى؟ قلت فيه وجهان، أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ؛لأن رجلا منهم باشره ووجد بين ظهرانيهم، كما يقال : بنو تميم قالوا كذا، وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه، راضين

---

(١) قال القرطبى : ﴿ من حليهم ﴾ هذه قراءه أهل المدينة وأهل البصرة، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما (من حليهم) بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب (من حليهم) بفتح الحاء والتخفيف.) جـ ٧ ص ٢٨٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ .

به، فكأنهم أجمعوا عليه. والثانى : أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه . فإن قلت: لم قال من حليهم، ولم تكن الحلى لهم إنما كانت عارية فى أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عوارى فى أيديهم كفى به ملابسة، على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ تقريع لهم على جهالاتهم . وبيان لفساد عقولهم، والمعنى :

أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ، أنهم لم يفطنوا حين عبدوا العجل، أنه لايقدر على مايقدر عليه آحاد البشر، من الكلام والإرشاد، إلى أى طريق من طرق الإفادة ، وليس ذلك من صفات ربهم، الذى له العبادة، لأن من صفاته ـ تعالى ـ أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى طريق الخير، وينهاهم عن طرق الشر. !!

ثم أكد ـ سبحانه ـ ذمهم بقوله ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اتخذوا العجل معبودا لهم، وهم يشاهدونه لايكلمهم بأى كلام، ولايرشدهم إلى أى طريق، ولاشك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم، بعبادتهم غير الله ، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها.

وفى التعبير عن ظلمهم بلفظ ﴿ كَانُوا ﴾ المفيد للدوام والاستمرار ، إشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ ، وأن ماصدر عنهم ليس بدعا منهم، ولا أول منا كيرهم، فقد سبق لهم أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى؛ ﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ أى : وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ؛ وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم ،قالوا متحسرين ﴿ لئن لم يغفر لنا ربنا ويرحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أى : لنكونن من الهالكين، الذين حبطت أعمالهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٠٩.

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات، وقد أعطاه الله التوراة ؛ بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا :﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ وبدليل أن موسى ـ عليه السلام ـ لما رجع أنكر عليهم ماهم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم، وبصرهم بما هم عليه من ضلال مبين .

ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ولما سقط فى أيديهم ﴾ ، « ولما ندم الذين عبدوا العجل، الذى وصف ـ جل ثناؤه ـ صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف ، وعاجز عن شئ : قد سقط فى يديه وأسقط ، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرعه، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض ليأسره ، فالمرمى به مسقوط فى يدى الساقط به، فقيل لكل عاجز عن شيء ومتندم على مافاته: سقط فى يديه وأسقط » [1] .

وعبر ـ سبحانه ـ عن شدة ندمهم بقوله تعالى : ﴿ ولما سقط فى أيديهم ﴾ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما، فتصير يده مسقوطا فيها، لأن فاه قد وقع فيها، وكأن أصل الكلام: ولما سقطت أفواههم فى أيديهم، أى: ندموا أشد الندم .

قال صاحب تاج العروس : « وفى (العباب) هذا نظم لم يُسمَع به قبل القرآن ولا عرفته العرب (والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سِقْط) ؛لأنهم شبهوه بما لايحتاج إليه، وذكر اليد؛ لأن الندم يحدث فى القلب، وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى: ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ ولأن اليد هى الجارحة العظمى ، فربما يسند إليها مالم تباشره كقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ [2] .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماجرى من موسى ـ عليه السلام ـ بعد رجوعه من الميقات وعلمه بفتنة قومه، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٩ ص ٦٢ .

(٢) تفسير القاسمى جـ٧ ص ٢٥٩ .

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ بيان للحالة التى كان عليها موسى ـ عليه السلام ـ عند رجوعه من الطور ؛ ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه، فهو كان غاضبا عليهم؛ لعبادتهم غير الله ـ تعالى ـ وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار .

قال الإمام الرازى : « فى الأسف قولان : الأول : أن الأسف : الشديد الغضب، وهو قول أبى الدرداء، وعطاء عن ابن عباس ، واحتجواله بقوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ أى : أغضبونا . والثانى : أن الأسف هو الحزين ، وهو قول الحسن والسدى وغيرهما، واحتجوا له بحديث عائشة، أنها قالت : « إن أبا بكر رجل أسيف أى حزين» .

قال الواحدى : والقولان متقاربان؛ لأن الغضب من الحزن، والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا، والأخرى غضبا . . . » [١] .

وقول موسى لقومه : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ ذم منه لهم، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم، إلى مناجاة ربى، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم، حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم، من توحيد الله، وإخلاص العبادة له ، والسير على سنتى وشريعتى .

وفاعل (بئس) مضمر يفسره (ماخلفتمونى) والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم .

وقوله ﴿ مِن بَعْدِي ﴾ معناه : من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله، ونفى الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له ، أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه .

---

(١) تفسير الرازى جـ ٤ ص ٣٠٢ .

وقوله تعالى ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ معناه : أسبقتم بعبادة العجل أمر ربكم، وهو إتيانى لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة ، قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل، فخدعهم السامرى، وصنع لهم العجل فعبدوه، وجعلوا يغنون ويرقصون حوله ويقولون : هذا هو الإله الحق، الذى أنقذنا من الظلم .

قال صاحب الكشاف :« يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام . . . ويضمن معنى سبق فيتعدى تعديته فقال : عجلت الأمر . والمعنى : أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى، حافظين لعهده ،وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره، ولن أرجع إليكم ، فحدثتم أنفسكم بموتى فغير تم ،كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

وروى: أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل : «هذا إلهكم وإله موسى ، وإن موسى لن يرجع وإنه قد مات» .

وروى: أنهم عدوا عشرين يوما بلياليها، فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا(١) .

ثم بين سبحانه أن غضب موسى ترتب عليه أمران يدلا ن على شدة الانفعال : أولهما : قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ أى: طرحها من يديه؛ لما اعتراه من فرط الدهش ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه، وهم عاكفون على عبادة العجل، فإلقاؤه الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه، وسخطا على قومه، الذين عبدوا ما يضرب به المثل فى البلادة . . . .

وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى : أخذ موسى برأس أخيه هارون، يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل . ولكن هارون ـ عليه السلام ـ أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد، وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرئ ساحته من مغبة التقصير ، فقال له : ﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . أى : قال هارون لموسى مستعطفا : يا ابن أمى ـ بهذا النداء الرقيق، وبتلك الوشيجة الرحيمة ـ لا تعجل بلومى وتعنيفى ، فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم ،وما قصرت فى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥١٠ .

نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إلى ، بل قهرونى واستضعفونى ، وأوشكوا أن يقتلونى، عندما بذلت أقصى طاقتى؛ لأخفف من هياجهم واندفاعهم نحو العجل، فلا تفعل بى ماهو أمنيتهم، ومحل شماتتهم، من الاستهانة بى، والإساءة إلى ، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة، حين يكون هناك أعداء يشمتون، ولاتجعلنى فى زمرة القوم الظالمين، فإنى برىء منهم، ولقد نصحتهم ولكنهم، قوم لايحبون الناصحين .

وهنا اقتنع موسى ـ عليه السلام ـ ببراءة هارون من مغبة التقصير، فقال :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى : قال موسى ليرضى أخاه ، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، بعد أن ثبتت براءته، رب اغفر لى ما فرط منى، من قول أو فعل فيهما غلظة على أخى، واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه، مما أنت أعلم به منى، وأدخلنا فى رحمتك، التى وسعت كل شيء، فأنت أرحم بعبادك من كل راحم.

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير، وأثبت أنه قد عرض نفسه للأذى فى سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته، وفى ذلك تصحيح لما جاء فى التوراة :« الفصل الثانى والثلاثون من سفر الخروج» من أن هارون ـ عليه السلام ـ هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل؛ ليعبدوه فى غيبة موسى ـ عليه السلام ـ .

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾.

والمعنى : أن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالهم، سيحيق بهم سخط من ربهم، ولا نقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار فى الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفترين جميعا، فى كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا، فهو جزاء متكرر، كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم.

ثم فتح ـ سبحانه ـ بابه لكل تائب صادق فى توبته، فقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحاً ، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله - تعالى - من بعد كل تلك الكبائر ،التى أقلعوا عنها لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، رحيم بهم ،وبكل من كان مثلهم من التائبين.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد أن دمغت بنى إسرائيل بما يستحقونه من تقريع ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة؛ ليفيئوا إلى نور الحق ، وليتركوا ما انغمسوا فيه من ضلالات وجهالات.

(ب) أما القسم الثانى من الآيات التى تحدثت عن قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل باستفاضة، فهى فى سورة طه . وقد تضمنت إضلال السامرى لهم، ورجوع موسى إليهم غضبان أسفا، واعتذارهم له بالأعذار الواهية ، واعتراف السامرى بجرمه ، وبيان ما عوقب به ، وما صنعه موسى فى العجل، الذى عبدوه من دون الله، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

تفسير الآيات الكريمة :

قوله تعالى :﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾معناه :أى شيء عجل بك عن قومك ياموسى،وجعلك تتقدمهم وتخلفهم وراءك،مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر؛ ليكون نظره محيطا بهم، ونافذا فيهم؟ فأجاب موسى معتذرا لربه : هم أولاء على مقربة منى، وسيلحقون بى على أثرى، وعجلت إليك رب فسبقتهم؛ ليزيد رضاك عنى.

وتفصيل ذلك أنه لما سار موسى ببنى إسرائيل إلى أرض الشام بعد هلاك فرعون، واعده ربه أن يؤتيه التوراة بعد أربعين ليلة يصومها، فسارع موسى ـ عليه السلام ـ بعد انقضاء تلك المدة إلى الطور؛ لتلقى التوراة ، وكان قد استخلف على قومه أخاه هارون ، واختار منهم سبعين رجلا يذهبون معه، فلما اقترب من مكان المناجاة هاجه الشوق فسبقهم، ولهذا قال الله له : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت ما أعجلك » سؤال عن سبب العجلة، فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك، أو الشوق إلى كلامك، وقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ كما ترى غير منطبق عليه ؟ قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين :

أحدهما : إنكار العجلة فى ذاتها. والثانى : السؤال عن السبب الحامل عليها، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر، وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد إلا تقدم يسير، وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة، ثم عقبه بجواب السؤال، فقال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (١) .

ثم أخبر الله تعالى نبيه موسى بماحصل لقومه بعد فراقه لهم، فقال تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٢) . أى : قال ـ سبحانه ـ لموسى : فإنا قد ابتلينا قومك من بعد فراقك لهم بعبادة العجل، وأضلهم السامرى بالدعاء إلى

---

(١) تفسير الكشاف بتصرف جـ ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) السامرى فى لغة للعرب بمعنى اليهودى، وقد اختلف المفسرون فى شانه، فقيل :كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة، وقيل :كان علجا من كرمان، وقيل: من أهل (باجرما) قرية قريبة من مصر . وكلها اقوال مظنونة. غير محققة .

عبادته، وكان هو أشدهم ضلالا؛ لأنه ضال مضل. ولا شك أن موسى - عليه السلام - أحزنه هذا الخبر، لأن القوم الذين استخلصهم من الذل والاستعباد ليكونوا أمة، تخلص عبادتها لله وحده، وتؤدى رسالتها فى الحياة على أحسن وجه، قد انتكسوا فى الوثنية بمجرد فراقه لهم، لأن الذل الطويل الذى عاشوا فيه أفسد استعدادهم للخير، وترك فى طبيعتهم استعدادا ضخما للانقياد السريع إلى الشر بدون تعقل.

ولقد حكى الله - تعالى - ما كان من موسى بعد أن علم بفتنة قومه، فقال تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ فقال لهم على سبيل التقريع والزجر: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ لا سبيل لكم إلى إنكاره؟ فقد وعدكم بإنزال التوراة، التى فيها هدى ونور،ووعدكم بدخول الأرض المقدسة، ووعدكم بإهلاك عدوكم، وقد شاهدتم، بأنفسكم، ووعدكم بكل خير فى الدنيا والآخرة إذا أخلصتم العبادة له ، فلماذاأعرضتم عن طاعته وعبادته مع أنكم تعيشون في خيره وكرمه؟ ثم زاد فى تأنيبهم، والإنكار عليهم قائلا: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾؟ أى : أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه، فنسيتم جميل نعم الله عليكم، ووعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع إليكم - وما بالعهد من قدم - أم تعمدتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟

قال ابن جرير : « كان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد، الذى كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذنهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه فى أثر موسى ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ (1) .

وبعد هذا التبكيت أخذوا يعتذرون إليه بالمعاذير العجيبة، التى تدل على تأثرهم بالاستعباد الطويل، وجريهم وراء كل ناعق بدون تعقل، وعلى تخلخل نفوسهم، وبلادة عقولهم فبماذا اعتذروا ؟

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ (2). أى : قال بنو إسرائيل لموسى معتذرين، ما

(1) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٢٩ .

(2) قرأ نافع وعاصم ،وعيسى بن عمر بفتح الميم وسكون اللام وكسر الكاف ﴿ بملكنا ﴾ ومعناه: بطاقتنا، وقرأ ابن كثير ،وأبو عمرو، وابن عامر (بملكنا) بكسر الميم، وهى مصدر ملكت الشيء أملكه ملكا. وقرأ حمزة ،والكسائى (بملكنا بضم الميم، والمعنى: بسلطاننا، اى: لم يكن لنا ملك فنخلف وعدك . . القرطبى جـ ١١ ص ٢٣٤ .

أخلفنا عهدك فعبدنا العجل عن قدرتنا واختيارنا، فقد كان الأمر أكبر من طاقتنا، ولو خلينا وأنفسنا، ولم يسول لنا السامرى ما سوله، ما عبدنا العجل الذى صنعه لنا.

قال ابن جرير : « وقوله: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ يخبر الله ـ تعالى ـ عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا :إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا فى الذى وقعنا فيه من الفتنة » (١) .

ثم فصلوا تلك الفتنة التى جعلتهم يتركون عهد موسى إليهم بعبادة الله فقالوا: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ أى: ولكنا قد استعرناها منهم، بحجة أن لنا عيدا قريبا وبقيت معنا بعد فراقنا لمصر، فحفر السامرى حفرة، وأوقد فيها نارا، وأمرنا أن نقذف فيها تلك الحلى تخلصا منها؛ لأنها حرام، فقذفناها، وكما قذفنا نحن تلك الحلى فى النار، ألقى السامرى ماكان معه فيها.

قال الإمام ابن كثير : « وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير»(٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ ماصنعه السامرى من تلك الحلى فقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ والمعنى: فصنع السامرى لهم من تلك الحلى التى قذفوها فى النار عجلا جسدا له خوار، أى: صوت كصوت البقر. قيل :إن الله ـ تعالى ـ خلق فيه الحياة اختبارا ،وامتحاناً لهم.

وقيل : لم تكن به حياة، ولكن السامرى صنعه لهم بدقة، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار .

قال ابن عباس : « لا، والله ماكان له صوت قط، إنما الريح كانت تدخل فى دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك » (٣) .

فماذا كانت نتيجة رؤيتهم للعجل؟ إنهم ماكادوا يرونه يخور حتى نسوا ربهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص ٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٦٢ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٢٥ .

الذى أنقذهم من أرض الذل والهوان، وعكفوا علي العجل يعبدونه، وفى بلاهة فكر، وبلادة روح، قالوا : ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أى قال الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه :هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه؛ لأن موسى نسى أن يطلبه هاهنا، فذهب يبحث عنه عند الطور .

وقولهم هذا يدل على سوء أدبهم مع نبيهم، فضلا عن بلادة عقولهم ،وتفاهة تفكيرهم، لأنهم اتهموه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله - بأنه مؤمن بالوهية العجل، إلا أنه نسى مكانه، فذهب يبحث عنه.

وقيل إن الذى حدث منه النسيان : هو السامرى لا موسى، والمعنى : فنسى السامرى أى :ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهرى، ونبذ الدين الذى بعث الله به موسى، وهو الإسلام.

والرأى الأول: هو الأرجح ؛لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة، ولورود الآثار به عن السلف.

قال ابن جرير : « وأولى الأقوال بالصواب عندنا، أن يكون ﴿ فَنَسِيَ ﴾ خبرا من الله - تعالى - عن السامرى، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه وأن ربه الذى ذهب يريده هو العجل، الذى أخرجه السامرى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، ولأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامرى عنه بذلك أشبه من غيره »[1].

ثم قرعهم ووبخهم سبحانه - علي تفاهة عقولهم، وسخافة تفكيرهم، فقال تعالي : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أى : أفلا يرون أن هذا العجل الذى عبدوه لايجيبهم إذا سألوه، أو خالطوه، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا، في دنياهم ولا أخراهم، فكيف يكون إلها هذا الذى يعجز عن رد الخطاب وعن النفع والضر؟

وبعد أن بين - سبحانه - أن مافعلوه كان مخالفا لقضية العقل، زاد فى توبيخهم ببيان أنهم عصوا نصيحة هارون، الذى نبههم إلى خطأ ما فعلوا، فقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص ١٣٤.

والمعنى : ولقد قال هارون ـ عليه السلام ـ لعبدة العجل من قبل رجوع موسى إليهم، وتوبيخه لهم : ياقوم إنما اختبر الله إيمانكم، ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل؛ ليتميز قوى الإيمان منكم من ضعيفه،وإن ربكم الرحمن الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا،فاتبعونى فيما آمركم به،من عبادة الله،وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمرى فيما أنهاكم عنه،ولكنهم لم يستجيبوا له،وأعرضوا عن نصحه، وقالوا : لن نبرح عليه عاكفين، مواظبين على عبادته، حتى يرجع إلينا موسى ليرى فيه رأيه .

وفى قولهم هذا: تهوين من شأن هارون، فكأنهم يقولون له : لست أهلا للنصيحة أو الاتباع، ولذلك سنستمر على عبادته، حتى يرجع موسى إلينا .

قال الإمام الرازى : « واعلم أن هارون ـ عليه السلام ـ سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم عن الباطل أولا بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾. ثم دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ . ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ . وهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لابد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله ـ تعالى ـ هى الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد، والجمود، فقالوا : ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ مادار بين موسى وهارون ، بعد أن زجر موسى قومه على جهالاتهم فقال تعالى : ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ .

والمعنى : قال موسى لائما أخاه هارون ـ عليهما السلام ـ أى شيء منعك حين رأيت ضلالهم وعكوفهم على العجل من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله، فتقاتلهم بمن بقى معك على الإيمان ، أو تفرقهم؟ أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) وفيما أمرتك به من الصلابة فى الدين ؛لأن وجودك بينهم وقد عبدوا غير الله ـ تعالى ـ يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه .

---

(١) تفسير الرازى جـ ٢٢ ص ١٠١ .

فقال هارون مجيبا أخاه موسى برفق واستعطاف:

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدىء من غضبه، باستشاجة عاطفة الرحم فى قلبه: يابن أمى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا مقصرا معهم، وماحملنى على البقاء معهم رغم عبادتهم للعجل، إلا خوفى من أن تقول لى ـ لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين ـ إنك بعملك هذا قد جعلت منهم فرقتين متنازعتين، ولم ترقب قولى لك : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . أى : لم تحفظه ولم تعمل به، ولذلك لم أقاتلهم ولم أفارقهم ،وبقيت معهم مقيما على النصح حتى تعود أنت فتتدارك الأمر بنفسك، وتعالجه برأيك.

وبعد أن انتهى موسى ـ عليه السلام ـ من سماع اعتذار أخيه هارون واقتنع به، اتجه بغضبه وانفعاله إلى السامرى ـ رأس الفتنة ومدبرها ـ يزجره ويؤنبه :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أى : قال موسى للسامرى ـ بصيغة تشير إلى جسامة الأمور: ماشأنك ،وماقصتك؟ وما الذى دعاك لأن تفعل مافعلت؟ وقد خاطبه بهذه العبارة ليظهر لبنى إسرائيل بطلان فعله باعترافه، وليفعل به مايجعله عبرة للمعتبرين.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ . والمعنى على ما قاله جمهور المفسرين:

قال السامرى لموسى: علمت مالم يعلموا به، ورأيت مالم يروه، فقد رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، راكبا على فرس لايمر بشىء إلا سرت فيه الحياة، فقبضت قبضة تراب من موضع حافر فرسه، فنبذتها، أى: فألقيتها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار، أو: فألقيتها فى جوف العجل المسبوك من الحلى، فصار حيا، وقد سولت لى نفسى أن أفعل ذلك؛ لأفتن بنى إسرائيل، وأجعلهم يتركون عبادة الله إلى عبادة العجل.

وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه جمهور المفسرين، يكون المراد بالرسول الذى بصر به السامرى: جبريل ـ عليه السلام ـ ، ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا، ولأبى مسلم الأصفهانى رأى آخر فى ذلك ، فقد نقل عنه الفخر الرازى فى تفسيره أنه قال : « ليس فى القرآن الكريم مايدل على ماذكره المفسرون، فههنا وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى ـ عليه السلام ـ وبأثره: سنته ووسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل فلان يقص أثر فلان، ويقتص أثره، إذا كان يمتثل رسمه، والتقدير أن موسى لما أقبل على السامرى باللوم والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل، فقال : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أى: عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول، أى: شيئا من سنتك ودينك، فقذفته أى : طرحته فعند ذلك أعلمه موسى بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : مايقول الأمير فى كذا؟ وبماذا يأمر الأمير؟ وأما دعاؤه موسى رسولا مع جحده وكفره، فعلى مثل مذهب من حكى الله عنه قوله : ﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وإن لم يؤمنوا بالإنزال »[1] .

وخلاصة ما يقوله أبو مسلم فى تفسير الآيات : أن السامرى زين لبنى إسرائيل بعد غيبة نبيهم عنهم، أن يلقوا مامعهم من الحلى فى النار، فلما فعلوا ذلك ، سبك منه عجلا جسدا له منافذ على هيئة دقيقة، بحيث إذا تخللها الريح وتراكم فيها كان له صوت كالخوار، فعبدوه من دون الله ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ حين قال له : ماخطبك ياسامرى وما شأنك حتى أوقعتهم فى هذه الضلالة؟ : أجاب السامرى بأنه قد وصل علمى إلى مالم يصل إليه غيرى فعرفت أن ما أنت عليه من الشريعة ليس هو الحق، ومن أجل ذلك نبذت ما كنت أومن به منها، وزينت لقومى ما رأيته حقا، وهو ترك عبادة إلهك ياموسى إلى عبادة العجل، الذى صنعته لهم، فقال له موسى ـ عليه السلام ـ إن عقوبتك فى الدنيا على ضلالك أن تحرم من لذة النساء حتى لا يكون لك عقب، وهو المراد من قوله: ﴿لامساس﴾ وإن لك فى الآخرة مالكل مشرك ترك عبادة الله ، وأقام على الضلال .

وقد رجح الإمام الرازى فى تفسيره رأى أبى مسلم، فقال : « واعلم أن هذا القول الذى قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه:

أحدها : أن جبريل ـ عليه السلام ـ ليس مشهورا باسم الرسول ، ولم يجر له

(١) تفسير الرازى جـ٢٢ ص ١١١ .

فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه، فإطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل، كأنه تكليف بعلم الغيب.

وثانيها : أنه لابد فيه من الإضمار، وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول، والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها : أنه لابد من التعسف في بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل، ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذى ذكروه من أن جبريل هو الذى رباه بعيد، لأن السامرى إن عرف جبريل حال كمال عقله، عرف قطعا أن موسى ـ عليه السلام ـ نبى صادق، فكيف يحاول الإضلال؟ وإن كان ما عرفه حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل ـ عليه السلام ـ مربيا له في الطفولية في حصول تلك المعرفة ؟ .

ورابعها : أنه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول : فلعل موسى ـ عليه السلام ـ اطلع على شيء آخر يشبه ذلك ، فلأجله أتى بالمعجزات ، ويرجع حاصله إلى سؤال من يطعن في المعجزات ، ويقول : لم لايجوز أن يقال : إنهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الأدوية التي لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة، وحينئذ ينسد باب المعجزات»(١) .

ومعنى: على رأى أبى مسلم : زينت لى نفسى ترك ما أنت عليه من الهدى أيها الرسول من غير أن يطالبنى أحد بذلك.

وقد رد الإمام الآلوسى ـ رحمه الله ـ على الفخر الرازى ،وعلى أبى مسلم بما ملخصه:

أولا : عهد فى القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، فقد قال تعالى : ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهودا، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه شائعا فى بنى إسرائيل .

ثانياً : تقدير المضاف فى الكلام أكثر من أن يحصى، وقد عهد ذلك فى كتاب الله غير مرة .

ثالثاً : رؤية السامرى دون غيره لجبريل كان ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليقضى الله

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣٢ ص ١١٢ .

أمرا كان مفعولا، ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره، كانت بسبب ما ألقى فى روعه من أنه لايلقيه على شىء، فيقول له: كن كذا إلا كان كما فى خبر ابن عباس، أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء، كما فى بعض الآثار .

رابعاً : المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة من الله والتحدى، وقد قالوا: متى ادعى أحد الرسالة، وأظهر الخارق وكان لسبب خفى يجهله المرسل إليهم، قيض الله - ولابد - من يبين حقيقة ذلك بإظهار مثله غير مقرون بالدعوى .. وما ذكر من استبعاد ضلال السامرى بعد أن عرف نبوة موسى - عليه السلام - فى غاية السقوط، فقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وليس كفر السامرى بأبعد من كفر فرعون، وقد رأى من الآيات مارأى .

أما أبو مسلم - فمع مخالفته لما ورد عن خير القرون مما لايقال مثله من قبل الرأى فله حكم المرفوع - يرد عليه: بأن التعبير عن موسى - عليه السلام - بلفظ الغائب بعيد، وإرادة وقد كنت قبضت قبضة ... إلخ من النظم الكريم أبعد ، ونبذ ما عرف أنه ليس بحق لا يعد من تسويل النفس فى شىء، فلا يناسب ختم جوابه بذلك، فزعم أن ما ذكره أقرب إلى التحقيق ، باطل عند أرباب التدقيق» (١) .

وهذا الرد من الآلوسى مع وجاهته، يؤخذ عليه: أن مايقوله المفسرون، وما يوردونه من آثار يؤخذ به مادامت هذه الآثار ثابتة، وليست مأخوذة عن الإسرائيليات، فإن كتاب الله - تعالى - لايجوز إخراجه عن ظاهره إلا لدليل من عقل صريح ، أو نقل صحيح، ودعواه أن هذاالذى نقله المفسرون - مما لا يقال مثله من قبل الرأى، فله حكم المرفوع - لا يمكن تسليمها إلا بشرط آخر، وهو ألا يكون من الممكن أخذه عن الإسرائيليات، وهذا الشرط غير متوافر هنا .

والذى نراه :أن ماقاله أبو مسلم أقرب إلى ظاهر القرآن الكريم وأن المتدبر للقرآن الكريم إذا افترض تلك الروايات التى ينقلها المفسرون غير موجودة ، فإن مضمونها لايمكن أن يصل إليه الذهن من النظم القرآنى، ثم إنها ليست منقولة عن النبى ﷺ بالسند الصحيح ،حتى يذهب إليها ذاهب، بل الأقرب أن تكون من نوع الإسرائيليات، التى نرد العلم فيها إلى الله ، فلا نصدقها ولا نكذبها، مع إيماننا بأن

---

(١) تفسير روح المعانى جـ ٥ ص ٥٩٨ الشيخ الآلوسى.

قول الله ـ تعالى ـ هو الحق، وأن ما أراده من كلامه هو الحق، والله أعلم بما أراد من ذلك .

وبعد أن سمع موسى ـ عليه السلام ـ من السامرى ماسمع، قال له ماحكاه الله عنه، وهو قوله تعالى : ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ .

المساس مصدر كقتال ، وهو منفى بلا التى لنفى الجنس ، والمراد لا أَمَس ولا أُمَس ، قالوا : كان إذا مسه أحد حم الماس والممسوس، فكان إذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفا من الحمى، وقال لامساس .

وقيل المراد بقوله ﴿ لا مِسَاسَ ﴾ المنع من أن يخالط أحدا، أو يخالطه أحد ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ أخرجه من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا إلى البرارى .

قال صاحب الكشاف :« عوقب بعقوبة لاشيء أطم منها، ولا أوحش ،وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته، ومبايعته ومواجهته وكل مايعايش به الناس بعضهم بعضا، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة حم الماس والممسوس ـ وذلك أنه تعالى ـ رماه بداء عقام، لا يكاد يمس أحدا أو يمسه كائنا من كان إلا حم من ساعته حمى شديدة ـ فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح بأقصى صوته لامساس ، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجيء إلى الحرم، ومن الوحش النافر فى البرية . . . » [1] .

وقال الآلوسى : « والسر فى عقوبته على جنايته بماذكر ـ على ماقيل ـ أنها ضد ماقصده من إظهار ذلك؛ ليجتمع عليه الناس ويعززوه، فكان ما فعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره . . . وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل حيث نبذ فنبذ، فإنّ ذلك التحامى أشبه شيء بالنبذ » [2] .

هذا: ولأبى مسلم رأى آخر فى تفسير قوله تعالى ﴿ لا مِسَاسَ ﴾ « وهوأنه يجوز أن يكون معناه : لا أريد مس النساء، فيكون من تعذيب الله إياه، انقطاع نسله، فلا يكون له ولد يؤنسه، فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [3] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٢٥١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٢٩٨ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٨١.

هذه هي عقوبته في الدنيا ، وأما عقوبته فى الآخرة فقد بينها له موسى - عليه السلام - بقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ - بضم التاء وفتح اللام - أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله تعالى إياه بل سينجزه لك البتة، فيعاقبك على الشرك والفساد فى الأرض، كما عاقبك فى الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين .

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو والحسن ﴿ لَّن تُخْلِفَهُ ﴾ - بضم التاء وكسر اللام - على البناء للفاعل، والمعنى عليه :« وإن لك موعدا تجيء إليه يوم القيامة ، ولن تستطيع التخلف أو المغيب عنه. ثم قال موسى : ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . أى : وانظر إلى العجل الذى أقمت على عبادته، وظلت عليه عاكفا، لفترة طويلة، لنحرقنه أمام عينيك بالنار، ثم لنطيرنه رمادا فى البحر بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، وبحيث ترى أنت، ومن خدع بك مصيره بأعينكم، ليكون عبرة للمعتبرين .

ثم بعد أن فرغ موسى من إبطال الباطل وإزهاقه، أخذ يبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، فقال :

﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله وحده الذى وسع علمه كل شيء، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض، ولا فى السماء .

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى ذكرناها ، قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة الجهل، وضيق التفكير، وسوء التدبير، واختيارهم الضلالة على الهدى، لعكوفهم على عبادة عجل يضرب به المثل فى البلاهة والغباء، وتركهم عبادة الله المستحق للطاعة والخضوع. والذى لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

عاشرا : تنطعهم فى الدين وإلحافهم المسألة:

من رذائل بنى إسرائيل تنطعهم فى الدين، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم فى صدق أنبيائهم وتعنتهم فى السؤال، إما للتحلل من الامتثال، وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة.

وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - خير دليل على ما وصفناهم به من رذائل، ومن فسوق عن أمر ربهم، وسوء تقبل لنعم خالقهم وقد وردت هذه القصة فى سورة البقرة، فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ .

روى المفسرون: أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره ،وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا، فسألوه أن يدعو الله، ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقى، فدعا موسى ربه، فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (٢) .

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذى يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص ، وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبو حيان وغيرهما ،لم نذكرها لأنها لاتختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل، ولم يعرف الجانى ، فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فدهشوا، وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أى : أتجعلنا موضع سخريتك : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به .

والذى عليه جمهور المفسرين :أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو ، وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيل ببعضها ، كما سيأتى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

وقد أمرهم - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ما عبدوه، وهو العجل، وفى أمرهم بذلك؛ تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل، والذبح ..

وقولهم ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ يدل على سفههم، وسوء ظنهم بنبيهم، وعدم توقيرهم له، وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لوكانوا عقلاء لامتثلواأمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك، ولكنهم قوم لايعقلون .

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يأمر به ، أجابهم موسى بقوله ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ . أى :ألتجىء إلى الله، وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزؤ - وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله عليهم السلام، كما أن فيه - أيضا - ردا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق، حيث بين لهم أن ماظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى - .

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة.

« وقد نبهت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه في أسوأ العواقب ، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات، كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا : إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع »[1] .

هذا ، وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذاً لأمر ربهم ، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؟

أى : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفتها[2]، وسبب سؤالهم عن صفتها ، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم يضرب ببعضها ميت فتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القتيل ، لابد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحي بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فكأنما هو رب موسى وحده لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربى الحكيم للأتباع السفهاء، الذين ابتلى بهم، فقال : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص ٨ .

(٢) (ما) هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يتكلمون عن حاتم أو الأحنف، وقد علم انهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما ماحاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال له : كريم أو حليم.

(٣) الفارض المسنة اسم للبقرة التى انقطعت ولادتها من الكبر، وسميت بذلك، لأنها فرضت سنها اى قطعتها وبلغت آخرها، والبكر هى الفتية مشتقة من البكرة - بالضم - وهى أول النهار، والمراد بها هنا: التى لم تلد، قال ابن جرير :« البكر من إناث البهائم وبنى آدم مالم يفتحله الفحل » والعوان : هى المتوسطة فى السن : وصح إضافة ﴿ بين ﴾ إلى اسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ لأنه أشير به إلى الفارض والبكر. قال ابن جرير : (العوان النصف التى قد ولدت بطنا من بطن .. وجمعها عون ، يقال : امرأة عوان من نسوة عون، وحرب عوان إذا كانت حربا قد قوتل فيهامرة بعد أخرى) .

أى : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها ، إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى أمركم بذبحها لامسنة ولاصغيرة، بل نَصَف بينهما فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة ، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به .

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به .

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر إنها بقرة عوان، بل جاء بالوصفين السابقين ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ فى جوابهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة .

وقوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال .وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره على طريقة التوسع، أى : إذا كان الأمر كذلك فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست فى مصلحتكم .

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعا، واستقصاء فى السؤال. فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ والمعنى : قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها، سل لنا ربك يبين لنا ما لونها؛ لكى يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع، تعجب فى هيئتها ومنظرها، وحسن خلقها الناظرين إليها .

قال ابن جرير :« والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض، وهو شدته وصفاؤه » (١) .

وقال صاحب الكشاف : « الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه، يقال فى التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال :أسود حالك ... ثم قال : فإن قلت : فهلا

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٢٣٥ .

قيل صفراء فاقعة،وأى فائدة فى ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة،وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها، فهو من قولك: جد جده...»[1] .

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها، ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف! . كلا ما أغنتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه ،فقالوا كما حكى القرآن عنهم :﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآيتين الكريمتين : قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحا لحال البقرة، التى أمرنا بذبحها، حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى: قال إنه سبحانه ـ يقول إنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل فى الحراثة، ولا فى السقى، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ الواضح، ولم يبق إشكال فى أمرها ، وبحثوا عنها وحصلوها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم .

فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ . حكاية لسؤالهم الثالث، الذى وجهوه إلى نبيهم ـ عليه السلام ـ ليزدادوا معرفة بحال البقرة، وصفتها من حيث نفاسها؛ بعد أن عرفوا سنها ولونها .

فكأنهم يقولون له: إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيرا يشق معه تمييزها فسل من أجلنا ربك؛ ليزيدنا بيانا لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه، وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب، فعللوا ذلك بقولهم :

﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أى : لاتتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا فى هذا التكرار ، لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ـ ص ٢١٩ .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : « وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا في الثالثة، لأن للثالثة في التكرير وقعا من النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة » [١] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال ، ودفع للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم في كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له :

اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحا، وكشفا لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدي إليها، ثم إلى القاتل الحقيقي، وبذلك ندرك الحكمة التي من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير : «وأما قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبيِّن لنا ما التبس علينا، وتشابه من أمر البقرة، التي أمرنا بذبحها، ومعنى اهتدائهم في هذا الموضع، تبينهم أن ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر» [٢] .

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة، بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهي بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذللة، ولا مدربة على حرث الأرض، أو سقي الزرع ، سليمة من العيوب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى: ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ[٣] ﴾ صفة لبقرة ، يقال : بقرة ذلول ، أي: ريضة زالت صعوبتها وإثارة الأرض: تحريكها قلبها بالحرث والزراعة، والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٥٣٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٣٥٨.

(٣) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - في المصدر بمعنى لان وسهل ، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العز ، وهما مصدران لفعل واحد، خص في الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين.

والمراد : نفى الذل ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة .

أى . هى بقرة صعبة لم يذللها العمل فى حراثة الأرض، ولا في سقى الزرع، فهى معفاة من العمل في هذه الأشياء. و﴿ لاَ ﴾ فى قوله تعالى ﴿ لاَ ذَلُولٌ ﴾ للنفى، وفى قوله تعالى ﴿ ولا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى : لاذلول تثير وتسقى، وأعيد فى قوله تعالى ﴿ولا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة.

والشية : اللون المخالف لبقية لون الشيء. أصله من وشى الشيء، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته .

والمعنى : أن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من بياض أو سواد أو غيرهما، بل هى صفراء كلها.

وأرادوا بالحق في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ الوصف الواضح الذى لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له : الآن ـ فقط ـ جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ماعداها من جهة اللون، وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا.

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قد عطفت مابعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير: فظفروا بها فذبحوها، أى : فذبح قوم موسى البقرة التى وصفها الله ـ تعالى ـ لهم، بعدما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به ، لتشككهم فى صحة مايوجه إليهم من إرشادات، ولكثرة مما طلتهم .

قال صاحب الكشاف : « وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط، وكثرة استكشافهم، ماكادوا يذبحونها وماكادت تنتهى سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ماكادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل »[1] :

ثم كشف الله ـ تعالى ـ بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٠.

والمعنى : « واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا، فاختلفتم وتنازعتهم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل والمقتول ، فقد بين - سبحانه - الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها، فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته، يحيى الله - تعالى - الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء، رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم .

وجمهور المفسرين: على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر؛ ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم، وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف: « فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقا أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ،فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ . قلت كل ماقص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك ، والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة ،وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته، بإخراج

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٠ .

الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة » [1] .

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله تعالى﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ ﴾ مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها، وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضا - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوى، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيرا ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب، للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف فى الانحراف والضلال .

وقوله تعالى : ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس، التى ذكرنا قصتها. ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم فى شأنها ، لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا ،أى: يدفعه ويزحمه، أو تدافعتم بمعنى: طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه، ويتهم بها غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل، الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره .

وهذه الجملة الكريمة ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ معترضة بين قوله تعالى: ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾. وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : « وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكراما لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه، وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفاله، ودبروا المكيدة فى إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه،فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقى إكراما من الله - تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا . . » [1] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٥٢٩ .

وقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ إرشاد لهم إلى الوسيلة التى عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقى. والضمير فى قوله: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها، الذى هو الشخص أو القتيل .

وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى، وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة فى قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ مشار به إلى محذوف، دل عليه سياق الكلام.

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا فى شأن القتيل: اضربوه ببعض البقرة ليحيا ، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى فى الآخرة للثواب والعقاب .

وبذلك تكون الآية ظاهرة فى أن الذى ضرب ببعض البقرة قد صار حيا بعد موته .

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - : «فإن قيل : وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها ؟ قيل : ليحيا فينبىء نبى الله، والذين ادارءوا فيه من قاتله .

فإن قال : وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك ؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه ، والمعنى : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى ، يدل على ذلك قوله تعالى :﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١) .

والمقصود بالآيات فى قوله تعالى : ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الدلائل الدالة على أن الله على كل شىء قدير والتى منها ماشاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضو ميت ، وإخباره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقى، وذلك لكى تستعملوا عقولكم فى الخير، وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس واحدة فهو قادر على إحياء الأنفس جميعها، لأنه - سبحانه - لايصعب عليه شىء.

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى فى تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقى بعد الموت.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٦١.

فقد قال في تفسيره : « وأما قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتمون ، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة. قيل : إن المراد اضربوا المقتول بلسانها، وقيل: بفخذها، وقيل: بذنبها، وقالوا : إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال قتلني أخي، أو ابن فلان . الخ ما قالوه ، والآية ليست نصا في مجمله فكيف بتفصيله، والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله؛ ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية .

ومعنى إحياء الموتى على هذا: حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي: يحييها بمثل هذه الأحكام ، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ .

فالإحياء هنا معناه: الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . . » (١) .

والذي نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ الإحياء الحقيقي للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتي:

أولا : مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « لما ضرب المقتول ببعضها - يعني ببعض البقرة - جلس حيا ، فقيل له: من قتلك؟ قال : بنو أخي قتلوني ثم قبض . . . » (٢).

ثانيا : ما ذهب إليه صاحب المنار لايدل عليه القرآن الكريم لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولا تصريحا ولا تلميحا، لأن قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ ظاهر كل الظهور ، في أن المراد بالإحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم، وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد - أيضا - قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل، ومادام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة. ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى:

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٥١.

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٤٢.

الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات؛ صونا لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال: ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** ﴾ .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء فى العبارة أو تعمية.

ثالثاً : تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى - كما قال المفسرون - يؤدى إلى غرس الإيمان بصحة البعث فى القلوب ، لأن المعنى عليه ، كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتا للبعث عن طريق المشاهدة، حتى لاينكره منكر.

رابعاً : قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ﴿ **آيَاتِهِ** ﴾ فى هذا الموضع، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون فى خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة، والتى ليست فى طاقة البشر، كإحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة، التى تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث فى النفوس الإيمان، لم تؤثر فى قلوب بنى إسرائيل الصلدة ، لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم ، فقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

والمعنى : ثم صلبت قلوبكم - يابنى إسرائيل - وغلظت - من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات: منها إحياء القتيل أمام أعينكم - فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها ، بل هى أشد صلابة منها ،لأن من الحجارة مافيه ثقوب متعددة، وخروق متسعة، فتتدفق منه مياه الأنهار، التى تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن منها مايتصدع تصدعا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار، ولأن منها مايتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح، من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يابنى إسرائيل - فإن قلوبكم لاتتأثر بالمواعظ ولاتنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عماتعملون.

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بيان لما طرأ على قلوب بنى إسرائيل من بُعْدٍ عن الاعتبار ، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله ،وتحلل من المواثيق ،التى أقروا بها على أنفسهم :

وجىء ﴿ بثم ﴾ التى هى للترتيب والتراخى، لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات . فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم . بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم ـ يابنى إسرائيل ـ ولم تفدكم المعجزات، فقست قلوبكم، وكان من المستبعد أن تقسوا.

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات التى أشار القرآن الكريم إلى بعضها فى الآيات السابقة .

واسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة، أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة فى الآيات السابقة .

و(أو) فى قوله تعالى : ﴿هِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ قيل : للتنويع ، فإن قلوبهم متفاوتة فى القسوة، فمنها ماهو قاس كالحجارة، ومنها ماهو أشد منها قسوة، أى : فبعض قلوبكم كالحجارة فى صلابتها، وبعضها أشد من الحجارة فى صلابتها.

وقيل : للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم ، كأن يقول أحد الناس لآخر: إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة، أو تزيد عليها.

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة، والمعنى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ،فهى كالحجارة بل هى أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتى بخير، والحجارة ليست كذلك . وشبه ـ سبحانه ـ قلوبهم بالحجارة فى القسوة ، لأن صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ، ومتعارفة بينهم ، ولذا جاء التشبيه بها.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج

---

(١)تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢١.

منه أفعل التفضيل، وفعل التعجب ؟ قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، ووجه آخر ، وهو ألا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشد قسوة » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية ، قصد به إظهار سبب زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة ، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها، منها ماتحدث فيه المياه خروقا واسعة ،تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ماتحدث فيه المياه شقوقا مختلفة، تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة، ومنها ماينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتثال ، أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولاتنقاد للحكم التى من شأنها هداية النفوس .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم وتخويف، حيث إنه ـ سبحانه ـ سيحاسبهم على أعمالهم ، وسيذيقهم مايستحقونه من عقاب؛ جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره، وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بما هم أهله، من قساوة القلب، وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت، وبالآيات مهما توالت .

ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر :

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية. من ذلك .

١ ـ دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة ، وسوء أدب مع مرشديهم، وإلحاف فى الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومماطلة فى الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم .

٢ ـ دلالتها على صدق النبى (ﷺ) فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبر من هذه القصة الواقعية، التى لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه، وهذا الإخبار من أعلام نبوته (ﷺ) ،كماأنها تدل على صدق نبوة موسى ـ عليه السلام ـ وأنه رسول من رب العالمين .

٣ ـ دلالتها على أن التنطع فى الدين، والإلحاف فى المسألة، يؤديان إلى

التشديد في الأحكام، لأن بني إسرائيل لو أنهم من أول الأمر عمدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

« لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم[1] ».

وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضييق دائرة اختيارهم، وتكثير الشروط، التي يجب توافرها في البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مماطلتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع من التقصير؛ عملا وشكرا وفهما ، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولاهو ذبح بقرة ما ، وأن ماأمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة، ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم، ولجاجهم وكثرة أسئلتهم .

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهي عن كثرة السؤال، قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ . وفي الحديث الشريف : « ذروني ماتركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم » [2] .

قال صاحب المنار: « وقد امتثل سلفنا الأمر، فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطريا وحنيفيا سمحا، ولكنّ مَنْ خلفهم عمد إلى ماعفا الله عنه فاستخرج له أحكاما استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته، وملت، وألقته وتخلت » [3] .

٤ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وفي هذه القصة أنواع من العبر منها :

(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قابلوا هذا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٤٧.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٤٧.
(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٤٦.

الأمر بقولهم : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ . وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله ، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هوالآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وتيقنوا أن الله ـ تعالى أمره بذلك ، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة ، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون .

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم : ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ فإن أرادوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة ، فتلك ردة وكفر ظاهر ، وإن أرادوا : أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح،فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة .

قال الإمام ابن جرير : « وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى ـ عليه السلام ـ أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك كفر منهم ، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذى قالوه لموسى يعد من جهالاتهم، وهفوة من هفواتهم» .

(ب) ومنها : الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم:

(جـ) ومنها : إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدى، وإعذارا وإنذارا للضال .

(د) ومنها : الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل، عن وهب : «كان ابن عباس يقول :« إن القوم بعد أن أحيا الله ـ تعالى ـ الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله ، وقالوا: والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق » .

(هـ) ومنها : مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرا ، فإن القاتل قصد ميراث المقتول ، ودفع القاتل عن نفسه ، ففضحه الله - تعالى - وهتكه ، وحرمه ميراث المقتول .

(و) ومنها . أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل فى البلادة.

ثم قال الإمام ابن القيم فى ختام حديثه عن هذه القصة: «والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل، ففى الأمر بذبح البقرة؛ تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذى لا يمتنع من الذبح والحرث والسقى، لايصلح أن يكون إلها معبودا من دون الله ، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقى والعمل [1] .

٥ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق ضربه بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وما هذا الضرب إلا وسيلة شكلية كشفت للناس بطريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التى لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة، ولكنهم لا يعرفون كنهها ، وصدق الله حيث يقول : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة التنطع فى الدين، والتعنت فى الأسئلة ، والإساءة إلى نبيهم موسى - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات ، لقساوة قلوبهم ، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم: ﴿ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ .

أما بعد : ففى ختام حديثنا الطويل عن رذائل بنى إسرائيل، كما صورها القرآن الكريم نقول : إن ماذكرناه فى هذا الفصل من رذائلهم ماهو إلا نماذج من قبائحهم ومفاسدهم، وإن هذه القبائح والمفاسد قد ورثها خلف اليهود عن سلفهم.

وقد ذكرها القرآن الكريم ليسجل عليهم انحرافهم عن الحق، وإيثارهم للعمى على الهدى، وليحذر المؤمنين من شرورهم وقبائحهم.

---

(١) إغاثة اللهفان جـ٢ ص ٣ .

الفصل السابع
دعاوى اليهود الباطلة وكيف رد عليها القرآن الكريم

لليهود فى باب الدعاوى الباطلة، والأقاويل الفاسدة، والأمانى الكاذبة، باع طويل، ومجال واسع، وكلام كثير لايؤيده عقل أو نقل . .

وقد تعرض القرآن الكريم لذكر هذه الدعاوى الباطلة، التى صدرت عن اليهود ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم ، ويقطع حجتهم ؛ ويميط اللثام عن أكاذيبهم ، ويكشف ما خفى عن الناس من فضائحهم ومخازيهم .

وقبل أن نبدأ فى تفسير الآيات الكريمة، التى ذكرت مزاعمهم، وردت عليها ، نحب أن نسوق طائفة منها إجمالا فنقول :-

أولا : قولهم : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة .

ثانيا : دعواهم : الإيمان بما أنزل عليهم .

ثالثا : دعواهم : أن الهدى فى اتباع سبيلهم .

رابعا : زعمهم أنه : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا .

خامسا : قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه .

سادسا : قولهم : عزير ابن الله تقليدا لأحبارهم .

سابعا : قولهم : إن ذنوبهم مغفورة لهم .

ثامنا : قولهم : ليس علينا فى الأميين سبيل .

تاسعا : بهتهم لمريم ودعواهم قتل عيسى -عليه السلام-

عاشرا : قولهم : يد الله مغلولة ، وسعيهم فى الأرض بالفساد .

هذه طائفة من دعاواهم الباطلة ، وأقاويلهم المرذولة ، حاولنا أن نذكرها كما نطق بها القرآن الكريم ، وإليك القول المفصل فى كل دعوى ، والرد القاطع على اليهود :﴿ الذين يقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

أولا : قولهم : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة .

من دعاوى اليهود الكاذبة ، زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وأنهم لن يعاقبوا عقابا طويلا ، لأنهم يرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المختار من بين الناس ، فإذا حاسبهم الله ـ تعالى ـ على خطاياهم ، فبمقدار ما يحاسب الوالد الرحيم أولاده المدللين ، وأحباءه المختارين، يقسو عليهم لفترة قليلة من الوقت ثم يعود إلى ملا طفتهم، والتغاضى عن سيئاتهم .

(١) وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا الزعم ،ورد عليه، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

روى المفسرون فئ سبب نزول هذه الآيات آثارا . منها ماروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار، وإنما هى سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ...﴾ الآيات (٢) .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : « حدثنى أبى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال لليهود : « أنشدكم بالله وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله فى التوراة؟ قالوا : إن ربنا غضب علينا غضبة ، فنمكث فى النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ

---

(١) الآيات من ٨٠ ـ ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٨ .

كذبتم والله لانخلفكم فيها أبدا؛ فنزل القرآن تصديقا لقول النبى ﷺ وتكذيبا لهم ـ نزل قوله تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير ـ أيضا ـ عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . . . ﴾ ذلك أعداء الله اليهود، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، الأيام التى أصبنا فيها العجل أربعين يوما، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم» (٢) .

هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول الآيات الكريمة، والمعنى:

وقالت اليهود ـ يامحمد ـ إن النار لن تصيبنا، ولن نذوق حرها، إلا أياما قلائل. قل لهم ـ يامحمد ـ ردا على دعواهم الكاذبة، هل اتخذتم من الله عهدا بذلك، حتى يكون الوفاء به متحققا؟ أم تقولون على الله الباطل جهلا وجراءة عليه ؟

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام، يشملهم ويشمل غيرهم، فقال : ليس الأمر كما تدعون، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة ومات عليها دون أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ منها، ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ بيان لضرب من ضروب غرورهم وكذبهم، معطوف على رذائلهم السابقة، التى حكاها القرآن الكريم، إذ الضمير فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعود على اليهود الذين مر الحديث عنهم ولما ينته بعد .

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة . . .

والمراد من النار: نار الآخرة . والمراد من المعدودة : المحصورة القليلة. يقال : شىء معدود، أى: قليل . وشىء غير معدود أى: كثير، فهم يدعون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام ، وقد تكون أربعين يوما ، وبعدها يخرجون إلى الجنة، لأن كل معدود منقض.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٨٢ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١١ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله (ﷺ) أن يرد عليهم فيما زعموه فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: قل لهم - يا محمد - إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة، لا يكون إلا ممن اتخذ عهدا من الله بذلك، فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة، فكان الوفاء به متحققا ، لأن الله - تعالى - لايخلف وعده، أم تقولون على الله شيئا لاعلم لكم به ؟

فالاستفهام للإنكار، وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن قولكم هذا يحتمل أمرين لا ثالث لهما: إما اتخاذ عهد عند الله به ، وإما القول عليه - سبحانه - بدون علم، ومادام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل؛ إذا فأنتم - يامعشر اليهود - كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة.

قال الإمام الرازى : « قوله تعالى ﴿ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لايجوز أن يجعل الله - تعالى - حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهمهم بل المراد: التنبيه على طريقة الاستدلال؛ وهى أنه لاسبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع؛فلما لم يوجد الدليل السمعى،وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير[1] .

وإنما ساق القرآن الكريم الرد عليهم فى صورة الاستفهام، لما فيه من ظهور القصة إلى تقريرهم بأنهم قالوا على الله مالا يعلمون، إذهم لا يستطيعون أن يثبتوا أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، ولا يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت مدعاهم إبطالا يحمل طابع الإنكار والتوبيخ. ثم ساق - سبحانه - آية ثانية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات مانفوه، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

بلى: حرف جواب يجيء لإثبات فعل ورد قبلها منفيا، والفعل المنفى هنا هو قول اليهود ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ فجاءت ﴿ بَلَىٰ ﴾ لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا، فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص ١٤٣ .

ومعنى الآية الكريمة: ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود ، من أن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة، بل الحق أنكم ستخلدون فيها، فكل من كسب شركا مثلكم، واستولت عليه خطاياه، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن فى داخله، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه، ويتوب إلى ربه، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم ، وإثبات لما نفوه، على وجه يشملهم، ويشمل جميع من يقول قولهم، ويكفر كفرهم.

هذا: والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله، كما قال جمهور المفسرين؛ لورود الآثار عن السلف بذلك ، وفائدة الإتيان بقوله تعالى: ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ بعد ذلك، للإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان، وأخذت بلسانه فمنعته عن أن ينطق به .

وقوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ بيان لما أعد لهم من عقوبات؛ جزاء كفرهم وكذبهم على الله ، فهم يوم القيامة سيكونون أصحابا للنار، ملازمين لها على التأبيد لإيثارهم فى الحياة الدنيا مايوردهم سعيرها، وهو الكفر، وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة، وهو الإيمان وصالح الأعمال .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين، الذين يفترون على الله الكذب، عقب ذلك ببيان ما أعده - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى : والذين آمنوا بالله ورسله، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه، فأولئك أصحاب الجنة، هم فيها خالدون خلودا أبديا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود أبلغ رد . حيث كذبتهم فى دعواهم :أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة، وأخبرتهم بخلودهم، وخلود كل كافر فى النار، وأما الجنة فهى لمن آمن، وعمل صالحا واتبع سبيل المرسلين، فهؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون.

(ب) هذا ، وفى سورة آل عمران آيات كريمة بينت : أن اليهود دُعُوا إلى كتاب الله؛ ليحكم بينهم، ولكنهم أعرضوا عنه، بسبب اعتقادهم الباطل أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات، وهذه الآيات هي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : « دخل رسول الله بيت المدراس - أى: البيت الذى يتدارسون فيه - على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى الله تعالى،فقال له : نعيم بن عمرو،والحارث بن زيد،على أى دين أنت يامحمد ، فقال على ملة إبراهيم ودينه ، فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال لهما رسول الله (ﷺ) فهلما إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ . . . إلى قوله تعالى :﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١) .

قال الإمام القرطبى : « وذكر النقاش أنها نزلت - أى: هذه الآيات - لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة النبى (ﷺ) فقال لهم : هلموا إلى التوراة، ففيها صفتى، فأبوا ذلك » (٢) .

وقال الإمام ابن جرير : « وأولى الأقوال فى تأويل ذلك عندى بالصواب أن يقال : إن الله - جل ثناؤه - أخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله (ﷺ) وفى عهد، ممن أوتوا علماً بالتوراة ، أنهم دعوا إلى كتاب الله، الذى كانوا يقرون به أنه من عند الله، وهو التوراة؛ ليحكم بينهم - فى بعض ماتنازعوا فيه مع الرسول (ﷺ)فامتنعوا عن الإجابة إليه ، ويجوز أن يكون ذلك فى أمر النبى ﷺ وأمر نبوته، ويجوز أن يكون فى أمر إبراهيم خليل الرحمن؛ فإن كل ذلك قد نازعوا فيه الرسول (ﷺ) فدعاهم الرسول (ﷺ) إلى حكم التوراة فأبوا ،وامتنعوا، فأخبر الله - تعالى - عنهم بردتهم وتكذيبهم، بما فى كتابهم وجحودهم ماقد أخذ عليهم من عهود ومواثيق بإقامته والعمل به » (٣) .

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٥٥ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ص ٥ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ١٣٤ .

ومعنى الآيات الكريمة : لقد رأيت وشاهدت - يامحمد - حال أولئك اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله - وهو التوراة التى أنزلها - سبحانه - لهدايتهم ليحكم بينهم فى كل شئونهم، ولكنهم امتنعوا عن قبوله، وتولوا عنه، وهم قوم شأنهم التولى والإعراض عن حكم الله والسبب فى ذلك مازعموه من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، وما اغتروا به فى دينهم كذبا وافتراء من أن آباءهم سيشفعون لهم يوم القيامة، والحق - يا محمد - إن حالهم يوم القيامة ستكون شنيعة أليمة، فإنهم يخلدون فى النار يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون.

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بيان للون من عنادهم، اذ يدعون إلى الكتاب الذى يؤمنون به ليحكم بينهم، ومع ذلك يمتنعون عن قبوله، وينأون عنه بجوانبهم، لأنهم غلبت عليهم شقوتهم ،وكانوا قوما ضالين .

والتعبير بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناه: لقد رأيت وتحققت من أمر أولئك اليهود، لأن الاستفهام فيه إنكارى، وهو داخل على الفعل المنفى، ونفى النفى إثبات، إذ أن نفى عدم الرؤية معناه ثبوتها . وجاء التعبير على هذه الصورة؛ لإفادة التعجيب من حالهم، والتوبيخ لهم على أقوالهم وأفعالهم ولبيان أنه ما كان يصح أن يقع منهم ما اجترحوه من أقوال وأعمال .

ومعنى قوله تعالى ﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ حصلوا حظاً من كتابهم التوراة يعرفون عن طريقه - من بين مايعرفون - حقيقة نبوتك - يامحمد، وصدقك فيما تبلغه عن ربك، ولكن هؤلاء الأحبار الذين أوتوا هذا النصيب من التوراة ، لم ينتفعوا به، ولم يعملوا بما يفرضه عليهم، بل أخذوا منه ما يناسب شهواتهم، وتركوا منه مايتعارض مع أهوائهم .

فهذه الجملة الكريمة فيها زيادة تبكيت وتقريع لهم، لأنهم قد تركوا الحكم بكتابهم ،عن علم وإصرار؛ لسيطرة الهوى عليهم، وغلبته على نفوسهم .

والمقصود بكتاب الله الذى دعوا إليه ليحكم بينهم التوراة، وقيل المقصود به: القرآن . والأول :أرجح؛ لأن أسباب النزول تؤيده ، وعليه جمهور المفسرين، ولأن

التعجيب من حالهم يكون أبلغ؛ ولعذرهم أقطع، إذا كان الكتاب الذى أعرضوا عنه هو كتابهم، الذى نزل لهدايتهم ، وهم يقرون بحقيقته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ معناه : ثم بعد دعوتهم إلى الحكم بكتاب الله ، ينصرف فريق كبير منهم عنه، ويعرضون عن أحكامه وتعاليمه، ويولونه أدبارهم بدل أن يولوه قلوبهم .

والتعبير بثم المفيدة للتراخى : يفيد استبعاد توليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب ، فهم كان من الواجب عليهم أن يبادروا إلى قبول حكم كتاب الله، لأنهم ليسوا أميين ولا جهلاء، ولكنهم استمروا فى طغيانهم يعمهون، فكان هذا التفاوت العجيب، بين ما كان ينبغى منهم بمقتضى علمهم، وبين ما ارتكبوه فعلا من الإعراض عن حكم كتاب الله .

وقوله تعالى ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ يفيد أنهم قوم ديدنهم الإعراض، وطبيعتهم الانصراف عن الحق، فليس انصرافهم عنه وقتى ، إنما هو انصراف مستمر لا ينفصل عن تفكيرهم فى وقت من الأوقات .

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي حملتهم على التولي والإعراض عن حكم كتاب الله فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أى : ذلك التولى والإعراض عن الحق. وعدم الإقبال على الخير سببه تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب، واعتقادهم أنهم لن يعذبوا عذاباً شديداً، ولن يعاقبوا عقابا طويلا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات، هى أربعون يوماً، أو سبعة أيام، ثم بعد ذلك يخرجون منها، لأنهم أبناء الله وأحباؤه، ولأن آباءهم الأنبياء سيشفعون لهم كما يزعمون .

وقولهم هذا :هو نوع من غرورهم، واستخفافهم بوعيد الله، ومن استخف بوعيد الله زالت حرمة الدين من نفسه، وأقدم على ارتكاب السيئات بلا مبالاة، وهذا شأن الأمم والجماعات والأفراد عندما تفسق عن أمر ربها .

وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ معناه . أصاب موضع الغرة والغفلة منهم فى دينهم، وخدعهم وأطمعهم فى غير مطمع ماكانوا يفترونه، من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم لن يدخلوها إلا تحلة القسم إلى غير ذلك من أكاذيبهم وغرورهم .

ثم رد الله - تعالى - مزاعمهم الباطلة، بإثبات أن الثواب والعقاب بالإيمان والعمل الصالح . فقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ والمعنى : فأى حال يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ؟ لاشك أنهم يفاجئون بذهاب غرورهم ، وفساد تصورهم يوم القيامة ، لأنهم سيعاقبون بسبب أقوالهم وأعمالهم عقاباً يخلدون به فى النار .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أبطلت مدعاهم ، وكذبت مزاعمهم، وردت على غرورهم بما يخرس ألسنتهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة، وإن الله لسميع عليم .

ثانياً : دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم :

من المعاذير الكاذبة التى كان اليهود يعتذرون بها عندما يُدعون إلى الدخول فى الإسلام قولهم : إننا مكلفون ألاّ نؤمن إلا بكتابنا التوراة، فنحن نكتفى بالإيمان به دون غيره ، وقد حكى القرآن الكريم دعواهم هذه ، ورد عليها بما يبطلها، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة . أن اليهود المعاصرين للعهد النبوى كانوا إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد (ﷺ) أجابوا بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة، التى أنزلها الله - تعالى - على موسى، ويجحدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها فى الأمر باتباع محمد (ﷺ) ثم أمر الله - تعالى - رسوله (ﷺ) أن يكذبهم فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بالتوراة، فإنها تنهاكم عن قتلهم. ثم كذبهم القرآن الكريم مرة أخرى فقال : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالآيات

الواضحات الدالة على صدقه، ولكنكم ﴿ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ذهابه لميقات ربه: ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ لعبادتكم غير الله تعالى .

ثم كذبهم القرآن الكريم في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بصورة أخرى سوى ماسبقها فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ وقلنا لكم ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بجد وحزم ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة : ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم : ﴿ سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ، وخالط حب العجل قلوبهم، كما يخالط الماء أعماق البدن، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل اليكم، وإذن فبئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة، كما تزعمون . فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم ، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود ، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزله الله على موسى، وهو التوراة .

والمقصود ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ القرآن الكريم ، ولم يذكر المنزل عليه، وهو محمد (ﷺ)؛ للعلم به ؛أو للتنبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب، يكفى فيه العلم بأنه منزل من عند الله ـ تعالى ـ ومتى استقر فى النفس أن القرآن الكريم من عند الله، استتبع ذلك استحضار أنه أنزل على محمد (ﷺ) .

وقولهم ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ معناه : نؤمن بالتوراة التى أنزلها الله على نبينا موسى دون غيرها، مما أنزله الله عليك ـ يامحمد ـ وجوابهم هذا يدل على غبائهم وعنادهم، لأن الداعى لهم إلى الإيمان يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية ، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله، وهو ما أنزل عليهم، فلم يكن إيمانهم مطابقا لما أمر الله به ،وهو التصديق بجميع الكتب السماوية ، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية، وكفر ببعضها، يكون كافرا بجميعها .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لوحوا بذلك فى قولهم : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ والضمير فى

﴿ وَرَاءَهُ ﴾ يعود على ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ المكنى به عن التوراة ، أى : قالوا نؤمن بما أنزل علينا، والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة،أو بما بعدها، وهو القرآن الكريم .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : « وتأويل وراء فى هذا الموضع : سوى ، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن، ما وراء هذا الكلام الحسن شيء يراد به ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله تعالى ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أى: بما سوى التوراة ، وبما بعده من كتب الله، التى أنزلها على رسله »(١) .

والضمير ﴿ هُوَ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم المكنى عنه بقوله ﴿ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ . والحق : الحكم المطابق للواقع . ووصف به القرآن الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع .

ومعنى كون القرآن مصدقا لما مع اليهود وهو التوراة ، أنه يدل على نبوة النبى (ﷺ) . وبهذا كان مؤيدا للتوراة، التى بشرت بالنبى (ﷺ) وذكرت له نعوتا لا تنطبق إلا عليه، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين فى دعواهم ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد (ﷺ) الذى بشرت به توراتهم، وأمرتهم بالإيمان به، وأيدها القرآن الكريم فى ذلك .

قال صاحب الكشاف : «وفى قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ رد لمقالتهم ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ لأنهم إذ كفروا بما يوافق التوراة ،فقد كفروا بها)(٢) .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله (ﷺ) أن يوبخهم ويبطل دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامى فقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى : قل يامحمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ قل لهم : إن كنتم حقا مؤمنين بما أنزل عليكم، وهو التوراة، فلأى شيء تقتلون أنبياء الله ،مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم، لأنهم أرسلهم الله لهدايتكم وسعادتكم . . .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤١٨ .

(٢) تفسير الكشاف ـ بتصرف ـ جـ ١ ص ٢٢٤ .

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم، ولا بغيره وأنكم كاذبون في مدعاكم ؛لأن جميع ما أنزله الله من وحى يحرم قتل الأنبياء، ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم .

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط ،وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل؛ لفعله ماليس من شأنه أن يصدر من عاقل، فتقول له : إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا ؟ أى: أنت ليست بعاقل .

والفاء فى قوله تعالى ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ واقعة فى جواب محذوف، دل عليه ما بعده، والتقدير: إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم، فلم تقتلون أنبياء الله ـ تعالى؟.

والإتيان بالمضارع فى قوله ـ تعالي ـ ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقرينة قوله تعالى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة، وللتنبيه على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة يتجدد، ويقع منهم المرة تلو الأخرى، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف، فى التعدى والعصيان ، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى، قتل الرسول (ﷺ) ولكن الله ـ تعالى ـ عصمه منهم، ونجاه من مكرهم .

وأضاف ـ سبحانه ـ الأنبياء إليه فقال ؛ ﴿ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود، واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق، والتوقير والطاعة.

ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنايات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون . ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

البينات : جمع بينة ،وهى الآيات والمعجزات الدالة على صدقه، وحقيقة نبوته، كانقلاب العصا ثعبانا ، وفلق البحر ، وانفجار العيون من الحجر . . إلخ .

وإنما سماها الله بينات ؛ لأنها لما كانت لايقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له دلت على صدق موسى ـ عليه السلام ـ فى نبوته ورسالته .

والمعنى : ولقد جاءكم ـ يابنى إسرائيل ـ نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة

على صدقه ؛ وحقيقة نبوته ، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا، فقد اتخذتم العجل إلها من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه ، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات ، التي استبان بها صدقه فيما يبلغكم عن ربه، فأنتم ظالمون بذلك ، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة، وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذى لايملك ضرا ولا نفعا .

فالآية الكريمة فيها إبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا بنبيهم، الذى جاءهم بالبينات ، لما تركوا ما أمرهم به، وهو عبادة الله، وفعلوا مانهاهم عنه، وهو عبادة العجل .

ثم ذكر القرآن الكريم جناية أخرى تكذبهم فى دعواهم ﴿ أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ﴾ وهى إباؤهم قبول التوراة؛ عنادا واستكبارا فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يابنى إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما فى التوراة ، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة، ورفعنا فوقكم الطور لنريكم آية من آياتنا العظمى، التى تقوى إيمانكم ، وتجعلكم تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة ، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بجد وحزم، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة، ولكنكم - يابنى إسرائيل - يامن تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة ، وقلتم لنبيكم: سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم، كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم فى التوراة من الهدى والنور، ولا بما صحب عرضها عليكم من الآية البينة، وهى رفع الجبل فوقكم، حتى ظننتم أنه واقع بكم فكفرتم بذلك كله، وما زالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل، ولقد سرتم على منهج أسلافكم فى العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم ؟

ثم أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يوبخهم على تخرصاتهم فقال تعالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ معناه: أننا حركناه ونقلناه وجعلناه معلقا فوقكم في الهواء، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل .

ومعنى قوله تعالى: (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به في التوراة بجد واجتهاد في تأديته، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم والتزام. فقوله تعالى (واسمعوا) ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط، بل المقصود منه السماع الذى يصحبه التدبر والاستجابة للأمر ؛ فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم: اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا : سمعنا ولكن لا سماع طاعة »[1] .

وقد اختلف المفسرون: هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا ، أو أنهم فعلوا فعلا قام مقام القول فيكون مجازا ؟

قال الفخر الرازى : « الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة. وقال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان، فعبر عن ذلك بالقول، وإن لم يقولوه ، كقوله تعالى: ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ . قال : والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ عطف على قولهم ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ والإشراب : السقى وجعل الشيء شاربا، واستعمل على وجه التجوز في خلط لون بآخر ،كأن أحد اللونين سقى الآخر، يقال . بياض مشرب بحمرة، أى: مختلط ، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى: خالط حبه قلبه .

قال الإمام الرازى : قوله تعالى ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ في وجه هذه

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٥.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٤٣٢ .

الاستعارة وجهان: الأول : معناه تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله، ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ بيان لمكان الإشراب كقوله : ﴿ إنما يأكلون فى بطونهم نارا ﴾ ، الثاني : كما أن الشرب مادة لحياة ماتخرجه الأرض ، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ماصدر عنهم من الأفعال »[1] .

وفى الجملة الكريمة: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ مضاف محذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان، قد خالط حب العجل نفوسهم،حتى استقر فى قلوبهم، كما يخالط الماء أعماق الجسد . وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل، حتى لكأنهم أشربوا ذاته .

والتعبير بقوله ﴿ وَأُشْرِبُوا ﴾ يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر، الذى لا اختيار لهم فيه ،كأن غيرهم أشربهم إياه .

وقوله تعالى : ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق، وجحود متأصل، فكفرهم الذى ترتب على عبادتهم للعجل ، قد سبقه كفر آخر، فهو كفر على كفر .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه فى ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى :

﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . أى : قل ـ يامحمد ـ لهؤلاء اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم ، ـ قل لهم ـ بئس الشيء الذى يأمركم به إيمانكم: قتل الأنبياء، وعبادة العجل ،والعصيان ، إن كنتم مصدقين ـ كما زعمتم ـ بالتوراة . والحق، أن التوراة ما أمرتكم بشيء من ذلك فما أنتم بمؤمنين بها، ولا بغيرها من كتب الله، لأنها لاتأمر بالفحشاء.

فالجملة الكريمة: خلاصة لإبطال قولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ بعد أن أبطله الله ـ تعالى ـ فيما سبق بشواهد متعددة ، لأنهم لما زعموا ذلك ، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى ، أمر الله ـ تعالى ـ رسوله (ﷺ) أن يذمهم على هذه الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم ؛لكى يعلم للناس جميعا أن دعواهم لا أساس لها من الصحة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٤٣٢ .

وأضاف ـ سبحانه ـ الإيمان إليهم فقال ﴿ إِيمَانُكُمْ ﴾ ولم يقل: الإيمان، لأنه ليس إيمانا صحيحا ،وإنما هو إيمان مزعوم، فإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم، والاستهزاء بعقولهم .

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تشكيك فى إيمانهم بالتوراة ، وقدح فى صحة دعواهم، فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده ، وينهى عن عبادة سواه، وعن ارتكاب السوء والفحشاء .

فالجملة الكريمة فى معنى النفى؛ لا دعائهم الإيمان بالتوراة؛ لأنها ما أمرت بشيء يبغضه الله تعالى .

قال الإمام ابن جرير : وقوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم. وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه ، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به . وإنما ذلك نفى من الله ـ تعالى ـ عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم ،وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه ـ جل ثناؤه ـ أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم ، والذى يحملهم عليه البغى والعدوان » [1] .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة ، والبراهين القاطعة على كذب اليهود فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، ووبختهم على مزاعمهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة.

هذا ، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات ، فقد قال ـ رحمه الله ـ :

« يقول الله تعالى فى ذكر حجاج اليهود : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ؟ .

هذه قطعة من فصل، من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى :

١ ـ مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٤ .

٢ ـ إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .

٣ ـ الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محاميا بليغا وُكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية، ثم هُدِىَ إلى استنباط هذه المعانى، التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لايفى بما حولها من إشارات واحتراسات، وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن، كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؟ فالقرآن الذى جاء به محمد (ﷺ) أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذا اللفظ الوجيز ﴿ آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّـهُ ﴾ . وسر ذلك : أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته ، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاءً إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه، فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله (على محمد)، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدرى لم ذلك ؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدا ، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسدا .

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لامدخل لها فى الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل .

وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم، ويثير أحقادهم ،فيؤدى إلى عكس ماقصده الداعى من التأليف والإصلاح . .

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا، والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم، ولنا توراتنا ،ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هوالمعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهذا هو

المقصد الأول ، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال، وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها.

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثانى، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، انظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازِمَ مذهبهم مذهبا له ، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة مانقله من كلامهم ، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال :

﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل !... ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه .

فتراه لايبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتا كأنها مسلمة ليبنى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثا على الكفر بما هو حق مثله ؟ لابل ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ كله، وهل يعارض الحقُّ الحقَّ حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى فيقول : «وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق ، فقد يكون الشيء حقا وغيره حقا فلا يتكاذبان، ولكنهما فى شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهدا ومصدقا لما بين يديه من الكتب، فكيف يكذَّب به من يؤمن بها؟

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان : إنما هى كلمة رفعت، وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر، وسدا لكل باب من أبواب الهرب، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت فى خطوة واحدة، وفى غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولماقضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه، والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذابا وتفنيدا، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم، ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضا مزمنا، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ماهو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية

المفظعة التى لاسبيل لإنكارها، في جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من صدقك يبقى مصدقا لك ؟!!..

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش، وهو وضعهم البقر، الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة .. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى الأمر : إن هذا (ظلم)، وفى الثانية (بئسما) صنعتم، أذلك كل ماتقابل هذه الشناعات؟ نعم: إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة، لو فهمتا على وجهيهما، ولكن أين حدة الألم، وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور، الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

لله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب ، وأغناه عن شكر الشاكرين ، وكفر الكافرين، وتا لله ان هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر»(١).

ثالثا : دعواهم : أن الهدى فى اتباع سبيلهم:

من مزاعم اليهود دعواهم أن الهداية، واتباع طريق الحق إنما تكونان فى اتباع ملتهم، فهم يزعمون أن من لم يكن يهوديا فليس بمهتد، وأن من يخالف طريقتهم فهو بعيد عن الحق والصواب.

وقد حكى القرآن الكريم مزاعمهم، ورد عليهم بما يبطل مدعاهم، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم، الذى لو سلكوه لكانوا مهتدين حقا، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

---

(١) عن كتاب (النبأ العظيم) من ص ١١٤ : ص ١٢٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله (ﷺ) ما الهدى إلا مانحن عليه فاتبعنا - يامحمد - تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله - عز وجل - ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

ومعنى الآية الكريمة : وقالت اليهود للنبى (ﷺ) وللمسلمين ، اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا، وتصيبوا طريق الحق، وقالت النصارى مثل ذلك، قل لهم - يا محمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم ، بل الحق فى أن نتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ، فاتبعوا أنتم - يامعشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقا سالكين ملة إبراهيم الذى لاتتنازعون فى هداه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ حكاية لما زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى فى اتباع ملتهم ا.

و (أو) للتنويع ، أى: قال اليهود لغيرهم لادين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا، وقال النصارى لغيرهم : كونوا نصارى تهتدوا. إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة ، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . .)

ثم لقن الله - تعالى - نبيه (ﷺ) الرد الملزم لهم ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٣٥ - ١٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٨٣٣٩

الملة : الدين ، والحنيف فى الأصل: المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ؛ ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة ،التى كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه .

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفا من: الحنف وهو الاستقامة،

قال الإمام الرازى : « لأهل اللغة فى الحنيف قولان : الأول : أن الحنيف هو المستقيم ، ومنه قيل للأعرج :أحنف تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم وللمهلكة، مفازة، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه فى شىء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظى. الثانى : أن الحنيف المائل ، لأن الأحنف هو الذى يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها . وتحنف إذا مال ، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنيف إلى دين الله ، أى مال إليه ، فقوله : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى : مخالفا لليهود والنصارى . . . »(1) .

وليس بين التفسيرين تعارض ، لأن كليهما ينفى عن الحنيف الميل إلى الباطل، ويثبت له الاستقامة على طريق الحق .

والمعنى : قل يامحمد لليهود ليس الهدى فى أن نتبع ملتكم بل الهدى فى أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل، إلى الدين الحق ، والذى ماكان من المشركين بأى صورة من صور الشرك .

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا . . وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى ، لأن حرف (بل) يؤتى به فى صدر الكلام لينفي ماتضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هى قول أهل الكتاب ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ فجاءت بل بعد ذلك لتنفى هذا القول ، ولتثبت أن الهداية إنما هى فى اتباع ماكان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفى اتباع من سار على نهجه، وهو محمد (ﷺ) .

وفى هاتين الجملتين وهما قوله تعالى ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفى ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة ، بل هى معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة، لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله - تعالى - مالا يليق به .

---

(1) تفسير الرازى جـ 1 ص 518 .

قال الإمام الرازى ـ ما ملخصه ـ : « فى الآية الكريمة جواب إلزامى لهم، وهو قوله تعالى : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وتقرير هذا الجواب : أنه إن كان طريق الدين التقليد ، فالأولى فى ذلك اتباع ملة إبراهيم؛ لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم ، والأخذ بالمتفق عليه ، أولى من الأخذ بالمختلف فيه .

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد (ﷺ) هو موافق لما جاء به إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى أصول الدين »(١) .

ثم أرشد الله ـ تعالى ـ المؤمنين إلى جواب جامع ،وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانبا، وتدعو إلى اتباع الوحى الإلهى، الذى أرسل الله به الرسل؛ مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق، فقال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أى : قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود، الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم ، قولوا لهم : ليست الهداية فى اتباع ملتكم، فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله . وبالقرآن الكريم الذى أنزله الله إلينا ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى وبالإنجيل الذى أنزله الله على عيسى، ونحن فى تصديقنا بالأنبياء لانفرق بين أحد منهم ،فنؤمن ببعضهم، ونكفر بالبعض الآخر، كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود، وإنما نؤمن بهم جميعا، بدون تفرقه بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية .

قال الإمام الرازى : « فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة ؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقا فى زمانه ، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد (ﷺ) مع قيام المعجز على يديه ، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق » (٢) .

---

(١) تفسير الرازى جـ٣ ص ٩١ .

(٢) تفسير الرازى جـ٣ ص ٩٣ .

وقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ خطاب للمؤمنين .

والأسباط : جميع سبط وهو الحفيد ، وهم أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم، وإسحاق ـ عليهما السلام ـ وكانوا اثنى عشر سبطا كما قال تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ﴾ .

والمراد : الإيمان بما أنزل الله من الوحى على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبى :« والأسباط : ولد يعقوب وهم اثنا عشر ولدا، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس ، واحدهم سبط، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع ، فهم جماعة متتابعون ، وقيل : أصله من السبط (بالتحريك) وهو الشجر، أى: هم فى الكثرة بمنزلة الشجر. الواحد سبطة، ويبين لك هذا ماروى عن ابن عباس، قال : «كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة : نوحا وشعيبا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدا ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا. . »[1] .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ معناه : وآمنا ـ أيضا ـ بالتوراة التى أعطاها الله ـ تعالى ـ لموسى ، وبالإنجيل الذى أعطاه لعيسى ، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم فى نبوتهم .

وعطف ـ سبحانه ـ عيسى على موسى بدون إعادة الفعل ، لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة ، وما نسخ منها إلا أحكاما يسيرة ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله حكاية عنه: ﴿ ومصدقا لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم .. ﴾ .

وقدم ـ سبحانه ـ الإيمان بالله على غيره ، لأن الإيمان بالأنبياء وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله .

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا ـ نحن معاشر المسلمين ـ وهو القرآن الكريم؛ لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهى الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل :كالتوراة والإنجيل ، فيكفى الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ معناه : لا نفرق بين جماعة النبيين ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ١٤١ بتلخيص .

فنؤمن ببعض ،ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد (ﷺ) وفعلكم هذا فى حقيقته كفر بالأنبياء جميعاً، لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء .

ثم بين سبحانه ـ أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتموهم إليه معشر المسلمين، فقد أصابوا الهدى، وإن نأوا عنه وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون، فقال تعالى :

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

والفاء التى صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن قول المؤمنين ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . إلخ .

من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة، ويستميل النفوس الشاردة، لبعده عن التعصب والعناد، ولأنه الحق الذى تؤيده العقول السليمة، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم .

وقوله تعالى: ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ ترغيب لهم فى اتباع الحق، الذى اتبعه المؤمنون ، أى : فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا.

وكلمة ﴿ مثل ﴾ فى الآية الكريمة معناه . نفس الشيء وحقيقته . والمراد: فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا، ومنه قول العرب « مثلك لا يبخل » والمراد: أنت لاتبخل. ويرى بعض المفسرين أن كلمة ﴿ مثل ﴾ هنا على حقيقتها وهى الشبيه والنظير، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانين، وأنها لاتقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به .

قال الإمام القرطبى : « المعنى : فان آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدو » [1] .

وقال ابن جرير : « فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ماعددنا عليكم من الله وأنبيائه، فقد اهتدوا،، فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين، والإقرارين ن هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل:« مر عمرو بأخيك مثل ما

---

(1) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٤٣ .

مررت به » يعنى بذلك : « مر عمرو بأخيك مثل مرورى به » والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمن به »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق، ووعد من الله - تعالى - للنبى (ﷺ) والمؤمنين بالنصر عليهم، والعصمة من شرورهم.

والشقاق : المنازعة والمخالفة والتعادى، وأصله من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه.

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل مايشق ويصعب ، فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .

والمعنى : وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية فى ملتهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يامحمد - فاعلم أن إعراضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك، وما داموا هم كذلك فسيقيك الله شرهم ، وينصرك عليهم، فهو سميع لما يقولونه فيك ، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم ، وقطع دابرهم .

وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ مبالغة فى وصفهم بالشقاق حيث جعله مستولياً عليهم استيلاء الظرف على مايوضع فيه .

ورتب قوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ﴾ على قوله ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ تثبيتا للنبى (ﷺ) والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب فى مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم ، فبشر الله - تعالى نبيه (ﷺ) بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى. وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم .

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده ، فنصر نبيه (ﷺ) عليهم، وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم، وطرد من يستحق الطرد منهم، وقتل من لابد من قتله؛ جزاء خيانته وغدره. فالآية الكريمة قد تضمنت وعدا للمؤمنين بالنصر، ووعيدا لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٦٩ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله، وهو الإسلام أولى بالاتباع، فقال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ . .

الصبغة: فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهى فى أصل اللغة. الحالة التى يقع عليها الصبغ، وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بألوان معينة، واستعملت الصبغة فى الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة، وهى قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ إلخ الآية . وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بماذكرته الآية مفصلا؛ لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ، وتبدو آثاره على المؤمن، كما تبدو آثار الصبغ على المصبوغ. ويقال : تصبغ فلان فى الدين إذا أحسن دينه، وتقيد بتعاليمه تقيدا تاما.

وقوله ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم ﴿ آمَنَّا ﴾ فإنه فى معنى صبغنا الله بالإيمان ، وكأنهم قالوا .صبغنا الله بالإيمان صبغته. وإيراد المصدر تأكيدا لفعل يوافقه فى المعنى ويخالفه فى اللفظ معهود فى الكلام البليغ.

قال القاضي: « قوله تعالى ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ متعلق بقوله ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾. إلى قوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله ، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذى اختاره الله ، وبين الدين الذى اختاره المبطلون ظاهرة جلية ، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذى الحس السليم» (١) .

والاستفهام فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ للإنكار والنفى، والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة؛ لأنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم من أدران الكفر والضلال ، فهى صبغة ثابتة لاتزول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له . بخلاف مايتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة، فهو من الصبغة البشرية، التى تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة، ومذاهب متنافرة .

وهذا التركيب: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون دين أفضل من دين الله ، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه

---

(١) تفسير الرازى جـ١ ص ٥٢٢.

فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع، ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوبا يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين لدين الله فى الحسن، ما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه، وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة: والآداب السمحة : والعبادات الصحيحة ، والسياسة الرشيدة، والمعاملات القائمة على رعاية المصالح .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ عطف على آمنا بالله فى قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ والمعنى : قل لهم يامحمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هى صبغتنا، ولا نعبد غيره، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابا، يزيدون فى ديننا ،وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد ، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه (ﷺ) أن يزيد في تذكيرهم ودحض حجتهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : قل يامحمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند الله دون دينك، قل لهم : أتجادلوننا فى دين الله، وهو ملة الإسلام التى بعثنى بها للعالمين هدى ورحمة ، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليهم من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه ـ تعالى ـ أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، والحال انه ـ سبحانه ـ هو ﴿ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى: خالقنا وخالقكم، ورازقنا وراقكم، ومحاسبنا ومحاسبكم على مايصدر منا ومنكم من أعمال .

وقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ معناه : لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب، فكما أننا نتساوى معكم فى أن الله ربنا وربكم فكذلك

نتساوى معكم فى استحقاق الجزاء على الأعمال التى نعملها، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيرا من أعمالكم، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله فى تلك الأعمال ، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه بإكرامهم بالنبوة .

فقوله تعالى ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم، لأن نسبة العباد إلى الله ـ تعالى ـ واحدة ، هو ربهم وهم عباده، والتفاضل فى المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ويختص بوحيه من يراه أهلا لذلك ، وقد شاء ـ سبحانه ـ أن ينزل وحيه على محمد (ﷺ) النبى الأمى العربى ، بدين عام خالد ،فيه الهداية والنور، والفلاح فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة : والمعنى : ونحن ـ معاشر المسلمين ـ لربنا موحدون ، نخلص له العبادة والعمل، ولا نشرك معه آلهة أخرى ، أما أنتم فقد أشركتم وضللتم، فقال بعضكم (عزير بن الله) وقال بعضكم (المسيح بن الله) فنحن أهدى منكم سبيلا ، وأقوم قيلا .

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن، ولا أعمال المخاطبين بالسوء؛ تجنبا لنفور المخاطبين من سماع خطابهم، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى ﴿ لكم دينكم ولى دين﴾ كما أنهم لم يقولوا : ونحن مخلصون وأنتم غير مخلصين، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم، وفى ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله، فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة فى أمر أو أمور ، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر، يومىء إلى أن هذا الأمر الذى أثبته لنفسه خاصة معدوم فى أولئك الجماعة . فمعنى الجملة : ونحن مخلصون فى أعمالنا لله وحده ، ولم نخلطها بشىء من الشرك كما فعل غيرنا .

وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب فى دين الله بغير حق ، وأنكر عليهم ذلك ، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هودا أو نصارى فقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : « وهذه الآية احتجاج من الله تعالى ـ لنبيه (ﷺ) على اليهود والنصارى، الذين ذكر الله قصصهم. يقول الله لنبيه (ﷺ) قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى : أتحاجوننا فى الله وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هدى، ونحن على ضلالة ببرهان من الله فتدعوننا إلى دينكم، فهاتوا برهانكم على ذلك فنبتعكم عليه، أم تقولون إن إبراهيم ومن بعده كانوا هودا أو نصارى على دينكم ،فهاتوا برهانا على ذلك فنصدقكم، فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم، ثم قال تعالى لنبيه : قل لهم يامحمد إن ادعوا أن إبراهيم ومن بعده كانوا هودا أو نصارى أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم الله »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ ﴾ حرف (أم) فيه معادل للهمزة فى قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ على أحد الوجوه . بمعنى أى الأمرين تأتون ؟ المحاجة فى حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين فى هذه الآية، والمراد من الاستفهام عنهما إنكارهما معا، إنكار حجاجهم فى دين الله ، وإنكار قولهم : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لنبيه (ﷺ) قل لهم : لا تجادلونا فى دين الله بغير حق، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التى لا سند لها من عقل أو نقل .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ معناه :قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين فى الآية كانوا هودا أو نصارى إن مازعمتموه من أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله ، لأنه ـ سبحانه ـ قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب ـ عليه السلام ـ عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام ، وإن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعا، هكذا أخبرنا الله (٢) فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ! ولا شك أنهم لن يستطيعوا

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٧٣ .

(٢) والآيات التى تشهد بذلك منها قوله تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون . ام كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ومنها قوله تعالى ﴿ يا اهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما انزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده افلا تعقلون ﴾ .

أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون : الله أعلم ، فإذا لزمهم هذا القول : قلنا لهم إذاً فدعواكم لا أساس لها من الصحة . وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ معناه ، لا أحد أشد ظلما ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله ، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هودا أو نصارى .

قال الإمام ابن جرير : « فإن قال قائل : وأية شهادة عند اليهود والنصارى من الله فى أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؟ قيل الشهادة التى عندهم من الله فى أمرهم ، ما أنزل الله إليهم فى التوراة والإنجيل وأمرهم فيها بالاستنان بسنتهم، واتباع ملتهم، وأنهم كانوا حنفاء مسلمين ، وهى الشهادة التى عندهم من الله التى كتموها حين دعاهم نبى الله ـ ﷺ ـ إلى الإسلام ، فقالوا له ، : ﴿ **لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى** ﴾ وقالوا له ولأصحابه ﴿ **كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا** ﴾ فأنزل الله فيهم هذه الآيات فى تكذيبهم وكتمانهم الحق ، وافترائهم على أنبياء الله الباطل والزور » (١) .

ويجوز أن يجاب عن هذا السؤال الذى أورده ابن جرير بجواب آخر وهو : أنه عند أهل الكتاب شهادة من الله، هى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان على دين الحنيفية؛ بريئا من اليهودية والنصرانية ، وقد بلغتهم هذه الشهادة عن طريق القرآن، وهو المعجز الذى لا تقوم حول صدقه ريبة ، فيصح أن تكون هذه الآية منكرة على أهل الكتاب عدم إقرارهم بأن إبراهيم ماكان يهوديا ولا نصرانيا على حسب ما أخبر به القرآن .

ويجوز أن تكون الشهادة التى عندهم من الله وكتموها ومن أجل ذلك كانوا أظلم الناس ، هى أوصافه ـ ﷺ ـ المكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل وقد عرفوا ذلك ولم يقروا به، والامتناع عن الإقرار بالشيء ، مع قيام الحجة على ثبوته كتم للشهادة .

قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ ما ملخصه :« ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى**

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٧٥ .

التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ...﴾ إلى آخر الآية الكريمة، كان من أهل الكتاب من آمن به، وأخبر بما فى كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، وكان منهم من لاينكر أن يكون قد ذكر فى الكتابين، ولكنه يكابر ويقول : المقصود نبى لم يأت بعد، وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابى : التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم فى القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبى (ﷺ) بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريبة فى أنه الرسول الذى بشرت الأنبياء بمبعثه، وعموم رسالته ، ومن هذه البشائر ما جاء فى سفر التثنية من التوراة : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

والنبى المماثل لموسى - عليه السلام - فى الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبى محمد (ﷺ) وإخوة بنى إسرائيل هم العرب ، لأنهمايجتمعان فى إبراهيم - عليه السلام - وقوله (وأجعل كلامى فى فمه) يوافق حال النبى (ﷺ) من الأمية وعدم تعاطى الكتابة) [1] .

ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة ، فقال تعالى : **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** .

الغفلة : السهو والنسيان ، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق ، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم عليها حسابا عسيرا، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقابا أليما ، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب .

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - فى ختام الآيات - من التمادى فى الكفر والمعصية؛ اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين، فقال تعالى : **﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾** .

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط و(الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمرا واحدو هو هنا الدين **﴿ قد خلت ﴾** أى : مضت وانقرضت .

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ١٢ السنة الثالثة ص ٨٢٧.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية فى ملتهم، وأن إبراهيم وآله كانوا هودا أو نصارى ، قل لهم : إن إبراهيم وآله يمثلون أمة قد مضت لسبيلها ، لها عند الله ماكسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر ولاينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم ، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم، فعليكم أن تسلكوا طريق الإيمان، والعمل الصالح ، وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها، كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿كل أمرىء بما كسب رهين﴾ .

فالمقصد الأول الذى ترمى إليه الآية الكريمة ، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة، اعتمادا منهم على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين ، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأمانى الكاذبة، والأفكار الفاسدة ، وقد جاء فى الحديث الشريف: « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وكأن الآية تقول لأهل الكتاب فى تأكيد : إن أمامكم دينا دعيتم إلى اتباعه، واقترنت دعوته بالحجة، فانظروا فى دلائل صحته ، وسمو حكمته، ولا تردوه بمجرد دعوى أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن ، فإن دعواكم هذه لاتنفعكم، ولو فى حال تسليمها لكم، إذ لا يمتنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح، وعلى حسب ماتقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود، من أن الهدى فى اتباع ملتهم ، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافترائهم وأرشدتهم إلى الدين الحق ، ودعتهم إلى الدخول فيه ، ووبختهم على المحاجة فى دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف على الصراط المستقيم ، اعتمادا منهم على شفاعة آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئا يوم الدين .

رابعاً : زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا :

من المزاعم التى حكاها القرآن الكريم عن أهل الكتاب زعمهم أن الجنة وقف عليهم، فاليهودى يدعى أن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهوديا، والنصرانى يدعى أن الجنة لن يدخلها إلا من كان نصرانيا ، وهذا نوع من غرورهم وأمانيهم الباطلة.

وقد حكى القرآن الكريم تلك الدعوى الباطلة التى صدرت عنهم، ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم؛ ويدحض مدعاهم من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

(١) ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

ومعنى الآيتين الكريمتين : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وكلا الفريقين يقول قولا لايستند إلى عقل سليم، ولا على نقل صحيح، وإنما قولهم هذا من باب الأمانى التى تمنوها على الله بغير حق ، قل لهم يامحمد : هاتوا برهانكم على ماقلتموه إن كنتم صادقين فى دعواكم.

ثم رد القرآن عليهم فيما يزعمون فقال : ﴿ بَلَىٰ ﴾ إنه سيدخلها من لم يكن يهوديا ولا نصرانيا لأن رحمة الله ليست خاصة بقوم دون قوم ، وإنما هى عامة لكل من يستحقها، فـ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ بيان لنوع آخر من دعاوى أهل الكتاب الباطلة . ومزاعمهم الفاسدة .

والهود جمع هائد، أى: متبع اليهودية ، وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم فى الزمان .والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانيا، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز ، فحكت القولين فى جملة واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف (أو) ثقة بفهم السامع، وأمنا من اللبس، لما عرف من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ أى : قالت اليهود : كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا.

ولذا قال الإمام ابن جرير : «فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى

---

(١) الآيتان ١١١، ١١٢.

هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك ؟

قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه ، وإنما عنى به، وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند الخاطبين به جُمع الفريقان فى الخبر عنهما فقيل : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم، ماهو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان. سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب.

واسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ وهو يتضمن أمانى كثيرة: منها، أن اليهود أمنيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى كذلك أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة ، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين ليسوا أهلا لها، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعا فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن المشار إليه أمور قد تعددت لفظا وحكاها القرآن عنهم فى قوله: ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ وفى قوله : ﴿ ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ؛ حسدا من عند أنفسهم ﴾ وفى قوله ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾، وعبارته :

(فإن قلت : لم قيل: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهى أمنيتهم أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم (٢) .

ويرى صاحب الانتصاف : «أن المشار إليه واحد وهو قولهم ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت من نفوسهم، وأشربتها قلوبهم . فقال : والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ - ص ٤٩١ . (٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٠ .

الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها فى نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنهامتأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك ، وإن كان مؤداه واحدا، ونظيره قولهم : معىٍ جياع ، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد ، لأن موصوفها واحد، تأكيدا لثبوتها وتمكنها ، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [١] فإنه جمع (قليلا) وقد كان الأصل إفراده فيقال ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة ﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا التأكيد : أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه، ونقلا مجازيا بديعا » فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله الموفق» [٢] .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله (ﷺ) أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

أى : قل ـ يامحمد ـ لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس ؛ هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم؛ لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لاتثبت إلا بوحى من الله، وليس لمجرد التمنى ، أمر الله ـ تعالى ـ نبيه (ﷺ) أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم ، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز؛ لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها .

قال الإمام ابن جرير : « وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم فى دعواهم وقيلهم ، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدا» [٣] .

هذا : ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد فى أمور الدين ، وهو قبول قول الغير مجردا من الدليل، فلاينبغى للإنسان أن يقرر رأيا فى الدين إلا أن يسنده إلى دليل ، كما أنه لايقبل من غيره قولا إلا أن يكون مؤيدا بدليل .

أما عدم صحة التقليد فى أصول الدين ، أى: فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان . فالأمر فيه جلى، لأنه يكتفى فى إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٥٤ . (٢) هامش تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٣٠.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٩٣ .

للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة ،كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله في إتقان المخلوقات، أو في رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول (ﷺ) من الاستماع إلى القرآن الكريم ، أو من سيرته التي لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول ، والقصد الا يكون إسلامه لمجرد أنه نشأ في بيئة إسلامية ،أو ولد من أب وأم مسلمين .

وأما التقليد في الفروع ،أي: في الأحكام العملية ، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات ، فمن له قدرة على فهم الأدلة، ومعرفة الراجح من الأحكام ، لايجوز له أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقرونا بدليل ، وإن كان قاصرا عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم المشهود له بالرسوخ في علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع » (١) .

ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو : إيراد قاعدة كلية ، رتبت دخول الجنةعلى الإيمان، والعمل الصالح بلا محاباة لأمة، أو لجنس أو لطائفة، فقال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف يذكر في الجواب؛ لإثبات المنفي في كلام سابق ، وقد صدرت الآية التي معنا بحرف ﴿ بَلَىٰ ﴾ لإثبات مانفوه ،وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى، مادام قد أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقوله تعالى: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ المراد به: اتجه إليه ، وأذعن لأمره ، وأخلص له العبادة ، وأصل معناه: الاستسلام والخضوع .

وخص الله ـ تعالى ـ الوجه دون سائر الجوارح بذلك ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمهاحرمة ، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم أعضاء الجسد ، فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعا .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أى : مطابق للصواب وهو ماجاء به الشرع الشريف : والمعنى : ليس الحق فيما

(١) تفسير الآية الكريمة للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة: العدد الخامس ص ٧.

زعمه كل فريق منكم يامعشر اليهود والنصارى، من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله ، وأتي بالعمل الصالح علي وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة ماياتى :

(أ) إثبات مانفوه من دخول غيرهم الجنة.

(ب) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة ، إلا إذا أسلموا وجوههم لله ، وأحسنوا له العمل، فيكون ذلك ترغيبا لهم فى الإسلام ، وبيان لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة ، لكى يقلعوا عماهم عليه ، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة.

(جـ) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران :

أولهما : أن يكون خالصا لله وحده ، ثانيهما : أن يكون مطابقا للشريعة التى ارتضاها الله تعالى، وهى شريعة الإسلام .

قال الإمام ابن كثير :« فمتى كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله (ﷺ) :« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لايتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول (ﷺ) المبعوث إليهم، وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله - تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وأما إن كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أبطلتا دعوى : أن الجنة لهم دون غيرهم ، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ماهى إلا من قبيل الأمانى والأوهام، وكذبتاهم فى أن يكون عندهم أى برهان، أو دليل على مايدعون ، وأصدرتا حكما عاما، وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى ، وإنما هى لكل من أسلم وجهه لله، وهو محسن.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٥٤.

(ب) وفى سورة البقرة - أيضاً - آيات كريمة، ردت على مزاعم اليهود فى دعواهم: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم ، وهذه الآيات هى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ .

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا :

قل - يامحمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم ، وسالمة لكم دون غيركم، وليس لأحد سواكم فيها حق : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعواكم ، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها، وأحب الوصول إليها.

ثم أخبر الله أن هذا التمنى لن يحصل منهم فقال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ أى: الموت ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير موضعها ، فادعوا ماليس لهم ، ونفوه عمن هو لهم .

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لانظير له ولا مثيل فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ متطاولة ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أى : وأحرص عليها - أيضا - من الذين أشركوا، الذين لايعرفون إلا الحياة الدنيا ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أى: يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان، والحال أنه ما أحد منهم ، بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب، ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: لاتخفى عليه أعمالهم ، فهو محاسبهم عليها، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ رد على زعمهم الباطل أن الجنة لايدخلها إلا من كان هودا. والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها . ومعنى ﴿ خَالِصَةً ﴾ سالمة لكم مختصة بكم ، لا يشارككم فيها أحد من الناس .

قال الإمام ابن جرير : « يقال : خلص لى فلان، بمعنى : صار لى وحدى وصفا لى، ويقال منه خلص لى هذا الشىء، فهو يخلص خلوصا وخالصة، والخالصة مصدر مثل العافية . . . » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ التمنى هو ارتياح النفس، ورغبتها القوية فى الشىء، بحيث توده وتحب المصير إليه ، وهو يستعمل فى المعنى القائم بالقلب كما بينا، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى ، كأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ أى: اذكروا بألسنتكم لفظا، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه . وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية؛ لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله ـ تعالى والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالضمائر والقلوب .

ومعنى الآية الكريمة :

قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم ، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم ،كما تزعمون ،فتمنوا الموت بألسنتكم؛ لكى تظفروا بنعيمها الدائم ، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم ، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم ، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحصنة الدائمة المضمونة له فى الآخرة ، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا .

قال الإمام الرازى : « وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة، بالقياس إلى نعم الآخرة ، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم، بسبب ظهور محمد (ﷺ) ومنازعته معهم ، بالجدال والقتال ، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة ، ثم إنه تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة ، فإنه لا بد أن يكون راغبا فى الموت ؛ لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة، ولا سبيل إليها إلا بالموت، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب، وجب أن يكون هذا الإنسان راضيا بالموت متمنيا له ، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم ، لوجب أن يتمنوا الموت ، ثم إن الله . . تعالى ـ أخبر أنهم ما تمنوا الموت ، بل لن يتمنوه أبدا ، وحينئذ يلزم قطعا بطلان ادعائهم فى قولهم : إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس» [2].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٦ . (٢) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٣٣ .

وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم: ليتنا نموت ، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة، كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وهذا رأى جمهور المفسرين .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة ، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد ، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح؛ لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ، الذى نطقت به الآية وأقرب أيضا إلى معناها ، إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة، والقرآن حينما دعا إليها نصارى نجران ، جاء اللفظ بها صريحا في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبدا بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

أي : لا يتمنى اليهود الموت أبدا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام ، والله - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم ، بل هو سيسجلها عليهم ، ويجازيهم عليها الجزاء، الذى يستحقونه ، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ويمتنعون عن الإجابة إلى مادعوا إليه من تمنيه ؛ لعلمهم بأنهم إن فعلوا، فالموت نازل بهم . وذلك لأن رسول الله (ﷺ) لم يخبرهم خبرا إلا كان حقا، كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت ، خوفا أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب .

وقد صح من عدة طرق، عن ابن عباس، أنه قال : « لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقة » .

وقال ابن جرير فى تفسيره : « وبلغنا أن النبى (ﷺ) قال : (لو أن اليهود تمنوا لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ﷺ) لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا » . قال : حدثنا بذلك أبو كريب ، حدثنا زكريا ابن عدى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم، عن ابن عباس ، عن رسول الله (ﷺ) » (٢) .

---

(١) سورة آل عمران: الآية : ٦١ .   (٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٧ .

وقال الإمام ابن كثير : « ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقى، حدثنا فرات، عن عبد الكريم به » (١) .

وقال صاحب الكشاف : « قوله : ﴿ولَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به كقوله تعالى :﴿ ولَن تفعلوا ﴾ . . فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت : قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر من الذر ، وليس أحد منهم نقل عنه ذلك » (٢).

ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود، الذين تحداهم النبى (ﷺ) بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته، ويصرون على جحود نبوته ، فلا يقدح فى هذه المعجزه أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت، وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بيان للسبب الذى جعلهم لا يتمنون الموت أى: أن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبدا بسبب كفرهم، بآيات الله، وارتكابهم لشتى المآثم ،التى ستجعلهم أهلا للعقوبة فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وارد مورد التهديد والوعيد لهم، وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم ،وبسبب كونهم قد كذبوا على الله فى دعواهم: أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم ، .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم فى غاية الحرص على الحياة، فقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فهذه الآية الكريمة قد وصفتهم بأنهم أحرص من جميع الناس ، وأحرص من الذين أشركوا على مطلق حياة طويلة، حتى ولو كانت من الذل والعار ، وأن الواحد منهم ليتمنى أن يعيش ألف سنة . ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذا الحرص الشديد على طول الحياة ، لن يعفيهم من مصيرهم المحتوم إلى النار ، فقال تعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٥ .

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أى :وما أحد منهم يبعده وينجيه تعميره من العذاب،فإنه ـ سبحانه ـ بصير بأعمالهم،وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم ؛ ردا يبطل حجتهم ، ويفضح مزاعمهم ، ويكبت نفوسهم ، ويخرس ألسنتهم ، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله، وهو محسن ، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس، ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت ، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار، بسبب ما ارتكبوا من سيئات ، واقترفوا من آثام ، وافتروا من أكاذيب .

خامسا : قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه :

من المزاعم الباطلة التى حكاها القرآن الكريم عن أهل الكتاب ، ورد عليها بمايدحضها ، زعمهم :أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وفي ذلك يقول الله تعالي في سورة المائدة : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ .

أخرج ابن جرير، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « أتى رسول ـ الله (ﷺ) نعمان بن أضا ، وبحرى بن عمرو ، وشاس بن عدى، فكلموه فكلمهم رسول الله (ﷺ) ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا ؛ ما تخوفنا يامحمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إلى آخر الآية (١) .

ومعنى الآية الكريمة : وقالت طائفة اليهود التى تزعم أنهم شعب الله المختار ، نحن أبناء الله وأحباؤه، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر . قل يامحمد ـ لهؤلاء اليهود الكذبة : إن كنتم كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلأى شيء يعذبكم بذنوبكم، وأنتم مقرون بأنكم ستعذبون علي ما ارتكبتم من خطايا . إذاً فلستم أنتم أبناء الله ولا أحباءه، بل أنتم بشر كسائر البشر من خلق الله، لا مزيد لكم على غيركم ولا فضل ، والله ـ عز وجل ـ يغفر لمن يشاء ويعذب

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١١٠.

من يشاء فهو صاحب التصرف المطلق ، له ملك السموات والأرض وما بينهما ومصير البشر جميعا إليه، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، وليس له من خلقه بنون ولا بنات ، وليس لأحد فضل أو مزية عنده إلا بالإيمان والتقوى ، فآمنوا برسوله محمد (ﷺ) واتركوا تلك الدعوى الباطلة لتكونوا من المفلحين .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ، ودعاوى باطلة .

١ ـ هذا ، وجمهور المفسرين على أن المراد بالبنوة فى قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ﴾ البنوة الحقيقية، فقد نقل اليهود عن كتابهم أن الله ـ تعالى ـ قال لعبده إسرائيل : أنت ابنى بكرى ، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه ، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم ،وقالوا : هذا عندهم على التشريف والإكرام ، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال لهم : إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ، يعنى: ربى وربكم فحملوه على غير المقصود منه، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه .

٢ ـ ويرى بعض المفسرين أن المراد بالبنوة: الاتباع فى المنهج، والمذهب فاليهود أتباع عزير وشيعته ، والنصابرى أتباع عيسى وشيعته ، فالفريقان أبناء الله بهذا الاتباع، وإلى هذا الرأى مال صاحب الكشاف، فقال :

«أبناء الله أشياع ابنى الله ـ عزير والمسيح ـ كما قيل لأشياع أبى خبيب وهو (عبد الله بن الزبير) ـ رضى الله عنه ـ الخبيبيون ، وكما كان يقول رهط (مسيلمة الكذاب) نحن أبناء الله ،ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه نحن الملوك ؛ ولذلك قال مؤمن آل فرعون : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ (١) .

وهذان الرأيان وإن كانا يختلفان فى المراد بالبنوة ، فإنهما يتفقان فى أن المقصود من قول اليهود ، هو ادعاؤهم أنهم يرون لأنفسهم فضلا على سائر البشر، وأنهم لهم صلة بالله ـ تعالى ـ تزيد عن صلة غيرهم به ، وأنهم وحدهم هم أهل القرب منه .

ثم رد الله ـ تعالى ـ عليهم بما يبطل زعمهم فقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٤٠٩.

بِذُنُوبِكُم ﴾ أى : قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المفترين ، لو كنتم أبناء الله وأحباؤه ـ كما تزعمون ـ لما عذبكم،لأن الحبيب لا يعذب حبيبه ، ولكن واقعكم خلاف ذلك ، فقد عذبكم ـ سبحانه ـ بسـبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسخ،وفى كتبكم التى بأيديكم أنكم تعذبون فى الآخرة على ما تقترفون من آثام، فى دنياكم، وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم ـ فى زعمهم ـ أياما معدودات ، وحكي القرآن الكريم عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ وأقر النصارى بأن الله ـ تعالى ـ يجازى المحسن على احسانه ، والمسىء على إساءته .

قال الإمام القرطبى : « رد الله عليهم قولهم فقال : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين ؛ إما أن يقولوا هو يعذبنا فيقال لهم : فلستم إذاً أبناءه ولا أحباءه ، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه ، وأنتم تقرون بعذابه ، فذلك دليل على كذبكم ـ وهو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف ـ أو يقولوا : لا يعذبنا فيكذبون ما فى كتبهم وما جاء به رسلهم ، ويبيحون المعاصى وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، فيلتزمون أحكام كتبهم » [١] .

ثم رد الله ـ تعالى ـ أصل الادعاء، وبين لهم ما هو الحق من أمرهم، فقال تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود، بل الحق أنكم كسائرالبشر من خلق الله، إن آمنتم وأصلحتم أعمالكم نلتم الثواب ، وإن بقيتم على كفركم وجحودكم نلتم العقاب ، لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالإيمان والعمل الصالح .

ثم ختمت الآية الكريمة ردها عليهم، بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : أن الله ـ تعالى ـ هو صاحب التصرف المطلق فى كل شيء بمقتضى علمه وحكمته وعدله،وجميع المخلوقات عبيد له،ولا نسب بين أحد منهم وبينه،وإليه مصير الخلق يوم القيامة؛فيحاسبهم على ما عملوا من خير وشر .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد دحضت حجة اليهود فى دعواهم : أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأثبتت أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٨٦ .

سادسا : قولهم : عزير ابن الله تقليدا لأحبارهم :

حكى القرآن الكريم كثيراً من العقائد الباطلة ، والأقاويل الفاسدة، التى رددها أهل الكتاب ، ومن ذلك ما ذكره عن اليهود بأنهم قالوا (عزير ابن الله) وعن النصارى بأنهم قالوا : (المسيح ابن الله) ، وأن الفريقين قد اتخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أربابا من دون الله ؛ وأنهم أرادوا إطفاء نور الإسلام، الذى عم الآفاق ، وهدى الضالين . ولقد رد القرآن الكريم على ما حكاه عن أهل الكتاب من انحراف فى العقيدة والقول ، بما يبطل مزاعمهم ، ويثبت جهلهم وضلالهم : ويبشر المؤمنين بأن العاقبة لهم، فقال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ (١) ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾.

أخرج ابن جرير ،عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : « أتى رسول الله (ﷺ) سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف : فقالوا : كيف نتبعك ـ يا محمد ـ وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرا بن الله ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ . . . ﴾ الخ الآية الكريمة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ ﴾ حكاية لأقوال الفريقين الباطلة ، ومزاعمهم الفاسدة ، وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة .

قال الإمام البيضاوى : « وإنما قالوا ذلك ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لأنه لم يبق فيهم بعد

---

(١) عزير : كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، جمع أسفار التوراة ، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا عن العبرانية القديمة، والف أسفار الأيام وعزرا ، وتخميا ، قدسه اليهود من أجل نشره الكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب (ابن الله) .

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ١١٠ .

وقعة (بختنصر) من يحفظ التوراة ، وهو لما أحياه الله بعد مائة عام ، أملى عليهم التوراة حفظا، فتعجبوا من ذلك، وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله » [1] .

وأما قول النصارى: ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ فسببه أن الله تعالى قد خلقه بدون أب على خلاف ما جرت به سنته ـ تعالى ـ في التوالد والتناسل فقالوا عنه: (ابن الله) وقد حاجهم الله في سورة آل عمران بأن آدم من غير أم ولا أب ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغي أن يكون عيسى كآدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وقد تلا رسول الله (ﷺ) هذه الآية على اليهود فما أنكروا ما نسب الله إليهم مع تهالكهم على الإنكار والتكذيب ، فهذا دليل على اعترافهم بأن هذا القول كان فيهم :

ثم بين ـ سبحانه ـ أن قولهم هذا لا يؤيده عقل أو نقل ، فقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي : ذلك الذي قالوه في شأن (عزير والمسيح) قول تلوكه ألسنتهم في أفواههم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التي لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ـ تعالى ـ ولد أو صاحبة، أو والد أو شريك: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[2] .

ولقد أنذر الله ـ تعالى ـ الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد، فقال تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [3] .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ؟ قلت فيه وجهان: أحدهما : أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من أى معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم . ولا تدل على معان ، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول

---

(١) تفسير البيضاوى ص ١٢٣ .

(٢) سورة مريم: الآية من ٩٣ ـ ٩٤ .

(٣) سورة الكهف: الآية ٤ ، ٥ .

بالفم، ومعناه مؤثر فى القلب . ومالا معنى له مقول بالفم لا غير . والثانى : أن يراد بالقول: المذهب ، كقولهم (قول أبى حنيفة) يريدون مذهبه ،وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة، حتى يؤثر فى القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أن لا صاحبة له ، لم تبق شبهة فى انتفاء الولد »[1].

ثم بين الله ـ تعالى ـ أن هذا الإفك الذى لا دليل لهم عليه سببه تقليدهم لمن سبقوهم من أهل الكفر ، فقال تعالى : ﴿يضاهئون قول الذين كفرو من قبل﴾ .

المضاهاة : المشابهة ، يقال فلان يضاهى فلانا أى : يشابهه .

والمعنى ؛ إن هؤلاء الذين قالوا (عزير ابن الله) ما لهم على ما يقولون حجة، ولا برهان، ولكنهم يضاهون بقولهم هذا فى الكفر والشناعة، قول الذين كفروا قبلهم من الأمم، وهم المشركون إذ قالوا: الملائكة بنات الله .

وقوله تعالى : ﴿قاتلهم الله﴾ : دعاء عليهم بالإهلاك ؛لأن من قاتله الله هلك فهم أحقاء بهذا الدعاء؛ لشناعة ما تفوهوا به ،وما نسبوه إليه ـ تعالى ـ وهو منزه عنه .

وعن ابن عباس : أن معنى : ﴿قاتلهم الله﴾ لعنهم الله ، وكل شيء فى القرآن قتل فهو لعن .

وقوله تعالى : ﴿أنى يؤفكون﴾ معناه : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، فيتركون توحيدالله وتنزيهه الذى تجزم به العقول ، وبلغه عن الله كل رسول إلى قول ساقط لا يقبله عقل ، ولم يأت به نقل ، فما المسيح ـ عليه السلام ـ وعزير إلا عبدان من عباد الله، الذى خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره، وهما لن يستنكفا أن يكونا كذلك، فكيف قالوا عنهما ما قالوا ؟ إن ما قالوه ظاهر البطلان ، وتأباه العقول السليمة ،والقلوب المستقيمة .

ثم بين الله ـ تعالى ـ أن هذا القول الذى صدر عن اليهود والنصارى محاكاة لمن سبقوهم من أئمة الكفر ، وليس سببه الاقتناع عن طريق الحجة والبرهان ، ولكنه تقليد أعمى لأحبارهم ورهبانهم، الذين يريدون طمس معالم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٠.

التوحيد، وإطفاء نور الله ، فقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ (١) وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

والمعنى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب من اليهود : أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، إذ أنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، ولو كان محرما من الله - تعالى - وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه، ولو كان الشرع يحله ، فكانت طاعتهم لهم كطاعة المنقاد لأمر الله - تعالى - ، وكذلك اتخذ بعضهم المسيح بن مريم - عليه السلام - ربا معبودا من دون الله أو ابنا لله .

ثم بين سبحانه وتعالى : أنهم ما كلفوا إلا بعبادة الله وحده؛ لأنه منزه عن الشريك والولد ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

أى : والحال أنهم ما أمروا فى الكتب الإلهية، وعلى لسان موسى وعيسى - عليهما السلام - إلا بإخلاص العبادة لله وحده .

قال الإمام ابن كثير : «روى الإمام أحمد، والترمذى، وابن جرير من طرق ، عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله (ﷺ) فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله (ﷺ) على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله (ﷺ) فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيىء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله (ﷺ) وفى عنق عدى صليب من فضة ،وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم . وقال رسول الله (ﷺ) :«يا عدى ما تقول ، أيضرك أن يقال : الله أكبر، فهل تعلم إلها غير الله » ثم دعاه إلى الإسلام ، فأسلم وشهد شهادة الحق . قال فلقد رأيت وجهه استبشر.ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون » (٢).

---

(١) الأحبار : جمع حبر - بكسر الحاء وفتحها - وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه؟ والرهبان : جمع راهب بمعنى المتعبد الزاهد، وأصل الترهب عند النصارى ، التخلى عن أشغال الدنيا والعزلة عن أهلها.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٣٤٨.

ثم بين - تعالى - ما يهدف إليه اليهود من وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعواهم الباطلة ، فقال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

أى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب: ﴿ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بأن يطمسوا ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد مجادلاتهم الباطلة، وحجتهم الداحضة ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة أو نفخات يوجهها إليهما .

قال صاحب الكشاف : « مثل حالهم فى طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد (ﷺ) بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة؛ ليطفئه بنفخة ويطمسه »[1] .

ثم زاد - الله تعالى - فى تيئيس هؤلاء الكافرين ، وبشر المؤمنين بالنصر، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . أى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا (ﷺ) بالقرآن الذى يهدى الناس إلى الخير ، وبالدين الحق وهو دين الإسلام لكى يظهره على سائر الأديان ، ولو كره المشركون ظهوره وانتشاره . وفى الحديث الصحيح عن ثوبان أن رسول الله (ﷺ) قال : « إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأعطانى الكنزين الأحمر والأبيض »[2] .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب فى دعواهم أن عزير ابن الله، أو أن المسيح ابن الله ، وأرشدتهم إلى الطريق الحق؛ ليسيروا عليه ووبختهم على انقيادهم لأحبارهم ورهبانهم بدون عقل أو تدبر ، وبشرت المؤمنين بأن دين الله لابد أن يتم ويظهر، ولو كره الكافرون والمشركون .

سابعا : قولهم : إن ذنوبهم مغفورة لهم :

من مزاعم اليهود الفاسدة، وأقوالهم الباطلة ، دعواهم أنهم مهما فعلوا من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١،

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن حديث رقم ١٩ طبعة الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

ذنوب،وارتكبوا من موبقات ، واستحلوا من أموال حرام ، فإن ذنونهم مغفورة لهم، لأنهم شعب الله المختار ، وأبناؤه وأحباؤه الأخيار .

ولقد حكى القرآن الكريم قولهم الباطل ، ورد عليهم بما يدحضه، ويكشف عن زيفه ، فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١) .

قال الإمام القرطبي : « الخلف بسكون اللام) الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء، والخلف بفتح اللام ـ البدل ، ولدا كان أو غريبا . وقال ابن الأعرابي : « الخلف بفتح اللام ـ الصالح ، وبسكونها الطالح ، ومنه قيل للردىء من الكلام خلف ـ بسكون اللام ومنه المثل السائر « سكت ألفا ونطق خلفا » . قال لبيد .

ذهب الذين يعاش في أكنافهم - وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فخلف في الذم بالإسكان ، وخلف بالفتح في المدح ، هذا هو المستعمل المشهور ، وفي الحديث الشريف « يحمل هذا العلم من خلف عدوله » وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . (٢) .

والعرض بفتح الراء :متاع الدنيا وحطامها ، وبإسكانها : ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير .

قال صاحب الكشاف : « قوله تعالى ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ﴾ أي : حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفي قوله هذا تخسيس وتحقير، والأدنى إما :من الدنو بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب، وإما : من دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة »(٣) .

والضمير في قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعود إلى اليهود، الذين وصفهم الله في الآية السابقة بقوله : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

---

(١) الآيتان ١٦٨، ١٦٩ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ١٠ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥١٦

والمعنى: فخلف من بعد أولئك القوم الذين قطعناهم فى الأرض أمما خلف سوء، ورثوا كتاب الله، وهو التوراة فقرءوه وتعلموه ، ووقفوا على مافيه من تحليل وتحريم، وأمر ونهى، ولكنهم لم يتأثروا به بل خالفوا أحكامه، واستحلوا محارمه على علمهم بها، فهم يتهافتون على حطام الدنيا ومتاعها، ويتقبلون المال الحرام بشراهة نفس. ويأكلون السحت أكلا لما، ويقولون وهم والغون فى المعاصى ومصرون على الذنوب ، إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال ، لأننا من نسل أنبيائه، فنحن شعبه الذى اصطفاه من سائر البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل التى يفترونها على الله وهم يعلمون.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عنهم بأنهم أهل إصرار على ذنوبهم ، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة فقال تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أى : أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا، ويعرضون عن شريعة الله :التى أنزلها عليهم فى التوراة، ويزعمون أن الله لايؤاخذهم بما فعلوا ، ثم هم بعد ذلك لايتوبون إلى الله ولا يستغفرونه ، وإنما حالهم أنهم إن لاح لهم عرض حرام آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل ، تهافتوا عليه من جديد، واستحلوه وأكلوه فى بطونهم، بدون توبة أو ندم .

قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ لا يشرف لهم شىء من متاع الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما، ويتمنون المغفرة ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه »[1] .

وقال السدى : « كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ بعضهم على بعض العهود ألايفعلوا ولايرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى . فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم ؟ فيقول سيغفر لى، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه قبل الرشوة، يقول الله : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه »[2] .

ثم أنكر ـ سبحانه ـ عليهم مازعموه بقولهم : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم مصرون على معصيتهم، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾؟ والمعنى : لقد أخذ الله العهد فى التوراة على هؤلاء المرتشين فى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٥١٦.   (٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦٠.

أحكامهم. والقائلين سيغفر الله لنا فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا القول الحق، ولايخبروا عنه إلا بالصدق، ولا يخالفوا أمره . ولا ينقضوا عهده، ولا يتجاوزوا حدوده ، وقد درس هؤلاء الكتاب ، أى : قرءوه وفهموه، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهود، ولم يتبعوا أوامر كتابهم ونواهيه، لأنهم درسوه ولم يتأثروا به ، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم ، فضيعوه واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون .

وجملة: ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ معطوفة فى المعنى على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ أى: أن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق فى التوراة ودرسوه.

قال ابن زيد : « كان يأتيهم المحق برشوة، فيخرجون له كتاب الله، فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له » [١] .

ثم بين الله لهم أن ما أعده فى الآخرة للمتقين، الذين يتعففون عن السحت وعن أكل أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها، الذى آثره هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، فقال تعالى : ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : والدار الآخرة وما أعده فيها من نعيم لأولئك الذين يتقونه حق تقاته فى السر والعلن، خير من عرض هذا الأدنى، الذى استحله هؤلاء اليهود بدون حق، وآثروه على ما عند الله من نعيم مقيم، وثواب جزيل ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ - يا من أكلتم أموال الناس بالباطل، وقلتم: سيغفر الله لنا ذنوبنا ـ هذا الحكم الواضح ، الذى لايخفى على ذى عقل سليم ، لم تطمسه الشهوات، ولم يستحوذ عليه الشيطان.

وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا، هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق ، ويتشبعون من المال الحرام بدون تعفف، ويبيعون دينهم بدنياهم.

قال الإمام الآلوسى : « والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة ؛مع إصرارهم على الذنوب، وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣١٢.

عليه المحققون ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنهم وبخوا على إيجابهم على الله ـ تعالى ـ غفران ذنوبهم، التى لايزالون يعودون إليها، ثم لايتوبون منها .

وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله ، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى » ومن هنا قيل : إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وباتباعهم أنفسهم هواها وتمنيهم على الله ـ سبحانه ـ الأمانى، ووبخوا على افترائهم على الله فى الأحكام التى غيروها، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها، وقالوا على الله ما ليس بحق من القول » [1] .

ثم أثنى الله ـ تعالى ـ على من تمسك بكتابه ، فأحل حلاله، وحرم حرامه، ولم يتقول على الله الكذب، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ . والمراد بالكتاب: التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموما، والمعنى : والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذى أنزله الله ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم إنا لا نضيع أجرهم؛ لأنهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود؛ لافترائهم على الله الكذب وردتا عليهم فى دعواهم: أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل ، وبينتا لهم طريق الفلاح؛ لكى يسيروا عليها، إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى، ويعتبر بالمثلات .

ثامنا : قولهم ليس علينا فى الأميين سبيل :

من دعاوى اليهود الباطلة ، وأقاويلهم الكاذبة، زعمهم أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل ، أى أن كل من كان على غير ملتهم، فإنه مهدر الحقوق ، ولا حرمة لماله ، ولا ملامة عليهم ولا عتاب إذا سلبوا منه ما يملكه بدون وجه مشروع .

وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذه الدعوى الباطلة ، ورد عليها بما يدحضها فقال تعالى فى سورة آل عمران :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ١٥٠ بتصرف وتلخيص .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [١] .

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن من أهل الكتاب ـ يا محمد ـ فريقاً إن تأتمنه على الكثير والنفيس من الأموال، يؤده إليك عند طلبه كاملا غير منقوص ، ومنهم فريق آخر إن تأمنه على القليل منها يستحله ويجحده، والسبب في جحود هذا الفريق لأموال الناس، واستحلالهم لها بغير حق ، أنهم قالوا : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أى: لا تبعة علينا شرعا ولا مؤاخذة، في أكل أموال العرب الأميين. والحال يامحمد ـ أنهم بقولهم هذا ، يفترون على الله الكذب عن علم ومعرفة ، فعليك أن ترد عليهم كذبهم هذا بقولك : بل عليكم في الأميين سبيل ، وأنكم معذبون بما تجرمون فى حقهم ، فإن ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ بيان لقسمين متقابلين من أهل الكتاب : أحدهما: يؤدى الأمانة مهما بلغت قيمتها ونفاستها، وهذا القسم هو الذى استجاب للحق، وآمن بالنبى (ﷺ) كعبد الله بن سلام، وأمثاله من مؤمنى أهل الكتاب .

قال ابن عباس : أودع رجل عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه . وأودع رجل آخر (فنحاص بن عازوراء) دينارا فخانه ، فنزلت الآية [٢] .

وثانيهما : هو الذى لا يؤدى الأمانة، ولو كانت قليلة ، إلا إذا داوم صاحبها على المطالبة بها ، وألح فى أخذها، واستعمل كل الوسائل للحصول عليها، وهذا القسم هو الذى جحد الحق، ولم يتبع النبى (ﷺ) ، وحارب الدعوة الإسلامية بفعله وقوله .

والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا: العدد الكثير، والعدد القليل ، أى: أن منهم من هو فى غاية الأمانة حتى إنه لو ائتمن على الأموال الكثيرة لأداها . ومنهم من هو فى غاية الخيانة حتى إنه لو ائتمن على الشيء القليل لجحده، ولم يؤده إلا بكثرة ملازمته، والاستمرار على مطالبته به .

---

(١) الآيتان ٧٥ ، ٧٦.

(٢) تفسير الرازى جـ٧ ص ١٠٧.

قال الإمام ابن جرير : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله بذلك نبيه (ﷺ) وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك، منهم المؤدى أمانته، ومنهم الخائن لها؟ قيل: إنما أراد ـ عز وجل ـ بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه في كتابه بهذه الآية؛ تحذير المؤمنين من أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم من الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين(١) .

ثم حكى الله ـ تعالى ـ السبب الذى جعلهم يبررون خيانتهم وجحودهم لحقوق غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ .

السبيل : المراد به الحجة الملزمة. وأصله الطريق . أطلق على الحجة باعتبارها طريقاً، ووسيلة للإلزام وتحمل التبعات . أى : ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخائن سببه زعمهم الذى قالوه ، وتفوهوا به وهو أنهم ليس عليهم حرج ،أو إثم عند الله فى استحلال أموال العرب الأميين ، واستلابها منهم بأى طريقة . وإنهم لايتطرق إليهم عتاب ولا مذمة إذا تعدوا عليهم ،لأن الأميين ليسوا على ملتهم . واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم، وأخذ ماله بأى طريق كان ، وأنه لا يجعل لغير اليهود حرمة.

وهذا الخلق الذميم معرق فى اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم ،فقد كانت التوراة ـ مثلا ـ تحرم الربا تحريما مطلقا . وتقول : (لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته) فحرف اليهود هذا النص، إذ زادوا كلمة (الإسرائيلى) فأصبح النص هكذا . (لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلى إذا أقرضته) وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند تعاملهم مع أنفسهم ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم. لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة.

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، وتكذيب لهم فيما زعموه، لأن قولهم هذا ما أنزل الله به من سلطان ، ولا يؤيده عقل سليم، إذ المبادىء الخلقية الفاضلة يجب أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود الذين يجحدون الأمانات متذرعين بقولهم: ليس علينا فى الأمين سبيل ، يفترون على الله الكذب فى قولهم هذا، وهم يعلمون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٢٠٥.

أنهم كاذبون؛ لأنهم ليس عندهم فى التوراة نص يبيح لهم استحلال الأميين وخيانتهم ، وإنما الذى تأمرهم به التوراة هو أداء الأمانة لمستحقيها بالمعروف .

ولقد بين النبى (ﷺ) أن الأمانة يجب أن تؤدى إلي البار والفاجر، فقد أخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير، أنه قال لما نزلت : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قال : النبى (ﷺ) كذب أعداء الله ما من شيء كان فى الجاهلية إلا هو تحت قدمى، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر[1] .

ولقد سار أتباع النبى (ﷺ) على مبدأ أداء الأمانة لكل إنسان، وعدم أخذ شيء من أموال الغير إلا بوجه مشروع .

قال ابن كثير : قال عبد الرزاق : أنبأ معمر، عن أبى إسحاق الهمذانى، عن أبى صعصعة بن يزيد ، أن رجلا سأل ابن عباس، فقال : « إنَّا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم »[2] .

وقال ابن جريج : « بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم، فقال اليهود : ليس لكم علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم ، الذى كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فقال الله - تعالى - ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون [3] .

ثم أكد الله - تعالى كذبهم بجملة أخرى فيها الرد الملزم لهم، فقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف جيء به لإثبات مانفاه اليهود فى قولهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعمتم يامعشر اليهود، من أنه ليس عليكم فى الأميين سبيل ؟ بل الحق أن عليكم فيهم سبيلا ، وأنكم معذبون بسبب استحلالكم لأموالهم بدون حق ، ومثابون إن آمنتم بالله ورسوله محمد (ﷺ) ووفيتم بعهودكم مع العرب وغيرهم .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٢٠٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٢٠٦ .

وقد علل الله ـ تعالى ـ هذا الحكم العادل بجملة مستأنفة عامة فقال تعالى : ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : كل من أوفى بعهد الله فآمن بنبيه محمد (ﷺ) واستقام على دينه. واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر . فإن الله يحبه ويرضى عنه ، ومن لم يفعل ذلك فإنه يبغضه ولايحبه ، ويعذبه العذاب الأليم ، وبذلك تكون الجملة الكريمة، قد أفادت أن محبة الله لعبده تتوفر بأمرين .

أولهما : الوفاء بالعهد ، فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود، فالوفاء بها واجب، وفى مقدمة هذه العهود العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده ، والإيمان برسله، وعلى رأسهم محمد (ﷺ) .

وثانيهما : تقوى الله، بمعنى : أن يجتنب ما نهى الله عنه ، وحرمه عليه، ولا يفعل إلا ما أحله الله له، وأذن له فيه .

وقد خلا اليهود من هذين الأمرين ، لأنهم لم يفوا بعهودهم، التى أخذها الله عليهم، بأن يؤمنوا بمحمد (ﷺ) وقد ترتب على ذلك أن استحلوا محارم الله وخانوا الأمانات ، وجحدوا الحقوق ، وقالوا كاذبين: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ . ولأنهم لم يتقوا الله، إذ لو اتقوه لتركوا ما نهوا عنه ، ولجعلوا حاجزا بينهم وبين الاعتداء أيا كان نوعه، فهم معاقبون بما يقترفون من سيئات، وما يفعلون من موبقات .

قال الأستاذ الإمام :« إن ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدة عامة من قواعد الدين . وهى : أن الوفاء بالعهود، واتقاء سائر المعاصى، هو الذى يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلا لمحبته، لا كونه من شعب كذا» ومن هذه القاعدة يعلم خطأ اليهود فى زعمهم أنه ليس عليهم فى الأميين سبيل، وفيه التعريض بأن أصحاب هذا الرأى ليسوا من أهل التقوى، التى هى الركن الركين لكل دين قويم »(١) .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد رد على اليهود ردا مفحما فى قولهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ فأثبت أنهم يكذبون عن تعمد وإصرار فيما يقولون ، وأن أداء الأمانة واجب على كل إنسان ، وأن كل من وفى بعهود الله واتقاه ، فإنه يكون أهلا لمحبته ورضاه .

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٣٤١ .

تاسعا : بهتهم لمريم ، ودعواهم قتل عيسى ـ عليه السلام :

من أعظم الأكاذيب ، وأكبر المفتريات التى تبجح بها اليهود ، رميهم مريم الطاهرة البتول بالزنا، وارتكاب الفاحشة ، وادعاؤهم قتل عيسى ـ عليه السلام ـ مع تفاخرهم بذلك ، وتهكمهم برسالته ، وتطاولهم على شخصيته، واتخاذهم جميع السبل لإيذائه .

ولقد حكى القرآن الكريم ماتقولوه على مريم النقية المحصنة، وعلى ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ ورد على تقولهم وبهتانهم بما يدحضه ، ويعلى من شأن مريم البتول، وعيسى الرسول ـ عليه السلام ـ فقال تعالى فى سورة النساء : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١) .

الباء فى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ للسببية ، ولفظ (ما) زيد للتأكيد والتقوية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ، والتقدير .

فبسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذناه عليهم ، وكفرهم بآياتنا، وقتلهم لأنبيائنا . وكذبهم علينا ، فعلنا بهم مافعلناه، من اللعن والمسخ وغيرهما، من العقوبات التى أنزلناها بهم .

و ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف ، وهو الذى عليه غلاف يمنع وصول شىء إليه .

ومرادهم: أن قلوبنا مغطاة بأغطية غليظة، فلا ينفذ إليها شىء مما جاء به محمد (ﷺ) ولا تفقه ما يقوله ، وإذن فلا ذنب لهم ـ فيما يزعمون ـ فى عدم اتباعه ، لأن الله ـ تعالى ـ خلق قلوبهم هكذا وعليها غشاوة جعلتها لا تتأثر بما يقوله محمد (ﷺ) .

وقد رد الله عليهم هذا الزعم الباطل فقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى: ليس كفرهم ، وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً

---

(١) الآيات من ١٥٥ـ١٥٨.

بحسب الجبلة ، بل الحق أن الله ـ تعالى ـ ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها : بسبب كفرهم، وأعمالهم القبيحة ، لأنه ـ سبحانه ـ خلق القلوب على الفطرة، بحيث تتمكن من اختيار الخير والشر، إلا أن هؤلاء اليهود أعرضوا عن الخير إلى الشر، واختاروا الكفر على الإيمان نتيجة انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم؛ فالله ـ تعالى ـ طبع على قلوبهم، بسبب اقترافهم السيئات، وجحودهم للحق عن علم وإصرار ؛ فهم لا يؤمنون إلا إيماناً قليلا . لا يذعنون معه للحق . ولا يصدقون بجميع الرسل. بل يقولون: نؤمن ببعض . ونكفر ببعض . ومن كان شأنه كذلك فإيمانه لا يعتد به . لأن الكفر ببعض الرسل . كالكفر بجميعهم ـ عليهم الصلاة والسلام.

والجملة الكريمة : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ معترضة بين المتعاطفين. جيء بها ؛للمسارعة إلى رد مزاعمهم الفاسدة. وأقاويلهم الباطلة .

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ جريمتين من جرائمهم المتعددة. فقال تعالى:﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾.

المراد بالكفر هنا :كفرهم بعيسى ـ عليه السلام ـ وهو غير الكفر المذكور فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ لأن المراد به : الجحود المطلق .

قال الإمام الآلوسى : «﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ عطف على ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ الذى قبله، ولايتوهم أنه من عطف الشيء على نفسه، ولا فائدة فيه ؛لأن المراد بالكفر المعطوف. الكفر بعيسى . والمراد بالكفر المعطوف عليه: إما الكفر المطلق . أو الكفر بمحمد (ﷺ) لاقترانه بقوله تعالى حكاية عنهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾. وقد حكى الله ـ تعالى عنهم هذه المقالة فى مواجهتهم له (ﷺ) فى مواضع، ففى العطف إيذان بصلاحية كل من الكفرين»[1] .

والبهتان : هو الكذب المفرط، الذى لا تقبله العقول ، ويبهت من يقال فيه ، أى: يدهشه، ويحيره، لبعده عنه ، وغرابته عنده ، والمعنى : أن من أسباب لعن الله لليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم ،كفرهم بعيسى ـ عليه السلام ـ وهو الرسول المبعوث إليهم؛ ليهديهم إلى الحق ،وإلى طريق مستقيم، وافتراؤهم على

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص ٤ .

مريم أم عيسى ،وتقولهم عليها ماهى بريئة منه ، وغافلة عنه، بسبب أنها ولدت عيسى من غير أب.

فقد تربت فى كفالة نبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ وكانت عابدة فى محرابها لاتكاد تخرج منه ، وقد أظهر الله ـ تعالى ـ عند ولادتها لابنها عيسى ـ عليه السلام ـ من الآيات البينة مادل على براءتها من كل عيب ، وبعدها عن كل ريبة، كما بين ذلك القرآن فى سورة مريم بأجلى بيان .

ثم حكى الله عنهم قولهم الباطل في شأن عيسي ـ عليه السلام ـ وبين الحق والصواب فى أمره فقال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أى : وبسبب قولهم هذا ، المؤذن بالجرأة على الباطل، وبالضراوة على ارتكاب الجرائم ، لعنهم الله، وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم، بسبب جرائمهم السابقة.

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر ، لقتلهم ـ فى زعمهم ـ نبيا من أنبياء الله ، وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع ـ إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله، وأخذوا كل السبل؛ لبلوغ غايتهم الدنيئة ، فدسوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة ، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه ـ بل زعموا أنهم أسلموه فعلا لهم ـ ولكن الله ـ تعالى ـ خيب سعيهم ، وأبطل مكرهم ، وحال بينهم وبين مايشتهون ، حيث نجى نبيه ـ عيسى ـ عليه السلام ـ من شرورهم، ورفعه إليه دون أن يمسَّه سوء منهم .

ولا شك أن ماصدر عن اليهود فى حق عيسى ـ عليه السلام ـ من محاولة قتله واتخاذ كل وسيلة؛ لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخر هم وقد رفعه الله إليه بأنهم قتلوه وصلبوه ،لاشك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم ، لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب جريمة من الجرائم، واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب.

واليهود . قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى ـ عليه السلام ـ كما بينا ـ ولكن حيل بينهم وبين مايشتهون . لأسباب خارجة عن طاقتهم، ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا فى

تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره، وفى نيته، وفى شروعه الأثيم. لارتكاب مانهى الله عنه .

قال الإمام الرازى : « فإن قيل : اليهود كانوا كافرين بعيسى. عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة. والفاعل ابن الفاعلة. فكيف قالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ؟. والجواب عنه من وجهين: الأول : أنهم قالوه على وجه الاستهزاء . كقول فرعون: ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾ وكقول كفار قريش لمحمد (ﷺ) :﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ والثانى: أنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح، فى الحكاية عنهم. رفعاً لعيسى - عليه السلم - عما كانوا يذكرونه به » (١) .

ثم رد الله عليهم قولهم وكذبهم فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أى : أن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم :أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - هو من باب الكذب والافتراء ، فإنهم ماقتلوه،وما صلبوه، ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه المسيح - عليه السلام - فى الخلقة،فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه،ثم قالوا:إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم.

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت (شُبه) مسند إلى ماذا ؟ إن جعلته مسندا إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر ؟. قلت : هومسند إلى الجار والمجرور، وهو لهم كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم الشبه - بين عيسى والمقتول -، ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول ، لأن قولهم: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ﴾ يدل عليه ، كأنه قيل ولكن شبه لهم من قتلوه » (٢) .

وقال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف فى تفسيره : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ زعم أكثر اليهود، أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال : ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أى : شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح، فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى: ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح وماهو به فى الواقع، إذ قدر فع الله عيسى إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء، وقيل

(١) تفسير الرازى جـ ١١ ص ٧٧.

(٢) تفسير ابن الكشاف جـ ١ ص ٣٩٦.

المعنى: ولكن التبس عليهم الأمر، حيث ظنوا المقتول عيسى، كما أوهمهم بذلك أحبارهم»[1].

هذا، وللمفسرين في بيان كيفية التشبيه لهم وجوه، أهمها اثنان:

الأول: أن الله - تعالى - ألقى شبهه على أحد الذين خانوه، ودبروا قتله، وهو (يهوذا الإسخربوطى) الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح - عليه السلام - والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم من أقبله أمامكم يكون هو المسيح - عليه السلام - فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بيت عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى..

وهذا الرأى ذكرته بعض الأناجيل، وعلى رأسها إنجيل (برنابا) الذى ساق وصفا مفصلا لمحاولة قتل المسيح عيسى - عليه السلام - فقال:

« ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه (يسوع) سمع (يسوع) دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفا، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميكائيل ورفائيل وأوريل (هما إسرافيل وعزرائيل) سفراءه أن يأخذوا يسوع (المسيح) من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، ووضعوه فى السماء الثالثة التى تسبح الله إلى الأبد. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياما، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا فى النطق، وفى الوجه، فصار شبيها بيسوع، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدنا معلمنا، أنسيتنا الآن؟ أما هو فقال مبتسما: هل أنتم أغبياء، حتى لا تعرفوا يهوذا الإسخربوطى؟ وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا، لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين، ويوحنا الذى كان ملتفا بملحفة من الكتان استيقظ وهرب، ولما أمسكه جندى بملحفة الكتان ترك الملحفة وهرب عريانا، لأن الله سمع دعاء يسوع، وخلص الأحد عشر من الشر. فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه

---

(١) تفسير صفوة البيان لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف ص ١٧٨.

ساخرين منه ، لأنه أنكر - وهو صادق - أنه يسوع فقال الجنود مستهزئين : ياسيدى لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكا على إسرائيل ، وإنما أوثقناك؛ لأننا نعلم أنك ترفض المملكة. أجاب يهوذا لعلكم جننتم، إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص ، أفتو ثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكا؟ حينئذ خان الجنود صبرهم، وشرعوا يمتهنون يهوذا بضربات ورفسات، وقادوه بحنق إلى أورشليم » [1] .

ويمضى إنجيل برنابا فى تصويره لقاء يهوذا - الذى انقلب إلى شبه يسوع، وهو المسيح - بالحاكم، ثم الملك الذى اعتقد أنه مجنون فى دعواه، ولكن يهوذا قتل فى النهاية .

الثانى : أن الله - تعالى - ألقى شبه المسيح - عليه السلام على أحد تلاميذه المخلصين، حينما أجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله - تعالى - بأنه يرفعه إليه ، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب، ويدخل الجنة فقام رجل منهم فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب .

قال الإمام ابن كثير: « قال ابن أبى حاتم، حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: « لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، فقال إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى قال : ثم قال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى، فقام شاب من أحدثهم سنا فقام له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: اجلس ثم أعاد عليهم فقال الشاب: فقال أنا فقال : هو أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء، قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة ،بعد أن آمن، وافترقوا ثلاث فرق فقالت فرقة: كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء ،وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة :كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلاها، فلم يزل الإسلام طامسا، حتى بعث الله محمدا (ﷺ) .

---

(١) إنجيل برنابا ص ٣١٣.

قال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ،ورواه النسائى، عن أبى كريب، عن أبى معاوية، وقال غير واحد من السلف: إنه قال لهم أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى، وهو رفيقى فى الجنة» (١) ؟

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ أى . وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب، لفى شك دائم من حقيقة أمره، أى: فى حيرة وتردد ، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه أو شأن قتله ، ولكنهم مايتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن، الذى لايثبت به حجة، ولايقوم به برهان .

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ اختلافا كبيرا ، فمنهم من أنكر نبوته، وزعم أنه أتى عن طريق غير شرعى ، وهم اليهود ، ومنهم من قال عنه: إنه ابن الله ، وزعم أن فيه عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى ، وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى، ثم فاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى، ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين .. إلخ .

ولقد اختلفوا فى أمر قتله ، فقال بعض اليهود: إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقيا، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، ولايزال أهل الكتاب يختلفون حول حقيقة عيسى وصلبه .

ومنذ حين تقدم قس ألمانى باقتراح إلى المجمع المسكونى المسيحى يدعوه فيه إلى تبرئة اليهود من دم المسيح ـ عليه السلام ـ، وقدَّم إلى المجمع وثيقة لتأييد وجهة نظره، وساعده على ذلك كبير أساقفة الكنيسة الإنجليزية، واجتمع المجمع المسكونى ليقول كلمته فى هذا الموضوع، فوجد أن الوثيقة تناقض كلام الأناجيل المثبتة قتل اليهود لعيسى ـ عليه السلام ـ مناقضة تامة، وحاول المجمع أن يأتى بحيلة ليبرىء بكلام لاينفى مافى الوثيقة من تبرئة لليهود، ولا يخالف مافى الأناجيل من إدانة اليهود بقتل عيسى، فماذا قال أعضاء المجمع ورئيسه ؟

قالو: أولا : إن قتل المسيح كان بإرادة الله ، والذين نفذوه استجابوا لإرداة الله، ولكنهم وجدوا أن هذا الكلام لا يقبله عاقل، لأن كل شىء بإرادة الله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٧٤ .

فقالوا ثانيا : إن المسيح فى الحقيقة لم يقتله أحد ، وإنما هو الذى قتل نفسه ليفدى الخليقة ، ولكنهم وجدوا أيضا أن هذا الكلام غير مقبول ، لأن الأناجيل تثبت خلاف ذلك .

فقالوا ثالثا : إن المسئولين عن قتل المسيح، هم الذين قتلوه فعلا، وهم الرومان، أما يهود هذا الزمان فهم بريئون من دمه .

ثم قالوا رابعا : كما نقلت وكالات الأنباء العالمية عنهم - « إن الكنيسة التى ترفض اضطهاد الإنسان، والتى تدرك التراث المشترك مع اليهود ، والتى لاتحركها أسباب سياسية ، وإنما المحبة الروحية للأناجيل ، تندد بالكراهية وإظهار اللاسامية ضد اليهود ، وتستنكر اضطهادهم فى جميع الأوقات ومن أى إنسان » (١) .

وهكذا استطاع اليهود بخبثهم ومكرهم أن ينتزعوا اعترافا من بعض المسيحيين ببراءتهم من دم المسيح .

ومقصد اليهود الأول من وراء هذا العمل: أن يقيموا كتلة يهودية مسيحية لتقف فى وجه المسلمين ، ولتؤيدهم فى اغتصاب فلسطين، ولتخفف من حدة العداوة الدينية ،التى بين المسيحيين واليهود ، باعتبار أن الجرح الدامى فى جسم المسيحيين: هو أن المسيح قتل وصلب، وأن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه، ولهذا تعمد اليهود أن يعملوا على تثبيت هذه الوثيقة ، عن طريق صنائعهم من المسيحيين فى الوقت، الذى زار فيه (بطريرك) روما، الأرض المقدسة بفلسطين .

ونحن المسلمين نرى : أن تبرئة اليهود من دم المسيح - عليه السلام - قول حق شهد به القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ . وهذا لا ينفى أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ولا ينفى أنهم اتخذوا كل الوسائل الإجرامية لقتل عيسى - عليه السلام - وصلبه ، ولولا أن الله - تعالى - نجاه من مكرهم بما يفوق طاقات البشر لقتلوه وصلبوه ، وهم ما أقدموا على قتل شبيه عيسى - عليه السلام - إلا وهم يظنون ظنا راجحا أن المقتول هو عيسى - عليه السلام - .

فهم وحالهم على ماشرحنا ، مثلهم كمثل عصابة أرادت أن تقتل رجلا معينا، فاتخذت كل الوسائل لذلك ، وأعدت له العدة، ولكنها لم تصل إلى غايتها

(١) مجلة العربى العدد ٩١ حزيران سنة ٩٦٦ ص ٣٠.

وحيل بينها وبين ماتشتهى لأمور خارجة عن اختيارها، فما تحكم به الشرائع والعقول، والقوانين العادلة على هذه العصابة، هو ماتحكم به على هؤلاء اليهود ، ونزيد هنا أن الذى أرادوا قتله نبى من أولى العزم من الرسل، بعثه الله إليهم ليهديهم إلى الحق، فخاصموه وكذبوه وعملوا على قتله، وقتلوا فعلا من ترجح لديهم أنه هو ذلك النبى، ثم أخذوا يفخرون بهذه الجريمة على مدى السنين والأجيال .

ومن هذا يعلم أن تبرئة المسيحيين لليهود من دم المسيح ـ عليه السلام ـ فى هذا الظرف الراهن عمل سياسى، قام به بعض المسيحيين لاشتراء ود اليهود، والانتفاع بأموالهم ودنياهم، وأن ماينادون به وإن كان حقا فى ذاته، ولكنه يراد به باطل ، وهو الانتفاع بأموالهم ، وتكوين جبهة من أهل الباطل تعمل على الكيد للإسلام والمسلمين ، وتجعل العالم الذى يسير فى فلكهم يغض الطرف عن قضية آلاف اللاجئين المشردين من الفلسطينيين المسلمين .

وهكذا نجد أن خلاف أهل الكتاب فى شأن عيسى قديم، ولما ينتهوا بعد منه، وهم فى ريب دائم، وشك مستمر، فى أمر قتله ، ولقد أكد القرآن الكريم نفى قتل المسيح ـ عليه السلام ـ وصلبه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أى : أن اليهود ماقتلوا عيسى ـ عليه السلام ـ حقا وصدقا، أو ماقتلوه قتلا متيقنين معه أنه هو المقتول ، بل الحق أن الله ـ تعالى ـ رفع عيسى إليه دون أن يناله أذى منهم ، وكان الله ﴿ عَزِيزًا ﴾ منيع الجناب لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى جميع مايقدره ويقضيه من الأمور .

وقوله تعالى: ﴿ يَقِينًا ﴾ للمفسرين فيه تأويلان:

أولهما : أنه وصف لمحذوف ، أى : وماقتلوه قتلا يقينا على معنى متيقنين أن المقتول عيسى ـ عليه السلام ـ بل ارتكبوا جريمتهم وهم يشكون فى أن المقتول عيسى. وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم.

وثانيهما : أنه تأكيد للنفى، أى : وماقتلوه حقا وصدقا، فاليقين منصب على النفى ، أى :أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به، وليس ظنا كظنكم، أو وهما كوهمكم يامعشر أهل الكتاب .

وقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ رد لزعمهم أنهم قتلوه، وإثبات لنجاته منهم، أى : لم يقتل كما زعمتم يامعشر اليهود وإنما رفعه الله إليه .

وأكثر المفسرين على أن الله ـ تعالى ـ رفع عيسى ـ عليه السلام ـ بجسده وروحه لابروحه فقط، وفسر بعض العلماء الرفع بأنه رفع بالروح فقط، وسنفصل القول فى هذه المسألة بعد قليل.

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾.

(إن) نافيه ، وللمفسرين فى هذه الآية رأيان :

الأول : أن الضمير فى : ﴿ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى عيسى ـ عليه السلام ـ ويكون المعنى . وما من أحد من أهل الكتاب : اليهود أو النصارى إلا ليؤمنن بعيسى ـ عند نزوله فى آخر الزمان ـ حق الإيمان ، قبل موته، أى : قبل موت عيسى ـ عليه السلام ـ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا بأنه ماقال لهم إلا ما أمره الله به أن اعبدوا الله ربى وربكم .

وقد انتصر لهذا الرأى المحققون، من أهل التفسير، كابن جرير ، وابن كثير، واستدلوا على صحته بأحاديث كثيرة ،منها ما أخرجه الشيخان، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « قال رسول الله (ﷺ) والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : أقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

قال ابن جرير : بعد سرد الأقوال فى الآية : وأولى الأقوال بالصحة والصواب هو أنه لايبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى ـ عليه السلام ـ إلا آمن به قبل موت عيسى .

وقال ابن كثير : « ولاشك أن هذا الذى قاله ابن جرير: هو الصحيح ، لأنه

---

(١) أخرجه البخارى ـ واللفظ له ـ فى كتاب (بدء الخلق) باب (نزول عيسى ابن مريم) جـ ٤ ص ٢٠٥ . وأخرجه مسلم فى (كتاب الإيمان) باب (نزول عيسى حاكما بشريعة محمد ـ ﷺ ـ) جـ ١ ص ١٣٥ وقد ساق الإمام مسلم زهاء عشرة أحاديث فى هذا المعنى فى نفس الباب.

المقصود من سياق الآيات فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من: قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك ، فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه، وهم لايتبينون ذلك، ثم إنه ـ تعالى ـ رفع عيسى إليه ، وإنه باق حى وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت الأحاديث المتواترة . . »[1] .

الثاني : أن الضمير فى ﴿ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ويكون المعنى : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته ـ أى الكتابى ـ ، لأنه عند حشرجة الموت يتجلى له الحق ، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده، فيؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً ، لأنه جاء فى وقت الغرغرة ، وهو وقت لاينفع فيه الإيمان .

ويؤيد هذا الرأى قراءة أبى : (إلا ليؤمنن به قبل موتهم) ـ بضم النون وبميم الجمع ـ ، والمعنى : «وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمن بعيسى قبل أن يموتوا» .

وفائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم الوعيد، وليكون علمهم بأنه لابد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لاينفعهم باعثا لهم، ومنبها على معاجلة الإيمان به فى أوان الانتفاع به .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ معناه : يشهد على اليهود بأنهم كذبوه.

والذى نراه أنه لا تعارض بين التأويلين فإن كلا منهما حق نفسه فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته، وأنه عبد الله ورسوله ، وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه ـ عز وجل ـ.

هذا وفى سورة آل عمران آيات كريمة ، أشارت إلى ما بينه اليهود لعيسى ـ عليه السلام ـ من مكر وأذى ، وكيف أن الله ـ تعالى ـ نجاه ومن مكرهم، وهذا الآيات هى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧٧ .

بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين (٥٣) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤) إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ﴾ معناه. فلما أحس عيسى من بنى إسرائيل التصميم على الكفر، واستشعر منهم الاستمرار على الضلال، وعلم منهم الجحود علما لاشبهة فيه، كعلم مايدرك بالحواس، قال لقومه: من أنصارى فى الدعوة إلى الله ، والتبشير بدينه، كما كان النبى - ﷺ - يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر :« من رجل يؤوينى وينصرنى حتى أبلغ كلام ربى؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » فقيض الله - تعالى - له الأنصار فآووه ونصروه، ومنعوه من الأسود والأحمر .

ثم أخبر الله - تعالى - بأن الحواريين أجابوا عيسى - عليه السلام - بأنهم هم أنصاره ، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى : قال الحواريون - وهم أنصار دينه، وخاصة من قومه، نحن أنصار الله ، وحماة دينه، والمدافعون عن رسوله ، آمنا بالله ، واشهد لنا ياعيسى يوم القيامة بأنا مسلمون، حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم.

ونحن يا ربنا قد آمنا بما أنزل على رسولك، واتبعناه وصدقناه، فاكتبنا يا ربنا مع الشاهدين بوحدانيتك ، المستحقين لرضاك ورحمتك .

ثم أخبر الله - تعالى - عن مكر اليهود بعيسى - عليه السلام - وإنجائه له منهم فقال تعالى:﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ أى : ومكر هؤلاء اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر، وناله منهم الأذى ، فدبروا قتله، واتخذوا كل الطرق لذلك، ولكن الله تعالى خيب سعيهم،وأبطل مكرهم، فنجى عيسى - عليه السلام - منهم، بأن رفعه حياً من بينهم إلى السماء، ونجاه مما أرادوا به، من القتل والصلب وألقى شبهه على آخر بدله فقتلوه، ظناً منهم أنه عيسى،والله - عز وجل - خير الماكرين،أى :أقواهم مكرا، وأقدرهم على إيصال العقاب من حيث لايشعر المعاقب .

---

(١) الآيات من ٥١ - ٥٥.

ثم بين - سبحانه - ما أبطل به مكرهم، ونجى بسببه عيسى - عليه السلام - من شرهم، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى: متوفى أجلك. معناه : إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك؛ ومميتك حتف أنفك، لا قتيلا بأيديهم ،وقيل متوفيك : قابضك من الأرض ، من توفيت مالى على فلان إذا استوفيته، وقيل : مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء، ورافعك الآن . وقيل: متوفى نفسك بالنوم من قوله: ﴿ والتى لم تمت فى منامها ﴾ ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ أنت فى السماء آمن مقرب » [1] .

ومعنى الآية الكريمة : واذكر يامحمد - إذ قال الله - تعالى - لنبيه عيسى عليه السلام - إنى متوفيك حياتك جميعها فى الدنيا ، ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك؛ لتعيش فيها إلى أن آذن لك بالنزول إلى الأرض، ومطهرك من كل رجس وأذى ، ومن سوء جوار اليهود، وخبث صحبتهم، وجاعل الذين اتبعوك، وآمنوا بك وصدقوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، أى: فوقهم بحجتهم، وسلامة اعتقادهم ،وقوتهم المادية والروحية، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

هذا ونحب أن نفصل القول قليلا فى مسألة رفع عيسى - عليه السلام - فنقول:

للمفسرين أقوال فى المراد من رفع عيسى - عليه السلام - أهمها قولان :

الأول : أن معنى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ مميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتى، ومقر ملائكتى ، كما ترفع أرواح الأنبياء إليه سبحانه، وأصحاب هذا الرأى يقولون : إن هذا التفسير هو المتبادر من الآية، وإن الأحاديث التى وردت فى نزول عيسى أخبار آحاد لا يؤخذ بها فى مسائل العقيدة .

الثانى : أن معنى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ قابضك من الأرض، ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك؛ لتستوفى حظك من الحياة هناك، وأصحاب هذا الرأى وهم جمهور العلماء والمفسرين لايفسرون التوفى بالموت، وإنما يقولون : إن التوفى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٠٦.

فى اللغة: أخذ الشيء تاما، فمعنى: ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ موفيك حياتك كلها فى الدنيا. ويقولون أيضا دلت السنة المشهورة أن الله ينزله فى آخر الزمان إلى الأرض، حاكما بشريعة محمد (ﷺ) ثم يميته الله عز وجل بعد ذلك .

قال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف : قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أى: آخذك وافياً بروحك وجسمك، ورافعك إلى محل كرامتى، فالعطف للتفسير يقال : وفيت فلانا حقه، أى: أعطيته إياه وافيا، فاستوفاه وتوفاه، أى: أخذه وافيا.. أو قابضك ،ومستوفى شخصك من الأرض، من توفى المال بمعنى: استوفاه وقبضه. واعلم أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، كما قال تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ فاعتقاد النصارى القتل والصلب كفر لاريب فيه، وقد أخبر الله تعالى أنه رفع إليه عيسى، كما قال : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وقال : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فيجب الإيمان به .

والجمهور على أنه رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء والخصوصية له عليه السلام هي فى رفعه بجسده، وبقائه فيها إلى الأمد المقدر له . وأما التوفى المذكور فى هذه الآية، وفى قوله تعالى ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾ فالمراد منه ماذكرنا على الرواية الصحيحة، عن ابن عباس، والصحيح من الأقوال كما قاله القرطبى، وهو اختيار الطبرى وغيره، وكما كان ـ عليه السلام ـ فى مبدأ خلقه معجزة ظاهرة وآية للناس، كان فى نهاية أمره آية ومعجزة باهرة، والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر، ومدارك العقول. وهى من متعلقات القدرة الإلهية، ومن الأدلة على صدق الرسل ـ عليهم السلام» (١) .

والذى يبدو لنا، أن الرأى الثانى هو الراجح ،لما يأتى :

أولا : قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ يفيد بظاهره أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه ، لأن الإضراب مقابل بالقتل والصلب، الذى أراده وزعموا حصوله، ولايصلح مقابلا لهما رفعه بالروح، لأن الرفع بالروح يجتمع معهما. ومادام الرفع بالروح لايصلح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما هو الرفع بالجسد والروح.

---

(١) تفسير صفوة البيان لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

ومن أراد المزيد من هذه الأحاديث فليراجع (كتاب التصريح بما تواتر فى نزول المسيح) للشيخ محمد أنور الكشميرى الهندى تحقيق الأستاذ عبد الفتاح ابو غدة :طبع :مكتب مكتبة المطبوعات الإسلامية بسورية: حلب.

ثانيا : وردت أحاديث متعددة، بلغت فى قوتها مبلغ التواتر المعنوى، فى شأن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض ، ليملأها عدلا ، بعد أن ملئت جورا ، وليكون حاكما بشريعة محمد (ﷺ) لأنه لايأتى بشريعة سواها .

وقد عقد الإمام ابن كثير فصلا خاصا فى تفسيره، قال فيه : « ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان، قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له » .

ومن هذه الأحاديث، ما أخرجه الشيخان، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : «قال رسول الله (ﷺ) : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين »[1] .

وقد نص الإمام ابن كثير على أن الأحاديث التى وردت فى شأن نزول عيسى إلى الأرض تصل إلى درجة التواتر، كما بينا ذلك فى النص الذى نقلناه عنه عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ وظاهر هذه الأحاديث الصحيحة فى شأن نزول عيسى، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه كذلك .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كذبت اليهود فى بهتهم لمريم البتول، وفى دعواهم قتل المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، ووبختهم على دعاواهم الباطلة ، وحقت الحق ،وأبطلت الباطل، ولو كره المجرمون .

عاشرا : قولهم : يد الله مغلولة :

مما حكاه القرآن الكريم عن اليهود، من الدعاوى الباطلة، والأقاويل الفاسدة، زعمهم : أن يد الله مغلولة . وهذا الذى حكاه القرآن الكريم عنهم، يدل على جرأتهم على الله - تعالى - وسوء أدبهم معه، ووصفهم إياه بما لايليق به، وإنكارهم جميل نعمه عليهم، وجحودهم لآلائه التى لا تعد ولا تحصى .

ومن الآيات التى وصمت اليهود بالكذب على الخالق - عز وجل - قوله تعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧٨ .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

قال ابن عباس : « قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس ، يامحمد إن ربك بخيل لا ينفق ، فأنزل الله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ..﴾ الآية(٢) .

وقد أضاف القرآن الكريم المقالة إلى اليهود ، لأنهم لم ينكروا على القائل ما قاله ورضوا به .

وقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ إخبار من الله تعالى عن جراءة اليهود عليه سبحانه، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه، التى لا تحصى .

وأرادوا بقولهم: يد الله مغلولة أنه سبحانه بخيل عليهم ، ممسك خيره عنهم ، مانع فضله عن أن يصل إليهم ، حابس عطاءه عن الاتساع لهم ، كالمغلولة يده الذى لا يقدر أن يبسطها بعطاء، ولابذل معروف .

و(غل اليد وبسطها) مجاز مشهور عن التقتير والعطاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ .

والسبب فيه :أن اليد آلة لأكثر الأعمال ، لا سيما فى دفع المال وإنفاقه ، فأطلقوا اسم السبب على المسبب ، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والكف فقيل للجواد: فياض اليد، مبسوط الكف، وقيل للبخيل : مقبوض اليد، كز الكف ، وهذا معروف فى كلام العرب .

قال صاحب الكشاف : « غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود . ولايقصد مَنْ يتكلم به إثبات يد ولاغل ولابسط، ولافرق عنده بين هذا الكلام وبين ماوقع مجازا عنه، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى إنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط، ولايمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط

(١) سورة المائدة :الآية ٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٥ .

يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا معاقبتين للبخل والسجود »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ تكذيب لهم فيما قالوه ، ودعاء عليهم بالبخل ،وانقباض أيديهم عن الخير وشحها عن الإنفاق فى سبيل الله ، والمعنى :

ليس الأمر كما قال هؤلاء اليهود فى حق الله ـ تعالى ـ بل هم الذين أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات، ولعنوا ، أى : طردوا وأبعدوا من رحمة الله وفضله ، بسبب ماقالوه على الله ـ تعالى ـ من الإفك ، وما وصفوه به من البخل والشح .

فالمراد بـ ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ على هذا التفسير: الدعاء عليهم بالبخل، وانقباض الأيدى .

قال صاحب الكشاف : « ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدى حقيقة، يغللون فى الدنيا أسارى، وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم »[2] .

ثم رد الله عليهم ماقالوه ، وأثبت لذاته نهاية الجود والعطاء، فقال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : ليس بخيلا كما زعموا، بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء ، الذى ما من شىء إلا عنده خزائنه . وعبر ـ سبحانه ـ عن سعة جوده ببسط اليدين وتثنيتهما ، ليكون أبلغ فى رد قولهم: (يد الله مغلولة) وفى إنكاره ، وليكون أدل على إثبات غاية السخاء له، ونفى البخل عنه، لأن الجواد السخى إذا أراد أن يبالغ فى العطاء أعطى بكلتا يديه .

أخرج البخارى: عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : «إن يمين الله ملأى لايغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار ـ أى: كثيرة العطاء أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ـ أى: لم ينقص ـ مافى يمينه ، وكان عرشه على الماء ،وفى يده الأخرى الغيض أو القبض، يرفع ويخفض وقال : يقول الله تعالى. أنفق أنفق عليك »[3] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢٤ .
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير عند تفسيره قوله تعالى فى سورة هود :﴿ وكان عرشه على الماء ﴾

وقوله تعالى : ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده، وللدلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى حكمته، التى يدور عليها أمر المعاش والمعاد. وتقتيره فى الرزق على بعض الناس، لاينافى سعة كرمه، لأنه يعطى ويمنع على حسب مشيئته التى أقام بها نظام خلقه .

قال صاحب الكشاف: «روى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله ـ تعالى ـ فى محمد (ﷺ) وكذبوه، كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة ، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ورضى بقوله الآخرون فأشركوا فيه »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقفهم الجحودى مما أنزله الله على رسوله ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ .

والمعنى : إن ما أنزلناه عليك يامحمد من قرآن كريم، وما أطلعناك عليه من خفى أمور هؤلاء اليهود، وشئون كتبهم، وحقائق تاريخهم، مما يشهد بصدق نبوتك، كل ذلك ليزيدن الكثيرين منهم تمادياً فى الجحود، وتجاوزاً للحدود، وكفراً بآيات الله لأنهم قوم يحسدونك على ما آتاك الله من فضله ، ويحقدون عليك بسبب كشفك عن مخازيهم الماضية والحاضرة .

وهكذا يكون ما آتاك الله ـ يامحمد ـ من هدايات ونعم ، نقمة فى حق أعدائك اليهود، فإنهم يزيدهم ما أنزلناه عليك طغيانا على طغيانهم، وكفرا على كفرهم ، لأن ما أنزلنا إليك ينتفع به المتقون ، وينصرف عنه الخاسرون.

فالجملة الكريمة إخبار عن موقف العناد والجحود، الذى يقفه الكثيرون من اليهود مما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ وتسلية له عما أصابه منهم من أذى وتكذيب.

ثم بين سبحانه أن العداوة بين اليهود لا تنقطع ، وأن مكايدهم سترتد إلي نحورهم، فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ :

أى : وألقينا بين طوائف اليهود، وأفرادهم العداوة الدائمة ، والبغضاء المستمرة

---

(1) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٢٥ .

فكلمتهم مختلفة، وقلوبهم شتى، وفوق هذا فإنهم كلما أرادوا حرب الرسول (ﷺ) والمؤمنين، وهمّوا بكيدهم ، فإن الله ـ تعالى ـ يفسد عليهم خطتهم، ويحيط بمكرهم ، ويلقى الرعب فى قلوبهم . .

هذا ، وما أخبرت به الآية الكريمة من إلقاء العداوة والبغضاء بين طوائف اليهود وأفرادهم حق لا ريب فيه ، فإن طوائف اليهود ما تزال متعادية متناحرة، وأفرادهم يظهر بعضهم لبعض الشرور ، وماتخفى صدورهم أكبر .

وما أظهره اليهود فى هذا العصر من تعاون وتساند، واحتيال ومكر، وصلوا عن طريقه إلى إنشاء دولة لهم بفلسطين ، هو أمر مؤقت ، فإن وجودهم بفلسطين لن يستمر طويلا ـ مهما نوصروا وأعينوا ـ بل ستعود إلى أهلها متى صدق المسلمون فى جهادهم . واتبعوا تعاليم إسلامهم، وأعدوا العدة الكاملة لاسترداد أرضهم المغتصبة .

وإن التاريخ ليشهد بأن المسلمين قد تعرضوا للكثير من أذى اليهود ومكرهم وتعديهم، ولكن الله تعالى نصر المؤمنين عليهم بفضل إخلاصهم له، واعتمادهم عليه، وحسن استعدادهم لملاقاة أعدائهم .

ثم ختمت الآية الكريمة بالإخبار بكراهية الله ـ تعالى لهم؛لإفسادهم ومخالفتهم لأوامره فقال تعالى :﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء اليهود من طبائعهم ،أنهم دائما يسعون فى الأرض فسادا، ويجتهدون فى الكيد للإسلام والمسلمين ، كمحاولتهم محو ذكر صفات الرسول (ﷺ) من كتبهم، وتشكيك المسلمين فى عقائدهم. وإثارة الفتن بينهم، والله ـ عز وجل ـ لا يحب المفسدين، بل يغضهم، ولا يصلح عملهم؛ لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته فى صلاح الناس، وعمران البلاد .

وبهذا تكون الآية الكريمة قد ردت على اليهود فى نسبتهم البخل إلى الله ـ تعالى ـ وبينت أنه ـ سبحانه ـ هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء، وكشفت عن جانب من رذائل اليهود وعنادهم، وأوضحت أن الله ـ تعالى ـ يبغضهم ، لأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

هذا ونريد هنا أن نقف وقفة عند قوله تعالى :﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ﴾ لنبين طرفا من مظاهر فسادهم فنقول :

إن إفساد اليهود فى الأرض أمر اتسع نطاقه ، وعمَّ بلاؤه ، وتعددت أساليبه وتنوعت وسائله، وهذه بعض ألوانه :

أولا : القتل والاغتيال :

سجل القرآن الكريم على اليهود فى كثير من آياته قتلهم للأنبياء، وللذين يأمرونهم بالقسط من الناس ، وقد ذكرنا فيما سبق الآيات التى سجلت عليهم هذه الرذيلة(١) .

وقد قتل اليهود من أنبياء الله تعالى زكريا ويحيى - عليهما السلام - وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - واتخذوا جميع السبل لذلك، إلا أن الله تعالى عصمه منهم لأسباب خارجة عن إرادتهم .

وحاولوا أيضا قتل النبى (ﷺ) ولكنهم لم يفلحوا، لأن الله تعالى نجاه من شرورهم ومكرهم(٢) .

والذى يتتبع التاريخ فى جميع مراحله، يجد أن رذيلة القتل والاغتيال طبيعة فى اليهود، فى كل عصورهم، وهذه بعض جرائم القتل والاغتيال، التى سجلها التاريخ عليهم.

(أ) جاء فى الكتاب رقم (٧٨) الذى وضعه المؤرخ (كساسيوس) فصل (٣٢) عن حقبة القرن الثانى للميلاد (١١٧) م ماملخصه .

(عمد اليهود فى هذه السنوات إلى ذبح الرومان واليونان ، وأكلوا من لحومهم وسلخوا جلودهم ، وقطعوا أجسام كثيرين منهم نصفين، من الرأس فنازلا، وألقوا بالكثيرين منهم إلى الحيوانات المفترسة حتى بلغ القتلى (٢٢٠) ألفا (٣) .

(ب) من الطقوس الدينية المحترمة عند اليهود ، استنزافهم دم غير اليهودى ومزجهم هذا الدم بالعجين، الذى يصنع منه فطير عيد الفصح عندهم، ولقد جرى بحث هذا الموضوع الإجرامى، وثبتت حقيقته، وممارسة اليهود له فى مختلف مراحل التاريخ .

---

(١) راجع فصل (رذائل اليهود) مبحث (سوء ادبهم مع الخالق وقتلهم للأنبياء) .

(٢) فصلنا القول فى ذلك فى فصل (مسالك اليهود لكيد الاسلام والمسلمين) .

(٣) عن كتاب (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) للأستاذ عبد الله التل ص ٥٥ .

وكان ثبوت هذه الجريمة عليهم من أهم الأسباب، التى حملت غيرهم على اضطهادهم، والتنكيل بهم، ولقد جمع بعض المؤرخين جرائم اليهود فى هذا الشأن فبلغت أكثر من (٢٠٠) جريمة[1] .

ومن أشهر هذه الجرائم ما حدث فى سنة ١٨٤٠م إذ ثبت عليهم أنهم قتلوا الأب (توما) وخادمه . وملخص هذه الجريمة أن أحد خامات اليهود طلب الحصول على دم بشرى غير يهودى؛ لاستعماله فى فطير عيد الفصح فتكفل بذلك بعض اليهود، واستدرجوا الأب (توما وخادمه) ثم ذبحوهما واستنزفوا دماءهما . . . ولقد ثبتت التهمة على القتلة جميعا، فحكم عليهم بالإعدام إلا أن يهود أوربا اهتموا بهذا الحادث، فأرسلوا عددا من أغنيائهم إلى (محمد على باشا) حاكم مصر وسورية حينذاك، وقدموا إليه أموالا طائلة، وهدايا ثمينة ، فأصدر أمرا بالعفو عن المجرمين الذين كانوا قد ارتكبوا جريمتهم فى دمشق .

وقد نشرت تحقيقات ومحاكمات هذه الجريمة، فى عدة كتب أوربية، ومذكورة بالتفصيل فى كثير من الكتب الحديثة [2] .

وهناك جرائم كثيرة فى هذا الشأن يضيق المجال عن ذكرها هنا .

(جـ) منذ أن وطئت أقدام اليهود أرض فلسطين، وهم يقومون بجرائم تقشعر من هولها الأبدان ،وهذه نماذج من جرائمهم، التى ارتكبوها ضد عرب فلسطين .

١ ـ فى ٨ مايو سنة ١٩٤٨ م اعتدى اليهود على قرية (المجورة) وقبضوا على (٦٠) شابا ،ثم قتلوهم أمام أعين أهليهم.

٢ ـ وفى فبراير سنة ١٩٥١م وضع اليهود القنابل داخل قرية (شرفات) فقتل عدد كبير من الرجال والنساء . .

٣ ـ وفى أكتوبر سنة ١٩٥٣م انقض اليهود على قرية (قبية) فنسفوا منازلها بالمدافع وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ . .

---

(١) راجع فى ذلك كتاب (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) للأستاذ عبد الله التل ، وكتاب (لهذا أكره إسرائيل) للعقيد الركن أمين سامى الغمراوى.

(٢) راجع التحقيقات التى جرت فى هذه القضية فى كتاب (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) ترجمة الدكتور يوسف نصر الله ، وقد استغرقت هذه التحقيقات من ص ٨٨ إلى ص ٢٠٤ .

٤ ـ وقد بلغ عدد القرى العربية التى دمرت تدميرا كاملا منذ سنة ١٩٤٨م إلى سنة ١٩٥٥م (١٨٧) وبلغ عدد القرى التى دمرت تدميرا جزئيا (١٥) قرية، وقد حولت هذه القرى العربية جميعها إلى مستعمرات يهودية ، بعد أن قتل الكثير من سكانها، وأجبر من بقى حيا على الرحيل عنها [١] .

وكان عدد السكان العرب سنة ١٩٤٧م داخل المنطقة التى احتلها اليهود من فلسطين (٣٠٠) ألف نسمة، أما فى سنة ١٩٦٤م فقد صار عددهم (٢٢٠) ألف نسمة. أى: أنهم نقصوا (٨٠) ألف نسمة، بسبب العدوان الصهيونى.

(د) ولقد استعمل اليهود فى القضاء على خصومهم أخس أنواع الغدر والنذالة ، فهم لا يواجهون أعداءهم فى وضح النهار، وإنما يرتكبون جرائمهم عن طريق الخيانة والخديعة. من ذلك أنهم فى مارس سنة ١٩٦٣م أرسلوا طردا من المتفجرات إلى ستة من الخبراء الألمان فى القاهرة، فقتلوا جميعا.

هذه هى بعض مفاسد اليهود فى الأرض عن طريق القتل والاغتيال والتآمر، ولو استقصيناها بشىء من التفصيل لاحتاج ذلك إلى مجلد ضخم [٢].

ثانيا : التجسس.

التجسس على الدول المختلفة من أهم الوسائل، التى يستغلها اليهود لمصلحتهم وللإفساد فى الأرض.

وقد حكى القرآن الكريم عنهم أنهم كانوا يظهرون الإيمان، ويخفون الكفر ، ثم يحضرون مجالس رسول الله ﷺ ليسمعوا منه ما يقول، ثم ينقلوا ما يسمعونه إلى زعمائهم وأبناء ملتهم.

من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ [٣].

---

(١) عن كتاب (دولة العدوان) لعلى محمد على.

(٢) كتبت فى جرائم اليهود بفلسطين كتب منها (دولة الارهاب) لعلى محمد على . ومنها (العدوان الإسرائيلى) نشر جامعة الدول العربية.

(٣) فسرنا هذه الآية بالتفصيل فى فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) مبحث محاولاتهم الفتنة للرسول ﷺ .

أى : هم عيون وجواسيس لقوم آخرين، لم يأتوك ولم يحضروا مجالسك، وقد ساق ابن إسحاق أسماء بعض اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقا؛ ليتمكنوا من التجسس على المسلمين، فقال :(وكان ممن تعوذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان ابن أوفى ، ورافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت .. الخ.

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون إلى المسجد ، فيستمعون إلى أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع يوما فى المسجد منهم أناس ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا، فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس - اليهودى - فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، ثم أقبل إلى أبى رافع فلببه بردائه ثم ألقاه خارج المسجد، ولطم وجهه، وهو يقول له : أف لك منافقا خبيثا ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ . أى : ارجع من الطريق التى جئت منها . وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلا طويل اللحية ،فأخذ بلحيته، فقاده بها قودا عنيفا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه فضربه بهما ضربة قوية فى صدره، فخر منها ساقطا، وهو يقول : خدشتنى يا عمارة، فقال له عمارة أبعدك الله يا منافق ... » انتهى ملخصا (١).

وما يزال التجسس دأب اليهود فى كل قطر حلوا به ، وتعرفوا عليه، ونزلوا بين سكانه . ويرى بعض الكاتبين أن عملية طرد اليهود من ألمانيا فى عهد هتلر ، كان هدفها توزيعهم على مختلف الدول؛ ليكونوا جواسيس لألمانيا تحت إشراف بعض الخبراء اليهود (٢).

وكان اليهود خلال الحربين العالميتين الماضيتين جواسيس للمعسكرين المتحاربين، وعن هذا الطريق كانوا يقفون على أسرار الفريقين، ويعرفون أسرار الدول الداخلية والخارجية.

أما تجسس اليهود فى البلاد العربية فهو أمر يحتاج منا إلى الحيطة والحذر ويشترك فيه الرجال والنساء ، ويدرب الجواسيس تدريبا كاملا على استعمال

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن اسحاق جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢)عن كتاب (الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار) لفتحى الرملى ص ١٢١ .

الأجهزة، والآلات الخاصة بالاستقبال والإرسال، وكذا على فنون التصوير واستعمال المتفجرات وإرسالها داخل المظاريف .. وما أكثر شبكات التجسس اليهودية التى ضبطت فى البلاد العربية.

والخلاصة :أن التجسس من الأعمال التى برع فيها اليهود، وكان ولا يزال من أهم الوسائل التى يلجأون إليها لمعرفة أسرار الدول والجماعات؛ ليستغلوا هذه الأسرار فى خدمة مصالحهم وفى الكيد لغيرهم وفى نشر الفساد فى الأرض.

ثالثا : التستر خلف الأديان:

قلنا منذ قليل: إن اليهود يدخلون فى الأديان الأخرى؛ ليتجسسوا على أهلها ، ونضيف هنا أن تسترهم بالأديان قد يكون لأغراض أخرى كثيرة، من أهمها خدمة عقيدتهم اليهودية، ومصالحهم الشخصية ، ونشر الشرور فى الأمم التى ليست على ملتهم.

لقد دخل اليهود جميع الأديان نفاقا لخدمة يهوديتهم ، دخلوا البوذية ، والمسيحية ، والإسلام ، وهذه بعض الشواهد على ذلك.

(أ) فى سبب دخولهم البوذية يقول الدكتور أحمد شلبى : « أبرزت لى تجاربى الخاصة أن عددا ممن يعتنقونها من رجال الشرق الأقصى يعملون لصالح (إسرائيل) بنفس الإخلاص والحماسة، التى يعمل بها أى يهودى ، وقد راعنى فى مبدأ حياتى بالشرق الأقصى أن وجدت بعض سفارات هذه البلاد بأندونيسيا تخدم قضية إسرائيل بنشاط بالغ الحد ، حتى لقد نقول : إنه ليس لهذه البلاد فى هذا المبنى سوى اللوحة المثبتة على الباب ، أما أكثر النشاط المنبعث من داخل المبنى فيخدم قضية إسرائيل ، وقد نقص عجبنا عندما عرفنا أنه من بين موظفى هذه السفارة بل من بين كبار حكومة هذه البلاد بوذيون من أصل يهودى، أو بوذيون اتخذوا زوجات يهوديات، أو زوجات بوذيات تجرى فى عروقهن الدماء اليهودية . وقد استطاع كثير من هؤلاء البوذيين أن يصلوا إلى أرقى المناصب الدينية والمدنية ، حتى أوشكت الكهانة أن تكون وقفا عليهم [1].

---

(١) عن كتاب (اليهودية) للدكتور أحمد شلبى ص ٢٩٤.

(ب) فإذا ما تركنا البوذية، وانتقلنا إلى المسيحية وجدنا عددا كبيرا من اليهود قد أعلن دخوله فى المسيحية ليأمن على نفسه من الاضطهاد ، أو ليستطيع أن ينشر فساده دون أن تثار حوله الشبهات .

ومن أبرز الرجال الذين تظاهروا باعتناق المسيحية ليخدم يهوديته (دزرائيلى) فإن هذا الرجل ولد فى مطلع القرن التاسع عشر من أب يهودى، وأم يهودية، ثم دخل فى المسيحية وهو فى العشرين من عمره، وأخذ يتقلب فى الميدان السياسى والاجتماعى حتى وصل إلى منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا سنة ١٨٧٤م.

وهذا الرجل هو الذى سرق حصة مصر فى أسهم قناة السويس إذ اشتراها بمبلغ أربعة ملايين جنيه ، من الخديو، إسماعيل ، وفاء للديون التى برقبته ، وكانت تلك الأسهم تساوى أضعاف هذا الثمن، ثم قدمها هدية إلى الحكومة البريطانية التى ربحت من ورائها ملايين الجنيهات.

وكان هدف (دزرائيلى) الأول من وراء هذه الصفقة أن يثبت أقدام انجلترا فى مصر ، لتحرس الوطن اليهودى، الذى عمل بكل وسيلة على إنشائه للصهيونية بفلسطين.

وقد ساعد (دزرائيلى) اليهود الذين دخلوا فى المسيحية على شراء بعض المستعمرات فى فلسطين ، فخط بذلك الخط الأول لإقامة دولة لليهود فى فلسطين.

ولم يكتف (دزرائيلى) بنفوذه للعمل على إنشاء وطن قومى لليهود بالأراضى المقدسة، بل أرسل القصائد والأشعار، التى يدعو فيها لذلك فهو فى إحدى رواياته يقول:

تسائلينى عن أعز أمنية عندى وجوابى : هى أرض الميعاد . وتسائلينى عما يداعب أحلامى فأقول (أورشليم). وتسائلينى عما يستهوى فؤادى فأقول إنه (الكنيس)(١).

وقد اعترف اليهود بأن (دزرائيلى) أدى لهم أكبر الخدمات عن طريق تستره بالمسيحية وهذه نبذة عما قاله أحد الكتاب اليهود فى شأنه :

(فإذا أراد الإنسان سَبْراً لعواطف (دزرائيلى) .. فعليه بمطالعته لتاريخ حياته

---

(١) عن كتاب (هذه هى الصهيونية) لإسرائيل كوهين ص ٣.

فالحوادث التى تخللت حياته أبانت لنا أن روح هذا الرجل كانت تحوم دائما حول اليهود ،وتفيض بالعطف عليهم ،وكان يرقب حركاتهم وسكناتهم فى غدوه ورواحه ...) [1].

هذا ، وليس دزرائيلى وحده هو الذى تستر بالمسيحية خدمة لليهودية، وإنما هناك عشرات من أمثاله فعلوا ما فعل.

وإن الذى يقرأ كتب اليهود يرى أحبارهم يوصونهم بدخول الأديان الأخرى نفاقا؛ ليتمكنوا من خدمة مصالحهم ، ونشر مفاسدهم.

ولنقرأ هذه الوصايا الصادرة من كبير حاخامات يهود فرنسا فى سنة ١٤٨٩م فقد كتب يهود فرنسا إلى كبيرهم رسالة يقولون له فيها:

« إن الفرنسيين (بمرسيلية) يتهددون معابدنا فماذا نعمل ؟ فجاء رده كما يلى:

« أيها الإخوة الأعزاء تلقينا كتابكم ،وفيه تطلعوننا على ما تقاسونه من الهموم، وإليكم رأى الحكام والربانيين : بمقتضى قولكم: إن ملك فرنسا يجبركم على اعتناق المسيحية فاعتنقوها ، غير أنه يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى راسخة فى قلوبكم.

وبمقتضى قولكم إنهم يهدمون معابدكم فاجعلوا أولادكم كهنة؛ ليهدموا كنائسهم .. سيروا بمقتضى أمرنا، وستعلمون أنكم ستتوصلون إلى ذروة القوة والعظمة » [2].

(جـ) فإذا ما تركنا المسيحية واتجهنا إلى الإسلام، وجدنا أن عددا كبيرا من اليهود تظاهروا بالدخول فى الإسلام؛ ليكونوا عيونا على المسلمين - كما بينا ذلك منذ قليل - وأنهم كانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾.

ومن أشهر اليهود الذين تظاهروا بالدخول فى الإسلام، وأثاروا الفتن والمنازعات بين المسلمين (عبد الله بن سبأ) المتوفى سنة ٤٠ هجرية . ذلك اليهودى الذى لم

---

(١) عن كتاب (يقظة العالم اليهودى) لإيلى ابو عسل ص ١٩٤ .

(٢) عن كتاب (فلسطين والغزو التترى) صفحة ٢٧ نشر وزارة الثقافة والإرشاد العراقية.

يكن يضمر للمسلمين إلا الشر، فهو الذى قام بتكوين الجمعيات السرية؛ لزعزعة العقيدة الإسلامية فى النفوس ، وأخذ يتنقل فى الأقطار الإسلامية؛ لينشر سمومه وشروره، ونادى بأمور ما أنزل الله بها من سلطان ، كقوله برجعة النبى ﷺ .

ثم أخذ يفسر الآيات القرآنية تفسيرا سقيما ليؤيد أقواله ، كما أنه وضع الأحاديث؛ ليدعم بها رأيه، وقد استطاع بدهائه ومكره أن يضم إلى صفه عددا كبيرا من ضعاف الإيمان . . وأن يثير الفتن والدسائس، التى أدت إلى مقتل الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رضى الله عنه.

(د) ومن أخطر الجماعات التى تسترت بالإسلام فى العصر الحديث؛ لكى تكيد له جماعة (الدونما) فى تركيا، فإن هذه الجماعة أفرادها يهود لحما ودما ، ولكنهم تظاهروا بالإسلام حتى قضوا على الدولة العثمانية ، وهذه لمحة عنهم.

١ ـ يطلق وصف الدونما على اليهود الأتراك، الذين يسكنون (أزمير) و(سالونيك) .

٢ ـ اعتنق هؤلاء اليهود الإسلام ظاهرا، وبقوا على يهوديتهم باطنا .

٣ ـ يتبع هؤلاء المتظاهرون بالإسلام فى عقائدهم زعيمهم اليهودى (شبتاى بن مردخاى) الذى ادعى سنة ١٦٤٨م أنه المسيح المنتظر ، ثم رحل إلى فلسطين ومنها إلى مصر ، ثم عاد إلى أزمير سنة ١٦٦٥ م فأخذ ينشر إلحاده وزيغه .

وفى سنة ١٦٦٦ م رحل إلى القسطنطينية ، ثم حكم عليه بالإعدام ، وقبل أن ينفذ الحكم عليه أعلن إسلامه ، فعفا عنه السلطان محمد الرابع .

٤ ـ بعد أن خرج من السجن أخذ فى نشر إلحاده سرا بين سكان (أزمير وسلانيك) وأوعز إلى جميع اليهود الساكنين فى هاتين البلدتين بأن يتظاهروا بالإسلام، وأن يخفوا اليهودية حتى يصلوا إلى أهدافهم .

٥ ـ يحافظ أفراد هذه الطائفة على أداء الشعائر اليهودية سرا ، وللرجال منهم اسمان : اسم يهودى يحتفظ به فى سرية تامة، واسم آخر يعرف به فى حياته ومعاملاته مع غيره ممن ليسوا من أفراد طائفته ، وهم لا يرتبطون بغيرهم من الأتراك إلا فى المعاملات المالية ، وأهم أعيادهم هو يوم ٩ أغسطس، الذى ولد فيه زعيمهم اليهودى (شبتاى) .

٦ ـ انتشر نفوذ هذه الطائفة فى العهد السابق على عهد السلطان عبد الحميد ، فلما تولى هو السلطة حاول الحد من نشاطهم ، وحرم عليهم دخول مركز الخلافة ، ولكنهم استطاعوا بمساعدة صنائعهم أن يتغلبوا عليه ؛ وكان من بين الثلاثة الذين سلموه قرار العزل ، (قره صو) اليهودى نائب سلانيك.

وقد كان هذا النائب اليهودى هو ذاته الذى سبق له أن أوفده اليهود مع زعيمهم (هرتزل) سنة ١٩٠١ م لمقابلة السلطان عبد الحميد ليرجوه وليرشوه. أما الرجاء فكان من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، وأما الرشوة فكانت عبارة عن (٥٠) مليونا من الجنيهات الذهبية لخزينة الدولة ، وخمسة ملايين جنيه لخزينة السلطان الخاصة ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض الأمرين الرجاء والهدية » [١].

٧ ـ جماعة الدونما كانت من أسباب هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، فقد كادت بريطانيا تعقد صلحا مع تركيا أثناء الحرب ، ولكن اليهود هم الذين حالوا دون ذلك، حتى تضمحل تركيا ،وتنحل خلافتها ، وتزداد حاجة بريطانيا إلى الأقتراض من اليهود ، وفعلا تم لهم ما أرادوا ، فقد خسرت تركيا الحرب، وتلا ذلك سقوط الخلافة ،التى كان سقوطها هدفا من أهداف اليهود ليتسنى لهم التدفق إلى فلسطين.

٨ ـ كان لجماعة (الدونما) فى تركيا أكبر الأثر فى طرح تركيا لدينها الإسلامى، ومحاربة اللغة العربية ، والتنصل من أية صلة بالعرب ، والمناداة بالجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام ، وذلك لأنه بعد أن تولى (مصطفى كمال أتاتورك) حكم تركيا تحولت إلى دولة علمانية لا تعترف بالدين الإسلامى، ولا بغيره من الأديان ، ومصطفى كمال هذا ما هو إلا صنيعة من صنائع حزب الدونما فى تركيا.

٩ ـ كان الحاخام (حاييم ناحوم) فى تركيا وقت قيام أتاتورك بثورته ، وقد تمكن ناحوم بعد نجاحها من فتح باب الهجرة لليهود إلى تركيا ليكونوا بالقرب من فلسطين ، ثم صار بعد ذلك الوسيط الذى أشرف على تنظيم اتفاقية الحلفاء مع

---

(١) عن كتاب (نظام الحكم فى إسرائيل) للدكتور عبد الحميد متولى . صفحة ٢٩٥.

تركيا ، ثم عين سفيرا لتركيا فى أمريكا ، ولكن ناحوم رفض هذا المنصب الخطير وفضل عليه أن يكون حاخاما أكبر لليهود فى مصر، وقد استمر فى هذا المنصب حتى توفى منذ سنوات.

ويصف الكاتب اليهودى (إيلى ليفى أبو عسل) الحاخام ناحوم فيقول :

« ومن غريب الاتفاق أن انتخاب ناحوم أفندى كان حدوثه فى وقت هبوب العاصفة العنيفة، التى اضطرب لها شعب تركيا وهزت أركان النظم، التى كانت سائدة فيها هزا، أفضى إلى خلع السلطان عبد الحميد، وإنزاله عن عرشه ، وكان فى طلائع أعمال ناحوم أفندى أنه جاهد جهاد الأبطال - بمساعدة سفير أمريكا - فى القضاء على الجواز الأحمر، الذى وضع خصيصا لتحديد هجرة اليهود إلى تركيا ، وقد ارتفعت مكانته فى عين مصطفى كمال، وأخذت جميع أعماله تكلل بالنجاح،ومنها الحصول على الترخيص بإتمام مبانى المهندس خانه الإسرائيلية بمدينة حيفا،ورفع القيود التى كانت عقبة فى سبيل مصالح اليهود » (١).

رابعا : إثارة الفتن والحروب والثورات :

اليهود فى كل زمان ومكان معروفون بإثارتهم للفتن ، وإشعالهم نار الحرب ، وتحريضهم على الثورات ضد الأوضاع القائمة، والتاريخ خير شاهد على ما نقول :

- ففى باب إثارة الفتن نجدهم بعد هجرة الرسول ﷺ قد حاربوا دعوته بوسائل متعددة ،كان أبرزها: مجادلاتهم الدينية ، ومخاصماتهم الكلامية؛ لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين.

لقد جادلوا النبى ﷺ فى شأن الألوهية ، وفى الملائكة ، وفى النسخ ، وفى تحويل القبلة ، وفى عيسى ، وفى إبراهيم - عليهما السلام - كما جادلوه فى شأن نبوته، ولم يكن مقصدهم من وراء هذه المجادلات الوصول إلى الحق، وإنما كان مقصدهم إثارة الفتنة بين المسلمين ، وزعزعة العقيدة الإسلامية فى أنفسهم (٢).

ولقد حاولوا مرارا الدس والوقيعة بين المسلمين، ولكن الله خيب سعيهم، وأبطل

---

١) عن كتاب (يقظة العالم اليهودى) لإيلى ابو عسل ص ١٧٠.

٢) فسرنا ما يتعلق بهذه المسألة بالتفصيل فى فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) مبحث (مجادلاتهم الدينية) .

كيدهم وحذر المسلمين من شرورهم فقال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾.. إلى قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (١).

واليهود لا ينكرون أنهم دائما يسعون لإثارة الفتن بين الناس، فهذا هو أحد زعمائهم الدكتور (اوسكار ليفى) يقول :« نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ،ومحركى الفتن فيه وجلاديه ».

وورد فى مجلة الجامعة الإسرائيلية الصادرة فى ١٦ يوليو ١٩٠٧ م نص يقول :

« نصادف فى كل التغيرات الكبرى تقريبا عملا يهوديا ، سواء أكان ظاهرا واضحا، أم خفيا سريا، وعلى هذا فإن التاريخ اليهودى يمتد بامتداد التاريخ العالمى بجميع مجالاته ، حيث تغلغل فيه بآلاف الدسائس والمؤامرات » (٢) .

(ب) ولليهود الباب الواسع فى باب إيقاد نار الحروب ، والتاريخ يحكى لنا «أنهم هم الذين دفعوا (وليم الفاتح) لدخول انجلترا ،حتى يمكنهم أن يدخلوها فى ركابه، وهم الذين دفعوا الإسكندر الأكبر إلى أكثر فتوحاته ، وحضروا معه إلى مصر ،وتوطن عدد كبير منهم فيها ، وهم الذين أوعزوا إلى فيليب الثانى ملك أسبانيا بضم البرتغال إلى ملكه؛ ليسكنوا هم فيها تحت لوائه ، وهم الذين أوقدوا نار الحربين العالميتين فى هذا القرن، وهم وحدهم الذين استفادوا من ورائهما المال الوفير، والثروة الطائلة» (٣).

وما الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ إلا من تدبيرهم ومكرهم ،وهم الذين عقدوا الاجتماعات، ورسموا الخطط مع المسئولين فى حكومات انجلترا وفرنسا؛ للانقضاض على مصر، وتدمير منشآتها العسكرية انتقاماً منها لتاميم قناة السويس.

(جـ) وأما فى باب إشعال نار الثورات فلليهود القدح المعلى ، فهم فى أى مكان يوجدون توجد معهم الإثارة، فالثورة ، حصل ذلك فى الشرق، وفى الغرب على السواء ، فهم يحركون الرأسمالية على الشيوعية ، أو العكس، وفى الحالتين هم المستفيدون، وهدفهم هو الثورة، والتدمير على كل حال.

---

(١) فسرنا هذه الآيات فى فصل (مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين) ص ٢٦٥ جـ ١ .

(٢) (اليهودية) للدكتور احمد شلبى ص ٢٨٨ .

(٣) عن كتاب (اليهودية العالمية وارض الميعاد) للاستاذ على أمام عطية ص ١٠ .

ولنأخذ على سبيل المثال الثورة الشيوعية التى قامت فى أكتوبر سنة ١٩١٧م من الذى قام بها وأعد العدة لها ؟ إنهم اليهود، فلقد كان المكتب الشيوعى الذى تولى زمام الحكم بعد نجاح الثورة يتكون من سبعة عشر عضوا ،منهم أربعة عشر يهوديا، وثلاثة من أصول يهودية، وزوجات هؤلاء الثلاثة يهوديات .

والحركة الشيوعية بصفة عامة من صنع اليهود ، فمؤسسها وواضع أصولها هو اليهودى (كارل ماركس).

وقد ذكرنا منذ قليل أن الثورة التى قام بها (أتاتورك) ضد الدولة العثمانية كانت أصابع اليهود من ورائها.

هذا واليهود يملكون الوسائل المتعددة؛ لإيقاد نار الفتن والحروب والثورات ، ولنلق نظرة سريعة على نفوذهم خلال هذا القرن . فماذا نرى ؟

١ ـ نرى أن الشركات المستغلة للذهب فى جميع أنحاء العالم معظم أسهمها (لآل روتشلد) وهم من اليهود الذين يتعصبون للصهيونية .

٢ ـ ونرى بنوك إصدار النقد فى دول أوربا، وفى الولايات المتحدة خاضعة لسيطرة اليهود عليها.

٣ ـ ومناجم الماس والنيكل والنحاس فى العالم يحتكرها اليهود وصنائعهم.

٤ ـ ونرى تجارة المخدرات فى العالم تخضع لآل ساسون اليهودى ، وإسرائيل منذ أن قامت فى فلسطين، وهى تزرع هذه السموم، وتوزعها على الدول الأخرى.

وقد قدرت ثروة اليهود فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٦م بـ ٥٠٠ ألف مليون دولار ، يملك منها آل روتشلد وحدهم ٣٠٠ ألف مليون دولار ، بينما قدرت ثروات الأغنياء الآخرين الذين يسكنون أمريكا من غير اليهود بـ ٢٥ مليون دولار.

وبهذا نرى أن اليهود بما يملكون من أموال ونفوذ استطاعوا أن يشيعوا الفتن، ويوقدوا نار الحروب والثورات ، فى سبيل مصالحهم الشخصية ، ومطامعهم لذاتية.

خامسا : كتبهم ومقرراتهم:

يعتمد اليهود فى إفسادهم على ما تأمرهم به كتبهم ،ومقرراتهم من شرور وآثام ـ فهى تخبرهم بأن الأرض وما فيها هى لبنى إسرائيل وحدهم، وأن سواهم من

البشر خدم وعبيد لهم ، وأن كل شريعة سوى الشريعة اليهودية هى فاسدة، وأن كل شعب غير شعبهم هو مغتصب للسلطة منهم، وعليهم أن يسلبوها منه ، وأن الرب حرم عليهم استعمال الشفقة والرحمة مع من ليس يهوديا ،وقد تكلمنا فى الفصل الأول عن الأسفار المقدسة عند اليهود ، وأقمنا الأدلة على تحريفها ، وسقنا نماذج منها.

وهنا نريد أن نتكلم عن مقررات وضعها حكماؤهم لإفساد العالم وانحلاله لكى يخضع لمصلحة اليهود، ولسيطرتهم دون سائر البشر.

وهذه المقررات عرفت باسم (بروتوكولات حكماء صهيون) وقد قام عدد من الكتاب بترجمتها إلى اللغة العربية ،وهذه لمحة عن قصة البروتوكولات عن مقدمة المترجم.

١ ـ عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشرين مؤتمرا منذ سنة ١٨٩٧م حتى سنة ١٩٥١م وكان آخرها المؤتمر الذى عقد بالقدس لأول مرة فى ١٤ من أغسطس فى هذه السنة ليبحث فى الظاهر مسألة الهجرة اليهودية إلى إسرائيل وحدودها . وكان أول مؤتمراتهم فى مدينة (بال) بسويسرا سنة ١٨٩٧م بقيادة (هرتزل) وحضره نحو (٣٠٠) من أعتى اليهود ،وكانوا يمثلون خمسين جمعية يهودية ، وفيه قرروا خطتهم السرية ؛لاستعباد العالم كله تحت تاج ملك من نسل داود عليه السلام.

٢ ـ استطاعت امرأة فرنسية أن تختلس هذه المقررات من أحد زعماء اليهود فى فرنسا ، وعندما رأت ما فيها من شرور سلمتها إلى أحد وجهاء روسيا . . . وقد سلمها هذا الوجيه بدوره إلى العالم الروسى (نيلوس) الذى قام بطبع نسخ قليلة منها سنة ١٩٠٢م.

٣ ـ بعد انتشار هذه البروتوكولات افتضحت نيات اليهود الإجرامية، وعمت المذابح ضدهم بروسيا، حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف نسمة ، فقام زعيمهم (هيرتزل) يلطم ويصرخ لهذه الفضيحة ، وأصدر عدة نشرات يعلن فيها :أنه قد سرقت من (قدس الأقداس) بعض الوثائق السرية، التى قصد إخفاؤها عن غير أصحابها . ولو كانوا من أعظم اليهود.وهب اليهود فى كل مكان يعلنون براءتهم من هذه المقررات، ولكن العقلاء لم يصدّقوا مزاعمهم.

٤ ـ تكرر طبع البروتوكولات بعد ذلك ، ولكن اليهود كانوا لها بالمرصاد، فما تكاد تظهر الطبعة فى السوق حتى يجمعوها بكل الوسائل ويحرقوها ، وقد استطاع بعض الكتاب الإنجليز أن ينشر هذه البروتوكولات عدة مرات، وكان آخرها سنة ١٩٢١م ،وعن هذه الطبعة التى تمت سنة ١٩٢١م قام بعض الكتاب بترجمتها إلى اللغة العربية [١] وهذه نماذج منها .

من البروتوكول الأول :

إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شيء ، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع ، وهو لذلك غير راسخ على عرشه . إن حقنا يكمن فى القوة . وكلمة (الحق) فكرة مجردة قائمة على غير أساس، فهى كلمة لا تدل على أكثر من « اعطنى ما أريد» لتمكننى من أن أبرهن لك بهذا على أنى أقوى منك .. إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ـ ونحن نضع خططنا ـ ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقى بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد، يجب أن يكون شعارنا : « كل وسائل العنف والخديعة » .

من البروتوكول الثانى :

إن الصحافة هى القوة العظيمة ،التى نستطيع بها توجيه الناس ، فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوى الشاكين ، وتولد الضجر أحيانا بين الغوغاء ، وبفضل الصحافة، كدسنا الذهب، دون أن نظهر للعيان .

من البروتوكول الثالث :

نحن نحكم الطوائف باستغلال مشاعر الحسد، والبغضاء فيها ، وهذه المشاعر هى وسائلنا، التى نكتسح بها كل من يقف فى طريقنا ، وحينما يأتى أوان تتويج حاكمنا العالمى، سنتسمك بهذه الوسائل ، أى : نستغل الغوغاء ،كى نحطم كل شيء أمامنا .

تذكروا الثورة الفرنسية التى نسميها (الكبرى) إن أسرار تنظيمها معروفة لنا جيدا لأنها من صنع أيدينا . ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدما من خيبة إلى خيبة .

---

(١) راجع قصة هذه (البروتوكولات) بالتفصيل فى مقدمة كتاب الخطر اليهودى للأستاذ محمد خليفة التونسى .

من البروتوكول الحادى عشر :

من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت ، وهذا التشتت الذى يبدو ضعفا فينا أمام العالم قد ثبت أنه كل قوتنا، التى وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية.

من البروتوكول السابع عشر :

سنحط من كرامة رجال الدين؛ لننجح فى الإضرار برسالتهم، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية انهيارا تاما، وستتبعها فى الانهيار باقى الأديان ويصير ملك إسرائيل (بابا) على العالم.

هذه مقتطفات من مقررات حكماء صهيون ، ومنها يتجلى ما يضمره اليهود للعالم ،من شرور وأحقاد ومن تدمير له، واستعباد لأفراده وجماعاته وشعوبه، كما يتجلى منها معرفتهم الواسعة بالوسائل التى يمكن عن طريقها استغلال جوانب الضعف فى النفوس ؛لخدمة أغراضهم ومطامعهم ... وأنهم يسعون لهدم الحكومات فى كل الأقطار، والاستعاضة عنها بحكومات خاضعة للنفوذ اليهودى، وأنهم لا ينفكون عن إلقاء بذور الشقاق وإثارة الفتن فى كل الدول، بواسطة الجمعيات السرية السياسية، والدينية، والاقتصادية،والأندية على اختلاف ألوانها.

٦ ـ الجمعيات السرية :

يعتمد اليهود اعتمادا كبيرا فى بلوغ غاياتهم، ونشر مفاسدهم على الجمعيات السرية، والحركات الهدامة ، وهم ينشئون هذه الجمعيات بأنفسهم، أو يوعزون بإنشائها ، أو يجدونها قائمة فيندسون فيها؛ ليصلوا إلى مآربهم ، ولينفثوا فيها سمومهم ،وليوجهوا أتباعها الوجهة التى يريدونها ، ولا تكاد توجد فى العالم جمعية ذات أسرار وأخطار إلا واليهود خلفها.

كانوا خلف القرامطة ، وخلف الجمعيات الهدَّامة، التى أوقعت بالمسلمين أبلغ الأضرار.

وكانوا خلف عشرات الجمعيات التى نشأت منذ قرون فى أوربا؛ لهدم المسيحية، كجمعية (فرسان المعبد) وجمعية (القداس الأسود) وجمعية (الصليب الوردى) وجمعية (البناء الحر) التى تسمى بالماسونية.. وغير ذلك من الجمعيات السرية، أو العالمية التى أنشئت لخدمة اليهود، وإلحاق الأضرار بغيرهم..

ويحدثنا الأستاذ محمد عبد الله عنان عن أثر اليهود فى الجمعيات السرية فيقول :« إن الدور الذى قام به اليهود فى بث روح الثورة، وإنشاء الجمعيات السرية، وإثارة الحركات الهدامة عظيم جدا، وإن كان من الصعب أن نعيّنه بالتحقيق فمنذ أقدم العصور نرى أثر التعاليم اليهودية الفلسفية السرية ظاهرا فى معظم الحركات الثورية والسرية.

والمصدر الذى تجتمع فيه التقاليد اليهودية السرية إنما هو فلسفة « الكابالا » وهى كلمة عبرية معناها (ما يتلقى) أعنى : التقاليد.

والكابالا : هى مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر ، متعارف عند اليهود من أقدم العصور، والواقع أن الدور الذى لعبه اليهود ـ عن طريق الجمعيات السرية ـ فى الثورات الحديثة ظاهر لا سبيل إلى إنكاره، وبالبحث والاستعراض نرى أنه دور مزدوج، فهو يستند إلى المال والخفاء معا . ذلك أن اليهود منذ العصور الوسطى امتلكوا ناصية الشئون المالية، فى معظم الجمعيات الأوربية وسلّطوا عليها فى نفس الوقت سيلا من ضروب السحر والخفاء ، وكانوا حيث هبت ريح الثورة الاجتماعية، أو السياسية يجتمعون من وراء ستار ، ويميلون إلى الجانب الظافر؛ ليأخذوا نصيبهم من الأسلاب والغنيمة ، وإذا كان اليهود فى معظم هذه الثورات لا يضرمون النار ولا يثيرون العاصفة فقد عرفوا دائما كيف يجعلونها تسير حسب فائدتهم، وإذا عرفنا أن هذه الجمعيات والحركات الهدامة ترمى إلى سحق نظم المجتمع الحاضر من دينية وسياسية وأخلاقية، ذكرنا فى نفس الوقت أن هذه هى الغاية الأساسية التى تعمل لها اليهودية العالمية منذ عصور [1].

هذا ومن أشهر الجمعيات التى أقامتها اليهودية العالمية لخدمتها (الماسونية) وهذه كلمة موجزة عنها :

١ ـ الماسونية : جمعية سرية يهودية، يرجع تاريخها إلى أيام اليهود الأولى.

٢ ـ أهداف هذه الجمعية فى الظاهر تختلف اختلافا كبيرا عن أهدافها الحقيقية الخفية، فهى فى الظاهر جمعية خيرية، قامت لخدمة الإنسانية، ونشر الإخاء والمحبة بين الأعضاء بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم وأجناسهم.

---

(١) من كتاب (الجمعيات السرية والحركات الهدامة) للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ١١٥ .

وأما فى الباطن والحقيقة فهى - كما يقول الحاخام إسحاق ويز - « هى مؤسسة يهودية، وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكارا يهودية من البداية إلى النهاية ».

٣ - وقد تغلغل نفوذ الماسونية ونشاطها فى معظم أنحاء العالم منذ القرن الثامن عشر حتى وقتنا هذا ، وقد أسسوا محفلهم الأعظم فى بريطانيا سنة ١٧١٧م وأطلقوا على أنفسهم اسم (البنائين الأحرار)، وبعد تأسيس هذا المحفل كشفوا عن بعض نواياهم فجعلوا من أهداف الماسونية.

(أ) المحافظة على اليهودية .

(ب) محاربة الأديان بصورة عامة.

(جـ) بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب.

٤ - من بريطانيا سرى سم الماسونية إلى الأقطار الأخرى، فأقيمت عشرات المحافل لها فى كل من باريس وألمانيا وهولندا وسويسرا وروسيا والسويد والهند .. وزاد عدد محافلها فى أمريكا سنة ١٩٠٧ على خمسين محفلا تضم ما يقرب من مليون أمريكى.

٥ - والماسونية لا تفتح صدرها لكل الناس، وإنما تختار منهم من تتوافر فيه صفات معينة ، منها : أن يكون ذا منصب كبير، أو متوسط وذا ثقافة لا تخضع لتعاليم الأديان، وأن يكون من بيئة معروفة بغناها ولو نسبيا.

٦ - وعندما يصبح الشخص مقبولا فى الجمعية الماسونية يقسم اليمين الآتية:

« أقسم بمهندس الكون الأعظم، ألا أخون عهد الجمعية، وأسرارها وعلاماتها وأقوالها وتعاليمها وعاداتها ، وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد. أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أفشى أسرار الماسونية، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف ، ولا أكتب شيئا منها ،ولا أنشر لا بالطبع ولا بالحفر ولا بالتصوير ، وأرضى -إن حنثت فى يمينى- أن تحرق شفتاى وأن أقتل » [1].

ومن هذا القسم يتجلى لنا حرص المسئولين عن الماسونية على أن تبقى أمورها سرا، حتى تتمكن من خدمة اليهودية بأيسر الوسائل.

---

(١) عن كتاب (الماسونية منشئة ملك إسرائيل) لمحمد على الزعبى.

٧ ـ وللماسونية مراتب ثلاث هى :

(أ) **الماسونية الرمزية** : ويندرج فيها أتباع الديانات المختلفة، من مسلمين ومسيحيين، وغيرهم ، وأصحاب هذه المرتبة لا حول لهم ولا طول، فى شئون الماسونية الداخلية ،وإنما يكتفى منهم بترديد شعارات الحرية والإخاء والمساواة ، والقيام ببعض الأعمال الشكلية نظير حصولهم على وظيفة أو أمر يطلبونه . وهذه المرتبة أقسام ، ودرجاتها ثلاثة وثلاثون، يظل الشخص يتدرج فيها حتى ينال أعلاها، وفى الغالب لاينال هذه الدرجة إلا من يثبت أنه قد تم انسلاخه عن دينه ووطنه.

(ب) **الماسونية الملوكيه** : وأكثر أعضائها من اليهود، ويطلق عليهم الرفقاء ، ولا يسمح لغير هؤلاء اليهود بدخول هذه المرتبة إلا إذا كان قد وصل إلى أعلى الدرجات فى خدمة الماسونية.

(جـ) **الماسونية الكونية** : وهى أرقى مراتب الماسونية، وأعضاؤها من اليهود الخلص الذين قضوا معظم حياتهم فيها ، ويطلق على أعضاء الماسونية الكونية الحكماء، وعلى رئيسهم (الحاكم الأعظم) وهو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونية ، ولا يعرف أحد أعضاء هذه المرتبة، ولا مركز نشاطها.

وللماسونية بعد ذلك علامات ورموز وألوان وخفايا تتبع الدرجات والمراتب ولا يعرفها إلا من انخرط فيها انخراطا تاما.

٨ ـ هذا وقد تغلغلت الماسونية فى البلاد العربية والإسلامية، تغلغلا كبيرا، ومنذ عشرين سنة كان يعتبر الانضمام إلى محافلها فى مصر مفخرة من المفاخر، وكان المشتركون فيها من الأغنياء والوجهاء وأصحاب المناصب الكبيرة.

وفى إبريل سنة ١٩٦٤م أصدرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة قرارا بإلغاء هذه الجمعية ومحافلها، فى جميع أنحاء البلاد، ومصادرة أملاكها وأموالها لصالح معونة الشتاء.

ومن هذا العرض الموجز للماسونية وأهدافها ومراتبها يتبين لنا : أنها جمعية يهودية تسعى لتحطيم الحكومات وتدمير مقومات الشعوب غير اليهودية ، والقضاء على الأديان والأخلاق وذلك، كله فى سبيل مصلحة اليهود.

وهناك جمعيات أخرى من صنع اليهود لا تقل فى فسادها عن الماسونية ، ولكن لايتسع المجال لذكرها هنا.

سابعا : إشاعة الرذائل والفواحش:

قلنا: إن اليهود يسعون لهدم الأديان والأخلاق والقيم الروحية ، لأن ذلك يعود عليهم بالغنى والثراء، ويمكنهم من بلوغ أهدافهم وغايتهم، وهم يتخذون لإشاعة الرذائل والفواحش بين الأمم وسائل كثيرة من بينها:

(أ) **وسائل الإعلام المختلفة** : كالصحافة والإذاعة ودور النشر والسينما والمسرح ومصادر الإعلام المختلفة - سيطر عليها اليهود منذ عشرات السنين.

فقد جاء فى نشرة شهرية أصدرتها جمعية النشر المسيحية سنة ١٨٤٦ ما يلى:

« إن الصحافة اليومية فى أوربا واقعة إلى حد كبير تحت سيطرة اليهود، وإذا حاول أديب أو كاتب أن يجازف ،ويسعى للوقوف فى طريقهم، فإنهم يقضون عليه ».

وقد أنشأ اليهود فى بريطانيا (جريدة التايمس سنة ١٧٨٨) وما زالت حتى الآن تحت سيطرتهم وتعتبر هذه الجريدة أوسع الصحف انتشارا ، ولليهود بجانبها عشرات الصحف والمجلات فى بريطانيا، وبلغ عدد الصحف والمجلات اليهودية فى فرنسا (٣٦) صحيفة، أما فى أمريكا فيحتكر اليهود معظم الوسائل الإعلامية فيها إذ يبلغ عدد الصحف والمجلات التى تخضع لهم فى أمريكا (٢٢٠) صحيفة ومجلة.

والإحصاءات الرسمية أثبتت أن اليهود يصدرون (٨١٩) صحيفة ومجلة بمختلف اللغات ،وفى مختلف الأقطار وهو عدد يمثل أغلبية صحف العالم ومجلاته(١).

ونفوذ اليهود فى المجالات الأخرى من وسائل الإعلام كالإذاعة والمسرح لا يقل عن نفوذهم فى الصحافة، وهم يستغلون كل هذه الأجهزة لإشاعة الرذيلة والانحلال الخلقى بين الأفراد والجماعات والأمم.

---

(١) عن كتاب (الحكومة السرية فى بريطانيا) ص ٨٠.

(ب) **الأفكار الخبيثة** : اليهود أبرع الناس فى الترويج للمبادىء والمذاهب والفلسفات والنظريات، التى تنفعهم وتضر غيرهم ، وما من مذهب يوصل إلى خير لهم إلا نشروه ورفعوا صاحبه إلى مرتبة العظماء ولو كان من أحقر الناس.

لقد رفعوا (نيتشه) إلى القمة لأنه سخر من الأخلاق الفاضلة ، كالرحمة والشفقة، ونادى بأخلاق العنف والاستخفاف بالقيم، التى تتفق مع الروح اليهودية الشريرة، وتاريخها الأسود. ورفعوا (دارون) صاحب نظرية النشوء والارتقاء إلى مرتبة العظماء، وروّجوا لمذهبه واستخدموه لمصلحتهم فى التهوين من شأن الأديان والأخلاق؛ لأنه ما دام كل شىء يبدأ ناقصا مشوها ثم يتطور - كما يرى دارون - إذن فلا قداسة لدين، ولا لخلق، ولا لعرف متبع.

وللأستاذ عباس العقاد كلام حسن فى هذا المعنى، فهو يقول :

« ولن تفهم المدارس الحديثة فى أوربا مالم تفهم هذه الحقيقة، وهى : أن إصبعا من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة، أو فكرة تستخف بالقيم الأخلاقية وتهدف إلى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان . فاليهودى (كارل ماركس) وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والأديان . واليهودى (دركيم) وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب . واليهودى (سارتر) وراء الوجودية، التى نشأت معززة كرامة الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة ، ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية، كلما شاع منها فى أوربا مذهب جديد ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها ومظاهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود » [1] .

وقل مثل ذلك فى اليهودى (فرويد) الذى يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية إلى الغريزة الجنسية، وبهذا تنحط فى نظره صلة الفرد بمجتمعه وبأسرته، وبالكون وما وراءه.. [2].

ومن هذا نرى: أن الأفكار الخبيثة من أهم الوسائل التى يلجأ اليهود إلى نشرها؛ لإشاعة الرذيلة، والفاحشة بين الأمم.

---

(١) عن كتاب الصهيونية العالمية للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٩١ سلسلة اخترنا لك رقم ٢٧.

(٢) مقدمة (الخطر اليهودى) للأستاذ محمد خليفة التونسى ص ٨٣ .

(جـ) المرأة:

المرأة اليهودية مشهورة بانها لا تريد يد لا مس ، وتفترش عرضها فى سبيل الحصول على منفعة ما ، واليهود يعتمدون على المرأة اعتمادا كبيرا من أجل غاياتهم ومطامعهم.

وقصة اليهودية الجميلة (استير) معروفة ومشهورة ، وملخصها: أن عمها (مردخاى) قدمها لأحد ملوك الفرس، وقد استطاعت بخداعها وجمالها أن تقرب بين الملك وبين عمها، وكان للملك وزير يدعى (هامان) كان الفرس يسجدون له ويعظمونه ، ولكن مردخاى رفض أن يسجد مع الساجدين ،لأنه صديق الملك، فدبر هامان مكيدة للقضاء عليه، وعلى اليهود فى بلاد الفرس، واستصدر من الملك قرارا بالتنكيل بهم في يوم (١٣ آذار ـ مارس) ولكن استير وعمها استطاعا أن يرسما خطة يظهران بها أن هامان يعمل على سلب الملك سلطته ونجحت خطتهما وأصدر الملك قرارا بشنق هامان، وبلغ عدد من قتلهم اليهود فى تلك المجزرة من الفرس (١٥) ألف نسمة، ومن يومها صار اليوم التالى وهو يوم ١٤ من آذارعيدا من أعياد اليهود حتى اليوم، وما زال اليهود حتى اليوم يتفاخرون بأعمال استير ،ومن بين الأسفار المقدسة عندهم سفر (استير).

واليوم هم أصحاب بيوت الدعارة فى العالم، وهم ناشرو الانحلال الجنسى والخلقى فى كل مكان ، وفى دولة إسرائيل عشرات القرى لاتخضع فى علاقاتها الجنسية لنظم الزواج، وإنما تقوم العلاقات بين الرجال والنساء على الإباحية المطلقة.

أما بعد فهذه بعض مظاهر إفساد اليهود فى الأرض، ذكرناها استطرادا وتصديقا لقوله تعالى ﴿ ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين ﴾.

وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض دعاوى اليهود الباطلة كما حكاها القرآن الكريم عنهم ، وقد رد عليها بما يخرس ألسنتهم ، ويبطل حجتهم ، ويقطع دابر إفكهم ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن او لسميع عليم ﴾.

الفصل الثامن
وعيد الله وعقوباته لبني إسرائيل

ذكرنا فى الفصل الخامس طرفا من النعم ،التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على بنى إسرائيل ؛ كما حكاها القرآن الكريم ، ورأينا أنهم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر والطاعة لله ـ تعالى ـ ، بل وقفوا منها موقف الجاحد لها ، المستهين بها .

كما تحدثنا فى الفصلين: السادس والسابع عن رذائل بنى إسرائيل، ودعاواهم الباطلة، وكيف رد القرآن عليها .

وفى هذا الفصل سنبين ـ بعون الله ـ بعض العقوبات التى عاقبهم الله بها بسبب جحودهم لنعمه ، وكفرهم بآياته ، وتعديهم لحدوده ، ومخالفتهم لأمره.

وهذه بعض العقوبات التى أنزلها الله ـ تعالى ـ بهم ، نذكرها إجمالا قبل أن نتحدث عنها تفصيلا .

أولا : تمزيقهم شر ممزق، وتسليط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، إلى يوم القيامة .

ثانيا : قضاء الله فيهم بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين .

ثالثا : تحريم بعض الطيبات عليهم ؛جزاء ظلمهم وبغيهم .

رابعا : عقوبة الله ـ تعالى ـ لهم بالمسخ .

خامسا : سخط الله عليهم، ولعنته إياهم .

سادسا : ضرب الذلة والمسكنة عليهم .

هذه إجمالا بعض العقوبات التى حلت باليهود بسبب عصيانهم لله ، وكفرهم بآياته وجحودهم لنعمه، وهاك القول مفصلا عن كل واحدة من هذه العقوبات.

أولا : تمزيقهم شر ممزق وتسليط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب :

من العقوبات الشديدة التى أنزلها الله تعالى باليهود ، بسبب كفرهم وفسوقهم وإفسادهم فى الأرض ، تسليط الله عليهم من يذيقهم العذاب المهين إلى يوم القيامة ، ومن يفك وحدتهم، ويمزق شملهم ، ويجوس خلال ديارهم : بحيث يصيرون فى كل وقت موضع ازدراء الناس واحتقارهم .

ولقد حكى القرآن الكريم هذه العقوبة التى صبها الله تعالى عليهم بسبب فسادهم وإفسادهم فى آيات كريمة، منها قوله تعالى فى سورة الأعراف:

(١) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى آذن أى علم كتوعد بمعنى أوعد ، وقد أجرى مجرى فعل القسم كعلم الله ،و لذلك جيء بلام القسم، ونون التوكيد فى جوابه وهو قوله تعالى : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ .

ومعنى الايتين الكريمتين : واذكر ـ يامحمد ـ إذا علم ربك بنى إسرائيل بقضائه فيهم ، وهو أنه سبحانه، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم ما يسوؤهم من أنواع العذاب، ومن يوقع بهم الصغار والهوان ، بسبب تحريفهم لكلام الله ، وقتلهم لأنبيائه ، واستمرارهم على ارتكاب المعاصى والموبقات .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : إن ربك يامحمد اسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، واستمر على العناد والجحود والمعصية كهؤلاء ليهود ، وإنه سبحانه لغفو ر رحيم ،لمن أقلع عن الذنب ، وتاب إليه توبة صادقة ، ذا من باب قرن الترغيب بالترهيب ، حتى لا ييأس العاصى من رحمة ربه بسبب السابقة ، إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال تعالى : ﴿ وإنى لن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ .

م أخبر سبحانه عن تبديدهم فى الأرض، وتفريقهم فيها جزاء ظلمهم حودهم،فقال تعالى :﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾.

---

(١) الآيتان ١٦٧ ، ١٦٨ .

أى :إن هؤلاء اليهود بسبب عصيانهم وفسوقهم،مزقناهم فى الأرض شر ممزق، وصيرناهم أمما متقطعة الأوصال، ثم صاروا بعد هذا التقطيع والتمزيق على طوائف فكان منهم طائفة آمنت بالله تعالى، وصدقت المرسلين ؛ واعتبرت بالأحداث والمثلات ، وكان منهم طوائف أخرى بعضها فاسق ، وبعضها جاحد لأنها لم تتعظ بالعقوبات، التى حلت بمن سبقهم ،ولم تسر على الصراط المستقيم، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وبقاء أكثرهم على الكفر والفسوق ،وإيمان طائفة منهم ، كان نتيجة لسنة إلهية وهى ابتلاؤهم بضروب الحسنات والسيئات لعلهم يعودون إلى الحق ،كما قال تعالى : ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى : اختبرناهم بالنعم الكثيرة المتنوعة وبالنقم العديدة المختلفة ، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصى والسيئات ، فما آمن منهم إلا قليل، ولذلك لزمتهم عقوبات الله إلى يوم القيامة .

هذا ، وما أخبرت به الآيتان الكريمتان ـ من أن الله قد أعلم بنى إسرائيل علما مؤكدا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، قد شهد بصدقه التاريخ ،وأيدته الحوادث ،وهذه أمثلة لما حل باليهود بسبب فسادهم وإفسادهم ـ من عقوبات أنزلتها عليهم الأمم الأخرى فى مختلف العصور.

أولا : بعد وفاة سليمان عليه السلام حوالى سنة ٩٧٥ ق م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة الشمال ، واسمها (إسرائيل) ومقرها، (السامرة) (١) وتتكون من الأسباط العشرة .

ومملكة الجنوب واسمها :يهوذا ،ومقرها أورشليم (٢) وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين .

وقد استمرت المنازعات بين المملكتين مدة طويلة ، انتهت بانقضاض سرجون ملك أشور على مملكة الشمال إسرائيل سنة ٧٢١ ق م ،فقتل الآلاف من رجالها ، وأسر البقية الباقية منهم ،فرحلهم إلى ما وراء نهر الفرات ، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وأما مملكة الجنوب :أورشليم فقد حاولت أن تتشبث بالبقاء ، ولكن معاول

---

(١) السامرة هى نابلس الآن.

(٢) أورشليم هى بيت المقدس الآن.

الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب ، فقد غزاها الأشوريون سنة ٦٧٧ ق م ، وقتلوا من أبنائها عددا كبيرا، واقتادوا ملكها منسى أسيرا إلى بابل .

وبعد أن دبت الحياة مرة أخرى فى أنفاس مملكة يهوذا زحف عليها الملك نخو فرعون مصر سنة ٦١٠ ق م فاحتلها، وقتل ملكها يوشيا، وطرد الأشوريين منها .

وفى سنة ٦٠٦ ق م ، زحف بختنصر ملك بابل عليها ، فطرد فرعون مصر منها واحتل أورشليم وتوابعها ، وأذل أهلها إذلالا شديدا ، ولكن اليهود ثاروا عليه بعد فترة من احتلاله لهم ، فرأى أن يؤدبهم بصورة أشد، فانقض عليهم مرة أخرى سنة ٥٩٩ ق م فقتل الآلاف منهم ، وساق من أعيانهم وسراتهم آلاف الأسرى إلى بابل، وأخذ معه كنوز الهيكل وتحفه .

وللمرة الثالثة شق عصا الطاعة عليه صدقيا بن يواقيم ملك يهوذا، فأعاد بختنصر عليهم الكرة سنة ٥٨٦ ق م ، فحاصر أورشليم، وبعد أن دخلها قتل ملكها صدقيا ثم أعمل السيف فى بقية أهلها ، ونهب ما فيها وهدم أسوارها ، وأحرق الهيكل وساق من بقى من سكانها أسرى إلى بابل ، وبذلك تم القضاء على مملكة يهوذا ، وأصبحت أرضها تابعة للدولة البابلية .

ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التى أدت إلى زوال مملكة يهوذا وإسرائيل فيقول : «هى قصة نكبات، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء النكبة القاضية ، وهى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م ، محت يد الأسر الأشورى مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م» (١) .

ثانيا : استرد اليهود بعض أنفاسهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس من سنة ٥٣٦ إلى سنة ٢٣٢ ق م فقد عادوا فى هذه الفترة إلى فلسطين ،ووقعوا تحت سيطرة الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٠ ق م .

وفى سنة ٣٢٠ ق م . سار إليهم بطليموس خليفة الإسكندر ، فهدم القدس ودك أسوارها ، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر؛ لأنهم ثاروا عليه .

---

(١) عن كتاب (اليهودية) للدكتور احمد شلبى ص ٩٣ .

ثالثا : فى سنة ٢٠٠ ق م تقريبا ، وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة ، ورأى بعض الحكام السلوقيين من اليهود تمردا وعصيانا ، فأنزلوا بهم أشد العقوبات فى عدة مواقع ؛ وكان من أبرز المنكلين باليهود انطوخيوس مابين سنة ١٧٠ ، وسنة ١٦٨ ق م ، فقد هاجم أورشليم وهدم أسوارها وهيكلها ونهب ما فيها من أموال وقتل من أهلها أربعين ألفا فى ثلاثة أيام وباع مثل ذلك العدد عبيداً منهم، ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال، وقد أقام انطوخيوس قلعة على أحد الجبال ليشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله، وقد وصل به الحال انه أكره عدداً كبيرا منهم على ترك الديانة اليهودية ،وجعل هيكلهم فى أورشليم معبدا لإلهه .

رابعا : وفى سنة ٦٣ ق م ، أغار الرومان بقيادة بامبيوس على أورشليم فاحتلوها واستمر احتلالهم لها حتى سنة ٦١٤ م . وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألوانا من القتل والسبى والتشريد، وهذه بعض العقوبات التى حلت باليهود على أيدى الرومان .

(أ) فى سنة ٦٣ ق م ، وبعد أن دخل بامبيوس الرومانى أورشليم ، فتك بالكثيرين من سكانها ، وأذل أهلها إذلالا شديدا ، واستخدم المنجنيقات فى هدم أسوارها ، وتدمير مبانيها .....

(ب) وفى سنة ٥٧ ق م : قام اليهود بثورة ضد الرومان فانقض عليهم القائد غابينوس من قبل الرومان فقتل الآلا ف منهم، وألغى النظم التى كانوايسيرون عليها، وأحل محلها نظما أخرى جردت اليهود من كل تدخل فى شئون الدولة .

(جـ) وفى سنة ٣٧ ق م : كلف الرومان القائد هيرودس بتأديب اليهود لإشعالهم نار الفتن، فحاصر هيرودس أورشليم بضعة أشهر، ثم دخلها وقتل من قتل من أهلها ،وسلب ماسلب من أموالها، ثم ساق أميرها اليهودى انتغنس مقيدا فى الأغلال إلى انطونيوس الحاكم الرومانى فقتله شر قتله، وبقتله انقرضت أسرة المكابيين، وأصبح هيرودس هو الوالى على فلسطين من قبل الرومان، وفى سنة وفاته ولد المسيح عليه السلام (١) .

---

(١) هامش ص ٧٠ من كتاب (تاريخ الإسرائيليين) لشاهين مكاريوس طبعة المقتطف سنة ١٩٠٤م.

(د) وفى سنة ٧٠ م ، عاودالیهود عصيانهم وتمردهم على الدولة الرومانية ، فسار إليهم القائد الرومانى فسبسيان فحاصر أورشليم ثم عاد إلى روما تاركا وراءه ابنه تيطس ليقوم بمهمة إخضاع اليهود ، فقام تيطس بمهمته خير قيام، فقد استطاع بعد فترة من الوقت أن يقتحم أورشليم ، وبعد أن دخلها دمَّرها تدميرا واستباحها عدة أيام، وقتل الآلاف من اليهود ، وأحرق الهيكل، وأخذ من بقى منهم أسرى إلى روما .

(هـ) وفى عهد الإمبراطور الرومانى تراجان سنة ١٠٦ م ، عاد بعض اليهود إلى القدس أورشليم، وأخذوا فى الإعداد للثورة وأعمال الشغب من جديد، فلما تولى أدريانوس عرش الرومان سنة ١١٧ م حول المدينة إلى مستعمرة رومانية ، وحظر على اليهود الاختتان وقراءة التوراة ، واحترام السبت ، وثار اليهود بقيادة الكاهن باركوخبا سنة ١٣٥ م وأرسلت روما واليا حازما هو يوليوس سيفيروس فاحتل المدينة، وقهر اليهود، وقتل باركوخبا، وذبح من اليهود فى تلك الموقعة ٥٨٠ ألف نسمة ، وتشتت الأحياء من اليهود تحت كل كوكب ، ولكى ينسى اليهود أورشليم دمرها أدريانوس وأنشأ مكانها مدينة جديدة أسماها إيليل[١].

ونتيجة لهذه العقوبات الرادعة التى أنزلها الرومان باليهود ، فر من استطاع منهم الفرار إلى جنوب الجزيرة العربية ، وإلى مصر وشمال افريقيا ، وأسبانيا وأوربا وغيرها من فجاج الأرض ، وفى كل بلدة حلوا بها تعرضوا لنقمة سكانها، بسبب أنانيتهم وعزلتهم ،وتعصبهم لموروثاتهم، وإشاعتهم للفتن والرذائل فى كل مكان يحلون به .

ولعل من المناسب هنا أن ننقل ما كتبه صاحب تاريخ الإسرائيليين عقب وصفه لخراب أورشليم على يد تيطس الرومانى : قال :

إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فإنهم بعد خراب أورشليم كما تقدم تفرقوا فى جميع بلاد الله ،وتاريخهم فما بقى من العصور ملحق بتاريخ المماليك التى توطنوها، وأنزلوا فيها وقد قاسوا فى غربتهم هذه صنوف العذاب والبلاء ، فإن الرومانيين حظروا عليهم دخول أورشليم ، إلى أن تبوأ القياصرة المسيحيون تخت

(١) اليهودية العالمية لعبد الله التل ص ٣٦ .

المملكة الرومانية فاعاد قسطنطين الكبير لأورشليم اسمها بعد أن استبدل بغيره، واهتمت أمه الامبراطورة هيلانه بنتظيفها، وظلت البلاد فى حوزة الرومان إلى سنة ٦١٤ م ، ثم استولى عليها الفرس بقيادة كسرى الثانى ، وفى سنة ٦٣٧ دخلت فى طاعة العرب المسلمين فى خلافة الإمام عمر بن الخطاب . .(١)

(و) وهنا نحب أن نبين حقيقة أغفلها هذا الكتاب ، وهى : أن استيلاء الفرس على فلسطين استمر من سنة ٦١٤ إلى سنة ٦٢٨ تقريبا . وكان ذلك بمساعدة اليهود ، الذين قتلوا من النصارى الساكنين معهم بفلسطين عددا كبيرا بعد انتصار الفرس ، فلما انتصر الروم بقيادة هرقل على الفرس فزع اليهود، وخافوا وقدموا لهرقل الهدايا الثمينة، وأظهروا له الولاء حتى أخذوا منه عهدا بعدم إيذائهم ، ولم يفطن هرقل إلى خديعتهم له، حتى قدم فلسطين فأخبره النصارى بما كان من تعذيب وتقتيل اليهود لهم خلال حكم الفرس ، واستطاعوا أن يجعلوه فى حل من العهد الذى أعطاه لليهود بعدم أذاهم ثم انتقموا منهم شر انتقام .

ولنستمع إلى المؤرخ المقريزى يقص علينا ذلك بطريقته فيقول : وفى أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلا د الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين، وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى وأتوا إلى مصر فى طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى، وتخريب كنائسهم وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ..... ثم كان من أمر هرقل ملك الروم بعد ذلك أن غلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ثم صار من فلسطين ليمهد ممالك الشام ومضر ، ويجدد ما ضربه الفرس منها، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة، وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى، وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ،

---

(١) تاريخ الإسرائيلين لشاهين مكاريوس ، مطبعة المقتطف سنة ١٩٠٤.

و قاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم بأنه لاحرج عليه فى قتلهم فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ، فما ل إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى ، وكتب البطارقة والأساقفة إلى جميع البلاد بإلزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة فالتزموا صومه إلى اليوم ، وعرفت عندهم بجمعة هرقل ، وتقدم هرقل بعمارة الكنائس وأنفق فيها ما لا كثيرا » (١) .

وبذلك نرى أن اليهود كانوا الساعد الأيمن لدولة الفرس فى محاربتها للروم والنصارى وهذه الحروب التى دارت رحاها بين دولتى الفرس والروم انتهت أولا بانتصار الفرس على الروم سنة٦١٤ م ، وقد فرح لها المشركون بمكة ، وعدوا ذلك نصرا لأشباههم فى العبادة وهم الفرس ، وأخذوا يتفاخرون على المسلمين بذلك ، فأعلم الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بأن الروم سينتصرون على الفرس بعد ذلك ، وقد تم نصر الروم فعلا على الفرس سنة ٦٢٩ تقريبا وفرح المسلمون بهذا النصر ، وقد بشر القرآن الكريم المسلمين بهذا النصر مقدما فى قوله تعالى ﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وبهذا نرى: أن اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ قد وافقوا عبدة الأوثان فى مناصرة عبدة النار، وهم الفرس على أهل الكتاب، وهم الروم .

وهنا نحب أن نستطرد استطرادا موجزا فنقول : ليست المناصرة بين اليهود والفرس حديثة ، بل هى قديمة فكورش الفارسى هو الذى حارب بختنصر البابلى وانتصر عليه سنة ٥٣٦ ق م وعطف على اليهود وأخرجهم من السبى البابلى وأعاد معظمهم إلى أورشليم وبنى لهم الهيكل ومن ثم أصبح له السلطان على فلسطين وأطلق الفرس على شعب يهوذا اسم اليهود وأطلقوا على عقيدتهم اسم

---

(١) كتاب الخطط للمقريزى جـ ٤ ص ٣٩٢ .

(٢) سورة الروم: الآيات من ١:٥ .

اليهودية ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة اليهود تعنى من اعتنق اليهودية ولو لم يكن من بنى إسرائيل وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى [١] .

ولكن لمَ عطف (كورش) على بنى إسرائيل ؟ السبب فى ذلك أنه يمت إلى الاسرائيليين بصلة ، فأمه أو زوجة أبيه هى استير الإسرائيلية التى ولدت فى بلاد فارس ، ولما شبت قدمها عمها مردخلى إلى ملك الفرس احشيورش فأعجب بجمالها وتزوجها وأصبحت ملكة على بلاد فارس... ثم تعهدت ولى عهده (كورش) وغذته بلبان محبة إسرائيل ...

وبعد أن أصبح ملكا على بلاد فارس حارب (بختنصر) البابلى ، وفك اليهود من أسره كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

خامسا : بعد هذه النماذج التى سقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على اليهود، تتابع سيرنا فى سرد بعض العقوبات التى أنزلها المسلمون باليهود بسبب بغيهم وخياناتهم فنقول :

بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة، وعقد بينهم معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نقضوا عهودهم ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل الكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها ، وحاول الرسول ﷺ أن يثنيهم عن جحودهم وبغيهم ولكنهم لم يستجيبوا له . فعاقب ﷺ كل طائفة منهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم وخيانتهم وتكفل للمسلمين أن يعيشوا فى مأمن من شرورهم ، ومن بين العقوبات التى أنزلها النبى ﷺ بهم إجلاؤه لبنى قينقاع ولبنى النضير عن المدينة ، وقتله لبنى قريظة وإهداره لدم بعض وجهائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق ، ومحاربته ليهود خيبر ومصالحته له بعد مقتل عدد كبير منهم ورفعهم راية الأمان ، والاستسلام وقبولهم الشروط التى اشترطها عليهم النبى ﷺ .

ولقد كان من آخر الكلمات التى نطق بها الرسول ﷺ قبل وفاته قوله موصيا أصحابه « أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى فى جزيرة العرب دينان »[٢].

وفى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه تم إخراج جميع اليهود عن جزيرة العرب ، استجابة لوصية الرسول ﷺ .

---

(١) قصة العقائد للاستاذ سليمان مظهر ص ٣١٨ نقلاً عن (تاريخ العرب قبل الاسلام) لجواد على جـ ٦ ص ٩٥ .

(٢) صحيح البخارى: باب إخراج اليهود جـ ٤ ص ١٢٠ .

سادسا : وفى ختام عرضنا لبعض العقوبات التى نزلت باليهود فى الأزمنة المختلفة جزاء إجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على أيدى بعض الدول الأوربية :

(أ) ففى بريطانيا : لقى اليهود فى بعض العهود ألوانا من التعذيب ، وصنوفا من القتل والتشريد .

١ ـ من ذلك أن الملك الإنجليزى يوحنا أصدر أمرا بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته .

٢ ـ وأن الملك هنرى االثالث أمر بتعذيب اليهود وحبسهم ، لأنه اكتشف أنهم ينزعون جزءا من ذهب النقود الرسمية وفضتها بعد أن يقبضوها ثم يدفعوها إلى التجار وقد أدى عملهم هذا إلى النقص فى عملة البلاد الرسمية .

ولم يكتف هذا الملك الإنجليزى بتعذيب اليهود وحبسهم ، بل أصدر أمرا سنة ١٢٣٠ م مؤداه أن على اليهود أن يدفعوا إلى الخزانة البريطانية ثلث أموالهم المنقولة .

٣ ـ وعندما تولى ادوارد الأول عرش بريطانيا سنة ١٢٧٣ م أصدر أمرا يحرم فيه على اليهود التعامل بالربا ورهن الأرض ، بعد أن تبين له أن أموال الدولة توشك أن تذهب إلى جيوب اليهود وحدهم ، ولكن اليهود لم يتقيدوا بهذا الأمر ، بل سرقوا جزءا كبيرا من ذهب العملة البريطانية وقد حكم على مائتى يهودى بالإعدام سنة ١٢٨١ م بعد أن ثبتت عليهم هذه الجريمة .

وفى سنة ١٢٩٨ م جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود ، فأصدر الملك ادوارد الأول أيضا أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر ، إلا أن الشعب البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة ، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات وفى قلعة بورك التى احتمى بها عدد كبير من اليهود وأحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودى وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان ، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون تقريبا . ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م فى عهد الطاغية كرومويل الذى اغتصب الملك من شارل الأول بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة فى سبيل بلوغ أغراضه

(ب) وفى فرنسا : تعرض اليهود فى أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسى وغضبه ، لأنهم دمروا اقتصاده الوطنى، وخنقوه بالربا الفاحش والمعاملات السيئة .

١ ـ ففى عهد لويس التاسع تدهورت الحالة الاقتصادية فى فرنسا فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون ، ثم أصدر أمرا آخر بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة التلمود . « وقد قال أحد المؤرخين: إنهم أحرقوا فى باريس وحدها محمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها » [١] .

٢ ـ وخلال تولى فيليت الجميل حكم فرنسا أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد ، ثم طردوا من فرنسا نهائيا ، ولكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا لفيليب ثلثى الديون التى لهم فى فرنسا .

٣ ـ وفى سنة ١٣٢١ م هاجمهم الشعب الفرنسى وذبح عددا كبيرا منهم ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا فى أواسط القرن السادس عشر .

٤ ـ وفى أوائل القرن التاسع عشر حاول نابليون أن يستغلهم لبلوغ مطامعه ولكنهم خانوه ، فاحتقرهم ، وبطش بعدد منهم، وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه . ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسى إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

(جـ) وفى إيطاليا : حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم (الشعب المكروه) وأغروا الشعب الإيطالى بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود .

وفى سنة ١٢٤٢ م أعلن البابا جريجورى التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود الذى يطعن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه

وفى سنة ١٥٤٠ م ثار الشعب الايطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

(د) وفى أسبانيا : ذاق اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل

---

(١) تاريخ الإسرائيلين شاهين مكاريوس ص ٨٣ .

وألوان الهوان ، ولم يظفروا بالراحة إلا في أيام الحكم الاسلامي لأسبانيا ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التي نزلت بهم في تلك البلاد .

في عهد الملك (فرديناند) وزوجته (إيزابلا) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها ، لتغلغلهم في الحياة الأسبانية ، واستيلائهم عل اقتصادها وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف ... فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هي طردهم من أسبانيا طردا نهائيا .

وفي ٣١ من مارس سنة ١٤٩٢ صدر المرسوم التالي عن الملك (فرديناند) : « يعيش في مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتي عشرة سنة ، وهي تعمل دائما على توقيع العقوبة على المدنيين وبناء على التقارير التي رفعتها لنا محاكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذي يقع بين المسيحيين واليهود يؤدي إلى ضرر عظيم ، ويؤدي بالتالي إلى القضاء على المذهب الكاثوليكي ، ولذا قررنا نفي اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون في بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تمييز في الجنس أو الأعمار أن يغادروا البلاد في غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أي ظرف أوسبب .... »[1] .

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود شر طردة من أسبانيا بعد أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم ، وبعد أن نفثوا سمومهم في أسبانيا زهاء سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطر ودين يبلغ نصف مليون نسمة ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه عن طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم .

(هـ) وفي روسيا : كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد استعملوا طوال مدة إقامتهم في روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب ، ففتحوا الحانات، وتاجروا في الخمور ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة ، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسي، عندما مكنتهم الظروف من ذلك وكونوا الجمعيات السرية، التي عملت على هدم نظام الحكم القيصري واستمرت في نشاطها حتى أزالته بواسطة

---

(١) (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) لعبد الله التل ص ١١٨ .

الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ م هذه الثورة التى كان معظم قوادها من اليهود ، ولم ينس الروس لليهود، ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال ، فانقضوا عليهم عدة مرات للتخلص منهم وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة ، وكان من أبرز المذابح التى أوقعها الروس باليهود مذبحة سنة ١٨٨١ م ومذبحة سنة ١٨٨٢م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين .

وعندما نشر الكاتب الروسى نيلوس نسخا قليلة من بروتوكولات حكماء صهيون سنة ١٩٠٢ م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ، جن جنونهم خوفا وفزعا ، وعمت المذابح ضدهم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف يهودى .

(و) وفى ألمانيا : انتشر اليهود فى كثير من مدنها منذ القرن الثامن الميلادى ، وسكنوا على ضفاف نهر الراين ، واستغلوا الشعب الألمانى أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام ، ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد .

يقول صاحب كتاب (تاريخ الإسرائيليين) :« وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء ـ ألمانيا ـ فى أزمنة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ؛ حتى لم يكد يبقى منهم واحد فيها . . »(١) .

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد (هتلر) ابتداء من توليه حكم ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥ م .

وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود ، تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث ، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة ، وعقوبات صارمة ، شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال .

ويقرر أحد الكتاب الغربيين :« إن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضطهاد

---

(١) تاريخ الإسرائيلين ص ٨٨.

اليهود وإنزال مختلف العقوبات بهم ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها » [١] .

هذا ، والشيء الذى نؤكده بعد سرد طرف من العقوبات التى نزلت باليهود فى مختلف العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهمها :

أولا : أنانيتهم وأطماعهم التى لا حدود لها ، فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وان عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة ، وأن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو معبود اليهود من قديم .

يقول (كارل ماركس) اليهودى والشيوعى الأول : « المال هو إله إسرائيل المطماع ، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش ، لأن المال يخفض جميع آلهة البشر ويحولها إلى سلعة ، المال هو القيمة العامة والمكونة فى ذاتها لجميع الأشياء ، لقد أصبح إله اليهود إلها دنيويا ، هذا هو الإله الحقيقى لليهودى » .

ثم يقول :« ماهو الأساس الدنيوى لليهودية ؟ المصلحة العملية والمنفعة الشخصية ، إذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال وبالتالى من اليهودية الواقعية والعملية ، إنما يحرر نفسه أيضا » [٢] .

وأنانية اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود فى بلاده، فأخذ يطردهم منها ، ويحذر أبناء أمته من شرورهم ، ومن هؤلاء الزعماء العقلاء (بنيامين فرانكلين) أحد رؤساء الولايات المتحدة ، فإنه ألقى خطابا سنة ١٧٨٩م قال فيه : هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو (اليهود) . أيها السادة : حيثما استقر اليهود ، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف ، إنهم لا يندمجون بالشعب . لقد كونوا حكومة داخل الحكومة وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا .... إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب

---

(١) (اليهودية) الدكتور أحمد شلبى ص ٧٣ .

(٢) (المسألة اليهودية) لكارل ماركس : ترجمة محمد عيتانى ص ٥٥ .

الدستور ؛ ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد ، بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا. إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ليصبح أبناؤنا عمالاً فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود .. إنى أحذركم أيها السادة إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم . إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال ، والنمر لا يستطيع تغيير لونه.. اليهود خطر على هذه البلاد ، وإذا دخلوها فسوف يخربونها ويفسدونها .....» (١) .

وللتعليق على هذا الخطاب نقول : ما أصدق ما توقعه (فرانكلين) لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر (فرانكلين) هذه المدة بمائتى سنة أى فى سنة ١٩٨٩ ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها ، وأموالها ، وعلمها ونفوذها وخيراتها ، لخدمتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة .

وهذا هو الدكتور (جون بتى) يصف النفوذ اليهودى المتغلغل فى أمريكا فيقول : « إن رؤساء أمريكا ومن يعملون معهم ينحنون أمام الصهيونية .. كما لو كانوا ينحنون أمام ضرع له قداسته .. وأن الأقلية الإسرائيلية قد وصلت إلى درجة من القوة والطموح ، تهدد أمريكا بالخطر الدائم . وتهددها بإثارة حرب عالمية ثالثة » (٢) .

ثانيا : غرورهم وتعاليهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المختار ، ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم: صفوة الخلق ،وأصحاب الحظوة عند الله ، وقسم آخر يسمونه: الأمم أو (الجوييم) أى: غير اليهود، ومعنى (جوييم) عندهم : وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس . وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديا: وأن يغشوه ويكذبوا عليه، ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة، التى تمكنت من اليهود بقوله: ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن

---

(١) كتاب (اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية) لإيليا أبو الروس ص ١٣٠ .

(٢) كتاب (الستار الحديدى حول أمريكا) نقلا عن كتاب (لهذا أكره إسرائيل) ص ١٨٣ .

تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [١] .

وكتب اليهود ـ ولا سيما التلمود ـ طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم ، من ذلك ما جاء فى التلمود : «إذا خدع يهودى أحدا من الأمم، وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل، أوزيادة الثمن ، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما (يهواه) [٢] ويهواه هو إله اليهود .

ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود ، وأهدروا بسببه كل حق ،أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه، الذى سلبوه منهم ، وليوقع بهم أقسى العقوبات جزاء غرورهم الكاذب ، وتعاليهم الباطل.

ثالثا : عزلتهم وعصبيتهم وخيانتهم للبلاد التى آوتهم ، فهم متعصبون متحزبون ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ، ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم ، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره، وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا محيد لهم عنه .

ويصف الدكتور (وايزمان) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله : « وكان اليهود فى موتول (مسقط رأسه) بروسيا ، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة، منعزلين منكمشين ، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم » .

ولعل أدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها ، ما ذكره (سلامون شختر) فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا، حيث قال : « إن معنى لاندماج فى الأمم هو فقدن الذاتية ، وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج ، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات » [٣] .

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة ، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر ، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم

---

(١) فسرنا هذه الآية الكريمة فى فصل (دعاوى اليهود الباطلة ورد القرآن عليها) .

(٢) الصهيونية العالمية للاستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٤ .

(٣) كتاب (اليهودية) للدكتور احمد شلبى ص ٣٣ .

الإخلاص لأية هيئة دينية أو دنيوية ، وعدم الولاء للأوطان، التي يعيشون فيها، ويأكلون من خيراتها ، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها ، لأن اليهودي يهودي قبل كل شيء ، مهماتكن جنسيته ، ومهما يعتنق من عقائد، ومبادىء في الظاهر، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته ناصر يهوديته، وحاول أن يشيع الخراب والدمار في الأمة التي هو فرد من أفرادها، خصوصا إذا أمن العقاب . والصهيونية العالمية تأمر اليهود في كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل، وليس للدول التي يعيشون فيها .

تقول جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل سابقا : « إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة،تعيش في المنفى،وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شيء، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التي يسبغونها على أنفسهم ،وإن اليهودي الإنجليزي الذي ينشد بحكم إنجليزيته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون في نفس الوقت صهيونيا»[١] .

وما أكثر الحوادث التي قام فيها اليهود بدور العيون، والجواسيس على الأوطان التي يعيشون فيها لحساب أعدائها ، وأظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون في ألمانيا، من خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا ، ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطني وعد (بلفور) من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧م.

وقد عدد (هتلر) خيانات اليهود لألمانيا، فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح، وإفساد التعليم ، والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل في سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا، وفي القمة من خياناتهم :التجسس ضد ألمانيا، الذي احترفه عدد كبير منهم.

ويختتم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله :« وإذا قُيض لليهودي أن يتغلب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه في الأثير كما فعل منذ ملايين السنين لن يكون هناك بشر

---

(١) من محاضرة مطبوعة عن (اليهود ودولة إسرائيل).

على سطحه .. لهذا أعتقد أني تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا ، لأني بدفاعي عن نفسي ضد اليهودي ، إنما أناضل في سبيل الدفاع عن عمل الخالق » [١] .

وإذن : فعزلة اليهود . وعصيتهم ، وخيانتهم للأوطان التي آوتهم ، كان جزاؤها العادل ماحلّ بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة .

رابعا : اضطهادهم لغيرهم متى ملكوا القدرة الظاهرة ،أو الخفية لذلك، وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم، ومليء بالمجازر التي قاموا بها ضد الشعوب، التي كان لهم النصر عليها، وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه . ففي سفر الخروج مانصه :

« حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبدلك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما » [٢] .

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق في كل أدوار تاريخهم، فلقد قتلوا في روما وحدها مائة ألف مسيحي سنة ٢١٤ م بإيعاز من الأمبراطور (مارك أوريل) .

ومالنا نذهب بعيدا في الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين ما زالت ماثلة في أذهاننا ، يقول أحد الكتاب المعاصرين : « إن مذبحة دير ياسين كانت أبشع المذابح ،التي ارتكبها اليهود ، فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا في قرية صغيرة، ومثلوا بأجسامهم ، وذبحوا الأطفال في أحضان أمهاتهم وأمام أعينهم ... » وحدث ما يشبه هذه المذابح في كثير من مدن فلسطين، كحيفا ويافا واللد، وكفر قاسم .

لقد كتب المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) في كتابه دراسة التاريخ يقول : لو أن بشاعة الخطيئة قيست بدرجة الجرم، الذي يقترفه المذنب في حق ما منحه

---

(١) كتاب (كفاحي) لهتلر. (٢) سفر التثنية: الإصحاح العشرون ١٠ ـ ١٧ .

الله من قدة على التمييز ، لكان اليهود أقل عذرا فيما اقترفوه عام ١٩٤٨، ولكن اليهود يعلمون بما اقترفوه ، وهكذا تتلخص مأساتهم الضخمة فى أن الدرس الذى تعلموه بمصادماتهم مع الألمان النازيين لم يجعلهم يحيدون عن أعمال النازى الشريرة ضد اليهود، بل دفعهم إلى مواصلة تلك الأعمال . وأن هذه الأعمال الشريرة التى ارتكبها اليهود ضد الفلسطينين العرب اشتملت على تقتيل النساء والأطفال والرجال، وأدت إلى هروبهم من بلادهم » [١] .

والحق : أن مفاهيم اليهود الباطلة ، وأنانيتهم الطاغية ، وطباعهم اللئيمة وأخلاقهم الفاسدة ، وعصبيتهم الذميمة ، وقلوبهم القاسية ، واستباحتهم لقتل غيرهم ، وإهدار كرامته ، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق .

ويعجبنى فى هذا المقام قول المؤرخ اليهودى يوسيفوسى :ـ

« لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم » [٢] .

ثانيا : قضاء الله فيهم بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين :

فى سورة الإسراء آيات كريمة ، ذكرت ماتوعد الله به بنى إسرائيل من عقوبات، بسبب إفسادهم فى الأرض ، وتنكبهم الطريق المستقيم ، وهذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [٣] .

---

(١) عن كتاب دولة الإرهاب لعلى محمد على ص ٣٩ .

(٢) عن كتاب « بلادنا فلسطين » لمصطفى مراد الدباغ جـ ١ ص ٦٥٧ . طبعة دار الطليعة : بيروت سنة ١٩٦٥ .

(٣) الآيات من ٤ ـ ٨ .

كلامنا عن هذه الآيات الكريمة يتناول أربعة مقاصد رئيسية :

الأول : ذكر خلاصة تاريخية تتناول تاريخ بنى إسرائيل منذ عهد داود عليه السلام سنة ١٠٥٥ ق م تقريبا ، إلى ما بعد التخريب الثانى لأورشليم على يد (تيطس) الرومانى سنة ٧٠ م .

الثانى : تفسير الآيات الكريمة :

الثالث : أشهر أقوال المفسرين فيمن سلطه الله عليهم فى المرتين ، وتمحيص الآراء فى ذلك ، وبيان الرأى الذى تختاره .

الرابع : تعليقنا على ما يراه أحد العلماء المعاصرين من أن مرتى إفسادهم كانتا فى الإسلام .

ولنبدأ فى بيان المقصد الأول فنقول :

ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة قصة « الملأ من بنى إسرائيل ﴿ **إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله** ﴾ وكيف أنهم ألحوا فى الطلب، وقالوا له عندما توقع منهم الفرار عند القتال » : ﴿ **وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ . ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ، أن نبيهم قد بلغهم عن الله أنه سبحانه قد اختار لهم طالوت ملكا عليهم ، فاعترضوا على ذلك وقالوا : ﴿ **أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال** ﴾ فأجابهم نبيهم كما حكى القرآن عنه بقوله : ﴿ **إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم** ﴾ ثم ختم القرآن الكريم القصة ببيان : أن العدد القليل الذى قاتل مع طالوت ، قد نصره الله على أعدائهم ، وأن داود عليه السلام قتل (جالوت) قائد أعداء بنى إسرائيل ، وأن الله تعالى قد آتى داود الملك والحكمة، وعلمه مما يشاء، ويرى المؤرخون أنه بانتصار بنى إسرائيل على (جالوت) وجنوده تأسست أول مملكة حقيقية لهم برئاسة (طالوت) وأنه قد استمر ملكا عليهم لمدة سنتين تقريبا ثم توفى سنة ١٠٥٥ ق م ، ويمتاز عهده بالحروب الكثيرة ، والمنازعات المستمرة .

٢ ـ وبعد وفاة طالوت تولى ملك بنى إسرائيل دواد عليه السلام، وقد دام ملكه لهم زهاء أربعين سنة ، كانت عاصمة ملكه فى السبعة السنين الأولى منها (حبرون) [١] ، أما المدة الباقية، وهى ثلاث وثلاثون سنة، فكانت عاصمة ملكه

---

(١) مدينة حبرون هى ما تسمى بالخليل الآن.

خلالها هى (أورشليم) وقد ازدهرت المملكة الإسرائيلية فى عهده، ازدهارا عظيما، واتسعت رقعتها ، وشيدت فيها المباني الفاخرة ، والحصون المنيعة ، ورأت عهدا زاخرا بالأمان والاطمئنان والرخاء والقوة .

٣ ـ وبعد داود عليه السلام تولى ملك بني إسرائيل ابنه سليمان [١] عليه السلام، فازدادت حالتهم فى عهده رقيا ومنعة .

ويصف أحد الكتاب حال بنى إسرائيل فى عهد سليمان عليه السلام، فيقول:

«وفى عهد سليمان اعتز شأن الإسرائيليين، وامتد ملكهم من البحر الأحمر إلى نهر الفرات الكبير ، وهابتهم الأمم المجاورة لهم ... وأرسل سفنه فى الآفاق تجوب البحار وتأتيه بالذهب والفضة، والأحجار الكريمة، وكانت مدة حكمه أربعين سنة ذاق فيها الإسرائيليون الهناء والرخاء ، وكرعوا كئوس المسرات والنصر ...» [٢] .

والخلاصة : أن عهد حكم داود وسليمان عليهما السلام لبنى إسرائيل، يعتبر العصر الذهبى لهم ، والفترة الزاهية من تاريخهم ، إذ اتسع فيها ملكهم ، وعظم نفوذهم ، وترادفت النعم والخيرات عليهم .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد :أن الله تعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام نعما وفيرة ، ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة النمل :
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .

٤ ـ وبعد وفاة سليمان عليه السلام سنة ٩٧٥ ق م ، خلفه ابنه (رحبعام) فانتشرت فى عهده كما يقول المؤرخون: الفتن، وكثرت المنازعات ، واضطربت حالة المملكة، فأدى ذلك إلى انقسامها إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل .

(أ) أما مملكة يهوذا . فكانت عاصمتها أورشليم ، وملكها هو (رحبعام) وكانت تتكون من سبطى يهوذا وبنيامين ، وقد تعاقب عليها واحد وعشرون ملكا.

---

(١) ولد سليمان ـ عليه السلام ـ بأورشليم سنة ١٠٣٣ ق م وتوفى سنة ٩٧٥ ق م تقريبا.

(٢) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ٢٣ .

وكانت نهايتها على يد (بختنصر) الذى غزاها سنة ٥٨٨ ق م ، فدمرها تدميرا ، وساق الأحياء من أهلها أسرى إلى بابل، ومكثوا فى الأسر زهاء خمسين سنة . وما فعله (بختنصر) مع بنى إسرائيل يسمى بخراب أورشليم الأول .

(ب) وأما مملكة إسرائيل : فكانت عاصمتها السامرة (نابلس الآن) وقد تأسست كأختها مملكة يهوذا سنة ٩٧٥ ق م ، وملكها هو (يربعام)أخو (رحبعام) وكانت تتكون من بقية الأسباط العشرة . وقد تعاقب عليها تسعة عشر ملكا ، وكانت نهايتها على يد (سرجون) ملك أشور ، الذى غزاها وانتصر عليها وأجلى سكانها من اليهود، إلى ما وراء الفرات، وكان ذلك سنة ٧٢١ ق م .

٥ ـ وفى سنة ٥٣٨ ق م ، نشبت حرب بين (قورش) ملك الفرس و(بختنصر) ملك بابل . انتهت بانتصار ملك الفرس ، فأصدر أمرا سنة ٥٢٦ ق م، يأذن فيه لليهود بالعودة إلى أورشليم، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية، وامتدت بها أعراقهم ، ومن ثم فقد ترددوا فى العودة إليها ، ولم يقبل العودة إلا عدد قليل منهم ، أكثرهم من سبطى يهوذا وبنيامين ، وقد أعاد هؤلاء العائدون بناء الهيكل بتصريح من (قورش) سنة ٤١٥ ق م تقريبا .

ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة (اليهود) تعنى : من اعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بنى إسرائيل ، وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى .

وظل اليهود بعد ذلك يتولى أمورهم كهنة منهم، تحت رقابة حكام من الفرس، وكانت المناوشات بينهم لا تنقطع إلى أن زال حكم الفرس عنهم سنة ٣٢٢ ق م .

٦ ـ ففى هذه السنة ، تغلب الإسكندر المقدونى على الفرس وطردهم من سورية وفلسطين ، وبعد دخوله أورشليم ، استقبله كهان اليهود ، وأعلنوا له الولاء والخضوع ، وبقيت أورشليم وما جاورها تحت حكمه إلى أن مات .

٧ ـ وفى سنة ٣٢٣ ق م ؛ التى مات فيها الإسكندر المقدونى ، قسمت مملكته بين قواده ، فكانت أورشليم من نصيب بطليموس ملك مصر ،فحكمها بالعنف والشدة، رغم مقاومة اليهود له ، وقد اضطر أمام ثوراتهم المتكررة إلى هدم جزء كبير منها ، وقتل الكثيرين من سكانها ، وإرسال مائة ألف من اليهود إلى مصر سنة ٣٢٠ ق م .

وقد تعاقب البطالسة على حكم أورشليم فترة طويلة ، بعضهم عامل اليهود

فيها بالقسوة والشدة ، وبعضهم عاملهم باللين والعطف ، حتى استولى السلوقيون عليها من البطالسة سنة ١٩٨ ق م .

٨ ـ وقد أوقع السلوقيون باليهود أشد الضربات وأقساها ، فعندما احتل (انطوخيوس) السلوقى أورشليم ، هدم أسوارها ، ونهب ما فيها من أموال ، وقتل من اليهود ثمانين ألفا ،وأذل كهنتهم إذلالا شديدا .

٩ـ وفى سنة ١٦٨ ق م ، قام اليهود بقيادة الكاهن (ماتياس) بثورة ضد السلوقيين لم تنجح ، ومات بعدها بعام واحد ، فتولى ابنه الكاهن (مكابياس) قيادة الثائرين اليهود من جديد ، وإلى هذا الكاهن تنسب أسرة المكابيين ، وهم فريق من كهان اليهود، اتصفوا بالحنكة ،وسعة الحيلة ، وكانوا أقرب إلى القادة العسكريين منهم إلى رجال الدين ، وقد استطاعوا أن يستقلوا بحكم أورشليم لفترة من الزمان .

١٠ ـ وفى سنة ٦٣ ق م كان الخلاف قد بلغ أشده بين المكابيين ، وضعف مركزهم ، فانتهزت الدولة الرومانية هذه الفرصة ، وانقضت على أورشليم فاحتلتها بقيادة (بمبيوس) الرومانى .

ومنذ ذلك التاريخ خضعت أورشليم لحكم الرومان، إلى أن أستولى عليها الفرس سنة ٦١٤ م، ثم عادت إلى الرومان سنة٦٢٨ م ؛ ثم فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ ، سنة ٦٣١ م فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبقيت بعد ذلك دولة إسلامية عربية، حتى اقتطع اليهود جزءا كبيرا منها، أقاموا عليه دولتهم سنة ١٣٦٧ هـ ، سنة ١٩٤٨ م .

ولعلنا إلى هنا نكون قد ألقينا ضوءاً على تاريخ اليهود الإجمالى ، وعلى تاريخ فلسطين منذ عهد داود ـ عليه السلام ـ حتى وقتنا الحاضر .

المقصد الثانى : تفسير الآيات الكريمة :

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

معناه : وأوحينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب وهو التوراة وحيا مؤكدا ، وأعلمناهم فيه على لسان نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ بما سيقع منهم من الإفساد

الكبير فى أرض الشام مرتين ، كما قال تعالى : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أى : لتعصن الله تعالى، ولتتكبرن عن طاعته ، ولتخالفن أمره فى أرضه مرتين ، ولتستعلن على الناس بغير حق؛ استعلاء عظيما ، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار .

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض ، تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما فيها من أحكام ،وقتلهم الأنبياء ، واعتداؤهم على الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وشيوع الفواحش والرذائل فيهم .

فإن قال قائل : وما فائدة أن يخبر الله تعالى بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين ، وأنه يعاقبهم على ما كان منهم فيها بتسليط الأعداء عليهم ليدمروهم ؟

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم، من إفساد، ويعفو عن كثير ، وأن رحمته تتسع للمفسدين متى أصلحوا وأنابوا إليه . وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى، التى تؤدى بالأمة إلى الهلاك ، وأن يحذروا أممهم من ذلك ، ويبصروهم بعواقب العصيان والإفساد فى الأرض، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقوبة الله ـ تعالى ـ

والفائدة الثالثة من هذا الإخبار : بيان أن الأمم المغلوبة تستطيع أن تستعيد قوتها ، وأن تسترد مجدها السالف إذا صحت عزائمها على طاعة الله تعالى والعمل بما جاءهم به الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم : تنبيه اليهود المعاصرين للنبى ﷺ ومن على شاكلتهم من المشركين ، إلى سنة من سنن الله ـ تعالى ـ فى خلقه ؛ وهى أن الإفساد فى الأرض ، والانصراف عن طاعته ـ سبحانه ـ والتعدى لحدوده، والمخالفة لأوامره ، والعصيان لرسله ، كل ذلك يؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة، فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذى ثبتت نبوته ثبوتا لا شك فيه، حتى يسعدوا فى دنياهم وأخراهم .

ثم بين الله ـ تعالى ـ أنه يسلط عليهم بعد الإفساد الأول من يقهرهم، ويستبيح حرماتهم ، ويدمرهم تدميرا ؛عقوبة لهم على ما كان منهم ، فقال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ﴾ .

والمعنى : فإذا جاء وعد عقابكم - يابنى إسرائيل - على أولى المرتين اللتين تفسدون فيهما فى الأرض ، وجهنا إليكم ، وسلطنا عليكم ﴿ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوى قوة وبطش فى الحرب شديد ، ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ ترددوا بين المساكن لقتلكم ، وسلب أموالكم ، وهتك أعراضكم وتخريب دياركم ، وسبى نسائكم وذراريكم ، ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ﴾ اى : كان ذلك العقاب لكم بسبب إفسادكم فى الأرض ، وعدا نافذا لا مرد له، ولامفر لكم منه .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ جالوت وجنوده على أرجح الأقوال ،كما سنفصل ذلك عند كلامنا على المقصد الثالث .

ثم بين - سبحانه - أنه ينصرهم على أعدائهم ، ويمدهم بالأموال والبنين ؛ بعد أن يجتهدوا في إصلاح ما كان منهم ،من فساد في المرة الأولى فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ .

والمعنى : ثم أعدنا لكم - يا بنى إسرائيل - الدولة والغلبة، على الذين قهروكم وأذلوكم، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله ، واتبعتم ما أمر به . فاستنقذتم أموالكم وأسراكم ، ممن قتلوكم وخربوا دياركم ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بعد أن نهبت أموالكم ، وسبيت أولا دكم ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ صيرناكم أكثر عددا ورجالاً من عدوكم ، ومما كنتم عليه قبل ذلك ، فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعمة ، وتحسنوا الاستفادة منها ؛ فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يمن على الذى استضعفوا فى الأرض ، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين ، متى استقاموا على طريقه وخافوا مقامه ، ونهوا أنفسهم عن الهوى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾(١) .

فعليكم يابنى إسرائيل أن تذكروا نعم الله عليكم ، وأن تشكروه عليها أجزل الشكر ؛ وأن تؤمنوا بنبيه محمد ﷺ الذى تعرفون صدقه كما تعرفون أبناءكم .

---

(١) سورة غافر: الآية ٥١ .

وقوله تعالى . ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بمثابة التعليل لما قبله فكأنه سبحانه يقول لهم : رددنا لكم الكرة - يابنى إسرائيل على أعدائكم ، وغمرناكم بنعمنا ، بعد أن أصلحتم أنفسكم ، وراجعتم دينكم ، لتعلموا سنة من سنننا التى لا تتبدل ولا تتغير ، تلك السنة هى: أن الفساد فى الأرض عاقبته الدمار، وتخريب الديار ، وأن الإحسان والطاعة عاقبتهما : التمكين فى الأرض وترادف النعم ، ولتذكروا أنكم إن أحسنتم فأطعتم الله، ولزمتم أمره سعدتم فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا : فبإبقاء الغلبة لكم ، وإمدادكم بالأموال والبنين وتكثير النفير

وأما فى الآخرة : فبإدخالكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . وإن أسأتم وعصيتم ربكم ، فإلى أنفسكم وحدها تسيئون ، إذ يسلط الله عليكم بسبب إفسادكم فى الأرض ، من يسومكم سوء العذاب فى الدنيا، وتكون نهايتكم سيئة فى الآخرة .

ثم بين سبحانه أنه سيكون منهم إفساد كبير فى الأرض مرة ثانية، وأنه سيسلط عليهم من يقهرهم ويذلهم، بسبب هذا العصيان والتمرد، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾(١) .

والمعنى : فإذا جاء وقت عقوبتكم يابنى إسرائيل على المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض ، سلطنا عليكم أعداءكم ، ليسوءوا وجوهكم، أى : ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم ، وليدخلوا المسجد الأقصى فاتحين قاهرين مذلين لكم، كما دخله أعداؤكم قبل ذلك، وليتبروا ما علوا تتبيرا، وليدمروا ويخربوا ما غلبوا، عليه وظفروا به تدميرا شديدا، قال الإمام الرازى : « وإنما عزا سبحانه الإساءة إلى الوجوه؛ لأن آثار الأحوال النفسانية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح فى القلب ظهرت النضرة والإشراق والإسفار فى الوجه،وإن حصل الحزن والخوف فى القلب،ظهر الكلوح والغبرة والسواد فى الوجه

---

(١) (وعد الآخرة) اى: وعد عقوبتكم على المرة الآخرة على حذف مضاف وجواب إذا محذوف والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، وحسن هذا الحذف ، لدلالة جواب إذا الأولى عليه فى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾.

فلهذا السبب عزيت الإساءة إلي الوجوه في هذه الآية، ونظير هذا المعنى فى القرآن كثير، ومنه قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١) .

وكان من ضروب إفسادهم فى الأرض فى هذه المرة الثانية ، قتلهم زكريا ويحي عليهما السلام، ومحاولتهم قتل عيسى ، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه ، واستحلالهم لمحارم الله ، إلى غير ذلك من الرذائل التى فشت فيهم ، واشتهروا بها فى كل زمان ومكان .

وكان المسلط عليهم فى هذه المرة هو (بختنصر) البابلى ، عند جمهور المفسرين ، وسنبين رأينا بالتفصيل فيمن سلطه الله عليهم فى المرة الثانية عند كلامنا على المقصد الثالث .

ثم بين سبحانه : أن هذا الدمار الذى حل بهم ،بسبب فسادهم فى الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا فى توبتهم وإنابتهم إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالحوادث الماضية ، وفهموا عن الله تعالى سننته التى لا تتخلف فى خلقه وهي : أن الإحسان يؤدى إلي السعادة ، والإفساد يؤدى إلي الهلاك، فقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

قال أبو حيان : هذه الترجية ليست لرجوع دولة لهم، وإنما هى لبيان أن رحمة الله تعالى تدرك من يطيعه منهم (٢) .

والمعنى : لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم ، ويصرف عنكم السوء بعد انتقامه منكم يابنى إسرائيل، متى أخلصتم له العبادة ، وأحسنتم أعمالكم ، وابتعدتم عن المعاصى ، فقد علمتم أن من سننته تعالي أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفعه إلا بتوبة ، ولذا قال بعد ذلك ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أى : وإن عدتم إلى معصيتى ، ومخالفة أمرى ، وانتهاك حرماتى مرة ثالثة بعد أن تداركتم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب ؛ وإحلال الذل والصغار بكم ، وتسليط الأعداء عليكم ،يسومونكم سوء العذاب فى الدنيا .

ولقد عادوا إلى المعاصى ، فعاد الله عليهم بالعقاب، فقد كذبوا محمدا ﷺ

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢ ص ١٥٩.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٦ ص ٩.

وكتموا ما جاء بشأنه فى التوراة والإنجيل ؛ وهمّوا بقتله ، فسلطه الله عليهم جزاء بغيهم وغدرهم ، فقتل بنى قريظة ، وأجلى عن المدينة بنى فينقاع ، وبنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين منهم،فكانوا يعطونها للمسلمين عن يد وهم صاغرون.

عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال :« عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين».

ثم عادوا إلى فسادهم مرارا فى العصور التى تلت صدر الإسلام ، فسلط الله عليهم عبادا آخرين أذلوهم وشردوهم ، وما زال اليهود موضع سخط الناس وازدرائهم وبغضهم ، لأنانيتهم ؛ وعنصريتهم ، وسوء طباعهم ، وإفسادهم فى الأرض مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾ ثم بين سبحانه عفويتهم فى الآخرة فقال تعالى ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** ﴾ أى : جعلنا جهنم مهادا وبساطا لهم ، أو سجنا حاصرا لهم لارجاء لهم فى الخلاص منه ، بسبب كفرهم وبغيهم ، فهم فى الدنيا لهم ما تقدم وصفه من الإهلاك والتدمير ، وفى الآخرة لهم عذاب السعير، المحيط بهم من جميع الجهات جزاء فسادهم وإفسادهم .

المقصد الثالث

أشهر أقوال المفسرين فيمن سلطه الله على بنى إسرائيل فى المرتين، وتمحيص الآراء وبيان الرأى الذى نختاره .

للمفسرين أقوال فى المراد بالعباد الذين سلطهم على بنى إسرائيل فى مرتى إفسادهم ،اشهرها مايلى .

أولا : أخرج ابن جرير، عن ابن عباس، وابن مسعود: أن الله عهد [١] إلى بنى 'سرائيل فى التوراة: ﴿ **لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ** ﴾ فكان أول الفسادين قتل زكريا ، بعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى (صحابين) فبعث الجنود،وكانت أسورته من أهل فارس، فهم أولو بأس شديد،فتحصنت بنو إسرائيل وخرج فيهم بختنصر يتيما مسكينا وتلطف حتى دخل المدنية فأتى مجالسهم فسمعهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قُذف فى قلوبنا من الرعب ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حتى سمع ذلك منهم ، وأشد القيام على الجيش فرجعوا ؛ وذلك قوله : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً** ﴾

---

(١) المراد أخبرهم وانهى إليهم ليكونن منهم هذا الإفساد مرتين ، والتركيب شبيه بقوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾.

ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا لقتال النبط، فأصابوا منهم واستنقذوا ما بأيديهم، فذلك قول الله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

والذى نراه: أن هذا الأثر ضعيف من وجوه .

(أ) أن غزو النبط وخروج بختنصر سابق على قتل زكريا ـ عليه السلام ـ بحوالى ستة قرون ، لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر انتصر على بنى إسرائيل ثلاث مرات ، الأولى سنة ٦٠٦ ق م والثانية سنة ٦٩٩ ق م ، والثالثة سنة ٥٨٨ ق م ؛ وفى المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وأخذ الأحياء منهم أسرى إلى أرضه ، ودمر أورشليم تدميرا تاما ، كما بينا ذلك سابقا .

أما زكريا فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى ـ عليه السلام ـ أو مقاربا لعصره، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا ـ عليه السلام ـ هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذا :فالقول بأن فسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط ،ومعه بختنصر ، يتنافى مع الحقائق التاريخية الثابتة .

(ب) لم يحفظ لنا التاريخ أن بنى إسرائيل بعد غزو النبط وبختنصر لهم استعادوا قوتهم، وغزوا النبط وأصابوا منهم ،واستنقذوا ما بأيديهم ـ كما يقول الأثر ـ وإنما الذى حفظه لنا التاريخ أن (قورش) ملك الفرس هو الذى أذن لهم فى العودة إلى أورشليم بعد انتصاره على بختنصر، وكان ذلك سنة ٥٢٦ ق م .

وهذا لا يعد رد كرة لهم على النبط، أو بختنصر لأنهم لم ينتصروا عليهم بقوتهم الذاتية ، ولو مرة واحدة حتى نقول: إنهم ردت لهم الكرة ، ورجوعهم إلى أورشليم بإذن من : قورش ملك الفرس لا يعد نصرا لهم؛ لأنهم عاشوا تحت سيطرة الفرس حتى سنة ٣٢٢ق م ، فهم قد انتقلوا من الخضوع للبابليين إلى الخضوع للفرس.

وإذا: فالقول بأنهم ردت لهم الكرة على النبط أو بختنصر ظاهر البطلان.

(جـ) هذا الأثر اضطرابه ظاهر ، لأن صحابين ملك النبط، هو الذى يسميه

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٥ ص ١٧.

المؤرخون (سنحاريب) وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م أى: قبل غزو بختنصر لها، بأكثر من مائة سنة ،لأن أول غزو لبختنصر كان سنة ٦٠٦ ، فبختنصر ليس معاصرا له.

ثانيًا : أخرج ابن جرير، عن ابن زيد، أنه قال : « كان إفسادهم فى الأرض مرتين قتلهم زكريا ويحيى - عليهما السلام - سلط عليهم سابور ذا الأكتاف ملكا من ملوك فارس من قتل زكريا، وسلط عليهم بختنصر من قتل يحيى »(١) :

وأخرج ابن عساكر في تاريخه، عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى قوله: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ قال : الأولى قتل زكريا ، والأخرى قتل يحيى »(٢).

والذى نراه أن هذا القول المروى عن مجاهد وعن على بن أبى طالب ضعيف، ولا يساعد عليه لفظ القرآن الكريم، ولا الحقائق التاريخية ، وذلك لأنه ليس بين قتل زكريا ويحيى - عليهما السلام - إلا زمن يسير لا يتسع لأن يكون الإفساد وقع منهم فيه مرتين ، ولا يتحقق معه رد الكرة لهم على أعدائهم بعد الإفساد الأول، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا فضلا عن أن سابور وبختنصر يسبقان قتل زكريا ويحيى بحوالى ستة قرون.

ثالثًا : وأخرج ابن جرير، وابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : « جند أتوا من فارس يتجسسون أخبار بنى إسرائيل ، ويسمعون حديثهم معهم بختنصر ، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعت فارس ولم يكن قتال ، ونصرت عليهم بنو إسرائيل فهذا وعد الأولى ، فإذا جاء وعد الآخرة بعث ملك فارس ببابل جيشا، وأمر عليهم بختنصر فدمروهم فهذا وعد الآخرة »(٣).

والذى نراه أن هذا الأثر يتعارض مع ما يفيده القرآن هنا ، لأن الآيات الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - يسلط على بنى إسرائيل من يذلهم ويجوس خلال ديارهم ، بعد إفسادهم الأول فى الأرض، وأن هذه العقوبة تستمر زمنا طويلا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٢٢.

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٣.

(٣) تفسير الدور المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٥.

يذوقون فيه سوء العذاب ، بينما الأثر الذى معنا هنا صريح فى أنه لم يكن قتالا بين فارس وبنى إسرائيل.

ثم إن هذا الأثر - أيضا - تعارضه الحقائق التاريخية، التى تفيد أن بنى إسرائيل لم ينتصروا على الفرس فى معركة من المعارك .

رابعًا : أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل ، فسألوا الله تعالى - أن يبعث لهم ملكا يقاتلون فى سبيل الله ، فبعث الله طالوت ، فقاتلوا جالوت ، فنصر الله بنى إسرائيل ، وقتل جالوت بيد داود ، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم ، فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة بختنصر، فخرب المساجد، وتبر ما علوا تتبيرا ، قال الله - تعالى - بعد الأولى والآخرة ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين (١) .

وأخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن قتادة - رضى الله عنه - قال : أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت حتى بعث طالوت ،ومعه داود ، ثم رد الكرة لبنى إسرائيل ﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أى عددا ، وذلك فى زمان داود ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾، آخر العقوبتين ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ قال : ليقبحوا وجوهكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قال : كما دخل عدوهم قبل ذلك، ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ قال : يدمروا ما علوا تدميرا ، فبعث الله، عليهم فى الآخرة بختنصر البابلى المجوسى أبغض خلق الله إليه فسبى وقتل وضرب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب (٢).

وهذا الرأى المروى عن ابن عباس، وقتادة فى المسلط عليهم فى المرة الأولى هو الذى نميل إليه، وسنفصل القول فيه بعد قليل.

وإلى هنا نكون قد ذكرنا أشهر أقوال المفسرين فى المسلط على بنى إسرائيل فى مرتى إفسادهم، وناقشناها ، وضعفنا ما يستحق التضعيف منها، ورجحنا ما يستحق الترجيح، وقد تركنا ذكر بعض الأقوال؛ لضعفها الشديد، واضطرابها الظاهر.

---

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٣ .

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٣ .

هذا ، وقبل أن نبدأ فى بيان الرأى الذى نختاره ، نسوق بين يديك تلك المقدمات الهامة فنقول:

١ ـ **المقدمة الأولى** : تتلخص فى أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل فى مرتى الإفساد، الذى قاموا به ، وإلا لذكره المفسرون فى كتبهم.

٢ ـ **المقدمة الثانية** : تتلخص فى أن الإفساد في الأرض قد حدث من بنى إسرائيل كثيراً ، وأن المقصود من قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ . إنما هو أظهر مرتين حدث فيهما الإفساد منهم ، ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم، وأنهم عوقبوا عقب كل مرة ، قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ كذلك مما يدل على أن التسليط عليهم مستمر إلى يوم القيامة بسبب كفرهم وفسوقهم قوله تعالى ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾.

٣ ـ **المقدمة الثالثة** : الرجوع إلى التاريخ الصحيح هو الذى يفيدنا فى بيان المقصود من مرتى الإفساد اللتين قضى الله بهما إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، وفى بيان المراد من العباد الذين سلطهم عليهم عقب إفسادهم الأول والثانى.

٤ ـ **المقدمة الرابعة** : قد اختلفت أنظار المؤرخين والمفسرين فى المقصود من مرتى إفسادهم ، وفيمن سلطه الله عليهم ، على حسب ما يتراءى لكل ناظر ، فيما حدث من بنى إسرائيل من فساد ، وما رتبه الله عليه من عقوبات.

٥ ـ **المقدمة الخامسة** : ملخصها : أن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها ، وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكم عبارة وذلك فى قوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾.

ولاشك أن هذه السُّنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل فى كل زمان ومكان.

ومادام هذا هو المقصود من سياق الآيات ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى إفسادهم، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة.

ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام ابن كثير : « وفيما قص الله علينا فى كتابه

غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليها ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا ، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم ، وقهرهم جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء »[١] .

وقول الإمام الرازى : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواما آخرين قتلوهم وأفنوهم »[٢] .

وقول أبى حيان فى البحر : « أعْلَمَ الله بنى إسرائيل فى التوراة أنه سيقع منهم عصيان وكفر للنعم ، وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك ، ويجعل لهم الكرة ، ويردهم إلى حالهم الأولى من الظهور فتقع منهم المعاصى ، وكفر النعم والظلم والقتل والكفر بالله من بعضهم ، فيبعث الله عليهم أمة أخرى تخرب ديارهم ، وتقتلهم وتجليهم جلاء مبرحا ، ودل الوجود بعد ذلك على هذا الأمر »[٣] .

بعد هذه المقدمات الخمس التى سقناها نعود إلى إثبات الرأى الذى نختاره فى بيان : المراد من العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل عقب المرة الأولى والثانية فنقول :

(١) الرأى الذى نختاره هو : أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم فى الأرض ، هم جالوت وجنوده - كما يراه المحققون من أهل التفسير - ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى .

أولا : ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة عند عرضه لقصة القتال، الذى دار بين (طالوت) - قائد بنى إسرائيل - وبين (جالوت) قائد أعدائهم، يدل على أن بنى إسرائيل كانوا مثل ذلك مقهورين مهزومين من اعدائهم ،ويتجلى هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ .

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ يدل دلالة قوية على أنهم قبل قتالهم لجالوت كانوا قد هزموا على

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥ .
(٢) تفسير الإمام الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٦ .
(٣) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ٩ .

أيدى أعدائهم هزائم منكرة، اضطروا معها إلى الخروج من ديارهم ومفارقة أبنائهم.

ثانيًا : صرح بعض المفسرين بأن الأعداء الذين أخرجوا بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم هم قوم جالوت ، وأنهم كانوا قد غلبوا بنى إسرائيل، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وذلك قبل أن تعود الكرة لبنى إسرائيل عليهم بقيادة طالوت.

قال الإمام الآلوسى : « وكان سبب طلب بنى إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا فى سبيل الله ، أن أعداءهم العمالقة قوم جالوت ، ظهروا عليهم ، وتغلبوا على كثير من بلادهم، وضربوا عليهم الجزية »[1] .

ثالثًا : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ صريح فى أن الله ـ تعالى ـ نصر بنى إسرائيل بعد أن تابوا وأنابوا على أعدائهم الذين قهروهم وأذلوهم وجاسوا خلال ديارهم.

وهذا المعنى ينطبق على ما قصَّه القرآن الكريم علينا من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده ، ومن أن داود قد قتل جالوت ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا ـ أى بنو إسرائيل ـ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ .

ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل ، لأنه أتاهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم ، ولا شك أن النصر فى هذه الحالة أدعى لطاعة الله ـ تعالى ـ وشكره على نعمه.

رابعًا : قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم داود وابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ لبنى إسرائيل ، ففى هذا العهد ـ عهد داود ثم سليمان ـ الذى دام زهاء ثمانين سنة، ازدهرت مملكتهم، وعز سلطانهم ، وأمدهم الله خلاله ، بالأموال الوفيرة، وبالبنين الكثيرة، وجعلهم أكثر من أعدائهم قوة وعددا.

---

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ٢ ص ١٤١ بتصريف وتلخيص.

أما بعد هذا العهد فقد انقسمت مملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا ، ومملكة إسرائيل ، واستمرتا فى صراع ونزاع وتدهور حتى قضى الآشوريون على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق م،وقضى بختنصر على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م . وتاريخهم بعد ذلك ما هو إلا سلسلة من المآسى والنكبات والعقوبات التى حلت بهم من الشعوب المختلفة،فى شتى مراحل التاريخ،بسبب فسادهم وإفسادهم فى الأرض.

وقد تكلمنا على ذلك بتوسع أكثر عند حديثنا على المقصد الأول .

وإلى هنا لعلنا نكون قد اهتدينا إلى الصواب فى تدعيم الرأى الذى اخترناه وقال به المحققون من المفسرين ، وهو أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض هم جالوت وجنوده .

(ب) أما المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض ، فيرى جمهور المفسرين، أنهم البابليون بقيادة (بختنصر) وقد عرفنا قبل ذلك أن بختنصر غزا بنى إسرائيل ثلاث مرات الأولى سنة ٦٠٦ ق م . والثانية سنة ٥٩٩ ق م ، والثالثة سنة ٥٨٨ ق م ، وفى هذه المرة الثالثة، قتل الآلاف منهم،وهدم هيكلهم، وساق الأحياء أسارى إلى بابل، كما فصلنا الحديث عن ذلك فى المقصد الأول.

وهذا الرأى الذى قاله جمهور المفسرين ، ليس ببعيد لما ذكرنا من تنكيله بهم . إلا أننا نؤثر على هذا الرأى ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى هم الرومان بقيادة (تيطس) لأمور أهمها.

أولا : أن الذى تتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل الرومان بهم ، أشد وأكبر من رذائلهم التى سبقت إذلال (بختنصر) لهم،وبالتالى كان تسليط الرومان عليهم أنكى وأقسى فهم على سبيل المثال قبيل بطش الرومان بهم بقيادة (تيطس) كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - واتخذوا لذلك كافة السبل ، ولكنهم لم يفلحوا لأسباب خارجة عن إرادتهم ، وكانت الرذائل والمنكرات قد فشت فيهم ،مما أدى إلى لعنهم[1] على لسان عيسى - عليه السلام - بسبب ذلك ،

---

(١) جاء لعن عيسى لهم فى قوله تعالى فى سورة المائدة ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى وابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾.

فكانت ضربات الرومان القاصمة لهم ، والهادمة لكيانهم ، عقابًا مناسبًا لهم من الله - تعالى - نتيجة عصيانهم لأوامره ، واعتدائهم على خلقه ،وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه.

ثانيًا : المفسرون يذكرون أن تسليط الله عليم (بختنصر) في المرة الثانية من مرتى إفسادهم كان من أسبابه قتلهم ليحيى - عليه السلام - وقد بينا قبل ذلك مرارا أن بختنصر كان سابقا على يحيى في الزمن بأكثر من خمسة قرون، والذين كانت أورشليم تحت سيطرتهم في عهد يحيى - عليه السلام - هم الرومان ، وقد قتل بنو إسرائيل يحيى - عليه السلام - في عهدهم ، كما قتلوا أباه زكريا - عليه السلام - في عهدهم كذلك.

وإذًا :فما ذكره المفسرون من أن الله - تعالى - سلط عليهم بختنصر بعد إفسادهم الثاني بسبب قتلهم يحيى - عليه السلام - ينبطق على عهد الرومان ، لأنه كان معاصرًا لهم . ولا ينطبق على عهد بختنصر ، لأنه قبل يحيى بأكثر من خمسة قرون كما ذكرنا.

ثالثًا : ضربات الرومان - في ذاتها - كانت أشد وأقسى على بني إسرائيل من ضربات (بختنصر) لهم ، فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة (تيطس) بلغ مليون قتيل، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير - كما يقول المؤرخون[1] - بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد (بختنصر) كان أقل من هذا العدد بكثير، ولقد وصف المؤرخون النكبة التي أوقعها (تيطس) باليهود ، بأوصاف تفوق بكثير ما وصفوا به ما أوقعه (بختنصر) بهم.

يقول أحد الكتاب واصفًا ما حل باليهود على يد (تيطس) : « كان (تيطس) في الثلاثين من عمره ، حينما وقف سنة ٧٠ م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه . وبدأت المدينة تعاني أهوال الحصار، وتقاسي في الوقت نفسه هولا أكبر ، هو هول الحرب الأهلية ، فقد احتل المتعصبون والمتطرفون ورجال العصابات من اليهود بعض أحياء المدينة ، وأخذوا يشنون هجمات وحشية على أحيائها الأخرى، حتى جرت الدماء في الطرقات . وسرت المجاعة اليهودية . فكانوا يخرجون على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة ، تسبقهم الشائعات بأنهم قد ابتلعوا ذهبهم

---

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٦ .

فى بطونهم فكان الجنود يفتحون بطونهم بعد قتلهم بحثا عن الذهب .. وبعد أن اقتحم (تيطس) وجنده المدينة أصدر أمره إليهم أن احرقوا وانهبوا واقتلوا فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم ـ وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ حين قال : « ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا وسيحل الغضب على أهلها . وسيسقطون صرعى على حد السيف ويسيرون عبيدا إلى كل مصر ، وستطأ أورشليم الأقدام » (١) .

رابعًا : النكبة التى أنزلها الرومان بقيادة (تيطس) باليهود ـ من حيث آثارها ـ أشنع بكثير من النكبة التى انزلها بهم (بختنصر) لأنه بعد تنكيل بختنصر بهم، وسجنهم فى أسره زهاء خمسين سنة ، عادوا إلى أورشليم مرة أخرى بمساعدة (قورش) ملك الفرس ، وبدأوا يتكاثرون من جديد . أما بعد تنكيل الرومان بهم ، فلم تقم لهم قائمة، ومزقوا فى الأرض شر ممزق ، وانقطع دابرهم كأمة ، وقضى على كيانها كدولة ، أو ما يشبه الدولة ، ولقد وصل الحال بالرومان أنهم فى سنة ١٣٥ م دمروا أورشليم تدميرا تاما وحرثوا أرضها وخلطوها بالملح حتى لا ينبت بها الزرع ، وأقام الإمبراطور الرومانى (أدريانوس) مكان الهيكل اليهودى هيكلا وثنيا باسم الإله المشترى ، إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعد، وبقى هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية فى أورشليم ،فدمره المسيحيون من أساسه فى عهد الإمبراطور قسطنطين . وقد صرح بهذا المعنى صاحب (تاريخ الإسرائيليين) حيث قال بعد وصفه لما أوقعه (تيطس) بهم : « إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فإنهم بعد خراب أورشليم كما تقدم ، تفرقوا فى جميع بلاد الله، وتاريخهم فيما بقى من العصور ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها ... » (٢) .

وإذًا : فما أنزله (تيطس) ومن بعده من الرومان باليهود يعتبر ـ فى رأينا ـ أشد وأقسى ـ فى ذاته وفى آثاره ـ مما أنزله بختنصر بهم، بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا : إن ضربة (تيطس) الرومانى لهم هى أكبر عقوبة حلت بهم منذ موت سليمان ـ عليه السلام ـ سنة ٩٧٥ ق م حتى أواخر القرن الأول الميلادى .

---

(١) من مقال للأستاذ عمر طلعت زهران عنوانه (تدمير أورشليم) نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢١ ص ٤٧ .

(٢) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ .

ولهـذه الأسـبـاب نرجح أن يكون المراد بالعـبـاد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل عقب إفسادهم الثانى فى الأرض هم الرومان بقيادة (تيطس) .

ومع ترجيحنا بأن المسلط عليهم فى المرة الأولى هم جالوت وجنوده ، وفى المرة الثانية هم الرومان بقيادة (تيطس) ... مع ترجيحنا لذلك إلا أننا نعود فنكرر ما قلناه سابقا، وهو :أن المقصود من الآيات الكريمة إنما هو بيان سنة من سنن الله الكونية فى الأمم حال صلاحها وفسادها.

فالأمة التى تطيع خالقها، وتباشر الأسباب السليمة فى الوصول إلى حقوقها ، وتتبع الطريق المستقيم فى سلوكها ، ينصرها الله فى دنياها ، ويسعدها فى آخرتها، قال تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (١). أمـا الأمـة التى تتكبر فى الأرض ، وتستحب العمى على الهدى، وتصم آذانها عن سماع كلمة الحق والعدل ، وتعتدى على من يحاول إرشادها وتقويمها ... ثم بعد كل ذلك لا تأخذ بأسباب القوة فى حياتها، ولا يقدر أفرادها مسئوليتهم كما يجب، وينبغى فإن هذه الأمة مصيرها إلى الاضمحلال والهوان.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (٢).

المقصد الرابع

رأى جديد فى تفسير الآيات الكريمة :

ذكرنا خلال حديثنا عن مرتى إفساد بنى إسرائيل فى الأرض ، وعن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول والثانى، بعض الأقوال التى قالها المفسرون فى هذا الشأن، وبينا نحن رأينا فى ذلك . والذى يراجع ما كتبه المفسرون عن هذه الآيات الكريمة يجد أنهم متفقون على أمرين:

الأول : أن مرتى إفساد بنى إسرائيل فى الأرض كانتا قبل الإسلام.

---

(١) سورة غافر: الآية ٥١.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

الشـــانى : أن العباد الذين سلطهم الله عليهم ليذلوهم عقب إفساهم الأول والثانى كانوا ـ أيضا قبل الإسلام وخلاف المفسرين إنما هو فيما سوى هذين الأمرين.

ولكن أحد العلماء كتب مقالا(١) فى تفسير الآيات الكريمة خالف فيه إجماع المفسرين، إذ ذهب إلى :« أن هاتين المرتين لم تكونا قبل البعثة، وإنما هما فى الإسلام. وأن المرة الأولى كانت على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، والآخرة هى التى نحن فيها... ».

ولأجل أن يفهم القارىء هذا الرأى بأدلته على الوجه الأكمل رأينا أن نثبت مقاله بنصه.

قال فضيلته : قال الله عز وجل :﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أطبق المفسرون على أن ذلك الفساد والإفساد وقع منهم مرتين : فى الماضى قبل الإسلام، أيام أن علوا وغلوا وقتلوا الأنبياء، وكذبوا المرسلين، وان اختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافا كبيرا فى تحديد نوع إفسادهم الأول وزمنه والمسلط عليهم فيه وكذلك فى الثانى.

والذى يعنينى أن أكشف عنه، وأن أثبته فى هذا البحث أمران :

الأول : أن هاتين المرتين لم تكونا قبل البعثة وإنما هما فى الإسلام.

الثانى : أن المرة الأولى كانت على عهد رسول الله وأصحابه، والآخرة هى التى نحن فيها الآن والتى سنسوء فيها وجوههم ، وندخل المسجد كما دخلناه وندمر فيها ما علوا تدميرا ، إن شاء الله رب العالمين.

---

(١) كاتب المقال هو فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الستار، وعنوان المقال : (سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل) وقد نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢٨ ص ٦٨٩ .

وأبادر فأطمئن الذين يهولهم هذا التخريج فيرونه مخالفًا للمأثور، أوالمعروف من أقوال المفسرين، إلى أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شيء ، وإلى أن المأثور عن بعض الصحابة مضطرب لا تقوم به حجة ، وإلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تاريخا أو تأويلا، لا يقال فى مخالفته إنه تحريف للكلم عن مواضعه ، وأعود لإثبات الأمر الأول فأقول :

الحديث عن الإسراء تبشير وإنباء بمستقبل :

الثابت أن الإسراء وقع لرسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة، فإن سورة الإسراء أنزلت كذلك، فهى مكية إلا آيات معلومات ؛ وقد كان المسلمون يومئذ بمكة قليلا مستضعفين فى الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس ، فلم يكن لبنى إسرائيل يومئذ صلة، ولا شأن مع المسلمين ، ولم يكن لهم أثر بمكة ولا خطر يقتضى أن يتحدث الله عنهم فى سورة مكية بمثل هذا التفصيل.

فما السر فى أن يخبر الله عن إسرائه برسوله ﷺ فى آية واحدة أول السورة ، ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخرها ، ويبدأ الحديث عن بنى إسرائيل، وما أنعم عليهم وعهد إليهم، وعن دور خطير يكون لهم.

وما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث ؟ السر فى ذلك: أن الله عز وجل يحدث عن الإسراء بمقدار ما يبشر نبيه والمسلمين المضطهدين بمكة المستضعفين فى الأرض، بأن أمرهم سيمتد ويعلو وشيكا، حتى تدين لهم عاصمة الشرك وعاصمة أهل الكتاب ، فهو سبحانه يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ لم يقل من مكة إلى بيت المقدس كما هو الحال إذ الكعبة يومئذ لم تكن مسجدا، وإنما كانت بيتا تقوم حولة الأصنام ويطوف به العائدون والمشركون، ولم يكن هيكل داود وسليمان فى دولة يهوذا وإسرائيل مسجدا ، وإنما كان بيتا يأكل بنو إسرائيل من حوله السحت، ويعيثون الفساد.

ولكن الله عز وجل حدث عن هذا الإسراء بأنه: انتقال من مسجد إلى مسجد تبشيرا للمسلمين بأن أمرهم سيعلو ويتم، بحيث يصبح البلد الذى استضعفوا فيه وهانوا أوحلت حرماتهم فيه مسجدا حراما، ودار أمن وإسلام ، ليس هذا فحسب بل سيمتد نفوذه وضياؤه بحيث يصل عاصمة أهل الكتاب، ويصبح هيكل داود وسليمان لهم مسجدا أقصى كذلك، فهم أولى به : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ .

وهنا يتضح الجواب ويظهر وجه المناسبة بين قوله تعالى : ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ .. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ وبين آية الإسراء الأولى.

فقد اتصل الحديث وإن انتقل الكلام من الإنباء بمصير الهيكل إلى الإنباء عن مصير أهله :

سورة بني إسرائيل : وبحق ما سميت سورة الإسراء سورة بنى إسرائيل فإنها أحق بهذه التسمية، وأجدر؛ لأنها لم تحدث عن الإسراء إلا بمقدار ما بشرت بصيرورة الكعبة والهيكل للمسلمين، حرما ومسجدا ثم اتصل الحديث ببنى إسرائيل وخطبهم مع المسلمين بعد ، فقال تعالى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فإذا لاحظنا أن الله عز وجل لم يحدث عن بنى إسرائيل فى سورة مكية إلا بمقدار ما تساق العبرة من مواقفهم من موسى ووصاياه ، وموقفهم من فرعون وجنوده، وحدث عنهم فى السور المدنية كثيرا فسجل لهم ضروبا من الفساد والإفساد ، فحدث عن نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم، قلوبنا غلف ، وحدث عن ظلمهم، وصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل.

وحدث الله عن اعتدائهم فى السبت، وحذرهم الموت وسكوتهم على المنكر واشتراءهم بآيات الله ثمنا قليلا،وحدث عن قتلهم أنفسهم وإخراجهم فريقا من ديارهم يتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان،وقولهم: ليس علينا فى الأميين سبيل .

الإفساد مرتين : فإذا لاحظنا هنا أن الله ينص على أنه قضى أنهم يفسدون فى الأرض مرتين، فإذا جاء وعد أولاهما كان كذا ، وإذا جاء وعد الآخرة كان كذا .. دل ذلك على أن المرتين غير ما سبق أن سجل لهما ، وأنهما يقعان فى المستقبل بالنسبة لمن أنزل عليه الكتاب ﷺ ، لأن الحديث من أوله تبشير وإيماء لمستقبل ، فذلك من الإنباء بالغيب، والإخبار بما لم يقع ، وإلا فهم أفسدوا من قبل سبعين مرة، فالمرتان المعنيتان فى الآية وقعتا بعد ، وقد أكد ذلك إعجاز القرآن الكريم وصدق ما جاء به محمد ﷺ .

أولاهما : قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ إلخ . لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذى قاموا به على عهد النبى ﷺ وأصحابه وما عاقبهم الله به وسلط عليهم فيه.

فهم أفسدوا فى الأرض، ونقضوا عهد الله ورسوله ، وكان ﷺ قد عاهدهم أول ما وصل المدينة :« أنهم أمة مع المسلمين، للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم . وأن بينهم النصر والأسوة والبردون الإثم غير مظلومين ولا مفاخر عليهم . وأنهم على من حارب أهل هذه المعاهدة أو داهم يثرب » .. إلخ .

رغم هذه الرعاية والمصافاة والمساواة انطلقوا بالبغى والمكر والفساد فى الأرض، يشككون فى شخص النبى ﷺ ونزاهته ورسالته ، ويفتون المشركين أنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا .

ويفتحون دورهم وصدورهم لأعداء النبى ﷺ ويدلونهم على عورات المؤمنين، وبلغ من أمرهم أن همّوا بقتل الرسول ﷺ وأن هيجوا قريشا وغطفان حتى حصروا المدينة للقضاء على رسول الله، ودعوته وأتباعه ، وانضموا لهم ونقضوا عهد الله ورسوله فى ساعة العسرة، ويوم الأحزاب ، فسلط الله عليهم عباده المؤمنين ،فأجلوا بنى النضير وقتلوا بنى قريظة وسبوهم ثم فتحوا خيبر ثم مَنَّ عليهم الرسول فاستبقاهم عملاء حتى أجلاهم عمر فى خلافته ، وكان وعدا من الله للمؤمنين بالتمكين، وقد فعل. هذه هى المرة الأولى لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ .

(أ) فهم الذين يستحقون شرف هذه النسبة ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ لأنهم الموحدون أتباع عبده الذى أسرى به . أما أتباع بختنصر أو سابور أو صحابين أو سنحاريب إلخ. ما اضطربت فيه أقوال المفسرين ، فقد كانوا عباد وثن لا يستحقون شرف الاختصاص بالله فى قوله: ﴿ لَّنَا ﴾ .

(ب) وهم الذى وصفهم الله فى كتابه بأنهم:﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

(جـ) وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ . أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قتل على دم زكريا وحده سبعين ألفا ، وأنه دخل المقدس فى أهله وسلب حليه إلخ ، فهو اجتياح وليس جوسا .

رد الكرة : قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ... ﴾ ردت لليهود الكرة علينا بعد ألف وثلثمائة : ونيف وسبعين سنة من تأديب الله لهم منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله، فجاسوا خلال الديار .

بعد هذه المدة ـ التى أشار الله سبحانه لطولها بقوله ﴿ ثُمَّ ﴾ التى تقتضى فى

العطف تراخيا فى الأجل ـ ردت لليهود الكرة،؛ وأمدوا بثلاث ما أمدوا بمثلها فى تاريخهم:

١ ـ بأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض على ما أرادوا من صعبه أو سهله.

٢ ـ بنين مهاجرين ومقاتلين ينتخبون لحماسهم وصلاحيتهم لبناء دولتهم.

٣ ـ وجعلناكم أكثر نفيرا : ولم يكن اليهود فى يوم ما أكثر نفيرا وناصرا منهم اليوم ، ولم يتمتع اليهود فى تاريخهم ، ولا أمة فى الأرض غيرهم بمثل ما يتمتعون به من كثرة الناصر لهم والنافر لنجدتهم : إذا غضبوا غضبت لهم أمريكا وانجلترا وفرنسا وأمم الغرب جميعا ، وأن دعوا أجابهم للظالمون وتنادوا لنصرتهم ، لقد اتفق الشرق والغرب ـ ولم يتفق يوما ـ على إنشاء إسرائيل وتقسيم فلسطين ، وسكتوا ـ ولم يسكتوا يوما ـ على مأساة اللاجئين والمنكوبين والمشردين.

كل هذه الأوصاف تؤكد أن الدور الذى نعانيه اليوم هو الكرة المعنية فى الآية ، وكل ما ذكره المفسرون بعيد لا تنطبق عليه هذه الصفات.

فرصة للاختبار : قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ . بعد أن قرر سبحانه أنه سيرد لليهود الكرة ، قرر أنها فرصة لهم؛ ليختاروا لأنفسهم وليرسموا نهايتهم ، فللذين أحسنوا الحسنى، وللذين أساءوا السوآى ، ثم قرر سبحانه أنهم لن ينفكوا عن فسادهم وإفسادهم ،فقرر بعد ذلك على الفور عاقبة أمرهم لأنها معروفة محتومة فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ .

يقرر الله عز وجل : أنهم لن يستقبلوا النعمة بالشكر، ولا الكرة بالذكر، والانتهاء عن الفساد .وإنما سيعاودون فسادهم الموروث على نحو يدخلهم فى شديد مقت الله ،ونقمة عباده بما يبعد أن تدركهم عند ذلك رحمته، فيقول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ سلطنا عليكم عبادنا الأولين الذين دخلوا المسجد ،ثم ردت لكم الكرة على خلائفهم ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ بما ترون من مصارعكم ومصارع أحلامكم وما تعاينون من سوء المنظر فى المال والأهل والولد﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ دخول العزيز الظاهر ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ظافرين منصورين ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ تدميرا.

وذلك دورنا المرتقب وعملنا الذى نرجو أن يشرفنا الله به فى القريب، فإننا

لنطمع أن يعذبهم الله بأيدينا ويخزهم وينصرنا عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين ...

وقد قرر سبحانه أنه سيجمعهم ألفافا لنبيدهم، فقال : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ .

بشرى للمؤمنين :يؤكد هذه النهاية ويبشر بقرب وقوعها قوله تعالى ﴿ فإذا جاء ﴾ .

١ ـ فإن العطف بالفاء يقتضى الترتيب مع التعقيب ،، فالوعد واقع قريبا بعد هذه الكرة .

٢ ـ والتعبير ﴿ بإذا ﴾ يدل على تحقيق المجىء لا محالة .

٣ ـ وبشائر النصر التى تحدونا أولا وأخيرا فى هذه السورة .

قال تعالى بعد هذه الآيات :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. ﴾ وقال تعالى فى آخر السورة ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ... ﴾ .

تعليقنا على المقال

إن الذى يقرأ هذا المقال يتبين له أن كاتبه يرى أن المراد من : ﴿ الْكِتَابِ ﴾ فى قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ... ﴾ هو القرآن الكريم، لا التوراة .

فقد قال تحت عنوان (الإفساد مرتين) :

« فإذا لاحظنا هنا أن الله ينص على أنه قضى أنهم يفسدون فى الأرض مرتين ، فإذا جاء وعد أولاهما كان كذا، وإذا جاء وعد الآخرة كان كذا .. دل ذلك على أن المرتين غير ما سبق أن سجل لهما : وأنهما يقعان فى المستقبل بالنسبة لمن أنزل عليه الكتاب ﷺ ... فذلك من الإنباء بالغيب بما لم يقع .. إلخ » .

وهذا الفهم الذى ذهب إليه فضيلته ـ من أن المراد بالكتاب هو القرآن ـ لا يمكن أن ينساق إلى ذهن من يقرأ الآيات الكريمة بتدبر، لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ ثم يقول سبحانه بعد ذلك ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. ﴾ .

فالكتاب فى الآية الثانية ، يقصد به عين الكتاب فى الآية الأولى، وهو التوراة التى آتاها الله - تعالى - موسى - عليه السلام - وجعلها هدى لبنى إسرائيل.

وهذا المعنى المتبادر من الايات ، والذى لا يمكن أن يفهم المتأمل فى كتاب الله غيره ، قد أجمع عليه المفسرون، وقليل منهم أضاف إلى ذلك انه يجوز أن يراد به اللوح المحفوظ، وقد بينا فى المقصد الثانى فائدة إخبار الله بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين.

وبإثباتنا أن المراد بالكتاب فى قوله - تعالى - ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ هو التوراة ، نكون قد هدمنا أساس رأيه من أن المراد به هو القرآن، وهدمنا ما بناه على هذا الرأى من أن مرتى الإفساد فى الإسلام ، وأن ذلك من الإنباء بالغيب الذى يكون فى المستقبل بالنسبة لنزول الآية الكريمة على النبى ﷺ ...

ثم لنا بعد ذلك تعليقات يسيرة على بعض ما جاء فى هذا المقال منها:

أولا : يقول فضيلته: « ما السر فى أن يخبر الله عن إسرائه برسوله ﷺ فى آية واحدة أول السورة ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخر السورة ، ويبدأ الحديث عن بنى إسرائيل وما أنعم عليهم وعهد إليهم ، وعن دور خطير يكون لهم، وما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث ... إلخ.

ونحن نقول : إن الله - تعالى - ما ذكر الإسراء إلا ليكون آية من الآيات التى دل بها على صدق رسوله ﷺ فى نبوته ورسالته ، وقد اتخذ المشركون من آية الإسراء مثارا لتشكيك من فى قلوبهم مرض فى رسالة النبى ﷺ وصدقه فى نبوته ، كما اتخذوها ذريعة للسخرية برسول الله ﷺ ومن آمن به ، فالله - تعالى - يقول لهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ويصدون عن سبيل الله من آمن ، ويهزأون برسوله الكريم ﷺ إنْ لم تنتهوا عن إثارة الفساد فى الأرض،ووضع العراقيل أمام الدعوة المحمدية ، ليصيبنكم ما أصاب بنى إسرائيل قبلكم ،حين عاثوا فسادا فى الأرض مرتين، وعلوا علوا كبيرا ، فقد سلط الله عليهم بعد كل من المرتين من يسومهم سوء العذاب ، ومن يجوس خلال ديارهم بالقتل والتخريب.

ثم يعود - سبحانه - إلى الحديث عن القرآن الكريم، وعن الدعوة المحمدية وما فيها من نور وهداية، توصل إلى الفلاح في الدنيا والسعادة فى الآخرة فيقول - سبحانه - : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ

الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

والقارىء للسورة الكريمة بعد ذلك يرى فيها عرضا لمقاصد القرآن الكريم، وما احتوى عليه من أخلاق وآداب، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ﴾.

ثم يوبخ - سبحانه - هؤلاء المشركين بقوله : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ .

ثم بعد ذلك يثبت رسوله ﷺ ويأمره ألا يستمع لهؤلاء المشككين الذين يريدون زحزحته عن الحق إلي الباطل فيقول : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

ويجعل - سبحانه - من القرآن الكريم الآية الكبرى على صدق رسوله ﷺ بقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

ثم يذكر - سبحانه - مقترحاتهم على رسوله ﷺ بطلبهم آيات خاصة تدل على صدقه فى نبوته غير مكتفين بالقرآن الكريم فيقول : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ .. إلى قوله تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ .

وفى ختام هذه السورة يبين الله - تعالى - لرسوله ﷺ سنة من سننه، التى مضت فى الأولين وهو أنه - سبحانه - ينصر أهل الحق، ويدمر أهل الباطل ، فقد آتى موسى تسع آيات بينات فكفر بها فرعون، وتمادى فى طغيانه، فأغرقه الله واستخلف من بعده بنى إسرائيل فى الأرض ، ليبين للمشركين الذين يستكبرون عن قبول الحق بأن مصيرهم مصير فرعون إن هم تمادوا فى هذا السلوك المعوج.

ثم يختم السورة ببيان شأن القرآن الكريم، فيقول : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا. قل آمنوا به أو لا تؤمنوا .. ﴾ الآية .

ومن هذا العرض الموجز لمقاصد السورة يتبين لك: أن الحديث فيها مسوق لإثبات نبوة رسول الله ﷺ وحقيقة ما أنزل عليه من القرآن الكريم، وأن الذين يقترحون غيره من الآيات ما تأملوه وما عرفوه حق المعرفة ، وأنهم إذا استمروا فى هذا الإعراض فسيصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم، وكذلك ما أصاب بنى إسرائيل بعد فسادهم ،وإفسادهم فى الأرض مرتين.

ثانياً : ما قاله فضيلته « من أن الآيات مكية،والمسلمون بمكة كانوا مستضعفين فلم يكن لبنى إسرائيل يومئذ صلة ولا شأن مع المسلمين، ولم يكن لهم أثر بمكة يقتضى أن يتحدث الله عنهم فى سورة مكية بمثل هذا التفصيل .... إلخ ».

هذا القول نوافقه فيه على أن الآيات مكية، وأن المسلمين بمكة وقت نزولها كانوا مستضعفين فى الأرض ، إلا أننا نخالفه فيما ذهب إليه من أنه لم يكن لبنى إسرائيل صلة بالمسلمين تقتضى أن يتحدث الله عنهم بمثل هذا التفصيل.

ومن أسباب مخالفتنا له : أن عدم وجود الصلة التجارية أو السكنية بين مسلمي مكة واليهود ، وعدم وجود الأثر أو الخطر ، لا يقتضى أن يترك القرآن الكريم الحديث عن بنى إسرائيل بالتفصيل ، إذ هناك ما هو أهم من كل ذلك ، وهو تشابه موقف أهل مكة واليهود من الدين والحق ، فكلاهما قد وقف من الرسالات السماوية موقف الجاحد العاصى، فبين القرآن الكريم لأهل مكة، أن الله - تعالى - قد أنزل التوراة على موسى لهداية بنى إسرائيل، ولكنهم لم يعملوا بها، بل أفسدوا فى الأرض ، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ، وقد ترتب على ذلك أن سلط الله عليهم من يذلهم بسبب قسوتهم عن أمر الله، فإذا ما سار أهل مكة على هذا الطريق المعوج الذى سار عليه بنو إسرائيل بعد أن جاءهم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، فسيصيبهم من العقاب ما أصابهم.

وهذا التفصيل الذى تحدث القرآن الكريم به هنا عن بنى إسرائيل ، قد جاء ما هو أطول منه بكثير فى سور مكية أخرى ، كسورة الشعراء ، والأعراف، وطه ، والقصص ، وغير ذلك من السور المكية التى تحدثت عنهم باستفاضة.

وإذاً: فهناك مقتض لهذا الحديث المفصل عن بنى إسرائيل فى سورة الإسراء المكية، وهو تماثل موقف أهل مكة وبنى إسرائيل من الدين الحق ، ومخالفة الفريقين لشريعة سماوية عامة خالدة هى شريعة الإسلام ، لا لقانون وضعى ؛ أو لعرف دنيوى، وتبشير للمسلمين بحسن العقبى ، لاستجابتهم لله ولرسوله ﷺ.

ثالثـــا : «قال فضيلته : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَـا... ﴾ لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذى قاموا به على عهد النبى وأصحابه وما عاقبهم الله به ، وسلط عليهم فيه ...» الخ.

ونحن لا نوافقه فيما ذهب إليه للأسباب الآتية:

(أ) الذى عليه المفسرون أن المراد بالأرض فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. ﴾ هى أرض الشام، التى كان يسكنها اليهود وقت نزول التوراة ، وليس المراد بها: أرض الجزيرة العربية، كما ذهب فضيلته ، لأنها لم تكن سكنا لهم عند نزول التوراة.

(ب) نحن لا ننكر أنهم حصل منهم إفساد فى عهد النبى ﷺ ولكن هذا الإفساد كان دون ما قاموا به من إفساد قبل ذلك بدليل أن الله ـ تعالى ـ قد نعى عليهم فى القرآن الكريم رذائل كثيرة اقترفوها ، منها أنهم قتلوا قبل بعثة الرسول ﷺ بعض أنبياء الله ، كزكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وحاولوا قتل عيسى ـ عليه السلام ـ واتخذوا لذلك كافة الطرق والوسائل، إلا أنهم لم يفلحوا فى مسعاهم لأسباب خارجة عن إرادتهم.

وإذًا : فإفسادهم فى الأرض قبل بعثة النبى ﷺ كان أشد وأفحش من إفسادهم بعد بعثته ﷺ.

(جـ) إفسادهم فى الأرض فى عهد النبى ﷺ وأصحابه ، كان يأخذ فى غالبه طابع النفاق والمخادعة، وعدم المجاهرة به؛ خوفا من المسلمين، أما إفسادهم قبل ذلك فكان يأخذ طابع الظلم الصريح، والعصيان الواضح، والطغيان المتعمد ، كما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

وهذا يدل على أن المقصود بإفسادهم فى الأرض مرتين ، ما كان منهم قبل بعثة النبى ﷺ.

(د) الآية الكريمة تقول : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وهذا العلو الكبير الذى وصفتهم به الآية الكريمة ، لا ينطبق على حالهم فى عهد النبى ﷺ ولا فى عهد أصحابه ، لأن اليهود فى هذه الفترة كانوا يمثلون جزءا من اليهود المنتشرين فى الأرض ، وبلغ بهم ضعف الحال أن بعضهم انضم إلى طائفة الخزرج ، وبعضهم انضم إلى طائفة الأوس ، فإذا ما حصل قتال بين الطائفتين، قاتل حلفاء الخزرج من

اليهود إخوانهم، المنضمين إلى الأوس ؛ وقاتل حلفاء الأوس من اليهود أبناء عمومتهم حلفاء الخزرج، وقد بين القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ثم أنتم **هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ...** ﴾.

وإذاً :فقوله تعالى : ﴿ **فإذا جاء وعد أولاهما ..** ﴾ عقب قوله تعالى ﴿ **ولتعلن علوا كبيرا** ﴾ ينطبق على أدوار الفساد الكبيرة، التى قاموا بها قبل الإسلام ، أيام أن طغوا وبغوا وعلوا علوا كبيرا فى الأرض.

(هـ) ما أصابهم من عقوبات فى عهد النبى ﷺ وفى عهد أصحابه جزاء غدرهم ، شيء هين بالنسبة لما أصابهم من عقوبات قبل ذلك على أيدى البابليين والرومان وغيرهم ، لأن ما أصابهم فى العهد النبوى كان ينصب على الجزء الذى يسكن الجزيرة العربية من اليهود بينما العقوبات التى نزلت بهم قبل ذلك على أيدى البابليين والرومان ـ مثلا ـ كانت لجميع اليهود الذين كانوا متجمعين فى منطقة واحدة هى أرض الشام.

ثم إن العقوبات التى أنزلها المسلمون بهم فى صدر الإسلام ، كانت فى أوقات متفرقة، وكانت على قدر إساءة المسيء منهم ـ فمثلا ـ بنو فينقاع كل ما فعله الرسول ﷺ معهم أن أجلاهم عن المدينة بسبب نقضهم لعهودهم . ومع هذا فقد أباح لهم أن يأخذوا الكثير من أموالهم . وبنو النضير ـ أيضا ـ أجلاهم النبى ﷺ عن المدينة لخياناتهم وغدرهم ، وأباح لهم أن يأخذوا من أموالهم كل ما حملته الإبل، سوى السلاح.

وبنو قريظة قتلهم المسلمون ، لأنهم انضموا إلى صفوف الأحزاب فى ساعة العسرة، وخانوا المسلمين فى تلك الأوقات العصيبة . أما يهود خيبر فقد حاربهم النبى ﷺ بسبب تحريضهم للأحزاب على حرب المسلمين، ثم بعد أن تغلب عليهم المسلمون صالحهم الرسول ﷺ بشروط معينة. . .فأين هذه العقوبات المتفرقة المحدودة العادلة التى عاقب بها النبى ﷺ اليهود جزاء تعديهم على المسلمين ، من تلك النكبات العامة المدمرة التى حلت برجال اليهود ونسائهم وأطفالهم وأموالهم قبل ذلك على أيدى الأمم المختلفة كالبابليين والآشوريين والسلوقيين والرومان وغيرهم ، كما فصلنا الحديث عن ذلك فيما سبق(١).

---

(١) راجع ما كتبناه قبل هذا المبحث عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ تاذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ .. الآية .

ومن هذا كله نرى: أن ما قام به اليهود من إفساد فى المرة الأولى، ينطبق على الدور الذى قاموا به قبل الإسلام ، وأن العباد الذين سلطهم الله عليهم لإذلالهم بسبب فسادهم وإفسادهم ،كانوا أيضا قبل الإسلام.

رابعًا : «جزم فضيلته بأن المعاقبين لليهود فى المرة الأولى، لا تنطبق أوصافهم إلا على أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين يستحقون شرف هذه النسبة...وهم الذين لم يكلفهم تاديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار ، أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قتل على دم زكريا وحده سبعين ألفا ... فهو اجتياح وليس جوسا».

ونحن نخالف فضيلته فى ذلك لأمور أهمها:

(أ) أن الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم عباد الله - تعالى - والذين سلطهم الله على بنى إسرائيل لإذلالهم بعد إفسادهم الأول، هم عباد له مع كفرهم.

ومن الأدلة على ذلك قوله - تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (١).

ففى هذه الآية: نسب الله - تعالى - العباد إلى نفسه بصيغة العموم، التى تشمل مؤمنهم وكافرهم ، وهناك آيات أخرى نسب الله فيها العباد جميعا إلى ذاته ، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين.

(ب) يقول فضيلته :« وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار » ولم يبين لنا معنى: الجوس عنده . إلا أن الذى يفهم من كلامه أن الجوس - فى رأيه - معناه، التردد بين الدور والمساكن ،بدون قتال يذكر.

وهذا التفسير للجوس - فى رأينا - يأباه سياق الآيات ، ومخالف للمشهور عن أئمة التفسير واللغة.

أما أنه يأباه سياق الآيات : فإن الآية تذكر أن فسادا كبيرا، وطغيانا عظيما يقع من بنى إسرائيل فى المرة الأولى، من مرتى إفسادهم ، وأنهم بعد ذلك يؤدبون على إفسادهم ،بأن يبعث الله عليهم عبادا له أقوياء، وقد بين الله - تعالى - مهمة هؤلاء العباد فقال: ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ أى: فترددوا بين مساكنكم يا بنى إسرائيل

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٦.

لقتلكم ؛ولسلب أموالكم ،ولتخريب دياركم . وهذا ينطبق على ما نزل باليهود من عقوبات عامة مدمرة قبل الإسلام ،على يد البابليين والرومان وغيرهم ، ولا ينطبق على العقوبات التى أنزلها المسلمون بهم فى العهد النبوى؛ لأنها كانت عقوبات تتسم بالعدالة، إذ لم تتناول إلا من يستحقها منهم.

وأما إنه مخالف للمشهور عن أئمة التفسير واللغة، فى معنى الجوس، فإليك الدليل :

١ ـ قال الإمام ابن جرير :« وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول: معنى جاسوا : قتلوا ، ويستشهد لقوله ذلك ببيت حسان بن ثابت :

ومنا الذى لاقى بسيف محمد   فجاس به الأعداء عرض العساكر

ثم قال : « وجائز أن يكون معناه : فجاسوا خلال الديار، فقتلوهم ذاهبين وجائين » [١] .

٢ ـ وقال صاحب الكشاف : « وأسند الجوس ـ وهو التردد خلال الديار بالفساد ـ إليهم، فتخريب المسجد، وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم »[٢] .

٣ ـ وقال الإمام الفخر الرازى : «قوله تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ قال الليث ، الجوس والجوسان، التردد خلال الديار والبيوت فى الفساد، والديار ديار بيت المقدس. ثم قال الإمام الرازى: واختلفت عبارات المفسرين فى تفسير (جاسوا) فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فتشوا، وقال ابن قتيبة : عاثوا وأفسدوا ، وقال الزجاج : طافوا خلال الديار هل بقى أحد لم يقتلوه ... »[٣].

٤ ـ وقال ابن منظور : (الجوس : مصدر جاس جوسا وجوسانا: تردد . وفى التنزيل العزيز: ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ أى: ترددوا بينها للغارة، وهو الجوسان، وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم .وقال الزجاج : فجاسوا خلال الديار أى : فطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه ..... »[٤].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٢٧.
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٨١.
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٨٢.
(٤) لسان العرب جـ ٢٥ ص ٤٣ . طبعة بيروت.

٥ ـ وقال الزمخشرى : « جاسوا خلال الديار : داروا فيها بالعبث والفساد، وجاء فلان يجوس الناس، أى : يتخطاهم » [(١)].

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الجوس معناه هنا : التردد بين الديار للقتل والإفساد.

ثم على فرض التسليم برأى فضيلته فى معنى الجوس، لنا أن نسأله : هل المسلمون لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن (جاسوا خلال الديار) ؟.

الذى يبدو لنا أن المسلمين كلفهم تأديب اليهود أكثر من ذلك ، لأنهم بالنسبة لبنى قينقاع حاصروهم بضعة عشر يوما ، وأجلوهم عن المدينة بعد مفاوضات ومجادلات..... وبالنسبة لبنى النضير حاصرهم المسلمون، وأحرقوا بعض زروعهم حتى اضطروهم إلى الجلاء عن المدينة .... وبالنسبة لبنى قريظة حاصرهم المسلمون ... ثم قتلوهم بعد حكم سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فيهم بذلك ، وبالنسبة ليهود خيبر حصل بينهم وبين المسلمين قتال عنيف، انتهى باستسلام اليهود ... فتأديب اليهود قد كلف المسلمين أكثر من جوس الديار، بالمعنى الذى يراه فضيلته (للجوس).

(جـ) قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ يفيد أن المسجد يؤخذ من أيدى اليهود عنوة ، ومن يأخذه يخربه ويهدمه ، وهذه الأوصاف والأعمال تنطبق على البابليين والرومان وغيرهم، لأنهم عندما دخلوا أورشليم قبل الإسلام دمروها،وهدموا هيكلها.

أما المسلمون فإنهم عندما فتحوا فلسطين فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سنة ١٥ هـ ـ سنة ٦٣٩ م لم يكن لليهود أثر فيها، ولم يأخذوا المسجد الأقصى منهم ،وإنما أخذوه من النصارى، وهم الرومان يومئذ، الذين كانوا قد استولوا على بلاد الشام مئات السنين، ثم بعد أن دخلوه أزالوا معالم الوثنية والشرك، وطهروه للعابدين، ولم يحصل من المسلمين تخريب أو تدمير المسجد أولغيره من بلاد الله كما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾.

---

(١) أساس البلاغة جـ١ ص ١٤١ . طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٢ .

. وإذاً :فالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض، تنطبق أوصافهم وأعمالهم وعقوباتهم المدمرة لبنى إسرائيل على العباد الذين أذلوهم قبل الإسلام ، كالبابليين والرومان ، ولا تنطبق على أصحاب رسول الله ﷺ كما ذهب فضيلته.

خامساً : تحدث فضيلته تحت عنوان (رد الكرة) فقال : «قال تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ... نَفِيراً﴾ ردت لليهود الكرة علينا بعد ألف وثلثمائة ونيف وسبعين سنة من تأديب الله لهم منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فجاسوا الديار ... الخ.

ونحن لا نوافق فضيلته لأمور منها :

(أ) أن قوله تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يفيد : أنه حسنت حالهم وتركوا ما هم عليه من فساد وإفساد حتى رد الله لهم الكرة على عدوهم، وتلك سنة الله في خلقه، ينصر من تاب إليه وأناب، وهذا المعنى الذى تفيده الآية لا يمكن أن يوصف به اليهود فى عصرنا ، إذ هم مازالوا على فسادهم وإفسادهم وكفرهم وطغيانهم ،ولكن يمكن أن توصف به القلة المؤمنة من بنى إسرائيل، التى أطاعت طالوت، وقاتلت معه ، وأيدت داود ـ عليه السلام ـ وناصرته ، وقالت عندما برزت لجالوت وجنوده : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله .... ﴾.

وإذاً فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أكثر ما يكون انطباقا على بنى إسرائيل، الذين قاتلوا مع طالوت بعزيمة صادقة ، وإيمان راسخ، وصبر جميل، ولذا نصرهم الله على أعدائهم.

(ب) ما قاله فضيلته من أن اليهود :« ردت لهم الكرة علينا ، وأمدوا بثلاث ما أمدوا فى تاريخهم بمثلها : بأموال تتدفق .. وبنين مهاجرين» الخ.

ينطبق على حالهم فى عهد داود وسليمان ، لأنهم في ذلك العهد أمدهم الله بالأموال الكثيرة ، والبنين الوفيرة، وصاروا أكثر عدداً من أعدائهم ،ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا : إن عهد حكم داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ لبنى إسرائيل هو العهد الذهبى الوحيد لهم طوال تاريخهم ، أما ما تلا هذا العهد من تاريخ بنى إسرائيل إلى وقتنا الحاضر ، فما هو إلا سلسلة من المآسى والنكبات كما

فصلنا القول فيها عند حديثنا عن المقصد الأول، وسيستمر احتقار العالم لهم، وكرهه إياهم، وانتقامهم منهم إلى يوم القيامة، بسبب أنانيتهم وسعيهم فى الأرض فسادا، وقد صرح القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى: ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب .... ﴾.

هذا، وإن اليهود مهما أمدوا وأعينوا من دول الكفر الكبرى، فهم ليسوا أكثر أبناء، ولا نفيرا منا نحن المسلمين، وليسوا أيضا أكثر أموالا منا، إذا وازنا بين ما نملكه من ثروات فوق الأرض وتحتها، ومن قدرة على العمل، الذى يجلب المال بحكم كثرة العدد لو أحسنا التصرف فيما نملك، وعندما يطبق المسلمون تعاليم إسلامهم تطبيقا كاملا، ويؤدون رسالتهم فى الحياة كما أمرهم الله، ويحسون الشعور بالمسئولية، ويراقبون الله فى كل تصرفاتهم ..... عندما يكونون كذلك يفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض...

سادساً: يقول فضيلته: « وقد قرر - سبحانه - أنه سيجمعهم ألفافا لنبيدهم فقال: ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾.

ويبدو بوضوح أن فضيلته يفسر ﴿ الآخرة ﴾ فى الآية الكريمة بمعنى المرة الآخرة من مرتى إفسادهم.

ونحن نرى أن المراد بالآخرة فى الآية: هو يوم القيامة، كما يفيده سياق الآيات وكما قال المفسرون.

١ - **قال صاحب الكشاف**: « ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ يعنى: قيام الساعة ﴿ جئنا بكم لفيفا ﴾ جميعا مختلطين إياكم، وإياهم ثم يحكم بينكم، ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم »(١).

٢ - **وقال الإمام الرازى**: (قول تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ يريد القيامة ﴿ جئنا بكم لفيفا من هاهنا وهاهنا ﴾(٢).

٣ - **وقال القرطبى**: « ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ جئنا بكم لفيفا ﴾ أى: من قبوركم مختلطين من كل موضع ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٩٦٦ طبعة دار الكتاب العربى بيروت.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٥٣.

سابعًا : يقول فضيلته فى صدر مقاله : « وأبادر فأطمئن الذين قد يهولهم هذا التخريج ،فيرونه مخالفة للمأثور والمعروف من أقوال المفسرين إلى أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شيء ، وإلى أن المأثور عن بعض الصحابة مضطرب لا تقوم به حجة ، وإلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تاريخا أو تأويلا لا يقال فى مخالفته إنه تحريف للكلم عن مواضعه ».

وهذا القول نرد عليه ـ أولا ـ بأنه خروج عن ظاهر القرآن ،بل عن صريحه الذى لا يمكن للمتأمل أن يفهم غيره، وهو أن المراد من الكتاب فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ.... ﴾ هو التوراة ، لا القرآن الكريم.

ونرد عليه ـ ثانيا ـ بأن ذلك لا يساعد عليه التاريخ الصحيح، فقد كان المسجد الأقصى وقت فتح المسلمين له فى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ بأيدى النصارى لا بأيدى اليهود ،وأخذ المسجد من النصارى عنوة، ولم يؤخذ من اليهود؛ لأنهم لم يكن لهم أثر يذكر فى فلسطين ، ولم يحدث من المسلمين وقتئذ تخريب له وتدمير، ولكن حدث منهم المحافظة على حرمات المساجد المقدسة.

فإذا ضممنا إلى ذلك أن الآيات تفيد أن رد الكرة لليهود يكون نتيجة صلاح في الدين، وإحسان، في العمل، وتوبة من الآثام، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ . أقول : إذا ضممنا كل ذلك كان استيلاء اليهود اليوم على فلسطين ، نتيجة صلاح فى أعمالهم وإحسان فى تدينهم وعقائدهم وأنه استيلاء صاحب الحق على ما هو أولى به من غيره.

وهذا كله يناقض الواقع الذى نلمسه بأيدينا، ونراه بأعيننا، فاليهود فى عصرنا هم اليهود فى كل عصر، من حيث فسادهم وإفسادهم واعتداؤهم وطغيانهم، فلقد اعتدوا اعتداء صارخا على مسلمى فلسطين، وأمدتهم دول الكفر بالمعونات المختلفة، ودورنا المرتقب ـ إن شاء الله ـ أن نزيل أسباب الخلاف فيما بيننا ، ونمكن لدين الله فى الأرض بالاتحاد والقوة والإخلاص فى العبادة والعمل، ونباشر الوسائل المشروعة بجد وحزم.. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

أما بعد : فإننا وإن كنا قد خالفنا الكاتب فى بعض ما اشتمل عليه مقاله، فإننا فى الوقت نفسه نعترف بأن المقال قد كتب بروح إسلامية طيبة. وبعاطفة دينية قوية ، تدل على إخلاص صاحبه، وسلامة يقينه .. والله نسأل أن يوفقنا جميعا للخير والصواب.

ثالثًا : تحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم :

من العقوبات التى عاقب الله - تعالى - بها بنى إسرائيل : تحريم بعض الطيبات عليهم بعد أن كانت حلالا لهم ، وذلك بسبب بغيهم وظلمهم وتلاعبهم بشرائع الله - تعالى - وأثرتهم التى جعلتهم ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ ولقد بين الله - تعالى - فى كتابه ما حرمه على بنى إسرائيل بسبب ظلمهم، فقال تعالى فى سورةالأنعام:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم . وفى هذا البيان رد على اليهود ، وتكذيب لهم ، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئا ، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التى كانت حلالا لهم - بسبب فسقهم وطغيانهم.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، كالإبل والنعام والأوز والبط ، كما روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال الإمام الرازى : « قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين :

الأول : أن قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة - لتقدم المعمول على عامله.

الثانى : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل، لم يبق لقوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا ﴾ فائدة (٢).

ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من غير ذى الظفر فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ .

الشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان، وبها يكون لحمه سمينا، والعرب تسمى سنام البعير ، وبياض البطن: شحما ، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان.

---

(١) الآيتان ١٤٦ - ١٤٧ . (٢) تفسير الرازى جـ٣ ص ١٦ .

والحوايا : كما قال ابن جرير - جمع حاوياء وحاوية، وحوية، وهى ما تحوى من البطن، فاجتمع واستدار، وفسرت بالمباعر، والمرابض التى هى مجتمع الأمعاء فى البطن»[1] .

والمعنى : كما حرمنا على اليهود كل ذى ظفر ، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة، التى تنتزع بسهولة، إلا ما استثنيناه من هذه الشحوم وهو ما حملت ظهورهما، أو ما حملت حواياهما ، أو ما اختلط من هذه الشحوم بعظمهما ، فقد أحللناه لهم.

ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى : هذا الذى حرمناه على الذين هادوا من الأنعام والطير، ومن البقر والغنم، وهذا التضييق الذى حكمنا به عليهم، إنما ألزمناهم به ، بسبب بغيهم وظلمهم ، وتعديهم حدود الله - تعالى .

قال قتادة : « إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث؛ عقوبة لهم، وتشديدا عليهم » .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود ، من الأنباء التى لم يكن النبى ﷺ وقومه يعلمون عنها شيئا لأميتهم، وكان مظنة تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم ، لما كان الأمر كذلك ، أكد الله هذا النبأ بقوله: ﴿ إِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ . أى : وإنا لصادقون - يا محمد - فى كل ما أخبرناك به، ومن بينه ما أعلمناك عنه، مما حرمناه على اليهود من الطيبات، وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه ، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه.

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله الله لهم منها محرمة عليهم ، فإنهم تحايلوا على شرع الله، وأخذوا يذيبونها ويستعملونها فى شئونهم المختلفة ، أو يبيعونها ويأكلون ثمنها. ولقد لعنهم النبى ﷺ بسبب هذا التحليل، فى أحاديث متعددة ، من ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما . . أن رسول الله ﷺ كان قاعدا خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء، وقال : « لعن الله اليهود -

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٨ ص ٧٥.

ثلاثا - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا ثمنها، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»(١).

وعن جابر بن عبد الله، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود، وتطلى بها السفن، ويستصبح بها الناس، فقال: «لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك، «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جعلوها - أي: أذابوها - ثم باعوها وأكلوا ثمنها»(٢).

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان، فقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: فإن كذبك - يا محمد - هؤلاء اليهود، وأمثالهم من المشركين، فيما أخبرناك عنه، من أنا حرمنا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات؛ عقوبة لهم، فقل لهم: إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقا، ورحمته وسعت كل شيء، ومن مظاهر رحمته: أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولكن ذلك لا يقتضي أن يرد بأسه، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم، المستمرين على اقتراف المنكرات، وارتكاب السيئات.

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغي والكفران، حتى يعودوا إلى طريق الحق: إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى، ويعتبر بالموعظة.

(ب) وفي سورة النساء آيات كريمة، بينت - أيضًا - أن الله - تعالى - حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات؛ بسبب ظلمهم، وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ تعليل للعقوبات التي حلت بهم، فقد بينت هذه الآية الكريمة أن الله تعالى عاقب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٥.

(٣) الآيات من ١٦٠ - ١٦٢.

اليهود، بتحريم طيبات أحلت لهم، بسبب ظلم عظيم ارتكبوه ، وجرائم خطيرة صدرت عنهم ، وقد تكفلت الآيات السابقة واللاحقة بتفصيل هذا الظلم، الذى من أجله عاقبهم الله - عز وجل - فى الدنيا والآخرة.

ومن ضروب هذا الظلم الذى ذكره الله - تعالى - فى الآيات السابقة : نقضهم لمواثيقهم ،وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وتفاخرهم بقتل عيسى - عليه السلام - فى زعمهم .أما تلك العقوبات التى عاقبهم الله بها من أجل تلك الجرائم ،والموبقات فبعضها دنيوى ، أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ وقد فصلت آية الأنعام التى شرحناها قبل قليل ، ما حرم الله عليهم من الطيبات.

وبعضها أخروى أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ... ﴾ الخ معناه : فبسبب الظلم الذى ارتكبوه - لا لسبب آخر - حرم الله عليهم أمورا كانت حلالا لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم ، ويقلعون عن أنانيتهم.

والتنكير فى قوله - تعالى - ﴿ طَيِّبَاتٍ ﴾ فيه إشارة إلى أنه لم يحرم عليهم كل الطيبات ، بل حرم عليهم بعضها، وهو ما يبينه الله تعالى فى سورة الأنعام ؛ وفى الآية تكذيب لهم فى دعواهم ، أن الله لم يحرم عليهم شيئا ، وأن هذه الأشياء كانت محرمة على نوح وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء.

ثم بين الله - تعالى - لونا من ألوان ظلمهم ، بعد أن بين ألوانًا منه قبل ذلك فقال تعالى : ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾.

الصد والصدود: المنع ، أى: وبسبب صدهم أنفسهم عن طريق الحق ، وصدهم غيرهم عن اتباعها صدا كثيرا، لعناهم وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، فهو من ضروب الظلم التى من أجلها عاقبهم الله - تعالى.

ثم ذكر الله - تعالى - بقية الأسباب التى أوجبت تحريم بعض الطيبات عليهم، فقال تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ أى : ومن أسباب تحريم بعض الطيبات عليهم ،ولعنهم أخذهم الربا، مع نهيهم عنه، على ألسنة أنبيائهم، ولكنهم لم يستجيبوا للنهى بل تناولوه وأخذوه ، واحتالوا على

ذلك بألوان من الحيل، وصنوف من الشبه وكذلك من أسباب لعنهم وتحريم بعض الطيبات عليهم :أكلهم أموال الناس بالباطل، عن طريق الرشوة والخيانة، والمخادعة والاحتيال وغير ذلك، من المآكل الخسيسة الخبيثة فهم ﴿أكالون للسحت﴾ أى : المال الحرام، كما وصفهم الله - تعالى - بذلك فى كتابه . ولأنهم قوم استولت المطامع والشهوات والأنانية على نفوسهم، أخذوا يتعاملون بالربا، ويأكلون المال أكلا لما، ويجمعونه بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة ، وغلب عليهم التعامل بالربا ؛لأنه يجيئهم بالمال من غير عمل، ومن غير تعرض للخسارة، وهو فى الغالب نوع من البطالة، ويؤدى إلى القمار والمراهنات ، ولذلك تقترن هذه الآفات الاجتماعية بالتعامل بالربا، وتكون فى أكثر أحوالها مما يتعاملون به، ولا مخاطرة فيها كالتى تكون فى التجارة أو الزراعة ، وحيث كانت المعاملات اليهودية ، كان معها أكل أموال الناس بغير الحق الذى فيه أخذ وعطاء ، ونفع وانتفاع ، بل تكون معاملاتهم قائمة على الاحتكار والرشوة كيفما كانت تسميتها، وكيفما كانت صفتها، إلى غير ذلك من التعامل، الذى لا شرف فيه ولا نقاء.

ثم بين الله - تعالى - جزاءهم فى الآخرة فقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : وهيأنا وأعددنا للكافرين من أولئك اليهود الذين فسدت عقائدهم، وخبثت نفوسهم عذابًا موجعًا أليمًا، جزاء بغيهم وظلمهم، وتمتعهم فى الدنيا،كما تتمتع الأنعام من غير أن يلتزموا بشريعة الله وبالوقوف عند أمره ونهيه.

ثم أنصف الله - تعالى - من يستحق الإنصاف منهم، وبشرهم بالخير الجزيل، فقال تعالى : ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

رسوخ الشيء: ثباته ثباتًا متمكنًا ، والراسخ فى العلم :المتحقق فيه، الذى لا تؤثر فيه الشبهات ، فالراسخون فى العلم :هم الثابتون فيه، المتقنون المستبصرون، الذين أدركوا حقائقه ، وصدقوها ، وأذعنوا لها ، ورسخت فى نفوسهم رسوخًا ليس معه شبهة تفسده ، أو هوى يعبث به ، أو ريب يزعزعه.

ومعنى الآية الكريمة : هؤلاء اليهود - يا محمد - وإن كثر جحودهم وبغيهم، لكن من رسخ فى العلم الصحيح بالدين منهم، الذين يتبعون الحق ويذعنون له ، :

والمؤمنون بك منهم، أو من غيرهم ، هذان الفريقان يؤمنون بالقرآن، الذى أنزل إليك، وبالكتب السماوية، التى أنزلها الله على من قبلك على وجه صحيح، ومن أهم أوصاف هؤلاء: أنهم يقيمون الصلاة، ويداومون عليها، بخشوع وخضوع ، ويعطون زكاة أموالهم للسائل والمحروم، ويصدقون بوحدانية الله وألوهيته ، وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، سنعطيهم أجرا عظيما لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى ذكرها الله ـ تعالى ـ فى كتابه قد بينت أكمل بيان بعض العقوبات التى أنزلها ـ سبحانه ـ ببنى إسرائيل؛ بسبب ظلمهم وبغيهم، وتعديهم حدوده ، كما أنها أنصفت منهم من يستحق الإنصاف، وبشرته بالأجر العظيم من الله ـ تعالى.

رابعا : عقوبة الله لليهود بالمسخ :

من العقوبات التي أخذ الله ـ تعالى ـ بها اليهود : مسخهم قردة وخنازير ، وإنزال لعنته بهم ، وغضبه عليهم، وذلك بسبب تعديهم حدوده ،وعصيانهم أوامره ، واستيلاء المطامع والشهوات عليهم.

ولقى حكى الله ـ تعالى ـ هذه العقوبات في آيات متعددة ، منها قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ﴾ رد على اليهود الذين جاءوا إلى النبى ﷺ وسألوه عن الذى يؤمن به من الرسل فقال لهم: نؤمن بالله ـ تعالى ـ وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون .. فلما ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ جحدوا نبوته ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به، ولا نعلم أن دينا شرا من دينكم، فأنزل الله ـ تعالى ـ قوله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا

أُنزِلَ مِن قَبلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

فالمخاطب بكاف الجميع ـ على الراجح : اليهود(٢) ، الذين نقموا على المؤمنين؛ لأنهم دخلوا فى دين الله، وآمنوا برسله دون تفرقة بينهم .

واسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى ما ينقمه اليهود على المؤمنين، وهو اتباعهم لدين الإسلام ؛ الذى يأمرهم بالإيمان بالله ورسله .

و (المثوبة) ـ كالمقولة ـ من ثاب : إذا رجع ، وهى الجزاء ، والثواب، واستعمالها فى الجزاء الحسن أكثر . وجاءت للجزاء السيىء هنا، على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

والمعنى : قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء اليهود المستهزئين بدين الإسلام، والناقمين عليكم؛ لإيمانكم بالله وما أنزل إليكم، وما أنزل من قبل ، قل لهم : هل أنبئكم بشر مما تنقمون علينا، عقوبة عند الله، ثم بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ أى : أن الذى هو شر من الدين الذى تنقمونه علينا عقوبة وجزاء ، هو دين من لعنه الله ،وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت .

قال الإمام الرازى : « فإن قيل : فهذا يقتضى كون الموصوفين بذلك الدين ـ وهو دين الإسلام ـ محكوما عليهم بالشر ، ومعلوم أنه ليس كذلك ؟ قلنا : إنما خرج الكلام على حسب قول اليهود واعتقادهم ؛ فإنهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقيل لهم : هب أن الأمر كذلك، ولكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور، شر من ذلك »(٣) .

وقد وصفهم الله ـ تعالى ـ فى هذه الآية الكريمة ، بصفات قبيحة :

أولها : أنه ـ تعالى ـ لعنهم، أى : أبعدهم من رحمته .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٥٦ بتصرف .

(٢) وقيل: الكفار مطلقا ، وقيل: للمؤمنين .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٢ ص ٣٦ .

ثانيهـا : أنه غضب عليهم ، أى: سخط عليهم، بسبب كفرهم، وانهماكهم في المعاصى بعد وضوح الآيات.

ثالثـهـا : أنه ـ تعالى ـ جعل منهـم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت أى: مسخ بعضهم قردة ، ومسخ بعضهم خنازير ؛ لتعديهم حدود الله . ومخالفتهم لأوامره ونواهيه.

قال بعض المفسرين : عنى ـ سبحانه ـ بالقردة :أصحاب السبت، وبالخنازير: كفار مائدة عيسى ـ عليه السلام.

وقال بعضهم : إن المسخين كانا فى أصحاب السبت ، لأن شبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير(١).

والذى يؤيده ظاهر القرآن ،وعليه جمهور المفسرين: أنهم مسخوا قردة وخنازير على الحقيقة ثم انقرضوا، لأن الممسوخ لا يكون له نسل، كما جاءت بذلك الآثار.

فعن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال :« سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى من نسل اليهود، فقال : «إن الله لم يهلك قوما ـ أو قال: يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا ولا عقبا ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك»(٢).

وقيل : مسخت قلوبهم ،ولم يمسخوا قردة، وإنما مثل ضربه الله لهم ، كما ضرب المثل بقوله: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

قال مجاهد : « ما مسخت صورهم » ولكن مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظا ولا تعى زجرا.

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾(٣) عطف على صلة (من) والمعنى: وجعل منهم كذلك من عبد الطاغوت ، والطاغوت: اسم لكل ما عبد وعظم من دون الله ـ تعالى ـ سواء أكان حجرا أو إنسانا أو شيطانا أو غير ذلك، من المعبودات الباطلة.

وفى ذكر هذه الصفات لهم ، انتقال من تبكيتهم على كراهيتهم للمسلمين الدخول فى الإسلام، إلى ذكر ما هو أشد توبيخا أو تقريعا لهم، وهو تعييرهم بسوء

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٢ ص ٣٦ .　　(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٣ .

(٣) قوله تعالى ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ فيه قراءات أخرى منها قراءة حمزة ﴿عبد الطاغوت﴾ بجر الطاغوت على الإضافة ، اى وجعل منهم عبيد الطاغوت بناء على ان عبدا يراد به الجنس لا الواحد ، ومنها قراءة أبى ﴿وعبدوا الطاغوت﴾ وهناك قراءات أخرى غير ذلك ذكرها صاحب الكشاف والفخر الرازى وغيرهما.

حال آبائهم مع أنبيائهم ، وما كان من جزاء الله إياهم على فسقهم، وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الظالمين ، فقد لعنهم وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت.

ثم بعد أن وصفهم ـ سبحانه ـ بما وصف ، حكم عليهم بسوء المصير والضلال عن الحق فقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أى : أولئك الملعونون الممسوخون شر مكانا، فى عاجل الدنيا والآخرة عند الله، لأن مكانهم النار بخلاف المؤمنين فمكانهم الجنة ، وهم أضل الناس عن قصد السبيل والدين الحق، والمراد من صيغتى التفضيل: الزيادة مطلقا، لا بالإضافة فى الشرارة والضلالة.

قال الإمام ابن جرير : « أما قوله ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ فإنه يعنى بقوله : أولئك : هؤلاء الذين ذكرهم ، وهم الذين وصف صفتهم، فقال من لعنه الله، وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت وكل ذلك من صفات اليهود من بنى إسرائيل . يقول الله تعالى : هؤلاء الذين هذه صفتهم ، شر مكانا فى عاجل الدنيا والآخرة عند الله ممن نقمتم عليهم يا معشر اليهود إيمانهم بالله . . . ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ يقول تعالى ذكره. وأنتم مع ذلك أيها اليهود ، أشد أخذا على غير الطريق القويم ، وأجور عن سبيل الرشد والقصد منهم، وهذا من لحن الكلام ، وذلك أن الله تعالى ـ إنما قصد بهذا الخبر إخبار اليهود الذين وصف صفتهم فى الآيات قبل هذه ، بقبيح أعمالهم، وذميم أخلاقهم، واستيجابهم سخطه ، بكثرة ذنوبهم ومعاصيهم ، حتى مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير ، خطابا منه لهم بذلك تعريضا بالجميل من الخطاب ؛ ولحن لهم بما عرفوا معناه من الكلام بأحسن اللحن ، وعلم نبيه ﷺ من الأدب أحسنه فقال له : قل لهم ـ يا محمد ـ أهؤلاء المؤمنون بالله، وبكتبه ،الذين تستهزئون منهم، شر أم من لعنه الله، وهو يعنى القول ذلك لهم »[١] .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك بعض الرذائل التي استحق اليهود بسببها المسخ واللعن فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾.

قال قتادة :« نزلت هذه الآية فى ناس من اليهود ، كانوا يدخلون على النبى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٩٥.

ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون، راضون بالذى جاء به ، وهم متمسكون بضلالهم وكفرهم ، أخبره الله تعالى ـ بشأنهم ،وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا ، لم يتعلق بقلبهم شيء من نصحك، وتذكيرك وتقريراتك»[١] .

ومعنى الآية الكريمة ، وإذا جاءكم أيها المؤمنون المنافقون من اليهود، قالوا لكم ولنبيكمﷺ ـ على سبيل المصانعة والمخادعة ـ آمنا بأن الإسلام حق ، وصدقنا بأن محمدا ﷺرسول من عند الله، والحال أنهم قد دخلوا عليكم متلبسين بالكفر ، ثم خرجوا من عندكم والكفر كامن فى نفوسهم لم يفارقها ، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم ، لم ينتفعوا بشىء مما سمعوا، ولم تؤثر فيهم المواعظ .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ أى : عالم بسرائرهم وما تنطوى عليه ضمائرهم من الكفر والمكر ، وإن أظهروا لكم أيها المؤمنون خلاف ذلك، فهم عند دخولهم يقصدون تسقط الأخبار ، والتجسس على أحوالكم وشئونكم ، وعند خروجهم يقولون لشياطينهم: ﴿ إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ بالمؤمنين ونبيهم ﷺ .

وفائدة ذكر (قد) عند الدخول تقريب الماضى من الحال، وبيان أن علامات النفاق كانت ظاهرة عليهم ، وأن الرسول >كان متوقعا من الله ـ تعالى ـ أن يخرج أضغانهم ومكايدهم .

وفائدة ذكر كلمة (هم) عند الخروج ، التأكيد فى إضافة الكفر إليهم، ونفى أن يكون من النبى ﷺ أى تأثير عليهم فى خروجهم بتلك الحال الذميمة ، ولكنهم هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم .

وإنما احتاجت إضافة الكفر إليهم باختيار أنفسهم إلى التأكيد لمجيئها على خلاف المعروف والمعهود ، لأن المعهود أن من يجالس النبى ﷺ ينشرح صدره لقبول الحق، والإذعان له ، ولقد كان الرجل يأتى إلى النبى ﷺقاصدا الإساءة إليه، فإذا ما جلس بين يديه ، واستمع إلى أقواله ورأى أفعاله ، زال هذا القصد ، وحل محله الإيمان الصادق ، والمحبة الخالصة بسبب ما سمع وما رأى من فضائل ومكارم أخلاق .

---

(١) تفسير الرازى جـ ١٢ ص ٣٨ .

وإنما شذ هؤلاء اليهود وأمثالهم عن التأثر بما يسمعون من النبى ﷺ ومن أصحابه ، لأن سوء نيتهم ، وخبث طويتهم ، وجحودهم للحق، قد صرفهم عن التذكر والاعتبار ، ووجه همتهم إلى الكيد والخداع ، فلم يكن لديهم عقل يعى، أو قلب يتذكر ويخشع.

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ طائفة أخرى من رذائلهم وقبائحهم التي كانت سببا في مسخهم وطردهم من رحمته فقال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ والمعنى : وترى ـ يا محمد ـ كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا، يسارعون فى ارتكاب المعاصى التى نهى الله عنها، ولا يتقاعسون عن شيء منها، ويسارعون ـ أيضا ـ فى تعدى حدوده التى حدها لهم، فلا يحلون ما أحل الله، ولا يحرمون ما حرم ، وإنما يأكلون السحت ـ وهو المال الحرام ـ أكلا لما ، ويحبونه حبا جما :

وقوله تعالى: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تقبيح لأعمالهم السابقة أى: أقسم لبئس العمل الذى كان هؤلاء اليهود يعملون بمسارعتهم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، لأنه يدنس النفوس ، ويقوض نظام المجتمع ، ويجعل الأمة أمرها فرطا.

ثم ذكر القرآن الكريم رذيلة من رذائل خواصهم وعلمائهم ،فقال تعالى ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

الربانيون : هم العلماء أصحاب الولاية والسلطة على عامة اليهود ، وقيل: هم زهادهم وعبادهم ،والأحبار : هم علماؤهم وفقهاؤهم.

والمعنى: هلا منع الربانيون والأحبار هؤلاء اليهود المسارعين فى المعاصى عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ؟ لبئس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار تركهم عامتهم يسارعون فى الإثم والعدوان دون أن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر.

وهذا الذم لعلمائهم أبلغ وأشنع، مما قيل فى حق عامتهم قبل ذلك، لأنه سبحانه ذم عامتهم بقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وذم ربانيهم وأحبارهم بقوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل لا يسمى صناعة إلا إذا صار

مستقرا راسخا متمكنا من الإنسان ، فجعل - سبحانه - جرم العاملين ذنبا غير راسخ، وذنب التاركين للمنكر يفشو وينتشر ذنبا راسخا .

ومن الآيات القرآنية التى صرحت بمسخ اليهود قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى سقناها قد ذكرت طائفة من العقوبات التى أنزلها الله باليهود ، وهى لعن الله لهم، وغضبه عليهم ، ومسخهم قردة وخنازير ، بسبب تعديهم حدود،ه ومسارعتهم فى المعاصى، وسكوت ربانيهم، وأحبارهم عن منكراتهم.

خامسا : سخط الله عليهم ، ولعنه إياهم :

أخبر الله - تعالى - فى كثير من آيات كتابه الكريم ، أن بنى إسرائيل استحقوا لعنته وغضبه ، بسبب كفرهم ، وارتكابهم للمعاصى ، وسكوتهم عن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، وغير ذلك من السيئات، التى تؤدى بصاحبها إلى الخزى والخسار فى الدنيا والآخرة، ومن الآيات التى صرحت بلعن الله لبنى إسرائيل، قوله تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1] .

قوله تعالى :﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ بيان لما حل بكفار بنى إسرائيل من اللعنة،على لسان نبيين كريمين من أنبياء الله - تعالى .

واللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى فى الآخرة عقوبة، وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره)[2] .

---

(١) سورة المائدة : الآيات من ٧٩ - ٨١ .

(٢) مفردات الراغب ص ٤٥١ .

قال ابن عباس : « لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى فى التوراة، ولعنوا على عهد داود فى الزبور، ولعنوا على عهد عيسى فى الإنجيل،ولعنوا على عهد محمد فى القرآن »(١) .

وقال الإمام الرازى : « قال أكثر المفسرين : يعنى أصحاب السبت، وأصحاب المائدة ، أما أصحاب السبت فهو أن قوم داود ـ عليه السلام ـ وهم أهل (أيله) لما اعتدوا فى السبت بأخذ الحيتان على ما ذكر الله تعالى هذه القصة فى سورة الأعراف، قال داود : اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة ، وأما أصحاب المائدة ، فإنهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا ، قال عيسى : « اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير .. »(٢) .

وقد استمرت هذه اللعنة عليهم بعد ذلك بسبب تماديهم فى المعاصى، واستمرارهم على ارتكاب السيئات .

ثم بين الله ـ تعالى ـ سبب لعنهم فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أى: ذلك اللعن الشنيع الذى حل بهم ،كان من أجل إقامتهم على معصية الله، وتجاوزهم المستمر لأوامره ، وانتهاكهم لحرماته ، واستحلالهم لما نهى عنه .

ثم بين ـ سبحانه ـ رذيلة أخرى من رذائلهم التى استحقوا بسببها اللعن ، فقال تعالى ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أى: كان هؤلاء اليهود الذين لعنهم الله، لا ينهى بعضهم بعضا عن ارتكاب المآثم والمحارم التى اقترفوها ، لبئس الفعل كانوا يفعلون ارتكابهم المعاصى والعدوان ،وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت: كيف وقع ترك التناهى عن المنكر تفسيرا للمعصية والاعتداء؟ قلت : من قِبَل أن الله ـ تعالى ـ أمر بالتناهى، فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء ، لأن فى التناهى حسما للفساد، فكان تركه على عكسه . فإن قلت : ما معنى وصف المنكر (بفعلوه) ولا يكون النهى بعد الفعل ؟ قلت : معناه :لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن مثل منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، كما ترى أمارات الخوض فى الفسق وآلاته تسوى، وتهيأ فلا تنكر ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٣١٧ .

(٢) تفسير الرازى جـ ١٢ ص ٦٣ .

ويجوز أن يراد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه، ويداومون على فعله، يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه: إذا امتنع منه وتركه»[1] .

هذا ، وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل بالمعصية والاعتداء بكل صورهما، ولم يكونا فيهم من قبيل الأعمال الفردية، وإنما كانا طابع المجتمع كله، حتى لقد أصبح وقوعهما مألوفا ومعتادا ، وليس هناك منهم من ينكر وقوعهما ، أو يعمل على إزالتهما ، والأمة متى انحطت إلى هذه الدركة ، فأصبح المنكر يقع فيها من الكبار والصغار، ولا يوجد من يحاول أن يغيره بيده أو بلسانه أوبقلبه ، فإنها يكون مصيرها إلى الانهيار والاضمحلال ، وتصبح أهلا للعقوبة فى الدنيا والآخرة.

ومن سمات المجتمع الفاضل أن تسود فيه: فضيلة الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، وأن يكثر القائمون بهذه الفضيلة ، وأن يكون لهم من قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم ، وضخامة سلطانهم ، ما يجعلهم يجهرون بها دون أن يخشوا أحدا إلا الله ، وأن يوجد فيه كذلك من يستمع إليهم بتقبل واقتناع ، بحيث يكون هؤلاء المستمعون ، درعا للناصحين ، ترد عنهم الأذى ، وتحميهم حتى يبلغوا رسالات الله.

ولقد خلا المجتمع الإسرائيلى من تلك السمات ، فأنزل الله على أفراده لعنته وسخطه ، وقد بين النبى ﷺ ذلك فى أحاديث متعددة ، منها ما أخرجه أبوداود عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا : اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ،ثم يلقاه من الغد على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم قال النبى ﷺ :« كلا والله : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ،ولتأطرُنه على الحق ـ أو لتقصرنه على الحق قصرا ـ أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليَلعنّنكم كما لعنهم»[2].

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٣٠ .

(٢) رياض الصالحين . للإمام النووى باب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ص ٩٢ .

ثم بين الله ـ تعالى ـ تحالفهم مع الذين كفروا ضد المسلمين فقال تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

والمعنى : وترى ـ يا محمد ـ كثيرا من هؤلاء اليهود الذين لعنهم الله، وسخط عليهم، يوالون المشركين عبدة الأوثان، ويحرضونهم على قتالك ، أقسم لبئس شيئا قدمت لهم أنفسهم سخط الله عليهم بما فعلوا، وفى العذاب هم خالدون يوم القيامة . ولو كان هؤلاء اليهود الذين ناصروا الكفار يؤمنون بالله وبالنبى، الذى يزعمون اتباعه ،وهو موسى ـ عليه السلام ـ وبما أنزل إليه وهو التوراة ، ما اتخذوهم أولياء ، إذ الإيمان بالله ورسوله وكتبه يمنع من تولى المشركين ، ولكن كثيرا منهم فاسقون . خارجون عن طاعة الله ورسله وكتبه ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

هذا :والآيات الكريمة التى صرحت بلعن بنى إسرائيل، واستحقاقهم سخط الله وغضبه ـ بسبب فسوقهم وفجورهم ـ كثيرة متعددة ، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

١ ـ ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ .... ﴾ .

٢ ـ وقوله تعالي في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا .

٣ ـ وقوله تعالي ـ أيضا ـ في سورة النساء ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

٤ ـ وقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ... ﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى صرحت بلعنهم وغضب الله عليهم، بسبب نقضهم لمواثيقهم ، وعدم تناهيهم عن المنكر ، وتحريفهم للكلم عن

مواضعه ، واستمرائهم للمعاصى ، وتعديهم حدود الله - تعالى - ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

سادسا : ضرب الذلة والمسكنة عليهم :

مدح الله - تعالى الأمة الإسلامية بانها خير أمة أخرجت للناس ، ووصفها بأوصاف كريمة هيأتهم لهذه الخيرية ، وهى أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله - تعالى - ثم ذم - سبحانه - اليهود، بأقبح الصفات ، وتوعدهم بسوء المصير، وضرب الذلة عليهم ،وذلك لكفرهم بآياته ، وقتلهم لأنبيائه ، وتعديهم حدوده، فقال تعالى فى سورة آل عمران .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

(كان) فى الجملة الكريمة يصح أن تكون تامة بمعنى وجد ، أى : وجدتم خير أمة أخرجت للناس . ويصح أن تكون ناقصة ويكون المعنى : قدرتم فى علم الله خير أمة أخرجت للناس(٢) .

والخطاب فى هذه الآية الكريمة للمؤمنين الذين عاصروا النبى ﷺ ولمن أتى بعدهم، واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين ؛ ولذا قال ابن كثير :

« والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة ؛ كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم التى بعث فيها رسول الله ﷺ ثم الذين يلونه ، ثم الذين يلونهم ، كما قال - تعالى - فى الآية الأخرى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس... ﴾ الآية (٣) .

---

(١) الآيات من ١١٠ - ١١٢ .

(٢) وقيل يجوز ان تكون بمعنى (صار) اى : تحولتم يا معشر المؤمنين الذين عاصرتم النبى ﷺ من جاهليتكم إلى ان صرتم خير امة وقيل يجوز أن تكون زائدة بمعنى : (أنتم خير امة) وقيل غير ذلك وما ذكرناه فى صلب التفسير هو ما عليه جمهور المفسرين.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ .

وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الأمة الإسلامية : منها ما جاء فى مسند الإمام أحمد، وفى سنن الترمذى، وابن ماجه، من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه : قال رسول الله ﷺ :«أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ـ عز وجل»[١].

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

والمعنى : وجدتم خير أمة أظهرها الله ـ تعالى ـ للناس ، فقال تعالى : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والمعنى : وجدتم خير أمة أظهرها الله ـ تعالى ـ للناس ، لأنكم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بالقول أوالفعل الجميل المستحسن ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ أى: عن كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ،ويأباه أهل الإيمان ، ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: تصدقون به، وتخلصون له التوحيد والعبادة. فالخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق أصلين:

أولهما : الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؛ لأنهما سياج الدين ، ولا يمكن أن يتحقق بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما ، ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة بسبب تركهما.

ثانيهما : الإيمان بالله ،وهذا الإيمان لا يتحقق إلا إذا صحبه الإيمان برسله وكتبه، واليوم الآخر، وإلا لم يكن إيمانا بالله ـ تعالى ـ حقا. ولا ينطبق الحكم بالخيرية على من لا يتصف بهذين الأمرين ، فالأمة التى تهمل الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، ولا تؤمن بالله ، لا يمكن أن تكون خير أمة، بل لا توصف بالخيرية قط ، لأنه لا خير إلا فى الفضائل والحق والعدل ، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله ، وكثرة الدعاة إلى الخير ، والناهين عن الشر ، ويكون لدعوتهم آثارها القوية التى تحيا معها الفضائل، وتزول بها الرذائل. وكأنه ـ سبحانه ـ قد أخر (الإيمان بالله) عن (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ليكون كالباعث عليهما، لأنه لا يصبر على تكاليفهما ومتاعبهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله، ويركن فى كفاحه إليه ، فهذا الإيمان بالله ، هو الباعث للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، على أن يبلغوا رسالات الله، دون أن يخشوا أحدا سواه.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٩١.

ثم رغب الله - تعالى - أهل الكتاب فى الإيمان برسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم ﴾ .

أى : ولو آمن أهل الكتاب بالله تعالى، وبمحمد ﷺ، وبماجاءهم به من عند الله وتركوا المكابرة والعناد لكان خيرا لهم فى دنياهم، وآخرتهم، ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية، ولكنهم لم يؤمنوا ، فامتنع الخير فيهم، لامتناع الإيمان الصحيح منهم ، ولإيثارهم ما هو أدنى على ما هو خير.

ثم أخبر - سبحانه - بأن قلة من أهل الكتاب اختاروا الإيمان على الكفر، فقال تعالى : ﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

أى : من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقت رسوله محمدا ﷺ واتبعت ما جاء به من الحق ، وأكثر أهل الكتاب معرضون عن الإيمان بالله، ورسوله الكريم خارجون عن الحق، متمردون فى الكفر .

فالجملة الكريمة إنصاف للقلة المؤمنة، التى آمنت من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره ممن دخل فى الإسلام، وذم لأكثر أهل الكتاب الذين جحدوا الحق، وخرجوا عن الطريق المستقيم.

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ، بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب التى عتت عن أمر ربها، وناصبت المؤمنين العداء لن تضرهم ضررا بليغا، فقال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ . أى : لن يضروكم إلا ضررا يسيرا ، كأن يؤذوكم بألسنتهم، ويلقوا الشبه بينكم ؛ليصدوا من ضعف إيمانه عن الحق ، وفى هذا تثبيت للمؤمنين، إذ الضرر على قسمين:

أولهما : ضرر يؤدى إلى هدم كيان الأمة ، وإضعاف قوتها وإهدار كرامتها، وجعل أمورها فى أيدى أعدائها تصرفها كيف تشاء.

وثانيهما : ضرر لا يؤثر فى كيان الأمة ، ولا يؤدى إلى اضمحلال قوتها، كالأذى بالقول، أو محاولة التأثير فى ضعاف الإيمان، وقد نفى الله - سبحانه - أن يلحق المؤمنين ضرر يأتى على كيانهم من جهة اليهود فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ فأوقع الفعل المضارع فى حيز لن للإشارة إلى أن ذلك لا يكون فى المستقبل.

ولكن هذا النفى لهذا النوع من الضرر ، مشروط بمحافظة الأمة الإسلامية على الأصلين السابقين وهما : (الإيمان بالله والدعوة إلى الخير) فإذا أرادت أمة الإسلام ألا تصاب من جهة اليهود بما يأتى على كيانها، فعليها بإخلاص العبادة لربها، والعمل بسنة نبيها، والتقيد بأحكام كتابها، وإعداد العدة الكاملة لقتال عدو الله وعدوها ، فإذا لم تلتزم بذلك ، أصابها الضرر من جهة أعدائها ، وأثر فى كيانها، ومكن عدوها منها.

ثم بشر الله ـ تعالى ـ المؤمنين بالنصر إذا قاتلهم اليهود ومن على شاكلتهم، فقال تعالى : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

تولية الأدبار : كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى جهة من هزمه ، هربا إلى ملجأ يلجأ إليه ، ليدفع عن نفسه القتل أوالأسر.

والمعنى : إن هؤلاء اليهود ومن والاهم لن يضروكم ـ أيها المؤمنون إلا ضررا يسيرا لا يبقى أثره فيكم ـ مادمتم متمسكين بدينكم ـ فإن قاتلوكم وأنتم متمسكون بدينكم أمدكم الله بنصره، وألقى فى قلوبهم الرعب، فيولونكم الأدبار انهزاما منكم، ثم لا ينصرون عليكم بل تنصرون أنتم عليهم ما دمتم مستقيمين على أمر ربكم ،وماداموا هم مستمرين على كفرهم وفسوقهم، لأن الله ـ تعالى ـ قد تكفل بنصر من ينصره.

والتعبير هنا (بثم) يفيد التراخى فى المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار. وهذه الجملة ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ معطوفة على الجملة السابقة بتمامها لا على جواب الشرط وحده.

وقد أجاد صاحب الكشاف في توضيحه لهذا المعنى ، إذ قال :« فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون ، فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة ، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر ، فإن قلت : فما

الذى عطف عليه الخبر ؟ قلت : جملة الشرط والجزاء . كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون »[1] .

هذا ، والآية الكريمة قد بشرت المؤمنين الصادقين بثلاث بشارات :

أولها : أنهم فى مأمن من ضرر اليهود البليغ، الذى يؤثر فى كيانهم، وعزتهم وكرامتهم.

ثانيها : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم ، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم.

ثالثها : أنهم بعد نصرهم عليهم ، لن تكون لأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود قوة أو شوكة للأخذ بثأرهم بعد ذلك.

ولقد تحققت هذه البشارات ، وكانت كما أخبر الله - تعالى - فإن المسلمين الأولين الذين كانوا متمسكين بهدى دينهم تمسكا كاملا، قاتلوا يهود بنى قينقاع وبنى النضير، وبنى قريظة ، وأهل خيبر وغيرهم ؛ فانتصروا عليهم، وكان اليهود يولون المؤمنين الأدبار ، وقد كتب الله - تعالى - على فريق منهم الجلاء ، وعلى فريق آخر الفناء ، وعلى فريق ثالث البقاء فى ذلة وصغار.

فإن قال قائل : ولكن الذى نراه الآن أنَّ اليهود الذين لا يمارى أحد فى جبنهم وحرصهم على الحياة ، قد انتصروا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية، وهى فلسطين فهل تخلف وعد الله؟

والجواب عن ذلك : أن وعد الله - تعالى - ما تخلف ولن يتخلف ، وقد حققه سبحانه لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا بالله حقا ، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر؛ولكن المسلمين فى هذا العصر،هم الذين تغيرت أحوالهم،فقد فرطوا فى دينهم،وأضاعوا الصلاة،وانغمسوا فى الشهوات،واتبعوا خطوات الشيطان، وتفرقوا شيعا وأحزابا،وتركوا الأمر بالمعروف،والنهى عن المنكر،ولم يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم،ولم يعدوا ما استطاعوا من قوة لقتال عدو الله وعدوهم،كما كان أسلافهم من قبل، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية، كما تريدها تعاليم الإسلام فلما فعلوا ذلك، تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم ، لأنه - سبحانه :﴿لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ . وإذا ما عاد

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٢٠.

المسلمون إلى دينهم، فطبقوا أوامره ونواهيه على أنفسهم؛ تطبيقا كاملا، فإن الله - تعالى - سيعيد إليهم كرامتهم وعزتهم: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ .

ومن هنا نعلم: أن الشرط في نفى الضرر الذى يؤثر فى الجماعة الإسلامية، أن تكون مؤمنة بربها حق الإيمان ، متبعة لهدى رسوله ﷺ .

ثم بين - سبحانه - بعض العقوبات التى أنزلها باليهود فقال تعالى : ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ :

الذلة : الصغار والهوان والحقارة. جعلت الذلة محيطة بهم ، مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكونون فى القبة من ضربت عليه .

والحبل : هو ما يربط بين شيئين ، ويطلق على العهد لأن الناس يرتبطون بالعهود، كما يقع الارتباط الحسى بالحبال.

قال ابن جرير : « وأما الحبل الذى ذكره الله - تعالى - فى هذا الموضع فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين، وعلى أموالهم وذراريهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده ، قبل أن يثقفوا فى بلاد الإسلام »(١) .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم، أينما وجدوا وحيثما حلوا، إلا فى حال اعتصامهم بعهد من الله، أو بعهد من الناس.

وقد فسر العلماء عهد الله: بعقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين، وإنما كان عقد الجزية عهدا من الله لهم، لأنه - سبحانه - هو الذى شرعه ،وما شرعه الله فالوفاء به واجب . وكان عهدا من المسلمين لهم، لأنهم أحد طرفيه ، فهم الذين باشروه مع اليهود ، وبمقتضاه يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وعلى المسلمين حمايتهم ، وصون أموالهم لقاء مقدار من المال يدفع لهم كل عام وهو المسمى: بالجزية.

وأما عهود الناس، فهى العهود التى يعيشون بمقتضاها فى أى أمة من الأمم، مسلمة كانت، أو كافرة ، فإن كانت تلك العهود صادرة من المسلمين، فيجوز أن يطلق عليها (عهد الله) أيضا ، باعتبار أن الله هو الذى شرعها ، وإن كانت من غير ا لمسلمين فهى عهود من الناس وافقت شريعة الله أم لا .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٤٨ .

والمعنى الإجمالى للآية : أن اليهود ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة فى كل زمان ومكان ؛بسبب كفرهم وطغيانهم، وسلب عنهم السلطان والملك، فهم يعيشون فى بقاع الأرض جميعا فى حماية غيرهم من الأمم الأخرى، بمقتضى عهود يعقدونها معهم.

وقد يقول قائل : إنهم الآن أصحاب عز وملك وسلطان بعد أن أصبح لهم كيان دولى بإنشاء (دولة إسرائيل) .

والجواب : أنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية غيرهم من دول الكفر الكبرى ، فهى التى تحميهم،وتمدهم بأسباب الحياة والقوة ، فينطبق على هذه الحالة ـ أيضا ـ أنها بحبل من الناس. فاليهود لا سلطان لهم، ولا عزة تكمن فى نفوسهم، ولكنهم مأمورون مسخرون أن يعيشوا فى تلك البقعة من الأرض؛ لتكون مركزا لتلك الأمم التى تعهدت بحمايتهم؛ ليقفزوا منه إلى محاربة المسلمين ، إذا أتيحت لهم فرصة ، ولو أن المسلمين غيروا ما بأنفسهم ، وتمسكوا بشريعتهم ، واجتمعت قلوبهم ، وتوحدت أهدافهم لكانت تلك الدول ومن يحميها فى رعب من المسلمين، والأمل فى الله كبير ، أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار فيدفعوها ، ويعتصموا بحبل الله لتعود لهم قوتهم وهيبتهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ عقوبتين أخريين أنزلهما جزاء كفرهم وتعديهم حدوده فقال تعالى : ﴿ وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾.

﴿ وباءوا ﴾ مأخوذ من البواء وهو المساواة ، يقال : باء فلان بفلان إذا كان حقيقا بأن يقتل به لمساواته له ، والمراد : صاروا أحقاء بغضبه.

و ﴿ المسكنة ﴾ مفعلة من السكون لأن المسكين قليل الحركة والنهوض لما به من الفقر، فالمسكنة حالة نفسية فى الشخص تجعله يشعر بالهوان والفقر، مهما توفرت له أسباب القوة والغنى.

والمعنى : أن هؤلاء اليهود بجانب ضرب الذلة عليهم حيثما حلوا، قد صاروا فى غضب من الله ، وأصبحوا أحقاء به، وضربت عليهم كذلك ، المسكنة التى تجعلهم يحسون بالصغار مهما ملكوا من قوة ومال.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الأسباب التى جعلتهم أحقاء بهذه العقوبات، فقال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾. أي : ذلك الذي أصابهم من الهزيمة المستمرة، ومن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، ومن صيرورتهم محل غضب الله وسخطه ، وغير ذلك من العقوبات ، ذلك كله كان بسبب كفرهم بآياتنا، وقتلهم لأنبيائنا، عن تعمد وإصرار على ارتكاب الظلم ، وما تجرءوا على ذلك إلا لأنهم استمرءوا المعاصي ، وتمادوا في الباطل ، وتعودوا الاعتداء ،ومن كان هذا شأنه ، سهل عليه ارتكاب الجرائم والمنكرات ، واستحق من الله ـ تعالى ـ أشد العقوبات ، وهذا ما صار إليه أمر بني إسرائيل.

قال الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ :« أعلم ربنا ـ جل ثناؤه ـ عباده ، ما فعله بهؤلاء القوم من أهل الكتاب، من إحلال المذلة والخزى بهم في عاجل الدنيا، مع ما ادخر لهم في الآجلة من العقوبة ،والنكال وأليم العذاب،إذ تعدوا حدود الله ، واستحلوا محارمه تذكيرا منه ـ تعالى ـ ذكره لهم،وتنبيها على موضع البلاء الذي من قبله أتوا، لينيبوا ويذكروا،وعظة منه لأمتنا ألا يستنوا بسنتهم،ويركبوا منهاجهم،فيسلك بهم مسالكهم،ويحل بهم من نقم الله ومثلاته ما أحل بهم»(١).

وإلى هنا نكون قد ذكرنا بعض العقوبات التي أنزلها الله ـ تعالى ـ ببني إسرائيل جزاء كفرهم ؛ وظلمهم ، وفسقهم عن أمر ربهم: ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٥١.

خاتمة

فلسطين ومراحل الغزو الصهيونى لها

هذا المبحث الذى نختم به رسالتنا عن (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة) من الموضوعات التى كتبت فيها مئات الكتب والمقالات والبحوث ... خصوصا بعد قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ ولكثرة ما طالعت عن هذا الموضوع من كتب وبحوث أشعر بالحيرة من أين أبدأ ؟ وكيف أستخلص من هذه الكتب والبحوث التى يصعب إحصاؤها ما يعطى القارىء فكرة مركزة واضحة عن مراحل الغزو اليهودى لفلسطين؟

لقد كان معظم حديثى عن بنى إسرائيل فى الفصول السابقة ، ينصب على تفسير ما ورد فيهم من آيات كريمة ، وعلى تبيان ما صدر عنهم فى العهد النبوى من خيانات ومؤامرات واعتداءات أدت إلى معاقبة كل فريق منهم بما يستحقه.

أما حديثى عنهم فى هذا المبحث الموجز، فسيكون حديثا تاريخيا متمما لما ذكرته، من تاريخهم وأحوالهم فى الفصل الأول، ومقصدى منه المساهمة فى كشف الوسائل الخبيثة، والمؤامرات المتنوعة التى قامت بها اليهودية العالمية فى مختلف الأزمنة ، حتى استطاعت فى عام ١٩٤٨ م أن تنشىء لها دولة فى فلسطين قلب العالم الإسلامى ، بعد أن قتلوا الألوف من أبنائها، وشردوا مئات الآلاف من سكانها المسلمين..

وسيكون حديثى فى هذا الفصل متضمنا ما يأتى :

(أ) خلاصة عن تاريخ فلسطين منذ الفتح الإسلامى لها سنة ١٥ هـ ٦٣٦ م إلى سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م.

(ب) اليهودية والصهيونية، ومراحل عملهما لإنشاء دولة لهما فى فلسطين.

(جـ) مرحلة الأماني والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل ، وهذه المرحلة تمتد من خراب أورشليم الأول سنة ٥٨٦ ق م حتى أواخر القرن التاسع عشر.

(د) مرحلة الإعداد العملي ، والتحضير الفعلي لإعلان دولة إسرائيل ، وذلك منذ سنة ١٨٩٧ م إلى سنة ١٩٤٨ م.

(هـ) مرحلة إعلان دولة إسرائيل وما تلاها من آمال اليهود.

(و) ما الأسباب الرئيسية لكارثة فلسطين، وكيف نعيدها؟

وهاك الكلام مفصلا عن كل فقرة من هذه الفقرات:

(أ) في سنة ١٥ هـ ـ ٦٣٦ م تم فتح بيت المقدس ، وتفصيل ذلك : أن المسلمين بعد أن فرغوا من فتح الشام ،وجهوا جانبا من قواتهم بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ إلى فلسطين ، واستطاعوا أن يستولوا على عدد من بلادها واستمروا في سيرهم إلى أن وصلوا إلى إيلياء (بيت المقدس) وهناك دارت معركة عنيفة بين المسلمين وبين الروم، الذين استماتوا في الدفاع عن بيت المقدس ، إلا أن استماتة الروم لم تغن عنهم شيئا ، فقد اضطروا في النهاية إلى التسليم بشرط أن يكون ذلك لأمير المؤمنين بنفسه.

فكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يحضر بنفسه؛ ليتسلم بيت المقدس، فلبى عمر ـ رضي الله عنه ـ الطلب،وحضر بنفسه، فتسلم المدينة من البطريرك (صفرنيوس).

ويحدثنا الإمام ابن كثير عن مجيء عمر من المدينة لتسلم بيت المقدس ،فيقول ما ملخصه : « أن عمر ـ رضي الله عنه ـ ركب من المدينة على فرس؛ ليسرع السير بعدما استخلف عليها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فسار حتى قدم الجابية فنزل بها، وخطب بالجابية خطبة طويلة بليغة منها :« أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، اعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم ، واعلموا أن من أراد الجنة فليلتزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد ، ولا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما،ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

ثم صالح عمر أهل الجابية، ورحل إلى بيت المقدس ، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورءوس الأمراء ، ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط

عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء،فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود ـ عليه السلام ـ وصلى فيه بالمسلمين صلاة الغداة من الغد، فقرأ فى الأولى سورة ص وسجد فيها، والمسلمون معه. وفى الثانية سورة (بنى إسرائيل) ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، ثم نقل التراب عنها فى طرف ردائه، ونقل المسلمون معه ، وقد كان الروم يجعلون الصخرة مزبلة لهم لأنها قبلة اليهود ، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى فى الصخرة ... »[(١)] .

ثم أعطى عمر ـ رضى الله عنه ـ لأهل بيت المقدس عهد أمان عرف بالعهدة العمرية، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله : عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها . إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ،ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ،كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية : ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم ،فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم ،حتى يبلغوا مأمنهم. فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وأمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . كتب سنة ١٥ للهجرة شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان »[(٢)] .

وقد ظلت فلسطين إسلامية عربية منذ الفتح الإسلامى سنة ١٥ هـ ـ سنة ٦٣٦ م حتى قامت الحروب الصليبية سنة ١٠٩٩ م فاستطاع الصليبيون فى الجولة الأولى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ ص ٥٥ . مطبعة السعادة.

(٢) الفاروق عمر للمرحوم محمد حسين هيكل.

منها أن يستولوا على فلسطين ويجعلوها تحت نفوذهم حتى سنة ١١٨٧ م ، ثم وفق الله - تعالى - المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبى، لاسترداد فلسطين من الصليبيين، بعد أن خاضوا معهم عدة معارك من أبرزها معركة حطين التى انتهت بهزيمة الصليبيين فى ٢٥ من ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧ م ، وتلى ذلك معارك أخرى انتهت باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس فى يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣ هـ - ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م.

ويعلق أحد المؤرخين على أثر اليهود فى الحروب الصليبية، فيقول :

« ويتضح من دراسة هذه الحروب أن اليهود كانوا من وراء الصليبيين لغزو البلاد المقدسة ، فإذا كان اليهود قد عجزوا عن العودة للبلاد المقدسة فليحاولوا العودة خلف المسيحيين، وقد اتخذ اليهود المال وسيلة لهم ، فأخفوا مشاعرهم الدينية والوطنية خلف المال ؛ إذ كانوا يمثلون أغنى مراكز التجارة على الساحل الشمالى للبحر المتوسط، فساعدوا الصليبيين ليقوموا بهذه المغامرة باسم الصليب، لفتح الطريق التجارى إلى الشرق عبر فلسطين، ولكن الشعار اليهودى كان فى الحقيقة أقوى من الصليب، وأقوى من المال، وعلى أية حال فإن صلاح الدين الأيوبى سرعان ما استعاد بيت المقدس بعد موقعة حطين ، وتساقطت البلدان الأخرى فى يده ، ويد من جاءوا بعده، وبقيت فلسطين عربية إسلامية حتى قيام دولة إسرائيل »(١) .

وفى سنة ١٢٥٧ م اجتاح (هولاكو) المغولى بغداد، وانحدر منها إلى بلاد الشام ، ثم حاول القضاء على مصر إلا أن المسلمين بقيادة الملك المظفر (قطز) استطاعوا أن يقضوا عليه، وأصبحت فلسطين خاضعة لحكم المماليك.

وفى سنة ١٥١٧ م . انتصر الأتراك العثمانيون على المماليك، فصارت فلسطين ولاية عثمانية ، واستمر الأمر على ذلك حتى سنة ١٩١٧ م.

وفى ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ م احتل الإنجليز بقيادة الجنرال (اللنبى) مدينة القدس، وقد دخلها من باب الخليل، وقال عبارته المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

---

(١) اليهودية للدكتور احمد شلبى ص ٦٨.

ومن ذلك التاريخ خضعت فلسطين للحكم الإنجليزى، إلى أن سلموها اليهود في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨.

هذه خلاصة لتاريخ فلسطين منذ الفتح الإسلامى إلى أن استلب الجزء الأكبر منها اليهود، وأقاموا عليه دولة لهم.

(ب) ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن اليهودية والصهيونية، فنقول:

اليهودية والصهيونية فى الحقيقة: اسمان لمسمى واحد ، إلا أنه جرت عادة بعض الباحثين أن يعبر عن الصهيونية بأنها الجانب السياسى، أو الوجه القومى لليهودية، أو هى الجهاز التنفيذى لليهودية العالمية، التى تسعى إلى تدمير العالم ، والتحكم فى مصيره.

وكلمة صهيونية نسبة إلى :جبل صهيون الذى يقع فى جنوب بيت المقدس، وكان هذا الجبل يسكنه اليبوسيون ، فلما تولىٰ داود - عليه السلام - ملك بنى إسرائيل طرد اليبوسيين منه فترة من الوقت، وأصبح صهيون بعد ذلك مقدسا عند اليهود؛ لاعتقادهم بأن الرب يسكن فيه، فقد ورد فى سفر المزامير (رنموا للرب الساكن فى صهيون).

وورد فى دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة (الصهيونية) ما نصه:

« إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل ، واجتماع الشعب فى فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية ، وإعادة بناء الهيكل ، وإقامة عرش داود فى القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود »(١).

وجاء فى دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة الصهيونية، ما نصه:

« إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم ، وأن يقدموا إلى القدس، ويتغلبوا على قوة الأعداء، وأن يعيدو العبادة (أى: مكان المسجد الأقصى) ويقيموا ملكهم هناك »(٢).

وإذاً: فالصهيونية هدفها تحقيق الطموح اليهودى، الذى يرمى إلى الاستيلاء على فلسطين،وجعلها مركزا للدولة اليهودية،وإعادة بناء معبدهم المسمى (هيكل

---

(١) (حقائق عن فلسطين) إصدار الهيئة العربية العليا لفلسطين سنة ١٩٥٤ (ص ١١٤).

(٢) المرجع السابق.

سليمان) مكان المسجد الأقصى المبارك ، وممارسة عباداتهم وشعائرهم الدينية فيه.

والصهيونى هو: اليهودى الذى يؤثر المعيشة فى فلسطين على غيرها من البلاد، وهو كذلك من يساعد اليهود ماديا وأدبيا؛ ليقيموا فى فلسطين، ويستقروا بها.

والصهيونية كفكرة وحركة تدعو إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليست حديثة ، بل هى قديمة ، فقد زرعت بذورها ـ كما يقول بعض اليهود ـ يوم دكت مملكة إسرائيل على أيدى الأشوريين سنة ٧٢١ ق م ، ثم تمت بعد خراب أورشليم الأول على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق م، وسوق اليهود أسارى إلى بابل.

ويقول بعض الكتاب : « إن اليهود الذين سيقوا إلى بابل هم الذين وضعوا بذور فكرة التعصب العنصرى لليهود ؛ وهم أصحاب فكرة العودة إلى صهيون ، ودعاة أسطورة شعب الله المختار ».

ويقول (الفرد ليلتنتال) الكاتب اليهودى فى كتابه (ثمن إسرائيل) : « لقد بقيت فكرة دولة (إسرائيل) حية فى نفوس اليهود بترانيمهم،ومنها المزمور (٣٧) حيث يقول واضعه :

« على أنهار بابل هناك جلسنا ، بكينا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا . هناك سألنا الذين سبونا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون قلنا لهم : كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ، إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى ، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك ، إن لم أفضل أورشليم على أعظم أفراحى ، يا بنت بابل : طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة .. »(١).

(جـ) ولكى يعلم القارىء مقدار الجهد الذى بذلته الصهيونية للاستيلاء على فلسطين منذ خراب أورشليم الأول سنة ٥٣٨ إلى أواخر القرن التاسع عشر نسوق إليه ما يأتى :

١ ـ فى سنة ١٦٣ ق م قامت حركة المكابيين بزعامة الكاهن اليهودى (متاثيا) وأولاده، وكان هدفها إنشاء دولة مستقلة لليهود ، واستطاعت أن تنفرد بالحكم

---

(١) (هذه هى الصهيونية) لإسرائيل كوهين ص ٢٣ : سلسلة اخترنا لك رقم ١.

لفترة من الزمان ، إلا أنها لم يكتب لها البقاء، فقد قضى عليها الرومان قضاء نهائيا سنة ٣٧ ق م ، وقد فصلنا القول عنها فى الفصل الأول.

وثورة المكابيين يتفاخر بها اليهود فى العصر الحاضر ، فابن جوريون يقول عنها «إن هذه الثورات التى قام بها المكابيون قبل الميلاد ، وفرت لليهود الحرية السياسية فى القرن العشرين ».

وفى سنة ١١٧ م تزعم (باركوخبا) اليهودى حركة تدعو اليهود إلى التجمع والتكتل لإنشاء دولة لهم بفلسطين ، تعيد بناء الهيكل ، ويكون ملكها من نسل داود ـ عليه السلام ـ إلا أن هذه الحركة رغم ما أثارته من حماس لم يكتب لها النجاح ، بل قضى عليها قضاء تاما.

٣ ـ وفى سنة ٣٦١ م استعمل اليهود شتى الوسائل مع الإمبراطور (جوليان) الرومانى ليعيد لهم بناء معبدهم، ويمنحهم الاستقلال ، وقد منّاهم (جوليان) بإجابة مطالبهم، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يفى بعهده معهم.

وفى خلال القرن الرابع وعدهم أحد ملوك الفرس بمنحهم الحرية إذا انضموا تحت لوائه ، ولكنه لما رأى منهم مخادعة وغدرا اضطهدهم وأذلهم.

٤ ـ ثم توقفت مساعى اليهود لتحقيق حلم العودة خلال القرون الوسطى، بسبب الاضطهادات التى نزلت بهم، وانعدمت مشاريعهم ، وتركزت جهودهم فى تثبيت فكرةالعودة فى نفوسهم عن طريق التضرع والصلاة فى المعابد؛ وعملوا على ترسيخ عاداتهم القديمة وطقوسهم الخاصة فى نفوس الأفراد، وساعدهم فى ذلك أسلوب حياتهم المنطوى فى الأحياء الخاصة بهم ، والتى عاشوا فيها مئات السنين.

وفى هذه الأجواء المنعزلة لمعت أسماء عدد من مفكريهم وأحبارهم وكهانهم . . الذين وضعوا دراسات للفكر اليهودى ، وكان من أبرز هؤلاء (اليعازركالير) فى القرن السابع، و (سعاد غاؤون) من سنة ٨٨٢ ـ ٩٤٢ م و (موسى بن ميمون) من سنة ١١٣٥ ـ ١٢٠٤ م و (إسحاق لوريا) من سنة ١٥٣٤ ـ ١٥٧٢ م . . . وغيرهم كثيرون.

أما أسباب خمود النشاط اليهودى، وتوقف العمل المنظم، وتجميد المساعى الجدية فترجع إلى عدم ملاءمة الظروف السياسية والاجتماعية ،كما قال أحد مفكريهم.

وقد استغلوا هذه القرون لإثبات وجودهم، عن طريق عشرات الجمعيات والمنظمات، التي شكلوها في هذه المرحلة من تاريخهم ، والتي اتصفت بتبني سياسة دفاعية عامة.

وأشهر هذه الجمعيات التي عرفتها أوروبا (الكابالا) و (الماسونية) و (فرسان المعبد) وجماعة (الصليب الوردي) وغيرها من الهيئات السرية التي أوجدها اليهود لخدمتهم والعمل لمصلحتهم ... »[1] .

٥ ـ ثم عاد لليهود بعض نشاطهم خلال القرن السادس عشر، ففي سنة ١٥٣٢ م قامت حركة (دافيدروبين) وتلميذه (سولومون مولوخ) وكان هدف هذه الحركة تجميع اليهود وإعادتهم إلى فلسطين؛ ليقيموا دولة لهم فيها .

٦ ـ وفي سنة ١٥٦٦ م طلب اليهودي الأسباني (دوم جوزيف ناس) من السلطان العثماني ، أن يبيعه مساحة واسعة من الأراضي القريبة من بحيرة طبريا بثمن مرتفع، وكان مقصده من وراء هذا الطلب إقامة أول مستعمرة يعمرها اليهود ويحتلونها، مهاجرين إليها من أنحاء العالم المضطهدين به ، إلا أن السلطان العثماني رفض طلبه رفضا نهائيا[2] .

٧ ـ وفي سنة ١٦٠٤ قامت في بريطانيا حركة (منشه بن إسرائيل) التي كان هدفها جمع يهود العالم في بريطانيا ، ثم تهيئة موطن لهم في فلسطين يهاجرون إليه بعد ذلك، ويقيمون به.

ويبدو أن هذه الحركة كانت النواة الأولى للصهيونية الحديثة، التي وجدت لها أرضا خصبة هي بريطانيا ، ترعرعت فيها ونمت ، واستطاعت خلال ثلاثة قرون أن تسخر جميع قوى الإنجليز من أجل تحقيق أهداف اليهود[3] .

٨ ـ وفي سنة ١٦٢٦ م قامت حركة عنيفة بزعامة (شبناي ليفي) تولى أفرادها الدعوة بنشاط؛ لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وزعم قائدها : أنه هو المسيح المنتظر ، إلا أن هذه الحركة رغم تعصبها ونشاطها فشلت في مساعيها ، بل

---

(١) من كتاب (إسرائيل : فكرة : حركة ، دولة) لهاني الهندي ومحسن إبراهيم ص ٣٣ .

(٢) الصهيونية العالمية وأرض المعاد ص ١٣٤ .

(٣) خطر اليهودية .. للأستاذ عبدالله التل ص ١٥٨ .

أخذ بعض اليهود يحاربها، ويدعو بنى قومه إلى تقبل العيش فى البلاد المستقرين فيها، وأن يكتفوا بالجانب الدينى من يهوديتهم، ويهملوا الجانب السياسى منها .

٩ ـ وفى سنة ١٦٦٣ م زاد اضطهاد اليهود فى ألمانيا ، وإيطاليا ، وهولاندا ، ومصر ... فهرب عدد كبير منهم إلى فلسطين، واستقروا بها كأفراد مهاجرين خاضعين لنظم الدولة العثمانية، التى كانت فلسطين ولاية من ولاياتها .

١٠ ـ وبعد قيام الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ م زاد نشاط اليهود فى المطالبة بإنشاء وطن قومى لهم بفلسطين ، وذلك لأن الثورة الفرنسية كانت من صنع أيديهم ـ كما صرحوا بذلك فى بروتوكولاتهم ـ لأن موجة الاضطهادات التى كان الشعب الفرنسي ينزلها بهم قبل الثورة ، خفت حدتها، أو انعدمت بعد قيام الثورة، بل إن اليهود بدءوا يتحكمون فى فرنسا بعد ذلك ، مما حمل (نابليون بونابرت) أن يوجه نداء إلى يهود العالم يدعوهم فيه إلى الانضواء تحت لوائه ، لكى يعيد إليهم مجدهم الضائع ، ويرد إليهم حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين .

وقد نشر هذا النداء بالجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٩ م ولكن (نابليون) توالت عليه الأحداث، فلم يستطع أن يفعل لهم شيئا ، فضلا عن أنه كان فى الحقيقة يقصد من وراء النداء إبعادهم عن فرنسا، بعد أن لمس تحكمهم فى كل مرافقها، وبعد أن رآهم قد تمادوا فى إثارة حماسة اليهود؛ لإعادة بناء دولتهم الغابرة فى فلسطين .

ففى سنة ١٧٩٧ م ألقى أحد زعمائهم فى فرنسا خطابا مثيرا تحدث فيه عن آمالهم وآلامهم ، وطالبهم فيه بالعمل الجاد من أجل العودة إلى فلسطين، وهذه فقرات منه :

« أيها الإخوان : لا يغربن عن ذهنكم أن زفراتكم وتنهداتكم صعدت فى خلال العصور إلى عنان السماء؛ لشدة ما رزحتم تحت أثقال الجور والاضطهاد، فهلا تنوون أن تتخلصوا نهائيا من الحالة المقرونة بالإذلال والانحطاط، التى وضعكم فيها أناس من الهمج . إننا نرى الازدراء مرافقا لنا فى كل مكان، فالبدار البدار . فقد حان الوقت لتحطيم سلاسل الخسف والإهانة، التى طوق العدو بها أعناقكم ، وخلع النير الذى لا يطاق احتماله . نعم: قد آن الأوان لنهوضنا واحتلال المركز اللائق بنا بين أمم العالم . فهيا بنا أيها الإخوان لتجديد هيكل

أورشليم. إن عددنا يبلغ ملايين متعددة منتشرين فى جميع أقطار العالم . وفى حوزتنا ثروات طائلة واسعة، وممتلكات عظيمة شاسعة، فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل؛ لاستعادة بلادنا . إن الفرصة لسانحة، ومن واجبنا أن نغتنمها.

إنه يجب العمل بالوسائل التالية لتحقيق هذا المشروع المقدس ، وهى إقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى الأربعة عشر بلدا التالية، وهى : إيطاليا، وسويسرة، والمجر ، وبولونيا ، وروسيا ، وبلاد الشمال، وبريطانيا العظمى، وأسبانيا، وبلاد ولس ، والسويد ، وألمانيا، وتركيا ، وآسيا، وإفريقيا .

فاللجنة الممثلة لليهود المقيمين فى هذه البلدان كلها يمكنها أن تبحث فى مهمتها، وتتخذ ما تراه من القرارات فى صددها ، ويكون من الواجب على جميع اليهود أن يقبلوا هذه القرارات، ويجعلوها بمثابة قانون لا مندوحة لهم من الخضوع له.

أما البلاد التى تنوى قبولها باتفاق مع فرنسا ،فهى إقليم الوجه البحرى من مصر ،مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ،ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر. فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز آخر فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر، قابضين على ناصية تجارة الهند، وبلاد العرب،وإفريقيا الشمالية والجنوبية .ولا شك فى أن بلاد أثيوبيا والحبشة لا تتأخر عن إقامة علاقاتها التجارية معنا،بملء الرضا والارتياح،وهى البلاد التى كانت تقدم للملك سليمان الذهب والعاج والحجارة الكريمة.

ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا ، وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة، مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوروبا.

ولما كانت بلادنا فى موقع متوسط من العالم فإنها ستصبح كمستودع لجميع الحاصلات التى تنتجها الأراضى الغنية.

أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى الخاصة باقتراحاتنا على الباب العالى فلا يجوز نشرها علنا، وعلى رءوس الأشهاد ، وسنكون مضطرين لإبقاء هذه المسألة منوطة بحسن إدارة الأمة الفرنسية.

أيها الإخوان : يجب ألا تدخروا وسيلة أو تضحية فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية، أى: الرجوع إلى بلادنا ، حيث يمكن أن نعيش فى ظل شرائعنا الخاصة ، وأن نجدد البلاد المقدسة، التى اشتهر أجدادنا بما بذلوه فى سبيلها من التضحية . وما أظهروه من الشجاعة والشهامة، فكأنى أراكم الآن ونار الإيمان تضطرم فى صدوركم. فيأيها الإسرائيليون لقد قربت الساعة، التى ينتهى فيها أجل حالتكم التعسة، إن الفرصة الآن سانحة، فحاذروا أن تفلت من أيدكم»(١).

هذا هو الخطاب الذى ألقاه أحد حاخامات اليهود، قبل قرن ونصف القرن من قيام دولة إسرائيل ، وفيه تتجلى مطامع اليهود فى ضم الوجه البحرى من مصر إلى دولتهم ،التى رسمتها لهم خيالاتهم وأحلامهم.

١١ ـ وفى خلال القرن التاسع عشر واصل اليهود مساعيهم الكبيرة ، واستعملوا وسائلهم المتنوعة من أجل استيطان فلسطين.

ففى سنة ١٨٤٠ م سعى يهود أوروبا الغربية للحصول على وعد حكومى من بريطانيا، لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، فقد أرسل اللورد (شافنيرى) مذكرة إلى وزير خارجية بريطانيا أثناء انعقاد مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ يطالبه فيها بأن تتعهد بريطانيا بإنشاء دولة لليهود فى فلسطين..

وقد نتج عن هذه المساعى الحثيثة أن أعلنت انجلترا حمايتها لليهود المقيمين فى فلسطين ، وأرسل رئيس وزراء انجلترا حينذاك خطابا بذلك إلى القنصل البريطانى بالقدس ،وبعد سنة واحدة على هذا المؤتمر ، عقد مؤتمر آخر فى دبلن كان من بين مقرراته « طلب التدخل البريطانى فى سبيل استيطان اليهود بفلسطين ».

١٢ ـ وفى سنة ١٨٥٤ م قام الحاخام الأكبر الإنجليزى، ومعه الوزير اليهودى السيد (موسى مونتفيورى) بحملة ضخمة لجمع التبرعات لشراء أرض فى فلسطين يستوطنها اليهود،وقد جمعوا كدفعة أولى لهذا الغرض أكثر من ٣٠ ألف جنيه.

وقد تم فعلا عن طريق هذا المبلغ وغيره شراء بعض الأراضى فى فلسطين، وكان ذلك بمثابة البذرة الأولى فى الأراضى المقدسة.

---

(١) عن كتاب (خطر اليهودية) للأستاذ عبدالله التل.

١٣ - وفى سنة ١٨٥٦ م قام (موسى مونتيفيورى)[١] بزيارة لفلسطين، واشترى مزرعة ضخمة للحمضيات قرب مدينة يافا ، واستخدم للإشراف عليها عمالا من اليهود فقط، ثم شرع فى بناء عشرات المساكن الخاصة باليهود فى مدينة القدس، وقد عرفت هذه المساكن باسم (ميشوريم) وكان ذلك فى سنة ١٨٥٨م، وتبعته فى الطريق نفسه أسرة (روتشيلد) المشهورة بغناها، الذى لا يضارع فى العالم كله، فاشترت هذه الأسرة الأراضى الواسعة فى فلسطين ، وقدمتها كهدايا إلى يهود أوروبا الشرقية، كى يستوطنوا فلسطين،وهناك كثير من أغنياء اليهود بذلوا الملايين من أموالهم من أجل توطين اليهود فى الأراضى المقدسة.

١٤ - وفى سنة ١٨٦٩ م قامت فى فرنسا (منظمة الاليانس الإسرائيلية) التى كان هدفها نشر اللغة العبرية بين يهود العالم ، حتى يشب أطفالهم مشبعين بها، ومتحمسين للعمل من أجل العودة إلى فلسطين ، وقد نجحت هذه الجمعية نجاحا كبيرا فى نشر اللغة العبرية، واستطاعت أن تنشىء عدة مدارس، ومستعمرات لليهود فى فلسطين.

١٥ - وفى سنة ١٨٨٢ وبعد المذابح الكبيرة التى نزلت باليهود فى روسيا قاموا بإنشاء جمعية (عشاق صهيون) التى من أهم أهدافها ترحيل اليهود إلى فلسطين، ويقول (وايزمان)[٢] فى مذكراته عن هذه الجمعية :

« إن الحركة الصهيونية فى حقيقتها وجوهرها نشأت فى روسيا، وأن يهود روسيا كانوا العمود الفقرى للكيان اليهودى فى فلسطين، منذ قيام الحركة »[٣] .

وعن طريق هذه الجمعية تسللت إلى فلسطين الدفعة الأولى من يهود روسيا ، حيث أنشأوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا ، وأطلقوا عليها اسم (ريشون ليزيون) أى: الأولون فى صهيون، ويسميها بن جوريون الهجرة الأولى.

---

(١) موسى مونتيفيورى من كبار أثرياء اليهود ، وقد بذل الملايين من أمواله فى سبيل توطين اليهود فى فلسطين، كما استعمل نفوذيه المالى والأدبى من أجل ذلك، وقد زار فلسطين عدة مرات ليطلع على أحوال اليهود فيها، وليساعدهم بشتى أنواع المساعدات وقد تمذهب بمذهب الأرثوذكس ليتمكن من خدمة اليهودية من وراء ستار ، ولد سنة ١٧٨٤م وتوفى سنة ١٨٨٥م.

(٢) وايزمان هو أول رئيس لدولة إسرائيل ، وإليه يرجع الفضل الأكبر فى إنشائها ، فهو الذى كتب وعد (بلفور) وهو الذى كان ينطق بلسان اليهود فى المؤتمرات الدولية ولد بروسيا سنة ١٨٧٤ وتوفى سنة ١٩٥١ م.

(٣) مذكرات وايزمان ص ١٤ .

هذه هى أهم الجهود التى بذلها اليهود عبر القرون حتى نهاية القرن التاسع عشر، وقد علق عليها بعض الكاتبين فقال:

« فى هذه المرحلة تكشف النشاط اليهودى، ورصدت الأموال ، وبدأت (الدفعة الأولى) من المهاجرين اليهود تفد إلى فلسطين ، إلا أن العمل فى هذه المرحلة لم يكن منظما مدروسا، بل قام - فى مجموعه - على أسس فردية، أو على شكل جمعيات لم تنظم جديا بالنسبة للمرحلة ، وقد اعتبر المؤرخون أن مرحلة رسوخ الفكرة انتهت بظهور كتاب (الدولة اليهودية) لهرتزل، ونجاح المؤتمر العالمى فى (بال) بسويسرا سنة ١٨٩٧ م »[١].

(د) مرحلة الإعداد العملي والتحضير الفعلى لإعلان دولة إسرائيل :

يرى كثير من الباحثين أن مرحلة الإعداد الفعلى لإنشاء دولة إسرائيل، والاعتراف بها تبدأ بانعقاد المؤتمر اليهودى العالمى فى مدينة (بال) بسويسرا سنة ١٨٩٧ م ؛ وتنتهى بقيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م.

وإليك أهم الجهود التى قامت بها اليهودية العالمية فى تلك المرحلة، وأهم المساعدات التى قدمتها لها دول الكفر، من أجل إنشاء دولة لها بفلسطين.

فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٩٧ م انعقد أول مؤتمر صهيونى فى مدينة (بال) بسويسرا ، برئاسة (تيودور هرتزل)[٢]، وحضره مندوبون عن يهود العالم بلغ عددهم (١٩٦) عضوا ، اجتمعوا حول مائدة واحدة، وتدارسوا الوسائل الكفيلة بإعادة دولة إسرائيل ، وقد حدد (هرتزل) أهداف هذا المؤتمر بقوله :« إننا اجتمعنا هنا؛ لكى نضع حجر الأساس للمبادىء، التى تجمع الشعب اليهودى، ولدولة يهوذا التى زالت منذ عشرين قرنا ».

واستمر المؤتمر منعقدا لمدة ثلاثة أيام ،ثم خرج المؤتمرون بعدها بقرارات، من أهمها القرار التالى:

---

(١) إسرائيل فكرة، حركة، دولة لهانى الهندى ومحسن إبراهيم ص ٤٩.

(٢) هرتزل يعتبره اليهود رائد الصهيونية الحديثة ، فهو الذى سعى إيجابيا لإنشاء دولة إسرائيل ، ونشر كتابا فى ذلك أسماه (الدولة اليهودية) اثار ضجة فى العالم وهو الذى كان يترأس اليهود فى مؤتمراتهم العالمية. اشتغل بالمحاماة والصحافة ولد سنة ١٨٦٠ وتوفى سنة ١٩٠٤ م.

« إن أماني الصهيونية هى إنشاء وطن للشعب اليهودى يعترف به من الناحيتين: الرسمية والقانونية ، ويصبح الشعب اليهودى بإنشائه فى مأمن من الاضطهاد ، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين ».

وكان من بين القرارات التى اتخذوها ، تشجيع اشتراك يهود العالم كافة فى أعمال المؤتمرات القادمة ، وتقوية الحركة الزراعية فى فلسطين ، والإكثار من شراء الأراضى، التى يستملكها اليهود فى الأراضى المقدسة، وإنعاش الثقافةالعبرية والمشاعر العنصرية، بين يهود العالم ، والقيام بمساع لدى مختلف الحكومات؛ لتأييد الكفاح اليهودى ماديا وأدبيا.

وعقب إعلان هذه القرارات ، كتب (هرتزل) مقالا فى صحيفته التى كان يصدرها فى النمسا يقول فيه:

« لو طلب إلى تلخيص أعمال مؤتمر (بال) فإنى أقول، بل أنادى على رءوس الأشهاد أنى أسست الدولة اليهودية ، وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك، ولكن العالم بعد خمسة أعوام، أو بعد خمسين عاما سيرى من غير شك ، قيام الدولة اليهودية حسبما تمليه إرادة اليهود بأن تنشأ لهم دولة ».

ولقد صدق الرجل فى نبوءته ، فبعد عشرين عاما من انعقاد أول مؤتمر للصهيونية، حصل اليهود على وعد بلفور ، وبعد خمسين عاما من انعقاده ـ أيضا ـ جاء قرار التقسيم لفلسطين بين العرب، واليهود سنة ١٩٤٧ .

ولقد تفاخر اليهود كثيرا بمجهودات (هرتزل) واعتبروه نبى الصهيونية ومؤسسها الأكبر ، وفيه يقول (وايزمان) أول رئيس لدولة إسرائيل : «إن عظمة هرتزل تتجلى فى اضطلاعه بدور العمل الإيجابى ، الذى يمثل الإقدام والتفانى فى خدمة الفكرة الصهيونية».

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك سنويا لخدمة الصهيونية ، وتمكينها من استعمار فلسطين، ففى سنة ١٨٩٨ م عقد المؤتمر الثانى وحضره (٣٤٩) عضوا مندوبين عن يهود ا لعالم ،وكان من بين هؤلاء الأعضاء عدد كبير من رجال الدين...

وكان من أبرز مقرراته تأسيس شركة كبيرة تتولى شراء الأرض بفلسطين، وتقوم بتوزيعها على المهاجرين إليها؛ وتشجيع الجمعيات التى تعمل على نشر اللغة العبرية فى العالم.

وفى عام ١٨٩٩ م عقد المؤتمر الثالث بمدينة (بال) أيضا ، وحضره مئات اليهود، وكان من أهم مقرراته ؛ تنظيم الدعاية الصهيونية فى دول أوروبا بصفة خاصة، والتوسع فى شراء الأرض بفلسطين، والإكثار من بناء المستعمرات الخاصة بالعمال .

وفى سنة ١٩٠٠ م عقد المؤتمر الرابع بلندن ، وكان القصد من وراء انعقاده فى لندن ؛ الاتصال المباشر بالحكومة الإنجليزية ، وتكليفها بان تضغط على السلطان عبد الحميد، ليسهل لليهود شراء ما يريدون من الأراضى فى فلسطين ، وذلك لأن السلطان عبد الحميد عندما رأى توسع اليهود فى شراء الأراضى بفلسطين أخذ يضيق عليهم ، ويضع العراقيل فى طريقهم .

« وفى هذا المؤتمر تقرر إنشاء « الصندوق القومى لليهود » ، وكان هدفه العمل على شراء الأراضى بفلسطين ، أو على حد التعبير العجيب الذى يستعملونه ، إعادة شراء الأراضى بفلسطين ، ولقد كان هذا الصندوق من أنشط الإدارات التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية »[١] .

وقد وصف (بن جوريون) ما حققته اليهودية العالمية من مكاسب حتى نهاية القرن التاسع عشر، فقال :« كان لنا فى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر (١٣) مستعمرة جديدة ، وقد زرعت البذور الأولى للدولة اليهودية ؛ ولكن العنصر الأساسى وهم العمال اليهود ، لم يكن متوفرا تماما . وقد سد هذا النقص بطليعة (الدفعة الثانية) من المهاجرين التى وصلت فى السنين الأولى من القرن الحالى، وعندها وضع الأساس الثابت للدولة، إذ تشكلت فى فلسطين قوة يهودية مستقلة ذات طابع اقتصادى عسكرى وثقافى »[٢] .

ويصف (هيرمان شابيرو) ما حققه اليهود من أطماع فى فلسطين حتى نهاية القرن التاسع عشر ،فيقول : « كانت نهاية القرن الماضى بداية بناء الدولة، فلقد وضعنا حجر الأساس لبيت إسرائيل، ثم ياتى أبناؤنا بعدنا فيبنون الجدران، وبعد ذلك يضع أحفادنا الأبواب » .

---

(١) نظام الحكم فى إسرائيل ص ١٣ .

(٢) الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل لسنة ٥٣ ـ ٥٤ المقدمة ص ٨ .

وفى مطلع القرن العشرين بدأت الصهيونية العالمية تتخذ شكلا عمليا واسعا ومدروسا؛ لتكوين دولة إسرائيل فى فلسطين.

ففى سنة ١٩٠١ عقد اليهود مؤتمرهم السنوى الخامس فى مدينة (بال) بسويسرا ، وحضره - أيضا - مئات من اليهود، وكان من أهم قرارات هذا المؤتمر ، «الموافقة على إنشاء جامعة عبرية فى فلسطين ، لنشر الثقافة اليهودية بين سكانها اليهود » ، وقد تبنى هذا الاقتراح وتكفل بتنفيذه الدكتور (حاييم وايزمان) الذى كان يعتبر العقل المفكر للحركة الصهيونية فى ذلك الوقت.

وفى خلال هذا العام - أيضا - أعاد اليهود مساوماتهم للسلطان عبد الحميد وأخذوا يقدمون له شتى المغريات؛ لإقناعه بتأسيس الدولة اليهودية فى فلسطين وذهب إليه زعيمهم (هرتزل) وبصحبته عدد من شيوخ صهيون، وعرضوا عليه المساعدات المالية الضخمة، لإنقاذ الإمبراطورية من التدهور المالى ، وتمويلها بما تحتاج إليه من أموال بعد ذلك فى نظير السماح لهم بإنشاء دولة يهودية بفلسطين.

ولكن السلطان عبد الحميد رغم حاجته إلى المال رد على (هرتزل) وزمرته بما يخيب آمالهم إذ كتب إليهم يقول :

«أنصح الدكتور (هرتزل) بألا يتخذ أية خطوات أخرى فى هذا الموضوع، ولا يسعنى أن أسمح بتحويل شبر واحد من الأرض لليهود ،لأن هذه الأرض ليست ملكا شخصيا لى لأتصرف فيها أنا، بل هى ملك الشعب، وقد كافح شعبى وحارب من أجل هذه الأرض فأخضبها بدمائه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا ما مزقت أوصال إمبراطوريتى، فإنهم يحصلون على فلسطين مجانا، إنهم لا يستطيعون اقتطاع شىء من هذه الإمبراطورية، إلا إذا تحولت إلى جثة هامدة ، إننى لا أستطيع الموافقة على تشريح جسم بلادى وهى لاتزال حية ... »[١].

ومع هذا الرد الحاسم من السلطان عبد الحميد على اليهود بقى (هرتزل) يراوغ ويتوسل بقيصرى ألمانيا وروسيا . . .إلا أن توسلاته ومحايلاته باءت جميعا بالفشل إزاء تصميم السلطان عبد الحميد ودهائه ، وفهمه العميق لما يهدف إليه اليهود من مطامع.

---

(١) الوطن اليهودى وعلاقته بالأرض المقدسة للأستاذ موسى حبيب ص ٨٩ .

وفى سنة ١٩٠٢ م وافق السلطان عبد الحميد ـ بعد مفاوضات طويلة مع اليهود ـ على ما يأتى : « أن تعطى الحكومة العثمانية وعدا لليهود يقضى لهم بالهجرة إلى بلاد الإمبراطورية المختلفة فى آسيا، على شرط أن يصبح اليهود المهاجرون من رعايا الدولة العثمانية ، وأن يخضعوا للخدمة العسكرية، وأن يسكنوا فى بلاد الدولة العثمانية متفرقين غير مجتمعين ، كل خمس أسر على الأكثر فى منطقة واحدة باستثناء فلسطين فإنها محرمة عليهم »[١].

وذهل اليهود لهذه العروض التى قدمها لهم السلطان ، ورفضوها جملة وتفصيلا، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه، واستعملوا من أجل ذلك مختلف الوسائل . . وتمكنوا فى النهاية من أن يدفعوا صنائعهم الملحدين فى الجيش التركى ليقوموا بثورة ضد السلطان عبد الحميد . . . وقد انتهت هذه الثورة بعزله عن الحكم. وكان من بين الثلاثة الذين تولوا تسليمه قرار العزل يهودى اسمه (قرة صو) أفندى .

وبذلك انتقمت اليهودية العالمية لنفسها من السلطان عبد الحميد .

وفى سنة ١٩٠٣ م عقد المؤتمر السادس لليهود ، وكان معظم النقاش فيه يدور حول إمكانية قبول إنشاء دولة لليهود فى غير فلسطين كسيناء. . أو قبرص . . أو أوغندا . . وقد استطاع يهود شرق أوروبا بصفة عامة، ويهود روسيا بصفة خاصة ؛ أن يهدموا كل اقتراح يرمى إلى توطين اليهود أية منطقة فى العالم سوى فلسطين وأن يخرجوا بقرار مؤداه أن :« فلسطين هى الوطن القومى الأبدى للشعب اليهودى » .

وبدأ اليهود فى هذا العام يبحثون جديا عن دولة تساعدهم لبلوغ غاياتهم ولم يطل بحثهم ؛ فقد وجدوا ضالتهم المنشودة فى بريطانيا، فولوا وجوههم شطرها ، لتساعدهم على إنشاء دولة لهم بفلسطين.

ولقد كان (حاييم ويزمان) هو صاحب فكرة التقرب إلى بريطانيا؛ لأن شعبها من أكثر الشعوب إيمانا بأن الدولة اليهودية لابد أن تقوم فى فلسطين حسب نص

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣.

التوراة كما فهمه الإنجليز .. ولأن انجلترا فى ذلك الوقت كانت مسيطرة على دول كثيرة فى العالم .. ولأن اليهودية العالمية كانت أقوى ما تكون نفوذا فى بريطانيا حينذاك ...

وقد رحبت بريطانيا بهذا التقرب والتشبث، ووجدت فى ذلك منفعة لها، وبذلك التقت مصالح الاستعمار مع مطامع الصهيونية العالمية.

وفى أغسطس سنة ١٩٠٥ عقد المؤتمر السابع برئاسة (دافيد وولفنسون) ـ بعد وفاة هيرتزل سنة ١٩٠٤ ـ وكان من أبرز مقررات هذا المؤتمر توسيع الهجرة السرية إلى فلسطين ، وإنشاء مكتبة عبرية كبيرة بها.

وفى سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر التاسع برئاسة (ماكس نورداو) من يهود « هنغاريا » وكان مقر انعقاده فى « هامبورج » بألمانيا ، وقد تقرر فى هذا المؤتمر إنشاء مصرف للتسليف الزراعى، وإقامة مستعمرات تسير على النظم التعاونية، وبدىء فى هذه السنة بإنشاء مستعمرة (تل أبيب) وأخذت فى التوسع بعد ذلك حتى أصبحت هى العاصمة لإسرائيل.

وفى سنة ١٩١١ عقد المؤتمر الصهيونى العاشر برئاسة (نورداو) أيضا، وكان من أهم مقرراته إنشاء شركة تحسين الأراضى، وكان هدفها شراء الأراضى العربية وتقديمها للمهاجرين اليهود.

وفى سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادى عشر فى النمسا ، وفيه اتفق المؤتمرون على إنشاء الجامعة العبرية بالقدس.

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك وكانت تمثل تحولا ضخما فى تاريخ اليهود ، لأنها مكنتهم من التجمع لإحياء مطامعهم، بعد أن ظلوا مشتتين ممزقين أكثر من عشرين قرنا ، وأصبح لهم ممثل رسمى يتحدث عنهم ، ولأنهم عن طريقها رسموا الخطط المدروسة؛ لاستلاب فلسطين ،واستطاعوا أن يسخروا كثيرا من الدول لخدمة أغراضهم وآمالهم ...

وحينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م كان عدد المستعمرات التى يمتلكها اليهود حوالى أربعين مستعمرة زراعية ، تبلغ مساحتها زهاء مائتى ألف فدان، ويعمل عليها ما يقرب من اثنى عشر ألفا من اليهود، وبلغ مجموع اليهود الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت أكثر من تسعين ألفا، كان نصفهم تقريبا يسكن مدينة القدس.

ورأى اليهود أن نشوب الحرب العالمية فرصة ثمينة لهم؛ لتحقيق مطامعهم، وأخذوا ينظرون إلى الكفة الراجحة ليتقربوا منها ... وأخيرا استقر رأيهم على مناصرة بريطانيا ، لأنهم وجدوا أن علامات النصر تدنو منها، فالتحق عدد كبير من اليهود بالخدمة فى الجيش البريطانى، وكانوا يلبسون ملابس الجيش البريطانى ويحملون النجمة المسدسة كشعار لهم ، ونجح الدكتور (وايزمان) فى إنتاج مادة (الاستيون) لصناعة المتفجرات، التى أعدها فى مختبرات المعامل البريطانية . . واستغلهم الإنجليز فى التجسس لحسابهم ، ومن أشهر منظماتهم فى هذا المجال منظمة (نيلى) التى كان معظم أفرادها من يهود فلسطين.

وفضلا عن هذا، فقد استطاع اليهود أن يجروا أمريكا إلى الدخول فى الحرب العالمية الأولى؛ لمناصرة بريطانيا وحلفائها[١] .. وقبض اليهود ثمن هذه الخدمات لبريطانيا (وعد بلفور)[٢] الذى يقضى بأن يعمل الإنجليز على إقامة وطن قومى فى فلسطين لليهود، ونص الوعد هكذا:

« عزيزى مستر روتشيلد[٣] : تنظر حكومة جلالة الملك بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى ، وسوف تبذل أفضل الجهود لتسهيل بلوغ هذه الغاية، على أن يفهم جيدا أنه لايجوز عمل شيء قد يغير من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين، ولا الحقوق أو المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلاد أخرى ».

وقد فرح اليهود بهذا الوعد فرحا شديدا ، واعتبروه نقطة تحول فى تاريخهم، وبلغت حماسة اليهود له مبلغا كبيرا ، إذ أيقنوا أن إعلانه قد وضع حدا لآلامهم وجاء محققا لتنبؤات كتابهم المقدس.

وقد ترتب على هذا الوعد أن ضاعف اليهود جهودهم؛ لبلوغ مطامعهم فى فلسطين ، وتقدموا إلى بريطانيا ببرنامج خاص طالبوا فيه بالاعتراف لليهود

---

(١) فى كتاب قضايانا فى الأمم المتحدة للأستاذ خيرى حماد تفصيل لقصة دخول أمريكا فى الحرب العالمية الأولى واثر اليهود فى ذلك.

(٢) (بلفور) كان وزيرا لخارجية انجلترا فى ذلك الوقت وكان معروفا بحبه لليهود ومعاونته لهم.

(٣) (روتشيلد) اغنى رجل فى العالم فى ذلك الوقت وهو يهودى متعصب ، دفع الملايين من أمواله فى سبيل توطين اليهود فى فلسطين، وهو الذى اقرض الحكومة البريطانية اربعة ملايين من الجنيهات لتشترى بها أسهم قناة السويس من الخديوى إسماعيل.

بجنسية خاصة بهم ، وإعطائهم الاستقلال الذاتي .. ثم خطا اليهود خطوة أخرى، فعملوا على أن تعترف بهذا الوعد (عصبة الأمم) وقد تم لهم ما أرادوا .

ففي أبريل سنة ١٩٢٠ م وقعت في (سان ريمو) معاهدة الصلح مع تركيا وفيها أدمج بيان وعد (بلفور) واعتبر جزءا من المعاهدة ، وبذلك أعطى الوعد طابعا دوليا، إذ سجل رسميا لدى عصبة الأمم.

ولكن من الذى كتب هذا الوعد؟ اعترف (وايزمان) في مذكراته بأنه هو الذى كتبه بالتعاون مع بعض اليهود ، وأنه بعد كتابته سلمه لبلفور في ١٨/٧/١٩١٧م.

والخلاصة: أن وعد (بلفور) :« كان وعدا ممن لا يملك، لمن لا يستحق، ثم استطاع الاثنان من لا يملك ومن لا يستحق بالقوة والخديعة، أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه، فيما يملكه وفيما يستحقه ».

وقد تبنت بريطانيا بعده تمكين اليهود من فلسطين حتى سلمتها لهم سنة ١٩٤٨م.

وفى التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ تم للانجليز احتلال القدس، وفى أوائل سنة ١٩١٨ تم لهم احتلال بقية أجزاء فلسطين ، وأصبحت فلسطين خاضعة للحكم العسكرى البريطانى، الذى امتد زهاء ثلاث سنوات تولى خلالها ، الحكم العسكرى على فلسطين عدد من الضباط المعروفين بميولهم اليهودية، وتمكن اليهود فى هذه الفترة من تنفيذ كثير من مشروعاتهم.

وفى سنة ١٩٢٠ أنهت الحكومة البريطانية الحكم العسكرى واستبدلت به حكما مدنيا امتد من هذا التاريخ إلى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م. وقد كان جميع الحكام الذين تولوا إدارة فلسطين فى تلك الفترة من الأشخاص الذين أصلهم يهودى ، أو ممن يعرفون بتشجيعهم لليهود. وبعضهم كان اليهود يختارونهم اختيارا للقيام بهذه المهمة، وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود الذين سمح لهم رسميا بسكنى فلسطين فى تلك الفترة أكثر من (٦٠٠) ألف مهاجر.

والخلاصة: أن عهد الانتداب البريطانى على فلسطين كان يقوم على وضعها تحت ظروف إدارية واقتصادية وسياسية، تضمن إنشاء الوطن القومى لليهود فيها ،

وأن الإنجليز فى فلسطين فى تلك الفترة ما كانوا إلا حراسا على مصالح اليهود ، ومنفذين لمطالبهم .

وقد قال وايزمان فى مذكراته بغرور وصلف .

« نحن اليهود كنا نسعى لإقامة دولة لنا بفلسطين ، وقد اخترنا الإنجليز لحكمها واستعنا فى هذا بعصبة الأمم ، فنحن الذين سلمنا فلسطين للإنجليز مؤقتا ، وليس الإنجليز هم الذين وهبوها لنا بعد ذلك . ولقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها ،وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها، ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود فى سنة ١٩٣٤ ولولا الثورات المتعاقبة التى قام بها عرب فلسطين لتم إنجاز هذا الاتفاق فى الوعد المذكور »[١].

وكان أول حاكم إنجليزى تولى الانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٠ هو (هربرت صموئيل) الذى اختاره اليهود لتلك المهمة؛ لأنه كان من أصل يهودى.

وعندما وصل (هربرت) إلى القدس اتجه رأسا إلى المعبد اليهودى ليصلى معهم.. وقد استمر (هربرت) حاكما لفلسطين مدة خمس سنوات حول خلالها وعد بلفور النظرى إلى حقيقة واقعة ، فقد أنشأ الوكالة اليهودية التى هى عبارة عن حكومة يهودية، ذات أجهزة تامة، وتضم أكثر من (٢٠٠) عضو من جميع أنحاء العالم . واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية ،وسهل تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين، حتى لقد بلغ عددهم فى عهده (١٥٦) ألف يهودى وسلم اليهود جميع وسائل الصناعة والزراعة ،وعين يهوديا مشرفا على أوقاف المسلمين ،ومنح اليهود مساحات شاسعة من أراضى الدولة، وأعطى اليهود امتياز استغلال مياه نهر الأردن لاستخراج الكهرباء وتولى القيام به اليهودى الروسى (بنحاس وتنبرغ) وكانت مدة امتيازه سبعين سنة ، ثم أعطاهم امتياز مشروع آخر يعتبر من أهم المشروعات، وهو مشروع (استغلال مياه البحر الميت) لأن مياهه تحتوى على كميات ضخمة من الأملاح، التى تستغل فى الصناعات المختلفة.

والخلاصة :أن (هربرت) سخر نفوذيه المادى والأدبى لتنفيذ مطامع الصهيونية .

ثم خلفه فى سنة ١٩٢٤ اللورد (بلومر) فسار على نهج سلفه (هربرت) فى تقديم كل المساعدات لليهود، وتضييق الخناق على العرب .

---

(١) مذكرات وايزمان ص ٢٨.

ومن الخدمات التى قدمها لليهود: منحهم امتياز استخراج أملاح البحر الميت، وتسهيل شراء الأراضى لهم.

ثم جاء من بعده حكام آخرون لفلسطين من الإنجليز ، ساروا جميعهم تبعا للخطةالمرسومة، التى وضعتها الحكومة اليهودية العالمية ، والتى تكفلت الحكومة الإنجليزية بتنفيذها، وكان كل واحد من هؤلاء الحكام خادما أمينا، وجنديا مطيعا لليهود.

وقد رأى عرب فلسطين أن بلادهم فى طريقها إلى أن تتحول إلى مستعمرة يهودية ،منذ أن وطئتها أقدام الإنجليز سنة ١٩١٧ كما شاهدوا بأعينهم أن الإنجليز يعاملون اليهود كما يعامل الوالد الحنون طفله الوحيد المدلل ... فهم يفتحون لهم أبواب الهجرة .. ويعطونهم الأرض بغير حساب ... ويفسحون لهم المجال لاستغلال المياه .. ويعينونهم فى أرقى المناصب، وأهمها فثار عرب فلسطين من جراء الظلم الذى نزل بهم من الاستعمار والصهيونية وهذه بعض الثورات التى قاموا بها منذ سنة ١٩٢٠ م حتى سنة ١٩٣٩.

١ - فى إبريل سنة ١٩٢٠ وقع صدام بين العرب واليهود فى مدينة القدس أسفر عن مقتل عدد كبير من اليهود ، وقد جرت محاكمات للفريقين حكم فيها بالسجن على عدد كبير من العرب.

٢ - وفى مايو سنة ١٩٢١ اعتدى اليهود على العرب فى يافا، وأدى اعتداؤهم على أرواح الآمنين إلى قتل عدد كبير منهم، واستمرت هذه المصادمات لمدة خمسة عشر يوما.

٣ - وفى أغسطس سنة ١٩٢٩ قام اليهود بتظاهرات واسعة فى القدس خاصة ، وتحدوا شعور العرب إذ رفعوا العلم الصهيونى قرب المسجد الأقصى، وتطورت المناوشات الأولى إلى اشتباكات عنيفة شملت معظم مدن فلسطين، واستمرت خمسة عشر يوما نظم المسلمون فيها هجمات قوية على المستعمرات اليهودية ، وقد قتل خلال هذه الثورات عدد كبير من العرب واليهود، إلا أن معظم العرب الذين قتلوا كان قتلهم بأيدى الإنجليز، وتعرف هذه الثورة باسم (ثورة البراق).

٤ - وفى نوفمبر سنة ١٩٣٣ نظم العرب تظاهرات كبيرة فى مدن فلسطين

احتجاجا على سياسة بريطانيا التى فتحت أبواب الهجرة على مصاريعها لليهود وقد قتل فى هذه الثورة عدد كبير من العرب واليهود.

٥ - وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ قامت ثورة ضخمة بزعامة الشيخ (عز الدين القسام) وأعلنت عصيانها وتمردها على الحاكم الإنجليزى ، وتحصنت فى غابة بالقرب من مدينة (جنين) إلا أن القوات البريطانية حاصرت الشيخ القسام ورفاقه .واشتبكت معهم فى معركة أسفرت عن مقتل الشيخ القسام، ثم قبض على من بقى حيا من رفاقه، وحكم عليهم بالسجن لمدد مختلفة.

٦ - ثم كانت الثورة ا لكبرى التى بذل فيها العرب دماءهم وأموالهم ، والتى امتدت من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ م.

ففى خلال هذه الفترة حمل المجاهدون الفلسطينيون السلاح، وتحصنوا بالجبال ووصلت إليهم قوات المتطوعين من خارج فلسطين، وأخذت الثورة تقوم بحرب العصابات ضد الإنجليز واليهود، وكان عدد جيش الإنجليز فى فلسطين فى ذلك الوقت سبعين ألفا من الضباط والجنود ، إلا أن الثوار المسلمين استطاعوا أن ينتصروا على جيوش الاستعمار والصهيونية فى كثير من المعارك ، وعندما عجزت بريطانيا بجيوشها وأسلحتها عن إخماد هذه الثورة، لجأت إلى الحيلة والدسائس والمخادعة ... واستطاعت أن تجعل ملوك العرب ورؤساءهم يتدخلون لإنهاء الثورة.

ففى أكتوبر سنة ١٩٣٦ م أصدر ملوك العرب وأمراؤهم البيان التالى :

« إلى أبنائنا عرب فلسطين ، لقد تألمنا للحالة السائدة فى فلسطين ، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب، والأمير عبدالله ندعوكم للإخلاد إلى السكينة؛ حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة الإنجليزية، ورغبتها الملحة فى تحقيق العدل، وثقوا أننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم »[١].

ثم هدأت الثورة بعد هذا البيان، وبعد أن امتدت ستة أشهر، استشهد خلالها حوالى ثلاثة آلاف عربى ، وجرح حوالى سبعة آلاف ، أما النساء والصبيان والشيوخ فقد بلغ عدد القتلى منهم ثمانية آلاف شهيد.

بعد ذلك شكل الإنجليز فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ م لجنة برئاسة المستر (بيل)

---

(١) المؤامرة الكبرى (اميل الغورى).

الإنجليزى للنظر فى مسألة فلسطين ، واستمعت اللجنة إلى أقوال اليهود والعرب، ثم عادت إلى لندن، ونشرت تقريرها فى يوليو سنة ١٩٣٨، وكان يتضمن مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والإنجليز ، كما تضمن اقتراحا بضم القسم العربى إلى إمارة شرق الأردن.

وبعد أن نشر التقرير عاد العرب إلى ثورتهم سنة ١٩٣٧ م وقتلوا عددا كبيرا من الإنجليز، من بينهم حاكم منطقة الجليل (أندروز) الإنجليزى.

وقام الإنجليز بأعمال عنيفة لإخماد هذه الثورة، من بينها حل اللجنة العربية العليا، واعتقال عدد كبير من زعماء فلسطين ، وتدمير القرى والمساكن ، ومع هذا فقد استمرت الثورة مشتعلة حتى سنة ١٩٣٩ .

ثم عقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن فى ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ حضره ممثلون عن الدول العربية، وعرب فلسطين ،وزعماء اليهود ، إلا أن هذا المؤتمر فشل بعد شهر من انعقاده.

ثم نشر الإنجليز بعد ذلك فى ١٧ مايو سنة ١٩٣٩ كتابا أبيض من بين بنوده : «وضع قيود على هجرة اليهود إلى فلسطين، بحيث لا يتجاوز عدد المهاجرين خلال خمس سنوات ٧٥ ألفا من اليهود ».

ورفض اليهود هذا الكتاب، وأوعزوا إلى صديقهم (تشرشل) بمهاجمته ، فهاجمه فى مجلس العموم البريطانى، وقد أهملت الحكومة البريطانية بسبب مهاجمة (تشرشل) له ما تضمنه هذا الكتاب من مقترحات فى صالح العرب.

وفى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ م اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية ، فاستغلها اليهود؛ لبلوغ مطامعهم، وتنظيم صفوفهم ، وإعداد العدة اللازمة لتحقيق مشروعاتهم فى فلسطين ، ومن أهم الخطوات التى اتخذوها لذلك جلبهم الأسلحة المختلفة إلى مستعمراتهم بفلسطين؛ لاستعمالها وقت الحاجة إليها.

وقد رحب الإنجليز بفكرة انضمام اليهود إليهم، للقتال فى صفوفهم، وبلغ عدد الجنود الذين انضموا إلى الجيش البريطانى من اليهود (٨٦) ألفا من الرجال و(٥) آلاف من النساء. وكان الجميع يعملون فى خدمة الجيش البريطانى.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سرحت هذه الآلاف من اليهود ، واحتفظ كل واحد منهم بسلاحه، كهدية له من الجيش البريطانى.

وهذه بعض الجهود التى بذلتها كل من بريطانيا وأمريكا خلال فترة الحرب لإرضاء مطامع الصهيونية العالمية.

١ ـ فى سنة ١٩٤٠ قرر مؤتمر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بفتح أبواب فلسطين لليهود.

٢ ـ وفى سنة ١٩٤٢ قدم اثنان وستون عضوا من مجلس الشيوخ الأمريكى ، ومائة وثمانون عضوا من مجلس النواب، مذكرة يطالبون فيها الولايات المتحدة بمساعدة اليهود فى إنشاء دولة لهم بفلسطين.

٣ ـ وفى سنة ١٩٤٣ م قرر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين؛ لتصبح لهم الأكثرية اللازمة لتأسيس دولة يهودية .

٤ ـ وفى سنة ١٩٤٤ م أصدر الرئيس (روزفلت) بيانا رسميا طالب فيه بفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين؛ لهجرة يهودية بلا حدود ، وأبدى فيه عطفه وعطف الشعب الأمريكى على اليهود المنكوبين.

٥ ـ وفى ٧ مايو سنة ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية بالانتصار على المانيا ، وفى ٢ سبتمبر من نفس السنة تم الانتصار على اليابان ، وكانت فى طليعة المنتصرين أمريكا ،التى غدت أكثر تحمسا من بريطانيا لإقامة دولة لليهود فى فلسطين ، إذ ما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى أصدر (ترومان) رئيس الولايات المتحدة حينئذ بيانا يطالب فيه الحكومة البريطانية بأن تسمح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فورا.

ثم قدم بعد ذلك خمسة آلاف قسيس أمريكى عريضة إلى الحكومة الأمريكية طالبوها فيها بالتدخل لفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين بلا قيود.

٦ ـ وفى ديسمبر ١٩٤٦ أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى حكومة أمريكا تطالبها فيها بالتخفيف من حماستها لليهود ، وتبين لها حقيقة القضية الفلسطينية ، فما كان من الحكومة الأمريكية إلا أن أرسلت فى ١٧ / ١ / ١٩٤٧ ردا على الجامعة العربية جاء فيه :

« إن الحكومة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عاضدت فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، حكومة وشعبا ، فتصرفها اليوم جاء مطابقا

لسياستها التقليدية عندما تدعو إلى اتخاذ التدابير الرامية إلى إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، وأما بشأن تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين من مناطق الاحتلال الأمريكى فى أوروبا ، فإن الكثيرين من هؤلاء اليهود المضطهدين يتطلعون إلى فلسطين كملجأ لهم ».

وكانت هذه المذكرة أوضح بيان، وأبلغ دليل على تدعيم أمريكا للصهيونية، ومشاركتها لبريطانيا فى التآمر على تهويد فلسطين.

وفى خلال هذه السنوات قامت الشعوب العربية بتظاهرات ضد سياسة بريطانيا وأمريكا بالنسبة فلسطين ، كما قام المجاهدون الفلسطينيون بثورات متعددة ضد الإنجليز واليهود ، واستطاعوا عن طريق هذه الثورات أن يزعجوا أمن بريطانيا، وأن يكبدوها خسائر فادحة، فى الأموال والأرواح.

وفى فبراير سنة ١٩٤٧ تظاهرت بريطانيا بالعجز التام، عن إيجاد حل لمشكلة فلسطين ، وقررت إحالتها إلى الأمم المتحدة.

وانتهزت اليهودية العالمية فرصة تحويل قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة فاستعملت كل إمكاناتها فى التأثير على أعضاء الأمم المتحدة؛ ليصوتوا بما يرضيهم، ووقعت خلال نظر القضية أمام الأمم المتحدة فى تلك الفترة مؤامرات ودسائس عجيبة، تولى كبرها (ترومان) رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت.

وبعد مداولات ومشاورات عرض قرار التقسيم لفلسطين، بين العرب واليهود على الأمم المتحدة فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ م ، فوافق عليه ثلاثة وثلاثون عضوا ، وعارضه خمسة عشر عضوا، معظمهم من البلاد العربية والإسلامية ، وكان على رأس الدول التى وافقت على التقسيم أمريكا وروسيا.

وبهذا القرار الدولى تحقق لبريطانيا ما كانت تريده لليهود ، وانتصر باطل اليهودية العالمية ،على حق العرب والمسلمين ،ونال اليهود وعدا رسميا من دول عديدة بتأسيس دولة لهم، فى قلب العالم الإسلامى، وأعلن الإنجليز عقب ذلك أنهم سيتخلون عن الانتداب على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ما عدا مدينة (حيفا) فإنهم يخرجون منها فى أول أغسطس سنة ١٩٤٨ .

وقد رفضت الدول العربية قرار التقسيم، واندلعت التظاهرات فى كل دولة عربية وإسلامية، وبدأت الجامعة العربية فى إعداد جيش لإنقاذ فلسطين من

المتطوعين ، وتألفت فى فلسطين قوات الجهاد المقدس بقيادة الشهيد (عبد القادر الحسينى) وقامت هذه القوات بنسف مبنى الوكالة اليهودية ، واستطاعت أن تسيطر على الطرق والمواصلات فى فلسطين ، وأن تعزل منطقة القدس التى كان يسكنها مائة وعشرون ألفا من اليهود .. وعندما رأى الإنجليز أن كفة العرب هى الراجحة، وأن اليهود قد اختبأوا فى جحورهم، قاموا بأعمال إجرامية رفعت من روح اليهود المعنوية، ومن أهم هذه الأعمال :

(أ) تسليم مدينة (حيفا) لليهود فى ٢١ إبريل سنة ١٩٤٨ م مع أنهم كانوا قد أعلنوا أن موعد إخلائهم لها سيتم فى أول أغسطس من العام نفسه، وبهذا التسليم اضطر مائة ألف عربى إلى الهجرة بعيدا عنها .

(ب) تسليم مدينة (يافا) لليهود فى ٢٤ إبريل سنة ١٩٤٨ مع أن موعد إخلائها كان محددا له ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ ، وكان هذا التسليم مفاجأة لسكانها العرب، لم يستطعوا معها أن يعدوا أنفسهم إعدادا كاملا لملاقاة اليهود، الذين هاجموا المدينة على حين غفلة ، وساعدهم فى ذلك الإنجليز . وسقط المئات من أبناء (يافا) صرعى؛ نتيجة غدر الإنجليز واليهود، ولم تدم المعركة سوى أيام نزح بعدها عرب يافا إلى أماكن أخرى.

(جـ) ولم يكتف الإنجليز بتسليم (حيفا) و (يافا) لليهود ، بل سلموا لهم أيضا قبل الموعد المقرر مدينتى (صفد وطبرية) ومنحوهم بسخاء الأسلحة، التى تركوها عند مغادرتهم لتلك المدن ،وكانوا يقاتلون معهم فى كل معركة.

واستمرت المعارك على أشدها بين جيش الجهاد المقدس، وبين اليهود فترة طويلة. وعندما عجز اليهود عن مواجهة المجاهدين فى الميادين المكشوفة ، أخذوا يعتدون على الأطفال والنساء ، ومن أشهر القرى التى ذهب عدد كبير من أفرادها ضحية الغدر الصهيونى (قرى دير ياسين وقبية وكفر قاسم) وغيرها من القرى.

وفى يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ م أعلن (بن جوريون) عن مولد دولة إسرائيل- وبعد ذلك بقليل كانت أمريكا أول دولة تعترف بها، وفى نفس هذا اليوم أعلنت الدول العربية الحرب ـ الرسمية على إسرائيل، واتخذت هذه الحروب مراحل أربعا.

(أ) المرحلة الأولى : ابتدأت من يوم دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ م وانتهت فى أول يوم من أيام الهدنة الأولى فى ١١ يونيو

١٩٤٨ م وفى هذه الفترة كان النصر حليف الجيوش العربية ، فقد استطاعت أن تتوغل فى مستعمرات إسرائيل، وبعضها كان على بعد بضعة أميال من (تل أبيب) عاصمة إسرائيل ، ولو استمرت الحرب على هذه الحال لرفعت إسرائيل راية التسليم خلال أسبوع.

(ب) **أما المرحلة الثانية** : فبدأت من يوم انتهاء الهدنة الأولى فى ٩ يوليو سنة ١٩٤٨ م وانتهت عند قبول الهدنة الثانية فى ١٨ يوليو سنة ١٩٤٨ م ، وفى هذه المرحلة رجحت كفة اليهود بسبب مأساة تسليم (اللد والرملة) وعدم توحيد العمل الحربى ضد اليهود، الذين أمدوا من الإنجليز خلال الفترة الأولى من الهدنة بالكثير من الأسلحة . . .

(جـ) **والمرحلة الثالثة** : من الحرب بدأت يوم خرق اليهود الهدنة فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٨م واعتدوا على القوات المصرية فى جنوب فلسطين، ودامت تلك المعركة متقطعة حتى ٧ يناير سنة ١٩٤٩ م يوم قبلت مصر مباحثات هدنة جديدة مع اليهود فى (رودس) ثم تبعتها دول أخرى، فاوضت اليهود وعقدت معهم هدنة.

(د) **أما المرحلة الرابعة** : فقد تمت فى شهر مارس سنة ١٩٤٩ م وفيها قام الجنرال (جلوب) قائد الجيش الأردنى فسلم لليهود الجزء الجنوبى من النقب ،ويقع رأسه الجنوبى على خليج العقبة حيث ميناء (أم الرشراش) الذى تسلمه اليهود من جلوب وفصلوا الوطن العربى فى آسيا عن الوطن العربى فى إفريقيا لأول مرة فى التاريخ.

والآن وبعد هذا الاستعراض الموجز لتاريخ ولمراحل الغزو الصهيونى لفلسطين - وبعد أن هزمنا هزيمة منكرة لا مثيل لها، ولحقنا الذل الذى لم تشهد له الأمتان الإسلامية والعربية نظيرا . . نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧ - لنا أن نتساءل :

ما الأسباب الرئيسية لكارثة فلسطين ؟ وكيف نعيدها إسلامية عربية ؟ للإجابة على الشطر الأول من هذا السؤال نقول :

إن من أهم الأسباب التى أدت إلى كارثة فلسطين، وإلى خسارتنا فى الحرب ما يأتى:

١ - ضعف الوازع الدينى فى نفوس الكثيرين من المسلمين ، أدى بهم إلى فساد الأخلاق، وانحلال العزيمة، وفتور الشهامة والغيرة ، والتفريط فى أداء فرائض الله،والتعدى لحدوده ، وعدم التفكير إلا فى متع الحياة الدنيا وزينتها، وعدم المبالاة

بما ينزل بالأمة الإسلامية من نكبات ، وقد رأينا الكثيرين ممن ينتسبون إلى الإسلام لا يعيرون كارثة فلسطين أى اهتمام.

٢ ـ الغفلة الشديدة عن تعرف مواطن الخطر المحيط بالأمة الإسلامية من جراء تسرب الصهيونية العالمية، وغزو للأرض المقدسة، وعدم معالجة هذا الخطر منذ البداية بالجد والحزم ، والجهل بما تبيته الصهيونية العالمية للأمة الإسلامية، من أحقاد دفينة وشرور كبيرة، وبلغ من استخفاف بعض العرب بالخطر اليهودى، ومن وهنهم وخورهم خلال مقابلاتهم الرسمية للمسئولين الإنجليز والأمريكيين بشأن قضية فلسطين، أنهم كانوا يقفون منها موقف الوسطاء المترددين الخائرين، على حين كان زعماء اليهود فى مثل هذه المقابلات يظهرون أقصى التطرف والشدة، ومنتهى الجد والعزيمة والصلابة.

وقد اغتر بعض المسئولين من العرب بخداع الإنجليز الذين أوهموهم أن اليهود لن ينالوا من فلسطين سوى منطقة صغيرة، واستطاعوا بوسائلهم المتنوعة أن يملكوا عليهم أمرهم، وأن يجعلوهم يعالجون قضية فلسطين بالكلام الأجوف ... وأن يحملوهم على إبعاد العناصر المؤمنة المخلصة عن الاشتراك فى الدفاع عن فلسطين بحجة أنهم مغالون وبعيدون عن الحكمة والكياسة.

٣ ـ الجهود المادية والأدبية التى بذلها العالمان: العربى والإسلامى فى سبيل بقاء فلسطين عربية إسلامية ، أقل بكثير من الجهود التى بذلتها اليهودية العالمية لتهويد فلسطين واستلابها من أيدى أصحابها الشرعيين ... وعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى ما جمعه اليهود من أموال فى سبيل السيطرة على فلسطين لوجدناه أضعاف ما جمع من العالمين الإسلامى والعربى، من أجل الدفاع عن الأرض المقدسة. ولقد لفت هذا الشح الشديد أنظار بعض الأجانب، فقد سأل المستر (كروسمان) عضو مجلس العموم البريطانى ، أحد أصدقائه العرب المسلمين قائلا : هل فى الدين الإسلامى ما يمنع التعاون بين المسلمين؟ فأجابه صديقه بالنفى ، وسأله عن السبب فى هذا السؤال، فقال (كروسمان) : إذًا لماذا لا يساعد بعضكم بعضا، ولا تبذلون شيئا حتى للاجئين المشردين ..؟[١]

٤ ـ من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة العرب فى حرب فلسطين تفرق

---

(١) حقائق عن قضية فلسطين ص ١٧٣ إصدار الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين سنة ١٩٥٤م.

قيادتهم، وعدم خضوعها لرأى يدير المعركة بحزم وإخلاص وكفاءة ، فقد خاضت الجيوش العربية المعركة بقيادات متفرقة، وسياسات متخاذلة مترددة، ولم يقاتلوا صفا واحدا، كأنهم بنيان مرصوص، وبذلك ضاعت الفرصة من أيديهم فى الانتصار على عدوهم.

ومما لا شك فيه أن الجيوش العربية عندما دخلت معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ م ـ وفيما بعد هذا التاريخ من معارك ـ كانت أقوى عدة، وأكثر عددا من اليهود، ولكن هذه القوة والكثرة لم تجدا من يقودهما لإنقاذ فلسطين بأمانة وحماسة وإخلاص .. بل بالعكس وجدت من يتآمر عليها ،ويمزق صفوفها ، ويمكن عدوها منها، ولئن قيل بأن الجيوش العربية كانت موحدة ، فإن هذا القول مردود بأن هذا التوحيد كان شكليا ،وأن ضرره كان أكبر من نفعه.

ولقد صرح (بن جوريون) رئيس وزراء إسرائيل بأن انتصارهم فى معركة فلسطين مرده إلى حسن سياستهم، وليس إلى قوتهم الحربية ، فقد قال فى خطاب له فى الكنيست اليهودى :« نحن مدينون بنجاحنا فى إقامة دولة إسرائيل بـ ٩٧٪ للسياسة وبـ٣٪ للحرب والجيش فقط »(١).

٥ ـ وأيضا من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة الحرب فى فلسطين توقيع الهدنتين: الأولى والثانية بين العرب واليهود نتيجة ضغط انجلترا وأمريكا على بعض الدول العربية، فقد كان العرب فى أول الأمر يقفون موقف المنتصر الظافر ، لأن الجيش المصرى كان موغلا فى التقدم نحو (تل أبيب) والجيش العراقى كان على بعد أميال منها، والجيش الأردنى كانت (اللد والرملة) تحت يده ... وكان اليهود فى القدس فى أسوأ حال بعد أن ضيق المجاهدون عليهم الخناق... حتى لقد رفعوا الرايات البيضاء رمزا لاستسلامهم ... أما يهود (حيفا) فقد وسطوا بعض العرب لمفاوضة الجيش العراقى على التسليم ... وفى (تل أبيب) كان اليهود فى ذعر وفزع، حتى لقد طالبوا زعماءهم بالتسليم العاجل ، فاضطر (بن جوريون) رئيس وزراء إسرائيل حينئذ أن يخطب فيهم قائلا : « إن لدى وعدا قاطعا من انجلترا وأمريكا بأن الهدنة ستعقد خلال ثلاثة أيام، فإذا لم يتم ذلك فتعالوا فاشنقونى هنا »(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٠ . (٢) المصدر السابق ص ١٨٠ .

وفعلا قبل أن تمضى ثلاثة أيام على خطاب (بن جوريون) تمت الهدنة الأولى التى حصلت فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨، وخلال الهدنة الثانية التى أبرمت فى ١٨ يوليو سنة ١٩٤٨ م أتيح لهم خلال هذه الفترة أن يتداركوا ما كان ينقصهم من السلاح والعتاد ، وأن يفكوا الحصار عن يهود القدس ، وأن يتمكنوا ـ عن طريق عملائهم ـ من إجبار الفوج العراقى على الانسحاب بعيدا عن مواقعه، وأن يجعلوا يهود (حيفا) يعدلون عن التسليم، وأن يسحبوا القوات الأردنية من (اللد والرملة) . والخلاصة : أنهم استطاعوا خلال فترتى الهدنة أن يقلبوا الوضع رأسا على عقب ، ولو أن زعماء العرب وقادتهم رفضوا الهدنتين رفضا تاما، واستمروا على القتال مهما كانت الظروف، لما تمكن اليهود مما تمكنوا منه بعد ذلك.

٦ ـ الذين اشتركوا فى الدفاع عن فلسطين من الجيوش العربية، ومنظمات المتطوعين دافعوا عنها ـ فى مجموعهم ـ بدافع النعرتين : الوطنية والسياسية ولم تكن الحماسة الدينية لفلسطين تملأ قلوبهم، وتفيض بها عواطفهم ومشاعرهم، وتسيطر على سلوكهم وأخلاقهم ، بينما اليهود يعتبرون حروبهم فى فلسطين إنما هى حروب دينية محضة ، وأن موتهم على ترابها شرف لهم ، وقد استغلوا هذه النواحى الدينية فى التأثير على الإنجليز والأمريكان؛ ليساعدوهم فى بلوغ غايتهم وإسكانهم فى فلسطين، التى وهبها الله لهم وحدهم وعن طريق هذه الدعاية الدينية اليهودية جمعت الصهيونية العالمية مئات الملايين من الدولارات أنفقتها فى فلسطين ، كما أنها عن طريق هذه الدعاية سخرت لخدمتها رجال الدين فى انجلترا وأمريكا وغيرهما من دول الكفر.

٧ ـ هذه الأسباب التى سقناها هى ـ فى مجموعها ـ أسباب داخلية لكارثة فلسطين، وهناك أسباب خارجية من أهمها:

تلاقى أهداف الاستعمار البريطانى، ومصالحه مع مصالح اليهود فى القضية الفلسطينية، ثم انضمام أمريكا إليهما فى أوائل هذا القرن ، وذلك لأن الاستعمار يرمى إلى ما يأتى :

(أ) جعل الدولة اليهودية فى فلسطين متكأ له ، وخنجرا مسموما يشهره فى وجه الدول العربية، كلما أحس منها تمردا عليه، ومقاومة له.

(ب) اتخاذ الوطن اليهودى حاجزا يفصل به الأقطار العربية فى آسيا، عن الأقطار العربية فى إفريقيا، ويقطع كل صلة برية بين هاتين القارتين.

(جـ) اتخاذ اليهود عائقا دون تقدم الأمة العربية فى أقطارها الواسعة، والتى تقع فى أهم مراكز العالم التجارية والجغرافية والعسكرية والتى يزداد عدد سكانها زيادة مستمرة . . والتى يريد الاستعمار أن يجعلها دائما تحت سيطرته واستغلاله.

هذا ومحاولات الاستعمار لوجود دولة غريبة فى قلب العالم العربى ليست وليدة سنوات قريبة ، بل هى محاولات مضت عليها عشرات السنين.

ففى سنة ١٩٠٧ م تولى (كامبل بنرمان) رئاسة الوزارة البريطانية فقام بتشكيل لجنة مكونة من بعض علماء التاريخ ، ورجال القانون والسياسة ، من عدة دول ، ووجه خطابا إلى تلك اللجنة حدد فيها مهمتها ومما جاء فيه:

« إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تنحل رويدا رويدا وتزول والتاريخ ملىء بمثل هذه الأمثلة وهى لا تتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين . وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها. فهل لديكم وسائل يمكن أن تمنع سقوط إمبراطوريتنا أو تأخر مصير الاستعمار الأوروبى بعد أن بلغ الآن الذروة .... »؟

وبعد أن ظلت هذه اللجنة سبعة أشهر فى دراسة وبحوث.. قدموا تقريرا إلى وزارة المستعمرات البريطانية ومما جاء فيه قولهم : « إن الخطر ضد الاستعمار فى آسيا وفى إفريقيا ضئيل ، ولكن الخطر الضخم يكمن فى البحر المتوسط ..» وبناء عليه:

« فعلى الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وإبقاء شعوبها على ما هى عليه من تفكك وتأخر وجهل... وعليها - أيضا - ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقى فى هذه المنطق عن الجزء الآسيوى . وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشرى قوى ، غريب يمثل الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقيا ، حيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة .. ».

وأخذت بريطانيا تبحث عن هذا الحاجز البشرى الغريب الذى يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقيا ... فهداها تفكيرها إلى اختيار اليهود لتوجد منهم دولة فى فلسطين تكون قوة صديقة لها ، وعدوا لسكان المنطقة، ومنذ ذلك التاريخ ، وبعد أن خضعت فلسطين للانتداب البريطانى أخذ الإنجليز يسعون لجعل

فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وطوال مدة الانتداب، وبريطانيا تعمل على وضع فلسطين فى حالات سياسية واقتصادية وإدارية، تسهل إنشاء الوطن القومى لليهود ـ كما فصلنا ذلك من قبل.

ثم انضمت إليها بعد ذلك دول الكفر وخصوصا أمريكا ، التى بذلت جهودا جبارة لإنشاء دولة لليهود فى فلسطين، وأنفقت فى سبيلها مئات الملايين من الدولارات.

وبهذا نرى أن سلب فلسطين من أهلها ، وإعطاءها بالخديعة والغدر لليهود، كان هدفا من أهداف انجلترا ، لتوطيد نفوذها فى الأقطار العربية والإسلامية.

ننتقل بعد ذلك إلى الإجابة عن الشق الثانى من السؤال، وهو : كيف نعيد فلسطين إسلامية عربية؟ فنقول:

١ ـ يجب علينا أن نعلم أن حربا فاصلة ستقع بين المسلمين واليهود، وأن النصر فيها سيكون للمسلمين ، مادامو معتصمين بدينهم ؛ ومنفذين لتعاليم قرآنهم، وعاملين بسنة نبيهم ، فقد أخرج البخارى، ومسلم، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « تقاتلون اليهود حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر فيقول : يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله »[١].

وفى حديث آخر للشيخين، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر أو الشجر،فيقول الحجر أو الشجر:يا مسلم،يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ، إلا الغرقد[٢] فإنه من شجر اليهود »[٣].

فهذان الحديثان الصحيحان فيهما إخبار للمسلمين بأن قتالا عظيما سيقع بين المسلمين واليهود قبل قيام الساعة، وأن النصر سيكون للمسلمين ، متى استجابوا للأوامر، التى أمرهم الله بها، وأن الله تعالى سيكرمهم بأن يخبر الحجر أو الشجر المسلم بأن يهوديا وراءهما فعليه أن يقتله.

---

(١) أخرجه البخارى واللفظ له فى (باب قتال اليهود) ـ جـ ٤ ص ٥٦ وأخرجه مسلم فى كتاب « الفتن وأشراط الساعة » جـ ٤ ص ٢٢٢٩.

(٢) الغرقد : شجر معروف ينبت فى بلاد الشام.

(٣) أخرجه البخارى فى باب فضائل الجهاد جـ ٤ ص ١ ، وأخرجه مسلم ـ واللفظ له ـ فى كتاب الفتن ـ جـ ٤ ص ٢٢٢٩ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى.

٢ ـ يجب علينا أن نوقن بأن الأيام دول، وأن ما أصابنا بفلسطين من الممكن تداركه ، متى تحلينا بالإيمان الصادق ، وبالعزم القوى، وبالتصميم على استعادة أرضنا المقدسة ، وباتخاذ الوسائل الكفيلة بذلك .

لقد سقطت بلادنا المقدسة فى أيدى المعتدين أكثر من مرة ثم استطعنا بفضل الله ومعونته أن نستردها منهم : بل إن عشرات الأمم كانت رازحة تحت سلطان الاستعمار عقب انتهاء الحرب العالمية الأخيرة، ثم استطاعت بعد ذلك أن تنال حريتها وكرامتها .

إن نكبة فلسطين قد نبهت المسلمين إلى الأخطار المحيطة بهم ، وعلمتهم دروسا كانوا غافلين عنها، وأطلعتهم على ما أضمرته الصهيونية العالمية، ودول الكفر من أحقاد وشرور ، ودفعتهم إلى العمل المثمر من أجل المحافظة على كيانهم وكراماتهم بعد أن ظلوا سنين طويلة يعيشون عيشة الذل والهوان .

٣ ـ يجب على الأمتين: الإسلامية والعربية، وأن توحدا قيادة المعركة وأن تسلماها لأيد أمينة مخلصة ، وأن تحوطاها بالتأييد إذا أحسنت واستقامت، وبالتوجيه والإصلاح والتقويم إذا أخطأت وضلت ، وأن تنأى بها عن الخلافات والمنازعات التى قد تحدث بين الزعماء والملوك والرؤساء . أريد أن أقول : إن إنقاذ فلسطين من السرطان الصهيونى ، يحتاج إلى جيش موحد القيادة، محدد الهدف، معد إعدادا كاملا قويا من جميع النواحي، مؤمنا بقدسية المعركة التى يخوضها ، بعيدا عن التأثر بخلافات السياسيين، الذين بيدهم مقاليد الحكم فى البلاد العربية . . .

وإن لنا فيما حدث فى معركة اليرموك وغيرها من المعارك الإسلامية لعبرا وعظات ، ففى هذه المعركة وجد خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ قوادها يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش، فجمع خالد هؤلاء القواد وقال لهم :

« إن هذا اليوم من أيام الله،لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا إلى الله تعالى بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده فلا تقاتلوا قوما على نظم وتعبئة، وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى .

قالوا :فما الرأى؟ قال: إن الذى أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم، وأنفع للمشركين من أموالهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فهلموا

فلنتعاود الإمارة فليكن علينا بعضنا اليوم وبعضنا غدا والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم ودعونى اليوم عليكم، فقالوا : نعم فامروه وهم يرون أنها كخرجاتهم - أى كغزواتهم الأولى - فكان الفتح على يد خالد يومئذ ».

٤ - يجب أن تبذل الأمتان : العربية والإسلامية قصارى جهدهما فى التذكير بقضية فلسطين، وأن تقوم وسائل الإعلام المختلفة فى كل دولة بالدعاية الواسعة لها، وأن يدرس تاريخها فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وأن توزع خريطتها وصور أماكنها المقدسة فى كل مكان ، وبذلك تبقى نكبة فلسطين حية فى القلوب والمشاعر . . .

إن هذا الجيل الذى عاصر مأساة فلسطين سوف ينقرض ،وستأتى بعده أجيال أخرى إذا لم نذكرها بهذه المأساة، ونربطها بقلوبهم دينيا وسياسيا وثقافيا واقتصاديا، فإنها ستصبح نسيا منسيا، ولن يمر وقت طويل حتى تختفى مأساة فلسطين من قلوبهم، كما اختفت مأساة الأندلس بمرور الأيام، وتعاقب السنين.

إن فلسطين هى من بلاد المسلمين المقدسة، ففيها المسجد الأقصى، الذى كان الإسراء إليه ، والذى هوأولى القبلتين ، والذى هو أحد المساجد الثلاثة، التى لا تشد الرحال إلا إليها، ففى الحديث الشريف : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى هذا ،والمسجدالحرام ،والمسجد الأقصى »(١)

وفى فلسطين كثير من المعابد والمقدسات ، ففيها قبور بعض الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود - عليهم الصلاة والسلام - وفيها قبور عدد كبير من الصحابة :كأبى عبيدة بن الجراح، وعبادة بن الصامت، والفضل بن العباس، وشداد بن أوس ، وغيرهم من الصحابة والتابعين، ولاشك أن بقعة من أرض المسلمين فيها كل هذه المقدسات جديرة بأن تكرر مأساتها على الأسماع ،فى كل زمان ومكان.

٥ - يجب أن تقف الأمتان : العربية والإسلامية من الدول التى ناصرت الصهيونية موقفًا قويًا حاسمًا ، وأن تستعملا أسلحتهما المتنوعة فى صرف هذه الدول عن مناصرتها الباطلة لليهود ، ومن أقوى الأسلحة، سلاح البترول الذى يوجد فى بلادنا بكميات هائلة ، والذى لو أحسنا استغلاله واستعماله، لكفت دول الكفر عن تأييدها للصهيونية الباغية ، ولن يأتى هذا السلاح وغيره بالثمار

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وابو داود والترمذى.

المرجوة منه ، إلا إذا وحد العرب كلمتهم ،ووقفوا صفا واحدا أمام مؤامرات الاستعمار واليهودية العالمية.

٦ - يجب أن تعمل الدول العربية والإسلامية على تقوية (الفدائيين الفلسطينيين) من كل النواحى ، وأن تختارهم من العناصر المأمونة والمؤمنة بربها وبدينها وبوطنها ... وأن تعطيهم من الامكانات ما يجعلهم يستطيعون أن يزلزلوا كيان الصهيونيين ، عن طريق (حرب العصابات) لأن هذه الحرب من شأنها أن تهدد أمن إسرائيل، واستقرارها واقتصادها، وجميع مرافقها.

وتكون هذه الحرب كمقدمة للمعركة الفاصلة التى يجب على الأمة الإسلامية أن تخوضها ضد إسرائيل حتى تطهر الأرض المقدسة من اليهود.

ولقد اتبعت عدة دول طريقة (حرب العصابات) ضد المستعمرين فانتصرت عليهم فى النهاية ، واستطاعت أن تنال حريتها رغم أنوفهم ، وخير مثال لذلك (الجزائر) دولة المليون شهيد ، فإنها قامت بهذه الحرب ضد فرنسا حتى أجبرتها على الرحيل عن بلادها.

٧ - يجب أن نخوض معركة فلسطين المقبلة على أساس من الجهاد الدينى، وليس على أساس النعرة الوطنية وحدها ، وذلك لأن فلسطين بلد إسلامى مقدس كما قلنا سابقا ، وهى ملك لجميع المسلمين ، وواجب الذود عنها فرض على كل مسلم على وجه الأرض.

واليهود قد استغلوا الناحية الدينية على أوسع نطاق؛ لتثبيت باطلهم فى فلسطين بحيث أفهموا دول الغرب - وخصوصا انجلترا - أن فلسطين هى أرض معادهم،وأن أرضها لهم وحدهم بنص التوراة .. بينما العرب المسلمون أسقطوا هذا الجانب الدينى المهم من حسابهم .. فخاضوا معركة فلسطين باسم النعرات الوطنية والقومية، وسخر بعض كتابهم بالنواحى الدينية... فكان مصيرهم الفشل.

ونحن لا ننكر أثر القومية المادية فى النجاح ، ولكن الذى ننكره أشد الإنكار هو الاعتماد عليها وحدها دون أن يقام للجانب الروحى أوالخلقى أى حساب.

إن الذين لا يهتمون بالناحيتين :الدينية والخلقية ، لن تكون العاقبة لهم ،ولو ملكوا أقوى قوة فى الأرض ، ولقد اعترف (الميثاق) بأهمية الطاقات الروحية والدينية، ومما جاء فيه بهذا الشأن:

« على أنه يتعين علينا دائمًا أن نذكر أن الطاقات الروحية، التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا، النابعة من أديانها السماوية أو من تراثها الحضارى، قادرة على صنع المعجزات . إن الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى أعظم القوة الدافعة. كما أنها تسلحها بدروع من الصبر والشجاعة تواجه بهما جميع الاحتمالات، وتقهر بهما مختلف المصاعب والعقبات ، وإذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة، فإن الحوافز الروحية والمعنوية هى وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا ، وأشرف الغايات والمقاصد.

٨ ـ يجب على الأمة العربية الإسلامية (قبل ذلك وبعد ذلك) ؛ إذا أرادت أن تعيد فلسطين ، أن تعود هى إلى تعاليم الإسلام فتطبقها على نفسها تطبيقا كاملا وأن تحارب الرذائل فيها، وأن تقيم حياتها وسلوكها ونظمها ومعاملتها على وفق تعاليم الدين الحنيف، وأن تعد العدة الكاملة لقتال عدو الله وعدوها، إذا فعلت ذلك ، فإن النصر سيكون حليفها ، والآيات الكريمة التي تشهد بذلك أكثر من أن تحصى منها قوله تعالى : ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ .

ومن وصايا سيدنا رسول الله ﷺ لأمته فى شخص ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك . . . » .

وقد وصى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سعد بن أبى وقاص، فقال له :

« أما بعد : فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوفينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة.

واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا

منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله، وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس: ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم. . . »[1].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٠ : ٤٩.

الخطر اليهودى

الرئيس الأمريكى « فرانكلين » يحذر الولايات المتحدة من الخطر اليهودى فيقول [1] :

« أيها السادة : هنالك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية وذلك الخطر هو (اليهود).

أيها السادة : حيثما استقر اليهود ، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف ، إنهم لا يندمجون بالشعب ، لقد أقاموا حكومة داخل الحكومة . وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا . .

إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور ، ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة، تجعلهم يحكموننا ويدمروننا، ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا . .

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة إلى الولايات المتحدة ، فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ، ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود .

إنى أحذركم - أيها السادة - إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد ، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال ، كما أن النمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على البلاد، وإذا دخلوها فسوف يخربونها ويفسدونها ».

---

(١) من خطاب ألقاه بمناسبة الاحتفال بعيد الدستور سنة ١٧٨٩ م.

كتب المؤلف

رقم الايداع : ٩٧/١١٧٤٣

I.S.B.N. : 977 - 09 - 0401 - 5

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

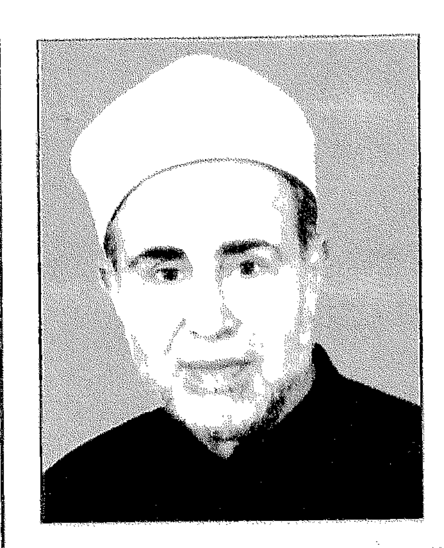
... والقرآن الكريم في حديثه عن بني إسرائيل، يربط ربطا محكما بين طباع وأخلاق المعاصرين منهم للنبي ﷺ وطباع وأخلاق آبائهم الأولين الذين عاصروا موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وذلك ليبين أن ما عليه الأبناء من فسوق وعصيان ومحاربة لدعوة الإسلام، إنما هو ميراث من الخلق السيئ توارثه الخلف عن السلف وأخذه الأبناء عن الآباء.

ومن الأدلة على صدق القرآن الكريم أن ما وصفهم به من صفات نراها في كل زمان ومكان منطبقة عليهم، ولم تزدهم الأيام إلا رسوخا فيها.

فمثلا صفة الحرص على الحياة نراها متمثلة فيهم في كل الأوقات والعصور.

ونحن المسلمين قد نالنا من اليهود أذى كثير.. فهم الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بكل سلاح... وهم الذين اغتصبوا ـ بمعاونة دول الكفر ـ بقعة من أرضنا المقدسة ـ وهي فلسطين ـ وأقاموا عليها دولة لهم في عام ١٩٤٨م.

وقد كتب الكاتبون ـ وخصوصا بعد هذا التاريخ ـ مئات الكتب والبحوث والمقالات عن اليهود وعن فلسطين، إلا أن معظم ما كتبوه ينصب على الجوانب السياسية والتاريخية، والاقتصادية والعسكرية.. أما الجانب الديني فما زال في حاجة إلى الكتابة العلمية الرصينة التي تستمد حديثها عن اليهود من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ.



فضيلة الإمام الأكبر
د. محمد سيد طنطاوي
شيخ الجامع الأزهر